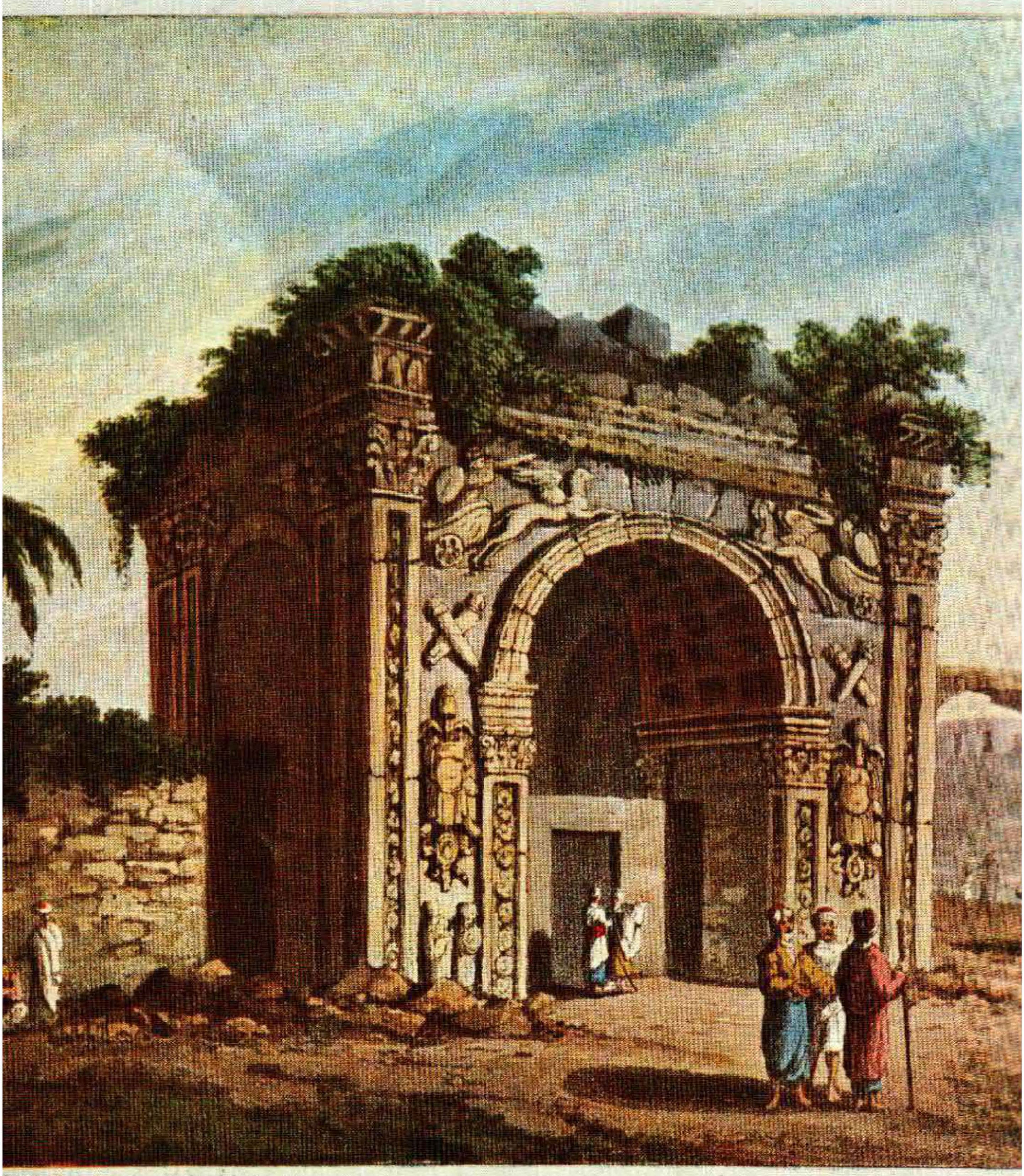
عشرة أعوام في طرابلس



تأليف
الآنسة توللي

دار ليبيا
للنشر والتوزيع
بنغازي

ترجمة
الدكتور عبد الجليل الطاهر



سيدي حسين بك بن علي القرمانلي

NARRATIVE OF

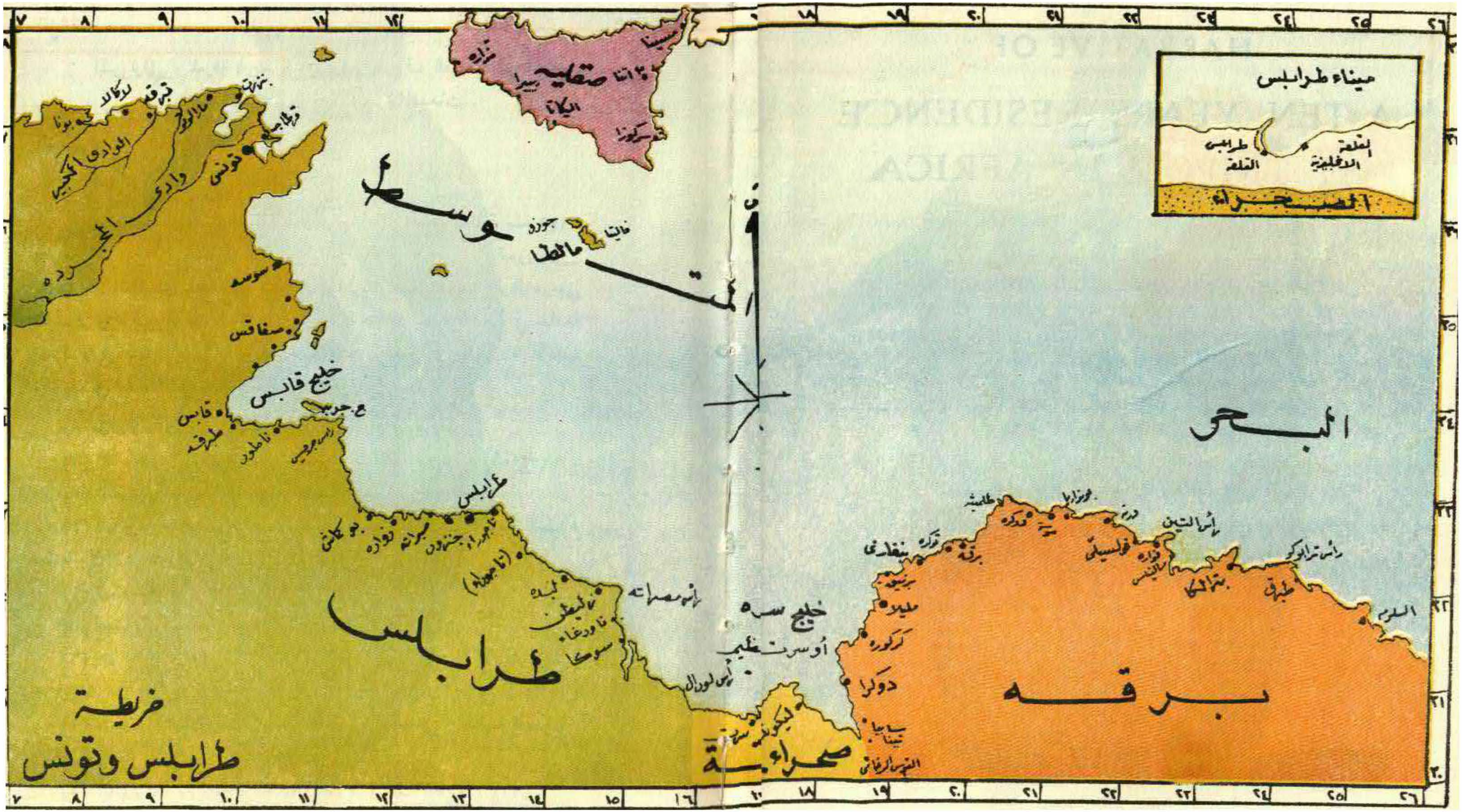
A TEN YEARS' RESIDENCE AT TRIPOLI IN AFRICA

FROM THE ORIGINAL CORRESPONDENCE
IN THE POSSESSION OF THE FAMIlY OF THE
LATE RICHARD TULLY, ESQ. THE BRITISH
CONSUL

An Accouut of the Domestic manners of

THE MOORS, ARABS AND TURKS

1967


خريطة
طرابلس وتونس
البحر المتوسط
البحر
طرابلس
برقه
صحراء ليبية
صقلية
مالطا
جوزو
خليج قابس
خليج سره
ميناء طرابلس
الصحراء
تونس
سوسه
سفاقس
قابس
طرابلس
بنغازي
درنه
طبرق
السلوم
وادي المجرده

المؤلفة :

المس تولي - لمعرفة تاريخ حياتها والظروف الغامضة التي أحاطت بشخصيتها - راجع التمهيد والمقدمات .

المترجم :

الدكتور عبد الجليل الطاهر .

ولد في مدينة القرنة – العراق – وتخرج من دار المعلمين العالية سنة ١٩٤٦ بدرجة امتياز ، والتحق بعضوية البعثة العراقية في باريس – السوربون ١٩٤٧، ثم انتقل الى جامعة شيكاغو – امريكا سنة ١٩٤٩ ، ونال درجتي الماجستر والدكتوراه منها وبدأ بالتدريس سنة ١٩٥٢ بكلية الأداب في جامعة بغداد ثم في كلية الآداب في الرياض سنة ١٩٦٣ وأخيراً في كلية الآداب والتربية في الجامعة الليبية منذ سنة ١٩٦٤ .

وله مؤلفات من أهمها :

(١) المشكلات الاجتماعية في حضارة متبدلة ، مطبعة الحكمة، ١٩٥٣ .

(٢) التفسير الاجتماعي للجريمة، مطبعة الرابطة، ١٩٥٤ .

(٣) البدو والعشائر في البلاد العربية ، معهد الدراسات العربية العليا ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

(٤) اصنام المجتمع ، مطبعة الرابطة ، ١٩٥٦ .

(٥) العشائر والسياسة ، مطبعة الزهراء، بغداد ، ١٩٥٨ .

(٦) علم الاجتماع، بالاشتراك مع الدكتور علي شلتوت ، الاسكندرية ، ١٩٦٤ .

(٧) مسيرة المجتمع ، بحث في نظرية التقدم الاجتماعي ، المطبعة العصرية، ١٩٦٧ .

(٨) ايديولوجيا ويوتوبيا ، المطبعة العصرية (تحت الطبع) ١٩٦٨ .



عشرة اعوام
في طرابلس

منشورات الجامعة الليبية

عشرة أعوام في طرابلس

١٧٨٣-١٧٩٣

تتضمن المذكرات الاصلية والقصص النادرة عن الباشا الوالي
القرماني في طرابلس وأفراد أسرته وبعض الوجهاء والأشراف
ووصفا للعادات والأخلاق والتقاليد المحلية للبربر والعرب والاتراك

تأليف
الآنسة توللي
قريبة القنصل الإنجليزي سابقا
ريشارد توللي

ترجمة
الدكتور عبد الجليل الطاهر
أستاذ علم الإجتماع
بكلية الآداب والتربية
الجامعة الليبية

١٩٦٧

الإهداء

إلى الجامعة الليبيّة

رمزاً للوفاء والتقدير

الطاهر

تمهيد

منذ أكثر من مائة وأربعة وثمانين عاماً دخلت مرفأ مدينة طرابلس سفينة تحمل القنصل الإنجليزي المستر ريتشارد توللي ومعه اسرته التي كانت تضم السيدة زوجته وابنتيه اللتين سبق وأن تعلمتا اللغة العربية وولدتا في طرابلس نفسها ، لأن القنصل المذكور يعود إليها ليمثل بلاده للمرة الثانية طوال فترة استغرقت عشرة أعوام (١٧٨٣ — ١٧٩٣) في بلاط الأسرة القرمانلية التي كانت تحكم البلاد آنذاك . إلا أن المستر توللي في هذه المرة اصطحب معه شقيقته التي أوكلت إليها مهمة خاصة ، تتطلب منها أن تسجل بأمانة كل ما تلحظ عيناها وتسمع أذناها من أحداث ووقائع ، وتقاليد ، وأخلاق ، وتبعث بكل ما تدونه على شكل رسائل تودعها حقائق واقعية مضافاً إليها تعليق منها ، خليط لطيف من عواطفها وأحاسيسها . فجاءت كل رسالة منها صورة واقعية أحياناً تجمع خطوطها تاريخاً طويلا يتغلغل في أعماق الماضي ؛ وأحياناً تطلعات وتوقعات عن المستقبل الذي ينتظر ولاية طرابلس والأسرة القرمانلية لهذا كانت الرسائل خصبة وغنية بما تضمنته من تعليقات عن الماضي وتنبؤات عن المستقبل . كانت المهمة التي أوكلت إليها واضحة كل الوضوح ؛ لهذا السبب كانت لا تعبأ أبداً بالمتاعب والمشاق في سبيل الحصول على معلومات ولا أريد بهذا التمهيد المختصر أن أستعجل القارىء الكريم فأقدم له خلاصة عن الكتاب ، فقد قام بهذا الجهد المشكور كل من الأستاذ الفاضل مصطفى

عبد الله بعيو مدير الجامعة الليبية في مقدمته للترجمة العربية والمستر ديردن في مقدمته للطبعة الإنجليزية ، ولكني آثرت الحديث عن بعض النقاط المهمة وهي :

١ ــ منهج البحث

بالرغم من أن الآنسة توللي ليست مدربة تدريباً علمياً على الدراسات الأنثروبولوجية الإجتماعية في زمنها إلا أنها نصت بكل صراحة على أهم مناهج البحث الحديثة المطبقة في علم الإجتماع والأنثروبولوجيا وأتبعتها في جمع الحقائق والمعلومات وهي :

أ ــ الإسهام المباشر والمشاركة الوجدانية : كانت الحقائق والمعلومات التي جمعتها الآنسة توللي مستمدة أولا من خبراتها الشخصية بالأشياء والمواضيع وبتقاليد الأعراب والبربر والأتراك وعادات الأقليات في طرابلس مثل النصارى واليهود ، وبذلك تعتبر معلوماتها أولية وأساسية مصدرها الخبرة النابضة بالحياة . لقد خبرت الحياة في مدينة طرابلس مدة عشرة أعوام . فعملت على إقامة العلاقات والروابط الصميمة الوثيقة مع أفراد الأسرة القرمانلية ، ولو أنها مع البعض كانت علاقات تلقائية ، ومباشرة وصميمة ، بينما مع آخرين علاقات طارئة ومؤقتة وثانوية . فوثقت في شخصها الأسرة القرمانلية وأحاطتها بالرعاية والإهتمام ، وكان كل فرد فيها يتمنى أن تزوره في حجرته ليكشف لها عن مكنونات قلبه ويطلعها على كل ما كان يدور بين جدران القلعة . فكانت تستمع وتنصت بصورة عجيبة ، تستميل المتحدث ليبوح بكل أسراره . كانت الآنسة توللي ذات شخصية جذابة ، لها قدرة ممتازة على الإنصات وقلة الكلام فهي ليست ثرثارة لجوجة . كانت تنتزع الآراء من ألسنة أصحابها بطريق ودي وغير مباشر ، كانت تزور أفراد الأسرة القرمانلية في مناسبات عديدة : الزواج والولادة والأعياد والوفاة وغيرها ،

وبنفس الوقت تزور الوجهاء والأشراف والنصارى واليهود . وكانت بهذا الإسهام المباشر تعقد المقارنات بين الأعراب والبربر ، بين النصارى والمسلمين بين البدو وسكان المدينة ، بين عادات الرجال وعادات النساء ، ولكن بعد أن تتأكد عن طريق خبرتها الشخصية . نتيجة لذلك جاءت معلوماتها دقيقة وواقعية من جهة ، واندمجت كل الإندماج في البيئة الإجتماعية الطرابلسية حتى نقلتها المشاركة الوجدانية من مستوى الباحث الملاحظ المشاهد إلى جزء متكامل ومتناسق من المجتمع الطرابلسي ، فكانت لا تكتم أبداً ألمها عندما كان الطرابلسيون يواجهون المجاعة أو الطاعون أو الحرب الأهلية ، ولا تخفي فرحها عندما زالت آثار الطاعون والمجاعة مثلا — وبكلمة مختصرة حققت أعلى مراتب الإسهام المباشر والمشاركة الوجدانية — بحيث أنها تقمصت في شخصيتها كل ما هو طرابلسي .

ب — لما كانت معرفتها باللغة العربية محدودة ، على الأقل في البدء ، كانت تضطر في كثير من الأحيان وتلجأ إلى « المخبرين » لجمع المعلومات والحقائق حول الأحداث والأخلاق والتقاليد ، وبذلك تكون قد أكملت منهج البحث الأول — الإسهام المباشر — بالمخبرين . ومن حسن الصدف أنها لم تقتصر على عدد المخبرين في كل عملها وإنما كانت تختار الأشخاص الموثوق بهم من علية القوم ووجهائهم في بعض الأحيان أو من السيدات في داخل القلعة أو خارجها . بل حتى من عامة الناس الذين تحدثوا لها عن حياة الأولياء والمرابطين .

ج — المصادر الإنسانية : وأعني بها كل ما يمكن الرجوع إليه للتثبت من صحة ما لديها من معلومات مثل التاريخ الشخصي ، والقصص ، وقراءة الرسائل الشخصية وغيرها . كانت الآنسة توللي تستقصي أخبارها من التاريخ الشخصي لحظية إغريقية أو لأمير أو لتاجر أو لرقيق . وهكذا نجد كل رسالة من رسائلها عبارة عن دراسة لتاريخ

شخصية معينة ، ولكنها لا تقف عند حدود طرابلس في تاريخ الحياة ، وإنما ترجع إلى الوراء وتتعقب جذور الأحداث الشخصية في خارج حدود مدينة طرابلس فقد تصف بيع الرقيق الأبيض في تركيا او اليونان أو القفقاس لتلقي الضوء على تاريخ حياة سيدة أو تاجر . الحق أن المصادر الإنسانية التي اعتمدت عليها قد استثمرتها استثماراً جيداً ، فكانت رسائلها صوراً كاملة ومترابطة .

د — المقارنة : أفادت الآنسة توللي من تطبيق طريقة المقارنة فائدة كبرى — ففي كثير من وصفها للتقاليد والعادات كانت تقارن بين الفئات العربية والتركية والبربرية واليهودية والنصرانية ، وتبين أوجه الإختلاف والتشابه في الحضارة والدين والأزياء والطعام وأنماط الحياة وغيرها . وعندما كانت تصف طرائق معالجة وباء الطاعون تقارن بين طرابلس ومصر والقسطنطينية ، وحين تتحدث عن معاملة اليهود والنصارى تقارن بين طرابلس والجزائر ومراكش وغيرها ، بل في بعض الأحيان كانت تقارن بين ما كان يجري في طرابلس والحياة في الدول الأوروبية — وبهذه المقارنة يستطيع القارىء أن يحصل على كثير من الحقائق .

٢ — الإطار التاريخي للظواهر الإجتماعية

يمكن القول بأن الآنسة توللي كانت تتخذ من الإطار التاريخي أداة لوصف الظواهر الإجتماعية من تقاليد وعادات وأخلاق ، فلم تكن غايتها الأولى كتابة التاريخ ، لهذا كانت تفيد منه فقط لجعل الصور الإجتماعية التي تقدمها واقعاً حياً فتربطه إذن بإطارها التاريخي (الزمان والمكان) حتى لا تكون مجردة وعارية . كان كتابها دراسة حقلية في الأنثروبولوجيا وعلم الإجتماع ، أكثر منها في التاريخ ، بالرغم من أن المؤرخ الذي يعنى في دراسة تلك الفترة لا يستغني أبداً عنه . فلا يستغرب القارىء الكريم إذا وجد

في كثير من الأحيان أن أسلوب تدوينها للأحداث التاريخية لم يكن ملتزماً لمنهج البحث التاريخي الكلاسي التقليدي .

جعلت الآنسة توللي الإطار التاريخي وسيلة لإبراز المظاهر الأساسية للمجتمع الطرابلسي في تلك الفترة ، من حيث علاقات الحاكمين بالناس ، والصلات الإجتماعية بين مختلف الأجناس مثل البدو والأعراب والأتراك والبربر والنصارى واليهود ، وتشير أحياناً كثيرة إلى العلاقــات الدولية والمعاهدات والإتفاقيات ؛ ولكن الشيء الذي يهمها أولا وأخيراً ما كان يجري داخل مدينة طرابلس ، بل إن إشارتها للوضع الدولي تلقي الضوء على ما كان يفتعل في مدينة طرابلس .

٣ ـ الظروف التي ساعدت الآنسة توللي

لقد أتيحت للآنسة توللي فرص كثيرة في تلك الفترة لم تتح لغيرها ، جعلت قيامها بالمهمة التي أنيطت بها سهلة وملذة ؛ خاصة وإن الأحداث والوقائع المدهشة الغريبة وحب الفضول لديها ، وعلاقاتها الطيبة بالناس ـ كل هذه الحوافز دفعتها بدون كلل ولا ملل للإستمرار في تدوين رسائلها ، بالرغم من قساوة الجو ، وضيق المحيط الإجتماعي ومن الممكن تلخيص تلك الظروف بالنقاط التــالية :

أ ـ انصالها المباشر بالأسرة القرمانلية : لعل من أهم الأسباب التي مهدت الطريق للآنسة توللي لجمع معلوماتها هو اتصالها المباشر بالأسرة المالكة ، ويرجع الفضل في ذلك إلى أن أخاها المستر ريتشارد توللي القنصل الإنجليزي سبق لــه أن اشتغل قبل هــذه المرة قنصلا في طرابلس وقد توثقت بين الأسرة القرمانلية وأسرة القنصل الإنجليزي أواصر الصداقة ـ خاصة بين « اللالة الكبيرة » ـ زوجة والي طرابلس ـ وزوجة القنصل الإنجليزي ـ فأصبحت الآنسة توللي

معروفة حين تمشي في الطريق أو تدخل القلعة أو تزور إحدى العائلات . وهذا بالطبع امتياز لم يظفر به باحث قبلها . وهذا الإتصال المباشر جعلها عميقة الإطلاع على أسرار الأسرة القرمانلية — كل ما كان يدور على ألسنة النساء والخدم والجواري والأمراء بل والباشا نفسه . ومن حسن الحظ أنها لم تعلن بصراحة موقفها من المنازعات التي كانت تنشب بين أفراد الأسرة القرمانلية . ولو أنها لم تتمالك نفسها في إبداء تعليقاتها ، بالطبع ، في رسائلها .

ب — كانت القنصلية الإنجليزية — بحكم عظمة الأسطول الإنجليزي آنذاك في البحر المتوسط من أكثر القنصليات احتراماً ورهبة — كان قناصل الدول الأخرى يلجأون إليها ، لا بسبب حصانة قلاع منزلها فحسب ، وإنما قوة السفن الحربية التي كانت تزور مرفأ طرابلس بين فترة وأخرى وفوهات مدافعها مصوبة نحو الساحل . بل إننا نجد من خلال الرسائل أن الأمراء كثيراً ما كانوا يتوددون إليها . يضاف إلى ذلك شخصية المستر ريتشارد توللي نفسه وعلاقاته الكثيرة بالأسرة القرمانلية وبالناس في طرابلس .

ج — شخصية الآنسة توللي نفسها — التي كانت تفتح أمامها الأبواب المغلقة وتدخل إلى حجرات العرائس والأميرات واللالة الكبيرة ونساء التجار والوجهاء — أقول لا بد وأن تكون جذابة وساحرة — وإني أوكد قدرتها على الإنصات الطويل والإنسان يتحدث إليها ، وعلى إقامة العلاقات الودية مع مختلف الطبقات والطوائف والديانات والإستفهام عن الحياة الخاصة لعدد من العائلات .

٤ — تحيزات الآنسة توللي وتعصباتها النفسية

يجدر بنا الإشارة إلى أهم التحيزات النفسية التي أثرت في كل ما حررت

الآنسة توللي من رسائل ، وفي الألوان المختلفة التي ظللت بها كلماتها وسطورها فجاءت في بعض الأحيان مثقلة بالعواطف والأحاسيس . وليس لدينا من اعتراض عليها إلا بمقدار ما حجبت العاطفة عنها رؤية الحقيقة أو بمقدار ما أخفى التعصب دوافعها الأساسية . لهذا وجب أن أطلع القارىء الكريم على أهمهـــا :

١) النصرانية والإسلام :

كان العالم بالنسبة للآنسة توللي في المرحلة التاريخية التي عاشتها منقسماً إلى قسمين ، أو معسكرين متناحرين ومتناقضين : عالم النصرانية وعالم ثانٍ الذي يضم بالطبع في رأيها عالم الإسلام ، وضمن إطار عالم النصرانية تضم كل الدول الأوربية مثل إنجلترا وفرنسا وهولنده وإسبانيا والبندقية ونابلي واليونان وغيرها ، وتضم إلى جانب ذلك كل الرعايا والرقيق والحظايا والجواري من الدول النصرانية . فهي لا يقر بها المقام إذا سمعت بتاجر بربري اشترى جارية إغريقية إلا أن تزورها وتطمئن على حسن معاملتها ، بل ولا تتمالك نفسها من إسداء النصح للتاجر أن يعامل جاريته بالحسنى ، وتستفسر منه فيما إذا كان مقرراً الزواج منها . لقد أثر هذا التقسيم الثنائي الديني على وجهات نظرها عن العالم . وكانت تتخذ من حسن معاملة الدول النصرانية ورعاياها معياراً للحكم على تقدم الأنظمة السياسية والإجتماعية في شمال إفريقيا وصلاحها ، وتقارن بين مدى ما حققته كل دولة بربرية ، وفي هذا المضمار تعتبر طرابلس في الفترة أكثر تقدماً من غيرها مثل الجزائر ومراكش وتونس . ونتيجة لهذا التقسيم تتحامل في بعض الأحيان على بعض التقاليد الإسلامية — إلا أنها تشير بكثير من الإحترام والتقديس في أحايين كثيرة للشعائر الإسلامية كالصلاة والصوم والحج وغيرها . إلا أن كاتب المقدمة الناشر الإنجليزي المستر ديردن أكثر منها تحاملا . وقد أبان ذلك بكل وضوح استاذنـــا

الفاضل الجليل مصطفى عبد الله بعيو مدير الجامعة الليبية في مقدمته لهذا الكتـــاب .

٢) **الأعراب :**

وبسبب تحيزها للنصرانية جعلت منها كما قلنا معياراً للحكم على أخلاق الأقوام وتقاليدهم ، وبما أن الأعراب كانوا آنذاك لا زالوا يتذكرون المآسي التي ارتكبها النصارى سواء في الحروب الصليبية أو في ذيولهـــا من فرسان القديس يوحنا ، فكانت صلاتهم غير ودية ، ولم يكن حسب ما تروي الآنسة توللي أن يسكنوا في داخل أسوار المدينة . ولهذا كانت تنتقدهم بشدة وتنعتهم بمختلف الأوصاف والنعوت . وكانت تشيد بأخلاق الأعراب في الشرق (في برقة) لأنهم لم يهددوا حياة النصارى في المدينة ، وتفضلهم على القبائل المحيطة بطرابلس .

٣) **فرنسا :**

لم تخف الآنسة توللي كراهيتها لفرنسا قبل الثورة الفرنسية ١٧٨٩ وبعدها بسبب التنافس البحري الـــذي كـــان قائماً بين الأسطولين الفرنسي والإنجليزي ومحاولة السيطرة على السياسة الداخلية بصورة غير مباشرة — أضف إلى ذلك الأحداث التي أعقبت الثورة الفرنسية التي زادتها كرهاً وحقـــداً .

٤) **علاقاتها الودية مع حسن البك — ابن علي باشا القرمانلي :**

إن من يقرأ هذه الرسائل يدرك مدى الحب الذي تكنه الآنسة توللي لابن الباشا حسن البك — فكانت معجبة بشخصيته . وبأسلوب حديثه ، وبكل ما يلبس ، وبكل ما يركب من خيل . وكانت لا تتغيب عن أي حفل يحضره ، أو عرض عسكري يترأسه وكانت تصف بإعجاب ملامح

وجهه ، وعينيه ، وشخصيته ، وحصانه ، والضباط المرافقين له . وقد امتد حبها له إلى كل من يتعلق به : زوجته ، ابنته ، خدمه ، ضباطه .
ولا تكتّم النكبة ، بل الفاجعة الكبرى التي حلت بطرابلس وبالأسرة القرمانلية — وبها شخصياً — الواقع أنها تسقط نكبتها النفسية وتوسعها لتشمل الأسرة القرمانلية وطرابلس ، عندما اغتال سيدي يوسف ابن الباشا القرمانلي الأصغر أخاه الأكبر حسن البك صديق الآنسة توللي .
وحين انقسم الرأي في طرابلس بين المؤيدين الكثيرين للبك الراحل — وهي من جملتهم — وأنصار القاتل سيدي يوسف القليلي العدد — كانت الآنسة توللي — تعبر بحماس عن آلامها وأحزانها وتصف سيدي يوسف بالجريمة . ولكنها كانت تغلف تلك الأحداث الشخصية بغلاف الإنتصار للقيم الإنسانية الفاضلة النبيلة . وظلت الآنسة توللي مخاصة لزوجة الباك الراحل وابنته وضباطه الأوفياء . حين تصف زيارة قامت بها إلى حجرة سيدي يوسف تشعر وأنت تقرأ بالإشمئزاز من الحجرة ومن أثاثها ومن زوجته ووصائفها وجواريها ومن مخاصيه والأبواب الحديدية والأروقة — وحتى الهواء والسماء المحيطة بحجراته — ومع ذلك كانت ترى أن سيدي يوسف له من القدرات العسكرية ما يتفوق بها على أخويه .
ولعل قصة السمسارة اليهودية التي أرادت أن تغري حسن البك وتوقعه في مأزق حرج مع زوجة أخيه أحمد خير دليل على الغيرة الشديدة التي كانت تحز في قلب الآنسة توللي — التي كانت تغار عليه ، وتحب أن تسمع المزيد عن حياته الخاصة . لم يخل الكتاب من ذكر عدد من الفضائح الخلقية التي تعبر أيضاً عن التحيز العاطفي ولكن لم يكن هدفها نقل الفضائح ، وإنما لأنها تمس حياة الناس .

٥ — الأهمية التاريخية والإجتماعية

يعتبر الكتاب ، حسب ما أعتقد ، دراسة أنثروبولوجية — اجتماعية

أفادت كثيراً من الإطار التاريخي : فالمؤلفة تصف بإسهاب الأخلاق والتقاليد والعادات وظواهر اجتماعية أخرى بكل إسهاب وتفصيل ، وتربط بين الإنسان وحضارته والمحيط الجغرافي حين تتحدث عن البداوة والزراعة والعلاقات الإجتماعية القائمة بين مختلف الفئات العنصرية والدينية مثل الأعراب والبدو والأتراك والبربر والنصارى واليهود . وقد رسمت بريشة حلوة وألوان زاهية صوراً اجتماعية عديدة – مثل ذهاب الأميرات إلى قبور الأولياء المرابطين لتقديم النذور والأضاحي ؛ وخروجهن ليلا بموكب وصفته بكل دقة وتفصيل . وكتبت عن ذهاب السيدات إلى الحمام والتقاليد التي كانت متبعة آنذاك . وتحدثت عن آداب الزيارة وآداب الطعام وآداب الحديث والكلام . وروت الأساطير والقصص عن مختلف الظواهر مثل الكسوف والخسوف ومعالجة الأمراض والولادة والزواج وإقامة المآتم ودفن الموتى وبناء المقابر وغيرها . فالكتاب أساسي وجوهري لكل باحث تاريخي واجتماعي يريد أن يطلع على المجتمع الليبي – ويتعرف على جذور تقاليده الإجتماعية . وصفت بكل أمانة المنازعات بين أفراد الأسرة القرمانلية على الحكم ، وكانت – شاهدة عيان حين اغتال سيدي يوسف أخاه الأكبر ولي العهد حسن البك ، وحين حاول علي بن زوول احتلال طرابلس واغتصاب الحكم بتزوير فرمان من السلطان التركي . الواقع أن الأحداث والفضائح التي تعرضت لها ولاية طرابلس مدة عشرة أعوام سجلتها تسجيلا أميناً – مثل المجاعة والطاعون والحروب الداخلية والمنازعات بين أفراد الأسرة القرمانلية – والعلاقات بين مختلف الفئات الإجتماعية .

٦ – ملاحظات عامة

وجدت حيث تقتضي الضرورة القصوى تفسير بعض الأعلام التاريخية وشرح بعض الأحداث والوقائع بهوامش مختصرة علها تفيد القارىء وتجعله تابع الرسائل بكل وضوح ولا أدعي أبداً بأني قمت بكل ما يجب القيام بـه

خشية أن تطول الهوامش وأثقل الكتاب بالتعليقات . كما نظمت فهرساً لمحتويات الكتاب حيث لم تشتمل النسخة الإنجليزية على شبيه له ، وتطلب تنظيم الفهرست المذكور قراءة جميع الرسائل وتلخيصها وعرضها في فهرست وبعد الإنتهاء منه وجدته طويلا : ولكن في الواقع يدل القارىء الكريم على محتويات الكتاب بالتفصيل ، ووضعت لكل رسالة خلاصة مركزة قبل البدء بها حتى لا يجد القارىء الكريم الملل والضجر في قراءتها .

٧ ــ شكر وتقدير

يطيب لي بعد أن وفقني الله للقيام بالترجمة أن أتقدم بخالص شكري وامتناني للأستاذ الفاضل مصطفى عبد الله بعيو مدير الجامعة الليبية الذي أولاني ثقته فعهد لي بترجمة الكتاب ، ولولا فضل إرشاداته وتوجيهاته لي في كل ما يتعلق بالوقائع والأحداث التاريخية لما استطعت أن أضطلع بالمهمة . ويجدر بي أن أعبر عن عظيم تقديري للأستاذ الفاضل عبد المولى دغمان عميد كليــة الآداب والتربية الذي بفضل تفسيره وشرحه لعادات المجتمع الليبي وتنظيمه القبلي جعلني أدرك الرسائل وما تضمنته من بحوث . ويسرني أن أشكر الأساتذة الأفاضل إبراهيم الرفاعي وكيل كلية الآداب والتربية الذي بفضل معرفته اللغة الإيطالية كان خير معين في تعريب العديد من المصطلحات وإبراهيم صبري أستاذ اللغات الشرقية الذي أفادني في ترجمة الكلمات التركية وعمر بن إسماعيل المحاضر في التاريخ الليبي الذي تفضل مشكوراً فقرأ مسودات الترجمة وعلق عليها والدكتور الأستاذ فوزي جاد الله استاذ التاريخ القديم الذي بفضل اطلاعه على التاريخين اليوناني والروماني تم شرح بعض الأحداث والدكتور الهادي أبو لقمة مدرس الجغرافيا الذي تفضل فأشرف على رسم الخريطة .

وأخيراً أود أن أشكر السيد عبد الله الحراني الذي بذل مجهوداً في طبع مسودات هذا الكتاب .

الدكتور عبد الجليل الطاهر
أستاذ علم الإجتماع
بكلية الأداب والتربية — الجامعة الليبية

١٩٦٧-٣-٧

المقـــدّمة

بقلم الأستاذ مصطفى عبد الله بعيّو
مدير الجامعة الليبية

لقد أحسنت كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية صنعاً باختيارها كتاب (مس توللي) « عشرة أعوام في طرابلس – ١٧٨٣ –١٧٩٣ – » لترجمته إلى اللغة العربية للإستفادة منه بشكل أوسع ، وقد عهدت بهذه المهمة إلى أحد أعضاء هيئة التدريس بها وهو الأستاذ الدكتور عبد الجليل الطاهر ، وها نحن أولاً نرى هذا المجهود العلمي القيم قد تحقق وأصبح في متناول القارىء العربي .

إن ناشر هذا الكتاب هو المستر « سيتون ديردن » وقد كان يشغل وظيفة رئيس مكتب المعلومات البريطاني في ولاية طرابلس أيام الإدارة البريطانية حتى قبيل إعلان استقلال ليبيا يوم الإثنين ٢٤ ديسمبر ١٩٥١ . وقد تعرّفت عليه بعد عودتي نهائياً إلى مدينة طرابلس من الإسكندرية في أكتوبر ١٩٤٨ ولفت نظري إلى جانب إجادته الكلام باللغة العربية تلك الشهادة التي كان يزين بها مكتبه والتي منحت له من مدينة حلب بسوريا كمواطن حلبي تقديراً لمساعداته القيمة أثناء الإصطدام الذي وقع بين السوريين والفرنسيين وتدخل الجنرال سبيرز لنصرة السوريين حتى أنه لقب في ذلك الوقت بصديق العرب .

وعند مقابلتي للمستر ديردن وجدت منه اهتماماً بدراسة تاريخ البلاد والتعرف على أحوالها وكان أول من أطلعني على هذا الكتاب وقد تحصل على نسخة خاصة به من إحدى المكتبات التي تخصصت في بيع الكتب النادرة بمدينة لندن . واستطاع ديردن أن ينشر هذا الكتاب فيما بعد في ١٩٥٧ وفي نسخ محدودة العدد . ويبدو من تاريخ المقدمة التي قدم بها نشر هذا الكتاب أن كان يقيم في مدينة بغداد أثناء النشر . والواقع أن المستر ديردن بنشره لهذا الكتاب بعد أن مر وقت طويل على آخر طبعة له قد خدم التاريخ بإتاحة الفرصة لعدد كبير من القراء للإطلاع عليه بعد أن نفدت طبعاته الأولى ولا يوجد منها في السوق إلا بعض النسخ المستعملة التي تعرض للبيع من وقت لآخر بأسعار خاصة.

وقد قدم المستر ديردن نشر الكتاب بمقدمة حاول فيها إعطاء عرض لموضوعات الكتاب ونجح في تحديد مكان القنصلية الإنجليزية بمدينة طرابلس في العهد القره مانلي . وقد كانت هذه القنصلية محور حوادث هذا الكتاب لإقامة المؤلفة فيها مدة عشر سنوات . ومع أن المستر ديردن حاول في مقدمته إعطاء هذه الخلاصة بعد دراسة الكتاب ودراسة تاريخ البلاد عامة إلا أنه لم يوفق تماماً في ذكر بعض المعلومات التاريخية فهو مثلا في (ص ٩) يقول إن علي القره مانلي كان المؤسس الأول للأسرة القره مانلية كهيئة حاكمة مع أن جميع المصادر التاريخية ومن بينها الكتاب الذي قدم له قد اتفقت على أن أحمد القره مانلي هو المؤسس الأول لهذه الأسرة الحاكمة . ولم يخطىء الناشر في شخصية المؤسس الأول للأسرة القره مانلية بل على ما أعتقد أخطأ في تحديد زمن مجيء جد الأسرة القره مانلية فحسب إلى طرابلس أيضاً عندما قال إن جد الأسرة القره مانلية قد جاء إلى طرابلس مع درغوث باشا . وإذا عرفنا أن درغوث باشا الذي أكثر من استقدام (القول أوغلية) قد تولى باشوية طرابلس في ١٥٥٣ وقد دامت ولايته حتى ١٥٦٥ عندما استشهد في حصاره لجزيرة مالطة . وإذا عرفنا أن أحمد باشا القره مانلي المؤسس الأول للأسرة القره مانلية هو ابن يوسف بن محمود بن مصطفى وأن أحمد القرمانلي كان في

عنفوان شبابه عندما أصبح والياً على البلاد ، إذا عرفنا كل ذلك أدركنا استحالة مجيء جد الأسرة القره مانلية إلى طرابلس في عهد درغوث باشا والراجح أن مجيئه كان في وقت متأخر عن عهد درغوث وربما كان ذلك في عهد ولاية محمد باشا الساقزلي الذي تولى حكم البلاد في الفترة التي ما بين ١٦٣٢ و ١٦٤٩ وهذا ما أخذ به الأستاذ ميكاكي في كتابه عن تاريخ طرابلس في العهد القره مانلي (١) وربما كان المستر ديردن في خطئه هذا قد اعتمد على ما يرويه الكثيرون من أهالي طرابلس بخصوص تحديد زمن مجيء جد الأسرة القره مانلية إلى طرابلس وإلى ما ذكره شارل فيرو في حولياته الطرابلسية عندما أخذ يؤرخ للأسرة القره مانلية (٢)

ويرى المستر ديردن أن ١٦٧٨ شاهدت أول قنصلية إنجليزية في مدينة طرابلس وأن تأسيس هذه القنصلية قد تم بعد مجيء بليك (Blake) بحملته البحرية إلى ميناء طرابلس في تلك السنة . ولكن الواقع ان العلاقات الدبلوماسية بين البلدين قد قامت قبل ذلك التاريخ الذي حدده ديردن كتاريخ لتأسيس أول قنصلية إنجليزية في ليبيا إذ المعروف أن إنجلترا عندما أسست قنصلية لها في مدينة الجزائر في ١٥٨٥ وعندما أرسلت المستر جون تيبتون (John Tipton) للقيام بهذه المهمة عهدت إليه أيضاً برعاية مصالحها في طرابلس . أما تاريخ تأسيس أول قنصلية إنجليزية في مدينة طرابلس فيرجع إلى تاريخ سابق لما ذكره ديردن في مقدمته إذ أن المعروف أن سمويل توكر كان أول قنصل لإنجلترا قام بإدارة شؤون القنصلية الإنجليزية في مدينة طرابلس

---

(1) Rodolfo Micacchi, La Tripolitania Sotto il dominio dei caramanli Roma istituto Coloniale Fascista, 1936, p. 20.

(2) Charles Feraud, Annales Tripolitaines publiées avec une introduction et des notes par Augustin Bernard Tunis, Librairie Tournier, Paris: Librairie Uulbert, 1927, p. 207.

وأن مدة إقامته كانت فيما بين ١٦٥٨ و ١٦٦٧ (٣)

وحاول ديردن أن يعطي القارىء صورة واضحة عن المجاعة التي تعرضت لها البلاد في عهد علي باشا القره مانلي وما ترتب عليها من تدهور في حالة البلاد ولكي يقرب للقارىء وصف هذه الحالة استشهد بأحوال البلاد أثناء المجاعة التي حدثت في ولاية طرابلس ١٩٤٨ بسبب قلة كمية الأمطار . وينتهز ديردن هذه المناسبة ويرمي تبعية مسؤولية هذه الحالة التي شاهدها وعاش بالقرب منها ، على الإدارة البريطانية التي كان يترأسها في ذلك الحين المستر بلاكلي (Blackley) والتي وصفها بقصر النظر في معالجة مجاعة ١٩٤٨ . حقيقة أن وصف ديردن للمتاعب التي عاشتها ولاية طرابلس في ١٩٤٨ كان لا يخلو من أي مبالغة حيث أتيحت الفرصة لكاتب هذه السطور أن يرى بنفسه ما كان يعانيه الشعب وقد سجل بعضه ديردن في مقدمة هذا الكتاب ولكن يجب أن نذكر للحقيقة أيضاً أن الإشاعات كانت قد انتشرت قبيل إعلان استقلال ليبيا بأن الخلاف قد دب بين ديردن وبلاكلي . أما سبب هذا الخلاف فهذا ما لم يكن في الإستطاعة معرفته ، وإن كان من المرجح أن ديردن في نقده للإدارة البريطانية كان متأثراً بهذا الخلاف الذي قام بينه وبين بلاكلي .

يؤخذ على ديردن في مقدمته أيضاً روح التحامل التي ظهرت منه على الإسلام والمسلمين عندما أخذ يصور الحياة الإجتماعية في مدينة طرابلس في العهد القره مانلي وبصفة خاصة في عهد علي باشا القره مانلي الذي هو محور هذا الكتاب فهو يقول في (ص ١٦) « .... إن يد الإسلام المتعصب قد ضغطت بشدة على المدينة إذ كان بها ما يقرب من عشرين جامعاً ، كانت دائماً مركزاً للإزعاج ... » ويستمر ديردن في مثل هذا القول لشرح ما كان يتعرض له المسيحيون واليهود من مضايقات بسبب تعصب أهل البلاد في ذلك الوقت . ولكن ديردن يذكر في مقدمة كتابه وفي الصفحة ١٦ بالذات أن

(3) Godfrey, Fisher, Barbary Legend, War, Trade and piracy in North Africa, 1415 / 1830, Oxford, 1927, p. 308.

عدد اليهود في مدينة طرابلس كان حوالى ٥٠٠٠ من مجموع سكان المدينة الذين كانوا يبلغون ٢٥٠٠٠ وهو عدد كبير إذ يبلغ حوالي خمس سكـــان المدينة ولا يمكن أن يتم ذلك ما لم تتوفر سبل الحياة والأمن الكامل لضمان حياة هؤلاء اليهود واستمرارهم في مزاولة نشاطهم بل واستحوازهم على أهم نواحي النشاط الإقتصادي في ذلك الوقت . وإذا كان ديردن قد استند في كلامه على ما جاء في خطابات مس توللي إلا أن الطريقة التي تناول بهـــا هذه الناحية وعدم محاولة تحقيقها توحي للقارىء العام بوجهة نظره في هذه المسألة التي هي تحامل على الإسلام وما عرف به القره مانليون من روح التسامح . وقد اعترف بهذه الحقيقة التاريخية بعض الكتاب المؤرخين وعلى رأسهم المؤرخ الإيطالي إيتوري روسي (Ettore Rossi) في مقاله عن طرابلس في دائرة المعارف الإسلامية والمؤرخ اليهودي ناحوم شلوشي (Nahum Sloucshz) الذي أرخ العهد القره مانلي في كتابه (Travels in North Africa).

يؤخذ على ديردن في نشره لهذا الكتاب عدم وضع فهرس لموضوعات الكتاب كما جاء في الطبعة الثانية التي تمت في ١٨١٧ وإن كان الكتاب نفسه عبارة عن خطابات متلاحقة في المدة التي تبدأ بالثالث من شهر يوليو ١٧٨٣ وتنتهي بالخطاب الأخير المؤرخ في الثلاثين من أبريل ١٧٩٥ . وقد كتبت مس توللي هذا الخطاب الأخير إلى أهلها وهي في جبل طارق في طريق عودتها إلى إنكلترا، ويؤاخذ على هذه الطبعة أيضاً خلوها من اللوحات الإيضاحية التي جاءت في الطبعات القديمة السابقة لهذا الكتاب ورغم هذه المآخذ التي يمكن أن توجه لمجهود ديردن في طبعته المحدودة لهذا الكتاب القيم إلا أن المقدمة التي كتبها الناشر قد أوضحت الكثير من نواحي هذا الكتاب وحددت أهم معالم موضوعاته . وهناك عرض سريع لهذه الطبعة التي قام بها ديردن في الملحق الأدبي لجريدة التايمس بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٩٥٧ .

بقي أن نقول إن الطبعة الإنجليزية الأولى لهذا الكتاب قد صدرت في ١٨١٦ أما الطبعة الثانية فقد كانت في ١٨١٧ وأما الطبعة الثالثة فقد كانت في

١٨١٩ وقد كانت أيضاً في مجلدين . وكل هذه الطبعات القديمة مزودة ببعض اللوحات الفنية والخرط الجغرافية لتوضيح ما جاء في الكتاب. ولأهمية وطرافة معلومات هذا الكتاب تمت ترجمته إلى عدة لغات أخرى من بينها اللغة الفرنسية . وقد كانت الطبعة الفرنسية الأولى في ١٨١٩ بباريس . العنوان التالي :

Mac Carthy, J. Voyage à Tripoli ou relation d'un séjour de dix années en Afrique, traduit de l'Anglais sur La Seconde Edition, Paris, mongie aime, 1939. 2 vols.

وقد خرجت هذه الترجمة الفرنسية في مجلدين . وهناك طبعة فرنسية أخرى سابقة قد تم إخراجها في ١٩١٢ ضمن المجموعة التاريخية المصورة التي كان يصدرها ألبرت سافين هي ترجمة لكتاب مس توللي ولهذا نراه في مكتبة نيويورك العامة يأتي ذكره في قائمة الفهارس تحت هذا الإسم – وعنوانه :

Tully Miss. Tripoli au XVIIIème siècle; Annote d'après les Documents d'Archives et les Mémoires, Paris : Société des éditions, louts-michaud: 168, Boulevard, Saint-Germain, 1912, 190.

وهذا الكتاب مزود بالصور التي نشرت في الطبعات القديمة لكتاب مس توللي مع عدد آخر من الصور الأخرى التي أخذت من بعض المراجع الأخرى ولكن هناك خطأ في تسمية الصورة الواردة في الصفحة ١٤٥ من هذا الكتاب إذ ذكر الناشر أنها لباي تونس مع أنها في الواقع هي صورة الباي حسن الإبن الأكبر لعلي باشا الأول وولي عهده الذي استطاع يوسف باشا أن يقتله وأن يتولى باشوية طرابلس بعد أن نجح في طرد أخيه الثاني أحمد . والبطاقة الخاصة بهذا الكتاب في المكتبة العامة لمدينة نيويورك تذكر أن هذه الخطابات التي يتضمنها هذا الكتاب قد كتبتها أخت القنصل الإنجليزي ريتشارد توللي إلى أحد الأصدقاء في إنجلترا . اختلفت الآراء حول شخصية المؤلفة فمقدمة الطبعة الإنكليزية الأولى تذكر أن الكاتبة كانت أختاً للقنصل الإنجليزي في طرابلس في ذلك الوقت وهو المستر توللي ولهذا عرفت صاحبة هذا الكتاب باسم مس توللي .

ولهذا أيضاً نجد أن الكتاب يأتي تحت هذا الإسم في فهارس المكتبات العامة الأوربية والأمريكية وفي قوائم المراجع وهوامش الكتب التي تشير إلى هذا المرجع عند ذكر بعض المعلومات المستقاة منه . أما مقدمة الطبعة الإنجليزية الثانية فتذكر المؤلفة على أنها شقيقة زوجة المستر تولي . وهكذا اختلفت حقيقة شخصية المؤلفة وإن أكدت خطاباتها بأنها كانت سيدة إنجليزية وأنها كانت تقيم في القنصلية الإنجليزية بطرابلس وأنها قد كتبت هذه الخطابات المنشورة في هذا الكتاب إلى بعض أفراد العائلة في إنجلترا التي كانت تراسلهم هذه الكاتبة . ولا نعرف أي شيء عن الكاتبة بعد أن تركت مدينة طرابلس في أغسطس ١٧٩٣ بعد أن أقامت بها عشر سنوات متتاليات . ولم تكشف الطبعات المختلفة لهذا الكتاب عن الشخص الذي اكتشف هذه الخطابات وقام بنشرها وقد كان أول نشر لها بعدثلاث وعشرين سنة من تاريخ آخر خطاب بالمجموعة المنشورة . ولم يقف الغموض بنا عند هذا الحد بل يتعداه إلى معرفة مكان الأصول الأولى لهذه الخطابات وإلى من كانت الكاتبة الإنجليزية تكتب خطاباتها وهل هذه الخطابات هي كل ما كتبته هذه الكاتبة أو أن هناك خطابات أخرى رأى الناشر عدم نشرها لاحتوائها على بعض المعلومات العائلية . كل هذه النواحي ما زالت غامضة وتحتاج إلى بحث ودراسة ولا نجد في الطبعات الإنجليزية والفرنسية ما يساعد على الإهتداء إلى حقيقتها .

وإذا كان هذا الكتاب يعتبر مصدراً أساسياً في تاريخ الأسرة القره مانلية بصفة عامة إلا أنه أكثر أهميةفي دراسة عهد علي باشا القره مانلي والفترة السابقة لعهد يوسف باشا . واستطاعت الكاتبة بحكم ثقافتها ومكانتها الإجتماعية وطبيعة جنسها أن تتصل بالعائلات وخاصة حريم الباشا وأن تسجل بعض المعلومات الأولية التي يصعب علينا العثور عليها في أي كتاب آخر . ومن هنا جاءت أهمية هذا الكتاب فضلا عن أن هذه الكاتبة قد قامت بتسجيل ما شاهدته وما سمعته بنفسها وهي وإن ركزت اهتمامها على الحالة في مدينة طرابلس وبعض ضواحيها إلا أن الكتاب لا يخلو من الإشارات العابرة المفيدة

لدراسة الوضع العام لليبيا في ذلك الوقت . ويعتبر هذا الكتاب مصدراً أساسياً في دراسة المجتمع الليبي في العهد القره مانلي وخاصة أسرة الباشا . وهناك أشياء كثيرة يشاهدها الإنسان في المجتمع الليبي ويصعب عليه فهمها اذا لم يرجع إلى تاريخ تلك الفترة ومع هذا فإن ما سجلته الكاتبة لا يخلو من بعض المآخذ خصوصاً في تفسيرها لبعض الظواهر الإجتماعية الليبية التي سجلتها في رسائلها وذلك للحالة النفسية التي كانت تغلب على الكاتبة أثناء إقامتها في مدينة طرابلس وشعورها بالخوف من المجتمع الذي كانت تعيش فيه وهي تنظر إليه نظرة الشك والإرتياب فضلا عن أن الكاتبة لم تكن تجيد اللغة العربية إجادة تامة كما يبدو ذلك واضحاً من ملحق الكلمات العربية الذي جاء في آخر الكتاب .

وخلاصة القول إن هذا الكتاب من أهم المصادر التاريخية التي تناولت جزءاً من تاريخ البلاد وتكاد لا تخلو أي مكتبة اوروبية او امريكية هامة من هذا الكتاب فهو من المراجع الأساسية لدراسة هذا الوطن من الشمال الإفريقي وقد أقبل الناس على قراءته عقب طبعته الأولى التي جاءت في الوقت الذي أخذ فيه الأوربيون يوجهون اهتمامهم إلى ليبيا ويستعدون لإرسال بعثاتهم الكشفية إليهـــا .

وأخيراً لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر إلى الأستاذ الدكتور الطاهر لقيامه بترجمة هذا الكتاب والذي سيفيد منه كل مؤرخ وباحث اجتماعي ، وإلى الأستاذ عبد المولى دغمان عميد كلية الآداب والتربية آملا أن تكون هـــذه الترجمة فاتحة لأعمال علمية أخرى تقوم بها الكلية المذكورة ومن الله التوفيق .

مصطفى عبد الله بعيو

مدير الجامعة الليبية

٧-٣-١٩٦٧ م.

مقدمة الناشر: سيتون ديردن

ان ما كتب عن ولاية بلاد البربر نادر ومبعثر ولا تزال مصادره الرئيسية مطمورة في الأرشيف القنصلي البريطاني والفرنسي والهولندي والإيطالي وفي بطون السجلات الباقية من الباب العالي. حقاً إن الفرنسيين بوحي من مصالحهم الخاصة في تونس والجزائر، والإيطاليين في طرابلس قد قاموا بمجموعة كبرى من البحوث، ولكنها في العادة ذات نهج خاص لا يخلو من التغرض والتحيز أو الدعاية الإستعمارية. أما في اللغة الإنجليزية فلدينا الشيء القليل من التقارير العابرة لبعض الرحالة من أمثال «ليون» و «بلاكير» و «بيشي» وقصص بعض الرقيق النصارى مثل «لوكاس» و «باناتي» ولدينا هذا الكتاب.

ومما يدعو إلى الدهشة حقاً ما حدث في التغيرات الدموية الطويلة الأمد، والمسرحية المثيرة لدول بلاد البربر، حيث امتزجت المآسي المظلمة بالمهازل الساخرة جداً كما يدعوها «أوغسطين برنارد» فكانت ندرة شديدة في المحفوظات حتى أن رسائل سيدة إنجليزية لأحد أصدقائها، ومذكرات عابرة لحياتها اليومية، كما ترى من دار قنصلية بريطانية تكون فريدة ووحيدة، بحيث لا توجد دراسة لاحقة لتلك الفترة التاريخية لا تقتبس منها بعض النصوص.

الحقيقة أنها تؤلف في الغالب الصورة الوحيدة المتتابعة والمتصلة الخلقات التي لدينا عن الحياة الداخلية لتلك الولايات .

لعلّ السبب في هذا النقص في المصادر يرجع إلى حقيقة أن تلك التوابع الصغيرة والبعيدة عن الامبراطورية العثمانية لم تكن نسبياً معروفة وليست ذات أهمية للغرب . ومع أنها أقلقت الدول الأوربية وأزعجتها لأكثر من (٣٠٠) سنة فإنها لم تقم بدور آخر في الحياة الأوربية والحضارة . وكان مثل ذلك التأثير الذي مارسته معادياً وسلبياً وهامشياً ، لم تكن في الأمر الواقع ، أكثر من حاشية لا يعتد بها لتاريخ تلك الفترة .

يمضي العالم الأوربي المعاصر في أحداثه لا يعتبرها دولا ، أوكيانات سياسية ، ذات حياة متضامنة خاصة بها ، وإنما بعض الشيء المضاف إلى مخاطرات التجارة والسفر ، وأشكال غريبة تظهر إلى الوجود على آفاق ربابنة البحر القلقين ، ومصادر للقصص التي تروى حول الموقد ، عن البرابرة الوثنيين والعمل القسري الإجباري ، والأوبئة المتفشية من وراء الستار الغامض للإسلام لتزعج المسالك المائية في البحر المتوسط ، ربما كانت مثلبة لوجدان الأمم المتمدنة ولا شيء غير ذلك .

لم يكن ذلك بدون سبب . فلأي شأن أو لأية أهمية كانت سلالات عربية غامضة صغيرة بأمرائها الأميين البربر ؛ وقصورها السيئة السمعة ، وتقاليدها التي جمعت بين البذخ والإسراف الشرقي وطغيان السلطان التركي ، وقوانين القرن السابع الإسلامية المتزمتة ، المزدهرة وحدها في بيئة مصطنعة يحيط بها العالم بالبحر من جهة والصحارى من جهة أخرى . لماذا كان يرغب الرحالة أن يزور مدنها القديمة الواقعة على الحاشية المهجورة من ساحل افريقيا الشمالية الذي يطل على الصحراء الكبرى الجرداء الخالية ، وعلى جبال الأطلس الجرداء المجدبة أو اللغز المجهول لافريقيا الوسطى ، وفي أي شيء كان يرغب التاجر ، هل البحث عن أسواق جديدة ، أو طرق تجارية ، فوجد نفسه في أراض يستحوذ

عليها فقر الأنظمة الإقتصادية ، والخلق العدائي للسكان (ذلك المزاج الحـاد الطبع من الأتراك والعرب والدم البربري) . الذي جعل أي مشروع معرضاً للخطر وبدون جدوى ؟

وهكذا ، بترت من الغرب ، بتراً تاماً ، الذراع الميتة للإسلام الملقاة عبئاً ثقيلا عليه ، وبقيت الولايات مجهولة لا تثير الإهتمام ، مدينة بوجودها المستمر إلى القلق العام واضطراب العلاقات القارية .

ولما لم تكن لهذه الولايات موارد حقيقية غير النهب والسلب والفدية لدعم أنظمتها الإقتصادية المسرفة ، وإدارتها المنحلة المفككة ، فإنها لم تستطع الحفاظ على بقائها إلا في الوضعيات الناجمة عن المنازعات المستمرة بين الدول الأوربية . ففي أيام الحرب حين تكون حماية الطرق التجارية مفقودة ، والأخذ بالثأر صعباً ، فإن القراصنة المغاربة يشنون هجماتهم من مرافئهم على المسالك البحرية لإسبانيا وإيطاليا واليونان . ويتخذون مواقف بين الدول المتنازعة ، وينقضون على حمولات سفن الدويلات البحرية الصغرى ، أو يغيرون على سواحلها طلباً للرقيق . ولا يمكن ضمان المرور السلمي لسفن الدويلات الصغرى إلا بدفع أتاوة ثقيلة ، وحتى يتم ذلك ، فإن المرور يمنح بصورة متكافئة . ومع ذلك يجب دفع الأتاوات باستمرار أو أن التجارة الحيوية تتعرض للخطر ، وهكذا يملأ النهب والسلب والفدية خزائنها . أما في أيام السلم فالأمر على العكس من ذلك ، حيث تطمس في ظلمة معتمة وفقر مدقع . ولما لم تكن العلاقات الأوربية خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، سلمية إلا نادراً ، فإن دول بلاد المغرب استمرت في وجودها ، بل حتى أنها أحرزت شيئاً من الإنتعاش والنجاح . واستمرت ، حقاً ، حتى النزاع الأخير بين إنجلترا وفرنسا الذي انتهى في بداية القرن التاسع عشر ، وتقرر في مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ القيام بعمل ضد القرصنة والرق المسيحي فدخلت الأساطيل الإنجليزية – الفرنسية المياه المغربية وفرضت شروطاً رسخت حكمها .

لم يعد بإمكانها أن تعيد حكامها الطغاة ، فضعف شأنها ، وعادت إلى

بؤسها الطبيعي ، واختفت مكانتها الوهمية المظلمة من على مسرح تاريخ البحر المتوسط . وبالإنهيار الأخير للإمبراطورية العثمانية ، سقطت الجزائر في سنة ١٨٣٠ وتونس سنة ١٨٨١ في أيدي فرنسا ، وطرابلس في سنة ١٩١١ في أيدي إيطاليا .

كانت ولاية طرابلس ، موضوع هذا الكتاب : أعظم أهمية من الولايات الثلاث المدينة بسيادتها الإسمية إلى الباب العالي. كان الباشا(١) فيها أو الوالي عليها يحمل أسبقية في المقام من « ثلاثة ذيول » وهي رتبة تعادل ولاة أعظم المقاطعات في ممتلكات السلطان وهي : القاهرة وبودابست وبغداد .

تستمد طرابلس أهميتها من صلتها بمصر وموقعها الجغرافي على طريق الحج العظيم من الغرب إلى مكة ، والطرق التجارية بين افريقيا وأوروبا . أما مساحتها فالولاية تمتد من الحدود الشرقية لبرقة – يمكن أن تكون في منحدر السلوم – غرباً على الساحل البحري الملتوي حتّى حدود تونس في « بن جاردين » مسافة يقرب طولها حوالي ١٠٠٠ ميل . وتشمل محافظة برقة في قاعها الشرقي حتّى تتألف البلاد من منطقة جبلية خصبة من الجبل الأخضر تحاذي ساحل البحر حتّى مدينة بنغازي تقريباً . وإلى الغرب من هذا حتّى مصراته تمتد خمسمائة ميل من الصحراء والمستنقع المالح ، خليج سرت ، ومن مصراته إلى طرابلس ، وفي بعض الأجزاء الأخرى إلى حدود تونس ، يمتد شريط ساحلي خصب يشمل المدن الرئيسية للولاية . وتمتد الصحراء إلى الجنوب من هذا الشريط الساحلي ، الذي تفصله جبال غريان معقل البربر ، وإلى الجنوب من ذلك الصحراء .

برزت القيمة الاستراتيجية للولاية على الطرق التجارية من هذه الجغرافيا القائمة على المصادفة والقضاء والقدر . كان يمتد من طرابلس إلى أوروبا طريق بحري قصير نسبياً وأمين يمر بمالطة وصقلية ، وكانت الولاية تقف على إحدى

(١) كلمة باشا مأخوذة من اللغة الفارسية وتتألف من مقطعين « با » و « شاه » وتعني نائب الملك . (المترجم) .

التقاطعات للصحراء الكبرى ، وبهذا تعد المركز لطرق القوافل الثلاث :

الأول الممتد جنوباً إلى واحات فزان وبحيرة تشاد .

والثاني الممتد نحو الجنوب الغربي ماراً بغدامس وغات إلى تمبوكتو الخرافية.

والثالث الممتد نحو الجنوب الشرقي ماراً بواحات جيفارا عن طريق سوكنة وزيللا إلى وداي ودرفور والسودان الغنية بمواردها .

نقلت طرق القوافل هذه في العصور الرومانية والبيزنطية أحمالا عظيمة من التجارة من افريقيا إلى أوروبا . ولكن بسبب سوء إدارة العرب ، وانهيار الواحات ، وغارات البدو هبطت قيمة هذه الطرق ولم تعد غير مسالك لنقل الرقيق الأسود من الجنوب ، وتراب الذهب ، وريش النعام ، وعظم العاج وبعض الأصماغ . وكانت الصادرات الأخرى للبلاد تتألف من الصوف والجلود واللحوم ونبات البردى والخضار إلى مالطه ، والملح من الملاحات بالقرب من زواره إلى البندقية . إلا أن مخازن الغلال العظيمة التي كانت تمون روما في العصور القديمة ، والتي لا تزال آثارها قائمة إلى الآن في طول البلاد وعرضها قد عفى عليها الزمن ولم يبق لها من أثر .

ينقسم سكان الولاية تقسيماً متعادلا في التكوين العنصري للسكان . ففي المدن المأهولة الواقعة على الشريط الساحلي كان يسكن خليط من الملاحين الأتراك والعرب والمغاربة واليهود الأوروبيين ، واليهود ، والشرقيين . ويشتغل الفلاحون العرب والبدو وأشباه البدو بزراعة الواحات الخصبة الواقعة على الساحل ، أما في المناطق الجبلية فيعيش البربر وبعض اليهود على الزراعة . تنتقل القبائل البدوية حول المناطق الصحراوية ، التي ترجع أصولها إلى خليط من الأنساب العربية ، التي جاءت إلى المنطقة من شبه الجزيرة العربية في الفتوحات الأولى . ومن أكثر تلك القبائل أهمية أولاد سليمان (وهم أكثر القبائل العربية نقاوة وشيخهم المشهور أحمد سيف النصر) التي تمتد ديارها من خليج سرت إلى فزان وولد بوسيف (وهم خليط بربري) . ويسكن في بني وليد وهي منطقة جبلية تقع إلى الجنوب من ترهونة إتحاد بربري عظيم

ومحارب يسمى الأورفيلة الذي يعيش في موقع منيع نسبياً .

كان هذا الخليط من القبائل والناس نتيجة لماض ضم عناصر مختلفة متعددة الألوان ، وكان تاريخ الولاية من أقدم العصور عبارة عن سلسلة من الإحتلال المستمر . فالسكان الأصليون ، والبربر ، والجارامانت(١) الذين ذكرهم المؤرخ هيرودوت ، عنصر لا تزال أصوله غامضة ومجهولة ، قاسوا وكابدوا من الغزاة الفاتحين وهم الرومان ، والفاندال (٢) ، والبيزنطيون ، والعرب ، والمسيحيون في القرن السابع ، قد قبلوا الإسلام ديناً فأمدوا الجيوش الإسلامية بقسم من خيرة جنوده . وظل الإسلام دين البلاد بالرغم من الإحتلال اللاحق لجيوش النورمان وفرسان مالطه .

في القرن السادس عشر كانت الولاية في أيدي فرسان (٣) القديس جون فسقطت أخيراً في أيدي القرصان التركي درغوت (٤) ، وضمت إلى الإمبراطورية العثمانية . احتل الجيش العثماني الولاية وفرضت قوانين الحكومة العثمانية ، وتم دفع جزية منظمة للباب العالي . بقيت الولاية قرابة قرنين تحت الحكم التركي المباشر ، يحكمها داي تركي ، يعين من قبل السلطان العثماني يعاونه في الإدارة موظفون أتراك وجماعة من الينيشارية أو الجنود الأوربيون المسلمون .

---

(١) الجارامانت شعب يسكن البلاد التي تبعد عن أوجلة بمسيرة عشرة ايام فيها ينابيع مياه ونخيل ويضع التراب على الملح ثم يزرعه ويستقل العربات التي تجرها أربعة خيول أثناء مطاردتهم سكان الكهوف الايثوبيين . (المترجم) .

(٢) الفاندال قبائل جرمانية شرقية هاجرت من بلادها بالقرب من بحر آزوف وكانوا ينشرون الدمار أينما حلوا واستولوا على قرطاجنة سنة ٤٣٩ م وساروا على أفريقيا واعتنقوا النصرانية وانتهوا سنة ٥٣٤ من شمالي أفريقيا . (المترجم) .

(٣) قدم فرسان القديس جون الى طرابلس سنة ١٥٣٠ م وتمكنوا من الحصول على جزيرة مالطة من شارل الخامس وحماية مدينة طرابلس والدفاع عنها . (المترجم)

(٤) تكونت في زمانه نواة الاسطول الليبي واشتهرت طرابلس بصناعة السفن . راجع (سقوط الدولة القرمانلية في ليبيا ـ ١٧٩٥ ـ ١٨٢٥ . للسيد عمر بن اسماعيل) . (المترجم) .

ولكن التاريخ هنا قد تعقب نمطاً مألوفاً . أصبحت الروابط التي تشد الولاية بالقسطنطينية بمرور الزمن ضعيفة واهية نتيجة لتولي الحكم سلسلة من السلاطين الضعفاء ، الذين تبنوا سياسة تسيبية الواحد عقب الآخر . أصبحت الروابط واهية قليلة ونادرة ، مقصورة على المجاملات السطحية وزيارات المفتشين الأتراك قد تضاءلت .

وتقلصت الجزية ثم انقطعت عملياً . ظهرت بنفس الوقت قوة جديدة جلبت الأنظار إليها . فقد تزوج الينيشيارية الأتراك المدربون بالنساء العربيات والبربريات فأوجدوا عاملا جديداً الكولوغلي ، أو الجندي التركي من دم خليط ، لم يكتفوا بالنجاح في إشغال المناصب المهمة في الإدارة فحسب ولكنهم نالوا عطفاً طبيعياً وتأييداً من أبناء البلاد . حاول « الداي » أن يقلل من القوة المتنامية للكوغلية عن طريق استيراد أعداد كبرى من الينيشيارية ، واتباع سياسة حبك الدسائس ونصب المكائد . لكن في سنة ١٧١١ استطاع أحـــد الكولوغليه البارزين ، علي قرمانلي (١) ، الذي جاءت أسرته مع « درغوت » أن يثور يؤيده عدد آخر من الكولوغلية ، وقطاع من السكان ، ويخلع « الداي» ويذبح الينيشيارية بالطريقة الواضحة التي وصفتها الآنسة (توللي) ، ويستولي على السلطة .

كانت تلك الحوادث بداية لسلالة عربية (٢) ، قدر لها أن تحكم الولاية لمدة ١٢٥ سنة (٣) في سلسلة من التقلبات وإراقة دماء كثيرة ، وتدبير الدسائس والمؤامرات . ومن هذه الفترة عشرة أعوام تبدأ في سنة ١٧٨٣ إلى سنة ١٧٩٣ تؤلف الأرضية لهذا الكتاب .

---

(١) قرمانلي : نسبة الى قرمان في الاناضول والذي تولى الحكم هو أحمد القرمانلي وليس علي القرمانلي .

(٢) لم يثبت أصل هذه السلالة العربي . (المترجم) .

(٣) يقول عمر بن اسماعيل بانها حكمت ولاية طرابلس مدة تقرب من مائة وأربـــع وعشرين سنة . (المترجم) .

إن إقامة حكم مستبد جائر ، وجيش من المرتزقة باهظ التكاليف ، جعل من الضروري لولاية طرابلس أن تبحث عن مصادر أخرى للدخل غير فرض الضرائب على التجار والسكان الفقراء المعدمين . كان لا بد من اللجوء إلى الرق والنهب والسلب لدعم اقتصاد البلاد ، فأصبح القراصنة الطرابلسيون ، منذ القرن السادس عشر الطابع النشيط المميز لحياة البحر المتوسط . وحتى سنة ١٦٥٥ حين دخل أسطول « بليك » لأول مرة مياه البحر المتوسط ، كان القراصنة المغاربة نقمة مستمرة على الشحن البحري البريطاني . كثيراً ما كانت تتوقف التجارة ، ويؤخذ البحارة الإنجليز رقيقاً يوضعون في السجون المظلمة في طرابلس وتونس والجزائر . كان الدرس الحاذق المؤثر للقوة البحرية الإنجليزية الذي قام به القائد « بليك » قد نتج من عقد اتفاقية تجارية وصلح بين إنجلترا وطرابلس ، تم التوقيع عليها في سنة ١٦٧٨ ، وأقيمت أول قنصلية بريطانية في الولاية . إلا أن فرنسا سبق وأن أقامت علاقات دبلوماسية قبل خمس وأربعين سنة ، وتبعتها أقطار أخرى . في سنة ١٧٨٣ ، الفترة التي تدور خلالها حوادث هذا الكتاب كان يوجد في طرابلس ثمانية ممثلين قنصليين بضمنهم الهولندي ، والسويدي ، والدانمركي ، والإسباني ، والدول الإيطالية.

وكانت المهام التي تضطلع بها تلك القنصليات رعاية التجارة ، وتأمين حرية مرور السفن التجارية في المياه الإقليمية للولايات البربرية ، واسترداد تلك السفن وبحارتها الذين يقعون أسرى بموجب الإلتزامات التي تعهد بها الباشا وفقاً للإتفاقية المعقودة .

كانت المظاهر السياسية لحياة القنصل – في أيام القنصل المستر توللي وقبل أن تبلغ المنافسة بين بريطانيا وفرنسا أوجها – محصورة في المحافظة على العلاقات الطيبة مع الباشا أو الأمير الحاكم ؛ ودعم هيبة بلاده في أعين الإدارة المحلية وزملائه الدبلوماسيين .

لم يكن قد ظهر بعد العداء بين القنصلين الفرنسي والبريطاني ، ومناوراتهما السياسية ؛ التي أصبحت الموضوع المستمر في تاريخ الولاية . جاء بعد المستر

(توللي) قنصل بريطاني ، عظيم الأهمية ، في السنوات الأخيرة عندما إجتاحت جيوش نابليون اوروبا . وفي طرابلس التي أصبحت مركزاً استراتيجياً مهماً في الساحل الجنوبي للبحر المتوسط (وكانت من بين الأشياء الأخرى المحطة التموينية لمالطة) قد نشب صراع طويل الأمد من اجل الهيبة والإعتبار بين ممثلي الدولتين القاريتين العظيمتين .

في الفترة التاريخية التي شملها هذا الكتاب ، على كل حال ، كانت الوظائف الأساسية للقنصل هي حماية رعايا دولته وتأمين تجارتهم ، وفك أسر الرقيق ، ودعم اولئك الزملاء الضعفاء الذين ترتبط بلدانهم بحلف مع بلاده . وإذا ما أخذنا ذلك بنظر الإعتبار فان فهمنا لما ترويه الآنسة « توللي » يكون أكثر وضوحاً وجلاء .

كان قيام القنصل بدور الحماية مدعوماً ومؤيداً بالاتفاق الدولي الذي خوله صلاحيات واسعة . وكانت حالة الأوروبيين في الأمبراطورية التركية مصانة بالإمتيازات العثمانية لسنة ١٧٦١ . لقد خولت تلك الإمتيازات ، الى جانب الحقوق الأخرى ، القناصل سلطات قضائية على رعايا دولهم في القضايا المدنية والجنائية ، ولهم حرية التنقل في ممتلكات السلطان وحرمة المنزل ، والحرية الدينية والتجارية ، والنتيجة فان تلك الحقوق قد منحت القنصل سلطات واسعة ونفوذاً عظيماً . له الحق وحده في مقاضاة رعايا بلاده ، واصدار أحكام عليهم (١) ، وبوسعه أن يطلب إلى الحكومة المحلية تنفيذ الأحكام التي يصدرها اذا وجد ذلك ضروريا . كان القناصل يتمتعون كالقضاة بنفوذ واسع على رعاياهم ، وباستطاعتهم أن يمارسوا ضغوطاً مختلفة في الحجم والأهمية ، تتناسب مع البلدان التي يمثلونها ، على الباشا والإدارة المحلية . كان قناصل الدول البحرية العظيمة مثل بريطانيا وفرنسا وهولندة الحكام الحقيقيين ضمن دوائر اختصاصهم . كان يقف وراءهم دائماً التهديد غير المنظور باستخدام

---

(١) اذا كان المتخاصمان من رعاياه اما اذا كان الخصام بين أحد رعاياه وبين أحد المواطنين فالمحاكم للوطنية هي التي تنظر في القضية وتصدر الاحكام بالنسبة للاثنين . (المترجم) .

القوة البحرية ، التي تخشى طرابلس الولاية البحرية ، من هجومها . كان يكفي في فترات القلق والإضطراب ، زيارة الاسطول لتهديد الباشا . واذا ما اخفقت هذه الطريقة لا بد اذن من استدعاء سفينة بحرية لتقف خارج المرفأ ومدافعها متجهة نحو القلعة ، في الوقت الذي يتجمع فيها اتاوة أو تفرض معاهدة . كثيراً ما تخلل تاريخ الولاية قصف المدينة بالمدافع واستسلام الباشا .

كان نفوذ الممثلين القنصليين يتناسب مع السرعة وشدة التأثير اللتين بهما يستطيعون استدعاء العون الخارجي ، أما الدول الضعيفة الصغرى مثل الدويلات الإيطالية فكانت تعاني من نتيجة ذلك . لم يشك الباشا في خرق الإتفاقيات ونقض المواثيق مع هذه الدول . كان يعامل ممثليهم ، في بعض الأحيان ، باحتقار وازدراء ، فكانت حظوظهم تكبر وتتضاءل مع الوضعية السياسية ، والحالة المالية للباشا ، ومع جشع أخلاقه . كان امراً مألوفاً ، اذن ، بالنسبة للدول الصغرى أن تلتمس قناصل الدول الكبرى : الإنجليزي والفرنسي والهولندي ليقوموا بتمثيل بلدانهم ، وللوقوف في وجه مثل هذه التدابير . كانت سياسة الباشا وحكومته قائمة على استغلال اي تنافس بين الدول الأوروبية وزيادته اشتعالا ، وان يعمل على ابقاء الممثلين القنصليين منقسمين على انفسهم ، باللجوء الى حبك الدسائس وتدبير المكائد أو بتوزيع الحظوات . اتبعت اسرة القرمانلي هذه السياسة بشيء من النجاح ، مستفيدة ، كلما تغير المسرح الأوروبي من : أولا استغلال المنافسة الطبيعية بين بريطانيا وهولندة ، ومن ثم بين بريطانيا وفرنسا ، واخيرا بين بريطانيا واميركا .

في الحقيقة يمكن تلخيص سياسة الباشا بكلمات نطق بها باشا طرابلس في سنة ١٧١٦ عندما قدم له كل من القنصل البريطاني والهولندي والفرنسي احتجاجاً حول حجز باخرة من البندقية بتهمة خرق معاهدة : « القراصنة المغاربة ولدوا قراصنة ، وغير قادرين على كسب عيشهم باية وسيلة أخرى ، واذن فمن واجب المسيحيين أن يكونوا دائما على أتم الإستعداد حتى في أيام السلم » .

كانت القنصليات الأجنبية ، في عهد القرمانلية الجائر المتقلب ، مصانة من نزوات الباشا واحكامه المباشرة ، وفي أمن من التيارات الخطيرة الجارفة من التعصب والكراهية ، التي غالباً ما كانت تجتاح المدينة ، حتى اصبحت من القنصليات نتيجة لتقاليد طويلة ملاجيء يمكن ان يتم الحصول فيها على العدل من الظلم ، والأمن من المتابعة والتعقيب ،والإغاثة من العوز والحاجة. انعادة اللجوء متأصلة الجذور في وجدان افريقيا الشمالية. تعتبر بعض الاماكن وبعض المواضيع — خاصة المساجد أو قبور الأولياء والرجال الصالحين أو شخص الباشا نفسه ملابسه أو حصانه ، كل هذه الأشياء ، ان امكن الحصول عليها ، تمنح المتوسل المتضرع حصانة . وهكذا الحال في أعلام بريطانيا وفرنسا وهولنده التي ترفرف عالياً فوق القنصليات قد أصبحت رموزاً ليس للبريطاني والفرنسي والهولندي فحسب ولكن للشرقيين المضطهدين واليهودي المعذب ، وحتى العربي أو البربري الهارب من الثأر الدموي أو من حكم عاجل لم يكن من السهل على قنصل ، في بلد يقوم الاعتبار على عرض القوة ، أن يتفادى على الأقل التلميح بحماية كل القادمين . هكذا كانت تلك المنازل في الغالب قلاعاً صغيرة في العالم الإسلامي المتغير الخطير ، كما تظهر رسائل الآنسة « توللي » مسرحاً للهروب من الإنتقام والمخاطرات .

●

لا تزال القنصلية البريطانية القديمة ، التي أمضت فيها الآنسة « توللي » عشرة أعوام قائمة في طرابلس ، ولو أن البناية قد هجرت وتقوضت وتهدمت فأصبحت أنقاضاً ، عندما شاهدها الكاتب للمرة الأخيرة في سنة ١٩٤٩ يقوم عليها دكان ومخزن لمالطي يصنع التوابيت . فهي بناية كبيرة مؤلفة من دورين ، تقف في زقاق ضيق تملأه من جهة أفران الخبازين ، ، يمتد شمالاً من قوس « سيبتميوس سيفيروس » (١) بالقرب من الباب البحري للمدينة ،

(١) امبراطور روماني (١٩٣–٢١١) وكانت حكومته العصر الذهبي للقضاء ولد بالقرب من لبدة ودرس الحقوق في روما وتدرج في المناصب العسكرية حتى أصبح في سنة ١٨٠ واليا على غاليا (فرنسا) وفي سنة ١٩٢ قائدا للجيوش الرومانية فاعجب به جنوده وكسب ودهم فنادوا به امبراطورا عند وفاة الامبراطور كومودوس سنة ١٩٢ . (المترجم) .

الى المدخل السابق للحي اليهودي الذي كان في أيام الآنسة (توللي) مغلقاً عن قطاع المسلمين أثناء الليل بأبواب ثقيلة . وعند دخول البناية من الشارع يوجد بابان يؤديان الى فناء رئيسي كبير (ممر معقود ، على جانبيه مصاطب حجرية ، يسمى سقيفة ، التي كثيرا ما أشير إليها ، والتي بدورها تفتح على — وسط الحوش —) . هنا تنمو حول نافورة وحوض وبقع صغيرة من الأرض اشجار البرتقال والياسمين وحشيشة الاوجاع ، وتقع الحجرات المظلمة التي كان يعيش فيها الخدم القنصلي والمترجمون الكولوغليون ، الذين يجهزهم الباشا للحماية .

ويحيط المطبخ والمخزن والسجن القنصلي بالسلالم التي تؤدي الى الحجرات المريحة في الطابق الأول ، بنيت على الطراز التركي لتطل على الداخل . توجد في الطابق الأول الشرفات المطلة على وسط المنزل وللحجرات هناك نوافذ صغيرة محمية بمشبكة من الخشب والقضبان الحديدية ، التي تطل خارجاً على الزقاق الضيق تحت . يمتد من الشرفة الرئيسية سلم صغير الى مخازن اخرى ومنها الى سطح واسع فسيح ، تستطيع الاسرة أن تتنزه عليه بين أكوام الفلافل الملونة المنشورة للتجفيف والاكداس السمراء للقمح المجفف في الشمس وأن تجلس في برد المساء تشم أنسام البحر . يشاهد الزائر من هنا منظر المرفأ وقلعة الباشا والباب البحري المؤدي الى رصيف الميناء ، وقوس الأمبراطور « سيفريوس » واسوار المدينة المتداعية .

ان منزلا قريباً ، اذا كان ممكناً ، يطل على المرفأ ، أمر جوهري لكل القناصل ، الذين كانت مهمتهم تتطلب باستمرار مراقبة ذهاب واياب السفن ، فأصوات اطلاقات المدافع من القلعة والباخرة يعقبه ظهور كل قنصل على شرفة منزله أو قمة سطحه ، يحمل الناظور في يده ليتثبت من ألوان راية السفينة القادمة . بأي شعور متباين تتجه خطوط الراية نحو مركز الإهتمام ! فهل هي راية الهلال لقراصنة طرابلس ؟ من المحتمل ان تكون سفينة طافحة بالبشر تحمل شحنة من الغنائم المسلوبة ، وظهرها الضيق مملوء بالوجوه البيضاء البائسة من

الرقيق النصارى الأسرى حديثاً . في مثل هذه المناسبة أصبح من واجب القنصل أن يرتدي بدلة رسمية ويذهب إلى الديوان ، مصحوباً بعدد من المترجمين حيث يحتشد الآسرون والرقيق . هنا في القاعة العظمى المكتظة بجمهور مبرقش من القراصنة العرب والأوروبيين ، والمملوءة بقدر ما تستوعبه عين الخيال بتجار الرقيق ، وحملة الدروع والسلاح ، والموظفين ، والسجناء والباشا في موكبه الفخم المطهم يتقدمه وسامه (ثلاثة ذيول حصان) جاء ليشرف على توزيع الرقيق ويختار العشر حصته الخاصة به ، ويفك الأسر ويعتق الرقيق الذين طالب القناصل بهم (١)

كانت تحكم القرصنة بنظام من القواعد غير المدونة . فرقيق الدول الداخلة في علاقات معاهدة مع الوالي يفك أسرهم ويعتقون : الا اذا أخذوا في الخدمة الفعلية لدولة لا ترتبط بمعاهدة مع الوالي . هكذا فان المسافرين على باخرة دولة غير داخلة في معاهدة يمكن اخلاء سبيلهم اذا برهنوا بأنهم رعايا دولة صديقة . أما البحارة الذين يعملون في السفينة نفسها يظلون رقيقاً . كانت وظيفة القناصل ان يتحروا بدقة قوائم الأسرى ليتقدموا بمطالبهم .

ان المناظر في هذه الدواوين التي ترك لنا (بابانني) صورة عنها لا بد وانها مشحونة بالعاطفة (٢) فالاسرى والرقيق من النصارى ، رجالا ونساء واطفالا ، يساقون بغلظة وفظاعة مقيدين بالاصفاد ، يدفعون بعنف وقساوة الى ذلك الحشد الرهيب ، فيجب عليهم ان يبصروا الصف الذي يجلس فيه القناصل الحاضرون تحفزهم مشاعر الحماس لقومياتهم . عندما تعلن الأسماء من قبل الكيخيا الكبير يعلن الباشا الحصة الخاصة به ، يختار في العادة ذوي المهارات الفنية الذين قد يفيد منهم في خدمة سجون القلعة . وبين حين وآخر ينهض أحد القناصل ويقاطع المنادي يطلب فك أسر احد الارقاء ، وعتقه . وقد ينشب جدل فيؤشر

---

(1) Narrative of A Residence in Algiers.

الباشا بملامح وجهه ، ويعلن الكيخيا الكبير الكلمات السحرية – انت حر – حينئذ يتقدم جندي مسلح ليكسر القيد ويفك الأسر ، فيصبح الرقيق حراً طليقاً.

كثيراً ما تكون السفينة الزائرة تجارية تحمل البريد والمؤن ، ووجوهاً اوروبية ، واخباراً من العواصم الأوروبية ، لان الناس منقطعون عن العالم الأوروبي ، ولا بد وان تكون أيام عيد وسعادة . أو ربما تكون أيضاً ، وفي أغلب الأحيان ، اكثر ترحيباً من اخميع الوان سفينة حربية ، تجلب معها الرسائل الرسمية ، وفي بعض الأحيان الزوار البارزين الممتازين. وتجلب دائماً معها – الاعتبار – تلك البضاعة الغالية ، ولكنها المتضائلة باستمرار .

●

وفيما وراء القنصلية التي في داخل اسوارها تم الحفاظ على طراز ومدنية وآداب وذوق القرن الثامن عشر ، تنتشر طرابلس المدينة العظيمة المبعثرة التي تعرض لنا أخطاء تتابع تواريخ الحوادث وتسلسلها خلال القرن السادس عشر . كانت مدينة طرابلس في ايام الآنسة (توللي) في أوطأ درجات انحطاطها وتدهورها بسبب الإهمال وازدحام السكان واكتظاظهم . كتب « فالبير » الفرنسي (١) قائلا بأن اسوار المدينة كانت مهدمة ومفتوحة للخارج في بعض الأجزاء تشبه الابواب . وفي القلعة كانت مدفعية الباشا مقامة على الحجارة الصغيرة بحيث ان اطلاق المدافع نيرانها تسبب في الغالب انهيار الاستحكامات والمتاريس . وصف الرحالة « بيشي » قائلا بان المدينة مثقلة بأنقاض المنازل المنهارة ، وبالنفايات التي ترميها المنازل والتي لا زالت قائمة ، بينما تحتشد جماهير الأطفال الصغار العرايا القذرين ، وقطعان عديدة من الكلاب التي تتضور جوعاً فتسد المكان الباقي . التراب وحرارة الشمس ، وأكوام البعوض والذباب الذي يهجم علينا من كل اتجاه ، لم تكن اشياء مبهجة بالاضافة الى تلك المزعجات (٢) .

مع أن اسوار المدينة ، كما كانت دائمة في القرن الثامن عشر ، قد اختفت

---

(1) **Vallière**

(2) **Proceedings of the Expedition to Explore the Northern Coast of Africa, Murray, 1828.**

تقريباً نتيجة للتخطيط الإيطالي للمدينة ، فان الخطوط الاولية لاسوار الشمال والشرق لا يزال بالإمكان تعقب آثارها ، وان معظم الأسوار الغربية والجنوبية باقية . تلك هي اسوار عالية ، واستحكامات منحدرة من الحجارة ، تحيط بالمدينة احاطة كاملة من جهتها الجنوبية والغربية تغسلها مياه البحر المتوسط .

يؤلف خليج طرابلس هنا التواء ذا زاوية قائمة جنوباً وغرباً ، وفي الزاوية شعب مرجانية تكوّن مرفأ محمياً حماية حسنة وبصورة طبيعية . ومن السهولة احاطته بالقلاع والحصون التي يصعب الهجوم عليها . الى الشمال من ذلك تمتد الأسوار الى آخر الزاوية الشمالية الشرقية حيث تقوم قلعة الباشا ، سلسلة طويلة وشاذة من الشرفات المربعة الشكل تقريباً ، المنفصلة من البحر والمدينة معا بأسوار عالية . تطل من صحن هذا الحصن المحروس حراسة مشددةنوافذ قليلة العدد الى الخارج ، ومدخل لا يمكن الولوج منه الأ من بوابة محروسة . تقع أفنية المنزل المعقدة والحجرات : والممرات : على مستويات مختلفة ، منفصلة أحدها عن الأخرى بأبواب ثقيلة من الحديد . هنا يعيش الباشا نفسه ، وموظفوه وحرسه وعبيده ، ومساكنه الخاصة بالنساء المحجبات حجاباً دقيقاً، تعيش فيها زوجته وجواريه يعيش هنا ايضاً اولاده وأسرهم في منازل منفصلة بعضها عن بعض بابواب محروسة .

القلعة التي كانت الآنسة (توللي) تعرفها معرفة جيدة ، كانت ولا زالت مجموعة من الأبنية المظلمة الكئيبة التي تثير الدهشة ، يتعثر الزائر في ممراتها الضيقة وتنبعث منها روائح نتنة ، والتي تلف وتدور بالمصادفة ومن ثم فجأة تنفتح نحو فناء مشرق محاط بالشرفات والأعمدة المزخرفة والجدران اللماعة بالقرميد الصيني . ومع ذلك فان بهاء هذه الأفنية وفخامتها كانت في الغالب مسارح لمأساة دموية ، تبدو فقط تعبر عما يتركه الإنطباع العام للسجن واليأس والقنوط . كانت هذه القلعة مسرحاً غريباً وعجيباً ، حيث تنعكس ومضات الجمال المفاجئة على الأسوار لتجعلها تبدو واطئة ، وبؤرة للفساد والفجور والشرور ، والأماني المخنوقة ، يبدو وكأنها لا زالت مسرحاً تعيش عليه اشباح المشاعر الملتهبة والمخاوف ، والجرائم التي يعجز اللسان عن الحديث عنها .

يمتد من قلعة الباشا خندق مملوء بالماء ، اختفى عن الأنظار ، كان يؤدي الى بئر على بعد مسافة . تستمر اسوار المدينة الى ما وراء ذلك ، في التواء حاد غرباً ومن ثم جنوباً ، ليواجه السهل البحري العظيم للتلال الرملية والحصى يدعى – السهل – الذي يمتد إلى صحراء جيفارا القاحلة ، والى سلسلة جبال غريان البعيدة .

تقع المنشية الى الشرق من قلعة الباشا وعلى طول الخليج وتصل حتى أبواب المدينة تقريباً ؛ وهي واحة خضراء ضيقة ، تمتد على حافة البحر لبضعة عشرة اميال والى الداخل لمسافة ثلاثة اميال ، محل مريح فيه اشجار البلح الطويلة التي تتخللها بقع خضراء مزروعة بالخضار والفلفل ؛ وجنائن مسورة مزروعة باشجار المشمش والبرتقال والرمان ، وتكشف ، كما هي اليوم ، في اعماقها عن قرى الفلاحين الصغيرة المبنية بالطين المبيضة جدرانها بالكلس والتي تتصل احداها بالأخرى بممرات مغطاة بحواشي طينية عالية تعلوها أوراق التين الهندي الخضراء .

يحتفظ هنا عدد كبير من أشراف طرابلس بمنازل صيفية ، وعندما يكون الأمن مستتباً في البلاد يخرج القناصل للنزهة وركوب الخيل .

كانت المدينة نفسها تشبه جحور الأرانب من أزقة ضيقة وأسواق معقودة ، وفيها الأبنية البارزة ذات الشرفات . ولم يكن فيها غير عدد قليل من النوافذ يطل على الشوارع ، محكمة الغلق ، ولها مشبكات خشبية غريبة بارزة تحجب الداخل وتحمي المرأة من أن يسترق العابر النظر اليها ، وما عدا الأسواق والمقاهي تبدو الشوارع مهجورة متداعية كريهة المنظر . ويقع مسجد القرمانلي (١) الكبير مقابل باب المدينة المطل على المنشية وبالقرب من القلعة ، المزخرف القرميد والنقوش العربية ، وتصله بالقلعة قنطرة . يقع سوق الرقيق وراء ذلك ؛ بحيث يجلب الرقيق من النصارى ، وبعد تقسيمهم على آسريهم يعرضون للبيع .

---

(١) احمد باشا القرمانلي اول حكام الاسرة القرمانلية · (المترجم) ·

وكان معظم هؤلاء الرقيق من سكان نابولي وأسبان وبرتغال ، وكان الرقيق من فزان يباعون في سوق مجاور . ولا يزال هذا السوق المعقود الطويل قائما ، وفيه كانت تقام وتم صفقات بيع الرقيق في الإسبوع مرة . كان النصارى رجالا ونساء – كما هو المعتاد – يقفون ، ما عدا من يساوم عليه ، وبصورة خاصة ، على مصاطب يعرضهم الباعة : مظهرين مفاتن النساء ومحاسنهن ، وقوة الرجال ، أما الرقيق الأسود فكانوا يسحبون عادة كالبهائم ، الى اعلى واسفل المصاطب التي يجلس عليها المشترون من رواد المقهى عندما كانت تجري المزايدة العلنية .

وتتحدث معظم كتب الرحالة عن المناظر المحزنة التي شاهدوها هنا ، الازواج ينفصلون عن زوجاتهم ؛ والأمهات عن اطفالهم ، ويجرون من قبل المشترين الجدد ليعملوا عمالا وخدماً وحظايا وجواري أو لإعادة بيعهم في تونس والجزائر ومصر والقسطنطينية .

ان يد الإسلام المتعصب قد قبضت بشدة على المدينة . كان يوجد عشرون مسجداً تقريباً . من الممكن ان تكون مراكز دائمة للهياج والإنفعال . وهكذا كان مزاج المسلمين ، ففي أي احتفال ديني ؛ مثل يوم الجمعة او عيد ديني مثل يوم عاشوراء ، أو العيد الكبير ، تنقلب المناسبة الى هياج ضد نصراني أو يهودي .

وغالباً ما كان يتجول الدراويش أنصاف المجذوبين في المدينة ، مطلقي الحرية وبلا رقابة ، بسبب البركة الممنوحة لهم ، وربما يظهرون ، بلا رادع ، غضبهم وينفسون عن هياجهم أو وهمهم في أي شخص يمر في الطريق . ولهذا فان النصراني ، وحتى أكثر من ذلك اليهودي الاعزل الفاقد الحماية ، يسير في الطريق في خوف مستمر من وقوع هجوم عليه . كان من السهل تشخيص اليهود – لأنهم كانوا يرتدون كساء اسود اللون خاصاً بهم وكانوا مضطرين الى خلع احذيتهم عندما يمرون بالمساجد . ولم يكن يسمح لهم بركوب الحيوانات في داخل المدينة . وكان كل الأغنياء من النصارى ، وكل الممثلين القنصليين مزودين بالحرس ؛ وبدونهم لا يركبون الخيل ولا يخرجون للنزهة . ولم يكن

ليهود طرابلس اية حقوق أو أية امتيازات الا اولئك الذين اشتروهم .

ومن بين سكان طرابلس البالغ عددهم ٢٥,٠٠٠ منهم خمسة الاف يهودي من أتباع الطريقة السيفاردية . وكان معظمهم من اللاجئين الذين فروا من الإضطهاد الاسباني في القرن الخامس عشر . وبالرغم من انهم نجحوا قد في الإستحواذ على معظم التجارة والمال في المدينة (كان لهم احتكار تصدير حشيشة الأوجاع ، وريش النعام ، والزعفران) ولكن في الواقع كانوا مضطرين للعيش في عزلة محزنة . كانت أحط الخدمات مناطة بهم مثل جمع القاذورات والأوساخ والمجرمين الذين تنفذ فيهم عقوبة الإعدام علناً ؛ وكمثل للاساءة اليهم كانوا يحرقون احياء ، أو يعاقبون في ساحات عامة ؛ تدق المسامير في احدى ايديهم في باب البيعة يلطخون بالعسل ليموتوا من حرارة الشمس ولسع الذباب . ومع ذلك فانهم استطاعوا ان يدبروا امور حياتهم ليحققوا نجاحاً ؛ بحيث ان جزءاً من رواية الانسة (توللي) تدور حول كيف نجح اليهود في التسلط على الباشا بفضل جارية تدعى (ايستر) (١) وسنرى كيف كان حظها .

●

كانت ادارة الولاية ، كما تشير بتكرار اليها الرسائل ؛ قائمة على النظام التركي الذي يلائم مواجهة الظروف المحلية ، وكانت السيطرة محصورة ، بقدر الإمكان ، بأيدي أناس قلائل وكان معظم الموظفين الكبار مرتبطين عن طريق القرابة والزواج بالباشا نفسه . يأتي بعد الباشا ، بوصفه الرأس الأعلى الذي يتمتع بسلطات غير محدودة ، ابنه الأكبر « البك » الذي كان يشغل منصب قائد القوات المسلحة ومسؤولا عن اشياء أخرى تتصل باستتباب الأمن

---

(١) ايستر هي الزوجة اليهودية لاخشويرش ملك فارس (٥١٩-٤٦٥ ق٠ م٠) ابن ملك دارا الكبير وهي ابنة مردخاي اليهودي الذي كان قد سبي مع يكينا ملك يهوذا على يد ملك بابل وقد تزوج الملك اخشويرش من ايستر بعد خلاف مع زوجته ٠ وحدث ان غضب هامان كبير بلاط اخشويرش على مردخاي لانه لم يسجد فدبر مكيدة لاهلاك اليهود جميعا ولكن ايستر استطاعت ان تلجأ الى الملك وتنقذ اليهود ويعدم هامان ويوضع مردخاي مكانه (المترجم) ٠

عامة . كان يرأس الينيشيارية والكولوغلية ، أو الجنود المرتزقة معاً ؛ والجنود العرب غير النظاميين الذين يجندون للدفاع عن البلاد في زمن الحرب . كان مسؤولاً عن المحافظة على النظام في البلاد كلها ، وجمع الاتاوات من القبائل . وكان تحت امرته عدد من الضباط الذين يسمون « أغوات » ورئيسهم « أغا الينيشيارية » .

أما الابنان الآخران للباشا فانهما يعينان حاكمين للمدينتين المجاورتين . وكان اسطول القراصنة المؤلف من سفن صغيرة تحت امرة رئيس البحرية ورئيس الجمارك ويسمى في أيام الآنسة (توللي) Douanier أو « موظف الجمارك » كان مسؤولا عن شؤون الميناء وكان تحت امرته رئيس الإسطول ؛ الذي يقود اسطول القراصنة في البحر . أما رئيس البحرية في تلك الفترة ، فكان قد دخل في الإسلام وهو من نابولي متزوج احدى بنات الباشا وله نفوذ عظيم في الولاية . وكانت رئاسة البحرية منصباً لا يمكن ان يشغله عادة غير أوروبي دخل في الإسلام ، لانها تتطلب شيئاً من الثقافة والذكاء الممتاز والشجاعة والإقدام وكانت الغارات تشن وفقا للمعاهدات التي عقدها الباشا مع مختلف الدول البحرية وما دامت الولاية تعتمد في القسم الأكبر من واردها على الرقيق والنهب والسلب فيجب أن تكون الاغارات مستمرة وناجحة .

وعلى الجانب المدني كان الكخيا الكبير أكبر موظف ذا تأثير ونفوذ ، تدعوه الآنسة « توللي » (Chiaia) تعني الكلمة باللغة التركية المراقب او الملاحظ ، وهو المستشار الخاص للباشا ، والمنفذ للاحكام التي يصدرها الباشا ، وهو ممثله الوفي في معظم الأمور . يقع مكتبه في نهاية المدخل « السقيفة » في قلعة الباشا . كان يجلس في هذا المكتب يومياً ليراقب الزائرين القادمين الى الباشا . وكان ايضاً رئيساً للبروتوكول والمستشار السياسي ، ومعلماً للبك اكبر انجال الباشا (١) . وكان يساعده معاون اسمه « الكخيا الصغير » كان يشغل هذا المنصب ، دائماً ، اذا كان بالإمكان ، شخص من أقارب اسرة القرمانلي وكانت

(١) كان تعليم البك من وظائف الكخيا الصغير وليس الكخيا الكبير (المترجم) .

مسؤوليات هذه المناصب تتطلب ، بطبيعة الحال ، رجالا يتميزون بحكمة عظيمة ومعرفة بتقاليد البلاد وعاداتها ، ومعرفة ايضاً بالعقلية والاجراءات الأوروبية . وبالإضافة الى ذلك كان من مسؤولية الكخيا مراقبة كل الشؤون المتصلة بالقبائل ، وتنفيذ كل القوانين والأوامر الصادرة من الباشا ، في ضمنها معاقبة المذنبين ، كان الكخيا الصغير ، الذي يعاونه رئيس الكتاب يسمى « كاتب » مسؤول عن قيادة الحرس الخاص بالباشا وعن خدمة القلعة .

وكانت تدار كتابة سر الباشا بالخواجات ، أو رؤساء الكتاب الذين منهم يتم اختيار السفراء والقناصل عندما ترسلهم الولاية الى الخارج ، لأنهم سبق وان حصلوا على دربة ومران في دبلوماسية الباشا المعقدة .

وكانت تدار أموال الولاية باثنين من امناء المال (خازندار) أو أمناء الخزانة . وكان الامين الخاص بخزانة الباشا يقيم في حجرة واحدة محصنة تحصيناً قوياً في القلعة التي يستطيع الباشا وأمين الخزانة (الخازندار) وحدهما استعمال مفاتيحها . وفي الليل يسلم أمين الخزانة المفتاح الخاص بحجرة الخزانة ؛ ويسلم الكخيا المفتاح الأكبر للباب الرئيسي الى الباشا الذي يحتفظ بهما في غرفة نومه . وهكذا يحمي القلعة من دخول غادر ليلا وكان الخوف من الغدر والخيانة ، حقاً ، العامل الذي يقرر اختيار بعض الرجال لاشغال تلك المناصب المهمة والتوزيع غير المألوف للوظائف المناطة بهم . هذا ولو أن الكخيا الصغير كان مسؤولا عن حراسة القلعة فان امين الخزانة (الخازندار) له الإشراف والرقابة على رقيق الباشا ، لان وضع هذين القطاعين معاً تحت امرة واحدة معناه اتاحة الفرصة لاحتمال وقوع انقلاب في الدولة .

ويعرف الشرطة وضباط القانون باسم (شواويش) تدعوهم الآنسة تولي Chaoux ويعمل هؤلاء ايضاً حرساً ومراسلين . وكان يعاونهم في حالات تشتبك بها مصالح الباشا المباشرة الحراس الذين يدعون Hampas (وتعني باللغة التركية النصير ، أو التابع) وكان معظمهم من الينيشيارية والنصارى الذين دخلوا في الإسلام أو الزنوج ، وكان في وسط المدينة مركز للشرطة

والحرس بأمرة الآغا ، يساعده عدد آخر من الشواويش الذين يستخدمون لرقابة المدينة . وكان مركز البوليس يسمى (ساندانار) .

أما الإدارة المدنية فكانت المدينة تدار من قبل « شيخ البلد » وتنفذ بعدد من الضباط الصغار يدعون « قواداً » — Kaids — وكانت الاقليات العنصرية ونقابات المدينة تمثل بقادة . ولهذا كان في طرابلس قائد لليهود وآخر للنصارى وثالث لنقابة النبيذ ، ورابع لخبازي المدينة . وكان القادة مسؤولين أيضاً عن ادارة المناطق الفرعية خارج المدينة والمناطق القبلية المختلفة .

كان القانون الإسلامي يشمل حقلا واسعاً من الحقوق المدنية والإجتماعية والعقود مطبقاً ، كما هو اليوم ، من قبل القاضي أو الحاكم الديني الذي كان يساعده المفتي في أمور التفسير الديني . اذا اقتضى الامر أن يصدر الباشا أحكاماً، ففي هذه الحالة اما أن يساعده القاضي أو الكخيا الكبير .

وكتدبير آخر للسيطرة فان شاويشين يحملان اسم مترجمين ، ومن حرس القلعة يرتبطان بكل قنصلية ويقومان بغرضين : يصحبان القنصل أو اسرته عندما يتجول في المدينة (اذا رغب القنصل بالتجوال خارج ابواب المدينة يزداد عدد الحرس الى ثلاثة) ويقومان أيضا كمخبرين للكخيا الكبير عن كل ما يجري في القنصلية . وبذلك يحتفظ الكخيا الكبير بأصبع على كل النشاطات القنصلية . لم يستطع قنصل واحد ان يرفض هؤلاء الضيوف الثقال الظل . والقيام بذلك تجريد الباشا من مسئولية المحافظة على سلامة الحاشية القنصلية . كان من السهل حقاً على الباشا ، في تلك البلاد التي لا قانون لها تقريباً ، حيث كان يعيش النصراني فضولياً مكروهاً ومحتقراً ، أن يدبر حادثة تضع القنصل سريعاً في حالة استعطاف . تقدم الانسة (توللي) تقريرا واضحاً لما يمكن ان يحدث لأحد القناصل ، حتى ولو كان محاطا بحرس ، حين يكون مهملا أو سيء الحظ .

هكذا كانت المدينة في عهد الأسرة القرمانلية ، وهكذا كانت باختصار ادارتها . في سنة ١٧٨٨ ، التي تصادف ذكرى مرور اربعين سنة من حكم علي القرمانلي ، حفيد مؤسس السلالة ، كانت طرابلس في حالة يرثى لها

بعد سنوات من الاهمال والدمار . ولم تكن ، في الواقع ، ثروات الولايـة ، وأموالها ، قد انخفضت الى أقل ما هي عليه الان .

الباشا شيخ عجوز متقلب المزاج ، شرير آثم ، تنازل عن كثير من سلطاته، ويبدو أنه يعيش للشرب والنساء فقط . فمن النادر ان غادر القلعة ، أو ظهـر متجولاً في المدينة ، أمضى أيامه ، فيما يدعوه العرب « الكيف » (١) بينما ام اولاده الثلاثة اللالة الكبيرة ، ناضلت نضالا مريراً من أجل احلال السلـم بينهم ، ويهودية معروفة محلياًبأسم « الملكة ايستر » وعدد من الجواري قـد ابتلعن مشاعره ، واستهلكن جوهره وعزلنه عزلاً تاماً .

كتب القنصل الفرنسي المعاصر « فالبير » — Vallière — عن الباشـا قائلا : « يحكم ولكنه لا يطاع . سيد لممتلكات عظيمة لا تغل شيئاً ، يعيش في عوز شديد ، والتي إذا ما اتيحت لها ادارة عاقلة حكيمة يمكن تحويلها بكل سهولة الى ثروات عظيمة ، حبيس الحرم : انهمك بكل ما فيه ، من جذوة ، وعاطفة مع الوصيفات السوداوات ، وجشع لشرب المسكرات من معمـل التقطير الخاص به ، فهو لا يبني شيئاً ، ولا يرمم شيئاً ، يترك كل شيء ينهار ويتقوض» .

أما الريف فقد كان أكثر فقراً ، واشد عوزاً ، تعرّض لاقسى المنازعات وأطولها ، بين علي القرمانلي وأحد المدعين (٢) بالعرش ، الذي كان يمده بالمساعدة باي تونس . ان المناوشات المستمرة على الحدود التونسية ، والمخاوف المتكررة ، وكميات المال الهائلة التي يجب أن تدفع للقبائل المترددة المذبذبة من أجل الحفاظ على ولائها : كل هذه الاسباب أسهمت في الانهيار الاقتصادي الفعلي للولاية . وظل اسطول القرصنة عاطلا ، وخزانة الباشا فارغة خاوية .

وبنفس الوقت كان أبناء الباشا الثلاثة حسن البك وأحمد ويوسف منهمكين

---

(١) الكيف ـ يعني شرب الخمرة . (المترجم) .

(٢) يدعى مصطفى القرمانلي (المترجم) .

في نضال مستمر من أجل القبض على أعنة السلطة ، ذلك النضال الذي يؤلف موضوع القسم الاكبر من قصة الانسة « توللي » . وربما يظهر حسن الابن الاكبر أفضل شخصية بين الثلاثة . ففي الفترة القصيرة التي كانت امامه اظهر كفاءة ونشاطاً ، واذا ما قيس بمعايير تلك الايام فانه كان حاكماً أميناً وادارياً حازماً . أدرك بأن الحالة الاقتصادية المقبلة للولاية ، والتي كانت في اسوأ ضائقة ، تعتمد الى درجة عظيمة على حالة الامن والطمأنينة والاستقرار في المناطق القبلية .

فما دامت طرق القوافل مهددة بالغارات ، والمناطق الزراعية في الولاية مهجورة بسبب عدم الاستقرار وفقدان الامن ، فلا بد وان يكون الامل ضعيفاً بتحسين امدادات الطعام القليلة الهامشية للولاية أو التجارة التصديرية ، فكرس القسم الاعظم من جهوده في محاولة تهدئة القبائل العربية القلقة في الداخل. استطاع ان يحسن العلاقات مع باي تونس ونجح بمساعدته وعونه أن يخمد ثورات القبائل على الحدود التونسية . ولا ريب في انه لو استطاع أن يكرس جهوده كلها لمهمة اخرى فانه لا بد وأن يحرز نجاحاً ويحقق نصراً . ولكنه كان قلقاً مشلول اليد بالدسائس والمؤامرات السياسية المستمرة التي يدبرها أخواه ضده .

ووفقاً لما تقتضيه القواعد والتقاليد المرعية صدر أمر تعيينهما حاكمين لمدينتي زواره ومصراته ، ولكنهما من النادر ان يحضرا الى مركزي عملهما ، كانا يمضيان القسم الاكبر من اوقاتهما محاطين بعصابات من السفلة الفجار المؤلفة من الخدم البربر والزنوج ، يتخاصم احدهما مع الاخر ومع أبيهما ، ويشنان الغارات على الفلاحين في القرى ، أو يدبران المكايد والدسائس في القلعة ضد أخيهما الاكبر .

ان اطلاق ايديهما تعبث في أمن البلاد وإستقرارها على هذه الصورة يعني كشف خلق أبيهما وطبيعته الضعيفة الغادرة الخائنة وعرضها للدسائس التي قد لا يستطيع السيطرة عليها ، كان على حسن ، اذن ، أن يترك سياسة تهدئة

الريف واستتباب الامن فيه ، من أجل أن ينقذ وراثة العرش لنفسه ، ولكن جهوده ذهبت سدى كما سنرى ذلك . ان الخيبة التي حصلت من عدم الاستقرار واضطراب حبل الامن ادّت مباشرة الى قلة المواد الغذائية واخيراً الى المجاعة . أما أحمد الابن الاوسط ، فقد أوقع نفسه ضحية لدسائس أخيه الاصغر ومكايده ، ويبدو وكأنه قد ورث عن أبيه الخلق الضعيف والمجاملة . هاتان الصفتان اللتان استغلهما اخوه الاصغر لتحقيق أغراضه ، في فصل اخويه الكبيرين أحدهما عن الاخر وعزلهما معاً عن أبيهما وازالتهما من طريقه واحداً بعد الاخر .

كان يوسف القرمانلي شخصية جذابة طموحة ، داهية لا ضمير له ولا وجدان . يجب أن يكون قد صمم منذ نعومة أظافره ، بأن يتولى العرش بعد والده والياً وباشا ، وتصف رسائل الانسة (توللي) بكل مقدرة كيف أنه عمل على تحقيق ذلك بالدسائس والاغتيال . أخيراً نجح فحكم الولاية اكثر من اربعين سنة بمهارة ونشاط وهمة . كان يتحلى بكثير من الصفات التي كان يتميز بها الحكام العرب في الماضي : طموح متعجرف ، يتخذ قرارات سريعة لا رحمة فيها ولا هوادة ، شخصيته ذات سحر عظيم ، ويمتلك قوى للاقناع — وصفه اخوه الاكبر بقوله : « جميل الصورة ، شاب طائش نزق » له القدرة على جذب مشاعر الناس واستمالة عواطفهم ، داهية ذو حنكة ، وذو قدرة خاصة للنفاق والرياء ، تستهويه الحيلة وتستميله الخديعة (انظر كيف تجول في القلعة احياناً متخفياً بزي أمرأة لتحقيق أغراضه فهو العبقري الشرير وبطل هذه القصة معاً) .

كان ابوه يحبه حباً جماً ، ويحيطه بعواطفه ، على النقيض من شعور الكراهية الذي يبديه علي القرمانلي لابنه الاكبر . يظهر من هذا الكتاب ومن سرد الاحداث التاريخية كيف أن يوسف قد تجاوز كل قواعد الواجب والولاء والاخلاص لابيه وأخيه الاكبر معاً ، ومع ذلك كان موضع مغفرة وتسامح . تم له الوصول الى الذروة في ظروف تمثل أقصى الخيانة والفظاعة عندما

قتل البك امام أمهم – قصة لا زالت تروى بفزع وهلع من قبل عرب طرابلس وقد غفر له أبوه وسامحه . يعتمد وصف الانسة (توللي) لهذه الظروف ومشهد الاغتيال بكل وضوح وجلاء على مشاهدة الاحداث بنفسها ، فهي معرفة أولية ومن الممكن تحديد وتعيين البقعة التي حدث فيها الاغتيال من تقرير الانسة (توللي) التي لا زالت تعرض لزوار القلعة .

وهكذا عندما تفتح هذه الرسائل ويرفع الستار عن – المآسي المظلمة – يظهر علي القرمانلي الضعيف الشخصية تمزقه الشكوك والريب والدسائس والحب والخوف ربما على حياته الخاصة ، البك في منظره الفخم ؛ اللطيف ؛ الهادي البهيج ، كما تراه الانسة (توللي) : يغزل من فترة حياته القصيرة ، بعضاً من جهله بالقوى المتحركة ضده ، وثورة يوسف التآمرية الشرسة ، والاغتيال الاخوي ؛ واستعداده للخضوع لكل عاطفة همجية من أجل تحقيق أهدافه . هذه هي العواطف الجامحة ، وهذه هي المشاهد التي يجب أن تكون قد اعادت نفسها باستمرار في حوليات الطغيان الشرقي ؛ ولكن بكل تأكيد ، من النادر أن نجد لها وصفاً رائعاً ينبض بالحياة ، وبكل دقة من قبل ملاحظة أجنبية هادئة الطبع محبة للاطلاع .

●

توجد ثلاثة احداث أخرى الى جانب النزاع على السلطة بين أفراد أسرة القرمانلي التي تؤلف الموضوع الاساسي الذي يقرر شخصيات هذا الكتاب ؛ قد سيطرت من قريب أو بعيد على القصة . تلك الاحداث هي المجاعة سنة ١٧٨٤ وموجة وباء الطاعون المرعب سنة ١٧٨٥ ، واحتلال طرابلس سنة ١٧٩٣ من قبل احد المخاطرين اسمه « علي بورغول » – من جورجيا .

كانت الكارثة الاولى نذير شؤم مباشر بالكارثة الثانية ، ومنهما معاً ؛ كما رأينا ، تطورت الحالة المتدهورة لاقتصاديات البلاد . واتخذ انحباس الامطار وفشل محصول غلتي القمح والشعير صفة دورية منظمة في ليبيا ، وعدم كفاية مخازن الغلال التي بنيت منذ زمن بعيد لمجابهة السنين العجاف ، الا ان فقدان

الامن ، وهروب الفلاحين من المناطق الزراعية قد ترك مخازن الغلال في حالة غير قادرة على اعالة السكان طوال السنة لقلة المحصول .

حدثت نفس الظروف في طرابلس سنة ١٩٤٨ حين شهد الكاتب نتائج قحط تسبب عن سياسة قصيرة النظر للادارة البريطانية ، ونفس المشاهد التي وصفتها الانسة (توللي) بكل ما فيها من كآبة وحزن . كانت المسيرة المحزنة المفجعة للاسر العربية الجائعة القادمة من المناطق الخارجية الى المدينة فتعرضت للموت جوعاً بحيث لا يمكن معرفة عدد الوفيات بالضبط. لقد هلكت منها بضع مئات، ومنظر الملجأ الذي بنته ايدي وجهود عرب طرابلس انفسهم محزنة حقاً.

وهكذا الامر في مجاعة سنة ١٧٨٤ التي لم تستطع المدينة ان تجد ما ينقذها من اطعمة ، فأنهك الجوع السكان وأضناهم ؛ وجعلهم طعمة سائغة لموجة وباء الطاعون التي اجتاحت البلاد في السنة التالية .

هنا يبرز قلم الانسة (توللي) اكثر تدميراً واراقة للدماء : جثث الموتى مطروحة في الازقة والشوارع ، الروائح النتنة الكريهة تنبعث من كل مكان ، القنصليات مقفلة عن العالم لأشهر عديدة ؛ بينما الاموات الذين لا زالوا ينازعون سكرات الموت مضطجعين على الارض حول اسوار القنصليات . اليهود يدفنون موتاهم في منازلهم الخاصة . فقد هلك حوالي ١٠،٠٠٠ شخص من سكان المدينة ، من ضمنهم نصف السكان اليهود وتسعة اعشار النصارى.مات ولدان من ابناء البك السيء الحظ ، مع عدد كبير آخر ، ولم تخطىء المنية الا واحداً من كبار وزراء الباشا . وقد دفن في خارج المنشية ٢٥،٠٠٠ عربي عندما جرفت البلاد موجة وباء الطاعون .

كانت المأساة الثانية التي دمرت الولاية والحقت بها اضرارا جسيمة هـــي اغتيال البك في سنة ١٧٩٠ من قبل يوسف القرمانلي الذي اعقبته حرب أهلية ، اندلعت نارها بين يوسف وأبيه وأخيه. وكانت النتيجة انتشار الفوضى(١) وعدم

---

(١) لم تكن كل القبائل راضية عن تصرف سيدي يوسف . وخاصة سكان مصراته . وانقسمت الى فريقين : فريق يؤيده واخر يعارضه ويستنكر جريمة اغتياله لاخيه البك . (المترجم) .

الاستقرار ، فاستغل يوسف هذه الفرصة ؛ يسنده رجال القبائل ، ويساعده التابعون من الكولوغليه أن يفرض الحصار على طرابلس ، ويمنع عنها المواد الغذائية مما سبب الانهيار الاقتصادي السريع للولاية . وأدى مباشرة الى أن يقوم السلطان في تركيا بحركة دفعت البلاد التعيسة على الغرق في كارثة اكثر نكبة ومصيبة .

في تلك الاثناء هرب مخاطر جورجي من الجزائر الى القسطنطينة بعد نزاع مع الداي يبحث عن حقول أخرى يفرض سيطرته عليها . أحاط السلطان بالحالة البائسة التعيسة التي تمر بها طرابلس ، ولما لم تقدم طرابلس أية اتاوة منذ سنوات عديدة ، رغب السلطان ، بصورة غير رسمية ، أن يقدم عوناً لذلك الجورجي – علي بورغول – فيرسله الى طرابلس لخلع الوالي القرمانلي ويستولي على عرشه باسم السلطان حتى يتم تعيين الداي المناسب .

وصل « علي بورغول » مع اسطول صغير مزود بمحاربين من المخاطرين الذين دخلوا في الاسلام وجنود اتراك غير نظاميين ، الى طرابلس سنة ١٧٩٣ ليجد النزاع بين يوسف قرمانلي وابيه واخيه . ولما كانت قوات الباشا منقسمة على نفسها ، وما لديه من موارد قليلاً جداً ، وعزيمته واهية عاجزة ، كان من السهل ان ينزل (علي بورغول) قواته الى البر وان يحتل القلعة ويخلع الباشا ويستولي على العرش باسم السلطان ونيابة عنه (١) نفي الباشا ، وفر يوسف الى تونس وبدأ (علي بورغول) حكماً قصير الامد من السلب والنهب وصف بالفظاعة والشناعة من قبل كل التقارير المعاصرة . ان اسلوب الحكم الاهوج القائم على اعدام الناس علناً ، ونهب اموال الناس وسلبها ، والشراسة التي مارسها الفاتح جعل كل شيء ارتكبه عهد القرمانلي يبدو معتدلا بالمقارنة .

في هذه النقطة بالذات تنتهي قصة الانسة (توللي) . غادر القنصل البريطاني

(١) لم يكن السلطان التركي على علم بمؤامرة علي بورغول على مدينة طرابلس . كما يقول عمر بن اسماعيل في كتابه : انهيار حكم الاسرة القرمانلية . (المترجم) .

واسرته البلاد ، وربما كان سفره قد تم بسرعة بسبب رفض (علي بورغول) ان يستقبل الممثلين الاجانب في حجرة الاستقبال الا اذا جاؤا حفاة الاقدام ، لا يحملون سيوفهم فرفضت الهيئات القنصلية ذلك . هرب القنصل الهولندي ، وسبق ان تقرر سفر اسرة (تولّي) ولكنها اسرعت في الاعداد والتهيؤ لـــه ، وتركت طرابلس براحة تامة دون شك .

أخيرا تم طرد (علي بورغول) من طرابلس بثورة جماهيرية يؤيدهـــا يوسف القرمانلي وجنود تونسيون . الا ان صعوده السريع المفاجيء ، على كل حال ، لم ينته عند هذا الحد فقد وجد سلبه ونهبه طريقه الى القسطنطينية ، وقد سر السلطان ، فعينه حاكماً على مصر . ولكن طبعه الشرس القاسي ، وخلقه الفظيع أخذ بالتلاشي ، وبعد حين قصير قتل غيلة من قبل المماليك .

●

كان وصول الانسة (توللي) الى طرابلس سنة ١٧٨٣ عندما رفع الستار عن مشاهد مأساة اسرة القرمانلي هذه . فبعد ان عاد القنصل (ريشارد توللي) مع أسرته الى الولاية ، وبناء على ما جاء في السجلات ، يبدو أنه كان قنصلا فيها منذ سنة ١٧٧٢ وكان آنذاك عائداً في مهمة ثانية استمرت عشرة أعوام . لم يظهر المستر (توللي) في القصة الا قليلا ، ولا توجد الا معلومات بسيطـــة وقليلة عنه (١) وفي الواقع لم تكن الانسة (توللي) مهتمة بتصوير أو بتعريف احد افراد أسرتها . كانت عيناها منصبتين على ما كان يدور خارج اطـــار اسرتها . وقلمها كثير الاتزان في تسجيل الاحداث والوقائع التي تحدث في المدينة . فاذا ما ركزت اهتمامها على ما كان يجري داخل نطاق اسرتها فلا بد انها تطرح جانباً تلك الاحداث والوقائع . ومن المحتمل ، بالطبع ، ان يكون المحرر المجهول الذي طبع ونشر رسائلها قد حذف منها الاجزاء الخاصة بالاسرة وعلى كل حال ، فانها لم تصل الينا .

تتألف قصتها من سلسلة من الرسائل حررت في طرابلس لمراسل مجهول

(١) ما عدا ان راتبه كان بصورة محزنة قليلا ، وكان مثقلا جدا بالديون .

في الفترة الواقعة بين سنة ١٧٨٣ و ١٧٩٣ . وصلت الى طرابلس وهذه المهمة واضحة كل الوضوح في ذهنها ، فوطدت نفسها ان لا تكتفي بوصف الاحداث السياسية في الولاية كما تبدو ظاهرة للعيان ، ولكن لتتغلغل في صميمها ، وتبحث عن أصولها وجذورها التاريخية ، وتدون التقاليد والعادات والاعراف ، التي شعرت من الضروري أن تطلع مراسلها وتثقفه .

كانت هانئة في اقامتها بمنزل هيأ لها الفرصة لجمع معلوماتها ، فقد كانت القنصلية كما رأينا ، بصورة طبيعية ، مركزاً للزوار من كل النماذج ، وكان من واجب القنصل أن يكون على اتصال بكل ما يجري في المدينة ، وأية مهمة اسهل لسيدة ، بكل ما لديها من وقت كاف ، وقليل من الترفيه والتسلية ، اكثر من الاصغاء وتدوين ما يدور على الافواه من قصص السيدات العربيات الصديقات والخادمات ؟ .

تجد كل الاقاويل والاشاعات طريقها الى الحريم ، كما لو كانت مجذوبة بقوة الجاذبية ، قام الحريم في العالم الاسلامي بدور اكثر أهمية مما يمكن ان نتصور . كانت الحرم في طرابلس مفتوحة للانسة (توللي) ولا بد وانها كانت دؤوباً لا تمل ولا يثنيها التعب في بحثها من اجل الحصول على المعلومات . كانت تتمتع بموهبة حسنة تجعل مخبريها يتحدثون بكل طلاقة . ويتضح ذلك في التقارير والقصص المختلفة التي روتها عن القلعة متماسكة الاجزاء ذات موضوع متناسق لا توجد فيها فجوات أو ثغرات ابداً ، ولا التقارير المليئة بالاشاعات والظنون المبالغ فيها ، تبدو جميعها واضحة ، ومتصلة الحلقات ، رويت بكل دقة أولا ثم دونت بكل أمانة ايضاً .

حين وصولها بدأت تحرر رسائلها وهي جالسة على نافذة حجرتها الخانقة في القنصلية — عندما كانت العواصف الرملية تهب في شهر يونيو على مقربة منها ، فتجعل رائحة المدينة كريهة تعافها النفس : « سأكون قادرة خلال اقامتي هنا ، على ان اقدم لك سلسلة من الاحداث التي تستحق منك المطالعة وامعان

النظر .. واقترح بكل بساطة أن أروي الحقائق كما تحدث بدون أي تزويق أو تجميل » .

وهكذا تقوم بما وعدت ، هادئة الطبع ، بعيدة عن العواطف والاهواء ، مع نظرة ثاقبة تتوخى الاسهاب والتفصيل ، واذن صاغية تحسن الإنصات ، تحرر رسائلها بدون فن وبكل بساطة حقيقية ، عن الاحداث التي تقع تماماً . هذا هو السبب في قيمتها للمؤرخين الذين جاؤا بعدها . الا أن كتابها لا يهم المؤرخ فقط فهو معين لا ينضب بما فيه من حقائق قيمة ممتازة للمتتبع في الدراسات الاسلامية . تتميز تقاريرها عن حياة النساء المسلمات في المدينة وخاصة حرم الباشا بأهمية عظيمة : كيف يتمضين السنوات بالاوهام الخادعة والاحلام التي لا تتحقق ، في أعماق الاسوار المغلقة التي تحيط بالقلعة ، فرائس باردة للمكايد والدسائس ، والمحبة والكراهية في عالم ضيق مليء بالعاطفة المكبوتة المخنوقة والساعات الطويلة المظلمة القاتمة من الملل والضجر .

وبوصفها امرأة ، استطاعت الانسة (توللي) أن تنفذ بسهولة وباستمرار الى عالم لا يستطيع الولوج اليه حتى من قبل الرحالة الرجال الذين عرفوا بجدهم واقدامهم ، بل كان من الاسهل على رحالة رجل أن يـــذهب الى الغابات الاستوائية من أن يدخل في وسط حوش ضيق معزول عن السماء بقضبان حديد مشبكة ضخمة ، تعيش فيه (اللالة حلومة) و (ملكة ايستر) و (ميزيلتوب) الشريرة والنساء والاقارب ، وجواري الباشا اللواتي لا عدد لهن ولا حصر . وحتى الانسة (توللي) كان من الممكن ان تتعلم الشيء القليل اذا لم يحالفهـــا الحظ السعيد بصحبة ابنتي اخيها اللتين كانتا تتكلمان اللغة العربية من طفولتهما ، وكلتاهما معروفتان لدى افراد الاسرة المالكة .

لم تكن الحياة بالنسبة لها سهلة خلال الاعوام العشرة هذه . كانت عـــين الخيال تنظر اليها وهي تخرج الى تلك الازقة المملوءة بالاوساخ والقاذورات ، والقلاقل والاضطرابات ومعها المترجم ، وعيناها يقظتان منتبهتان . فترتفع غيوم من الاتربة تحت اشعة الشمس الوهاجة المحرقة ، تهاجمها اسراب مؤلفة

من عشرات الالوف من الذباب ، ترتفع من أكداس الفضلات والقاذورات في الشوارع التي تشق دربها خلالها بكل حذر ويقظة حتى تصل الى القلعـــة . فتشاهد عبداً هارباً ، أو مرابطاً مجنوناً يرغي ويزبد عليها حين عبورها الشارع أو مشاجرة مفاجئة ، أو رأس أحد أفراد القبيلة ملتصقاً ومعلقاً على عمود أحد الشوارع ، أو يهودياً مسمراً بفظاعة وشناعة على باب البيعة ، وفوق كل ذلك عليها ان تكتشف طريقها وسط كل هذه المزعجات ، ملاحظة ومستطلعـــة ثابتة الجنان رابطة الجأش . ربما أصبحت بعد حين متطبعة متمرنة على تحمل الصدمات والملل والضجر . تكتب قائلة : « منذ حجرنا الصحي الطويل الامد سجناء محصورين لمدة ثلاثة عشر شهراً ، من بداية يونيو ١٧٨٥ الى نهاية يوليو ١٧٨٥ (١) اغتنمنا لانفسنا كل فرصة للتمتع بحريتنا » . تستطيع أن تكتب ذلك باتزان ورصانة ، ولكن اية صورة تجمعها من دار القنصلية الصغيرة المحاطة بالمرض والموت المفاجيء ، وفقدان الوقاية الصحية ، وقلة الماء وصعوبات الحصول على الطعام ولمدة ثلاثة عشر شهراً منفصلة عن العالم الخارجي .

كان أسلافنا في القرن الثامن عشر اصلب عوداً منا ، ولم يكونوا دقيقين جداً في الامور الصحية والنظافة ، ولكن حتى بالنسبة لهم لا بد وان كانت الحياة قاسية وصعبة . كان على الانسة (توللي) ان تمضي عشرة أعوام مـــن حياتها بدون تذمر أو شكوى في مدينة تضم ٠٠٠ ، ٢٥ شخص أمين ، متعصبين وعرب بدائيين لا تعرف الانسة (توللي) لغتهم (فان مفرداتها غير الدقيقـــة للجمل العربية القصيرة في آخر الكتاب أغلبها من الترجمة اللفظية لما سمعته من الخدم) ، محاطة بالمرض والاوساخ ، وقلة الماء ، وفقدان الامن باستمرار ، ومشاهدة اعمال العنف والقسوة بعض الاحيان بالقرب من أبواب منزلها ، كل يوم ، فاعتادت على مشاهدة المآسي لما يكابـــده ويعانيه زملاؤها النصـــارى المستعبدون ، بدون تنوع في الصداقات (فلم يكن آنذاك اكثر من اثنتي عشرة

---

(١) الصحيح الى نهاية يوليو ١٧٨٦ لمدة اربعة عشر شهرا . انظر الرسالة المؤرخة ١٠ سبتمبر ١٧٨٦ . (المترجم) .

امرأة في المدينة) ، وقلة الانباء والملل والضجر لا بد وان كانت كل هـذه المزعجات قد مرت بها وخبرتها .

يثير هذا الكتاب حقاً فضول الانسان عن مؤلفته . فماذا حدث لها بعد ان أبحرت من طرابلس في ذلك اليوم التذكاري في أغسطس ١٧٩٣ ؟ ومن الذي اكتشف رسائلها : التي لم تنشر الا بعد ثلاثة وعشرين عاماً بعد الحوادث التي وصفت فيها ؟ لمن وجهت تلك الرسائل في الاصل ؟ من الذي أعدها للطبع والنشر ؟ أين هي الرسائل الاصلية ؟ يود الانسان أن يعرف اجوبة عن كل هذه الاسئلة .

عندما طبع ونشر كتابها أحرز نجاحاً سريعاً ، وفي السنوات الاولى الثلاث أعيد طبعه عدة مرات . وقد ترجم الى اللغة الفرنسية سنة ١٨١٩ وثانية سنة ١٩١٢ . أعتقد بوجود ترجمة باللغة الهولندية .

تعتبر الرسائل مصدراً غنياً لكل باحث يأتي بعدها يدرس الفترة التاريخية هذه . لقد أفاد منها فائدة شاملة كل من : (فيرود وميكاكي) .

من المحتمل أننا سوف لا نعلم الشيء المزيد عن تاريخ حياة الانسة (توللي) ومع أنها تطمس أثرها بنفسها يجب أن تتلألأ وتظهر في أفاق اخيلتنا كلما قلبنا صفحات كتابها . ولكن قصتها تنتظر ، فحين نفتح الصفحة الاولى تدعنا نفكر بها في ذلك الشهر من يونيو ١٧٨٣ جالسة على مكتبها في القنصلية القديمة في زنقة اليهود ، تكتب أول رسالة منها الى انجلترا . شهر يونيو فصل رديء سيء في ليبيا ، في فترات من الشهر تحمر السماء الجنوبية بنور أصفر مكفهر ، فيهرع أهل المدينة الى منازلهم ويغلقون المشبكات الخشبية . وعند ذلك ومع دوامة تهب ريح عاتية ساخنة ، تحمل غباراً اصفر اللون رقيقاً قادماً من الصحراء ، فيلفح جسم الانسان فيحرق الجلد ، ويخدش العينين ، ويجفف الخضار الى درجة انها تجف وتيبس وتتهشم أمام العينين ، وتنشف مجاري المياه ، فيذبل كل ما تلمسه من خضرة ، تشق طريقها بقوة في كل شق وفجوة في المباني

تغطي كل شيء بتراب دقيق ناعم اصفر اللون .
لا بد وأن كانت دار القنصلية القديمة لا تشكو شيئاً في تلك الايام . وبدون اكتراث ومبالاة لكل تلك الاحداث ، تمسك بقلمها فتحرر رسائلها وتكتب مذكراتها ، وذهنها مشغول بعيدا بمراسلها في انجلترا . يرفع الستار ، فتبدأ مأساة القرمانلي .

بغداد ١٩٥٦ سيتون ديردن

ملاحظة :

ان النصوص التي جاءت في هذا الكتاب هي نفس نصوص الطبعة الاولى ، المنشورة سنة ١٨١٦ . لقد تغيرت المقدمة ، بصورة خاصة ، في الطبعات التالية ، ولكن لم يدخل عليها أي تحسين . وصفت المؤلفة بأنها « شقيقة المتوفى المستر ريشارد تولي » وأشير اليها في الطبعات الاخيرة بأنها « شقيقة زوجته » أشرت اليها في هذا الكتاب للسهولة (الانسة تولي) .

اثقل محرر الطبعة الاولى الصفحات بهوامش طويلة ، وغالباً ما تكون غير دقيقة ، وغير صحيحة وفي العادة جغرافية وتاريخية ، فحذفت كل تلك الهوامش في الطبعة الحالية وابقيت هوامش الآنسة (تولي) واشير اليها بالحرف T واحتفظ بتهجئة الاسماء الاصلية كما جاءت بقلم المؤلفة والكلمات العربية ... الخ الترجمات الصحيحة لها يمكن الاطلاع عليها اما في المقدمة أو الهوامش .

أبقي الملحق على حاله ، والا فخلاف ذلك قد يفقده سحره وجماله .

مقدمة الطبعة الأولى

لايمكن أن يكون ثبوت الرسائل التالية وصحتها موضع جدل ومناقشة . فقد حررت من قبل شقيقة المتوفى المستر رتشارد تونلي ، قنصل صاحب الجلالة البريطانية في بلاط طرابلس ، الذي انعقدت أواصر الصداقة الصميمة بين أسرته وأسرة الباشا ، التي دامت عدداً من السنين كما سيظهر فيها .

وبالرغم من طول المدة التي مرت منذ وقوع الأحداث التي روتها الرسائل المذكورة ، فان السكان المحليين من افريقيا ، التي نشير اليها الآن ، لا يقرون ولا يعرفون البدع والإختراعات ، فتبقى طرز حياتهم وأخلاقهم من عصر الى عصر ثابتة لا تتغير ، الا أن هذه الحالة لا يمكن أن تؤثر فيما يوصف وفيما يروى .

ستجد الكتاب موضوعاً لحب الاستطلاع الخاص . فاسلوبه الحي النابض بالحياة ، الطبيعي الساذج ، الذي يفتح أبواب بلاط باشا طرابلس على مصاريعها يحتوي ، حسب اعتقادنا ، التقرير الوحيد الصحيح المطبوع والمنشور لحد الآن عن أخلاق الباشا الخاصة ، وسلوك هذا الطاغية الافريقي المستبد ، ويفصل

مشاهد واحداث وقعت هناك ، ويصور الضعف البشري والرذيلة وتأثيرات الطمع والجشع والغيرة والحسد والمكيدة والدسيسة ، فمن النادر أن يكون هذا الباشا موضع ثقة من وجهة النظر الأوروبية .

كان هدف المؤلفة ايضاً أن تقدم صورة مخلصة وأمينة عن أخلاق وأفكار ومشاعر البربر عامة ، وهي مهمة لا يمكن الاضطلاع بها ، الا في ظل ظروف خاصة ، بسبب الاستحالة المطلقة للقيام بمثل هذا العمل لاي مسيحي ، رجلا أو امرأة ، يسمح له بالدخول في الحلقة الداخلية للاسر البربرية الممتازة ، وأقل من ذلك بكثير في أسرة الباشا .

وبرهانا صادقاً على الصداقة الصميمة التي كانت تربط بين أسرة المؤلفة وأسرة علي القرمانلي الباشا المتوفى والتي ظلت مستمرة ، نذكر الحالة التالية على سبيل المثال ، فعندما اضطر القنصل ان يذهب لانجلترا مع اسرته لفترة قصيرة من الزمن ، التمس كل من الباشا واللالة حلومة (التي يسميها رعاياها اللالة الكبيرة وزوجة والي طرابلس) بأن يبقيا طفليهما في رعايتهما حتى يعودا ، مؤكدين لهما بانهما لا يدخران شيئا بوسع البلاد أن توفره لهما لجعلهما سعيدتين. تقدمت اللالة حلومة لاعتبارهما « بنات البلد » تتعهد برعايتهما مثل اطفالها ، بالإضافة إلى ذلك وعداهما مقسمين بأغلظ الايمان ، بالنبي محمد ، بأن لا يتدخلا في دينهما ولا في اخلاقهما طوال مدة غياب والديهما .

يمكن ان نفترض بأن مثل هذا العرض المتلطف المعبر عن شعور الصداقة ، لا يمكن قبوله بلباقة وأدب من أجل عقائد وآداب الطرفين ، ولكن العرض يبرهن بكل وضوح عن روابط الصداقة الصميمة المخلصة ، والمعاملة المألوفة التي استمرت بين الاسرتين ، والتي كانت سبباً في عقد مثل تلك المقابلات بحيث لم تدع حتى أقل الحوادث شأناً مجهولة من قبل المؤلفة .

كانت كريمتا القنصل قد ولدتا في طرابلس ، وتحدثتا باللغة العربية من الطفولة ، فكان من السهل جداً ، وبكل شوق ولهفة قبولهما في الحلقات الضيقة الصميمة جداً الشديدة الإرتباط ، وبهذه الصداقة استطاعتا ان تعملا على توطيد

المحبة وحسن التفاهم بين البربر والإنجليز المقيمين وأن يخلقا مثل ذلك الود من جانب الباشا نحو أمتنا ، الامر الذي حمل الاهلين لاعتبار الانجليز في تلك الفترة بشيء خاص من الرعاية والإحترام . حوادث عديدة تعرض نفسها على صفحات هذا الكتاب تؤكد حقيقة هذا التقرير . ستوضح هذه التفصيلات بما فيه الكفاية الاسلوب المسهب الذي رويت فيه ليس في روايات القلعة وحدها ، وانما في قصص أولئك الاشخاص الممتازين مع قصة الإضطرابات الداخلية في سلوك الباشا الحاضر والتي تعرض العديد من التقاليد والعادات الغريبة المدهشة والأحداث والوقائع التي تصحب حرباً بربرية .

ان دولة طرابلس : من لحظة انتهاء الانسة (توللي) مذكراتها اليومية الى الوقت الحاضر ، نتيجة للتغيرات التي حدثت في حكومتها ، وشراسة وفظاعة يوسف باشا واليها الحاضر ، وقساوة القوانين التي فرضها ، تحول دون امكانية جمع مثل هذه التقارير الدقيقة مرة ثانية ، وعلى الأقل يحتاج الأمر الى فترة طويلة جداً من الزمن ، وحينئذ فان الصدفة يجب أن تأتي معاً بظروف متطابقة بنفس القوة التي ذكرت بها تلك الاحداث لتقدم الوسيلة الضرورية لجمع المعلومات .

ولكن حين نأخذ بعين الإعتبار الغيرة الطبيعية للخلق الأفريقي ، والتحيز المتأصل الذي يميز بصورة خاصة البربر ، نجد من الصعب ان تتاح الفرصة ويسمح لأي رحالة أن يتجول في البلاد ، وحتى الى مقيم مخول بسلطة دبلوماسية لملاحظة الأحوال الإجتماعية كما قامت بها محررة هذه الرسائل في هذا الوقت ، حيث لا يتجه الرأي العام البريطاني وحده ، وانما القسم الاعظم من العالم المتمدن الذي يتطلع بكل لهفة نحو الساحل المغربي ، علّه يرى هناك اقتراباً اكثر نحو المبادىء الحضارية المستنيرة المتوافرة في الأمم الأخرى ، والتي تخص الحقوق الشخصية والحريات الإنسانية .

في هذه الفترة المليئة بالأحداث والحبلى بالوقائع التي سبق وان انتجت انتصارات عديدة لفكرة العدالة ، لا زالت تشير الى المزيد من النعم والبركات

واستمرارها في كل انحاء المعمورة ، صورة محلية دقيقة وصحيحة ، كما كانت لتلك البلاد بصورة عامة ، أو لاية ولاية من ولاياتها بصورة خاصة ؛ فانها لا تفشل في ربط اهتمام كل واحد يشعر بمثل تلك الميول المبجلة للانسانية قريبة من قلبه .

في ظل الظروف القائمة ، اذن ، وفي الوضعيات المتعلقة بأوروبا وأفريقيا ، فان هذه الرسائل ستبرهن على أنها ليست ذات أهمية أقل إلى الباحث السياسي من أنها متعة للجمهور عامة ؛ تكشف عن كل ما يعين على تكوين وجهات النظر الشاملة لرجل الدولة ، المزيجة بالمتعة الغنية التي تميز بعظمة واجلال خطابات اللادي ماري ورتلي مونتاج .

لندن ، يوليو ١٨١٦

الاسرة الحاكمة لولاية طرابلس

علي القرمانلي	الباشا المتوفى .
حسن بك	الابن الأكبر .
سيدي أحمد	الابن الثاني .
سيدي يوسف	الابن الثالث والباشا الحاضر .
اللالة حلومة	زوجة علي القرمانلي .
اللالة عواشة	زوجة حسن بك .
اللالة خدوجة	الابنة الكبرى للباشا المتوفى علي القرمانلي .
اللالة فاطمة	الابنة الثانية .
اللالة عائشة	الابنة الثالثة .
اللالة زنوبيا	ابنة حسن بك وحفيدة علي القرمانلي .

٣ يوليو ١٧٨٣

ميناء طرابلس · مدينة طرابلس · عادات اهالي طرابلس · الازياء · وصف مدينة طرابلس · أسلوب سفر السيدات والذهاب الى المسجد · الاسواق والبضائع · تناول القهوة · وصف البدو · المرابط · الصيد ·

أميل الى الاعتقاد بأني سأكون قادرة ، خلال اقامتي هنا ، على أن أقدم لك سلسلة من الحوادث ، تستحق منك امعان النظر والاهتمام بمطالعتها . وأنا أكثر اقتناعاً بهذا الإعتقاد ، بسبب التسهيلات الخاصة المقدمة لي من الإتصال المباشر والمستمر مع الباشا وأسرته . وأنوي بكل بساطة أن أروي الحقائق كما تقع بدون أقل زخرفة أو تزويق ولذلك أتصور أنها لا تثير المزيد من الإهتمام الذي تطمح في استثارته والإيحاء به .

تبدو البلاد قبل الدخول الى خليج طرابلس بأميال قليلة من اليابسة، بهيجة المنظر ، تزهو بمختلف الألوان الخفيفة الناصعة لخضرة جميلة . بحيث تظهر للعيان وكأن لاشيء يعترض استواء سطحها ، ذي اللون الزاهي الناصع ، الأبيض تقريباً الذي تتخلله الشوارع الطويلة ذات الأشجار ، تبرز من بينها اشجار النخل المزروعة على خطوط مستقيمة ، المغروسة بنظام جميل جداً ، تبدو أغصانها الهائلة خشنة غليظة عن قرب ، نظيفة ومتميزة عن بعد . تنبسط الأرض منخفضة ومستوية جداً ، ومن النادر أن تشاهد الجذوع العارية لتلك الأشجار ، وتظهر بساتين النخيل ممتدة الى أميال عديدة من الأحراج والغابات النضرة . تعرض على مشهد أقرب مظهراً أكثر تجريداً وجفافاً ، بحيث لا تقدم

ملجأ أو ظلا يلوذ به الإنسان من الطقس الملتهب المحرق الذي يحيط بها من كل جانب . تقع المدينة برمتها في شبه دائرة قبل الوصول الى فم المرفأ أحياناً . أما البياض الناصع الذي يتوهج وينعكس على الأبنية المربعة الشكل المسطحة ، المغطاة بالكلس باد للعيان بكل وضوح . يواجه الانسان في مثل هذا الجو الملتهب أشعة الشمس المحرقة .

تؤلف الحمامات مجموعات من القباب الكبيرة جداً ، التي يبلغ عددها ثماني أوعشراً المزدحمة بعضها ببعض في أنحاء مختلفة من المدينة ؛ وكانت تحيط بالمساجد بصورة عامة ، بساتين صغيرة من التين الهندي وأشجار النخيل التي تنمو بالقرب منه ، تبدو من مسافة ، وكأنها جنائن غنية جداً ، في انحاء مختلفة من المدينة ، تضفي عليها كلها كما تظهر في عيني أوروبي ، مظهراً بهيجاً وجديداً . عند الدخول الى الميناء تبدأ المدينة بالكشف عن خرائب وانقاض تركتها يد الزمان المخربة ، وتلالاً عاليةً وكبيرةً من الاوساخ والقاذورات تظهر في انحاء مختلفة من المدينة .

وتقع القلعة ، أو البلاط ، حيث يسكن الباشا في النهاية الشرقية من المدينة ، وفي داخل الأسوار ترسانة مجاورة حيث يبني البك – الابن الأكبر للباشا ووارث العرش – سفنه الحربية . ان القلعة (١) هذه قديمة جداً ومحاطة بأسوار عالية وقوية وحصينة ولكنها فقدت كل تناسق من الداخل ، من الإضافات التي لا تحصى ، بنيت لتضم الفروع المختلفة للاسرة الحاكمة ، حتى من النادر أن تجد فرداً واحداً ممن تجري في عروقه دماء الأسرة الحاكمة حتى أحفاد الباشا من يعيش خارج أسوار القلعة . لقد وسعت هذه الأبنية القلعة وجعلت منها مدينة صغيرة لا نظام لها .

يثير وصول المسيحيين الى الميناء فضول عدد كبير من الناس ، يحتشدون

---

(١) يقـــول Guidi المؤرخ الايطالي ولو ان هذه القلعة شيدت على قواعد رومانية وبيزنطية ، فقد أعيد بناؤها خـلال الإحتلال الاسباني في القرن السادس عشر .

في نهاية رصيف الميناء ، وعلى طول ساحل البحر ، وهي نتيجة طبيعية للفضول وحب الاطلاع عند الافريقي الذي لم يخرج أبداً من بلاده ، ليجد متعة وتسلية في التطلع بأول نظرة لقادم من أوروبا ، وهو بالمقابل يعرض مظهره الفظ الخشن فضول الغريب القادم حديثاً . وبالنتيجة وبعد وصولنا هنا : لم يكن من السهل علينا ، وفي دقائق معدودات ، أن ننقل مركز اهتمامنا من الجمع المحتشد المثير للدهشة الذي شاهدناه .

كان وقت نزولنا من الباخرة ظهراً ، الساعة التي لا يغادر فيها وجيه بربري منزله بسبب وهج الحرارة اللافحة ، في مثل هذا الفصل ، ولكن عدداً من كبار ضباط الباشا أرسل البعض منهم الباشا نفسه وجاء البعض الآخر بنفسه، ليرحبوا بالمستر (توللي) بمناسبة عودته الى طرابلس .

كانت هذه المناسبة الأولى ، التي شهدناها ، احتشد فيها عدد كبير من الناس اصطفوا اصطفافاً مدهشاً وبهيجاً على الطراز الشرقي ، فكان مظهرهم موضع اعجاب واستغراب . وكانت أروابهم الطويلة الفضفاضة المصنوعة من الحرير الأطلسي ، والقطيفة والفراء الباهظ الثمن ، تبدو وسط حشود من الكائنات البائسة التعيسة ، وكان الرداء الذي يلف اجسامهم قطعة سمراء داكنة من القماش القطني المصنوع محلياً ، أو من النسيج الخفيف ، الذي يشبه بطانية قذرة ، ولكن (في اطار التناقض البائس) يزيـــد من حدة البريق واللمعان لأولئك الذين يمرون من بينهم ويتجهون نحونا .

سأصف من بين تلك الوجوه المتلألئة البراقة ثلاثة اشخاص : أمضوا معنا يوماً كاملاً تقريباً ، وهم : مصطفى شريفي (رئيس الوزراء) وسفيران هما : (احمد خوجة) و (حاج عبد الرحمن) . كان السفيران قد زارا معظم القصور الملكية الأوروبية ، وكان حديثهما سهلاً ومؤدباً ، فهما مهذبان تهذيباً كاملاً ، ولهما اطلاع واسع ، وكان (أحمد خوجة) أوسع اطلاعاً ، وأكثر تهذيباً ، ولا يختلف عن المسيحي اختلافاً كبيراً باستثناء الزي الذي يرتديه .

وبالرغم من كونه شيخاً مسناً ، فلا يزال وسيم الطلعة حسن الصورة جداً ، ومظهره جميل جداً ، يتحدث بالإنجليزية حديثاً طلقاً وحسناً جداً ، يزور بكثرة المسيحيين في منازلهم ، وهو طيب السيرة ، ويقدم الأنخاب ويحترم المشاعر الانجليزية ، ويبدو غير متكلف على سجيته ، ولكل من هذين الشخصين عدد من الحرس ، المؤلف من الضباط البربر والخدم والعبيد السود ايضاً . وكانت ملابس العبيد السود ، وجلجلة اسلحتهم ، مثيرة ومدهشة ، ايضاً ، بسبب قعقعتها ولمعانها ، فعندما يقترب أحد هؤلاء الخدم بعد استدعائه ، فلا يسمع شيء آخر غير رنين الاسلحة بسلاسلها الفضية الطويلة المعلقة .

كان الوزير الاول يرتدي سترة قصيرة (١) من الحرير الأطلسي القرمزي ، المطرز بالذهب من تحت الصدر ، تشبه الصديري ، المرتبطة من الأمام والخلف ، وتلبس بتقديم الرأس خلال فتحة في الرقبة . وكان يرتدي فوق هذا قفطاناً قصيراً من القطيفة الارجوانية ، مفتوحاً من الأمام ، وله أكمام تمتد حتى رسغ اليد ، مفصولة كما لو أنها تبدو لتظهر نسيجاً مختلف اللون موشى بالفضة ، والى الاسفل من ذلك ترتبط أزرار صغيرة مصنوعة من خيوط ذهب متقاربة بعضها من بعض ، وينتهي كل زرار من أعلاه بخرزة من المرجان ، ونفس النوع من الأزرار كانت على جانبي الصدر من خيط يبلغ عرضه أربع بوصات من الذهب والفضة ، يربط هذين الرداءين من الخصر حزام غليظ ، مصنوع من الذهب والفضة .

كان يرتدي فوق كل هذه الملابس قفطاناً آخر طويلاً وفصفاضاً يصل الأرض من الحرير الدمشقي الأصفر ، وأطراف الأكمام من الحرير الأطلسي الخفيف الموشى الحاشية بالذهب والفضة ، يبدو للعيان ، وفوق الكل كان يرتدي برنصاً من الصوف الأبيض الشفاف ، وهو نوع من العباءة الواسعة الفضفاضة جداً تلف الجسم ولها عدد من الذوائب البيضاء . كان يضع ذلك فوق الكتف الأيمن وينحدر تحت الذراع الأيسر ، معلقاً برشاقة وظرافة على

---

(١) جيليك (كاجاليك باللغة التركية) واسمه الصحيح باللغة العربية صدرية .

الملابس يكنس الأرض عندما يسير ؛ وكان لهذا الجزء من الملابس تأثير جميل، فهو شفاف ورقيق مثل نسيج الحرير يعرض بكل وضوح كل الألوان التي تحته . كان يضع على رأسه عمامة بيضاء من أجمل أنواع الحرير ، وفوقها شال يمر بدون مبالاة وبلا اهتمام حتى ينزل حول الرقبة . وكان يلبس نصف جزمة صفراء اللون فوقها نعال من اللون نفسه (الذي ينزع عند الدخول الى حجرة) وسروالا من الحرير الأبيض يصل الى القدم ، وبذلك أنهى بدلته .

أما الناس الذين هم أقل أهمية واعتباراً فيرتدون السراويل من القطن الابيض ، أو من القماش الغليظ الخشن الأزرق أو الأسمر الأقل اتساعاً ، وقد تبلغ سعة السروال الجميل سبع ياردات ، ويتناسب حجم العمامة مع سمو مكانة الشخص الذي يلبسها ورفعة اعتباره .

تأتي في المرتبة عمامتان أو ثلاث من أعلى الحجوم في أفراد الحاشية بعد اولئك الأشخاص الذين يلبسون عمائم متوسطة الحجم بالمقارنة مع عمائم رؤسائهم ؛ أما الآخرون فكانوا يرتدون الطرابيش من القماش الأحمر ، وحولها تدلى مرتين أو ثلاث شال ملون مبروم ، يلف من جهة واحدة حول الرقبة، ويطوى الباقي على الكتف الأيسر . ويلبس الناس من ذوي المكانة العالية والمنزلة الرفيعة، حين يركبون الخيل أو يخرجون الى الصيد فقط ، تلك الشالات من قماش جميل جداً ، ويلبسها ايضاً الشباب ليغطوا بها الحاجب الأيسر تقريباً وليكشفوا عن الاذن من الجهة اليمنى تقريباً . ويرى الشاب البربري نفسه قوياً لا يشق له غبار حين يرتدي الشال بهذا الاسلوب . لكن قد يكون الشال في بعض الأحيان نحساً مهلكاً ، فيصبح أداة للموت ، حيث يحتاج الامر الى وقت أقل لربط نهاية الشال حول رقبة الضحية ، من ربط عنقه بحبل المشنقة الذي يرسله الباشا .

قبل وصولنا بيوم واحد كان قد تم تعيين (أحمد خوجه) سفيراً في مراكش . فكان يرتدي لباساً مختلفاً كل الاختلاف من البقية ، فبدلاً من لبس

عدد من الأردية والأغطية التي سبق وأن وصفتها ، اكتفى بلبس برنص قرمزي اللون ، جميل موشى ومطرز بخيط من ذهب عرضه ست بوصات على الأقل تحيط به تماماً وتلفه لفاً كاملا . وتكاليف هذه البرانص باهظة ، وهي هدية من الباشا الى كل سفير من سفرائه عندما يغادرون البلاد بسفارة . من هذا الوصف ستعرف بان الملابس الطرابلسية مغطاة تقريباً بالذهب والفضة ، وبالأجواخ الغالية التي تعلوها ، والتي تجعل المظهر أكثر روعة وفخامة .

كانت مدينة طرابلس ولا زالت محاطة بسور قوي مدهش ، وأبراج ، هي الآن في حالة سيئة ، ولكن الأشخاص من ذوي الرأي والمعرفة في هذه الامور يوصون ، بالقيام ببعض الترميم والاصلاح فقط ، لتصبح في الحال من أكبر القلاع قوة وحصانة .

يغسل البحر بأمواجه المتلاطمة المدينة من ثلاث جهات ، ومن الجهة الرابعة يمتد سهل رملي يدعى « المنشية » يصلها ببقية البلاد . وتنفصل من الجهة الشرقية عن مصر بصحارى برقة الموحشة الكئيبة التي لا يسكنها احد غير العرب الرحالة احياناً .

وعلى مقربة من هذه البقعة يقيم عباد الأوثان الذين يعبدون (جوبيترامون) (١) (Jupiter Ammon) على شكل كبش ، وهنا أقيم المعبد المشهور .هدية لذكراه والذي لا يستطيع الوصول اليه الا القليل من الناس ، بسبب كثبان الرمال المحرقة ، التي لا زالت تفصل الناس ، أو سكان الجزيرة التي تحيط بها الرمال وتعزلها عن بقية العالم .

مرت عصور ودهور دون أن يجرأ رحالة واحد على عبور هذه الرمال

---

(١) تشير المؤلفة الى بحيرة سيوا آمون وهامون اسمان لجوبيتر الذي كان يعبد في ليبيا فظهر على هيئة كبش الى باخوس الذي كان مع جيشه يكابد من العطش الشديد في صحارى افريقيا فاظهر له ينبوعا ، فشيد عليه باخوس معبدا باسم جوبيتر ـ امون ـ أي الرملي ـ له قرون الكبش · يبعد المعبد عن الاسكندرية بمسيرة تسعة ايام · وكان فيها كاهن حكيم يستشيره هيرقليس وبيرسيوس وغيرهما وقيل ان الاسكندر الكبير الملقب بذي القرنين هو ابن جوبيتر ·(المترجم)

المحرقة . ان هذه المدينة أصغر بكثير من كل من الجزائر وتونس ، ولم تكن احدى هذه الدول مملكة مغربية لاكثر من أربعمائة سنة . فحوالي سنة ١٤٠٠ وصلت ثلاث عصابات من الجنود ، تحت حماية السلطان التركي ، واستقرت في طرابلس وتونس والجزائر ، ومن تلك العصابات برزت هذه الشعوب . وسرعان ما أصبحت هذه الدولة مزدهرة عامرة واستمرت كذلك حتى الحصار الشديد الذي فرضه الاسبان الذين هاجموها بقيادة القائد (دون بيدرودي نافارا).

منذ تلك الفترة التاريخية ، التي مع أنها واجهت مضايقات وازعاجات من الإسبان والإنجليز ، وأخيراً من الفرنسيين ، فانها استمرت بأيدي الأتراك والبربر ، يحكمها باشا تركي . كانت تابعة للباب العالي خلال سلسلة طويلة من السنين ، الى ان تحررت من هذا النير التركي ، واصبحت برمتها منذ ذلك الحين تحت سيادة بربرية .

تبدو المدينة غير مستوية بسبب الأكداس المتجمعة من الأوساخ والقاذورات التي كثيراً ما يشيد عليها الناس الدور والمنازل دون ان يعملوا على ازاحتها ، بحيث أن عتبات بعض الأبواب المطلة على الشوارع هي في مستوى قمة المنازل التي لا تبعد عنها كثيراً .

الشوارع أزقة ضيقة ، الا انها ضعف سعة الازقة في تونس والجزائر تقريباً . يوجد نوع واحد من العربات المستعملة هنا للنقل والمواصلات ، يحتفظ بها نفر قليل من كبار عظماء البربر ، لنقل السيدات من منازلهن ، وهي نوع من الهودج (المحمل أو تخت روان) مغلوق كلياً بالكتان الأبيض وموضوع على ظهر جمل ، اما الهودج الخاص بالباشا فمزين تزييناً جميلاً جداً من الداخل والخارج على السواء ، والغرض منه نقل السيدات من منازلهن الى محلات اقامتهن في الريف فقط .

لا تستطيع اية سيدة من الأسرة الحاكمة أن تمشي في الطرقات والأزقة ، ما عدا في أوقات ذهابهن الى المساجد لتأدية نذورهن ، أو لتقديم الاضاحي

التي كثيراً ما يقمن بها في مناسبات مختلفة ؛ ولكن بحذر شديد جداً . يخرجن في ساعة متأخرة من الليل ، حوالي الساعة الحادية عشرة ، أو الثانية عشرة ، يرافقهن عدد كبير من حراس القلعة وخدمها .

بالاضافة الى ذلك عدد من الوصيفات السوداوات والخدم البربر الذين يؤلفون حرساً كبيراً ، تسير في وسطه الأميرة أو الأميرات ، يرافقهن خدمهن وحرسهن الخاص ، أو السيدات اللواتي يحطن بهن . يعلن أحد الحراس قدومهن باستمرار قبل وصولهن بمدة من الزمن . معهن عدد كبير من المصابيح ، وكميات كبيرة من البخور والعطور التي تفوح منها الروائح الزكية ، وتحمل في مباخر من فضة ، وأباريق كبيرة من فضة مملوءة بماء الورد ، وماء قداح البرتقال ، ليرطب العطور المحترقة ، يؤلف اثناء المسيرة غمامة سميكة تلفهن الابخرة المتصاعدة من أحسن أنواع العطور رائحة وأذكاها . ان الهرج والمرج الذي يحدثه الموكب ، والهتافات التي يرددها الحراس ، كافية تماماً للاعلان عن اقتراب الموكب الملكي بمدة كافية لاخلاء الطريق من المارة . وهذا أمر ضروري خاصة وان قانونهم ينص على عقوبة لا تقل عن الإعدام لكل شخص تسول له نفسه أن يعترض طريق مسيرة الاسرة الحاكمة أو يبقى في الطريق عند مرور سيدات الاسرة الحاكمة ، أو لرجل قد يتطلع على السيدات من خلال فتحة نافذة منزله . وبالطبع فان كل محل يخلو من المشاهدين والنظارة قبل اقتراب الموكب الذي يضم افراد الأسرة الحاكمة .

أما سيدات الطبقة الوسطى فانهن يمشين عادة على أقدامهن ، ولكن من النادر جداً أن لا يصحبهن خادم أو خادمة ؛ فهن عندئذ يتغطين غطاء كاملاً ، ومن المستحيل أن تكشف عن شيء منهن أكثر من قامتهن ، وحتى ليس من السهل معرفة حجومهن . يرتدين غطاء يعرف باسم الجرد (١) الذي تبلغ سعته أكثر من ياردة ونصف وطوله أربع أو خمس ياردات ، يخفي هذا الجرد

---

(١) يسمى الجرد في ولاية برقة ، والحولي في ولاية طرابلس وجمعها حوالي (المترجم) .

أجسامهن تماماً ، ويمسكنه بالقرب جداً من وجوههن ، بحيث يندر جداً أن يتركن فتحة صغيرة يتعرفن من خلالها على دربهن (١) تلبس المرأة اليهودية هذا الجزء من ملابسها بهذا الإسلوب ، ولكنها تمسكه بطريقة تكشف فيها عن عين واحدة تقريباً ، تلك الطريقة التي لا تجرأ المرأة البربرية أن تقوم بها ، اذا كانت تخشى على سمعتها أمام الرأي العام ، لانها ستتأثر بدون شك .

تحمل البضائع عادة على ظهور الجمال والبغال ، في تلك الطرق الرملية الجافة التي يرتفع فيها الغبار ، حتى يصبح البيع والشراء عملاً شاقاً لا يطاق . تقوم المدينة على قاعدة صخرية ، تتناثر هنا وهناك بعض بقايا الرصف ؛ فمنه القديم جداً ، الذي يظهر بكل وضوح رومانياً .

لا يبرعون هنا في تنظيم الحوانيت ، وأحسن ما فيها لا يتجاوز كونه دكاكين صغيرة بالرغم من أن محتوياتها في بعض الأحيان ثمينة ، تتألف من اللؤلؤ والذهب والجواهر والعقاقير الثمينة .

يوجد في طرابلس سوقان مسقفان ؛ أو محلان للبيع والشراء ؛ أحدهما كبير جداً ، مبني على أربعة أجنحة تلتقي في تقاطع ،تتناسب تلك الأجنحة مع الدكاكين والحوانيت المبنية على كل جانب منها ؛ تحتوي على كل نوع من البضائع ، ويوجد في الوسط طريق يمر به المشترون . بعض أجزاء هذا المكان مظلم تقريباً ، ورائحة المسك القوية تجعل المرور في السوق أمراً غير مرغوب فيه.

أما السوق الآخر (البزار) فهو أصغر بكثير ، وليس فيه دكاكين أوحوانيت وانما يجلب الى هنا العبيد السود من الرجال والنساء لبيعهم . ان مجرد التفكير بكائن بشري يقاد قوداً وكأنه رأس من الماشية للبيع أمر كريه ، تعافه النفس ، ويجرح الشعور ، ومع هذا فان هذا السوق من الأسواق الرئيسية للنخاسة(٢).

---

(١) يلبس هذا الزي في ليبيا اليوم ٠

(٢) بناء على ما جاء في تقارير الحالة المعاصرين فان عددا من الفيق يقدر بين ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ تجلبهم قوافل الرقيق سنويا الى طرابلس ٠

ونظرا للحالة المتدهورة التي تمر بها المدينة يتعرض الباشا الى كثير من السخط والحنق من قبل السلطان التركي ، فبدلاً من أن يراها تقع ضحية في أيدي النصارى ، يجلب لها قوة تركية لحمايتها وحراستها . كانت العادة المألوفة أن تجيء من المدينة أتاوات باهظة وثقيلة تدفع الى السلطان التركي ، الذي أعفى الولاية منها بسخاء وكرم لعدد من السنين ، فان كان الباشا قادراً على الاحتفاظ بالنظام في المدينة فان الباب العالي يتركه وشأنه بأمن وسلام .

يبدو القسم الأعظم الخارجي من المسجد ، حيث توجد المقبرة الخاصة بدفن أفراد الاسرة الحاكمة : جميلاً وبديعاً جداً . يقع في الطريق الرئيسي ، بالقرب من الباب الخارجي للمدينة ، الذي يؤدي الى الريف ، ومقابل قصر الباشا تقريباً . يوجد أمام باب هذا المسجد مدخل ثان من الخشب المشبك الانيق المنقوش نقشاً مدهشاً مؤلف من بابين مزخرفين بنفس الزخرفة : عدد كبير من القرميد الملون تلويناً جميلاً ، يطرز أسفل ذلك الخشب الانيق فيكسبه مظهراً رائعاً وبهياً ، يسر العين ، وفوق أبواب كل المساجد نقشت الآيات الطويلة من القرآن بالألوان الزاهية ، أما الآيات المنقوشة فوق باب هذا المسجد ملونة ومطلية بالذهب طلاء لا يضاهيه في الجمال والروعة أي مسجد آخر في المدينة .

هناك مسجد آخر لا يبعد كثيراً ، له باب تتجلى فيه روعة الصناعة والنحت من الخشب المنقوش على أيدي فنيين مهرة من البربر . وقفنا برهة من الزمن نتطلع اليه بكل دهشة وذهول ، ولكننا لم نستطع الدخول الى المسجد بسبب موعد الصلاة .

كان منظر البربر المصلين مهيباً ومقدساً ، مدهشاً وغريباً . وكانوا في ذلك الجزء من صلواتهم يضطرون للسجود ووضع جباههم على الأرض خشوعاً ومهابة . كان جمع المصلين مندمجاً اندماجاً تاماً في سجود صامت ، فلا شيء ابداً يستطيع أن يسترعي انتباههم غير الإنهماك التام في عبادة الله .

كانت الأبصار شاخصة الى السماء ثم خافضة الى الأرض ومن الأرض

الى السماء ثانية فكان كل واحد قد نذر نفسه للصلاة ، فلا يمكن لأي أمر أن يخلب أبصارهم . بل ان أحدهم لا يعبأ بالآخر الذي يسجد بجانبه . استحوذ على الجميع احساس عميق في أداء الصلاة بهذا الإسلوب المتواضع ليس في المسجد كراسٍ ، ولا مناضد ولا مقاعد لوضع الأرجل .

يقف الناس الواحد جوار الآخر بدون نظام ، وبدون تمييز في الطبقة ، والمنزلة الاجتماعية ، أو الهندام . لا يسمح للنساء بالحضور في المسجد والقيام بالصلاة العامة . وانما يخرجن الى المساجد في منتصف الليل فقط .

يلتقي الأتراك في سوق المقاهي يتحدث احدهم للآخر ويقص عليه أخبار اليوم ، ويشرب القهوة . يمتلىء هذا السوق بالمقاهي : أو بالأحرى في مواقد القهوة الداكنة السواد بسبب الدخان ، والتي لا يقدم فيها غير القهوة . لا يدخل السادة البربر الى تلك المقاهي وانما يرسلون عبيدهم ليجلبوا لهم القهوة وهم على الأبواب ، حيث توجد مقاعد من المرمر تظللها الاشجار الخضراء : تغطي تلك المقاعد المرمرية الحصران الجميلة والسجاد الفاخر الأنيق .

يجلس هنا الرؤساء وذوو الجاه من البربر ، في ساعات معينة من النهار ، متربعي الأرجل ، بأيديهم فناجين مملوءة بالقهوة التي تشبه اكسير القهوة وجوهرها . تخلط مع القهوة التي تقدم لسيدات القلعة بعض الأحيان كمية من (القرفة) والقرنفل وجوزة الطيب .

حين ينتظر البربر خدمهم في تلك المقاهي ، الذين يقفون على الدوام استعداداً لخدمة أسيادهم ، يكون السيد إما مشغولا في غليونه ، وإما في شرب فنجان من القهوة ، وإما ماسكاً منديله وهو يتحدث ، لان تحريك يديه أمر ضروري للاستمرار في الحديث ، يؤشر في سبابة يده اليمنى على راحة يده اليسرى ، كما تقوم بالضبط بتحريك قلم ، اما الأجزاء المختلفة من الحديث فهي علامة الوقف القصيرة في الكلام ، والعبارة المقتبسة أو العبارة المدهشة ، فيصبح أسلوب الحديث هذا أمراً خاصاً بهم ، والأوروبي ، الذي لم يعتد هذا الإسلوب

من الحديث ، يجد نفسه ضائعاً لا يفقه ما يعني محدثوه البربر (١) .

لا يزال أحد الأقواس القديمة قائماً لحد الآن في الميناء — القوس القديم — كما يسميه البربر ، يرجع تاريخ بنائه الى سنة ١٦٤ ميلادية اقامه روماني كان قد سيطر على دوائر الجمارك . بناه هذا الروماني على شرف « ماركوس(٢) أوروليوس » و« ايليوس فيروس » خلال فترة حكمهما المشترك . أخذ «ماركوس أوروليوس » بعد موت « أنتونيوس بيوس »(٣)الذي كان يشاركه في الحكم « لوسيوس فيروس » زميلاً له في حكم الأمبراطورية بالرغم من أنه قد برهن على سلوكه الخبيث السافل بحيث أن « أنتونيوس » لم يعينه عند وفاته .

وفي سنة ١٦١ بدأ هذان الامبراطوران بالحكم فغير اسميهما اللذين يشير اليهما عدد من الأحرف المنقوشة على القوس . عندما شيد هذا القوس، لم يكن الا عدد قليل من المساكن أقرب إلى هذا المحل من لبدة «ليبتس ماغنا» القديمة(٤) التي تبعد مسيرة ثلاثة أيام عن طرابلس . كان « لوسيوس فيروس » في ذلك الزمن قائداً في غابات « دافن » (Daphne) في انطاكية ؛ إرتكب كل أنواع الفضائح ، وانتهك الحرمات في افريقيا ؛ وقد ضل الرومان طريقهم — عندما كانوا يصطادون حيوانات وحشية — الى موقع طرابلس الذي تقع عليه اليوم ، فوجدوا تحت هذا القوس ملجأ رحيباً من أشعة الشمس المحرقة في وقت الظهيرة.

يرى كل الناس من ذوي المعرفة والدراية الحسنة بأن هذا القوس كان أجمل من أي قوس آخر ، مشهور في إيطاليا مثل معبد (جانوس (Janus)ولو

---

(١) ملاحظة دقيقة وصحيحة يستعمل البدو اليوم حركات اليدين والعينين وملامح الوجه .

(٢) (ماركس أورليس) (١٦١ ـ ١٨٠ م) كان ذا خلق نبيل وقدرة سياسية وله ولع بالقراءة والكتابة اذ ترك كتابا صغيرا عن تأملاته في الاخلاق والدين باللغة اليونانية ـ مات وهو يكافح ضد القبائل الجرمانية وخلفه ابنه (كومودس) ـ (المترجم) .

(٣) (انطونيوس بيوس) (١٣٨ ـ ١٦١ م) خلف الامبراطور هاوريان وكان عادلا شفوقا سماد الشعب (الورع) . (المترجم)

(٤) ليبتس ـ تم التنقيب عنها كليا ، تقف بالقرب من مدينة الخمس وتبعد بحوالي ٨٠ ميلا شرقي طرابلس .

أنه مبني من الرخام ويعتبر واحداً من أجمل تلك الأبنية الا أن سطحه مستو . هذا القوس عال جداً ، ولكنه لا يبدو كذلك بسبب الأكداس العظيمة من الرمال التي ذرتها الرياح ورمتها هناك فغطت سطح الأرض ، حتى بلغت ذروته . يتألف بناؤه من الأحجار الكبيرة جداً ، والتي يثير نقلها الى هذا المكان الدهشة والعجب ، واضعين على بالنا عدم وجود مثل تلك الاحجار في هذه البلاد ووضعها في قوس عظيم لا يقل دهشة وغرابة .

بالرغم من عدم استعمال مادة الإسمنت في البناء لربط الاحجار بعضها ببعض ، فان البناء لا يزال صنباً قائماً ، لم تستطع يد الزمان العاتية ، في محاولاتها المدمرة المخربة ، أن تزعزع حجراً منه ، فتركت هذا النصب التذكاري قائماً لم تمسه بشيء من سوء ، أما السقوف فمن أعظم أعمال النحت فناً وجمالاً وروعة . ولم يبق منه الا القسم القليل الذي يبدو للنظر ، وبسبب جهل البربر بروائعه الفنية ، فانهم قد ملأوا ذلك القسم بالاوساخ والقاذورات والطين ليبنوا الدكاكين والحوانيت في داخل القوس .

توجد في الخارج مجموعات عديدة من صور الرجال والنساء التي لايمكن أن يجد لها تفسيراً وشرحاً غير الاخصائيين المهرة في التاريخ القديم ، ولكنها قد تآكلت كثيراً الى درجة يصعب فهمها على الآخرين . لا يزال الإهتمام قليلاً جداً بالتنقيب والبحث عن الآثار القديمة التي لا زالت قائمة .

حاول الأوروبيون كثيراً أن يلقوا الضوء على تلك الآثار القديمة ، وانهم بدون شك قد يقومون بكشوف عظيمة ومفيدة ، الا أن البربر والأتراك الذين تقتلهم الغيرة لا يسمحون بزعزعة حجر واحد ، أو تحريك حبة رمل واحدة ، بالإضافة الى الرسائل المتكررة من القلعة في مثل تلك المناسبات ، تحذر النصارى من خطر قيامهم بمثل هذا العمل .

توجد خارج أسوار المدينة ، قطع من البلاط الفسيفسائي الذي يرجع تاريخه الى الفي سنة مضت . لا تزال في مدينة لبدة آثار وبقايا أبنية عظيمة رومانية قائمة مدفونة تقريباً في الرمال . هكذا كانت العمارات الرومانية فخمة

عظيمة ، فقد نقلت من لبدة سبع عواميد من حجر الجرانيت ذات الحجوم الهائلة الى فرنسا لحسن جمالها ، واستعملت في تزيين وتجميل القصور الملكية التي بناها لويس الرابع عشر .

ويوجد في مدينة الزاوية ، التي تبعد مسيرة بضع ساعات من طرابلس مدرج بناه الرومان لا يزال قائماً بكليته ، وله خمس درجات من السلالم ، يبلغ قطره من الداخل مائة وثمانية واربعين قدماً (١)

عندما نتأمل ونفكر بأن الاغريق قد أوجدوا برقة في أقصى الشمال من افريقيا ، وأسسوا المستعمرات الاخرى ، بينما بنى الفينيقيون مدينة قرطاجة ، بعدهم احتلها الرومان وسيطروا عليها مع كل ممالك نوميديا ، وهي نفس المنطقة التي تقوم عليها طرابلس والجزائر وتونس فلا عجب اذن أن توجد هنا الآثار الرومانية بالرغم من إهمال العرب وتخريبهم ، الذين يهملون المحافظة على الأعمال الفنية .

سمى القدماء مدينة طرابلس (تريبوليس) لانها احدى المدن الثلاث وهي : (ليبتس) Leptis و (اويا) Oea و(صبراته) Sabrata وهي تقع على موقع (أويا) وكانت مسقط رأس Apulius . ولا حاجة للاعتذار عن تذكيرك لهذه الحقائق التاريخية بالاشارة اليها في الوقت الحاضر : لانها تسهم في زيادة اهتمامك وتعميقه في القسم الخاص من العالم الذي أكتب عنه . تعرض معظم المدن والقصبات في مملكة طرابلس آثاراً مهمة كثيرة تبرهن على توغلها في القدم .

أما مدينة بنغازي ، التي لا تبعد كثيراً عن مدينة طرابلس يحكمها (بك) نائب عن الباشا ، وهي مدينة برقة القديمة التي بناها « بطليموس فيلاديلفيوس » سنة ٢٨٤ قبل المسيح وتوجد بالقرب من بنغازي مدينة درنة التي يحكمها ايضاً

---

(١) هذه هي المدينة الرومانية «صبراتة» التي تبعد ثلاثين ميلا الى الغرب من طرابلس.

(بلك) من طرابلس . وفي قرية (راسم) Rasem آثار مهمة لبرج وقلاع وحصون بناها الفاندال .

توجد على الساحل بالقرب من طرابلس جزيرة جربي (١) المعروفة باسم (مييننكس) Meninx لدى القدماء. كانت هذه الجزيرة في أيدي باشاوات طرابلس من الزمن الذي حارب به البربر فدفنوا ما يقرب من نصف جيشهم ، والقوا في مياه البحر نصف جيش العدو ، وقد استطاعوا أن يطردوا دوقات (الفا) و (ميدنيا — سيلى) في القرن الخامس عشر .

يجلبون من جزيرة جربي كميات هائلة من فاكهة بحجم حبة الفاصوليا ذات لون اصفر براق عندما تكون طرية طازجة . تنتج هذا النوع من الفاكهة شجرة تنمو هناك . وقال مؤلف فرنسي بأنها هي سلاطة القدماء — اللوتس (٢) التي يسميها البربر « الخرنوب » يستعملون بذورها أو أحجار هذه الفاكهة لوزن الالماس واللؤلؤ ويقدر ثمن الالماس بعدد احجار الخرنوب .

في جوار مدينة طرابلس تقوم مدينة عظيمة تعرف باسم « بونا » Bona شيدت كلها على أطلال « هيبوريجيوس » Hippo Regius وهي على بعد أكثر من ميل تقريباً من موقع المدينة القديمة . تقترب الصحراء من طرابلس وتمتد اليها ولا زالت تحمل اسم (برقة) وهو الاسم الذي اطلقه الرومان على سكان برقة لبسالتهم وضرواتهم في القتال في تلك الفترة التاريخية .

يقطع حملة البريد من طرابلس في طريقهم الى القاهرة الكبرى ثلاث صحارى يركبون الجمال السريعة الجري ، التي يعتبرها البربر أسرع من الحصان . يضطر حملة البريد الى ربط أنفسهم بالحبال ، خوفاً من السقوط

---

(١) جربي — كانت تسمى Girbo وهي Meninx او جزيرة (لوتوفاجي) وقد زارها اولسيوس عند رجوعه من حرب طرواده — مصيف اشتهرت بهوائها العليل وكرم اهلها وضيافتهم وكثرة خيراتها وشهرتها باشجار اللوتس . (المترجم) .

(٢) اللوتس — هي شجرة الخرنوب ، دائمة الخضرة يأكل البدو بذورها وتشتهر كذلك باسم « ليكثوس » التي أكل منها القديس يوحنا .

بسبب سرعة جري الحيوان ؛ وللصعوبة القصوى لاختراق هذه المناطق الوعرة الجافة ، كان من النادر جداً أن يتخلف حملة البريد عن القوافل طول الدرب الذي يستغرق من خمسة وعشرين الى ثلاثين يوماً من طرابلس الى القاهـــرة .

توجد في هذا القسم من الصحراء، في الطريق المؤدية الى مصر : « جزر » تحيط بها بحور من الرمال ، التي ينفصل بعضها عن بعض فصلاً تاماً وعن بقية العالم ، ولم يجرأ احد على الوصول الى القرى التي فيها مخترقاً المناطق الحـــارة الملتهبة التي تحيط بها . توجد بين تلك الجزر ، التي دعاها الجغرافيون القدماء واحات – أمونيكا – Ammonica (١) حيث عاش عبدة «جوبيتر آمون» ولكن عندما أخذت تتضاءل ثقة الناس بهذه الآلهة ، ويقل احترامهم لها ، فقد ضاع أثر الدرب الى – أمونيكا – حتى ضاعت معالمها التاريخية ولم يعرف لحد الان فيما اذا كان مثل هذا الشعب قد عاش هناك .

ان عدداً قليلا من الواحات فقط في هذا القسم من الصحراء معروف لدى القوافل ، حيث تتوقف في حالة الضرورة القصوى للاستراحة والاستجمام ، وتناول المرطبات بعد عناء شديد ، لرحلة أكثر هولاً ، ورعباً ، مما يمكن أن يتصورها انسان ، والتي لا تبلغ نهايتها في الغالب الا بعون البوصلة ومعرفة علم الفلك .

كما ان انتقال الرمال الواسعة انتقالاً سريعاً ومفاجئاً يؤدي الى تسوية التلال والكثبان في بقعة وزيادة ارتفاعها في بقعة أخرى ، وبذلك تتغير معالم الطريق تغيراً تاماً وكاملاً ، بحيث يضل المسافر المسالك في الصحراء ولا يستطيع الاهتداء إلا باللجوء الى البوصلة وبعض المعرفة في علم الفلك .

توجد واحات أخرى هنا أيضاً ، يسكنها بعض الناس من المحتمـــل أن يكونوا قد انفصلوا وعزلوا عن بقية العالم حتى نهاية العمر . تقوم بالقرب من هذه الصحارى ما يدعى (بنتابوليس) Pentapolis بلاد برقة التي توجد فيها خمس مدن هي : أبولونيا وقوريني وآرسينوي وبثوليمايس وبيرينيقا. وقد

---

(١) واحة سيوا .

دعي هذا الجزء من بلاد البربر في التاريخ بسبب ما يتميز به من خصب عظيم « مخزن غلال الرومان » ، ولكنه الآن قد فقد تلك الشهرة التاريخية . يرجع السبب في قلة انتاجه للغلال والحبوب الى انحباس الأمطار ، التي كانت في الماضي أكثر هطولا وغزارة في هذه البلاد من السنين الاخيرة (١) .

ان جبال غريان (٢) الشديدة الانحدار الوحيدة التي يمكن رؤيتها في يوم صحو من مدينة طرابلس ، تبدو وكأنها سلسلة طويلة من التلال العالية السوداء. يسكن هذه الجبال والرمال القريبة منها عدد كبير من القبائل العربية منهم : الترهونية ، وبنووليد ، والروجيمة ، وعكاز ، والنوائل .

يؤلف هؤلاء العرب ثلاث فئات :

الاولى : التي جاءت من الجزيرة العربية .

والثانية : عرب افريقيا .

والثالثة : البدو الرحل .

تتميز قبائل الفئتين الأولى والثانية بمحبتهما للقتال، وبوسامة الطلعة، وحسن الخلقة وكرم الطبع ، وشرف المعاملة . عظماء طموحون في كل أعمالهم عندما تكون السلطة بأيديهم متزهدون متعففون في طعامهم ؛ يمتازون بذكاء فطري عظيم، ويحبون الدعابة المعقولة وتعاف أنفسهم الابتذال في المزاح .

يحكم كل قبيلة من هذه القبائل رئيس يدعى « شيخ » بفضل ما يتمتع به من سلطة ونفوذ وقانون يوجه سلوك أفراد قبيلته ويحسم المنازعات التي تنشب فيما بينهم وينزل العقوبة بالمخالفين .

ولكل أسرة رئيس خاص من بين أفرادها ، تمتد سلطته الى الحياة والموت، تجارتهم الحرب ، فهم مستعدون للخدمة جيشاً اضافياً لكل من يدفع لهم المزيد

---

(١) يرجع السبب الحقيقي في ذلك الى انهيار النظام الشامل للمحافظة على المياه الذي بناه الرومان .

(٢) الاسم الصحيح جبل نيفوسه وغريان هي المدينة الرئيسية .

من المال ويغدق عليهم الهبات والاعطيات : معظمهم الآن في خدمة الباشا والي طرابلس .

أما البدو فهم تجار صغار متجولون يشتغلون بحمل البضائع ونقلها من محل الى آخر ، يصنعون قماشاً أسود للجرود وأقمشة سميكة من شعر الماعز ، تستعمل أغطية للخيام ، يبيعونها للبربر .

يقترب هؤلاء البدو في فصل الربيع من طرابلس قادمين عن طريق السهل المجاور (١) للمدينة ، وهنا يزرعون الذرة وينتظرون حتى وقت حصادها ، ثم يختفون ليعودوا في السنة القادمة .

خلال مدة اقامتهم في السهل (٢) تنهمك النساء في الخياكة والنسيج ، وبيع أعمال أيديهن الى الطرابلسيين . يقيمون خيامهم تحت أسوار المدينة ، ولكن لا يستطيعون الدخول من باب المدينة دون استئذان (رخصة) وعند ارتكاب البدو أي عمل يخل بالنظام ويسيء الى السلوك ، فان رئيسهم يستدعى للاستجواب أمام الباشا .

بالاضافة الى أنهم منقسمون الى عشائروفروع فان لكل أسرة رئيسها الخاص بها كما هو الحال عند العرب . لايزال العرب والبدو يحتفظون بعدد من التقاليد والاعرافالتي وصفتها الكتب السماوية وكتب التاريخ ، وهم على الاغلب ، في كل شيء ، نفس الناس الذين جاء ذكرهم في كتب التاريخ القديمة جداً .

أتوقع أن أرى الشيء الكثير عنهم ، وأكتب اليك المزيد عن أخلاقهم في الرسائل القادمة . يتبع سلاطين أو ملوك فزان وبورنو (٣) باشا طرابلس ، وقد جيء بجد ملك فزان الحاضر في سنة ١٧١٤ أسيراً الى طرابلس على يد أحمد

---

(١) تشير المؤلفة هنا الى القبائل شبه المترضنة . أما البدو الحقيقيون في ليبيا فهم رعاة الماعز والجمال .

(٢) تستعمل المؤلفة الكلمة الايطالية بيانورا كثيرا .

(٣) بورنو ـ هي بلاد الجارامانت القدماء ـ يقطع نهر النيجر بحيرة بورنو .

الكبير جد الباشا الحاضر . يشبه لون أجسام بربر فزان وبورنو النحاس الداكن ، أو أنهم على الاكثر سود ، بل هم أكثر سواداً من الطرابلسيين الذين يسكنون الارياف والقرى القريبة من طرابلس ، لان البربر في المدينة وضواحي طرابلس بيض اللون ، عامة .

يعين الباشا نائبا عنه ولقبه (بك) لكل المدن التابعة له ، وللقصبات الصغيرة حاكماً يعرف باسم (قائد) ، يحول اختلاف الافراد البربر وعدم اتفاقهم دون ذهاب الباشا لتلك الحكومات المحلية كما ينتظر منه . يعاني القواد من إهمال الذهاب وتفقد المناطق المختلفة التابعة لهم الا عند الضرورة القصوى حين يطلب الباشا منها تسليم الاتاوات ، وبسبب ضيق الوقت يتم استحصالها من الناس باستعمال العنف والقوة .

أما اذا بقي القواد في مراكزهم الادارية فانهم يجدون البربر مخلصين للباشا يجمعون بسهولة الاتاوات ، بينما أصبح البربر المتذمرون في مناطق أخرى مصدر قلق للأمن وخطر للدولة . من بين تلك المناطق المنشية (١) في ضمنها قريتا Amros — Sucari وتاجوراء ومصراته ومسلاته وزواره والزاوية وغيرها.

توجد بالقرب من المنشية منطقة واسعة من الاراضي الخاضعة والمملوكة لأحد الأولياء تدعى بمنطقة الصيد (٢) وهم اسم الوالي السابق الذي كان يسكنها ، وتعني كلمة الصيد « الاسد » وهي أرض مقدسة لا يستطيع الباشا نفسه الاعتداء عليها أو انتهاك حرمتها ، بحيث اذا لجأ القاتل الى اسوارها أصبح آمناً لا يمسه أحد بسؤ . قد يموت اللاجيء جوعاً ، ويمنع أصدقاؤه من فك الحصار عنه ، ولكن لا يمكن الدخول واخذه بالقوة عنوة .

(١) تكتبها المؤلفة خطأ المسية (المترجم) .

(٢) الاسد ـ ان احترام الاماكن المقدسة يرجع الى الوجهة التاريخية الى الازمنة القديمة فعندما تغلب (الريك) على روما منع جنوده من اقتحام الاماكن المقدسة وحقن دماء الناس الذين لجأوا اليها (المترجم) .

٢٩ يوليو ١٧٨٣

شهر رمضان والعيد وصيام اليهود · العيد · محاولة الارناؤوط للاستيلاء على طرابلس ·

أشرف صوم شهر رمضان العظيم على النهاية : فقد كان مخيفاً ومرعباً بحرارته القاسية الشديدة في مثل هذا الفصل من السنة . أطلقت مدفعية القلعة النار اعلاناً بانتهاء الصوم ورفعت الاعلام على كل المساجد والحصون . وكانت اشارة بدء الافطار اطلاقة من مدفع كبير في قلعة الباشا . انتهى الصوم بهلال شهر شوال . لا يتجاوز الصوم ثلاثين يوماً إذا لم تتم رؤية الهلال . ويحرم المسلمون الاكل والشرب طوال شهر رمضان من شروق الشمس حتى غروبها . وقبيل آذان الفجر يتجول حرس خاص في كل أنحاء المدينة يوقظ النيام لاعداد السحور قبل طلوع الفجر . يحدث ذلك الحرس ضجيجاً قوياً عالياً اذ يحمل الصحون والعلب المصنوعة من التنك وفي داخلها قطع من الحديد (١) المتحركة.

تحل هذه الضوضاء الصاخبة محل دقات الاجراس ، غير المعروفة هنا ، والتي لا يسمح بها الدين الاسلامي . يعلن آذان الفجر موعد الصلاة الاولى من الصلوات الخمس ، فيؤذن المؤذن خمس مرات في غضون اربع وعشرين ساعة ، من على منائر المساجد ، يدور حول المنارة وبيده راية مكة . وموعد اقامة الصلاة الثانية ظهراً ، والثالثة بين الظهر وغروب الشمس وتدعى صلاة العصر والرابعة عند غروب الشمس ، والخامسة بعد ساعة ونصف من غروبها وتدعى آخر مرابط(٢) تشبه مواعيد الاذان هذه بالضبط أجراس وساعات الكنائس ، وهي طريقة دعوة الناس الى الصلاة ، وبالطبع تعلن مواقيت النوم .

---

(١) لا يزال السحور موجودا ، ولو انه اخذ بالزوال في بعض المدن الاسلامية · يستعمل المسحراتي طبلة ومقرعة خشبية لايقاظ النائمين · وفي المدن الاخرى يكتفى باطلاقة مدفع (المترجم) ·

(٢) الاصح صلاة العشاء · (لقد لاحظنا اثناء الترجمة انها تطلق على الاذان كلمة مرابط ، فتقصد بذلك آخر موعد للاذان) (المترجم)·

يحافظ المسلمون الاتقياء الورعون محافظة دقيقة على ملاحظة ومراعاة صوم شهر رمضان . لقد هبت قبل ثلاثة ايام مضت عاصفة رملية جعلت الجو حاراً ملتهباً ، يهدد بالاختناق ، والرياح فيها شديدة الحرارة كاللهبان المندلعة من فوهة فرن ، فلم يحدث مطلقاً أن شوهد بربري محترم واحد قد كسر صيامه وفطر ، بأن تجرع قطرات من الماء ، مع ان البعض من الناس كان يرش الماء على الوجوه ، ولم يحاول شخص واحد أن يبلل شفتيه بقطرة (١) واحدة من الماء .

هناك من يستطيع ان يقضي معظم ساعات النهار في النوم ، ولكن (البك) وباقي أبناء الباشا يلهون أنفسهم بركوب الخيل ، والخروج الى الصحارى الرملية كل يوم تقريباً من شهر رمضان . بعد بضع ساعات من المباريات الصعبة ، يعودون عصراً – بعد صلاة العصر – الى أحد قصور الباشا الموجودة خارج المدينة فيخلعون ملابسهم للاستحمام في جابية (مخزن كبير من ماء الينبوع في بستان تظلله أغصان أشجار التوت) .

هذه هي كل المرطبات التي يحصلون عليها في أشد الحرارة قساوة وعنفاً ، الا انهم يقصدون المدينة عند غروب الشمس . تفتح الابواب الخارجية لكل القنصليات في ساعة الإفطار ، حيث يحتشد البربر ، فيسير كل خمسة أشخاص أو ستة معاً ليشربوا جرعة من الماء في أول لحظة يستطيعون الحصول عليه .

يستعد الخدم من البربر ، يدفعهم شعورهم الديني والاجتماعي ، منتظرين لقاءهم في منتصف الطريق بأوعية مملوءة بالماء العذب البارد ، حتى أن عدداً كبيراً منهم قد أعياه التعب وأضناه العطش والجوع ، بحيث لا تسمع أصواتهم عندما يطلبون جرعة من الماء ؛ وليسوا قادرين على الوقوف وشرب الماء ، بل ان البعض منهم قد وقع على الارض مغمياً عليه في المدخل (السقيفة) أو القاعة

---

(١) الهواء الساخن يسمى (قبلي) لانه يهب من الجنوب .

قبل أن يناوله الخادم جرعة ماء ليبل بها ريقه .

أما صيام اليهود فسبعة أيام بلياليها السبع . ويدعي الكثيرون بالمحافظة على القيام بهذه الفريضة ، ولكن المنطق يدعونا للاعتقاد بأن طبيعة الانسان لا تتحمل القيام بمثل هذه المهمة الشاقة فهم حقاً إما أن يغالطوا أنفسهم أو انهم راغبون في تضليل الاخرين .

يعترف البعض منهم بكل صراحة واخلاص ، بانه لم ينجح في جهده للمحافظة على صيام طويل كهذا ، وتنطبق هذه الحالة حقاً على الجميع . حاولت شابة يهودية تبلغ من العمر ستة عشر عاماً ، تعمل خادمة في منزلنا ان تحافظ على هذا النوع من الصوم الغريب لدينا ، وحين علمت الفتاة بأننا لا نقر عملا مناقضاً تماماً للعقل السليم ، ومن المحتمل أن يؤدي الى موتها ، أصيبت الفتاة بمرض عضال ، ولكنها لم تعترف ، بالرغم من استجوابها مراراً عديدة بأنها تحافظ على صيامها . وبسبب عدم نومها في منزلنا لم نستطع التثبت من الحقيقة حتى لازمت فراشها في المنزل في اليوم الرابع ، بعدها لم تقدر على الاستمرار في المقاومة فوقعت مغشياً عليها في أرض الحجرة .

كان فمها من الداخل مغطى بجلد أبيض سميك جداً . وكانت رائحة كريهة تنبعث من فمها ، فسرعان ما سكب اصدقاؤها لبناً طازجاً وزيتاً حلواً في بلعومها ولم تستعد صحتها الا بعد حيطة عظيمة لكمية ونوعية الطعام الذي تأكله والشراب الذي تشربه . استمر لون وجهها اصفر مثل لون الليمون أسابيع عديدة بالرغم من أن بشرتها كانت في السابق ذات لون جميل رائق .

يترقب البربر بلهفة وشوق شهر شوال بعد صوم ثلاثين يوماً ، وخاصة في هذا الحر الهجير القاسي جداً ، حتى اصبح مثلا في لغتهم ، عندما يرغبون بشيء بكل حرارة وشوق أن يقولوا مثلما يتمنى الصائم هلال شهر شوال .

في صباح اليوم الأول من شهر شوال تطلق مدافع القلعة وكل المدفعية المحيطة بالمدينة معلنة بداية عيد رمضان الذي يستمر ثلاثة أيام في المدينة وسبعة

أيام في الريف . يقدم الناس على كل أنواع الضوضاء والهياج الذي يبدو و كأنه يعوض عما قاسوا طوال شهر الصيام .

يرتدي الناس ملابس من مختلف الاشكال والالوان ، ومن كل الانواع الغريبة العجيبة والبدلات الغليظة الخلقة ، التي لا تشبه شيئاً في العالم ، ومع أنهم يسمون أنفسهم بأسماء مختلفة مثل أسد ، وجمل الخ .... فان أعظم الادب وأرق اللطف لا يقودانك الى أن تكشف عن أقل تشابه لأي شيء وانما حزمة من العصي والثياب القديمة الخلقة المجموعة بصورة غريبة ، بعضها مع بعــض.

يخرجون للرقص واللعب بالمزامير والآلات الموسيقية الاخرى ، وتربط الأراجيح بين عجلتين عاليتين في الشوارع ، حيث يتأرجح الناس بعد دفــع مقدار من المال . يتوقف الصيادون عن صيد السمك خلال أيام هذا العيد ولا يمكن الحصول عليه لان قوارب الصيد تحمل الناس للنزهة حول الميناء .

وبالرغم من أن الدين الاسلامي يحرم شرب المشروبات الكحولية فان عدداً كبيراً من البربر ، يشربون ويثملون بمشروب كحولي يسمونه لاقبي (١) المستخرج من شجرة البلح ، فيؤثر فيهم ويجعلهم مصدر قلق واضطراب ، ويؤدي بهم الى حالة من الجنون . من الخطر حقاً أن يخرج النصارى الى الشوارع خلال ايام العيد الثلاثة أو الاربعة .

تعد في القنصليات موائد توضع في وسط الحوش مغطاة بأنواع المشروبات والزيت والخبز والزيتون طوال أيام العيد الثلاثة ، لان عدداً من الحرس الخاص بالباشا والحرس الاسود والخدم التابعين للباشا ، اختيروا للاسهام بها كــذلك يُدعى المترجمون والحراس ، جوقة فجوقة حسب مراتبهم .

---

(١) لاقبي : مشروب يستخرج من شجرة البلح لمدة شهر عادة · بمعدل غالونين في اليوم ، وذلك بأن تحفر الشجرة من رقبتها العليا فيخرج السائل من الحفر وتوضع أباريق في عنق الشجر لاخذ السائل · ومن الملاحظ ان الشجرة لا تحمل بلحــا لمدة ثلاث سنوات · ومن الممكن القيام بنفس العملية خمس او ست مرات ، وبعدهــا تموت · ومن ثم تحول الى جذوع من خشب لغرض استعمالها في المنازل ·

وفي كل ليلة من أيام العيد ، تضاء المساجد بالأنوار ، فلم تكن المدينـــة منورة ، بل بالعكس كانت مظلمة كلياً : يبدو المنظر البهيج ، ويتلألأ النور الساطع من المصابيح حول منارة عالية في كل مسجد .

وسوق المقاهي ، الذي سبق وأن أشرت اليه ، مضاء من أوله حتى نهايته ، في كل ليلة من ليالي العيد ، حتى بعد الساعة الواحدة أو الثانية من الصباح .

تنزهنا في أمسية من أماسي عيد رمضان حتى الساعة الثانية عشرة ، فكانت كل جهات السوق مكتظة بالناس الذين يلبسون الملابس الجيدة . وكانـــت روائح العطور من العنبر وازهار البرتقال والياسمين تنبعث بقوة غير مقبولة . وكان السوق مضاء بالمصابيح الكثيرة التي أحالت ظلمته نهاراً .

يتجمع جمهور غفير من كبار البربر بعد الإفطار عند غروب الشمـــس للتسلية والترفيه يتحدثون عن انباء اليوم ويشربون القهوة .

قبل ثلاثين سنة مضت ، وفي احدى هذه الامسيات ، وفي هذا السوق بالذات ، وفي بداية عهد حكم الباشا الحاضر ، وقع حادث غريب يلفـــت الاهتمام الذي قرر في تلك الساعة مصير طرابلس (١) .

أرسل أرناؤوطي ، على رأس حملة مؤلفة من عدد قليل من السفن الحربية وتحت امرته بين خمسمائة الى ستمائة جندي ، توقف في ميناء طرابلس للحصول على المؤن ، قبل حلول شهر رمضان بقليل . كانت الحكومة آنذاك ، بالرغم من أنها اكثر نشاطاً وفاعلية مما هي عليه الان : ضعيفة حيث تشبه الدويـــلات البربرية . كان عدد كبير من الناس متذمرين تذمراً شديداً ، فوجد هـــذا الارناؤوطي عدداً من الضباط الرؤساء ليسوا على وئام مع الباشا ومهيئـــين للثورة ، ولاحظ ايضاً أن جزءاً من التحصينات القريبة من البحر ، تحتاج الى عمل بضعة أيام يجعل هذا الجزء من المدينة سهل الاختراق منه . فتكونـــت

(١) بناء على ما يرويه المؤرخ الفرنسي (فيرود) بأن هذه الحادثة وقعت سنة ١٧٥٢ ، بسنتين قبل موت محمد قرمانلي ومجيء علي .

فكرة مدهشة لمحاولة الاستيلاء على طرابلس فجأة بعدد قليل من الناس، اذا لم يرتكب أحد اتباعه أي عمل أحمق يمكن أن يتصوره انسان ، فمن المحتمل جداً أن ينجح في هذه المغامرة الغريبة . عمل على إفساد بعض الرجال الكبار الذين ملوا حكم الباشا ، أو سئموا اسلوب ادارته ، فتم له تحريضهم على أمل الحصول على الاسلاب والغنائم من الحكومة ، فقرروا أن يؤيدوا خطته . كان من بين هؤلاء الشيخ (١) وبدون موافقة هذه الشخصية المهمة لم يكن من المحتمل للارناؤوطي أن يقوم بهذه الخطة . (٢)

وفي ساعة متأخرة من احدى الامسيات انزل القسم الاعظم من جنوده تحت الاسوار التي يدعوها البربر القلعة الاسبانية في الجزء المنهار من التحصينات فأستولوا عليه . كانت المدافع على هذا الجانب ، موضوعة مهملة لا تصلح للاستعمال لسنوات عديدة ؛ ولكنها تشرف وتسيطر على قصر الباشا . فبذل الارناؤوطي جهداً لاصلاحها وجعلها صالحة للعمل . فكانت فتحات الميناء منذ ذلك التاريخ قد سدت ، ولم يوضع مدفع واحد على ذلك الجانب من القلعة . تركت هذه الجهة من القلعة بدون حرس خاص بها فوجد الارناؤوطي منفذاً سهلا اليها ، دخل الجنود اليها خلسة دون أن يلفتوا النظر ، عملوا بسرعة لجلب كميات عظيمة من الذخيرة الحربية من سفنهم ووضعها هناك ، وحوالي

---

(١) شيخ البلد ٠

(٢) يذكر عمر بن اسماعيل في بحثه عن اسباب هذه الثورة اهمال الباشا لشؤون الجيش والاسطول وممارسة الدول الاوروبية الضغط عليه خاصة انجلترا التي حملته على عقد معاهدة لابقاء ايالة طرابلس على الحياد في حالة قيام حرب بين انجلترا وتونس والجزائر فاستاء المغامرون من هذه المعاهدة فقام البعض منهم بثورة في مساء ٣٠ يوليو ١٧٥٣ لخلع الباشا ولكنهم فشلوا لعدم تجاوب الشعب معهم ٠ ويقول : « لا شك ان الباشا بقبوله لهذا الاتفاق قد أساء الى كرامة شعب كما انه ساعد على تثبيت اول معول في هدم بناء هذه الدولة ٠٠ الخ » ٠ عمر بن اسماعيل ، ص ٢٧ ـ ٢٨ ٠ (المترجم) ٠

الساعة العاشرة من المساء ، خلال ليالي شهر رمضان ، عندما كان كبار البربر كلهم مجتمعين في سوق المقاهي أرسل الارناؤوطي أحد جنوده برسالة الى صديقه الشيخ ، وأمر الجندي أن يلاحظ بكل احتراس ، وأن يأتي بالجواب حالاً عن أسماء الرجال الكبار الموجودين في السوق ، الا أن هذا الجندي ، من المحتمل أن يكون سكراناً ، أو أنه لم يفهم بوضوح مشروع وخطة سيده ، فعندما وصل الشيخ الذي كان محاطا بكل الشخصيات المرموقة ذات المكانة والجاه ، طرأت له أكثر الافكار تهوراً : ففي اللحظة التي كان ينقل رسالته بصورة سرية ، سحب مسدسه وأطلق على الشيخ النار فأرداه صريعاً في الحال . فأثارت هذه الخطوة العنيفة ، بالطبع ، رعباً عاماً . وسرعان ما قتل الرجل بأيدي الناس الذين أحاطوا به ، وقضي على القسم الاعظم من الارناؤوط حالا وقطعوا ارباً ارباً ....ونجا الاخرون هرباً على ظهور السفن في فوضى لا مثيل لها ، وفرّ رئيسهم بعد ساعات قليلة من التخفي حتى وصل الى احدى السفن .

وعندها انتهت هذه المؤامرة التي لم تحبك خيوطها حبكاً جيداً ، بحيث أنقذ فشلها عرش الباشا في تلك الفترة .

٣ سبتمبر ١٧٨٣

تعيين المترجمين . البدو : اخلاقهم وانماط حياتهم . وصف السهل . بحيرة الملح . قرية عجيبة تسكنها الاعراب .

ترسل الحكومة حرساً من مترجمين في كل أنحاء بلاد البربر ، كما هو الحال في القسطنطينية ليقيموا في منازل الوزراء (١) . يصحب هذان الحارسان الاسرة عند خروجها للنزهة ، أما هنا فيضاف اليهما حارس معيّن من الباشا ، اذا رغب النصارى في الخروج من المدينة والنزهة الى مسافة بعيدة عنها حتى لا

(١) مثل دور القنصليات .

يكون الباشا مسئولاً عن سلامة النصارى بسبب ما يحدثه الأعراب من قلق واضطراب نتيجة لقلة المواد الغذائية وندرتها في هذه الفترة ، وبسبب فرض المزيد من الضرائب .

أما في الجزائر فان الأسر النصرانية مضطرة لدعوة المترجم لتناول وجبات الطعام معها على مائدتها ، فهو اذن يقوم بمهمة جاسوس تماماً يترصد حركات الاسرة وسكناتها ، ويستطيع أن ينقل التقارير التي تدخل السرور الى قلب الداي ، وهو السبب في القلق العظيم : وفي الغالب يعرض حياة المسيحيين للخطر ولكن في هذا الجزء من بلاد البربر يتمتع النصارى بمعاملة حسنة خاصة (١)

مررنا في نزهتنا اليوم بعد الظهر ، التي سرنا بها نحو الغرب ، بعدد كبير من البدو القادمين من الصحارى ، واستطيع القول إنهم يؤلفون قرى متحركة . كانوا هم أول من رأيت منذ وصولي الى هذه البلاد ؛ وفي هذا الفصل من السنة يقتربون من طرابلس ، ليفيدوا من التربة ، التي كانت جرداء ، فيحرثونها ويزرعونها . ويشيد البدو خيامهم بالقرب جداً من الاسوار ، في الاجزاء الخضراء من السهل المجاور من المدينة . ينقسم البدو الى عدد كبير من القبائل ، تتميز بأسماء رؤسائها ، فتؤلف كل قبيلة نوعاً من القرية ، ولكل أسرة خيمة أو كوخ متنقل خاص بها . يتاجرون مع سكان طرابلس ، ومن جملة الاشياء التي يجلبونها الى المدينة الجرود الصوفية التي ينسجونها في أكواخهم وأراضيهم .

كل شيخ أو رئيس ، مسؤول عن قبيلته العربية التي تحت سلطته ، ومسؤول أمام الباشا والي طرابلس عن سلوك وعمل كل فرد من أفراد قبيلته . يشبه هؤلاء البدو الطيور المهاجرة التي ليس لها أعشاش ثابتة ومستقرة .

حين لا يجدون المرعى والذرة والماء في موقع فسرعان ما ينتقلون الى محل آخر أكثر خصباً ، مع أسرهم ودوابهم وخيامهم . وتشيد الاسرة ذات المكانة

---

(١) تؤيد كل المصادر المعاصرة المقارنة هذه بين النصارى في الجزائر والنصارى في طرابلس ، كما كانت معاملة علي القرمانلي للرفيق النصارى ، بالمقارنة ، حسنة جدا .

المرموقة الممتازة من أربع الى خمس خيام ، لهذا لا شيء أكثر مدعاة للدهشة والاستغراب يمكن أن يتخيله انسان من أشكال الخيام المتعددة والمختلفة المحتشدة الآن في السهل المجاور للمدينة ، الى درجة أنها تغطي السهل كله . تقف الحيوانات الخاصة بكل أسرة بالقرب من خيامها تحت ظل سقيفة من سعف النخيل ، توضع في صف واحد وتربط جميعها بحبل مصنوع من القش أو ليف النخل من سيقانها الامامية مرة واحدة . يزرع البدو القمح والشعير وغيرها من الحبوب ، ينتظرون نموها حتى وقت الحصاد : وبعدئذ يرحلون الى محل آخر من البلاد .

يلبس الرجل البدوي الجرد من الصوف الاسمر السميك الداكن اللون ، طوله خمس أو ست ياردات وعرضه حوالي ياردتان ، يقوم هذا الرداء بوظيفة الملابس لكل اليوم ، والفراش ، والغطاء في الليل ، يلبسونه بربط الزاويتين العلويتين معاً ، بمتكأ من الخشب أو الحديد ، ويوضع الجرد اولاً فوق الكتف الايسر ، ومن ثم تطوى البقية حول الجسم يلبسها البعض بصورة رشيقة وظريفة أما أولئك الذين لم يألفوا ارتداء هذه الملابس فليس من الامور السهلة عليهم لبسها ، ومن اليسير الكشف عن الغريب من طيات جرده التي تختلف عن تلك التي يطويها المعتاد على لبسها باستمرار .

تلبس المرأة نفس النوع من الجرد الذي يقوم بصورة عامة بوظيفة غطاء ، ويلبس البعض من النساء قميصاً تحت الجرد . يؤلف الجرد جزءاً من ملابس البربر ولكن بالنسبة للسيدات في طرابلس بوظيفة العباءة الخارجية فقط ، يلبسنها من الحرير الشفاف الرقيق في المنزل ، ومن مزيج من القطن والحرير ، من أكثر انواع البياض جمالا ، ليخرجن من المنزل وفوق ذلك كساء من الصوف الابيض الرقيق . تضاف الى ذلك الاردية من الاجواخ الفاخرة التي جعل الترف والرخاء أمراً ضرورياً وواجباً للمرأة الطرابلسية ؛ بينما تغطي المرأة البدوية نفسها بكساء واحد من هذه الكسوات الاربع .

ترتدي البدويات الجرد برشاقة وظرف متناهيين يتفوقن في ظرفهن على

النساء البربريات . يزين شعورهن بقطع من الزجاج والنقود المعدنية والخــرز الصيني والمرجان يصففن شعورهن الى عدد كبير من الجدايل الصغيرة جداً ، ويسدلنها على الوجه ، ويجعلنه مستقيماً عندما يضفرنه فوق حاجب العين تماماً ، لا يؤثر فيهن تأثيراً سيئاً ، بل يجعل منظر البعض منهن جميلا ، ورائعاً . لون بشرتهن اسمر جداً ، وكأنه أسود تقريباً ، وعيونهن جميعاً سود ، وأسنانهن بيض ناصعة لماعة ، وقوامهن رشيق لطيف ، ولهن عادة بربرية بوشم وجوههن وخاصة ذقونهن : فيمسحن الجرح بالبارود حالا ، فيصبح بعدئذ علامة سوداء وفقا للرمز الذي قطعنه سلفاً .

يستعمل عدد كبير منهن في الوشم ابرة يغرزنها عميقاً جداً في الجزء الذي يرغبن في وشم الرمز في الجسم ، وبالطبع هي عملية طويلة ومؤلمة جداً . ولكن جمال التزيين الذي ينتظرنه تعويض كاف للعذاب المخيف الذي يتحملنه.

ذهبنا الى أفخم الخيام وأحسنها منظراً ، وكان لنا حديث طويل مع النساء اللواتي كن جالسات فيها . وكان لاحدى النساء اللواتي تحدثنا معهن خرز من الوان مختلفة موضوعة في وجهها ، خاصة حول فمها وفي وسط خدها . ورأينا نساء ينسجن بجد ونشاط في المنول ، تعتبر الصناعة الرئيسية عند العرب هــي الجرود الصوفية ، والانسجة لخيامهم . تقوم النسوة بكل هذه الاعمال ولا تستعمل المكوك ، ولكن يأخذن كل خيــط في أصابعهن ، ومن ثم بآلة يحملنها في أيديهن تشبه المشط ، مصنوعة من الخشب صنعاً خشناً ، ويضغطن كل خيط عندما يضعنه في أسنان ذلك المشط . يتطلب النسيج بهذه الطريقــة درجة من القوة والغلظة والرجولة ، التي تميز حقاً اليد العربية .

رأينا الاولاد والبنات والشباب متجمهرين والزوج منهمكاً في فلاحــة الارض ، والزوجة تطحن في الرحى ، وتعمل في المنول ، أو تجهز المؤن . قدمت لنا صحنها المملوء بالكسكسي (١) بشعور صادق ومخلص ، ويظهر

---

(١) وهو الصحن المشهور في شمال افريقيا ولا يزال يصنع من القمح واللحم والفلفــل الاحمــر .

أنها قد تألمت لاننا رفضنا أن نتذوقه ؛ وقد انتهى طبخه منذ برهة ، وهي واقفة على موقد النار الموضوع بين حجرين على الارض في زاوية من خيمتها . ولا يوجد هذا الصحن من الطعام الا عند البربر والاتراك . يصنع ببخار اللحم ، وعندما يصنع ، على الطريقة المألوفة في طرابلس ، من القمح الرقيق يكـــون لذيذ الطعم ممتازاً . أما الصحن الذي قدمته البدوية لنا فكان من القمح الخشن الغليظ جداً ولونه أسود تقريباً .

وبالرغم من العمل الذي تقوم به هذه النسوة فانهن لا ينزعن أي شيء من حليهن وزينتهن ، مثل الاسورة التي تحلي معصم كل واحدة منهن ؛ والخلاخل التي تزين أرجلهن ، والاقراط الجميلة في آذانهن ، تلك الحلى التي يقال بأنها تضايقهن وتثقل عليهن . وهن لا ينسين مطلقاً أن يكحلن رموش عيونهـــن بالكحل الاسود ، ويصبغن حواجبهن ؛ ويلقطن الشعيرات الصغيرات الزائغة عن الحاجبين ، ويجعلن شكلهما وطولهما وسعتهما يرضي خيلاءهن ، بدون أي اعتبار للشكل الذي وهبته الطبيعة لهن : ولهذا فان المرأة البدوية وكـــذلك المرأة البربرية في بلاد البربر ، حين تغير وجهها بالدهون والاصباغ ، وعندما ترتدي ملابسها وتتجمل وتتزين ، فمن السهولة بمكان أن تفلت من أعين أولئك الذين سبق وأن تعرفوا عليها من قبل .

يمكن القول بأن سيدة افريقية لفت نفسها بجرد صوفي في صحارى برقة ، لا تستثنى من الحماقات الحديثة اكثر من سيدة ظريفة في بلاط أوربي .

يشبه البدو جيرانهم العرب ، الذين لا يختلفون عنهم الا نادراً ، وبالاسم فقط ، يتباهون بنبالتهم ، ويدعون بأن نسبهم يتصل بقبائل سبأ الذين عبروا شبه الجزيرة العربية وذهبوا الى افريقيا ؛ يقودهم ملكهم Melio — Afrique الذي يُقال أن افريقيا سميت باسمه .

بدت البدوية التي أوقفتنا تتحدث الينا لطيفة وأنيسة ،الا أنها كانت وجلة ومرتعبة فأخلت سبيلها وذهبت لحالها .

لم تكن خيامهم فخمة من الداخل ، أقيمت على الرمل ؛ بدون اعداد ،

لتسوية ارضية الخيمة : وعندما ينهض أي فرد من هذه الأرضية بجرده الواسع الثقيل الفضفاض لا بد وأن يثير غيمة من التراب ، الذي يغطي لبعض الوقت الأسرة كلها .

حين يتحدث البدو أو العرب يجلسون على شكل حلقة ، فالرجل الذي يبدأ الحديث أولا يحاول أن ينظف المكان ويده على الرمل ، ومن ثم يستمر بأصبعه مؤشراً خلال حديثه ويعود ثانية بين لحظة وأخرى لتمهيد تلك البقعة ، يبدأ ثانية بالحديث وتسوية البقعة .

لقد اعتاد البدو العرب هذا الاسلوب في الحديث وفي حالة عدم وجود بقعة رملية ، حين يتحدث عربي لنصراني ، فانه يمسك بيده ، ويؤشر باصبعه على راحة يده واذا لم يعطه يده ، فانه يستعمل راحة يده الشخصية ، والضربات ضرورية لشرح نقاط جدله ، ومن ثم يلطف الاسلوب في بعض الفترات .

لا يزال البدو يحتفظون بعدد كبير من التقاليد والأعراف والعادات التي نقرأها في الكتب السماوية والتاريخية ، فهم في الغالب ، وفي كل شيء ، نفس الشعب الذي كان يعيش منذ ألوف من السنين الماضية ، يحيي أحدهم الآخر بالتحية القديمة « السلام عليكم » باللغة البربرية ، ضاربين بنفس الوقت اليد اليمنى على صدورهم . وينقل الطرابلسيون عند التحية اليد اليمنى من الصدر الى الجبهة بالتناوب مرات عديدة ، عندما يعبرون عن احترامهم وتقديرهم ، لكن حين يتلاقى صديقان فيحي أحدهما الآخر تحية محبة واخلاص فان اسلوب تحيتهم لا يزال غريبا وشاذا ، يطوقان يديهما اليمنى بسرعة معاً ، يقبل أحدهما يد الآخر بسرعة بالتبادل بضعة دقائق .

والبدو في العادة طوال القامة ، نحاف الجسم ، مفتولو العضلات . يبدو بأن رأي المرأة البدوية يختلف عن رأي بعض السيدات في طرابلس ، اللائي يعتقدن اذا لم تك المرأة (بدنية)، يصعب عليها الحركة بدون مساعدة ، لا يمكن أن تكون جميلة ، ولاجل أن تصل المرأة البدوية الى هذا المستوى من الجمال ، لا بد وأن تضطر نفسها ، في الواقع ، بعد أن تتناول المزيد من وجبات الطعام ،

بأن تأكل أرغفة الخبز المصنوع من الدقيق المنقوع في الماء البارد .

يظهر السهل في الوقت الحاضر خصباً وغنياً ، ولكنه في معظم فصول السنة عبارة عن بحر من الرمال ، تنتقل من محل إلى آخر ، تعلوه بعض الأحيان الاوحال وبعض البقع من الارض المزروعة . ومع ذلك فان منظرها يوحي بأنها أحرقت بالنار ، بسبب حرارة الشمس المحرقة : التي تترك أعقاب النبات سوداء تماماً .

أما الآن فمنظرها يختلف كل الإختلاف : فهي حقل خصب وغني في الوقت الحاضر أو انه حقل من الذرة التي تغطي كل زاوية : وكذلك القمح الهندي والشعير . ينمو القمح الهندي هنا فيبلغ ارتفاعه من خمسة إلى ستة أقدام، وتؤلف اكثر الممرات البهيجة المفرحة للنزهة حين تكون الرمال متماسكة ؛ ولكن من المزعج حقاً ان اضطررنا للوقوف بالقرب من طريق تونس ، فهو الطريق الرئيسي بين طرابلس ومملكة تونس .

توجد بحيرة بالقرب من الطريق حيث تتجمع الأملاح على حواشيها (١) ومن النادر أن تهطل الامطار الكافية لتجعل منها أرضاً صالحة لجمع الأملاح لغرض تجاري .

تجف هذه البحيرة خلال معظم فصول السنة ؛ فهي نظيفة ناعمة : بل هي تشبه في منظرها أحسن السجاد وأحلاه ؛ نتنزه عليها باستمرار .

شاهدنا على مسافة بعيدة القمم الزرقاء الداكنة لجبال غريان التي تبدو للعين في يوم صحو واضح . توجد في هذه الجبال قرية عربية عجيبة ومدهشة ، تقع البيوت على قمة الجبال ، لا يمكن تمييزها بسهولة ؛ الا من قبل أولئك الذين يسكنون فيها ، لانها مبنية كلها تحت سطح الارض في الجبال .

يوجد مدخل صغير ؛ وضيق جداً وطويل نحت في الجبل بصورة منحدرة ، يؤدي إلى المنزل تحت الأرض ، حيث تسحب المواشي التي تسوقها الاسرة .

---

(١) تعرف باسم الملاحة اما الان فهي مطار .

ان معظم هؤلاء الأعراب من قطاع الطرق ، يعيشون في منازل محصنة لا يمكن مهاجمتها ، بسبب الممرات الضيقة تحت الارض التي تقود الى منازلهم ، حيث باستطاعة رجل واحد أن يوقف عدداً كبيراً في المدخل وبذلك يكون حرساً كافياً لهم من هجمات البربر . وقد أصبح طول المدخل لهذه المنازل مضرب الامثال بين البربر ، فكل قصة أو رواية طويلة ومملة متعبة ، يصفونها مثل مدخل في جبال غريان لا نهاية لها (١) .

٩ سبتمبر ١٧٩٣

المنازل البربرية وآداب المجاملة عند زيارة الحريم · الفنادق ومعاملة المسافرين · السيدات البربريات في الحمام · (الديوان) · تراب الذهب ·

تختلف المنازل التي يسكنها وجهاء الناس ورؤساؤهم عن المنازل في مصر ، التي بني معظمها وفقاً لتقاليد الشرق من ثلاثة أو أربعة أدوار ، أما في طرابلس فان المنازل لا تتجاوز الدور الواحد . عندما تدخل المنزل تقابلك السقيفة وهي

(١) روى لي ضابط في خدمة صاحب السمو القصة التالية عن نمط معيشة هؤلاء الناس : يحفرون اولا حفرة مربعة الشكل في الارض ، عمقها حوالي عشرين قدما ، بينما طولها وعرضها تتناسب مع عدد الناس الذين تقرر ان يسكنوا فيه في المستقبل · وعلى كل جانب تشيد حجرات ثانوية من اجل ان تغير لتصبح محلات للنوم ومخازن الخ ··· ويكون المدخل في اتجاه منحدر وارتفاعها كاف لدخول جمل · تستطيع الاسرة وقطعانها التي تملكها ان تلجأ اليها في الليل والنهار عندما تتوقع خطر هجوم محتمل · (المترجم) ·

Blaquier's Letters From Mediterranean, Vol. 11. P. 36

وحتى سنة ١٩٤٨ كانت لا تزال تعيش في تلك المنازل تحت الارض جاليات من اليهود والبربر التي تدعى محليا (دوموس) وهو اسم بقي من أيام الرومان خاصة في قرية تسمى (نتجرينا) بالقرب من غريان · وبقيت المنازل فارغة غير ماهولة بعد سفر اليهود الى فلسطين ·

قاعة رصفت على جانبيها مقاعد من الحجر . وفي هذه السقيفة كما يسميها البربر توجد سلالم تؤدي إلى الحجرة الواحدة الكبيرة التي تسمى (جلفور) (١) والتي فيها نوافذ تطل على الطريق ، ولا يسمح بوجود مثل تلك النوافذ في أي جزء آخر من أجزاء المنزل . وتكون هذه الحجرة خاصة بسيد المنزل وحده ، يستقبل فيها الزائرين ، ويقوم بأعماله التجارية : ويقيم الولائم والدعوات البهيجة .

لا يجرؤ أحد حتى ولو كان من أسرته أن يدخل إلى هذه الغرفة دون استحصال رخصة منه . وقد يبدو هذا اجراء تعسفياً ولكن سيدة بربرية ، في مثل هذه الحالة ، تتكافأ مع سيدها في السلطة ، فهو بالمقابل لا يستطيع الدخول الى مقصورة زوجته ، اذا وجد شباشب سيدة مطروحة خارج باب الحجرة ، فيجب عليه أن ينتظر حتى ترفع تلك الشباشب .

يقع وراء الحجرة هذه وسط الحوش الذي يتناسب رصفه وتبليطه مع الحالة المالية لصاحب المنزل . فالبعض منها مبلط بالاسمنت الاسمر ، الذي يشبه في جماله الرخام المصقول والبعض الآخر مبلط بالرخام الأسود أو الأبيض ، وتبلط المنازل الفقيرة بالحجر أو الطين .

وسواء كانت المنازل صغيرة أو كبيرة ، في المدينة أو القرية ، فانها مبنية تماماً على نفس الطراز . يستعمل وسط الحوش لاستقبال الضيوف من السيدات اللواتي ترحب بهن وتكرم وفادتهن سيدة المنزل ، في مناسبات عديدة كالاحتفال بالزواج ، أو في العيد ، وكذلك في قبول التعازي عند الوفاة ، أو تشييع موكب جثمان قبل الدفن .

يفرش وسط الحوش في مثل هذه المناسبات ، عادة ، بالسجاد التركي والحصر ، ووقاية من قسوة الجو وشدة حرارته يغطى بمظلة تكلف البربري مبالغ طائلة . وتنثر الوسائد الحريرية الثمينة حول وسط الحوش للجلوس عليها ، وتعلق

(١) (لم نستطع ان نجد أصل هذه الكلمة الذي ليس عربيا ولا تركيا ولا فارسيا) يقول المترجم ان أصل هذه الكلمة عربي وهو تحريف كلمة غرفة ـ المترجم ـ

على الجدران قطع القماش المزركش الموشى ، حتى يغدو وسط الحوش صالة عظيمة .

يحيط بوسط الحوش رواق تسنده أعمدة ، شيد عليها إيوان له نفس الابعاد ، مغلوق بباب من الخشب المشبك . ومن الأروقة والإيوان تفتح الأبواب على حجرات كبيرة لا تتصل احداها بالأخرى ، والتي يدخل اليها النور من وسط الحوش هذا فقط . لا يوجد زجاج في النوافذ ، ولكنها مغطاة بحصير من الخشب قطعت قطعاً عجيباً مدهشاً . يدخل من هذه النوافذ نور قاتم حزين ، ينفذ من ثقوب ضيقة لا تزيد سعة الواحد منها على ربع بوصة متقاطعة بقضبان ثقيلة من الحديد ، وبما أنها تطل على وسط الحوش من الداخل فانها صممت تصميماً جيدا لتهدىء من روع البربري الغيور القلق .

تغطى سطوح المنازل بالاسمنت أو البلاستير وتحاط بسور علوه قدم ليحول دون سقوط أي شيء في الشارع . يجفف البربر ويعدون على تلك السطوح التين والزبيب والتمر وعصير البلح (١) ويتمتع البربر بالجلوس على تلك السطوح لاستنشاق الانسام العذبة الهابة من البحر (٢) ، بعد يوم قائظ شديد الحرارة ، وخاصة بعد غروب الشمس حين يتوجه البربر لاداء فريضة الصلاة ، وعندما يدعو السيد المرابطي (٣) للصلاة ولا شيء ابداً يشغله عن السجود ، وهي وضعية تدهش الاوروبيين ، اذا صادف وان كانوا بصحبة البربر أو أنهم يتنزهون في الشوارع في مثل هذه الساعة من النهار .

---

(١) يسمى في العراق (الدبس) او عسل التمر .

(٢) تسميها المؤلفة Inbat وهي النسائم التي تجعل النبات ينمو ويخضر ، على النقيض من الريح القبلي الذي يحطم النبات ويقضي عليه .

(٣) تعني المؤلفة المؤذن .

تسقط مياه المطر من سطوح المنازل في أحواض تحت وسط الحوش (١) تحفظ الماء من سنة الى أخرى حفظاً كاملا ولا يوجد ماء عذب آخر في البلاد . توجد آبار كثيرة لا تعد ولا تحصى . يتوافر الماء البارد في كل محل بالقرب من سطح الأرض ولكن جميع تلك المياه مالحة ورديئة الطعم .

لا توجد أنهار قريبة ولهذا فان انحباس المطر لمدة طويلة قد يسبب ظهور وباء . تهطل الامطار باستمرار لعدة أيام وليال ، وتتوقف فجأة ، وبعدئذ لا تسقط قطرة من الماء لعدة أشهر متواصلة . لقد شيدت الاحواض من الداخل بمواد بنائية تشبه الرخام ، وفي الغالب تشغل مساحة من الأرض بقدر مساحة وسط الحوش .

يقع مركز الحرس الذي يعرف باسم (ساندانار) بالقرب من وسط المدينة يقيم فيه (آغا) أو الضابط ، دائماً مع الحرس . يرسل هذا الاغا حضيرة من الجنود الى المدينة يصحبهم عدد من الكلاب في حالة من الجوع المخيف تغني الحرس مشقة تعقب أولئك الذين يريدون القاء القبض عليهم ، وبكلمة واحدة تهجم الكلاب دفعة واحدة الى الأمام لتمسك بالضحية السيئة الحظ ، وتحتفظ به مكتوف اليدين ملقى على الأرض حتى يدركه الحراس .

لقد تم بناء أجمل الفنادق البربرية ، منذ أمد قصير ، على حساب زوجة الباشا التي تتمتع بثقة عظيمة بين البربر لقيامها بهذه المبرة الخاصة باستقبال الضيوف ، ففي داخل جدرانه يجد كل المسافرين ملجأ مجاناً . هذا البناء ضخم جداً ، يحتوي على منطقة مربعة فيها بئر وجابية أو حوض رخامي للمياه ، ليتوضأ به البربر قبل أداء فريضة الصلاة أو غسل اليدين قبل وجبات الطعام .

وشيدت حول تلك المنطقة أعداد من الحجرات الصغيرات ، لخزن البضائع والسلع العائدة إلى الأشخاص الذين ينامون في تلك الحجرات . وتربط جمال وخيول وبغال المسافرين حول وسط الحوش . فعندما يصل مسافر غريب يسرع بربري لنفض الغبار من سطح حجرة فارغة ويفرش فيها حصيراً ،

(١) تسمى تلك الاحواض في طرابلس (ماجن) ـ المترجم ـ

وهو الأثاث الوحيد المسموح به للضيف .

من المنتظر أن يمنح المقتدر مالياً ، عند رحيله ، مكافأة صغيرة للحمالين ، ولا يمكن لاي شخص أن يدخل الفندق ويغادره قبل اذان الفجر حين يفتح بربري الأبواب الخارجية . تزدحم الحمامات الكبيرة المشيدة من الرخام بالسيدات في كل ساعة من ساعات النهار حتى غروب الشمس ، اللواتي يذهبن اليها لتزيين أنفسهن : فيصطحبن معهن المشاطة والوصيفات .

يقتضي حضور السيدة إلى الحمام عدداً من الخادمات ، احداهن تغسل شعرها غسلا جيداً بماء زهر البرتقال ، وأخرى تكون على أتم الاستعداد لتجفيفه بمسحوق خاص أعدته من العطور التي تفوح رائحتها القوية المؤلفة من العنبر المحروق والقرنفل والقرفة والمسك . تقسم الشعر وتضفره الى جدائل صغيرة لا يقل عددها عن خمسين — عملية طويلة وشاقة ومتعبة جداً — يضاف الى ذلك المعاناة التي تقاسيها من لقط الشعيرات الزائدات في الحاجبين بالملقط ، ثم صبغ الحاجبين صبغاً جميلا جداً ، وتكحيل الاهداب بالكحل الاسود الموضوع بمكحلة من الفضة أو الذهب (١) .

مررنا اليوم في نزهتنا بأسوار بناية كبيرة ، حيث كان الديوان العظيم أو المجلس يجتمع في أيام الاتراك : عندما كانت طرابلس تحت نفوذ وسيطرة الباشا التركي ، المعين من القسطنطينية ، كان هذا الديوان عبارة عن مجلس يتألف من البربر من ذوي السلطة والنفوذ والجاه .

يطلع الباشا الديوان على الاوامر التي يستلمها من الباب العالي التي كانت تخص عادة جمع الاتاوات والوقوف بحيطة وحذر ضد بعض الجماعات والزمر التي تحصل على سلطة واسعة .

أما في الوقت الحاضر فالبلاد كلها تحت سيطرة حكومة بربرية ، ويجتمع

---

(١) تهمل المؤلفة بتواضع العملية الاخرى الخاصة بازالة كل شعر الجسم بنوع من عجينة السكر تسمى عقيدة التي يضرب بها الجلد ، ومن ثم تسحب بشدة مزيلة الشعر من جذوره .

الديوان العظيم الذي يؤلف جزءاً من مراسيم القسطنطينية بدعوة من الباشا وحده في بعض المناسبات .

وبالرغم من أن الحكم يتصف بالطغيان والتعسف ، فليس من الصعب على أحد الرعايا أن يدخل على الوالي ويطلعه على مظلمته وما لحقه من حيف . عندما يكون الباشا جالساً على عرشه غالباً ما تسمع الصيحات مدوية (شرع الله) أي (العدالة باسم الله) في أرجاء القصر . يصرخ المظلومون البربر بهذه الكلمات كلما دنوا وقبل أن يدخلوا في حضرة الباشا . حين تسمع الصيحات تدوي منادية بالعدالة ، سرعان ما يعد الطريق للمتضرع اللاهث حتى ولو كان الوالي قد ترك عرشه ، الا أنه من المنتظر أن يجلس ليستمع الى الظلامة ويرفع الظلم الذي أصاب ذلك الرجل .

يقال هنا بأن الناس يمشون على الذهب ، حيث يغربل وينخل هذا المعدن الثمين على ساحل البحر ، ومن ثم يجمع بكميات قليلة جداً . الا أن عروق هذا المعدن الثمين كلها موجودة في داخل البلاد وبالقرب من فزان . وعندما يوجد الذهب على الساحل (في بعض الاجزاء وبالقرب من طرابلس) يجمع الناس حفنات منه ؛ ويضعونها في طاس خشبية ويغسلونه مرات عديدة بالماء حتى يترسب كل الذهب الذي هو أثقل من الرمل ويبقى في قعر الطاس .

يربط هذا المعدن الثمين في قطعة صغيرة من القماش بحجم الجوزة الصغيرة تقريباً فيجلب على هذه الحالة الى طرابلس . تعرف هذه الشدات الصغيرة باسم مثقال . ويقدر ثمن كل مثقال منها بعشرة شلنات وست بنسات أو السكوني البندقي (١) . فالتجار الذين يشترون تلك المثاقيل من الذهب يذيبون

---

(١) نقد ايطالي قديم .

العملات الطرابلسية : القيمة النسبية للعملة الطرابلسية مع العملة الانجليزية

(أ)	السيكوني البندقي	· باون	١٢ شلنغ	· بنس
(ب)	الدولار الطرابلسي	·	٨	٦
(جـ)	البياستر	·	١	٤
(د)	البوهصين		·	١½
(هـ)	المحبوب		٧	·
(و)	الباتاك	·	٤	٦

(المترجم) .

البعض منها ويصنعون منها سبائك ، تعرف بنفس هذا الإسم كذلك في الهند . وتختلف سبائك الذهب هذه في حجومها .

١ نوفمبر ١٧٨٣

وصف القلعة ـ الحرم ـ مفاتيح المدينة تسلم كل ليلة الى الباشا · اللالة حنومة زوجة الباشا علي القرمانلي ·

اقترح أيها الصديق العزيز ، أن أقدم لك في هذه الرسالة ، وصفاً لزيارة قمنا بها حديثاً الى أسرة الباشا ، ولما كان داخل القصر وخدر الحريم والقلعة في طرابلس مواقع لم توصف بعد من قبل أي شخص يسمح له بالدخول سراً الى باطن أسوارها ، آمل أن تكون مشاهدة ساعات معدودات نمضيها هنا بصورة عامة ، موضع اهتمامك . عند الوصول الى قلعة الباشا نمر بالخنادق الاولى ، يقوم على خفارتها الحرس الخاص بالباشا .

القلعة محاطة بسور يبلغ ارتفاعه أربعين قدماً ، فيه عدد من الشرفات المبنية على أعلى السور والمنفصلة بعضها عن بعض ، وعدد من الكوات لفوهات المدافع ، والأبراج ، على طراز التحصينات القديمة تغيرت معالمها المعمارية من الداخل نتيجة للاضافات الشاذة التي قام بها الباشا الحاضر لتضم الفروع المتعددة من أسرته .

بعد المرور من الباب الخارجي ، تدخل أولا وسط الحوش في القلعة المكتظة بالحراس الذين ينتظرون أمام السقيفة أو القاعة ، وحيث يجلس الكخيا طول النهار . وهو أعلى موظف لدى الباشا ، واكثرهم تمتعاً بثقته ، يتولى أعلى سلطة ، وأوسع صلاحية ، حين يكون الباشا غائباً . لا يستطيع أي فرد من الرعية الوصول الى الباشا في أي شأن من الشؤون الا أن يمر بواسطة الكخيا . يقوم بخدمة حراسته عدد من الحرس من الرقيق والمماليك .

خلال هذه القاعة ساحة مربعة الشكل مبلطة تدعمها أعمدة من الرخام ، وفيها بني المجلس أو حجرة المجلس (١) ، حيث يستقبل الباشا بطانته في أيام الإحتفالات والأعياد . تنتهي قاعة المجلس من الخارج بالقرميد الصيني الذي يؤلف عدد منه لوحة فنية كاملة . يؤدي سلم معلق مبني من الرخام المزخرف الى باب المجلس . وتعزف فرقة الموسيقى الخاصة بالوالي (٢) باحتفال عظيم أمام باب قاعة المجلس كل يوم بعد الظهر ، عندما يعلن المؤذن صلاة العصر في الساعة الرابعة ، وعلى طول ليلة الأربعاء ، لأنها يوم اعتلاء الباشا العرش .

ولا يسمح لاي فرد مهما يكن عذره المرور من أمام الفرقة الموسيقية حين العزف ، وعلى (شواويش) الباشا أن يحضروا حفلات العزف الموسيقي . ولا تعزف الفرقة الموسيقية الا للباشا وابنه الاكبر ، عندما يخرجان مع الجيش أو في أية مناسبة عامة . قبل البدء بالعزف ، يتقدم رئيس الشواويش ، الذي يعتبر بهذه المناسبة منادياً ، يعلن خلال الاحتفال ولاية الباشا من جديد . تتألف الاصوات التي تدوي من الفرقة الموسيقية الغريبة على اذن أوروبية ، من الطبلة الصغيرة المرتكزة على أرجل (٣) والمزمار والدف ، فالطبلة آلة بربرية ، والمزمار والدف آلتان ترجعان الى العبيد السود . أضيفت اعداد هائلة من المباني الى القلعة من شوارع متعددة ، ووراءها السجن الذي يحجز فيه الرقيق النصارى . يوجد عدد من الرقيق المالطي والجنوي والاسباني في داخل أسواره في الوقت الحاضر ، وليس من رعايا دول أخرى .

لا يسمح للسادة الرجال الاقتراب من الحريم ، أو من حجرات السيدات ،

---

(١) تذكره المؤلفة بالحروف اللاتينية Messeley .

(٢) تسميها المؤلفة (النوبة) باللغة التركية ولا تزال هذه الكلمة على افواه النــاس حول طرابلس .

(٣) تسمى النقارية .

أكثر من السجن وهناك يقودك عدد من الخصيان خلال قبو معقود معتم حالك الظلام ، بحيث لا يمكن التثبت من السير في الدرب الا بصعوبة عظيمة . وعند الدخول على الحريم تخيم على الجو غمامة سوداء من الكآبة والحزن تلفت النظر . وفوق وسط الحوش شبابيك من قضبان الحديد الثقيلة ، القريبة بعضها من بعض التي تضفي عليه مظهراً محزناً . اما الأروقة المحيطة بوسط الحوش وأمام الحجرات ، فمحاطـة بالشبابيك المشبكـة بالخشب المثقوب ثقوباً صغيرة جداً .

عندما تتزوج بنات الباشا تخصص لهن حجرات خاصة بهن ، ولا يجرؤ شخص الدخول اليها ، وانما أزواجهن وخادماتهن والخصيان والوصيفات . واذا اقتضت الضرورة للسيدات أن يتحدثن بحضور شخص ثالث ، حتى ولو كان زوجاً ، أو أباً ، أو أخاً فعليهن أن يتحجبن . يزدحم كل ممر بعدد من الحرس والخدم، بحيث يصبح من المستحيل تقريباً الانتقال من حجرة الى أخرى.

وجدنا بعض الجواري السوداوات اللواتي جلبن حديثاً من مدينة فزان مزعجات جداً بسبب رؤيتهن لأول مرة ، الزي والشكل الاوروبي الذي أثار فيهن المخاوف المرعبة . سرعان ما اختطف سوار عليه تمثال صغير من على ذراع سيدة من قبل جارية من الجواري الفزانية السوداوات اعتبرته رمزاً لشيطان أو روح شريرة . تشبه على قياس صغير جداً مخلوقاً طبيعياً قوياً عندما يشاهد فجأة يزعق بصراخ تشنجي عصبي ، لم يكن بالإمكان تهدئتها الا بعد عناء كبير من الاقناع.

من الخطر أن تسير في طريقهن مرتدياً المحارم المخرمة الباهظة التكاليف ، أو القلائد الثمينة ، فإذا تجرأت احداهن ولمست المحرم فسرعان ما تمزقه الى قطع ، أو لمست العقد تعضه فوراً لترى فيما اذا كان اللؤلؤ حقيقياً .

عند دخولنا الى حجرة اللالة الكبيرة زوجة الباشا وجدناها جالسة مع بناتها الثلاث الكبرى زوجة رئيس الجمارك ، والوسطى زوجة (بلك) بنغازي ، والصغرى من المنتظر أن تتزوج الرئيس أو قائد الاسطول في الميناء : كل هؤلاء الرجال من الذين دخلوا في الأسلام ، فهنا لا يمزجون دماء الولاة بدماء رعاياهم.

كثيرا ما تعامل الأميرات أزواجهن ، الذين أحضروا لهن ، معاملة أسوأ من عبيدهن ، خاصة إذا كانوا ينحدرون من أسر واطئة النسب . وهذا ما يحدث بعض الأحيان ، يغري الزوج نفسه بلفتة صغيرة تمنحه زوجته بالحرية التي يتمتع بها ، والزيادة المستمرة لثروته كل يوم ، والاعتبار الذي يحصل عليه من المنزلة العليا والعلاقة بأسرة الوالي .

يكشف محيا اللالة الكبيرة ومعالم وجهها عن خلقها الذي يتحدث الناس عنه . فهي شخصية انسانية ولطيفة . وسلوكها اكثر سحراً مما يتصوره انسان . فعمرها لم يتجاوز الأربعين ، ولا يمكن التحدث عن عمرها ، لان الحديث عن العمر والاحتفاظ بشهادات الميلاد ضد التقاليد البربرية .

لا تزال تتمتع بقسط وافر من الجمال والروعة ، عيناها زوقاران وشعرها أبيض اللون كالكتان ، وبشرتها رقيقة ناعمة جداً ، ولكن يتضح بأنها قاست من حزن وصيام ثقيل الوطء على نفسها، بسبب فقدانها بعض أطفالها الذين تحبهم حباً جماً ، والخصومات السيئة الحظ التي تنشب في الوقت الحاضر بين أولادها الثلاثة ، التي يغذيها الشيطان وتلهب نيرانها الغيرة .

يسمح لزوجات القناصل عند زيارتهن هذه السيدة أن يقبلن رأسها ، أما السيدات الاخريات اللواتي ترافقهن وبناتهن فيقبلن يدها اليمنى وتقدم يدها اليسرى للخدم فقط (١) واذا صادف ووجدت بعض جواريها السوداوات أو أي واحدة من الخادمات اللواتي يسهرن على الخدمة في القلعة أو ما يجاورها فأنهن يغتنمن الفرصة ليركعن مقبلات نهاية جردها أو الرداء الاعلى . فهي محبوبة ومحترمة من قبل رعاياها ، وذلك أمر طبيعي ، لانها تبذل على وجوه البر والإحسان ، وغلطتها الكبرى ليس في البذل ، ولكن في العطاء والهبات أكثر مما تسمح بها ميزانيتها .

تعرف باسم حلومة عند والديها ، أما كلمة اللالة عند البربر فتعني السيدة .

---

(١) تستعمل يد الشمال (اليسرى) من قبل المسلمين لتطهير الجسم بعد البراز .

تدعى عند أسرتها اللالة حلومة، ولكن يدعوها رعاياها اللالة الكبيرة، أو السيدة الكبرى .

تزوج ابنها الأكبر البك منذ عدة سنين ، عندما كان عمره سبع سنوات . يتزوج البربر عادة وهم صغار السن جداً ؛ بحيث تشاهد الأم وطفلها الأكبر وكأنهما رفيقا اللعب فكلاهما يتشاجران ويغضبان في لعبة طفولية . تصبح النساء هنا ؛ في الغالب ، جدات وهن في السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين من العمر ؛ فلا غرابة ؛ اذن أن يعيشوا طويلا ليروا اطفال العديد من جيلهن .

من المنظر الكئيب المحزن الذي يستحوذ على ذهن اللالة حلومة ، في الوقت الحاضر ، تحتفظ دائما بشيء من ملابسها يعبر عن حزنها العميق .

تتألف بدلة الحزن من الملابس التي تغيرت ألوانها كلياً ، وفقدت مظهرها الجديد بكل ما فيه من رونق وبهاء، واذا كان الحزن عميقاً فتكون الملابس رثة وخلقة : حينئذ تطلب غطاء جديداً للرأس ، الموشى والمطرز تطريزاً فخماً ، الذي يشبه قطعة صلبة من الذهب ، فانها لا تضعه مطلقاً على رأسها قبل أن يطمس في الماء أمامها ، فيزول منه كل ما فيه من جمال وبهاء. وفي غضون هذه العملية تبكي وتنتحب ، وتذرف الدموع ، وترتجل النائحات أبيات رثاء محزن يعبرن بها عن كآبتها . أما ما تبقى من ملابسها فهو فخم وعظيم وتلبس الحلى والمجوهرات الغالية الثمن ، وحجاباً شفافاً يمتد عدة ياردات ، يتدلى باهمال وبدون عناية حولها رداء فضفاض رشيق ، يكشف عما وراءه من ملابس باهرة غالية وكان شكلها كله مهيباً وعظيماً تزينه تقاسيم وجهها الحلوة العذبة .

كانت معلقة على جدران الحجرة التي تجلس فيها القطيفة الخضراء الداكنة اللون ، المطرزة بأوراد من الحرير الدمشقي ، الملون ، وعليها قد طرزت آيات من القرآن بأحرف من الحرير ، تؤلف اطاراً من الأعلى والأسفل ، وتحت هذا تنتهي الحجرة بالقرميد الملون الذي يؤلف منظراً خلوياً . أما جانبا المدخل والمدخل إلى الحجرة فهي مبنية بالرخام ، ووفقاً لتقاليد الزخرفة الداخلية

هنا ، فان الصيني النفيس الفاخر والكريستال يحيط بالحجرة على حلية من الخشب بالقرب من السقف. وبالقرب من أسفل هذه الزخارف وضعت المرايا ذات أطر من ذهب وفضة والارض مغطاة بكل عجيب مدهش من الحصر والسجاد الفاخر ، ونثرت عليها الوسائد ، ووضعت على شكل أرائك مغطاة بالقطيفة والمطرزة بالذهب والفضة التي أعدت للجلوس وفرش أمامها سجاد تركي .

أديرت علينا القهوة في فناجين مصنوعة من الصيني صغيرة جداً موضوعة في صينية من الذهب الخالص بدون صحون ، وحجمها غير مألوف ، مزخرفة بالنقوش البارزة الجميلة حملها عبدان مخصيان ، يرتديان الملابس الفاخرة الزاهية أكثر من أي عبد رأيناه في القلعة . وكانا غاصين بالذهب والفضة ، ثم أديرت علينا كؤوس المرطبات على موائد منخفضة الارتفاع ، مرصعة ترصيعاً جميلاً ، لا يزيد ارتفاعها على قدم واحد عن الأرض ، وكان من بين أنواع الشرابات عصير الرمان الطازج ، المعصور بقشر الفاكهة فأضفى عليه مذاقاً لذيذاً جداً .

وبعد الإنتهاء من الطعام أحضر العبيد صواني عليها الأباريق الفضية ، يقدمون بعض الاحيان مناديل نهاياتها من الذهب المنسوج فيهـا بعرض حوالي نصف ياردة .

عاد الأميران الشابان ، سيدي أحمد وسيدي يوسف ، من السباق على الرمال ، والتسلية التي يلهوان بها كثيراً ، فدخلا الحجرة لزيارة امهما ، فتحجبت أخواتهما لبضع دقائق عندما وقفا برهة يحييان أمهما ، ثم أسرعا ليدركا الباشا قبل أن ينتهي موعد الإستقبال الرسمي حيث يسمح للزائرين بالحضور ، لانحراف صحته ، ولا يحدث ذلك كل يوم ، فان كل واحد مسموح له بالحضور وخاصة أفراد اسرته .

صحبنا اللالة حلومة وابنتها الى منزل (البك) لزيارة زوجته اللالة عائشة . رأينا في طريقنا غرفة جديدة كبيرة شيدت للبك من الرخام المزخرف ، المستورد من جنوه ، والقرميد الصيني من مالطة . قدم المالطيون ليشيدوا الشرفات التي

يبنونها بفن رائع خاص بهم أنفسهم .

وكان يظن بأن اللالة عائشة زوجة (البك) تتميز بالعقل والإدراك ولو أنها متغطرسة ، متعجرفة . كانت الحجرات في قصرها واسعة وكبيرة ، وكانت ترتدي ملابس فاخرة وجميلة . كان قميصها موشى بالذهب عند الرقبة ، ولبست فوقه صدرية من الذهب والفضة ، أو سترة بدون أكمام ، وفوق ذلك صدرية أخرى من القطيفة الارجوانية مطرزة بالذهب ، تطريزاً فخماً ، وبالمرجان وأزرار اللؤلؤ الموضوعة بعضها بقرب البعض الآخر أسفل الصدر : له أكمام قصيرة تنتهي بحزمة من الذهب لا تبعد كثيراً عن أسفل الكتف ، وتكشف عن قميص واسع فضفاض من الحرير الرقيق الشفاف ، الموشى بالذهب والفضة والشرائط .

أما الجرد الذي كانت ترتديه فوق ملابسها فكان من الحرائر الشفافة القرمزية الفاخرة ، بين الشرائط الحريرية من نفس اللون ، وتلبس حول رسغ قدميها مثل سيدات أسرة الباشا نوعاً من الحجل المصنوع من قضيب سميك من الذهب ، يربطنه حول رسغ القدم بيد واحدة ، تبلغ سعته بوصة ونصف وكذلك سمكه ، وكل واحد منها يزن أربعة أرطال (١) . لا يسمح لاي امرأة أخرى غير بنات الباشا وحفيداته بلبس هذه الحلى من ذهب ، وعلى السيدات اللواتي لا تجري في عروقهن دماء الوالي أن يلبسن الخلخال من الفضة .

فوق الخلخال مباشرة شريط عرضه ثلاث بوصات ، من خيط الذهب يكون في نهاية السروال المصنوع من الحرير الأبيض والأصفر الزعفراني . كان لها خمسة أقراط في كل أذن اثنان موضوعان في بطن الاذن وثلاثة حول الاعلى ، وكلها مطعمة بالأحجار الكريمة .

كانت تبدو جليلة القدر ، مهيبة . وكان نفوذها وتأثيرها على الباشا والبك أعظم بكثير من بقية الاميرات . كان يظن بأنها تتدخل كثيراً في

(١) يلبس معظم النساء البدويات (الخلخال او الحجل) من الفضة اليوم ، وهـــذا التقليد بين النساء الساميات جاء ذكره في التوراة Isaiah 3 : 16 .

السياسة ، ولكنها تحتفظ في الظاهر باحترام ومراعاة رأي اللالة الكبيرة ؛ التي تحبها حباً جماً وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً .

خرجنا من القلعة حوالي الساعة السابعة عندما أذن المؤذن لاقامة صلاة العشاء . قادنا الحرس عن طريق الحريم ، وأضطررنا لاستعمال المشاعل بالرغم من أن الوقت كان نهاراً بسبب الممرات الطويلة المظلمة التي كان علينا أن نجتازها . هل تستطيع المسالك والأنفاق تحت الأرض والزوايا الخفية في هذه القلعة أن تخبرنا عن المؤامرات الخفية والاحداث العجيبة الغريبة التي تحدث يوميا في داخل الأسوار ؟ لابد وان تكون من أكثر الأمور غرابة ودهشة جديرة بالأنصات والاستماع .

عندما اقتربنا من سجن الرقيق النصارى ، تركتنا دليلتنا من الحريم ، وجاء لإرشادنا أحد الحرس مع السادة الذين كانوا في انتظارنا على الحصون الخارجية .

٣ نوفمبر ١٧٨٣

علي القرمانلي ، تحرير طرابلس من الاتراك · وصف الحرم في القسطنطينية ·

سأستمر في هذه الرسالة على أن أقدم لك المزيد من الوصف عن الباشا علي قرمانلي فهو قصير القامة ، لا يشبه أبناءه في الشكل ، ولكنه يبدو محترماً وقوراً ، ولو أنه لم يبلغ بعد من عمره الخمسين عاماً(١) وهو الباشا البربري الثاني الذي تولى الحكم منذ أيام جده . الذي يسميه البربر أحمد الكبير ، لأنه نصّب من نفسه سيداً على طرابلس في سنة ١٧١٤ (٢) بعد أن ظلت مئات

(١) اعتلى علي قرمانلي العرش في الواقع سنة ١٧١١ (ويقول المترجم ان هذا التاريخ خطأ والاصح انه تولى الحكم في ٢٤ يوليو ١٧٥٤) ·

(٢) يصفه الرحالة (لوكاس) بانه شيخ قصير القامة قوي وشديد ، بشرته بيضاء ، ضاحك المحيا لطيف المعاشرة ، بهيج المزاج ·

من السنين تحت طغيان واستبداد الباشوات الاتراك ، والجيش التركي الجشع الذي لا هم له غير غير النهب والسلب ، الاتراك الذين أذلوا البربر وساموهم أبشع حالات الخضوع والخشوع . كانت البلاد كلها جزءاً تابعاً للباب العالي .

ساعد الناس على بقاء حامية تركية مقيمة في طرابلس لعدة سنين ، لدعم سلطة ونفوذ وهيبة الباشوات الذين يرسلون من السلطان التركي ، والذين أقاموا في هذا المكان ثلاثة أعوام . كان أحمد جد الباشا الحاضر أميراً أو بك لمدينة طرابلس خلال فترة حكم الباشا التركي الاخير ، الذي تبنى ابنه عندما رجع الأتراك الى القسطنطينية ، وذلك بأن أدخلوا الطفل وأخرجوه من قميص زوجته ، وهو الاحتفال الطقوسي لتبني الطفل وجعله ابناً له .

عاش هذا الطفل وترعرع حتى أصبح الآن الكخيا الكبير ، أعظم الشخصيات هيبة ووقاراً بلحيته البيضاء الناصعة كلون الفضة .

عندما رجع الباشا التركي الى القسطنطينية ترك حامية مقيمة لحماية أمن المنطقة أو بالأحرى لجمع الدخول والاتاوات للسلطان التركي . وفي غضون هذه الفترة من الزمن تقدم أحمد بك بطلب إلى الباب العالي لتعيينه واليا فصدر الامر بتعيينه باشا . سرعان ما وجد الوسيلة للقيام باجراء تغيير كلي في الحكومة، وكان الاسلوب المفاجيء السريع الذي اتبعه لتنفيذ التغير هذا كان مدهشاً وغريباً . (١)

اتخذ تدبيراً ، دون احداث قلاقل أو اضطرابات : لتنظيف طرابلس في مدة أربع وعشرين ساعة من كافة الجنود الاتراك الذين كان عددهم يصل الى بضعة ميئات من الجيش النظامي .

أقام في قصره الذي لا يبعد كثيراً عن المدينة ، وليمة فخمة دعا اليها كل

---

(١) يرجع عمر بن اسماعيل مجيء أحمد القرمانلي الى الولاية لعدة عوامل منها سخط الشعب على حكامه الاتراك وسيطرة الجند على زمام الامور في البلاد ، والعصبيات المحلية ، كل هذه العوامل دفعت الشعب الى اختيار احمد القرمانلي واليا على البلاد ــ ص ١٥ (المترجم) .

الرؤساء الاتراك . فتم القضاء عـــلى ثلاثمائة من هــؤلاء الضحايا البؤساء السيء الحظ ، الواحد تلو الآخر ، عند دخولهم الى السقيفة أو القــاعة . هذه السقيفة طويلة جداً ، وعلى كل جانب منها حجــرات صغيرة مظلمة ومخابيء عميقة ، اختفى فيهــا عدد من الحرس . اغتــال اولئك الحراس الاتراك عندما كانوا يمرون ، فتنقل أجسامهم بسرعة الى تلك المخابيء البعيدة عن النظر ، بحيث لا يرى التركي القادم الثاني شيئاً غير مألوف يجري عندما يدخل الى السقيفة القاتلة ، لكن يلقى مصرعه بدون شك بنفس السقيفة بعد أن يترك حصانه وخدمه .

عثر على الأتراك الذين ظلوا في هذه المدينة في اليوم الثاني صرعى في كل مكان (بالطبع بأمر صادر) ولم تجر التحقيقات ، أو أجري القليل منها ، مع اولئك الذين ارتكبوا مثل تلك الأعمال الشنيعة المفزعة . بقي عدد قليل جداً من الأتراك الهاربين ليقصوا اخبار المجزرة الرهيبة .

أرسلت هدايا عظيمة الى السلطان التركي لتهديء من روعه ، ولم يجرأ أحد على التحدث عن الحامية التركية لمدة يوم أو يومين ، والتي تم القضاء عليها كليا وازالتها في بضع ساعات .

استطاع أن يحرر نفسه وأسرته بهذا الاسلوب المرعب المخيف ، من النير التركي ، وأن ينجح في جعل السلطان التركي راضياً مرتاحاً ، وبذلك جعل طرابلس بأجمعها تحت سلطة حكومة بربرية ، ولا يزال البربر يصفون حكمه بالمجيد والعظيم .

اذا كان عبد الله ابن الباشا التركي ، الذي تبناه أحمد الكبير ابناً له ، ومعيناً من قبله ، تكون للباشا التركي حصته في العرش ، كانت مناسبة أفلتت من ذاكرته . لقد سمى ابنه محمداً ، وهو لا يزال طفلا ، بك لمدينة طرابلس ، وبناء على ذلك خلفه في ولاية العرش وكان والد الباشا الحاضر .

كان عبد الله بك ، على كل حال ، محترماً ومقدراً باشغاله منصباً عالياً أعطي له . يشغل هذا الأمير منصب الكخيا الكبير للقلعة ، يتولى امرتها في

حالة غياب الباشا ؛ ويسهر على حراستها عندما يقيم بها الباشا .

لم يترك هذا الضابط مركز وظيفته ليلاً ونهاراً . يجلس دائماً في السقيفة ، وله نائب يساعده وتحت أمرته اسمه الكخيا الصغير . ومع أن المدينة يحكمها الكخيا فان مفاتيح الباب الخارجي للمدينة تسلم ليلا الى الكخيا الكبير . أما مفاتيح القلعة فتسلم كل مساء الى الباشا ؛ الذي يحتفظ بها في حجرته . وبعد موعد تسليم المفاتيح لا يمكن الدخول الى القصر الا عند الصباح ، ولكن بصعود الاسوار العالية بالحبال وهي عملية صعبة وخطيرة ولم يحاول أحد القيام بها الا في الحالات الاضطرارية القصوى ، ومع ذلك بالحصول على اذن من الكخيا الكبير .

ومع أن الباشا لم يبلغ الخمسين من عمره فانه يبدو شيخاً عجوزاً بلحيته البيضاء . لم يبلغ ابنه الأكبر البك (١) بعد الثلاثين من عمره ، ذو شخصية شخصية جذابة ومهيبة ، يحوطها الكثير من الوقار ، يتميز بالاعتدال ومعروف بعدالته بين شعبه .

يتساوى البك مع الباشا من حيث عدد الحرس الذين تحت امرته والسلطة التي يتمتع بها ، وهذا ما يثير ضغائن واحقاد وغيرة اخويه ، التي عمقها ووسعها شدة واستشراء افراد البطانة من المتذمرين فأصبح اخواه مصدراً لقلقه وألمه .

اكتفى الباشا بالزواج من اللالة حلومة فقط ، مع أن البربر والاتراك بوسعهم أن يتزوجوا أربع زوجات ؛ لذا تتحدث اللالة حلومة بكثير من الرضا والقناعة عن الجميلات اليونانيات والجواري السوداوات ؛ اللواتي جلبن للقصر فيسببن لها المتاعب اكثر من النفقات التي تبذل عليهن . فهي تعتبر نفسها ، بهذا الخصوص أكثر سعادة وهناء كما تقول ، حتى من السلطانة العظيمة في القسطنطينية التي لا تجد وسط التألق واللمعان المثارف المنزلية داخل أسوار بيت

(١) يصفه لوكاس بقوله : « طويل القامة حسن القيافة ولكن بشرته سمراء اللون جم الادب »

الحريم (السراي السلطانية) .

ان تقاليد السراي السلطانية غريبة الاطوار ، وفريدة في بابها ، وضارة بالسعادة الاجتماعية ، فإما أن تجعل القلب غريباً حتى لملاذه ومسراته ، وإما أن تضطره للبحث عنها عبثاً . ويمكنك أن تحكم حكماً أفضل على حياة السلطان في الباب العثماني بالوصف الآتي للسراي السلطانية ، أو بالاحرى للحرم الخاص بالسراي العظيم ، فكلمة السراي تعني السور المحيط بكل القصر العثماني ، الذي لا يقل عن مدينة متوسطة الحجم . يبلغ ارتفاع السور الذي يحيط بها ثلاثين قدماً . وللسراي تسعة أبواب ، اثنان منها رائعان وعظيمان : أحد هذه الابواب التسعة من الباب العثماني يعرف باسم الباب العالي ، ولكن المكان الذي تسكنه سيدات السلطان التركي يدعى الحرم ، كما هو الحال هنا . ولا يستطيع أي شخص الا من كان موظفاً رسمياً تابعاً له أن يدخل الباب الاول فقط ، يطل الحرم على بحر مرمره . وليس بقدرة أي شخص آخر غير السلطان التركي والمخاصي وحدهم ، أن يتطلعوا على السيدات اللواتي في الحرم . وعندما ترغب أية سيدة في الخروج من السراي السلطانية بحراً أو براً فان السفينة أو العربة التي تركبها يجب أن تغطى غطاء محكماً ، كما يعد ممر مغلق ومغطى بقماش من الكتان على طول الطريق من باب المقصورة الى مكان الصعود الى السفينة أو الركوب في العربات .

ينظم العدد الكبير من السيدات الراغبات في النزهة بأمر يصدره السلطان ، ولكل واحدة منهن خادمة واحدة ، كما تقتضي القواعد الغريبة الاطوار . تنتظر الواحدة بعد الاخرى بالتناوب : فالسيدة التي تدخل تُخدمها السيدة التي دخلت قبلها ، وتخدم نفسها ايضاً ، وهكذا فان التي تدخل أولا تُخدم دون أن تخدم ، والاخيرة التي تدخل تخدم بدون أن يخدمها أحد . يعشن جميعهن في حجرات منفصلة وبين كل خمس حجرات توجد مهذبة تراقب بدقة سلوكهن تدعى رئيسة المهذبات خاتون كخيا والتي تعني مهذبة السيدات النبيلات اللواتي في مقتبل العمر .

وحين توجد سلطانة أم فانها تؤلف بطانتها من بين سيدات الحرم ؛ ولها كل الحرية في اختيار العدد الذي يعجبها من تلك السيدات ، وعندما يفصح السلطان التركي عن رغبته في السماح للسيدات في النزهة في حدائق وجنائن السراي السلطانية فانه يخبر بذلك خاتون كخيا ، أو قهرمانة الحرم ، فتصدر الأوامر بانسحاب كافة الاشخاص ، فيقوم المخاصي السود بحراسة اسوار الحدائق والجنائن وسيوفهم مجردة ، ويقوم فريق أخر منهم بحراسة الممرات والمسالك ، فاذا ما وجد أحد الاشخاص ، ولسؤ الحظ ، في الجنائن حتى ولو كان عن جهل أو غفلة فانه يقتل في الحال ويحمل رأسه للباب العالي .

تسمى أم الابن الاكبر للسلطان التركي (حسكي) أي السلطانة الام . ولأنها أم الابن الأول تتوج باكاليل الزهور والورود ، ولها الحرية في تأليف بطانتها ، كما ذكرنا أعلاه ، تحتفظ بكل امتيازات الزوجة . ويعين عدد من المخاصي لخدمتها الخاصة . ولا تتوج السيدات الأخريات حتى ولو كان لهن أبناء ، أو أنهن يحتفظن بمثل هذا الامتياز الباهظ كالسيدة الاولى أو السلطانة الام . ولكن الخدمة التي تقدم لهن جزئية ومنفردة ولهن حجرات واسعة ؛ وهن معفوات من الخدمة .

بعد وفاة السلطان التركي ، تجتمع كافة السيدات الامهات ولهن أبناء ذكور ، واللواتي يعتبرن ملكات ، ليقمن في حداد داخل السراي السلطانية القديم ، حيث لا يستطعن الخروج منه الا اذا اعتلى أحد ابنائهن العرش . من السهولة أن نتخيل من هذا الوصف في طرابلس اللالة حلومة معها كل الحق في الحكم على الظروف التي تعيش فيها .

يحتفظ في داخل القصر بعدد كبير من الخيول لاستعمال السلطان وذلك العدد الذي لا يمكن ان يزيد أو أن ينقص ، ولا يمكن لأي شخص ركوبها ، ما عدا السلطان نفسه ، كما ان جميع الخدم الذين في السراي السلطانية هم من أبناء النصارى الذين أصبحوا أتراكاً .

لنعد الى اللالة حلومة فنجدها تتحدث برفقها وحنانها المعهودين عن

الارامل الباقيات من المرحوم محمد باشا ، اللواتي يعاملن بشيء كثير من الرفق والتسامح والغفران حسب تعليمات صادرة منها . تخبرنا اللالة حلومة بوجود ثلاث ملكات ، بينهن من لا زلن يعشن في تلك القلاع في الحرم الذي يرجع الى الباشا المتوفى . كلهن فرحات ومسرورات جداً اتفقن فيما بينهن تمام الاتفاق ، بحرية ، كما تقول ، انها تفزع نفسها من الخوف كل يوم على مصير أبنائها الثلاثة ، فكلهم أعزاء على قلبها ، وكل واحد منهم كثير الغيرة من الآخر .

٢٩ ديسمبر ١٧٨٣

وصف المسجد الكبير · وصف موكب الباشا · طلب العفو من الباشا · الكخيا · القاضي · رئيس الجمارك قصة يهودي ·

يعتبر المسجد الكبير الذي فيه المقبرة العظيمة للاسرة الحاكمة ، من أجمل ما في المدينة من مساجد : أما البقية فنظيفة ولكن أقل منه روعة وجمالا. يضطر البربر كل شخص ، امرأة ورجلاً ، لان يخلع نعليه عند الدخول في المسجد وتسليمها للخدم . إن عادة خلع الاحذية في الباب قليلة الاهمية ، لان أرض المسجد مفروشة كلها بالحصر الجميلة التي وضع فوقها السجاد التركي الفاخر . البناء الذي أتحدث عنه ، ضخم شاهق الارتفاع ، مربع الشكل تقريباً، والجدران مزخرفة بالقرميد الصيني الجميل اللطيف زخرفة منسقة حتى تصل الى ما تحت السقف بثلاثة اقدام . والسقوف هي الاخرى مزينة بنفس الطراز الفني . وللاعمدة الستة عشر قضبان من حديد مطلية باللونين الأزرق والذهبي ، والتي تصل من عمود الى آخر ، فتؤلف اسناداً عظيماً للبناء كله ، حوالي ستة أقدام تحت السطح ، الذي منه تتدلى حبال الزينة التي ربطت بها المصابيح القديمة ذات السلاسل الفضية البعض منها كبير جداً وله مباخر فضية لحرق البخور ، والبيض الملون المعلق على حبال حريرية .

توجد على ثلاث جهات من المسجد فتحات نوافذ مربعة مشبكة بالحديد وبدون زجاج وعلى جهة القبلة منبر للخطابة والوعظ مبني من المرمر الـــذي يشبه الرخام المعرق ، وهذا المنبر مغطى بالقرميد الصيني وفوقه قبة صغيرة من الرخام تدعمها اربعة أعمدة من المرمر الابيض التي تستقر على المنبر ، وخارج هذه القبة مغطى كله بالذهب . بالقرب من هذا المنبر يوجد المحراب وهـــو تجويف مقوس في الجدار ينزل اليه امام الجماعة من المنبر الوعظ لاداء فريضة الصلاة ، وعلى جهتيه شيخ البلد والكخيا . يصلي أمام الجماعة مولياً وجهـــه نحو القبلة في مكة ، بينما المحاريب الاخرى تقابل الشرق . لا يوجد في المسجد مقعد ولا مسطبة ولا محل للاستراحة .

تطل النوافذ التي في الجهتين على الرواق الذي يحيط بالمسجد : تفتـــح النوافذ من الجهة الثالثة على بناء حجري أبيض نظيف يشبه مسجداً في مظهره ولكنه مقبرة الاسرة الحاكمة مليء بالقبور اللطيفة المنظر لكل اقرباء الاسرة الحاكمة ما عدا أولئك الذين ماتوا خارج المدينة ، لان القوانين لا تسمح بنقل الجثمان من الخارج من خلال ابواب المدينة ولو أن كل من يموت يحمل جثمانه خارجها.

تقع مقبرة النصارى بالقرب من ساحل البحر خارج الباب البحري : لا يوجد اليها مسلك من خارج المدينة وانما من داخلها فقط . فلا يمكن بالنتيجة نقل الجثمان الى هناك الا عن طريق عبور البحر من أمام فم الميناء . اذا ما توفي نصراني في الريف ، فان البربر لا يقنعون بأي مبلغ يقدم لهم ليمرروا الجثمان من الابواب ، لمحبتهم الشديدة للمال ، فلا يبقى طريق آخر غير رحلة بحرية لضمان دفنه .

لنعد الى مقبرة الاسرة الحاكمة : كلها مبنية من أكثر انواع الرخـــام نقاوة وبياضاً ، مليئة بكميات كبيرة من الزهور النضرة العطرة . وتكسو معظم القبور عقود الزينة من الياسمين العربي ، وربطات كبيرة من الورود الملونة المؤلفة من زهر البرتقال ، والريحان والورود البيضاء ، والأزهار الحمراء الخ... تفوح مـــن تلك الزهور روائـــح عطرة ذكية الاريج بحيث أن من لم يألف

رؤية مثل تلك الزهور الكثيرة فمن النادر أن يصدق ما تشهده عيناه .

إن معظم القبور مشيدة من الرخام الابيض ، والقليل منها مطعم بالرخام الملون ، وتتميز قبور الرجال من قبور النساء بنقش عمامة فقط من الرخام الموضوع فوق القبر .

لما كانت نوافذ المسجد الكبير واطئة جداً ، وعميقة ، فان النور في كل محل ضعيف خافت يضفي كثيراً من الهيبة والقدسية ، ويوفر سبباً لاعظم قسط من الراحة تخلصاً من وهج النور الساطع في الخارج .

يبدو لنا جنةً تفوح منها روائح العطور من ماء زهر البرتقال ، والبخور ، والمسك ، تضاف اليها الكميات الهائلة من الزهورالنضرة التي سبق وانوصفناها وبرودة المكان المقبولة ، بدخولنا من الشارع المغبر المترب الشديد الحرارة . ان نظافته المدهشة ، وقداسته وجلاله ورائحته اللطيفة الذكية تدفع بالضرورة على الخيال . أعيد بناء هذا المسجد قبل اثنين وأربعين عاما مضت في عهد محمد والد الباشا .

يتم تعويض البربر تعويضاً سخياً بسبب الاتعاب التي يسببها لهم النصارى عندما يزورون داراً من دورهم ، ولكن يجب الاعتراف ، بحسن أخلاقهم وسمو آدابهم ورقة مجاملاتهم وطيب رعايتهم ، وهي ، صفات ممتازة ينـدر وجودها في الناس الآخرين ، عندما نعتبر آدابهم تقف على خط مستقيم ضد آدابنا . لكن لا يوجد محل آخر في بلاد البربر مثل هذا الاحترام والتقدير الذي يقابل به النصارى في طرابلس .

نعرف أن البربر لم يتغيروا ، الا قليلاً ، في تقاليدهم وأعرافهم منذ قرون عديدة ، فلا عجب اذن أن تؤثر منازلهم في خيالنا بقوة لوجود التشابه التام بينها وبين ما نقرأه في الكتاب المقدس أو ما نشاهده مثلا في الصور واللوحات الدينية .

يولي المصلون وجوههم في المسجد مع إمامهم ، نحو مكة ، بنفس الاسلوب الذي يوجهون صلاتهم ، وحين يركعون ، ويسجدون ، ويقيمون الصلاة في

الشارع أو في أي محل آخر . كل المساجد مزينة بالمنائر الدقيقة الأطراف التي ينطلق منها أذان المؤذن وبيده علم صغير يدعو الناس للصلاة . خرج اليوم الباشا والبيك وابنه الثاني سيدي أحمد لأداء فريضة الصلاة في المسجد .

لا يسمح في المدينة لأي شخص أن يركب حصاناً ، ما عدا أفراد الاسرة الحاكمة ، الذين تتبعهم البطانة أو الحاشية مشياً على الاقدام ، باستثناء رئيس الفرقة الموسيقية ، الذي يكون على رأس المسيرة بزيه الفخم راكباً على حصان مطهم ، يضع أمامه طبلة كبيرة ، يضرب عليها في كل دقيقة ، يتقدم الى الامام بوصفه منادياً ، يعلن مقدم الباشا في مدخل كل شارع . يركب رئيس الفرقة ، ويقوم بنفس الاسلوب أمام البيك عندما يكون الباشا غائباً ؛ ولكنه لا يصحب الامراء الباقين ؛ تشبه ملابسه تقريباً ملابس أفراد الجوقة الآخرين ، ما عدا وجود مخلب كبير من الذهب على الجهة اليسرى من عمامته ؛ والجهة التي تحت الصدرية عبارة عن درع من الفضة ، يتبعه سبعة من أفراد الجوقة الموسيقية مشياً على الاقدام ، مرتدين بنسق واحد بدلات مغلقة من القماش الاحمر القرمزي ، ليست طويلة ، مربوطة حول الخصر بحزام من الجلد ؛ ويضع الجميع على رؤوسهم طرابيش قوية عالية وبيضاء ، مصنوعة تماماً بشكل القرن .

تحمل بعد ذلك أوسمة الذيول (والي طرابلس باشا ذو ثلاثة ذيول) (١) ويتبع ذلك الحرس الخاص بالباشا المرتدين بدلات فخمة ؛ يحملون في أيديهم عصي فضية قصيرة ؛ يأتي بعدهم الخدم وأتباع الباشا وحاشيته : يحيطون به ومن حوله ضباط الدولة والموظفون من ذوي الرتب العالية . بجانبه حامل السيف ، ومن الجانب الآخر وزير الدولة الأول ، الذي يتحدث اليه بكل جد وحماس . كان يرتدي قفطاناً من الحرير الاطلسي الاصفر المخطط بالفراء الثمين جداً . ويضع على رأسه عمامة ضخمة جداً بأطرافها الذهبية . لم يكن

---

(١) انظر الى المقدمة : يمكن ان تكون الاوسمة العثمانية التي يرمز لها بذيول الخيل مأخوذة من مصدر مجري ، وقد أخذ هذا التقليد الصليبيون منذ ريتشارد الثالث الذي كان له ذيول الثعلب تحمل أمامه في الاستعراضات والمسيرات .

يحمل ، اليوم ، شيئاً من الحلي والمجوهرات ، مع أنه يتزي في العادة بأحسن الحلي وأغلى الجواهر . يريد الباشا أن يظهر لرعاياه من عدم حمل الاحجار الكريمة بأنه متضايق .

وكان يبدو حصان كل من الباشا والبيك رشيقين ولطيفين ، تغطي كلا منهما الحلي والزخارف ، وسرجاهما موشان ومطرزان بالذهب ، ولكل منهما ركاب من الذهب يزن اكثر من ثلاثة عشر رطلاً لكل زوج . وعلى رقبة حصان الباشا قلائد ذهبية صلبة ، وعلى حصان البيك ثلاث قلائد .

كان البيك يرتدي قفطاناً أخضر فاتح اللون وفضياً ، وشالاً قرمزياً ، أطرافه ذهبية ثمينة ملفوفة حول عمامته . ويلبس أحد ضباط الدولة قفطاناً من قماش مذهب وفوقه « برنص » من القماش الارجواني . وبامكانك أن تدرك أن الزي يمكن أن يكون في بعض الأماكن أعظم مما هو عليه هنا .

يبدو الباشا وقوراً ومهيباً ، ولكن البيك أكثر شبهاً بوال : فهو شخصية نبيلة وجميل الصورة للغاية ، يحيط بالموكب كله عدد كبير من الرقيق الاسود والخدم ليجلوا الحشود المتجمهرة من الطريق .

يزور الباشا المسجد في كل حادثة خاصة ، حسنة أو رديئة ، تتعلق به شخصياً أو بدولته . ويقوم في بعض الاحيان بزيارة رئيس البحرية ، الذي لا يمكن أن يتمنى رفعه لشأنه ، وعلواً لشرفه ، أكثر من تلك الزيارة التي تكلفه اثنين من حراسه السود اللذين هو مضطر لتقديمهما الى الباشا ، اعترافاً بلطفه وبفضله .

حينما كان الباشا ماراً ، ركض شخص كان قد لجأ الى منزلنا طلباً للحماية (لان جميع القنصليات مصانة ومحترمة) مخترقاً الصفوف فلمس حصانه ، فأعفى عنه : إن هذا الامتياز (١) يمتد الى لمس أي جزء ليس من الباشا فحسب وانما من ملابس الامير وخيوله ، عندما يخرجان للنتزهة ، ولكن حصان الباشا

(١) توجد مثل هذه العادة لدى البدو ، فبعد لمس غطاء رأس شيخ القبيلة يمنح في الحال الامن والحماية .

يقدم الحماية في كل الاوقات ، حتى ولو كان الحصان في اصطبله ، فان استطاع مجرم ان يكون تحته أو يتعلق حوله فان حياته في أمن .

عندما يخرج الباشا الى احدى جنائنه ، وهو يفعل ذلك دائماً ، راكباً جواده ، يعد له ثلاثة خيول مزركشة تمشي أمامه يقودها العبيد ؛ ويركب وراءه افراد حاشيته . وكان جميع رؤساء الدولة مع الباشا ، ما عدا الكخيا الكبير الذي سبق وأن أبديت عنه ملاحظة ، لا يستطيع أن يترك القلعة عندما يخرج الباشا للنزهة .

كل ما يحدث أو يجد من شؤون فانه يوضع في الحال أمام الكخيا ، ولكن كل ما يتعلق بتوزيع العدالة ، فان القاضي يعتبر هو الرئيس المسؤول عن تطبيق القانون .

وكان رئيس الجمارك في حاشية الباشا ، فهو ذو أهمية كبرى ، يدير الجمارك التي تؤلف في طرابلس كما هو الحال في كل أنحاء بلاد البربر وتركيا احدى الوظائف الرئيسية لدى الحكومة . وهو بنفس الوقت يقوم بوظيفة مراقب الحسابات والملتزم العام : تعتمد عليه كل الضرائب على الصادرات والواردات ، والاستهلاك المحلي ، وبكلمة مختصرة لديه قواعد كل شيء . وهو عرضة لان يطلب منه الباشا في لحظة الانذار كمية عظمى من المال ، فيلجأ الى فرض ضرائب إضافية . وان أي رفض يصدر منه لتأدية تلك الاموال تكلفه في الواقع منصبه ، ومن المحتمل جداً ، حياته ، تستثنى من ذلك البضائع التي يستوردها القنصل من كل ضريبة .

يجهز رئيس الجمارك القلعة بكل شيء هي بحاجة اليه مثل أرغفة الخبز ، واللحوم والفحم والزيت والصابون ، وترسل جميع هذه الحاجيات من دائرة الجمارك يومياً الى الباشا والى كل الفروع المختلفة من الأسرة الحاكمة التي تسكن داخل القلعة . أما المكافآت الممتازة من المواد المنفصلة لكل أسرة ، فالباشا نفسه ، هو الذي يحدد كميتها . وبالرغم من أن رئيس الجمارك متزوج ، كما أسلفت القول ، من ابنة الباشا الكبرى ، الا انه نابلطاني المولد ، ينحدر من

أسرة وضيعة جداً ، وقد جيء به رقيقاً قبل عدد من السنين . أما الآن فهو ثري جداً وله نفوذ واسع عظيم ، ويحبه الناس ، ومن المنتظر أن يتزوج ابن اخيه من أسرة الباشا ويحصل على قسط وافر من ثروة عمه التي جمعها من خدمة الباشا .

تتصف الحكومة ، في الوقت الحاضر ، بالاعتدال واللين ، حتى ان الباشا بهذه السياسة يعرّض عرشه للخطر لانه يفسح المجال للبربر كثيراً . يختلف الامر في مراكش عما هو الحال عليه في طرابلس حيث يحكم طاغية مستبد .

وقعت حادثة غريبة وعجيبة هناك منذ أمد قصير ، لأحد أقارب تاجر موسر وصل منذ برهة ، عندما كان في مراكش واستورد كمية عظيمة من الملابس لحساب يهودي أعطاه عمولة فلم يعترف اليهودي بالصفقة التجارية فاضطر التاجر على تقديم شكوى الى الوالي طالباً التعويض فصدر الحكم من الامبراطور بعدم اكراه اليهودي على أخذ البضائع اذا لم يعترف بها . فرجع البربري الى منزله حزيناً كئيباً ، فوضع كل ما يملك ، ولكن وجد نفسه مفلساً وبعد ساعات قليلة ، سمع منادياً يعلن في شوارع مراكش وطرقاتها مرسوماً ملكياً ، ينص على أن أي يهودي يخرج في المدينة بعد هذا الاعلان من الامبراطور دون أن يلبس جوارب صفراء ، وقبعة سوداء وبعض المواد الاخرى التي يتضمنها الامر الملكي ، فيجب الحكم عليه بالموت جلداً حالا .

وجد البربري عندئذ منزله صغيراً لا يتسع لاستقبال المشترين لبضائعه ، وفي ساعات قليلة استطاع أن يجمع ثروة قليلة من بضاعة ظن بها قبلاً أنها صفقة خاسرة .

١١ فبراير ١٧٨٤

المصير المؤلم لقفقاسية جميلة · المجاعة تبدأ في طرابلس · القلعة التي اغتال احمد الكبير بها الاتراك ·

في فترة غياب السفير من طرابلس وسفره الى مراكش ، دعا ابنه الذي يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً ، جماعة من النصارى الى مقر والده في الريف ، الذي تعتبر الاراضي التابعة له ؛ حسب ذوق صاحبه ، الذي زار معظم القصور في اوروبا ، منظمة تنظيماً رائعاً يفوق بكثير المزارع القريبة منها . فهي غابة مليئة بكل ما يسحر القلب ، ويخلب اللب ، وفيها بساتين البرتقال المكتظة المزدحمة ، التي لا تنفذ منها أشعة الشمس الا قليلاً ... تتخللها القنوات الرخامية البيضاء اللون ، التي تجري فيها تيارات المياه النظيفة بسرعة تخترق الجنائن والبساتين في اتجاهات عديدة ، والنسائم التي تمر عليها محملة بعطر البرتقال والزهور والياسمين العربي ، والتي تؤلف الظلال السميكة فيها نقيضا مقبولاً مع الطقس المحرق المحيط بها .

شيدت وسط الجنينة الكبرى ، وبالقرب من المنزل أكثر الحجرات بهجة وسروراً ، ترتفع عن الارض قليلا ، الارض والجدران والنوافذ كلها مخططة بالقرميد الصيني الملون بالالوان الزاهية الجميلة ، بنيت حولها النوافذ وفيها الياسمين العربي ، وأزهار البرتقال التي تنمو وتكبر ، تعرض الادغال والشجيرات المكتظة خضرة زاهية جداً في كل مكان تملأ الجو كله بأزكى وأنفس رائحة .

أعدت الحجرات لراحة سيد القصر وأصدقائه ؛ الذين لا يستطيعون زيارته في منزله الخاص بسبب وجود سيدات الأسرة اللواتي لسن من المنتظر زيارتهن ، ولكن سيدات الأسرة لا يحددن أنفسهن بتلك القاعدة ، ويخشين من حدوث نتائج نحسة ومشؤومة لهن بسبب انتهاك حرمة الحجرة ؛ وفي مثل هذه الحالات تكون الحدود ضيقة جداً للغفران والتسامح الممنوحة للسيدات البربريات .

تحدث ابن السفير باللغة الإنجليزية ، وروى الشيء الكثير عن أخته ولكن بأسلوب ينم عن خوفه وخشيته عليها ، واستنكاره لسلوكها . لقد سبق وان لوحظ أنه من المتوقع أن يقتلها عمها . حادثة تبدو لنا بشيء كثير من الفظاعة تقع هنا بدون تردد أو تحقيق .

يتمتع رئيس المنزل، مهما يكن أباً أو أخاً أو زوجاً بحق الحياة والموت للانثى السيئة الخلق في أسرته ، فما عليه إلا أن يحصل على اذن – تسكره – من الباشا ، التي هي عبارة عن قطعة صغيرة من الورق تحمل توقيعه ، يأذن فيها للشخص الذي يطلبها أن يوقع عقوبة الاعدام للشخص الذي أثار غضبه وهياجه ، يمكن الحصول على هذه الورقة المشؤومة بسهولة عظيمة .

ومنذ بضعة سنوات كان لهذا السفير جارية ققفقاسية ، تعيش في جنينة لا تبعد إلا قليلا من منزل الأسرة ، ظن بأن سلوكها يستوجب التأنيب والزجر ، وبعد أن هددها كثيراً فغفرلها، أخيراً وقعت ضحية لغضب مملوك من مماليك سيدها.

كان هذا الشقي البائس عدواً لسيده ، ومعجباً فاشلا بالققفقاسية الجميلة . وعندما علم بأن سيده مشغول بوليمة أقيمت من قبل النصارى دخل عليه في ساعة متأخرة من المساء فدبر مكيدة للحصول على – التسكرة – سرعان ما ركب حصانه وركض بسرعة فائقة الى الجنينة التي تقيم فيها ، منطلقاً للقيام بجريمة نكراء ، ولكن بعد لحظات ، حين تغيرت أسارير وجه السفير ، وبدا محياه حزيناً كئيباً ، استحوذ عليه الألم الشديد مما جعله يبوح لأصدقائه بالأمر القاسي الذي أصدره . كان من السهل اقناعه والعدول عن رأيه ، ونقض أمره ، فأرسل مجموعة من الفرسان ومعهم أمر لمباغتة المملوك السفاك والقبض على يده قبل أن يرتكب جريمة الاغتيال التي أظهر حماساً للقيام بها . بعد ثوان وصل الفرسان الى الجنينة ، ولكن المملوك كان يعلم بوجود ثغرة في سور الجنينة ، فولج من ذلك المسلك ليحول دون تسلم الإنذار ، فوجد الققفقاسية الجميلة تتنزه وحيدة في الجنينة في تلك الساعة المتأخرة من الليل . وعندما لمحت الققفقاسية الجميلة المملوك هربت لأنها كانت تعتبره منذ مدة طويلة قاتلها المقدر ، وهي

في حالة ذعر ورهبة ، تسلقت أسوار الجنينة ، وظلت تركض حول قمتها . شهدها الفرسان الذين جاءوا لانقاذها تركض عبثاً ، دخلوا الأبواب بقوة ، ولكنهم سمعوا بنفس الوقت طلقتين من مسدس ، وأنين الموتى ينبعث من الفتاة البائسة ، التي لم يشأ المملوك أن يقدم أي تفاسير أو شروح ، فقد طعنها بسكين حتى الموت بعد أن افرغ فيها مسدسين .

أعطى السفير الأمر باعدامها في لحظة يأس وقنوط ، على ضوء اتهامات وجهت ضدها ، ربما تكون مبالغاً فيها ، ومنذ ذلك الحين لم يعد سعيداً ، وبسبب تراكم الأحزان ، وتجمع الآلام كان يقاسي كثيراً من سلوك السيدات في أسرته ، وأشيع بأنه سوف لا يعود الى هذه البلاد. يعتبر متطرفاً في التمسك بشرفه ، ولكنه بعيد عن التعصب ، وثاقب المعرفة ، مستنير تجعله الصفتان الاخيرتان لأن يعيش متنعماً في بحبوحة في بلاده .

لاتبعد عن جنائن هذا السفير كثيراً أطلال بناء قديم ، يدعى قلعة اللالة زنوبيا التي بقيت ملكاً لها بعد موت أبيها أحمد الكبير . كانت في هذا القرن قصراً عظيماً جداً حيث تقيم بطانة الحاكم ، في احدى الجنائن التابعة له يوجد استحكام ترابي كبير جداً يضم رفات بضع مئات من الأتراك الذين قتلوا ودفنوا في هذه البقعة في الوقت الذي أخضع والدها الحامية التركية . هذا هو القصر الذي دعي اليه الاتراك من قبل أحمد الكبير واغتيلوا جميعاً كما سبق ووصفته لك في رسالة سابقة .

كانت لا تزال الممرات والأقبية السرية الحلوة في السقيفة ، التي كانت محلاً لاغتيال الاتراك ، كما كانت في السقيفة مسالك مربها الاتراك في طريقهم الى داخل القصر .

توفيت اللالة زنوبيا منذ سنين عديدة ، وظل البناء مهجوراً في طريقه للانهدام والسقوط . يقال ان الأشباح التركية تقيم مآدبها ومقاصفها هنا في منتصف الليل . يقول البربر بأن القصر مليء بمثل تلك الأشباح بحيث ضاق المجال بهم ولا يتسع لشخص آخر .

توجد بعض الحجرات الصغيرة ، وصالة واحدة واسعة (قيل بأنها كانت محل استقبال الباشا للضيوف) لا زالت قائمة ؛ وهي بدون تبليط ولا سقف . توجد على الجدران بقايا رسوم بألوانها الزاهية ، وكثير من الزخرفة البادية للعيان ، وقسم من السقوف مطروح في وسط تلك القاعة الواسعة الرحبة ينمو عليها العشب ، والأبواب كبيرة جداً وفخمة .

وبعد أن استكشفنا كل جزء من آثار هذه القلعة التي يمكن مشاهدتها والوصول اليها عدنا إلى جنائن السفير لنتناول المرطبات .

وصل الى المدينة خدم النصارى مع فضلات من تلك المؤن التي استطاعوا الحفاظ عليها من قبضة البربر الذين يتضورون جوعاً .

كانت المدينة تشكو منذ زمن طويل من قلة الذرة ، وقد تجمع على غفلة عدد كبير من الجمهور حول الخدم ، فهاجموا البغال المحملة بينما كانت في طريقها تعبر من باب المدينة وفي لحظات معدودات لم يتركو شيئا من الطعام ، ما عدا بعض الصحون من لحم الخنزير. الطعام الذي تشمئز منه النفس المسلمة وتعافه وتنظر اليه بفزع ، أما الباقي فقد استولى عليه البؤساء الجياع ، الذين كانوا يتناهبون الطعام بوحشية غليظة من واحد الى آخر . لم يفقد شيء غير ما كان قابلاً للمضغ ، فمن أجل الطعام وحده كانوا يتدافعون ويتصارعون فكان يقاتل بعضهم بعضاً من أجل فتات الخبز الذي وقع على الأرض الى هذه الدرجة من الغلو والتطرف دفعهم الجوع .

مررنا هذا الصباح بالأجسام التي تتضور جوعاً في الطرقات والأزقة ، فكان منظرهم مفزعاً ومرعباً ؛ كانت الحاجة الماسة الى المطر هي التي احدثت هذه النكبة المخيفة في الوقت الحاضر ، وجعلتنا نخشى من عواقب مجاعة تصل حدها الأعلى قريباً هنا ، والتي هي بدون شك من أكثر النكبات شناعة وهولا : الرجل المقتدر يجب أن يدفع الثمن ، ولكن ما يقاسيه الفقير لا بد وانه يعذب كل قلب مليء بالاحاسيس الانسانية .

٢٠ أبريل ١٧٨٤

وصف مقبرة · المرابط الصيد · قصة ابنته التي أراد اغتصابها أحمد الكبير · كرامة المرابط الصيد · الامراء البربر في عرض الفروسية · أسلوب عصر الزيت · أنواع الفواكه في طرابلس ·

أدهشنا خلال نزهتنا على ظهور الخيل أمس مشهد غريب في الريف على بعد مسافة قليلة من المدينة . توجد في بلاد البربر ، المقابر ، عادة ، خارج المدن ، على غرار ما كان يفعل القدامى ، وتشبه المقابر العديدة ، من حيث شكل قبورها ، سطوح المنازل وتبدو وكأنها مثال صغير للمدن . ترمز القبور العظيمة الى الناس العظماء من ذوي المقام الرفيع والجاه العريض ، وتمثل الأبنية الفخمة ، التي يتناسب حجمها مع المدن الصغيرة التي تحيط بها . توقد المصابيح في بعض القبور بصورة مستمرة ، وفوقها توضع ربطات الزهور الجميلة التي تفوح روائحها الزكية التي تملأ الأنف بعطرها الشذي اذا ما اقترب الإنسان من القبور .

ظهرت الحدائق البربرية وكأنها أحراج من البرتقال أضيفت الى المزارع المنفصلة من أشجار الزيتون والنخيل التي تؤلف منظراً يختلف كل الإختلاف عما يشاهد بالقرب من العواصم الأوروبية . نزلنا في احد الحقول : فسمح للسيدات بالدخول الى المنزل ، حيث شربنا اللبن الحامض الطازج ، وأكلنا تمراً قطف من أشجار النخيل ، منذ برهة من الزمن ، من النوع الأسمر الشفاف اللذيذ جداً ، طعمه ومظهره ومذاقه يشبه الفاكهة المحفوظة باسلوب ممتاز ، وأحتفظ ببعض المرطبات لغرض ارسالها الى السادة الذين في الجنينة . اضطر البربر على ربط جمل وضبطه ، فقد كان من الصعب جداً منعه من مهاجمة خيولنا عندما كانت واقفة في وسط الحوش ، مع أن الجمل حيوان هاديء الطبع ، وديع تماماً . ولكن هذا الجمل الصغير لم يكن قادراً على اطعام نفسه ، فكان الجوع سبباً في هياجه وشراسته . يشرب المصدورون هنا لبن النياق ،

مع أن اللبن مالح الطعم جداً ، ورديء المذاق ، الا أنه أغنى من حيث المواد الغذائية من لبن البقرة ولونه أحمر .

حين يبلغ عمر الجمل الصغير بضعة أسابيع يكون رشيقاً ، لطيف الحركة . أما اذا قدر لك وسمعت صراخه وهو في هذا العمر فلا حيوان أكثر منه ازعاجاً ، وألماً ، لان صراخه يشبه صراخ الطفل الصغير ، حتى يصعب التمييز بينهما . وعندما تشب الجمال وتترعرع يكون صوتها عالياً وقاسياً ، فحين يتولاها الغضب والهياج تخرج من أعناقها حشرجات وجلجلات خاصة لا يمكن أن تخطىء ، وهي مناسبة طيبة ، لأنها انذار بعزمها الاكيد على العض . ومن حجم أفواهها وعدم لبس الكمامة ، فان عضة واحدة تكون قاضية بل قاتلة تقريباً .

من حسن الحظ أن الإبل عامة أليفة هادئة ، وغير مؤذية ، تسير عادة بدون لجام أو شكيمة ، وعصا واحدة في اليد كافية في الغالب لسوق الجمال وهي محملة بتسعمائة وزنة . يظهر أن الإبل السريعة العدو تستخدم في هذه البلاد لنقل البريد . ولا يلبس البربر الابل أجراساً ، كما نفعل ذلك مع الخيول في انجلترا ، ومع أن هذه الحيوانات لا تفسح المجال للمنافسة في اللبس ، فانها فرحة ، تغذ السير عندما ينطلق ركابها في الغناء والحداء . فهم يغنون ويحدون ، وهي تسير بهم . يتحمل هذا الحيوان ، النافع الصبور ، العطش أياماً عديدة حين يقطع الفيافي الرملية المحرقة ، مثقلا بالأحمال ، ولكن في المدينة ، عندما يكون الجو بارداً في فصل الشتاء بقدرته أن يظل بضعة أسابيع بدون أن يشرب قطرة من الماء ، يعيش مكتفياً بالماء الذي يحمله في جوفه ، محفوظاً في خزان ، فينقل منه الى معدنه متى شاء ذلك .

عندما كان البك معسكراً آخر مرة ، ثم فتح بطن جمل للحصول على الماء الذي في جوفه ، فوجدت فيه كمية من الماء تعادل عدة جالونات في حالة جيدة ، كان المخيم آنذاك بحاجة الى الماء ، ولم يكن لدى الناس إلا الشيء القليل منه ، يتهددهم الموت كل يوم ، حتى استعمل هذه الوسيلة الباهظة التكاليف لان الجمل غالي الثمن . يأكل البربر لحمه ويقولون بأنه شهي لذيذ الطعم جداً .

استمر ركوبنا على ظهور الخيل مخترقين الرمال وبدأنا نشاهد من بعد اثنين من أعظم المساجد الرئيسية (١) في هذه المملكة ، الواقعة على مسافة في الصحراء ، حيث يحصل فيهما المجرمون على ملجأ ، فيصبحون أحراراً طلقاء ، وحياتهم مضمونة ، ما دام بقدرتهم البقاء على مقربة من هذين المسجدين . تمتد هذه المنطقة لما يقرب من ربع ميل ، وفي بعض الأحيان لميلين أو ثلاثة ، وفقاً للمسجد الذي ترجع اليه . ولا يمكن لأي أحد الاعتداء على حرمتهما حتى من قبل الباشا نفسه . ولكن لا يجوز لأي شخص أن يتدخل في توفير الطعام للمجرم ، حيث يلقى القبض عليه ، وعندئذ فان المجرم إما أن يموت جوعاً أو يضطر الى تسليم نفسه .

يدعى أحد المرابطين الذين شاهدناه اليوم — الصيد — الذي يروي البربر تاريخ حياته وقصصاً عن عدد من الوقائع والحوادث الاسطورية الخرافية . تعني كلمة — الصيد — باللغة العربية — الأسد — الذي استطاع بشجاعته وبسالته وقوته أن يطرد كل الإسود بقليل من المساعدة من ذلك الجزء من البلاد ، فأصبح ابنه المرابط لهذا المكان . أطلق اسم المرابط على المسجد والإمام معاً ، أو الولي ، الذي يقيم به ، والقصة البسيطة للصيد تروي في الحقيقة كما يلي :

خرج أحمد باشا ، جد الباشا الحاضر ، في مناسبة خاصة لزيارة هذا المسجد أو المرابط . وفي زحمة الاستعدادات لاستقبال الباشا وتشريفه بزيارة أسرة السيد المرابطي ، وفي غضون تقديم كل ما لدى الاسرة من مرطبات موجودة لديها ، استطاع أن يلمح بنظرة خاطفة ابنة الصيد المرابطي الكبرى ، التي يقال بأنها من أعظم النساء جمالا وفتنة وروعة في تلك اللحظة ، فدهش من براعة جمالها ، دهشة كبيرة ، وسرعان ما أخبر المرابط بأن حظه من هذه الساعة قد تحقق بارسال كريمته حالا إلى طرابلس ، لأنه قرر بأن تكون السيدة الاولى في سراي الباشا .

---

(١) لا تعني المؤلفة مسجدا ولكن مقبرة أحد الاولياء — أو المرابط — تبنى في الغالب على الموقع الذي عاش فيه .

كان الشيخ المرابط ، التقي الورع ابعد ما يكون عن قبول المنح والألقاب التي عرضت له في مثل تلك الشروط من قبل الوالي ؛ فاعترض بشدة على أوامر الباشا ، وعاتبه ، عندها تأثر الباشا من جوابه فأخبره بغضب مهدداً اذا لم يرسل ابنته في أحسن ثيابها ، وحليها وعطورها الى سراي الباشا في تلك الليلة نفسها ، فسوف لا يبقى له أي أثر ؛ ولا يترك أي جزء من أسرته على قيد الحياة ، في الصباح ، بعد أن أنهى هذه الكلمات ، خرج من منزل المرابط ، تاركاً وراءه حراساً لينفذوا أوامره .

لم يستطع المرابط السيء الحظ من تخليص نفسه أو طفلته الضائعة ، فحملها بالذهب والمجوهرات ، وألبسها أحسن الثياب وأجملها ، واتفقت الفتاة مع أبيها لتنفيذ رغبته ، بأخذ جرعة من السم القاتل ، لتخلص نفسها من فظاعة وعنف وشراسة أحمد باشا . بكى عليها أبوها وذرف الدمع وقادها الى باب منزله ، وأمر النساء باطلاق الزغاريد وإنشاد أغاني الزفاف قبل أن تغادر منزلها(١) ثم أركبها على هودج مغطى بالكتان على ظهر ناقة مزخرفة ومزينة تزيناً جميلا ، مثل سيدات هذه البلاد في أسفارهن ، وسلمها بالدموع ، واللعنات الغليظة على الباشا وضباطه .

سرعان ما وصل ركب كبير من الخدم بالاضافة الى أولئك الحراس الذين أبقاهم الباشا ليقودوا العروس إلى القلعة . وعندما وطأت قدماها باب القلعة اقتيدت حالا الى حجرات الوالي ، ولم تمض دقائق معدودات حتى أسرع الباشا لاستقبالها .

ولكن حين دخل الحجرة صعق من هول المنظر وبشاعته ، حيث وجد جثة فتاة جميلة متمددة على الأرض هامدة باردة ، لم يجد على جسمها أي أثر لاعمال العنف أو القوة ؛ وعلم أنه لم يجرؤ أحد للدخول في الحجرة بعد وصولها.

ربما يكون قد سمع اللعنات والسب الذي بعثه والدها له بواسطة الخدم

---

(١) من التقاليد المرعية في بلاد البربر ان تغني السيدات أناشيد وأغاني الزفاف ويطلقن الزغاريد عندما تتوفى العروس قبل زفافها ، وتدفن في كامل ملابس زفافها .

والمراسلين الذين رافقوا موكبها ، ذلك السب الذي لم يفشل أبداً في النفوذ الى ضميره ، بالاضافة الى الأفكار الخرافية الاسطورية التي تدور على ألسنة البربر ، وتقذف به في موجة من الانفعال والهياج الشديدين ، حتى بدا وكأنه تقريباً مثل الضحية المطروحة أمامه على الأرض .

في فجر اليوم الثاني خرج أحمد باشا قاصداً – الصيد – فسأل المرابط اذا كان يستطيع أن يفسر سبب موت ابنته المفاجيء ؟ أجاب المرابط ، بأن لأبنته من الشرف ما يكفي لأن تتناول من يده سماً قاتلاً ، قبل مغادرتها منزله ، وانه الآن له رجاء واحد يتضرع به الى النبي محمد ، الذي أنقذ طفلته برحمته في لحظة الشدة والحزن ، أن يسدد ضربته الى أحمد باشا فيعمي بصره .

وقد حدث بالضبط لاحمد باشا السيء الحظ هذا قبل موته بأربع أو خمس سنوات . ولكن الاسطورة التي يرويها البربر تقول بأنه فقد بصره في اللحظة التي تضرع بها المرابط مستعطفاً النبي محمد ، ويدعونها ، بالطبع ، إنتقام الصيد . لكن تقدم العمر بأحمد الكبير عندما فقد بصره ، فوجد نفسه في عزلة مريرة ، يعيش حبيس ظلمة معتمة تعيسة ، وشعر بأن قواه تنهار وتنحط بسرعة فقرر أن لا يعمر أطول من ذلك حفظاً لسمعته وشهرته التي طبقت الافاق والتي حصل عليها بين رعيته ، وقد أشغل نفسه في تحقيق كل شيء ، رغب فيه قبل موته ، فسمى ابنه محمداً وريثاً للعرش ، ومن ثم أمر بعض الشباب من حجابه أن يسهروا على راحته في حجرته هناك ، حيث كان يمضي الساعات الطويلة في عزلة تامة .

وفي ذات يوم دخل أحد الحجاب الحجرة فطلب منه الباشا أن يناوله مسدسه ، وأمر الحاجب الشاب أن يقف بجانبه ، حتى إذا اخطأ المسدس الأول فعليه أن يكون مستعداً لاطلاق المسدس الثاني عليه . فأطلق الباشا على نفسه من المسدس الاول طلقة قاتلة . قبل أن يستطيع أحد حتى ابنه المتبنى عبد الله بك والكخيا الكبير في الوقت الحاضر الحيلولة دون وقوع الكارثة .

كان عبد الله بك في ذلك الوقت طفلاً عمره حوالي أحد عشر عاماً ،

وهكذا سقط أحمد الكبير جثة هامدة بعد حكم ناجح دام اثنين وثلاثين عاما(١).

ان الريف الذي بني فيه مزار — الصيد — عبارة عن صحراء قاحلة لا ترى فيها شيئاً ما عدا مدينة طرابلس التي تبدو من مسافة .

بقينا على الرمال مدة من الزمن ، مع الأميرين الشابين سيدي احمد وسيدي يوسف اللذين كانا مع عدد من الفرسان ، ان هذا المنظر جديد تماما على العين الاوروبية ، لا يقل فخامة وروعة عن غرابته ودهشته . كانت حركاتهم تتألف بصورة رئيسية من المعارك المصطنعة أرانا سيدي أحمد أسلوب الوقوع في فخ . فنزل من على ظهر جواده ، فدفنوا انفسهم تقريباً في الرمال ، واطلقوا النار من هناك على العدو . ولعل اعظم الأعمال الباهرة دهشة وغرابة في مثل هذا النوع من استعراضات الفروسية هي الخفة الرشيقة العظيمة التي يمتطي بها الفرسان ظهور جيادهم ، والاسلوب المفاجيء الرائع للوقوف وتغيير اتجاه الخيل ، وكأن ذلك الحيوان منخفض سهل الركوب في تلك اللحظة .

ركب سيدي أحمد وسيدي يوسف اكثر من مرة جواديهما وأسرعا منطلقين إلى النصارى وأوقفا جواريهما على أقدامهما ، واطلقوا النار على منازلهم من مسافة قصيرة ، حتى صار إطلاق النار مقلقاً جداً ، ولكن كان الأمر مجرد تحية ومجاملة . ويطلق أحدهم على الآخر النار بنفس هذا الإسلوب مراراً ، فهي حوادث لطيفة جداً لا تحدث دائماً .

كان سيدي أحمد يرتدي أجمل الثياب وأحلاها ، قفطاناً أرجوانياً ، موشى ، ومطرزاً بالزهور الذهبية والفضية . وعليه صدرية من القطيفة القرمزية والذهبية بدون أكمام . وكان الرداءان مربوطين في الخصر بحزام عريض

(١) اخطات المؤلفة في تقدير عمر عبد الله بن الكخيا ـ فمن المعلوم انه تبناه وهو طفل صغير عندما تولى الولاية · وبعد اثنين وثلاثين عاما فلا بد وان يكون عمره على اقل تقدير اكثر من مدة حكم احمد باشا ـ فمن غير المعقول ان يكون احد عشر عاما · (المترجم) ·

مرصّع بالأحجار الكريمة . وكانت عمامته بيضاء ملفوفة بشال قرمزي ، وكانت أسلحته جميلة ، وكان مقبض سيفه من الذهب والفضة مرصعاً بالأحجار الكريمة وكذلك قرابه . وكانت مسدساته مرصعة بالذهب والفضة مشغولة شغلاً عجيباً ومدهشاً . وكان سراج جواده مغطى من الأمام والخلف بألواح من الذهب المرصع البارز ، ومما تجدر الإشارة اليه أن الاسراج البربرية تصنع عالية جدا من الامام والخلف .

وكان جل الجواد الاول لسيدي أحمد من القطيفة القرمزية الموشاة بالذهب أما جل الحصان الثاني فأرجواني مطرز بالخيوط الفضية العريضة مع حاشية من الذهب الابريز الغالي والثالث من القطيفة السوداء بشرائط عريضة من الذهب الشاحب اللون .

كان أخوه سيدي يوسف مرتدياً بدلة جميلة ايضاً ، وكذلك كان الضباط الكبار ورؤساؤهم السود ، وكان منظرهم فخماً رائعاً كما يمكن أن يتخيله انسان .

ظلوا في الرمال مدة طويلة : والحق يقال بأن عدداً كبيراً من الخيول الضعيفة قد بدا عليها التعب والإجهاد ، واني لأفرح من صميم قلبي أن أشاهد تلك الحيوانات البائسة المتعبة ترجع إلى اصطبلاتها . ان لركاب السروج البربرية منظراً مدهشاً . فركاب السروج الخاصة بالأمراء تصنع من الفضة المطلاة بالذهب ، تزن من عشرة الى ثلاثة عشر رطلاً وقياسها أكثر من نصف ياردة من اصبع القدم الى المهماز : فهي لوحة مسطحة تحت القدم ولها حواشي عالية على الجوانب ، تتوسع بصورة ملحوظة في الاصبع والكعب على شكل مجرفة نار . تقطع من كلا الجانبين مثل السكين . وتضرب من جهة واحدة جسم الحيوان المسكين فيرتعد لها فعندما تصل الخيول الى اصطبلاتها فان السواسي في الغالب مضطرون للاهتمام والعناية بجانبي الحيوان .

هذا أيها الصديق العزيز من بين الأشياء العديدة الكثيرة التي لا يمكن توضيحها وشرحها : فبالنسبة لي هي أعظم تناقض ، لماذا تكون لكل مخلوق

حياته الخاصة به يقاسي ويعاني من عذاب لا يستحقه ، أو لماذا توهب الحياة لكائن يستطيع بطيش ونزق أن يلحق الضرر والألم بالآخرين .

حين مر بنا الأميران توقفا برهة من الزمن ليتحدث أحدهما للآخر ، يوضح معنى بعض أعمال الفروسية الباهرة التي قاما بها ، فكانا لطيفي المعشر ، رقيقي الحاشية جداً ، وبعد أن استأذنا بالخروج انطلقا متسابقين ، كراً وفراً ، ويطلقان النار على طول الطريق حتى وصلا الى المدينة . فالبارود لا يكلف البك شيئاً كثيراً ، فان كميات هائلة ترسل منه هدايا من امبراطور مراكش عن طريق السفراء الطرابلسيين .

مررنا في طريقنا الى المنزل بزقاق يعرف بآبار الذرة ، أو بالأحرى بالكهوف والمغاور المحفورة بعمق كبير في جوف الأرض ، تقع على جانبي الزقاق وعلى مسافة ثلاثين ياردة تقريباً . كانت تلك الكهوف مصممة كمخازن توضع فيها الذرة ، وقيل بأنها تحفظ الذرة بحالة جيدة لمائة من السنين . لو كانت هذه الكهوف مليئة بالذرة كما كانت في السابق ، عندما كانت البلاد غنية بانتاج الذرة ومنها كانت تصدر الى انحاء العالم ، وكان لها سوق رابحة أكثر من أي نوع آخر ، لاصبحت مناسبة سعيدة لسكان هذه البلاد .

وحين يزرع الشعير هنا فانه يأتي بغلة ضعف الغلة في أوروبا ، فعندما ينمو الشعير هنا نمواً جيداً يعد خمساً وعشرين أو ثلاثين سنبلة لنبتة شعير اعتيادية ، بينما لا تعد النبتة غير أربع عشرة أو خمس عشرة سنبلة وتعتبر غلة جيدة . لقد تغير الزمن الآن كثيراً بحيث أن الذرة تستورد بتكاليف جسيمة ، إن هذا التغيير المحزن نتيجة الى انحباس المطر ، فان الأمطار لم تهطل منذ عشر سنوات مضت . وفي مدى ثلاثين سنة لم تحصل البلاد الا على غلة أو غلتين جيدتين . فاذا لم تصل السفن المحملة بالقمح من تونس ، فان حالة هذه البلاد تكون مخيفة مرعبة تتعدى حدود الوصف .

ينتظر وصول الذرة من امبراطور مراكش الذي عبر عن شكره وامتنانه ، وبالعرفان الذي لا ينسى ، لكرم الضيافة التي قابل الباشا بها ابنه ، عند مروره

قبل سنوات مضت عندما كان في طريقه الى مكة . ان ابنه مولاي يزيد ، الذي تقول عنه جميع الروايات انه من أكثر الأشخاص حطة ودناءة ، ينتظر أن يصل الى هنا في القريب عند رجوعه من مكة ، تصحبه أمه وشقيقته ، ومن المتوقع أن تتزوج اخته شريف مكة قبل رجوعها .

٢٤ مايو ١٧٨٤

وصف الصحراء وما يلاقيه المسافرون من الاهوال

لم يوافق الباشا منذ مدة طويلة من الزمن ، على سكنى النصارى في الريف على مسافة تتجاوز أربعة أو خمسة أميال من مدينة طرابلس ، فلا يمكن أن يكون مسؤولا عن أمنهم وسلامتهم بسبب غارات وغزوات العرب ، وحتى البربر فان العديد من الاقضية والنواحي ، في الوقت الحاضر ، في حالة ثورة تقريباً .

أما نحن فبوسعنا استعمال منزل ريفي بربري كبير أقيم في تخوم الرمال ، هذا ولو أن الأرض التابعة له ، ليست منظمة ، وليست منسقة ، فانها على نمط البساتين والحدائق الافريقية كلها — مزيجاً من الجمال والوحشة — فاشجار البرتقال والليمون والنارنج في كامل ازدهارها وأبهى حللها ، أغصانها مكسوة بالزهور ، وبنفس الوقت تتدلى نحو الارض محملات بالفاكهة الدانية قطوفها ، يكسو الياسمين العربي والبنفسج ، الارض بساطاً رائعاً ، ومع ذلك فإن في اجزاء مختلفة من البستان ينمو القمح ، والشعير والبطيخ وغيرها بدون تمييز ولا تزال النباتات فجة غليظة . وحول أسوار البستان زرعت أشجار النخيل العالية بأغصانها الممتدة الهائلة حول الأسوار . تنمو أغصان هذه الشجرة التي تمتد أربعة عشر قدماً ، من القمة المزودة بأوراق ملتصقة بعضها ببعض طولها من قدمين الى ثلاثة اقدام ، كل عزق من عزوق التمر يشبه حزم العنب تزن من عشرين الى ثلاثين رطلاً ، تنمو شجرة النخيل حتى يبلغ علوها ما يقرب

من مائة قدم . يجني العربي من هذه الشجرة أغنى أنواع الغذاء لأسرته ، ومن عصير الثمر يسكن العربي ويهديء الحميات المختلفة بشراب منعش يسمى (لاقبي) يستخرج هذا العصير من الشجر بحفر ثلاث أو اربع حفر في قمتها ، فيوضع ابريق حجري يتسع لربع جالون تحت كل حفرة ، تترك الأباريق في المساء ، وتملأ عند الصباح بشراب لطيف ولذيذ جداً ، وعلى العكس ، فان محتويات تلك الأباريق التي وضعت في الصباح وتركت حتى ساعة متأخرة من النهار تصبح مشروباً روحياً قوياً . ويجعله البربر قوياً أكثر ضرراً وأذى باضافة خميرة له .

تجود الشجرة بهذا العصير مدة ستة أسابيع أو شهرين كل عام ، وبعد الموسم اذا بذلت الجهود للعناية بها ، فانها تعيد نشاطها في مدة ثلاث سنوات وتحمل تمراً ، أحسن من قبل أن تدمى كما يقول البربر . ومن المألوف عند الاسر النبيلة أن تقدم قلب شجرة النخيل في الإحتفالات والأعياد الكبرى ، مثل الزواج ، وأول مرة يمتطي ولد لها ظهر جواد ، وفي ولادة ابن ، أو رجوع سفير إلى اسرته . وهكذا يحكم على هذه الشجرة الثمينة بالعقم من حمل الثمر المفيد ، وتبقى جذعاً من الخشب لا قيمة له تذكر .

يقع القلب في قمة الشجرة بين عراجين التمر ، وبعد قطعه يزن من عشرة الى عشرين رطلا ، ولا يصلح قطعه قبل أن تكون الشجرة قد وصلت الى المرحلة الأخيرة من نضجها ، وحين يعد للمائدة يكون طعمه لذيذاً ، ومنظره مدهشاً وجميلاً . أما لونه فيتألف من ظلال ألوان متعددة ، كالبرتقالي العميق ، والأخضر البراق (الذي يحيط به في الآخر) والأبيض الناصع ، هذه الالوان موضوعة وضعاً جميلاً ولطيفاً في عروق وعقد تشبه ما هو موجود في أكثر انواع الخشب غرابة ودهشة ، يجمع طعمه بين الموز والصنوبر باستثناء الجزء الابيض الذي يشبه أكثر من حيث التركيب اللوز الأخضر ، ولكنه يجمع بين مزيج من النكهة اللذيذة الرائعة التي لا يمكن وصفها .

يعتبر الطابوني أحسن أنواع التمر عند البربر والعرب اذا قطف طرياً

حيث يكون مظهره شفافاً ملبساً بالسكر ، فهو يتفوق في الثروة الغذائية التي يحتويها أكثر من أية فاكهة أخرى . لا يترك البربر في هذه البساتين ممرات ، وانما يترك مسلك ضيق غير منظم يتبعه على جنب عدد من قنوات الرخام الأبيض التي تعبرها جداول صغيرة محملة بالماء ، كما سبق وأن وصفتها لك من قبل الأعشاب وأحراج الأشجار العطرية التي تفوح روائحها الذكية .

أما البرتقال الحلو الطعم في بلاد البربر فمعروف بلذته ومذاقه الذي يفوق البرتقال الصيني طعماً ولذة ، والفاكهة الثانية اللذيذة هي البرتقال الأحمر الصغير الحجم الذي ينمو في مالطة ، ولونه قرمزي من الداخل ، أما أشجار الكرز فليست معروفة هنا . ويزرع النصارى البطاطا والبازلاء وحدهم . أما البطيخ الاحمر ، كما لو كانت العناية الالهية هي التي زرعته ، ممتاز ومتوافر . كثيرون ممن هم مدينون بحياتهم الى هذه الفاكهة المبردة المقبولة ، التي تختفي من الأسواق تقريباً في الحر الهجير الذي لا يطاق ، والرمان فاكهة لذيذة الطعم في هذه البلاد . يحصل البربر على شراب منعش ولذيذ بعصر حب الرمان في القشر . ومن المعروف أيضاً أن التين التركي والهندي طيبان جداً هنا . يوجد نوعان من المشمش : النوع الأول مشهور بحجمه الكبير و جودته ، بينما لا يختلف الثاني عن الشمام والخوخ .

توجد أنواع متعددة من الإجاص الجيد ، وبعض الأنواع الجيدة الطعم من الأعناب الحلوة ، التي اذا ما زرعت بكميات كبيرة من أجل الحصول على النبيذ ، فانها تعطي هذه البلاد مزارع غنية بالكروم . بسبب سهولة وجودة انتاجه ، ولكن الدين الاسلامي يحرم شرب النبيذ وعصره وحتى النظر اليه مكروه عند المسلمين .

توجد بالقرب من منزلنا بساتين الزيتون المبهجة المفرحة ، ولكن عندما ينضج الزيتون فليس من المناسب النزهة تحت الأشجار بسبب سقوط الزيتون المستمر المحمل بالزيت ، وبالقرب من هذه البساتين توجد أحواض من الرخام لوضع الزيت الذي يستخرجه البربر من الزيتون ، وينقلونه من تلك الأحواض

في جرار مصنوعة من طين ، فهو صاف كماء الينبوع وغني جداً . الناس القادرون على شراء الزيت من أهالي طرابلس متأنقون جداً في مذاقهم للزيت ، فان وجدوا قد مضى على عصره ثمانية أو تسعة أشهر جعلوه خاصاً بخدامهم ، واذا مضى على عصره عام واحد فانه يفوق في طعمه زيت فلورنسة .

تقسم الأسواق التي تحيط بالمنازل والبساتين الخاصة بوجهاء الناس وأشرافهم هذا الجزء الى عدد من المسالك والممرات الضيقة في كل الاتجاهات : خلفها اشجار النخيل المبعثرة مع حقول الشعير والذرة الهندية العالية . اذا وجدت بقعتان من الرمل منفصلتين بمزارع الزيتون يضاف اليهما الفلاحون الذين حرقتهم الشمس ، وأعداد لا تحصى من الإبل ؛ وشمس محرقة وسماء زرقاء لازوردية تؤلف صورة جميلة عن هذا المكان .

تبدو الصحارى المجاورة ، ولو أنها مدهشة في مظهرها ، مخيفة ومرعبة من الأمثلة الحديثة العهد التي عثرنا على ضحاياها . فقد وصلت فرقة منهم أمس ، أنهكها التعب واضناها العطش : كان من الممكن ان تكون في عداد الاموات أمس لولم ينقذهم البربر . فقد مات أربعة من رفاقهم في اليوم الذي سبق عطشاً متأثرين بالحرارة الشديدة جداً .

طالما يتحدث حاج عبد الرحمن الذي عين سفيراً في انجلترا عن موت ابنته العزيزة التي توفيت في ضيق عظيم بعد أن قطع هذه الصحارى بيومين حين عودته الأخيرة من مكة . ولما كانت ابنته رقيقة الطبع ، ضعيفة البنية ، لم تتحمل مشاق السفر ، ولفح الشمس المحرقة فاضطروا على الوقوف في بقاع مختلفة فاحترقت قدماها وتسمم جرحها .

يكتب أحد المؤلفين يصف الصحارى بالقرب من السويس قائلا :

« اذا أمعن الفكر وتأمل ، في الصحراء الرملية المجاورة ، فمن المرعب المفجع أن تفكر كيف أن الرحالة الذي أضناه التعب ، وتولاه اليأس ، وانقطع عليه حبل الرجاء يخيبه قلبه في المسافات الشاسعة التي تفصله من العالم ، مسافات لا يوجد فيها عشب ولا شجرة يستقر النظر الحائر الباحث عليه . لا شيء بين

السماء والأرض . محيط من الرمال التي لا حدود لها . يشبه الريشة القلقة المضطربة دفعتها الرياح في أمواج هائجة . العوز والوحدة هما اللذان يميزان الصحراء ، يتحسر عبثاً ويلهث بدون جدوى من أجل قطرة ماء ، فيقع مغشياً عليه من شدة الحرارة والعطش يئن ويموت لا يجد قلباً بشريا يحن عليه » .

واليك الأسطر التالية من (اديسون) التي لم تقتبس كثيراً لانها تصف الصحراء وصفاً رائعاً :

صحاريك (نوميديا) اذا ما تمددت
فقيها تثور الريح تعصف صرصرا
وتفتل في الأجواء مثل دوائر
تدور سريعاً تملأ الرحب عثيرا
تمزق أكداس الرمال فيكتسي
بها الافق لوناً يخنق الصدر أغبرا
بها يخمد الأنفاس كل مسافر
ويسلم منه الروح قسراً ليقبرا (١)

الحرارة في الوقت الحاضر شديدة ويضيق بها الصدر ، حتى العربي القوي الشجاع ، الذي تعود الطقس ، ينسحب من عمله من الساعة العاشرة صباحاً ، ويبحث عن ظل يحفظ تحته مواشيه وقطعانه . تلجأ الأسر النصرانية في هذا الوقت من النهار الى حدائقها وبساتينها ، تتمتع بالطقس البارد المنعش وتتخلص من حرارة الشمس المحرقة . تبقى الحرارة عالية ، ولا يمكن تخفيضها الا أن تهب الانسام المنعشة الباردة فجأة من البحر ، والتي تهب خلال هذه الأيام الشديدة الحرارة بانتظام كل يوم بعد الظهر . الا أن أنسام البحر هذه تصدىء كل نوع من المواد الحديدية التي توضع في الجيب وتبلل ملابس الشخص كلها في غضون دقائق قليلة جداً . أما البربر الذين يلهثون من شدة الحر سرعان

(١) نظمها شعرا : الاستاذ الدكتور باقر سماكه .

ما يخلصون انفسهم عندما يشعرون بالضيق باقامة الولائم والدعوات فوق سطوح المنازل ، أو في الشرفات ، ينامون هناك ساعات ، ذلك الوضع الذي يظن بأنه السبب في فقدان كثير من الناس أبصارهم في معظم أجزاء بلاد البربر .

وتكون الغرف والحجرات الجيدة في المنازل الريفية في بعض الأحيان مبردة تبريداً لطيفاً بواسطة تيار من الماء الصافي الجاري في قناة من الرخام من وسط تلك الغرف والحجرات ، فرشت أرض الغرف والحجرات وكذلك جوانبها بالقرميد الملون والسقوف منقوشة وملونة بالفسيفساء يوجد في الوسط الداخلي للحوش حوض للماء ، أو جابية ، تملأ باستمرار بماء طازج من الآبار القريبة منه ، والتي منها يجري الى البساتين ، ومحاط بحاجز من الرخام ، وسلم من الرخام يؤدي اليه ، يوجد ممر عريض حوله فقط ، مبلط أو مقسم الى شرفات ، واليه تفتح أحسن الحجرات في المنزل . توفر هذه الحالة برودة منعشة الى المنزل تدخل أعظم البهجة الى القلب في الحرارة القاسية المتطرفة .

٢٤ يوليو ١٧٨٤

وصف لسيدة اغريقية زوجة حاج عبد الرحمن سفير طرابلس في بلاط انجلترا .

أظن من المحتمل أن تنال قصة حياة فتاة اغريقية جميلة روتها بنفسها المزيد من اهتمامك بوصفها زوجة السفير حاج عبد الرحمن ، الذي ستراه في القريب العاجل في انجلترا ، فهو رجل متنور جداً ، عمل مراراً متعددة في القصور الملكية الرئيسية في أوروبا وبفضل ما كان يتمتع به من خلق ممتاز وأدب جم فقد منح أوسمة شرف رفيعة من مختلف الملوك التي تظهرها الاغريقية بكل فرح واعتزاز لكل زائريها . يتحلى حاج عبد الرحمن بسلوك حسن وأدب جم في هذه البلاد ، يحبه النصارى جميعهم والبربر كذلك ومحبوب من أسرته كثيراً .

روت السيدة الاغريقية حوادث ووقائع حياتها بأسلوب شيق ، التقينا بها بموعد مسبق كانت ترتدي الملابس بعناية خاصة بدت جميلة رائعة ، ترتدي الملابس البربرية مكرهة لا مخيرة ، فقد لاحظت بكل حسرة ولهفة بأنها كانت مضطرة لان تطرح جانباً الفساتين الاغريقية عندما اعتنقت الدين الإسلامي في الايام التي سبقت زواجها : فقد استغنت عن كثير من الاضافات المتكلفة المصطنعة التي تضعها السيدة . كانت الحلى التي عليها براقة تبهر النظر لانها مصقولة صقلاً متألقاً(تلبس السيدات البربريات في الغالب الحلى في حالة فظة) ، ولم تكن بقية الزينة والزخرفة مما تعافه النفس؛ وانما استخدمت بذوق ورشاقة وبكل نجاح لتسهم في تحسين مظهرها ولكن لا تحب المديح والثناء ، بل انها تنزعج منهما ويعيد اليها الذكرى المؤلمة التي وصفتها لجمالها في الوقت الذي اشتراها عبد الرحمن . ان وصفها لهذه الحادثة بألم وأسف سخيف وصبياني ، ينطلق كلياً من تربيتها . فهي مرهفة الاحساس ، أنيسة ولطيفة ، شكلها جميل جداً ، طويلة القامة ، وعيناها زرقاوان ، وأسنانها صغيرة بيضاء جميلة ومع أن محيّاها مشرق بهيج وقوامها رشيق فهي صورة حية للبراءة نفسها .

كانت زاهية بملابسها البربرية وفوقها جرد أزرق اللون شفاف ، مربوط في الكتفين بعنقود من أحجار البرلانتي مع عدة خطوط من اللآليء الكبيرة جداً المدلاة منه . وضعت على ذراعيها أسورة ذهبية ؛ كان طربوشها كله من الذهب،ولها عصابة سوداء اللون علىجبهتها مطرزة بالجواهر والأحجار الكريمة المدلاة على وجهها : وستة أقراط كبيرة في كل أذن مرصعة بالألماس واللآليء وغيرها من الأحجار الكريمة ؛ وكانت تجلس عند قدميها جاريتان سوداوان طوال الوقت الذي كنا معها ، وعندما تنتقل من محل إلى آخر تنهضان وتتبعانها وتجلسان ثانية عند قدميها بعد أن تجلس ، وجاريتان سوداوان أخريان تقفان وراءها باستمرار ، ومما هو جدير بالقول ان السيدة لا تستطيع الوصول الى مستوى الاغريقيات القفقاسيات . ظل عبد الرحمن أرملا لبضع سنوات ، ولديه عدد من الأطفال ، وبدلاً من أن يختار زوجة له من السيدات البربريات ،

فضل البحث عن جارية قفقاسية أو اغريقية ، معتقداً بأنها ستهتم كثيراً برعاية أطفاله إما خوفاً من بيعها ثانية ، أو رهبة من عقوبة الاعدام : لهذا قرر أن يذهب بنفسه الى شرق حوض البحر المتوسط ليختار واحدة لنفسه ، ويجلب جارية أخرى لابن أخيه .

فصادف في رحلاته أختين متساويتين في جمالهما البارع ، وبسبب تعلق احداهن بالأخرى ، لم يتقدم عدد من البرابرة لشرائهما ، لأنهما يرغبان في الذهاب الى أسرة واحدة : ولكن عبد الرحمن كان محسناً وعطوفاً ، بعكس البربري الغيور ، تمنى أن يثير العطف والحب بأن يصبح الموضوع المستمر لأختين متعلقتين احداهما بالاخرى ، اذا كان حسن الحظ في صفقته ، وقرر الانتظار لاجل الحصول على دليل أو برهان لهذا قبل ان يتزوج الاغريقية التي صمم أن يحتفظ بها لنفسه ، أو أن يقنع ابن أخيه ليتزوج الثانية . غريب رواية القصة ، فقد تمت الصفقة لكليهما ، أمام بصرهما وسمعهما مع أبيهما : وكان ثمنها اعظم بكثير من ثمن اختها ، لانها تتميز بمواهب في الرسم والغنـاء ، والموسيقى : تلك المواهب التي تمنح عند القيام بها أثماناً مماثلة ، اذ علبها بني أمل جورج في ولادة ابنة له. كان يتطلع اليها في اطار الغنيمة التي يحصل عليها في المستقبل فالجمال بدون القيام باعمال نبيلة لا يرفع من ثمنها في السوق عن مجرد كونها جارية . ولهذا فان كل عصب من أعصابها كالأوتار قد شدت شداً يثير محاسنها ومفاتنها الطبيعية والمتصنعة، لتجعلها تبرز في الموسيقى الآلية والصوتية، في كل الاعمال الرشيقة الظريفة وفي كل شيء يمكن أن يزيدها فتنة وسحراً .

تحدثت بحماس عن وطنها : ووصفته بستاناً في أغنى بقعة في العالم ، حيث تنمو أشهى الفاكهة ، وأجمل الازهار نمواً طبيعياً . يصنع الأهالي أحسـن انواع الانبذة ، وينتجون الكميات التي يرغبون في الحصول عليها ، بدون أن يستهلكوا نصف الكروم التي تنمو بصورة طبيعية والتي تغطي تلالها .

لم يكن حديثها خلواً من العاطفة حين وصفت لنا سؤ طالع نساء وطنهـا الجميلات : يولدن في أحضان العبودية والقيود وتنتظرهن الأصفاد في المهد ،

في هذه المرحلة العاطفية الاولى تتطلع الأم غير الطبيعية بهلع وجزع الى مواطن الجمال والى المفاتن المتفتحة النامية في طفلتها ؛ ان كل جزء فاتن في جسمها تتفتح براعمه ، يملأ قلبها طرباً ، وخفة روح ، فهي لا تستثيرها عاطفة الامومة التي يجب أن تتحلى بها الأم ، ولكن ، من غير المعقول أن تعتقد بالفكرة الحقيرة الدنيئة عن مقدار كمية الذهب الذي تجلبه كل فتنة نامية من مفاتن ابنتها ، عندما تعرض طفلتها في السوق لتباع الى أعلى المزايدين . تنتظر عروضاً عديدة من مختلف الاتراك الذين جاءوا ليشتروا تلك الروائع الجميلة السيئة الطالع ؛ ليس لأنفسهم : في هذه الحالة تكون الأم قد رأت الرجل ولو بضع ساعات ، فمن الممكن أن توصيه خيراً بمصير ابنتها ؛ ولكن الأمر ليس كذلك ، لأن التاجر التركي يشتغل لحساب رجل آخر بل أتعس من ذلك ، ليحملها الى سوق أخرى حيث يأمل في الحصول على فوائد كبرى على السعر المناسب الذي اعطاه ، يعرضها في سوق الرقيق الابيض للبيع في حشد من التجار المحتالين .

ان هذه المخلوقات الجميلة اللواتي قد يحتفظ أباؤهن بمشاعر نادرة بالنسبة لعامة الناس هناك ؛ أو أن ثرواتهم الهائلة تدعوهم للرفض أو أنهم لا يفكرون ببيع أطفالهم ، وحتى القلة من أولئك الذين يتعرضون لمثل هذا المصير السيء التعيس : فانهن يحملن من قبل عصابات من اللصوص الاتراك ، الذين يشنون الغارات على بلادهم ؛ ليقبضوا على تلك المخلوقات التعيسة التي تسقط في طريقهم ، ونعني بذلك يحصلون على النساء الجميلات بأثمان بخسة ؛ يراقب أبناء النهابين السلابين النساء اللواتي يتجولن بدون قصد بعيداً عن مسالكهن ودروبهن يصحبهن عدد قليل من الخادمات فقط . فينطلق الاتراك النهابون فرساناً بسرعة هائلة يقبضون على الغنيمة البائسة الشقية . ويربطونها خلفهم على ظهر الحصان مثل بالة من البضاعة . وينطلق اللصوص ثانية بسرعة يبحثون عن غنيمة أخرى ، وكل ما يقومون به بسرعة هائلة عند العثور على غنيمة في الوقت المناسب ؛ ليخلصوا الاسيرة البائسة التي سارت أياماً عديدة برحلة شاقة تقاسي الأمرين من الصحارى الجرداء والفيافي المقفرة قبل أن يصلوا الى مأوى يلجأون

اليه . لا يظهر أولئك الاوغاد لضحاياهم السيئات الطالع شيئاً من اللطف والرحمة غير تخليصهم من الضرب بالسياط والمجاعة ومن الشعور بأنهم رعاة قطعان من البقر الذين يعتبرون الساق المكسور أو المظهر الهزيل يؤثران تأثيراً سيئاً في سعر الحيوانات في السوق . لكن العذاب والتعب اللذين تتعرض لهما هذه المخلوقات الجميلة الرقيقة في القسم الاول من رحلتهن في الغالب ما يكون ضربة قاضية لإطار رقيق جداً ليتحملنه ويسرق من قاطع الطريق غنيمته .

في اللحظة الاولى يظن بنفسه بأنه بعيد عن العيون والأرصاد ، يلف ضحيته البائسة في كيس يحمله معه لهذا الغرض ، ليقيها من أشعة الشمس وغيرها من أنواع الضرر والأذى ، وان بدت هذه المآسي والفظائع غير قابلة للتصديق فاني سأنقل حرفياً لمطالعتك بامعان ، بالاضافة الى القصة التي روتها اللالة أماني الاغريقية وقائع وحوادث سيدة اغريقية أخرى ، تسكن في الوقت الحاضر هنا ، كابدت وقاست المآسي والآلام التي وصفتها اللالة أماني .

أماني اسم بربري حصلت عليه الاغريقية في زواجها من عبد الرحمن . كان عمرها حوالي سبع عشرة سنة ، وأختها أصغر منها عمراً ، عندما وصلا معه من الاسكندرية . كان اهتمامه ورعايته في البدء موجهة الى أختها ، وكانت هي مهملة لا تسترعي الانتباه . وعند وصولهما الى مدينة طرابلس شاهدت ختها الاستعدادات الهائلة التي تعد في منزل عبد الرحمن لاستقبالها ، ولم تستطع أماني أن تخفي دموعها عندما حدد موعد نقلها الى منزل سيدي مصطفى ، أبن أخ عبد الرحمن . قالت ان أول نظرة عابسة متجهمة تلقتها من عبد الرحمن كانت بهذه المناسبة ، عندما أمرهما معاً أن ينسحبا ، وظلا عدة أيام دون أن يسمعا عنه شيئاً . فندبتا حظيهما السيء ، وأرتجفتا من شدة الخوف من بيعهما ثانية وخاصة أماني ، التي كانت تفضل عبد الرحمن على أي شخص آخر .

وفي اللقاء الثاني ، قدم أختها الى ابن أخيه ، ورغب من أماني أن تعتبر نفسها أماً لاطفاله ، وأن تبرهن على اهتمامها به برعايتها لهم . في هذه الفترة المليئة بالسعادة من حياتها ، كما قالت ، ان شجاعتها قد خانتها وتوهمت نفسها

متغيرة في شخصها ؛ بدت وكأنها لم تشف بعد من الآم وأوجاع وأثار التدمير لرحلة بحرية متعبة وتخشى مما يخبيء لهـا القدر فتفقد حيـاة مليئة بالملذات والمسرات والراحة بحيث أغدق عليها كل حنان ورعاية واهتمام .

ومن أجل أن تبقي نفسها باسمة فرحة ، وتعمل على تحسين محيـاها ، وتطري ملامح وجهها تطلّب الامرمنها بذل المزيد من الجهود والعناية ، حتّى تقنع اصدقاء عبد الرحمن الذين كانوا اعداء لها ، بأنها منصرفة تماماً لشئون الاسرة . لقد كان كل فرد فيها لا يزال في مقتبل العمر ، ما عدا الابنة الكبرى . التي كان عمرها يقرب من عمر الاغريقية ، وهي عزيزة على ابيها .

لم تستطع الاغريقية أن تلفظ كلمة بربرية واحدة ، بالاضافة الى ذلك فهي نصرانية جلبت لاسرة بربرية ، لا يوجد فيها شخص متنور غير عبد الرحمن تستطيع التحدث معه . أمضت أيامها الاولى في محاولتها لجذب اهتمام عبـد الرحمن ونقل مركز انتباهه من ملاحظة الصفات الخبيثة السيئة العديدة التي تكابدها وتقاسيها من نساء اسرته ، كما انها فكرت في أن سخطه ، على كل حال من المحتمل أن يسهم فقط في إثارة حقدهن وغضبهن وبالنتيجة ، تزيد من مصاعبها ومتاعبها .

كانت ترغب بكل فرح وسرور أن تستغني عن زياراتهن المتكررة ، أو بالاحرى تحرياتهن وملاحظاتهن ، ومع أنها عوملت ، بأمر عبد الرحمن ، بكل رعاية واهتمام ، فانها في وضعيتها المزعزعة القلقة ، بوصفها رقيقاً أبيـض ؛ كانت مضطرة لابداء الاهتمام العظيم والإلتزام بمشورتهن ولو أنها ضد مصلحتها حتّى نالت الكفاية من ثقة ابنته اللالة خدوجة لتصبح سيدة نفسها في كل مـا تقوم به من أعمال .

سرعان ما قدم لها عبد الرحمن هذا الإمتياز : ظهر له أن كل ما استطاع شراءه لها لم يكن مناسباً لنيل قبولها ورضاها ، ولم يكن كافياً للتعبير عن عواطفه ومشاعره نحوها ، وبرهاناً على الثقة غير المحدودة التي وضعها فيها ، فقـد منحها لطفاً جديداً للبربر يخولها أن تكتب رسائل لصديقاتها ، وأن تتسلم منهن

رسائل ولكن لم تمنح هذا اللطف الا بعد الزواج الذي تم بكل عظمة وأبهـــة ، في اثني عشر شهراً بعد وصولها الى طرابلس في يوم ميلاد إبنها ، الذي يعيش الآن ، والذي تمنحه باعترافها حباً عظيماً جداً. وبمناسبة ولادته انتهى أسرها وصارت زوجة لعبد الرحمن ، ووضعهـــا في مستوى السيدات الاوائل في طرابلس بالقرب من اسرة الوالي. قدمها عبد الرحمن الى أقاربه سيدة تستحق كل الاحترام لشخصها، وقدمها ايضاً الى اللالة الكبيرة التي أقامت لها حفل استقبال فخم بسبب الخدمات الطويلة المخلصة التي قام بها عبد الرحمن للباشا . وعندما وجدت نفسها سعيدة تماماً في منزلها محبوبة في القلعة ، وانها فوق سلطة السيدات اللواتي من المحتمل أن يجلبن لها المزعجات والمتاعب، ومحترمة في البلاد، وصلت بذلك الى قمة سعادتها ، إلا أنها تسلمت أنباء من جورجيا، أي من والديها، عن بعض الخسائر غير المنتظرة ، فاستحوذت عليها غمامة من الكآبة والحزن :

مدحت أماني والدها وذكرته بأقوى مشاعر الحب جزاء التربية الـتي وفرها لها ، حتى انها نست تقريباً قساوته في بيعها . في ذلك الوقت بالذات رأى عبد الرحمن بناء على ابتداء الازمة في طرابلس وعدم توفر الحاجيات ، التي نفدت منذ ذلك الحـين ، شعر كالآخرين ، بانخفاضٍ عظيمٍ في دخلـه ، وبسبب تكاثر أفراد أسرته أصبح قلقاً ، فقرر التقليل من نفقاته .

كانت أماني كريمة سخيةً شديدة الحياء ، فاحتضنت اذن ، مصائـب أسرتها بصمت ، وضعت قيثارتها جانباً ، وكانت أغانيها حزينة مؤلمة ، ومحياها كئيباً ، وغالباً ما ذرفت عيناها الدمع بدون قصد لتعبر عن بؤسها وشقائها .

لم تكن حذرة يقظة من خطر سكوتها حتى أدركته من نظرات عبـد الرحمن ، بدأ يلومها على التغير الذي حدث في أخلاقها ، من غير أن يكلف نفسه عناء البحث عن السبب ، وهذا ما أخافها وأرعبها ، فقررت أن تطلعه حالاً على مصدر حزنها وكآبتها ، على أن لا تقيد حريته وتساهله وكرمـه ، الذي كان بالنسبة لها غير محدود ، ولا أن تتنازل بسهولة عن والديها ، اللذين لا تستطيع أن تتحمل التفكير في مآسيهما بلا غمٍ وهمٍ .

بينما كانت منهمكة في التهيؤ والاستعداد فكرياً لقبول مثل هذا التفسير ، واذا بعبد الرحمن يعين بصورة مفاجئة ، للمرة الثالثة سفيراً للسويد .

كانت هذه السفارة عاجلة ، ففي اليوم الذي تسلم فيه الامر من الباشا قبل رجوعه الى المنزل كانت قد وصلت أنباء التعيين الى الاغريقية البائسة ، ومن ثم رفع علم السفير على سفينة راسية في الميناء إيذاناً بالسفر . وجدها أقرب الى الموت منها الى الحياة ، فقصت عليه سبب حزنها وكآبتها ، ولضيق المجال ، أرادت شرحه في وقت قصير جداً . أنذرها بأن تكون حذرة من مضايقته مرة ثانية ، لأنها لا تتخذ منه صديقاً مخلصاً كاتماً لأسرارها . كان مضطراً لأن يقضي الساعات القليلة الباقية مع الباشا ، وإنهاء بعض الامور الرسمية ، ولم يبق لديه متسع من الوقت ، للاستئذان من أسرته . ولأجل أن يعزي أماني ويسليها في أحزانها التي جلبتها لنفسها ، عند ساعة فراقها ، ترك لها في غيابه سلطة غير محدودة على كل ما يعود اليه ، ووكل الى أخيه رعايتها ، حين تطلب الحماية منه اذا أرادت ذلك فقط ، ولكن يجب أن لا تكون خاضعة لأي شخص . حالة شاذة جداً ، لأن السيدات البربريات عامة يتعرضن الى رقابة أسرة الزوج في غيابه .

بعد سفره بفترة قصيرة توفي أحد أطفاله الاعزاء من زوجته الاولى . خشيت الاغريقية ، بحق ، من محاولة الفروع المختلفة من الأسرة تسديد ألاذى لها في رأي السفير ، بالنسبة لما يتعلق بادارة الطفل ورعايته ، وكما عبرت عنه ، فانهن سددن حربات خبثهن وسوئهن الى قلب عبد الرحمن بدون أن يدفعن تلك الحربات قائلات بأنها أهملت (كما هي التقاليد المرعية هنا) كسر الاثاث الفاخر وتحطيمه ، وتهشيم المرايا في منزلها بمناسبة موت هذا الطفل فقوبلت بلوم عنيف ، وأشيع بأنها أظهرت عدم اكتراث وعدم احترام للأسرة .

ذكر كل أعدائها ، وهم مقتنعون ، بأنها في سلوكها قد أساءت الى التقاليد في غياب زوجها ، وأن القضاء عليها أمر لا بد منه عند رجوعه . ولكن على العكس من توقعاتهم على كل حال . عندما وصل زوجها ، كانت اللالة

أماني قد حظيت بنصيب وافر من الهدايا الجديدة، وقد استدعي أخوها من شرق البحر المتوسط، وجيء بأبيها وأمها. ولم تضعف أبداً رعـاية عبد الرحمن واهتمامه بها قيد شعرة، وطالما عبّرت عن شكرها، وامتنانها بأن رغباتها الاولى لم تتحقق في بيعها الى الوالي، وبحق، حين تقارن وضعها مع وضع الملكات الثلاث أو زوجات الباشا الأخير في طرابلس، اللواتي هن في سجن، أو أنهن مكرهات على العيش بين أسوار القلعة طول ما تبقى من أيام حياتهن.

١ يوليو ١٧٨٤

قصة السيدة (س) وخطف ابنتيها من قبل اللصوص ٠

في الوقائع والاحداث التي روتها سيدة اغريقية أشرت اليها في رسالتي الاخيرة ستجد حالة واحدة من حالات قليلة لمخلوق رقيق جداً وجميل، قد تغلب على تلك المآسي والآلام التي اقترفتها أيدي اللصوص الاتراك القاسيـة الوحشية، هي السيدة (س) التي لا زالت تتمتع بقسط وافر من الجمال الرائع. ولدت في دالماسيا وكان اسمها المسيحي «جوليانا». كان والدها ضابطاً بارزاً وممتازاً في الجيش البندقي، وكانت أسرتها غير مرغوب بها من قبل الاتراك، بسبب البسالة والمهارة اللتين أظهرهما جدها في الدفاع عن – موريا – مـن الجنود الاتراك عندما استطاعوا اخيراً السيطرة عليها. كانت تعيش مع أمها وأختيها في مقاطعة كبيرة، تشغل موقعاً جميلا يطل على حدود ميسدونيا. كانت تلك المنطقة مليئة بالقرى الغنية – ولو أنها ترجع الى الاتراك التاتار، تحيط بها المروج الخضراء العطرة والاحراج الكثيفة التي يصعب اختراقهـا، وحقول الكروم المكتظة بالأعناب مبعثرة في أجزاء من البلاد وكانت أقرب المدن اليهم (سالونيكا) ولم يكونوا بعيدين عن قرية الكونتيسة.

تعتقد هذه السيدة أن أمها هي السبب فلو أنها أرسلت الحسنات والزكـاة

الى الجبل المقدس في آثوس لكان من المحتمل أن يتحاشوا كل المتاعب والقلاقل التي رأتها عيناها . إن هذا الجبل يسكنه الرهبان الذين لا يقل عددهم عن ثلاثة الآف يعيشون في ثلاثين ديراً . يزوره عدد كبير من الاغريق ليشتروا البركات المستمدة من الاديرة المختلفة بتكاليف باهظة جداً .

ولما كان معظم سكان القرى المجاورة من الاتراك والتتار ، فان مجتمعاتهم الصغيرة تتألف من أسر قليلة فقط من الارمن والدالماسيين والسكلا فونيين ، وهم كذلك قد انسحبوا الى ذلك الجزء من ميسدونيا ، بينما كان رؤساء أسرهم يقاتلون تحت أعلام البندقية ضد الاتراك في دالماسيا والبندقية . دفنوا في أحراج تركيا وأوحالها ، وظلوا مدة طويلة دون أي ذكر أو نبأ مهملين من أكثر أجزاء أوربا مدنية ، الأمر الذي تأسف له أم هذه السيدة أكثر من السيدات الاغريقيات الأخريات .

أمضت الجزء المهم من حياتها في البندقية ، وبسبب اطلاعها الحسن شعرت بمخاوف كبيرة . بدت وكأنها تتنبأ عن الكارثة التي حدثت ، فكانت تمنع خدمها يومياً من النزهة مع أطفالها بعيداً عن المنزل ، خوفاً ، كما قالت ، من غارات الاتراك والتتار ، الذين بعد كل نصر يحققونه يطوفون بالبلاد ، ينهبون ويسلبون محملين بالغنائم والأسلاب على طول طريق عودتهم الى القسطنطينية أو الى بيكاتهم ورؤسائهم بالقرب من البحر الاسود ، ومع ذلك ، فانهم يتعففون من الدخول عنوة الى القصور والمنازل التي تقع في طريقهم ، الا أن احتمالاً واحداً يمكن به الحفاظ على الحياة ، وذلك بغلق الابواب والبقاء وراء الاسوار .

أخيراً هدأت روعها بعض التقارير الغامضة عن نجاح الجنود البنادقة التي أخلدتها الى الطمأنينة ، وقبلت بشؤم توسلات أصدقائها لقضاء يوم في منزل أسرة أرمنية بالقرب من أملاكها . كانت تصحبها كريمتاها الجميلتان ، جوليانا التي كان عمرها ثلاثة عشر عاماً ، وأختها حوالي سبع سنوات ، وعهدت بطفلها الصغير البالغ من العمر سنتين الى مربيته ، جارية قفقاسية شابة كانت

تشتغل عندها منذ بضع سنوات .

سافرت في هذه الرحلة مع كل خدمها وحرسها تقريباً ، لتؤمن سلامتها ، وتضمن الحفاظ على حياة أطفالها . دون أقل خوف من توقع الشر . وعلى مرأى من أملاكها الخاصة ، وفي زاوية من غابة عظيمة ، التي لم تجتز أقدامهم فيها غير خطوات قليلة ، انقضت عليهم من تلك الغابة عصابة من الاتراك كما ينقض النمر على فريسته ، فوقعت الأم المذعورة مغشياً عليها في الحال على مرأى منهم ، واستولى كل وغد على ضحية مذهولة عزلى ؛ وفي دقائق معدودات استطاع اللصوص في قتال غير متكافىء أن يفتكوا باخراس الذين أبدوا مقاومة ويقطعوا أجسامهم إرباً إرباً .

وبعد أن لفوا الاسيرات البائسات بأكياس من الخيش ربطوهن ربطاً محكماً ، وشدوهن على ظهور خيول مختلفة ؛ فأخذوا معهم جوليانا وأختها والقفقاسية ، التي ناضلت من شدة حبها للاحتفاظ بالطفل وضمه الى صدرها ، ولسؤ الحظ (كما ظهر بعد ذلك) أنها نجحت ، مع أن الاتراك أمروها مراراً وتكراراً أن تتركه لوحده على الارض في بدء انطلاقهم هاربين ولكن لما كانت الأم قد أغمي عليها وفقدت شعورها مطروحة على الارض بدت وكأنها جثة هامدة ، فان القفقاسية لم تستطع أن تفكر في ترك الطفل لوحده .

استمروا في دفع خيولهم بسرعة لا يمكن تصديقها على التلال المنحدرة جداً لعدة ساعات حتى اضطرتهم زوبعة هائلة من الرعد والبرق على الإنتظار. فأنزلوا الأكياس ونثروها على الارض جنب جبل تعلوه الغابات والاحراج ، وأقاموا خياماً وسخة مهلهلة ، لا تقيهم من المطر وضعوا في إحداها الفتيات البائسات وهن أقرب الى الموت منهن الى الحياة .

وبعد أن هدأت العاصفة جلبوا لهن لحماً جافاً مملحاً يسميه البربر (قديداً) وخبزاً اسمر ، وهددوهن بالقتل إن لم يأكلن طعامهن . حاولت القفقاسية أن تخنق عبرات الطفل البائس في صدرها ، وجلة خائفة من الغضب

الشديد الذي بدا على أوجه الاتراك وتذمرهم من عويله وصراخه ، ولم تذكرها مخاوفها بالأهوال والفظائع التي لا زالت تنتظرهم وعند شروق الشمس ألقى الوحوش الكواسر بالطفل في لهبان النار ، ليريحوا انفسهم من عويله ومن عناء رعايته والاهتمام به ، ومن ثم انطلقوا بمزيد من السرعة عبر الصحارى الرملية والغابات المكتظة وعلى الجبال الوعرة المنحدرة ، حتى اقتربوا من مدينة القسطنطنية ، حيث باعوا جوليانا السيئة الطالع واختها الى تاجر من مدينة حلب الذي رفض شراء القفقاسية فزاد ذلك من حظهما التعيس سوءاً. وبهذا فصلهما عن خادمتهما الوفية المخلصة رفيقتهما في العذاب والشقاء ، فنقلهما الى القسطنطينية .

أما أمهما الحزينة الباكية ، التي اهتم بأمرها بعض الاصدقاء ، بعد خطف ابنتيها فاستعادت قوتها ، ودبت الحياة فيها ، فأفاقت من اغماءتها ، فوجدت نفسها في كارثة رهيبة علمت من تحرياتها المستمرة بالانباء القاسية عن زوجها الذي ذبحه الاتراك مع فريق من البنادقة ، وعن ابنتيها اللتين حملهما الجنود الاتراك الى القسطنطينية .

وفي حالة من الحيرة والذهول جمعت بسرعة كل ما تستطيع عليه من أملاكها ، وقررت أن تتعقب اثرهما . فالتمست تاجراً أرمنياً في القسطنطينية أن تكون تحت حمايته ما دامت هي في الباب العالي ، واستخدمته للقيام بكل بحث ممكن عن طفلتيها الضائعتين . حين أخبرته بقصتها المؤلمة الحزينة ، أعلمها بأنه كان في ذلك الوقت يندب حظ شاب بندقي من أسرة كريمة ، كان يتحدث معه في ذلك الصباح ، وقطع الامل في الحصول على فدية لتخليصه ، فقد أخذ أسيراً ، وأصبح مملوكاً لباشا تركي ، استدعي من قبل الباب العالي ليعين في حكومة جديدة ، والذي يزيد مبلغ الفدية كل يوم ثمناً لحرية السيد الشريف السيء الحظ .

ولما كان جد جوليانا قد اشترك في حملات عديدة ، وأبلى بلاء حسناً مع البنادقة ولقي والدها مصرعه في خدمتهم ، فقد صدرت الأوامر من الدولة في

اللحظة التي وصلت الانباء المؤلمة عن اختطافها مع أختها الى البندقية ، لفديـــة الطفلتين حين العثور عليهما . وصل الامر الى القسطنطنية بعد بضعة أيام من مجيء أمهما اليها . كان دفع هذه الاتاوة ثمناً الى ذكرى ابنتيها العزيزتين عليها جدا ، سلوةً وتعزيةً لها ، ولكن لم يعرف أحد أين توجد الاميرتان السيئتـــا الحظ . كان التاجر الأرمني غنياً موسراً ، وهو لم يزل بعد في ربيع الحياة ، محبوبا من قبل الناس جميعهم ، وله شخصية جذابة جداً ، شعر شعوراً عميقاً بحزنها وألمها ، فقد دفعه عمره وطبعه إلى أن يهتم اهتماماً كبيراً من الصورة التي رسمتها له الأم بالفتاتين الجميلتين المعذبتين .

كاد أن يقطع الامل تقريباً في العثور عليهما ، حين باغته الشاب البندقي النبيل بزيارة مفاجئة : ذلك الشاب الذي كان يحاول أن يفك أسره . وصل اليه يصحبه أحد مماليك الباشا يقدم اليه اقتراحاً من الامير ، لبيع عدد كبير من الرقيق الاسود قبل سفره لادارته الجديدة ، التي صدر أمر تعيينه اليها ، وأبلغت حاشيته بأن تلتحق به في مدة ثمانية ايام ، فليس بوسعه أن يبقى الا وقتاً قصيراً . لم يشعر التاجر الا بحزن وألم صديقه ، الذي رآه في لحظة استعجاله للسفر الى إيران قبل الإجابة عن الرسائل الاخيرة إلى أسرة صديقه لزيادة الفدية عنه التي رفضها الباشا .

لقد تولاه الفزع من الخيبة التي ارتسمت على محيا صديقه ، وكان يحدوه الامل بورود تلك الرسائل الى القسطنطنية قبل سفره ، الا ان الذهول قد استولى عليه حين سمعه يقول بأن وصول تلك الرسائل لا يمكن ان يخفف من غلواء أحزانه الحاضرة .

أخبر التاجر ، قبل وقت قصير ، أن الباشا قد حصل على جاريتين بارعتي الجمال لم تر عيناه مثلهما من قبل ، اشتراهما من اللصوص الأتراك بالقرب من أدرنه . كان يظن في البدء بأن الضابط الذي جلبهما سيقع في حمأة الخزي والعار ، بسبب ما كابدتا من شقاء وبلاء ، وما هما عليه من هزال ونحول . دفع عدداً كبيراً من أكياس الذهب من أجل الحصول عليهما ، وعند وصولهما

كان يخشى من عدم استعادتهما صحتهما مـــن كثرة المشاق والآلام التي تعرضتا لهما في الجزء الأول من رحلتهما . ولكنهما الآن أخذتا تستعيدان صحتهما ، وتبدوان في كل ساعة أكثر جمالا وفتنة تكشفان عن مواهبهما . اختار الباشا لنفسه احداهن ، ورغب في إرسال اختها إلى أخيه أمير (ايفريفان).

أما في الوقت الحاضر فقال إنه عهد إلى (زليخا) السيدة الإغريقية الخادمة الخاصة بالباشا في القصر أن ترعاهما حتى رجوع الباشا من إيران . كانت (زليخا) جارية اغريقية منذ مدة طويلة في اسرة الباشا ولها تأثير عظيم عليه . اخبر البندقي التاجر قبل أن يصرح الباشا برغبته في الأخت الكبرى ، بعزمه على دفع فديته الخاصة به من أجل شراءحريتهما ، ويشتري هو حريته بطريق آخر ، ولكن لما كان الآن متأكداً من أن الأتراك سوف لا يأخذونهما معهم ، فحريته ، برأيه كما قال ، أصبحت غير ذات بال ولا أهمية لها .

حاول الأرمني أن يخفي عواطفه الجياشة عن الشاب البندقي ، عندما أدرك حالاً بأن هاتين المعذبتين الجميلتين هما اللتان يبحث عنهما بكل حماس وشوق . أراد أن يخفف من هموم وأحزان الشاب السيء الطالع ، ناصحاً له بأن يكون صبوراً متحملاً وكتوماً ، وفوق الكل أن لا ينتفع أبداً من أية فرصة ، أو أية صدفة قد تهيء له اللقاء أو الحديث مع الدلماسيين ، حتى يلتقي به مرة ثانية في قصر الباشا . أخبره الشاب بأن الباشا سوف لا يصحب أسرته لأسباب تتعلق بوظيفته العامة ، وقد عين أحد المماليك للاشراف على رحلتهم ، وكان من المقرر أن يسافروا بعد أربعة أيام من سفر الأمير .

عندئذ غادر الشاب البندقي مع صديقه التاجر ، وشعر بدهشة بالهياج والانفعال غير المألوف الذي بدا على وجه التاجر ، واهتمامه في نصحه لتحاشي المزيد من النظر إلى الجاريات الجميلات ، إلا أنه شهد العديد من حالات الكرم والسخاء ، وأعمال الرأفة في التاجر خلال مقابلاته المتكررة مع الباشا ، ولهذا فإنه يكن له أعلى تقدير واحترام . وقرر إذن ، بثقة ، أن يضع نفسه تحت قيادته وإرشاده .

بعد أن كشف الأرمني عما سمع إلى ضيفته الكئيبة الحزينة ، تولاها شعور عميق قوي بأنها ستلحق بهما في الحال فتضم طفلتيها إلى صدرها ، وتطالب بعودتهما بالدموع والتضرع ، وتركع على قدمي السيد التركي ، ولم يوقفها صديقها عن الإسراع في ذلك خطوة واحدة .

أعاد إلى ذاكرتها ، القصة مدعومة بكل أمل ، بأن الجاريتين الشابتين هما طفلتاها ومع ذلك فإن هذه الأخبار لم تكن مؤكدة تماماً فمن الضروري أن تتدبر أكثر الوسائل حذراً وأعظمها تطبيقاً لعتقهما واسترداد حريتهما . أقنعها بأن تترك مصيرهما في يديه لبضعة أيام ، وأن تضع ثقتها في الجهود التي يبذلها للبحث عنهما ونجاتهما واستردادهما. عرف بأن الباشا، مغرم بشهرته ، مع أنه يخشى أن يظهر قاسياً وظالماً . على كل حال ،كان شرساً فظاً ، عنيفاً وقاسياً في التعبير عن انفعالاته ونزواته ، وميالا للثأر السري . وكان واحداً من أكثر الضباط الذين في مرتبته ، قوة من مراتب الباب ، وكان الطمع والشراهة الصفتين البارزتين في أخلاقه ، ولم يعلّق التاجر غير أمل ضعيف على إعادة الطفلتين إلى صدر أمهما ثانية .

أبدى رغبته بأن تعطيه رسالة مفتوحة لابنتيها ، فيبذل كل ما في وسعه لإيصالها إليهما شخصياً ، وبتلك الوسيلة يكتشف فيما إذا كانت الطفلتان موجودتين هناك أم لا . إن الرواية التي سمعها من البندقي لم تترك عنده مجالاً للشك ، ولكن لنيل ثقتهما ولإطلاعهما وحدهما بخطة هربهما ، تبدو تقريباً صعبة التحقيق جداً .

ذهب إلى الباشا ، كالمعتاد ، في مهمة تجارية ، وأخذ معه كمية من اللؤلؤ ونسيجاً فارسياً من الحرير المطرز بالذهب والفضة . سمحت له المهذبة (زليخا) بالدخول في الوقت الذي أُخبرت به بأنه يعلم ببعض المشتريات الكبرى التي ستتم على أيدي الأتراك الذين كانوا مستعدين للسفر في حجهم الى مكة . وضع أمامها اللآلىء والحرائر التي كان ثمنها يتجاوز عدداً من المئات من الباتاك (١)

---

(١) الباتاك يعادل أربعة شلنات وستة بنسات عملة معدنية طرابلسية .

وعندما سألها عن الثمن الذي يمكن أن تدفعه للحصول عليها ، وذكر بصورة خاصة ، بالوساطة المباشرة مع الباشا من أجل إطلاق سراح الشاب البندقي ، عندئذ لم تضع وقتها سدى في الحصول عليها .

طلب منها ، في الوقت الذي كان ينتظر : أن تخبر الباشا عن مقدار الفدية ، طلبه أخيراً عن فك أسر الشاب البندقي ، وأنه مستعد للدفع . أخبرها بأنه لا يملك الجرأة لالتماس الباشا نفسه ، فكان في الغالب كثيراً ما يسوّف ويماطل . كانت اليونانية مغتبطة وحريصة للحصول على الثروات التي تنتظرها ، فاختفت في الحال لتعود في دقائق قليلة .

كان الارمني بتضحيته مبلغاً كافياً يسدد به مبلغ الفدية المطلوبة لفك اسر البندقي ، موقناً بكل تأكيد تحقيق هدفه ، دون عون من (زليخا) التي لم يكن اهتمامها بالباشا ذابال وانما غيابها عن الحجرة التي كانوا فيها . فقرر الآن أن يشتري غيابها بأثمان باهظة . كانت السيدات الاغريقيات جالسات على منسج التطريز .

اغتنم الارمني هذه الفرصة السانحة ليظهر إلى البنت الصغرى رسالة والدتها المفتوحة . تأكد من انفعالها وهياجها ، وصرخات فرحها : بأنه كان محقاً في ظنه . هدأ روعها ، وأكد لها ، بأنه سيكون قادراً على تخليصها مع اختها ، وإعادتهما إلى صدر أمهما اذا كان القدر السيء الحظ الذي دفعها اليـــه لا يمنعه من القيام بذلك ، أخبرها بأن كل شيء ، يعتمد على فطنتها وحذرهـــا وتصنّعها ، فاذا ظهر أقل تلميح منها عن أنها اطلعت على رسالة من أمها ، فان الامل بإطلاق حريتهما سيتلاشى وتذريه رياح النسيان . ولم يسنح الوقت للحديث أكثر من التلميح إلى أن امرأة موفدةً من قبل أخته ستكون الشخص الثاني الذي يجب أن تراه ، عندما رجعت (زليخا) بأمر من الباشا يطلق سراح البندقي ويرد اليه حريته بعد دفع الفدية .

فتح الارمني الان الحرير إلى (زليخا) لتطيل النظر فيه بمزيد مـــن الامعان . ذكر لها وجود تلف كبير فيه ، وقال يبدو بأن التلف نتج بسبب

الرزم (زهرة ذهبية كانت قد أتلفت تماماً) ، ولكنه سيرسل اليها اغريقية ماهرة في التطريز الفارسي من الحرير الذهبي والفضي تقوم باستبدالها تماماً ، ففرحت (زليخا) بذلك فرحاً عظيماً .

بعد سفر الباشا بيومين في رحلته ، عهدت أخت الارمني ، التي كانت متلهفة كأخيها لتسترد حرية هذه الاسرة السيئة الحظ إلى إحدى النساء ، وهي خادمة وفية ، عملت في خدمتها ، سنين طويلة ، لتذهب كخياطة إلى (زليخا) . رحبت (أكاسيا) ترحيباً حاراً بهذا الاقتراح من سيدتها ؛ لأن رعاية الأسرة كانت كافية لأن تجعلها مهتمة على كل حال لتظهر امتنانها وحبها للأسرة التي عاشت معها .

ذهبت الآن (أكاسيا) إلى (زليخا) ونقلت إلى الاغريقيتين الملابس الكافية لإخفائهما فاستغلت من وقت القيلولة ظهراً ، حيث يخلد الناس والرؤساء والخدم في هذا الجزء من العالم إلى السكينة ، وحين كانت (زليخا) في نومها قادت (أكاسيا) الاغريقيتين المرتجفتين المضطربتين من خلال باب خاص إلى الشارع . وعند وصولهما إلى منزل الارمني انطلق مسرعاً قاصداً قصر الباشا ، قبل أن تتاح الفرصة (لزليخا) أو للمماليك ليحدثوا صخباً وضجيجاً فيعلنوا انذاراً عاماً عما فقده سيدهم . وجد (زليخا) كما تأمل في أعظم حالة من الرعب ، ولكن سيطر عليها بسهولة ، وهدأ روع المماليك باعترافاته التي تخدمهم وقدرته على القيام بذلك .

كتب إلى سيدهم بحضورهم على لسانهم ؛ يتوسلون اليه طالبين العفو والغفران لسوء الحظ الذي رافقهم في أداء خدمتهم ، وأبلغ الباشا عن (بما سماه) الحدث غير المنتظر للجاريتين الاغريقيتين اللتين هربتا من القصر . أخبره بالمبالغ التي سيحصل عليها أخيراً من دويلات البندقية لاستردادهما ؛ وعن المزيد من المبالغ الإضافية التي يمكن أن يطلبها من أمهما السيئة الحظ . فألتمس الباشا ورجاه أن يوافق على قبول الذهب مقابل استرداد هاتين الجاريتين اللتين لا يمكن أن يعودا عليه بأحسن من ذلك . استطاع الارمني من خبرته

الطويلة أن يكوّن فكرة عن ميول هذا التركي لحب الثروة ، فان يساور الباشا أدنى شك في صحة ما روى له فأنه يعوض خسارته بهاتين الجاريتين بثروة غير منتظرة .

وخلال الفترة القصيرة التي مرت بها هذه الحوادث ضحى الارمني بربع ثروته كلها التي كان يظن بأن تلك الخسارة قد تعوّض له خطوبة وعواطف صغرى هاتين الفتاتين البارعتي الجمال ، والطمأنينة النهائية بمنح الكبرى لصديقه البندقي . صوّر لنفسه أيضاً ، القبول المفرح البهيج من أمهما لخطته هذه التي تحقق السعادة لهما فلم تخيب ظنه في تلك الخطة . فقبلت بفرح وامتنان لوضع طفلتيها في حال يتفق مع رغبتيهما ورغبتها أيضاً .

كان الشاب البندقي بفضل ما تتمتع به أسرته من شهرة راغباً في الحصول على وظيفة دبلوماسية بعد زواجه من جوليانا اللطيفة بفترة قصيرة . بعد سنين طويلة من زواجهما ، وبسبب ما أحدثه وباء الطاعون من خراب وتدمير في افريقيا ، سيطر على الأوهام العاطفية لزوجته ، وأقنعها بسفرها لفترة من الزمن مع ابنتهما الوحيدة ، فتاة على جانب عظيم من الجمال ، والتي اكسبتها مواهبها في أوروبا كل رونق وبهاء ، من الطراز الاول ، بما حصلت عليه من تربية وتعليم . تزوجت من شاب يتصف بكل ما يمكن أن تحلم به أمها العاطفية وكلاهما في الوقت الحاضر يؤلفان جزءاً غالياً لا يثمن من مجتمعنا .

الام السيدة (س) قد وفرت على نفسها الرواية المفزعة المروعة عن مصير طفلها الصغير فكانت تخدع بحنان وشفقة وروح إنسانية مع التأكيد بأن طفلها ، مات موتاً طبيعياً ، نتيجة لاوجاع السفر والآمه في اليوم الأول بعد أن تمزقت أسرتها منها .

٢٤ أغسطس ١٧٨٤

ظهور وباء الطاعون · موت سكان لامبيدوزا بسبب سفينة ملوثة· الاحتفال بمناسبة ولادة ابن للسلطان· وصف أم اللالة الكبيرة مسجاة في التابوت ·

وصل نبأ خطير في الايام الاخيرة أثار هياجاً مقلقاً ومزعجاً في هذه المدينة ، واضطر كافة النصارى على العودة حالا إلى المدينة . قدم أحد المراسلين إلى القلعة عن الطريق البري بنبأ عن توقع ظهور وباء الطاعون في تونس ، واستعداد الاسبان للهجوم على هذا المكان ، اذا نجحوا في حربهم ضد الجزائريين . تجعل الظروف الاخيرة من الضروري على السيدات من الأسر النصرانية أن تغادر إلى مالطة لبعض الوقت ، ولكن ذلك تدبير غيرعملي ، بظهور الطاعون في هذه الاجزاء فلا يمكن أن تتوقع أسرة دخولها إلى أي من بلدان البحر المتوسط .

تأكد اليوم خبر من الباشا نفسه ، بوجود الشعير للبيع فقط في سوقين ، ويومين للبيع في سوق المدينة . منذ بضع سنين كان الشعير ينمو هنا نمواً جيداً ، وكان المحصول حسناً ، بحيث ينتج غلة تعادل ثلاث مرات ، أكثر من غلته في أوروبا. وكانت تصدر منه كميات كبيرة فتكسب طرابلس من تصديره مبالغ هائلة ، إلا أن انحباس المطر ترك البلاد لسنوات عديدة دون أي محصول جيد ، يطحنون في الوقت الحاضر نوى شجرة البلح علفاً للبقر والحمير والجمال أما الخيول فتعافه ولا تأكله .

أرسلت كميات من القمح من مالطة وتونس ، ولكن تحتاج إلى زمن طويل لوصولها ، فمن الضروري شراء الكعك الذي يمكن الحصول عليه من بعض البواخر التجارية التي تصل إلى هنا .

أما في الوقت الحاضر ، فان البلاد تشكو من مجاعة مخيفة ، بحيث أصبح مرعباً السير أو ركوب الخيل خارج المدينة بسبب الناس الجياع الذين يموتون باستمرار في الطرقات والأزقة . لجأ المسيحيون إلى تخفيض استهلاك المؤن من

موائدهم ، بقدر الامكان ، لاجل أن يحصلوا على جزء من اللحم ، الـذي يعطى يومياً في الباب إلى عدد من المتسولين الجياع وحذروا تحذيراً شديداً من أن يمتنعوا من إعطائهم الخبز المصنوع بنفس اليوم ، لان بعض هؤلاء الذيـن يتضوّرون جوعاً ، اذا أكلوا رغيفاً صغيراً من الخبز الحار يسبب موتهـم حالا .

كان سعر كل بضاعة ، مهما تكن تافهة ، غالياً جداً . هاجر عدد كبير من اليهود من هذه المدينة المحزنة الكئيبة إلى « ليغورن » (١) الامر الذي يجعل كل شيء أكثر صعوبة وغلاء ، لان اليهود هم الذين يقومون بالتجارة هنـا بصورة رئيسية . يمكن الحصول الان على القروض بفوائد مخيفة تتراوح من ثلاثين إلى أربعين بالمائة ، وتؤخذ الفائدة مقدماً عند الدفع نقداً .

أظن ، بصورة عامة ، أنك تتفق معي ، بأنه من الأسهل أن تشعر من أن تصف الحالة الحاضرة في هذا المكان ، في هذه اللحظة ، التي تقدم صورة حيّة للمزيد من الضائقة والكآبة المسيطرتين .

استمر النقل من تونس براً وبحراً . كان البنادقة منهمكين في حرب مع التونسيين ، وكان امراء البحر (ايمو) و (بريولي) و (كورين) يتجولون في تلك البحار بأسطول كبير جداً ويرسلون سفنهم مراراً إلى هذا الميناء بعد حروبهم على ساحل تونس .

أضطرت سفينة فرنسية ، يرثى لحالها ، وفي ظهرها الطاعون على دخول الميناء والبقاء في البحر زمناً طويلاً لأنها رفضت الدخول إلى مالطة وعدد مـن الموانىء الاخرى ، فذهبت إلى (لامبيدوزا) وهي جزيرة بين مالطة وسوسة ، حيث يعيش بعض الرهبان وقليل من الناس ، سعداء آمنين مطمئنين ، سنين عديدة ، يشتغلون في الزراعة ، ويتلذذون بما تغله أرض الجزيرة ، ومن النادر جداً أن يتصلوا بباقي أجزاء العالم .

---

(١) الاسم الانجليزي للمدينة ليغورن Ligourne من مقاطعة توسكاني بايطاليـا ميناء على البحر المتوسط .

حاول الربان هنا أن يعرض حمولته للهواء، إلا أن هذا التذبير سبب في الحال موت أحد الذين اشتغلوا فيه ، فكان مضطراً على الكف عنها . وفي غضون الايام السبعة التي أمضاها هناك ، فان رئيس الدير وكل سكان تلك الجزيرة الصغيرة تقريباً قد ماتوا وإثنتان من سفن القراصنة الطرابلسيين الذين وصلوا هناك طلبا للماء قد أحرقتا .

وصل ربّان السفينة هنا مع نفس الحمولة التي تحتويها من بالات القطن . وكان عـــلى ظهر السفينة عدد كبير من الاتراك ، الذين طلبوا حلاقة رؤوسهم والسباحة على الساحل : والتمس باقي البحارة باستمرار والحاح متجمهرين حول الميـنـــاء للاستئذان بالنزول إلى البر وحرق السفينة ، إلا أن البربر لم يوافقوا على ذلك الالتماس .

وبالرغم من أن الناس يموتون جوعاً كل يوم ، الا انه لا توجد اشارة اخرى لوباء أو حمى . وصل اليوم كفه جي (١) من القسطنطينية مع قفطان (٢) من السلطان التركي ، الذي قدمه للباشا في حفل كبير ، بعد أن اخبره بولادة ابن للسلطان . وليس للقفاطين هذه قيمة تذكر لان الباشا بعد انتهاء الحفل ولبسه له ، يهديه عادة إلى حراسه .

سأقص عليك الرواية التالية عن وصف سيدة بربرية ذات مكانة مرموقة تضع جثتها في تابوت مفتوح ليراها الناس قبل دفنها نتيجة لواقعة جديدة .

---

(١) يختلف كفهجي عن الشاويش في المرتبة ، فهو أعلى مرتبة ، ولكنهمـــا يعمـلان معا مراسئين من بلاط تركي الى بلاط آخر ، والكفه جي مراسل سريـــع العدو . اظن بان اصل الكلمة من اللغة العربية ــ من فعل ــ خف ، أي أسرع واستعجل . أما الشاويش فهو شخص ذو وفاء واخلاص ، ينفذ أوامر الباشا ويقوم بواجـب المراسلة داخل الولاية وخارجها لا يتفق هذا التفسير مع الكلمة التركية فهي تعني صاحب (الكفه) والكفه تشبه السلة التي توضع فيها الرسائل . (المترجم) .

(٢) يرمز القفطان لدى الاتراك والبربر الى الحظوة الملكية التي يمنحها الوالي فـي مناسبات مختلفة . يرسل السلطان التركي الى أبلطة طرابلس وتونس والجزائر عند ولادة ابن له ، وبالمقابل ترسل للسلطان هدايا عظيمة .

ماتت أمس عصراً أم اللالة الكبيرة ، أي في الساعة الرابعة بعد الظهر ، وقد دفنت بعد صلاة الظهر يوم الجمعه هذا . إن قصة وفاتها أثرت في ابنتها تأثيرا بالغاً ، فقد أعلن نبأ وفاة تلك السيدة البائسة منذ وقت قصير ، وكشف نبأ وفاتها عن المكانة السامية التي تحتلها في قلوب رعاياها .

كانت تصحب التابوت في صباح هذا اليوم ثلاث أميرات من القلعة ومعهن اللالة عائشة زوجة البك ، تبكي وتنوح على حياتها إلى أن حملت إلى القبر. وضعت في تابوت مفتوح ليراها الناس في المسكن الذي توفيت فيه . كان وسط الحوش ، والسلالم ، والشرفات مملوءة بجماهير الناس ، حتى أن الطريق المؤدية إلى الحجرات كان لا يمكن اختراقه تقريباً منذ الصباح الباكر .

اجتمع عدد كبير من النساء ليظهرن ولاءهن واخلاصهن بالعويل والصراخ والبكاء على موتها ، وكن يصرخن ويولولن بين حين وآخر ، فتدوي اصواتهن في المدينة كلها ، بحيث أنها تسمع على مسافة ميل . كان كل مكان مملــوءاً بالزهور والورود الطازجة ، والعطور المبخرة وكان البخور الذي تفوح رائحته في الحجرة التي اسدي على أرضها الجثمان ، من العنبر والقرنفل ، الذي يحمله عدد من الجواري السوداوات في مباخر من فضة .

كانت الحجرة مظلمة ومعلق فيها الاقمشة الفخمة جداً . وكان الجثمان مرفوعاً على نعش على ارتفاع ثلاثة أقدام من الارض ، المغطى بالقطيفــة والحرائر المطرزة حواشيها ، العميقة بالذهب والفضة وكانت فوق النعــش أغطية كثيرة ، اثنان منها تحت الكل مشغولان في خطوط وحواشي كتبت عليها الايات القرآنية ، وضعت عليها قبل التابوت (كان الغطاء مرفوعاً على شكل مثلث) .

لا يستعمل أحد غير الأسرة المالكة والنبلاء مثل هذا التابوت بهذا الشكل فمن السهل أن تميز جنازة نبيلٍ من الطبقة العليا .

كل التوابيت الاخرى مفتوحة من الاعلى ، والجثمان محفوظ بكل بساطة بغطاء من القماش أو الحرير ، يتناسب مع أحوال الأسرة ومكانتها الاجتماعية ،

ولكن يغطى جثمان أفقر الناس ، سواء كان رجلاً أو امرأة والذي عاش عيشةً مقدسةً حتى حصل على اللقب (شريف مكة) يضعون قماش مكة ، وحوله حاشية واسعة كتبت عليها أيآت من القرآن ، فان كان المتوفي رجلاً توضع عمامة خضراء ، التي يحق للشريف وحده أن يلبسها ، فوق التابوت . أما في الحالة الحاضرة فان التابوت مغطى بعدد من الثياب الذهبية والفضية التي تخص الشخص المتوفى . وعلى رأس التابوت كانت حزمة كبيرة جداً من الورود والزهور النضرة والاصطناعية المزينة بفخامة بالفضة ، وإلى جانب هذه الحزمة تضاف باستمرار الورود النضرة اليانعة . وفرشت الارض بالحصر والسجاد التركي حول التابوت ، وفي كل نهاية منها توجد الأرائك المطرزة .

كانت تجلس اللالة الكبيرة على احدى تلك الارائك بالقرب من رأس التابوت ويدها وذراعها عليه ، تبدو بأنها متأثرة جداً ، لا تتحدث الا نادراً . كانت ترتدي أبهى ثيابها ، ولكن دون أن تضع الحلى والمجوهرات ، أو دون أن تلبس أي شيء جديد ؛ يرمز ذلك إلى حالة الحزن والكآبة التي تخيم عليها . وعندما قدموا لنقل الجثمان إلى المقبرة انسحبت وأحاطت بها سيداتها وجواريها السوداوات يعولن ويصرخن ويولولن . وحين حمل النعش خارج المنزل كان مغطى بالحرير الاسود والاسمر المطرز تطريزاً جميلاً بالذهب والفضة في الغالب : عمل هائل من الذهب ، بحاشية من الحرير الاسود ؛ تؤلف هالةً عريضة جداً حوله .

قوبل النعش على عتبة الباب من قبل المفتي ، الذي كان يمشي بالقرب منه ، يتقدمه أبناء الباشا ، ثم يتبعهم كبار ضباط الدولة وموظفيها ، وبعدهم كل الناس الوجهاء في طرابلس يليهم مباشرة عدد عظيم من الجواري السوداوات والعبيد السود ، يحملون العصي بايديهم كتب على رأسها شعار يعلنون فيه الحرية من العبودية من سيدتهم المتوفاة ، ومن ابنتها اللالة الكبيرة . لبس كل هؤلاء طرابيشهم بصورة مقلوبة ، أخرجوا باطنها إلى ظاهرها وملابسهم بحالة رثة مجردة من كل شيء من الزخرفة مثل الفضة والذهب . وثم دفن

الجثمان في بذخ واسراف من الملابس الباهظة الثمن والحلى والمجوهرات .

٢٤ سبتمبر ١٧٨٤

الابتهاج بعقد الصلح · روابط الصداقة بين امبراطور مراكش وباشا طربلس · مولاي يزيد بن امبراطور مراكش ·

رفعت اليوم الاعلام من كل الألوان ، واطلقت المدافع النيران ، ابتهاجاً وفرحاً بعقد الصلح النبلطاني والاسباني مع الباشا ، وتم اطلاق سراح جميع الرقيق والاسرى الاسبان والنبلطان بهذه المناسبة التي أزاحت عن البلاد كابوس المخاوف والاهوال من هجوم الاسبان . وأعقب هذه الحادثة المفرحة حادثة أخرى في الايام الاخيرة الماضية حيث وصلت المؤن من الذرة بصورة غير منتظرة هدية من امبراطور مراكش .

تقدّم القصة التالية اليك مثلاً عن أن الضيافة والكرم ، والعرفان : هي من أخلاق الولاة البربر . أقام امبراطور مراكش صداقة مخلصة جداً مع باشا طرابلس منذ سنين عديدة ، عندما مر من مملكته هذه في طريقه إلى الحج وزيارة قبر النبي محمد . منذ ذلك الحين كان الباشا يستقبل بكثير من الادب والضيافة نجل الامبراطور الاكبر مولاي يزيد ، المعروف بشراسة خلقه وخشونه طبعه ، التي لا مثيل لها ، فيضطر أبوه على أن يأمره بالقيام عدة مرات بالحج ، وبهذه الوسيلة أبعده عن مراكش ثلاث سنوات متتاليات . وخلال رحلاته الحجازية يحمل معه الارهاب والفزع في كل محل يمر به ، وهنا بالطبع ، بسبب صداقة والده بالباشا ، يبدي الناس له كل صبر واحتمال. يقدر امبراطور مراكش استقبال الباشا لابنه وسلوكه معه ، تقديراً عظيماً ، حتى أنه في اللحظة التي أعلم بها عن شقاء هذه المملكة وبؤسها أرسل هدية إلى الباشا حمولة ثلاث سفن من القمح التي تبلغ قيمتها حوالي ستة عشر ألف (باتاك) وسرجاً مرصعاً بالجواهر ، وركاباً من الذهب ، قيمته عشرة آلاف

(باتاك) حوالي سبعة الاف جنيه .

من المنتظر أن يمر مولاي يزيد بهذا الطريق لأداء فريضة الحج إلى مكة ثانية ، فقد وصلت أول شحنة من القمح من مراكش إلى البلاد قبل بضعة أيام ، وكانت معها رسالة تقول بأن السفينة التي جلبته أصيبت بالطاعون في تونس ، حيث انتشر بعنف غير مألوف عندما أبحرت السفينة إلى طرابلس . لا توجد هنا محاجر صحية للأوبئة ، وبالنتيجة لا يمكن القيام بحجر صحي ذي أثر ، ولهذا فأن هذه المناسبة أثارت رعباً عظيماً ...

استدعى الباشا الديوان لعقد جلسة ، لأن السفينة ترجع إلى دولة نصرانية (١) فاجتمع الديوان ، وتم الاتفاق على قبول القمح لان البلاد في حالة مجاعة ، واكراه السفينة على مغادرة الميناء إلى أوربا لانهاء الحجر الصحي .

كانت الباخرة ملوثة جداً بالطاعون ، وكان من المنتظر أن يموت الملاحون جميعاً قبل أن يصلوا ميناء فيه حجر صحي ، وميناء ليغورن ، هي أقرب المدن اليهم ، أو أنها أنسب ميناء (من الادارة الحسنة للمحاجر الصحية التابعة لصاحب السمو الدوق العظيم) لقبولهم في مثل تلك الحالة السيئة .

١٠ نوفمبر ١٧٨٤

القائد ايمو يصل الى الميناء مع أسطول بندقي ويقيم حفل استقبال فخم .

أبحر أمير البحر « ايمو » مع قسم كبير من الاسطول البندقي تحت أمرته ، من هذا الميناء ، منذ بضعة أيام . وكانت زيارته الاولى التي قام بها لهذا الجزء من بلاد البربر خلال حملته ضد التونسيين . ومن التقاليد التي تبناها لتمييز نفسه في مثل هذه المناسبات أنه دعا على ظهر سفينته حكام وملوك معظم القصور في أوربا .

(١) عندما تحدث حادثة تهم النصارى والبربر ، يدعو الباشا الديوان (المجلس الخاص) يجتمع فيه كبار موظفي الدولة وقناصل الدول الاوربية المختلفة .

أقام أخيراً في (ليغورن) حفلة عشاء شرفها أربعة ملوك جلسوا على مائدته هم : ملك وملكة نابلي والدوق العظيم ودوقة تسكاني . وأقام حفلة كبرى فخمة خلال مدة بقائه هنا . إن ما يملكه من صحون وأدوات بكميات هائلة جداً ، والزخارف الثمينة الموجودة على ظهر السفينة ، تعبر عن تقليد مدهش وعجيب ، ليس بالامر العجيب المدهش في البندقية ليعبر عن سمو وفخامة العائلات الغنية التي ينتمون اليها . فقد تسلم من الفروع المختلفة لأسرته الهدايا الخاصة لهذه الحملة ، كانت أعظم أواني وأدوات المائدة الفضية والذهبية قيمة وزخرفة ، التي أضافها إلى ما لديه ، وما قدمت له دويلات البندقية من هدايا ، جعلته قادراً لأن يعد مائدة ، لا تقل من حيث رونقها وجمالها وقيمتها أبداً عن موائد الملوك والحكام . وضعت أكداس من آنية الفضة على المائدة يبلغ عدد كل منها (الدوزينات) لخدمة الضيوف ، الذين تناولوا معه الطعام ثلاث مرات في آنية من الذهب والفضة قدمت الحلوى في آنية من الصيني الفاخر ، وهي هدية مقدمة من ملكة البرتغال إلى أمير البحر (ايمو) تمثل تاريخ الآلهة الوثنية ، رسمها وصورها الفنانون الإوائل .

يتفوق رجال الحرب البنادقة بفخامة أوسمتهم ، وبغلاء أسلحتهم ، وبدلهم العسكرية البراقة ، وببدلات حرسهم الخاص ذات المظهر الانيق ، وتتفوق سفنهم على كل السفن الاخرى في التألق والتأثير .

تستمر المجاعة في التدهور ، ما عدا بعض التموين الجزئي ، تخيم على المكان كآبة عامة ، لحد الان نجونا من الطاعون ، ولو أنه في تونس جارنا .

٢٠ ديسمبر ١٧٨٤

وصف حفل تدشين طراد بربري · الرقيق النصارى · قصة أسرة اسبانية تقع في اغلال الرق ·

كان النصارى مدعوين أمس لحضور احتفال تدشين أحد الطرادات التابعة للبك ولم يكن هناك ما يجلب الاهتمام غير حادثة أو حادثتين غريبتين .

في اللحظة التي انطلقت السفينة فيها من القوائم الخشبية اقتيد عبد أسود من عبيد البيت الى الامام وربط في مقدمة السفينة ليجلب لها استقبالاً سعيداً في البحر . حدثت بعض المضايقات في ساعة ابحارها ولم ير مصطفى (الوزير الاول) العبد الاسود مربوطاً فقال لا عجب أبداً أن لا تجري السفينة بسهولة منطلقة من القوائم الخشبية لانهم نسوا أن يربطوا عبداً أسود على ظهر السفينة حتى تنطلق به . فأستعيض عنه بحمل جميل يناسب الغرض نفسه ، أبيض اللون ناصعاً كالثلج ، مزين بالورود والشرائط ، وقف على ظهر السفينة ، وفي لحظة واحدة مخرت السفينة عباب البحر فنزلت السكين القاضية ، فنحر الحمل ضحية للنبي من أجل رخاء الطراد وسلامته في المستقبل ، فحيته المدافع ورفعت الاعلام على الساحل ، وكل السفن الموجودة في الميناء .

تتألف مدخولات البك الرئيسية من الاموال التي يحصل عليها من بحريته التي يقدمها اليه ابوه ، وترسانته ، هي الوحيدة هنا ، يديرها هو بنفسه كلياً ، ولا يتدخل الاميران الشابان بكل ما يتعلق بها ، ولو أنهما يرغبان ، في الغالب ، بالقيام بمثل ذلك . تكلف هذه المؤسسة البك تكاليف باهظة ، فعندما تفشل السفن الحربية لفترة من الزمن من الحصول على الغنائم يعتبر وجودها خسارة وعبئا ثقيلا على عاتقه. وبالرغم من حبه وولعه بشئون الدولة، فهو لطيف رقيق في أدبه وسلوكه ، الا أنه كثير الاعتدال في تدابيره ، ويكابد من عدد من الضغوط على عظمته ومجده . كالحالة المضطربة المتأرجحة لسفنه الحربية دون أن يستغل الفرص لفرض المزيد من الضرائب على رعاياه ، وهي من التقاليد المألوفة التي يتبعها الامراء من البربر والاتراك .

استاء ضباط البك والرؤساء التابعون له من الصلح الذي عقده الباشا مع اسبانيا لان ذلك الصلح حرمهم من الثروات والكنوز التي كانوا يحصلون عليها من نهب السفن الاسبانية والجواري النصرانيات . ولكن هذا الصلح يثير حماساً خاصاً من الفرح والحبور في عقول أولئك الذين يعرفون المشاق والآلام التي يتعرض لها النصارى في الجزائر .

أما ربان السفن الحربية الجزائرية ، ان لم يكونوا المالكين الوحيدين ، فانهم يملكون دائماً اسهماً في السفن التي يتولون قيادتها ، فهم يقودون السفن متى شاءوا ولكنهم مضطرون ، عندما يستدعون للقيام بخدمة الدولة ، أن ينقلوا الرجال والمؤن على حسابهم الخاص . يوجد معهم على ظهر السفينة دائماً ضابط ذو خبرة ، معين من قبل الداي الذي بدون موافقته لا يستطيعون متابعة السفن أو العودة إلى الجزائر ، ولا معاقبة الملاحين .

عند رجوعهم ، يقدم هذا الضابط إلى الداي تقريراً عن سلوك ربان الطراد وملاحيه وعلى الربان أن يقدم تقريراً عن نجاحه للحكومة ، التي تطالب بواحد من ثمانية أجزاء من المكافآت والرقيق أو البضائع التي استولى عليها .

يجلب الأسرى النصارى إلى قصر الداي ، حيث يعرض القناصل الاوربيون بعد ملاحظة الاسرى والتثبت من أنهم من رعايا دولهم ، فان كانوا كذلك ، وكانوا على سفر فقط فباستطاعتهم المطالبة باستردادهم ، ولكن اذا ثبت بأنهم كانوا من المرتزقة في خدمة دولة أخرى ، من أجل الحصول على المال ، وكانت تلك الدولة في حرب مع الجزائر ، فلا يمكن اطلاق سراحهم بدون دفع تلك الفدية التي تضعها الحكومة عليهم (١) .

وللداي حق اختيار واحد من كل ثمانية ، ويفضل عامة أولئك الذين هم من ذوي المهارات على غيرهم ، أما الباقون الذين تركوا للمالكين والاسرين يقادون مباشرة إلى سوق النخاسة (سوق الرقيق) ، حيث يقدر ويحدد سعر كل شخص ، من الوقت الذي جيء به إلى قصر الداي ، وحيث يباع الرقيق بالمزاد العلني . واذا وصل المزاد فوق السعر الموضوع عليهم فان فرق الزيادة يعود إلى الحكومة ، وفي البقعة التي يبدو فيها هؤلاء الناس التعساء تربط أرجلهم بحلقات من حديد من رسغ القدم ، بسلسلة طويلة أو قصيرة ، خوفاً من أن تسول لهم أنفسهم الهروب .

---

(١) أنظر المقدمة .

حدثت بعض الوقائع لاطلاق سراح البعض منهم طواعية بعد أن دخلوا في الاسلام واذا استطاع واحد منهم أن يحصل على المال ، فبوسعه أن يساوم ، بدفع أتاوة عالية للداي وقد يعوض البعض بهذه الطريقة ، ومع ذلك يبقى في أسر العبودية . أما أولئك الذين لا يقدرون على القيام بذلك ولا يعرفون صناعة أو حرفة ، فانهم يستخدمون بقساوة شديدة فتصبح حياتهم كلها عسر ، وعملهم مضنٍ ، يكدون النهار كله ، وعندما يجن الليل يوضعون في سجون عامة بدون سقوف ، يفترشون الارض الجرداء ، ويلتحفون السماء ، يتعرضون لأقسى أنواع البرد الشديد ، ويغطسون في بعض الاحيان في الاوحال والمياه . وعلى كافة الرقيق أن يذهبوا ليلا إلى السجن ليناموا هناك ، الا اذا سمح لأحدهم باجازة خاصة من الداي أن يقوم بشيء آخر .

يقوم الرقيق في المدينة بأحط وأقسى أنواع العمل ، بينما هم مضطرون في الريف ، بعض الاحيان ، أن يجروا المحاريث بدلا من الخيول ، وهم في كل الاعتبارات الاخرى لا يعاملون معاملة انسانية ويعاقبون عقاباً صارماً ان هم سخروا الحيوانات خلسة في أعمالهم .

يسمح للنصارى في الجزائر ان يلتمسوا الحصول على الرقيق بتأجيرهم خدماً ، الا أنهم يجب أن يتعهدوا بمسئولية اعادتهم إلى الحكومة ، عندما يستدعون ، أو يدفعون فدية يقرر مقدارها الداي نفسه . وقد تمنح اجازة احياناً للرقيق أن يناموا في مساكن أسيادهم اذا لم يكن الجزائريون ساخطين كثيراً على البلاد التي ينتمي اليها الرقيق .

يمكن تصوير أسلوب معاملة الرقيق النصارى في الحادثة التالية لأسرة اسبانية ، دفعت فدية ثمن حصولها على حريتها قبل أن يتمّ عقد الصلح هذه السنة بين اسبانيا وبلاد البربر .

هي مدينة بحياتها إلى سيدة ، قدمت لها مثل تلك الحماية في منزلها الخاص بها وحافظت عليها طول الوقت من السقوط ضحية للاغلال التي كانت ترسف بها .

هناك سيدة اسبانية ، زوجة ضابط ، مع ابنها ، شاب عمره أربعة عشر عاما ، وابنتها ست سنوات ، أخذوا أسرى في سفينة أسبانية من قبل الجزائريين فعاملها البربر وأطفالها معاملة لا انسانية شرسة . ربطوا الابن الكبير في سلسلة ، وعوملت البنت الصغرى بطيش ونزق . حتى كانت الام البائسة ، غالباً ما تفقد رشدها من الضربات والكدمات التي يتلقاها طفلها من أولئك الاجلاف الذين نهبوا منهم كل شيء . تركوهم أياماً عديدة في البحر لا يأكلون غير الفتات القليل ، وينامون على السطح ، يتغطون بالسجاد الوسخ ، وبهذه الحالة جلبوهم إلى الجزائر . ظلوا مدة طويلة يقيمون في سجن رهيب مظلم يضم الرقيق ، عندما وصل أحد المراسلين إلى الاغا أو الضابط المسئول عن السجن ، يطلب امرأة رقيقاً ولحسن الحظ أنه كان من نصيب السيدة الاسبانية . وفي الحال احتضنت ابنها تقبله ، الذي كان يسحب نفسه من أمه بنظرات تائهة زائغة وقلقة ليعود إلى السجانين الغلاظ العتاة . بينما كان اليأس مسيطراً عليها حدقت بطفلها المنهوك القوى ، لتسمع دعوة أسمها للحضور أمام حارس السجن لتذهب إلى الاسرة التي طلبت امرأة رقيقاً . حصلت على إذن خاص بأخذ ابنتها الصغرى . كانت حالة الرقيق الاسبان في تلك الاثناء في الجزائر مؤلمة جداً ، فلا يسمح لهم بأقل شيء من لطف المعاملة .

كان الجزائريون ساخطين سخطاً شديداً على الاسبان ، بسبب الحرب ، حتى وقفوا موقفاً صارماً في معاملة الاسرى بالمزيد من القساوة . فظهر للسيدة هذه ، اذن ، من السعادة أن تنقل إلى أي مكان يكون مسكناً لنصراني . ذهبت مع مرافقها العبد تعتبر نفسها مثقلة بطفلتها ، ومنظرها يوحي بالمرض ، وبكل أهوال القنوط وأتعاب القلق ، خشيت أن ترفض وتعود ثانية إلى السجن المظلم الرهيب الذي لم تصدق أنها غادرته ، حيث لا تميز بين السجناء في المرتبة ، ويتكدس الرقيق من كل الطبقات معاً . كانت أذناها ترتجف من البذاءة والفحش ، ومن الحسرات والتأوهات والانين المنبعث من أولئك البؤساء مثلها .

لم يكن بوسع ابنها أن يعمل شيئاً من أجلها . وكانت الأوساخ والروائح الكريهة في السجن تؤثر في أعتلال صحتها . غادرت السجن وهي على أتم الاستعداد لقبول أي عرض تقل فيه تلك الآلام والمآسي . ولكن كان الأمر كما توقعت ، فقد رفضت أولاً ، فكان كل شيء ، مناقضاً لوصف الشخص الذي جاء اليها . وأخيراً تغلبت الرحمة على كل عقبة ، فتم قبولها مع ابنتها الصغرى . ظلت صعوبة أخرى : تركت ابنها مقيداً بالسلاسل وسط ذلك السجن المظلم الوسخ ، الذي هربت منه . لم يكن من طبيعتها أن تصبح آمنة مطمئنة بدونه تأكل كسرة خبز تعرف أنه محروم منها . أحست الأسرة باخلاص وصدق بأن الفضل الوحيد الذي تلطفوا به عليها ينقصه في واقع الامر شيء ، وسرعان ما أكتشفوا سبب حزنها وكآبتها.ولكن استدعاء ذلك الشاب ومعاملته باللين والحسنى أو بأي أسلوب آخر يرفعه فوق مستوى الرقيق الاعتيادي ، لا بد وأن يكون عرضة للمخاطرة ، لأنه يتطلب فدية عالية له ولامه وبذلك يحول إلى الابد من تحقيق الامل بحريتهما . وعلى كل حال فقد تم تقديم طلب له ، وكانت الدوائر المختصة بخدم الأعمال البسيطة مشغولة بانهاء هذه المهمة الشكلية فقط . وتم ايواء العائلة كلها بحذر شديد مدة ثلاث سنوات ، بعدها أشتدت الحرب مع الاسبان شراسة وفظاعة .

طلب الجزائريون إلى الشاب العودة إلى السجن ، ليشترك مع العبيد الآخرين في اصلاح الاضرار التي حدثت في القلاع والحصون نتيجة لقصف المدفعية الاسبانية . فاضطر الآن أن يحمل الاحجار الثقيلة مخترقاً المدينة كلها إلى الاسوار وفي كل خطوة يخطوها تقريباً تنزل على ظهره ضربات السياط المخيفة بسبب عدم قدرته على مواصلة السير بسرعة لثقل الأعباء التي يحملها .

تغلب في الاخير بالقيام بتدبير سيء ، اذ رفض في صباح يوم من الأيام الأوامر الصادرة من سيده السجان لينهض من القش المضطجع عليه ، بسبب ضعف بنيته ، وهزال جسمه بحيث أصبح عليه من المستحيل أن يتحمل العمل ، ووجد نفسه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة ، معلناً اذا أرادوا قتله فلهم كل

الحرية أن يقوموا بذلك . لأنه سوف لا يجرب ثانية أن يقصم ظهره بحمل الاحجار الثقيلة .

بعث القنصل البندقي برسائل عديدة ، حيث كانت أمه وأخته لاجئتين ، إلى آغا السجن لاستّرداده ، وعندما وجد الجزائريون بأنهم جعلوه بحالة هي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة ، فكروا بأنه من الأحسن لهم أن يحافظوا على حياته ، على أمل أن صلحاً اسبانياً كان ينتظر الوصول اليه في كل يوم ، قد يجلب لهم مبلغاً من فديته : وكان أقل أتعاباً وقلقاً بالنسبة لهم اطلاق سراحه من ابقائه في السجن والسهر على رعايته من إسكانٍ ، وطعامٍ : فوافقوا على اعادته إلى منزل الأسرة النصرانية .

كانت حياته لبعض الوقت مدعاة لليأس وخيبة الرجاء ، ولكن جروحه شفيت ، ورعاية سيدته وأمه وأخته انقذته من الموت . أخفى أمر شفائه من مرضه : خوفاً من استدعائه للعمل .

بعد أشهر قليلة : تم عقد الصلح الاسباني . فقبلت فدية من قبل الجزائريين لهذه العائلة المعذبة الشقية ، فأطلق سراحها واستردت حريتها .

بفضل الاهتمام والرعاية والمزيد من الحنان الذي أبدته الحامية السيدة الصديقة سرعان ما حصلت هذه الاسرة على سفينة بكل ما فيها من تسهيلات وراحة تقلع إلى اسبانيا حيث تبعث هذه الاسرة السعيدة الان أحر التحيات وأعطر السلام إلى تلك السيدة الكريمة المحسنة التي لا يمكن نسيان فضلها إلى الابد يحوطه الشعور بكل محبة وامتنان .

٨ يناير ١٧٨٥

البك يرئس حملة عسكرية . مثال رائع للشهامة والكرم العربي .

أملنا ضعيف في الافلات من وباء الطاعون : الذي يزداد عنفاً ، واستشراء كل يوم في تونس فاذا أضفنا ، إلى سوء الحظ في إقترابه منا ، الحالة الصحية

السيئة في هذه المملكة نتيجة للمجاعة التي يظن بأنها ستزيد الطاعون سوءاً وتدميراً .

إن قطعان الماشية في عوز شديد للعلف ، فان الخروف إذا رأى العلف يهتاج من شدة الجوع حتى يصبح مزعجاً لا يطاق من شدة الغثاء ، ولا يقتصر الامر كلياً على هذا الحد بل أننا لا نزال مستمرين في مواجهة الناس في نفس حالة العجوف البائسة . كما ان الوضعية المحزنة المؤسفة الحاضرة التي تجتازها البلاد تجعل من الصعوبة بمكان على مختلف (البكات) أن يجمعوا اتاوات الباشا من العرب ، الذين هم متذمرون ساخطون ، بل هم أقرب إلى حالة الاعتصاب والثورة . اضطر (البك) ابن الباشا الاكبر إلى الخروج مع جنده في محاولة اخضاعهم للنظام ، حيث توجد مناوشات مستمرة في الصحارى بين العرب وجيوش الباشا ، تروي قصص مثيرة عن شرف وبسالة وكرم هؤلاء المحاربين.

كان أحد رؤساء الفرق في جيش (البك) يتعقبه العرب ، قد ضلّ طريقه ، فداهمه الظلام الحالك بالقرب من معسكر العدو . دخل باب خيمة كان مفتوحاً ، فأوقف حصانه والتمس العون ، بعد أن أعياه التعب ، وأضناه العطش . فأمر المحارب العربي عدوه بدخول خيمته بثقة ؛ فعامله بكل كرم واحترام ، اللذين يشتهر بهما قومه . يتميّز رؤساء القوم بينهم : مثل الابطال الذين يروي التاريخ سيرهم بصفاتٍ ساميةٍ ، يخدمون الضيف ويكرمون وفادته فعندما يقدم ضيف غريب إلى رجل من ذوي الشرف والمكانة ، سرعان ما يمسك بحمل من قطيعه وينحره . وتعنى زوجته باكرام ضيافة السيدات ورعايتهن بأدب رفيع .

لا تزال عند بعض العرب العادة البدائية في غسل الاقدام ، ويقوم بهذا الاكرام رئيس الاسرة . كان عشاؤهم أحسن ما في الحمل السمين المشوي ، وحلواهم التمر والفاكهة المجففة ، ولأجل أن تكرم سيدة البيت ضيف

زوجها إكراماً خاصاً تضع أمامه صحناً من (البازين) من صنع يديها (١) يصنع من الدقيق والماء ، بعد عجنه ووضعه على قطعة قماش ليرتفع إلى الاعلى بينما النار تشتعل ، ثم ترمي على جذوة النار وتقلب كثيراً ، ثم تؤخذ وهي نصف مشوية فتجزأ إلى أقسام ، وتعجن مع الحليب الجديد ، والزيت والملح ، وتصنع على شكل معجنات تزخرف بالقديد الذي هو عبارة عن قطع صغيرة من لحم الحمل المجفف والمملح بأعلى الاساليب .

ومع أن هذين الرئيسين في حرب ، أحدهما ضد الأخر ، فانهما تحدثا بصداقة وصراحة يرويان الانتصارات التي حققاها وأسلافهما ، حين تولى المضيف الشحوب المفاجيء ، وعلا وجهه الاصفرار ، نهض من مقعده وانسحب ، وبعد بضع لحظات أخبر ضيفه بأن كل شيء قد أعد لراحته ونومه ، وأنه يشعر بوعكة : فيأسف على عدم قدرته على المضي لانهاء الوليمة . لاحظ حصان البربري فوجده متعباً لا يقوى على حمله ، في رحلة قاسية في اليوم الثاني ، ولكن قبل شروق الشمس أعد له حصاناً قوياً ، مع كل ما يحتاج اليه من أسباب الراحة على باب الخيمة : حيث سيلتقي به ويتوقع أن يرحل مع الحملة كلها . الا أن الضيف الغريب لم يستطع أن يعلل ويفسّر سلوك مضيفه ، فانسحب للراحة والنوم .

أيقظه العربي في الوقت المناسب لتناول الفطور قبل رحيله ، الذي أعد سلفاً ، ولكنه لم يشهد أحداً من الأسرة حتى أدرك ، عندما وصل باب الخيمة ، أن سيد الخيمة يمسك بسرج حصانه ، ويعد الركاب له ليمتطي ظهر جواده ، وهي عادة يقوم بها العرب باعتبارها المهمة الأخيرة للضيافة والصداقة وقبل أن يمتطي الغريب جواده بقليل أخبره مضيفه بأنه لا يوجد عدو يخشاه أكثر منه شخصياً خلال مروره كله في معسكر العدو .

قال : « الليلة الماضية عند حديثك عن مآثر أجدادك كشفت لي عن قاتل

---

(١) لا يزال البازين الصحن الشعبي الشائع بين العرب الليبيين ، بحيث انهم يدعون انفسهم أهل البازين أو آكلة البازين .

أبي ، الذي لا تزال هناك مطروحة الملابس التي قتل بها كلها (التي جلبت في تلك اللحظة إلى باب الخيمة) والتي أقسمت عليها ، بحضور أفراد أسرتي مراراً عديدة بأن انتقم لموته ، وأن أبحث عن دم قاتله من شروق الشمس إلى غروبها ، فالشمس لم تشرق بعد حتى الآن ، والشمس سوف لا تشرق حين أتعقب أثرك ، بعد أن تكون قد رحلت بأمن وسلام من خيمتي ، فمن حسن حظك ان لا يقرّ ديننا ازعاجك ، بعد أن طلبت حمايتي ، فوجدت ملاذاً هنا : ولكن كل التراماتي تنتهي في الدقيقة التي نفترق بها ، ومن تلك اللحظة يجب أن تعتبرني شخصاً قد عقد العزم على القضاء عليك ، في أية بقعة ، أو على أي بعد ، فلربما نلتقي ثانية .

« لم تركب جواداً أقل عدواً من الذي يقف مستعداً لي ، وعلى سرعتـــه وخفة جريه التي تفوق سرعة حصاني تعتمد حياة أحدنا أو كلينا » .

بعد أن لفظ هذه الكلمات صافح خصمه بيده وانصرف عنه.أفاد البربري من اللحظات القلائل التي سبق بها ضيفه ، فوصل إلى جيش البك في وقت استطاع أن يفلت ممن يتعقبه ويتبع أثره ، قريباً من معسكر العدو ، استطاع به أن ينجو بسلام . تدل هذه القصة دلالة واضحة وجلية على كرم الضيافة ، ولكن لم تكن أكثر مما يقوم به أي عربي وكل بربري في مثل تلك الظروف .

كان اسم هذا الرئيس الحسن الطالع ، هو حاجي بن حسونه ، عندما عاد إلى المعسكر ، كانت مناسبة طيبة دعت كل أصدقائه لتقديم التهاني ، والتلذذ بالانصات إلى أحاديثه ، تناول طعام العشاء معنا ولكن بعد الحادثة المذكورة أعلاه ببضعة أيام .

كان يعتبر من أحسن قواد الباشا ، ولكنه كثير الصلة بالباشا ، وموضع اهتمامه ورعايته ، فكان له من هذه القصة أعداء أشداء في ركب الباشا ، من بينهم رؤساء وقواد زمر كثيرة في طرابلس .

٥ مارس ١٧٨٥

الحجر الصحي · وصف الزواج البربري · الاحجبة والرقى ·

لما كان اجتناب العدوى محاولة تناقض الدين الإسلامي (١) ، فإن البربر يعرضون أنفسهم لهجمات وباء الطاعون ، لهذا كنا مضطرين لتأجيل زياراتنا إلى القلعة وإلى الأسرة البربرية خلال الأشهر الماضية . لا يعتقد الناس بأن وباء الطاعون قد وصل إلى طرابلس ، ولكن الأرواح الشريرة (بناء على ما يردده البربر) كانت أخيراً مشغولة جداً ، في السيطرة على الناس فتسبب موتهم باسلوب مذهل ، وحتى أولئك الذين لا يعتقدون بالأسباب فوق الطبيعة يظنون بأن الإصابة في الريف وحتى في المدينة هي أكثر سوءاً . حسب الروايات الأخيرة الواردة من تونس ، والتي تبعد أكثر من ثلاثمائة ميل عنا ، يموت سبعمائة شخصاً يومياً من هذا الوباء المخيف .

تبنت أسرة بربرية ذات مكانة مرموقة نصيحة قدمت لها باستعمال بعض الوقاية ضد وباء الطاعون ، فبدأت بنوع من الحجر الصحي ، ولكن تزوجت ابنتها بالأمس من ابن عمها ، بدأ الإحتفال العام بارسال الهدايا من العريس إلى أسرة العروس ومن والدها إلى العريس ، وهو تقليد يجب القيام به . بناء على ذلك احضرت الابل والبغال وبعض المرشدين الذين ينتظرون على أبواب والد العروس وجمهور غفير ومن الناس محتشدين في وسط الحوش ومداخل القصر ، حيث وضعت أعداد كبيرة من الصناديق من شكل وحجم واحد ، تحتوي الكنوز والجهاز الفاخر ، حملت على مختلف الحيوانات ، وأعداد كبيرة من « البقجات » المصنوعة من المناديل الحريرية الباهظة الثمن والمطرزة بالذهب ، وعدد من السلاسل البيضاء النظيفة المصنوعة من خوص النخيل ، المملوءة بالمرطبات والحلويات ، والمغطاة بأجمل الأزهار وأعطر الورود (بعض

---

(١) راجع ردنا على هذا الادعاء في حاشية ص (٢١٣) (المترجم) ·

الوسائل لنقل وباء الطاعون) تحمل على ظهور الرجال والنساء من الرقيق الاسود وتحرك الجميع في مسيرة مخترقة المدينة ثم عادت إلى المنزل ، حيث سمح لها بالدخول من مدخل آخر غير الذي خرجوا منه .

أما الاسرة فلأجل أن تحمي نفسها من تأثير ضيف رهيب بغيض كوباء الطاعون ، يمكن أن ينتقل بهذا الاحتفال الذي لا غنى عنه ، قد انقذت نفسها بدرع حصين ، أعدت وفقاً للتقاليد البربرية آيات من القرآن (١) .

لقد كلفت تلك الإحتفالات مبالغ عظيمة من المال ، فامضت أياماً في تقديم القرابين والأضاحي للنبي محمد بواسطة الأئمة ، وأرسلت كميات كبيرة من الزيت وغيرها من المؤن إلى المرابطين والأولياء .

عندما رأينا أم العروس منذ بضعة أشهر مضت كان أحد أطفالها الأعزاء مريضاً لعدة أيام فحضر مرابط لكتابة آيات من القرآن الكريم صالحة لشفاء ابنها التي أحرقت في صحن صيني ، وجمع الرماد بكل دقة في قدح ماء ، فشربته كله . وكانت الأغطية من مختلف الأنواع تغطي الطفل من رأسه إلى قدمه ، وتحتفظ بها مربيته بعيداً عن النصارى لأنها تخشى أكثر من أمه عليه من احتضانه أو النظر إليه . وحضر أحد رجال الدين تضحية حمل ، ليرى بنفسه عدم وجود عظم واحد ، مشوه الخلقة ، أو أنه مصاب بمرض على الأقل ، وليشهد توزيع لحم الحمل وليرى الدم أيضاً قد دفن بعناية . أعد طهي اللحم فأكلته الاسرة ، وجمعت كل العظام ودفنت بنفس العناية والطقوس التي دفن بموجبها الدم .

لا تثير الكتب السماوية الأخرى حماساً متوقداً كما يثير القرآن في نفس المسلم الحقيقي عند ما يشهد القرآن في هذا اليوم . يقول المسلمون عنه « إن

---

(١) لا زال عدد كبير من المسلمين يلجاون الى أية الكرسي أو الاية ٢٥٥ من سورة البقرة الاية (٢٥٤) بسم الله الرحمن الرحيم ·· الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده الا بأذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم · » ـ س

القرآن هو هدية نبيهم السماوية إلى كل المسلمين الحقيقيين ؛ وهو الذي أنزل على محمد آية فآية ، بواسطة جبريل ، في ليلة القدر » .

« إنا انزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هي حتّى مطلع الفجر .

ولأجل أن يبرهن البربر بأن القرآن منزل من السماء وأنه أوحي إلى النبي عن طريق الملائكة ، فإنهم يقتبسون لأنفسهم سورة القدر ويضعونها على أبواب المساجد ويكتبونها على جدران حجراتهم .

ليس ممنوعاً على المسلمين أن يعيدوا طبع القرآن ؛ ولكن يحتفظون بنسخهم الأصلية بأكبر قسط من العناية والحذر ؛ فمن المستحيل أن يحدث أي تغيير ولو كان بسيطاً جداً فالبربر يهربون بفزع كبير من التفكير في أية نقطة يمكن أن تتغير في هذا الكتاب المقدس ويعتقدون بأن سورة أو آية من هذا الكتاب تخلصهم من مرض خطير ، وتحفظهم من الطوارىء أو من الأرواح الشريرة القادمة وتطيل أجل الحياة ؛ وتجعلها حياة موفقة ناجحة ، وبكلمة مختصرة فإنهم يلجأون مستنجدين باقتباس آيات من القرآن في كل ما يواجههم في الحياة من مصاعب ومتاعب في تلك الأيام التي يمكن الحصول عليها من الأئمة والمرابطين بتكاليف باهظة جداً .

ومن الضروري أن يتطهر البربر قبل أن يمسوا الكتاب المقدس ، ويُمتع كل شخص آخر غير مسلم من النظر اليه فلايمسّه إلاّ المُطهّرون » .

٢٩ أبريل ١٧٨٥

موكب الاميرات لتقديم النذور .

عبر في الأسابيع القليلة الماضية بعض المراسلين الصحارى الممتدة من تونس إلى هذه المدينة ، ناقلين وباء الطاعون في طريقهم ، حتّى أصبح بالنتيجة الريف المحيط بنا ، وفي كل مكان ملوثاً ، وحتّى البربر الآن يعملون على نشر الوباء ،

لأن التدابير الوقائية أصبحت لا فائدة فيها بسبب عدم الإستمرار في تطبيقها ، ففي بعض الحالات يتشدد البربر أحياناً ويتم الإتصال بلا تمييز بين المريض والسليم ، أحياناً أخرى .

خرجت في الليلة الماضية قبيل منتصف الليل بقليل زوجة البلك اللالة عواشة والأميرات الكبيرات الثلاث اللالة خدوجة واللالة عواشة واللالة فاطمة ، يمشين في الشوارع تتقدمهن أنوار المشاعل ، من القلعة إلى المسجد ، ليقدمن الأضاحي والقرابين ويتعبدن في ضريح أحد المرابطين العظام . كن محاطات تماماً بسيداتهن اللواتي كن بدورهن محاطات بالجواري السوداوات : وحولهن يتقدم المخاصي ، المماليك التابعون للقلعة ، يتبعهم الحرس الخاص بالباشا . وكان يصحب الأميرات ، أخواهما الشابان الأميران سيدي أحمد وسيدي يوسف وحاشيتهما . كانت الليلة من الليالي اللطيفة الهادئة والسماء صافية متألقة ، من ليالي البحر المتوسط الذي يتميز بها .

لا توجد نسمة واحدة من الهواء ، تزعج الغمامة المرتفعة من الأبخرة العطرية التي تلف هذا الموكب كلما تحرك ببطء ، وقبل أن ينتقل الموكب من محل إلى آخر كان المنادي (الشاويش) يعلن بأعلى صوته ، يحذر الناس بمرور الموكب ، وينذر بعقوبة الموت كل من يحاول النظر إلى هذه المسيرة المقدسة .

كان الحراس يسرعون في إخلاء الناس من الطريق ، وزغاريد النساء تدوي في الفضاء ويغني عدد كبير منهن اخترن لهذا الغرض ، اللواتي تسمع أصواتهن على مسافة بعيدة .

كان ينتظر على أبواب المسجد الأمراء وبطانتهم وكل الحراس : حتى انتهت الأميرات من تقديم الأضاحي والقرابين رجعن جميعهن بنفس النظام الذي بدأن به .

إن حالة القلعة الحاضرة تهدد كل سكانها تهديداً مرعباً ومخيفاً جداً ، تلك الحالة التي كانت السبب في القيام بهذه الزيارة التي قام بها أفراد الأسرة الحاكمة إلى ضريح المرابط .

٢٧ مايو ١٧٨٥

وفاة احدى اللالات ·

إن قصر الوزير الأول مصطفى شريفي في الوقت الحاضر أقرب ما يكون إلى حالة حجر صحي كما يستطيع أن يصفه بنفسه ، يتلاءم مع آراء البربر وأفكارهم ، ومع ذلك فإنه لا يعترف لأي واحد ولا للباشا بضرورة أخذ تدابير الوقاية والحذر في القلعة ، حيث يزعم بأن سيادة الدولة هي أعظم درع حصين، بل يقول انه من الضروري بأن يضرب الباشا مثلاً للآخرين بأن لا يحاول مقاومة ما خطته يد القدر .

كان البربر المسلمون يتشاءمون من احصاء عدد موتاهم ، لذا فإنهم لا يعلمون بالضبط عن زيادة الوفيات ، لكن القلعة ملوثة بوباء الطاعون جداً ، فقد توفيت قبل يومين طفلة عمرها ست سنوات ، ودفنت اليوم احدى الملكات الثلاث زوجات الوالي المتوفى .

حضر تشييع جثمانها ، بأوامر صادرة من الباشا ، عدد من موظفي الدولة ، وأربع من الجواري السوداوات اللواتي أعتقهن الباشا إكراماً وتحية لذكرى أرملة أبيه هذه ، وقد دفنت في ثيابها الفخمة جداً ، وحليها ومجوهراتها ، التي وجدت في حوزتها . كان ثمن الجواري السوداوات الأربع اللواتي اعتقن حوالي أربعمائة جنيه استرليني ، إذ تبلغ قيمة كل واحدة منهن من مائتين إلى ثلاثمائة محبوب (١) .

كان طابور طويل من التوابيت ، ينتظر عن قصد بضع ساعات ، لتحمل بالقرب من نعش زوجة الباشا ، ليفيدوا من الصلاة التي تقام على روحها . ظهرت التوابيت تحت أشعة الشمس المشرقة المتألقة ، خطاً من الذهب المصقول يبهر البصر بسبب فخامة معظم تلك النعوش ، كانت أبواب القلعة لأول مرة مغلقة اليوم . ولا يسمح إلا بدخول جزئي فقط .

---

(١) المحبوب ــ ٧ شلن

حدث أن كان أربعة أشخاص بصحة جيدة في الصباح ، أخذوا مرضى أمس بعد الظهر أخرجوا من القلعة البارحة في الساعة العاشرة ، وفارقوا الحياة في منتصف الليل . فقد إثنان منهم رشدهما وأصبحا مجنونين مهتاجين ، وكان جميعهم قد ابتلوا بأورام كبيرة في أجزاء مختلفة من الجسم عند موتهم .

يعبر الباشا عن أسفه العظيم بسبب الفكرة التي تدور في خلد النصارى عن غلق منازلهم في الوقت الذي تعيش البلاد في حالة مجاعة ؛ وهو يقول بأن سيعلنها في حالة تلوث ، ويمنع وصول الغلال اليها وستغلق منازل النصارى جميعها في بحر اسبوع تقريباً ، فيؤجر كل منزل عدداً من الخدم ليظلوا محجوزين معهم حتى ينتهي الطاعون ، أما القاعات والنوافذ والشرفات فتخضع لرقابة شديدة ، ونخشى أن نمر بحجر طويل الأمد . يجب إخلاء الشرفات والنوافذ المطلة على الشارع من الخدم ؛ واعدت القاعات لاسلوب تسلم الأسرة ما تحتاج إليه بكل سلامة .إن كان من الضروري تغيير الخدم ، أو استخدام عدد إضافي منهم ، فيمكن ذلك على شرط واحد فقط ؛ أن يتركوا ما عليهم من ملابس ويذهبوا إلى حمام جاهز لهم في السقيفة أو قاعة المنزل القنصلي ؛ ويذعنوا للبقاء في حجرة واحدة مدة اسبوعين للتأكد من أنهم غير ملوثين بالطاعون . أحضرت جرار عديدة ، تحتوي كل واحدة على عدة أرطال من مواد مختلفة لتبخير الحجرات ، ثلثان من النخالة ، والباقي أجزاء متعادلة من الصبروالكافور والمر المكاوي ، يوقد هذا العطر وكميات صغيرة من البارود يومياً في المنازل . حينما تخلى الحيوانات والطيور من منازل النصارى ، خوفاً من الإصابة بالطاعون فانها تسحب من شعرها أو ريشها .

تعتبر اللحظة الحاضرة بالنسبة للنصارى أكثر المراحل خطورة للفوضى . عندما تغلق المنازل مرة فإن سلامتها تعتمد على صرامة الحجر الصحي ودقته ، ولا يمكن إجراء أية معاملة تجارية الآن إلا على لهب قصب متقد يظل مشتعلا بين الشخص المقبول في المنزل والآخر الذي يتحدث إليه ، يتم قبول زيارة الصديق إلى شقة مظلمة فقط ، حيث ينسحب إلى النهاية البعيدة من الحجرة

يتخذ مكاونه على مقعد قصبي ، لا يلمس بعد مغادرته ، إلا أن يتم تبخيره ، وتحفظ مفاتيح كل الدروب والمسالك في المنزل عند سيد الاسرة فقط .

إذا صادف وأن خرج أي نصراني يكون مضطراً للخروج في مهمة ؛ في غضون تلك الفترة قبل أن تغلق المنازل ، يمشي حارس أمامه وآخر وراءه ليمنعا أي شخص من الإقتراب إليه وعند العودة يوضع الحارسان في حجر صحي لبضعة أيام ، وبدون هذه التدابير الوقائية يصبح من المستحيل الإفلات من تلك الفوضى الرهيبة التي يزداد هياجها قوة وعنفاً كل ساعة .

٢٨ يونيو ١٧٨٥

دفن الناس وهم احياء · دفن الفتيات العذارى· نعش الرجل ونعش المرأة · بناء القبور · صنع التوابيت · اقامة المآتم ·

من المستحيل أن أصف لك وصفاً مضبوطاً وصحيحاً حالة هذا المكان في الوقت الحاضر فلا يمكن وصف الهلع العام الذي يعم ويستحوذ عليه . أبحر حاج عبد الرحمن من ميناء طرابلس في العشرين من هذا الشهر ، سفيراً إلى السويد وانجلترا . إن سفر السفير من طرابلس الغارقة في وباء الطاعون والمجاعة ، ومن الإغريقية الرائعة الجمال أماني وأطفالها أمر مرعب ومخيف .

قرر أن يرى القليل منهم ثانية ، لأن العدوى المخيفة قد دخلت اسوار قصره ، وليس بالإمكان أن يتصور حتى بطانته الخاصة يمكن أن تبحر غير ملوثة بوباء الطاعون نفسه . فان كان حسن الحظ لا يقع ضحية لوباء الطاعون قبل أن يصل إلى مالطة ، فعليه أن يمر بحجر صحي طويل الأمد يبقى لمدة تسعين يوماً على الأقل . قبل أن يغادر الميناء علم بأن يهودياً سمساراً من جماعته أصيب بوباء الطاعون إصابة شديدة ؛ فأنزل إلى الساحل قبل الإبحار .

عبد الرحمن شخص يحبه الجميع ، فالناس عامة يسهمون في آلامه وأحزانه ويتعاطفون بالصراخ والعويل بما حل بأسرته من نكبات ، بدأت قبيل سفره من

ميناء طرابلس ، واستمرت حتى اللحظة الحاضرة ، ولا زال يتسع مداها ، فيتكاثر عدد الموتى فيها . في هذه الفترة المرعبة الشنيعة يؤول أمر العناية والإهتمام باللالة أماني ؛ وابنته الكبرى العزيزة إلى أخيه حاج محمود ؛ الذي يعالج سكرات الموت ويعاني آلاماً وأوجاعاً لم يسمع لها مثيل فقد أصابه وباء الطاعون بورم خبيث في فمه ، وهو الآن يموت جوعاً : تنتابه بعض الأحيان نوبة من الجنون ، يفقد رشده حتى يتطلب الأمر عدداً كبيراً من الناس لضبطه والسيطرة عليه .

لم يكن أحد أفراد أسرته مريضاً عندما أبحر أخوه إلى أوروبا ، زوجته وأطفاله (سبق وان دفن أحدهم) مع عدد كبير من أقرباء اسرة عبد الرحمن يحتضرون بسرعة شديدة ، ولم يبق غير اللالة أماني وابنة عبد الرحمن وابنة أخيه من أفراد الأسرة ، وبقي من عبيده وخدمه خصي عجوز أسود فقط ، الذي أصيب بوباء الطاعون للمرة الثالثة . توفي في الفترة القصيرة التي أعقبت سفر السفير من طرابلس ، أي ثمانية أيام فقط : ما يقرب من مائة شخص من أقاربه وبالنتيجة ؛ يظن البعض بأنه سوف لا يبقى شخص واحد من أسرته يروي له ما حل بأسرته من أوقات عصيبة مليئة بالآلام والأحزان .

قضى الطاعون الآن على سكان هذه البلاد وأخلاها فكان أقسى عليها من وباء الطاعون الذي أصاب القسطنطينية منذ قرون خلت : وظهر بنتيجة البرهان الإحصائي أنه أهلك ضعف النسبة لعدد أولئك الذين ماتوا من نفس الوباء أخيراً في تونس ، حيث كانت تحمل جثة خمسمائه شخص كل يوم من تلك المدينة تجاوز اليوم عدد الموتى المائتين مرت نعوشهم من باب المدينة .

يبلغ عدد سكان مدينة طرابلس (١) ١٤,٠٠٠ نسمة وعدد سكان مدينة تونس ٣٠,٠٠٠ نسمة . كان منزلنا آخر المنازل التي بقيت جزئياً مفتوحة الأبواب ، وقد بدأت في اليوم الرابع عشر من هذا الشهر بحجر صحي كامل . قسمت

---

(١) بناء على التقديرات القنصلية كان عدد سكان مدينة طرابلس ١٧٩٠ حوالي ٢٥,٠٠٠ نسمة

القاعة التي عند الدخول إلى المنزل إلى ثلاثة أقسام ، ولم تفتح الابواب المؤدية إلى الشارع أبداً إلا بحضور سيد المنزل الذي يحتفظ بالمفاتيح في جيبه ، يفتح هذا الباب مرة واحدة في النهار . عندما يخرج بنفسه إلى القاعة الأولى ويرسل خادماً لرفع المزلاج وفتح الباب ، ويرجع الخادم . ويقف الشخص في الشارع حتى يطلب إليه الدخول مع المؤن التي أرسل لشرائها . يجد إناء جاهزاً مملوءاً خلاً وماء ليسلم اللحم ، وإناء آخر مملوءاً بالماء لتسلم الخضروات .

يمكن جلب بعض المواد بدون هذه التدابير الوقائية مثل الخبز البارد ، والملح وسلال القش ، فيرش الزيت من الإبريق لمنع العدوى من الحشيش المغطى به ، السكر بدون ورق أوصندوق ، حين ينتهي هذا الشخص من تسليم كافة المواد التي جلبها ، يترك بالقرب منها قائمة الحساب ، وما تبقى من الفلوس التي أعطيت له ، وينسحب غالقاً الباب وراءه . يوقد القش الموضوع سابقاً في القاعة على مسافة بعيدة ، بواسطة نار تحمل على نهاية عصا ولا يسمح لأي شخص بالدخول إلى القاعة حتى يتم التثبت من أنها تطهرت بالنار تطهيراً كافياً . بعدئذ يتقدم خادم بعصا طويلة يلتقط كل ذلك ويبخرها فوق القش حتى يحترق ثانية ، ويغلق الباب ويرجع المفاتيح لسيده ، الذي يقف حاضراً يرقب كل تلك الإجراءات بحيث لا يهمل أي جزء منها . وبملاحظتها بكل دقة يمكن القول بشيء من الطمأنينة بأن حياة كل فرد في المنزل تعتمد على تلك الإجراءات(١).

مات ثمانية أشخاص في الأيام السبعة الأخيرة ، الذين كانوا يعملون بتجهيز المنزل في المواد الغذائية ، بسبب العدوى بوباء الطاعون التي أصيبوا بها . فمن كان مريضاً جداً لا يقوى على العودة لجلب المواد الغذائية ، يعطيها إلى جاره ، الذي يقوم بكل وفاء واخلاص بأداء مهمته كما كان الأمر دائماً ، حيث يقوم ، بالطبع ، مقام صديقه السيء الحظ بنفس المهمة ، إذا كان يرغب بذلك أو

---

(١) بالرغم من انه لم يكن معروفا في غضون القرن ١٨ ان القمل هو الذي ينقل جراثيم العدوى لوباء الطاعون الغددي الورمي فان تلك التدابير الوقائية كانت انذاك معقولة جدا .

يوصي شخصاً آخراً : فقد حدث أن البربر . وهم أرفع منزلة من القيام بمثل هذه الخدمة : قاموا بكل إخلاص ومحبة بتسليم المؤن إلى النصارى الذين طلبوها ، يقوم البربر بأعمال الرحمة والبر والإحسان في الوقت الحاضر التي إذا رافقتها مثل تلك الظروف المرعبة فمن النادر جداً أن يقوم بها أحد في معظم أجزاء العالم النصراني .

وقعت حادثة في الأيام الأخيرة جداً ، تبرهن على روحهم الإنسانية : وحبهم للقيام بأعمال البر والإحسان ، فقد وضعت امرأة نصرانية مولود الشقاء والبؤس ، مهملة منبوذة فهرب منها أقرباؤها وأصدقاؤها ، لأن المحافظة على النفس علمتهم الهرب ، حتى أمها فرت من سريرها الموبوء ، ولكنها وجدت في البربري يداً فيها حنان الأبوة : فقد سمع أنيناً عند مروره ، فعرف أن تلك المرأة البائسة هي آخر من بقي من أسرتها ... حين تأكد بأن الأمر كذلك ، احتضنها بمشاعر العطف والشفقة الممزوجة بالرهبة والرعب . كان يبحث عن عون يساعده في تخفيف آلام هذه البائسة ، حتى أتم الطاعون غدره بها ، فقضى على حياتها ، ووضع نهاية لآلامها ، وطوال ذلك لم ينقطع عنها يتفقدها ويرعاها ، تزدري بأصدقائها النصارى وتحتقرهم لأنهم هجروها وحيدة لرعاية ذلك الشخص المحب للخير والإحسان .

أصبحت تكاليف وأخطار دفن الموتى عظيمة ، وأصبح الخشب الذي تصنع منه النعوش نادر الوجود جداً بحيث ينقل الجثمان إلى خارج المنزل على أكتاف الاصدقاء ، ويحمل بعدئذ على كتف أول رجل يمكن العثور عليه ، أو على ذراعيه ، إلى القبر محاولا أن يسير في الخط الطويل من النعوش التي تذهب إلى المقبرة ظهراً لتفيد من صلاة الظهر . بلغ عدد الموتى اليوم مائتين وتسعين .

طبيب من جنوه ، كان منذ سنوات عديدة يتسلم راتباً معيناً من بلاط طرابلس ، ومن كل القناصل المقيمين هنا ، صدرت اليه الاوامر من الباشا بضرورة القدوم إلى القلعة ، ولكنه تلكأ في طاعة تلك الأوامر ، فصدر الأمر

إلى الحراس لجلبه بالقوة ، إلا أن الطبيب كان عالماً بأنه سيقع ضحية لوباء الطاعون حال وصوله إلى القلعة ، وبدون أن يحاول التخفيف من مخاوفه في القلعة ، لان وباء الطاعون مرض عضال لا دواء له ، فقرر الافلات من البحث وراءه فأبحر إلى أوربا دون أن يكشف أمره على ظهر السفينة التي أقلت حاج عبد الرحمن من طرابلس دون أن يكشف أمره أحد .

١ يوليو ١٧٨٥

انتقال ثروات الموتى الى الباشا · الوقف المكي والمدني · اجراء عمليات جراحية · دفن الناس قبل أن يلفظوا انفاسهم الاخيرة ·

لا يزال صراخ الناس وعويلهم مستمراً على فقد أصدقائهم كما كان من ذي قبل . لا يمر ربع ساعة بدون نحيب وبكاء من النادبين البؤساء الاشقياء . تقام صلاة على الموتى في المدينة في الوقت الحاضر ، إلا أن الجنائز تجمع معاً وتمرر من باب المدينة وقت الظهر تماماً ، حيث تقام عليها الصلاة جميعاً ، في مسجد المدينة في طريقهم إلى المقبرة ، تزداد مخاوف التشييع الكئيب كل يوم . توفي اليوم وجيه من وجهاء البربر الذي لم يتغيب عن تلك المسيرة الكئيبة خلال الاسبوعين الماضيين ، مشيعاً بانتظام بعض بقايا اسرته ، وقد اعتبر نفسه في المرحلة الاخيرة من وباء الطاعون ، مع أنه أسند من قبل حراسه السود وأنهار أمام زوجته وأبنه الاكبر ، كان نفسه الباقي الاخير من سلالته ، أصبحت كل ثروات أسرته ملكاً للباشا إذ لم يبق أحد يرثه يدعي ملكيتها ،أما المنازل والأراضي فتوقف على المساجد أو ترد الهبة إلى الورثة ، لأنها تعتبر مقدسة — ويحترمها الحاكم والناس في كل الدول الا سلامية — إذن فان الملكية التي تم الحصول عليها بهذه الطريقة من قبل أولئك الذين استردوا الهبة إلى الورثة من المؤسسات الدينية ، فان تلك الثروات تنتقل إلى الوريث الذكر المباشر بدون مضايقة أو ازعاج . وتعتبر كل من مكة والمدينة المدينتين المفضلتين المقدستين لوقف

الاملاك عليهما عادة : ففي مكة غار حراء الذي أنزل جبرائيل القرآن على محمد ، وفي المدينة قبر الرسول محمد ، ولهذا فان المدينتين مقدستان أكثر من كل المدن الاخرى . ويسمون تلك الاملاك « الاوقاف » التي يدفعون مبلغاً قليلاً جداً كل سنة حتى تنتهي الذرية التي تدعى ملكيتها ، عندئذ تنتقل جميعها إلى المؤسسة الدينية التي أوقفت الاملاك .

أما النساء اللواتي كن محجبات ، فانهن شاردات الذهن حائرات كأنهن أشباح من القنوط واليأس ، شعورهن مسدلة ، وجرودهن مفتوحة ، يعولن ويصرخن ويلوين ويعصرن أيديهن يتبعن أسرهن . ولو أن القسم الاعظم من حزنهن بموجب التقاليد ، يعبرن عنه بالعمل والحركة ، ولكنه مريع ومخيف ، عندما ينبثق ، حقاً من القلب كما يفعلن الان ، حيث أن جميع الذين نراهم حزانى هم من اصدقاء الموتى الراحلين .

لا يدعى الغرباء لتشييع الجنائز والاسهام في كثرة البكاء والعويل : فالاب الذي يحمل ابنه اليوم ، فقد سبق وأن حمل ابنته بالامس . وزوجته في اليوم الذي سبق الامس . أما بقية أفراد أسرته في المنزل فقد أقض مضاجعهم الطاعون وأذبل نضارتهم ، بينما بقيت أمه تعويضاً قاسياً بعد ذريتها ، لا زالت تستمر كل يوم مع ابنها في مسيرتها البائسة الحزينة .

منذ بداية انتشار هذه العدوى المرعبة للوباء المخيف ، التي لم يمض عليها غير شهرين فقد مات أربعة الاف شخص في هذه المدينة(تقريباً ربع سكانها)(١) وضحاياها تزداد في كل يوم و مما هو جدير بالملاحظة بأن البربر يرتكبون أضراراً جسيمة في كل أمراضهم وأوبئتهم ناتجة من الاسلوب الذي يعامل الناس به مريضهم .

أعتقد من المشكوك به في أغلب الحالات ، القول فيما اذا كان المريض يموت من شدة وطأة المرض الذي يعاني منه ، أو من أيدي أولئك الذين يسهرون على رعاية صحته ، يبدو بأن معرفتهم عن الجسم قليلة جداً : الكي يعتبر من

---

(١) انظر هذا الرقم مغلوط بكل وضوح ـ انظر ص ١١٦

الادوية العلاجية الرئيسية ، يستعملونه لكل شيء تقريباً : للجروح ، والامراض والبرد ، وحتى لأوجاع الرأس والامه ، فيلجأون إلى تسخين قطعة من الحديد بدرجة حرارة عالية حتى يحمو لونها ، فيكوون الجزء المبتلي بالمرض من الجسم) .

يقومون ببتر وقطع الاجزاء المريضة بمهارة ولو أنها تجري بأسلوب فض خشن ، ولكن في كل أنواع الامراض ، مثل الحميات ، الخ ... ويظن بأن واحداً من كل أربعة يموت من أعتلال الصحة وثلاثة يفيدون من أنواع العلاج المذكورة .

يعطون قليلا من السمن الساخن مع بقايا القهوة لطفل عمره ثلاثة أشهر علاجا للسعال ويقدمون لرجل مصاب بحمى عالية الحرارة صحنا يدعى (الترشي) الذي يصنع منه الفلفل الاحمر والبصل والزيت والخضر ، أو صحناً يسمى (بزين) نوع من المعجنات الناشفة القاسية المطلاة بكمية من الزيت ومحشوة باللحم المملح المقلى الذي يعرف باسم القديد .

عندما يظن بأن شخصاً يحتضر وينازع سكرات الموت ، يحاط حالاً باصدقائه وأقربائه فينطلق الجميع بالصراخ والعويل في أكثر الصور بشاعة ورعباً ، ليقنعوه بعدم وجود أمل في الحياة ، وأنه لا محالة في عداد الاموات ! ! ان ما يثيره هذا المنظر من فزع وضجة لا يمكن أن يخدم شيئاً آخر . حقاً غير التعجيل بالقضاء على حياة المريض ، الذي يحتضر ويتألم جداً فانهم يضعون ملعقة من العسل في فمه ، التي تضع نهاية لشقائه وبؤسه (أي الشهقة الاخيرة من نزاع الموت) ، مع أنه لو ترك لنفسه ، أو عومل بصورة مختلفة ، فلربما يبل من مرضه ويسترد عافيته . وعندئذ ووفقاً لتعاليم دينهم فانهم لا يستطيعون أن يعتقدوا بأن المتوفى الراحل سعيد ، حتى يواري التراب جسمه ، بعد أن يغسلوا الجسم وهو لا يزال بعد دافئاً ، وأن أعظم تعزية يمكن أن يحصل عليها

---

(١) لا زالت في بعض المناطق من ليبيا تقاليد ثلاثة في معالجة الامراض وشفائها وهي: الكي والحجامة ولعقة من العسل .

أصدقاء الرجل المريض أن ينظروا اليه باسماً خلال القيام بهذه العملية ، لأنهم يعتبرون تلك الابتسامة دليلا على القبول والرضى والاستحسان من المتوفى الراحل لما هم يقومون به . ولا يظنون بأن مثل ذلك المظهر يعني أن المريض دخل دور النقاهة بفعل غسل جسم الشخص السيء الطالع ، وتعريضه للهواء البارد قبل أن تفارقه الحياة فراقاً أبدياً .

تبين هذه الروايات الحالات المتكررة التي تحدث في هذه البلاد لاولئك الناس اللذين يدفنون وهم أحياء : يقول كثير من البربر بأن ثلث الناس يفقدون حياتهم بهذه الطريقة .

فقد تم دفن تاجر ، توفي هنا قبل مدة قصيرة في أقل من ساعتين ظنوا بأنه قد فارق الحياة ، وفي مساء نفس اليوم كان بعض الناس مارين بالمقبرة فسمعوا صراخاً مرعباً ، فركضوا مسرعين إلى المدينة ، ينقلون إلى الناس ما سمعوا ، ولما كان هذا الرجل المدعو (بيو) آخر من دفن في ذلك اليوم ، فقد ذهب اصدقاؤه من الفجر الباكر لينظروا ما يجري داخل القبر ، ففتحوه ، فوجدوه جالساً منتصباً ، ممزقاً كل ما عليه من كفن ، ولكنه كان مغمياً عليه من الاختناق .

عندما يهيئون جثمان المتوفي للدفن ويوارونه التراب ، فان أولئك الذين تساعدهم حالتهم يملأون أذني المتوفى ، و فتحتي أنفه ، وجفنيه بكمية من الكافور ، وأغلى أصناف التوابل التي يمكنهم الحصول عليها ، ويحرقون كمية كبيرة من الأعشاب العطرية تحت الالواح الخشبية التي يغسل عليها جسم المتوفى . ويلبسون المتوفى أجمل ما لديه من ثياب ، ويضعون عليه كل ما عنده من الذهب والمجوهرات التي يمكنهم الاستغناء عنها .

أما الفتاة الباكر العذراء فتلبس ثياب العرس . وتضع حليها وجواهرها وأساورها بمعصميها وخلخالها في قدميها ، وحاجباها ملونان ، وقد أزيل ما على جسمها من شعر لتبدو نظيفة ، ثم يلف جسمها بقطعة جديدة ولطيفة من الكتان الأبيض المستورد والمبارك من مكة ، أما اليهوديات الفقيرات فلا بد وأن

يشتغلن ليل نهار حتى يجمعن المال الكافي لشراء قطعة من الكتان تبقى عندهن حتى تظهر الحاجة اليها بعد وفاتهن والاعداد لدفنهن .

فان كان المتوفى امرأة ؛ يغطى النعش بأفخم ما لديها من صدرية مصنوعة من الدانتيله المخرمة ، وان كان رجلا ؛ يغطى بقفطان قصير من قماش منسوج بالذهب والفضة ، وتوضع على رأس النعش الرجل عمامة مصنوعة من أفخم القماش وأغلاه ، يتناسب حجمها مع منزلة المتوفى والطبقة التي ينتمي اليها . تشير العمائم لاولئك المختصين بها ؛ بكل وضوح إلى تحديد هويات الاشخاص الذين يلبسونها . تعرف الرتب العسكرية وتميز حسب أصنافها المختلفة كالمدفعية والبحرية ؛ وتحدد الدرجات المختلفة لرجال الدين والأمراء من الوالي الباشا بحجم العمامة وطريقة لفها وشكلها وطراز وضعها ، فالعمامة التي يلبسها حاج تختلف عن العمائم الأخرى والعمامة الخضراء لا يلبسها غير شريف مكـــة . يزداد حجم العمامة اذن بعلو منزلة صاحبها ورفعة طبقته ؛ سواء كان ينتمي إلى الجيش أو البحرية أو كان من رجال الدين . فأنه يعرف بطيات عمامته .

وعلى رأس نعش المرأة تربط بدلا من العمامة ربطة من الورد النضر ، اذا كان بالامكان الحصول على الورود الطرية النضرة ؛ والا فشدة من الورد الاصطناعي .

يحمل النعش في العادة من قبل الاقرباء المقربين ، الذين يتقدم اليهم ، وهم في طريقهم إلى المقبرة ، في كل لحظة صديق أو قريب أو تـــابع للاسرة ؛ بتعازيهم ، ويحرص كل فرد حرصاً شديداً على تقديم تلك التعازي إلى أقرباء الراحل . ويتحول النعش باستمرار محمولاً من كتف إلى آخر ، حتى يصل إلى المقبرة مهددا في كل لحظة بالسقوط .

حين يحمل نعش فتاة باكر من المنزل إلى المقبرة ، فان النساء اللواتي يمشين خلف النعش يولولن ويندبن . وفي مثل هذه المناسبة يؤجر عدد مـــن النادبات القوالات اللواتي يستثرن العواطف ؛ ولمناسبات أخرى كذلك ، في الأعياد وأفراح الزواج . ويتطير الناس ويتشاءمون من دفن أية امرأة بدون

نادبات ، لأن الفتاة الباكر لم يكتب لها الحياة لتشهد حفلات زفافها ، وتسمع الغناء ، فلأول مرة تستطيع أن تسمع بنفسها ، عندئذ تحفر حفرة أكبر بقليل جداً من حجم الجسم ، وتبيض من الداخل بمركب من الكلس ، الذي يصنعونه في وقت قصير جداً نظيفاً يشبه الصيني . يخرج الجثمان من النعش ويوضع في القبر ، فيصلى عليه . ويرافق أحد الأئمة النعش من المنزل حتى القبر . واذا صادف دفن الجثمان وقت الظهر ، فانهم يوقفون موكب التشييع في أكبر المساجد ليصلوا عليه ، بعد أن يوارى الجسم بالتراب تغطى الحفرة بألواح من الخشب الأبيض للحيلولة دون سقوط الرمال فيه .

تؤلف الالواح الخشبية التي تصنع منها التوابيت تجارة كبرى من البندقية إلى هذه البلاد . يدفن الموتى بالقرب من سطح الأرض جداً ، وهو أمر يلفت النظر لغرابته ، فهم يعلمون بأن اعداداً كبيرة من الكلاب السائبة تأتي من الريف على شكل قطعان كل ليلة تنبش قبور اصدقائهم الراحلين ، ومع ذلك لا يوجد شعب آخر مثلهم يحافظ على موتاه ؛ ولا دين مثل دينهم يولي الموتى احتراماً وقدسية ، وتقام على قبور الوجهاء والاشراف الواح حجرية نقشت عليها الأسماء والآيات القرآنية . من التقاليد المألوفة في هذه البلاد أن تزار القبور كثيراً ، التي تضم رفات أصدقاء عزيزين ، في الغالب ما تقوم المرأة بهذه الزيارة ، وتكون عادة في أيام الجمعة ، وهي أيام العطلة بالنسبة للمسلمين (١) حيث يعتقدون بأن الموتى في قبورهم خلال ذلك اليوم يكونون في اضطراب وهياج عام . فيستعد كل واحد لزيارة اقربائه أو اصدقائه في القبور القريبة منهم ، وهذه الفكرة الغريبة هي أحد الاسباب التي يعلقون أهمية كبرى على ملابس المتوفى ، وكما يقولون (بينما هم يخفون هذه الفكرة) أي شيء يعادل سخط وغضب صديق متوفي ، يجد نفسه في اجتماع كبير

(١) يعلن الناشر بقوله : ليست المؤلفة دقيقة في قولها ـ لان عطلة المسلمين يوم الجمعة وليست يوم السبت ـ (الناشر) الا أن المؤلفة قالت بصريح العبارة انه يوم الجمعة هو يوم السبت المحمدي ـ واستعملت هنا (السبت) أي يوم الراحة .

يرتدي ثياباً غير لائقة بسبب اهمال اقربائه المقربين حين وافاه الأجل المحتوم ؟.

تبيض القبور عادة بالكلس ، ويحافظ عليها بالترميم المستمر ، وحتى أكثر النساء بؤساً وشقاء فانهن يبذلن قصارى جهودهن للتمسك بتلك التقاليد ، حتى ولو كان على حساب قوتهن اليومي .

حتى المرأة اليهودية تذهب بنفسها لشراء سلة (تدعى هنا قفة) من الكلس لتزين وتبيض قبر أحد أقربائها ، الذي فقدته وتزرع الزهور اليانعة حولـــه ، تنظف الأرض بكل عناية من كل شيء ترى من الضروري ازالته وقلعـــه .

أما قبور العظماء فأنها تتميز ببناء قبة صغيرة تقام على قبره ، تكون موضع عناية وصيانة وترميم مستمر ، ويجهز القبر يومياً بأغلى الزهور والورود التي توضع في مزهريات من الصيني طول حياة أي قريب له ، وتكون رعاية القبر فوق ما يتصوره الانسان .

يوجد هنا قبر يرجع إلى أسرة احد البكات ، مشمول بأعلى وسائل الصيانة والوقاية في مقبرة لا تبعد كثيراً عن المدينة . المصابيح تتلألأ أنوارها دائماً ، وعدد كبير من ربطات الياسمين العربي النضرة اللطيفة مشدودة بحبل رقيق من خوص شجرة البلح المعلقة في حبال الزينة حول القبر كله . تفتح هـــذه القبة الصغيرة من أربعة أركانها ، وتعلوه أقواس تمتد من فوقه حتى الأرض ، مغلوق بقضبان من حديد ، المزخرفة والمزينة تزييناً جميلا .

يثير مظهر الزهور النضرة الزاهيـــة المختلفة الألوان والمنظمة بذوق ، وعبيرها العطر الذي يفوح منها ، ثم نظافة المكان ، وقدسيته ، وما يبعثه من سرور في القلب ، في مثل تلك اللحظات ، انطباعاً عميقاً في الخيال . هذا هو القبر الوحيد (ما عدا قبور الاسرة الحاكمة في المسجد الكبير في المدينة) الذي هو موضع عناية وصيانة .

في اللحظة التي تحدث وفاة في الاسرة : يبدأ الصراخ والعويل المجلجل ، ويكثر النحيب والبكاء ، ويردد الاقرباء والأصدقاء العويل في منازلهم ، فيسمع

الصراخ على مسافة بعيدة ؛ يدعو كل امرأة من الاقرباء والاصدقاء أو من أتباع الاسرة ، فيجتمعن في منزل الاسرة يصرخن ويعولن على الرأس ويندبن مع أقرباء المتوفي . ومما يسترعي النظر ، أن يشهد الانسان بهلع وفزع كبير الارملة الحزينة ، أو الأم الثكلى ، قد تولاها الحزن العميق ، وهي بين الحياة والموت ألماً وأسى على فقيدها ، مضطرة وفقاً لتقاليد بلادها أن تستقبل القادمات من المعزيات اللواتي لا يقل عددهن عن مائة امرأة جئن يشاطرنها الحزن، يندبن ويعزين . فتأخذ كل واحدة منهن الأرملة البائسة أو الأم الثكلى إلى ذراعيها ، وتضع رأسها على كتفها ، فتصرخ بدون انقطاع لدقائق عديدة ، حتى تخور قواها ، وترتجف قدماها فيتولى المرأة المنكودة الحظ ، من كثرة الزعيق والولولة ، وندب سوء طالعها ، فتسقط فاقدة الشعور من يديها على الأرض !

تؤجر الأسرة عدداً من النساء النادبات القوالات اللواتي يقمن بضجة مفزعة مخيفة حول النعش الموضوع في وسط الحوش ، وعليه تلطم النساء على صدورهن ويضربن خدودهن ويخدشنها حتى يدمينها ، فيبدين كما لو كن مدميات بمبضع في القبور ، وبعد الانتهاء من هذه الطقوس يضطجعن على نوع من الطباشير الابيض لدمل الجروح ووقف نزف الدم .

هؤلاء النسوة اللواتي يؤجرن بغض النظر عن المناسبة في المآتم وحفلات الزواج والاعياد وفي المناسبتين الاخيرتين يغنين الاغاني ؛ ويرتجلن الشعر بديهاً ، وتسمع اصواتهن على بعد نصف ميل . أما البدويات فيختلفن عن الطرابلسيات في اقامة المآتم على الموتى : فهن لا يصرخن ولا يولولن كثيراً عليهم ولكنهن يرتجلن الشعر بديهاً على الراحل ، وينشدنه بطريقة النواح ، وترقص النسوة الأخريات من الاقارب رقصاً بطيئاً في دائرة حوله .

ومن التقاليد المتبعة في هذه البلاد أن يوزع الاغنياء الموسرون في مساء يوم دفن المتوفى الخيرات على روحه ، من الطعام على الفقراء ، الذين يحضرون خصيصاً ليأخذ كل واحد منهم نصيبه ، يؤلف هؤلاء بعض الاحيان حشوداً كبيرة ، ويحدثون هرجاً وضجة على أبواب المنزل ؛ ويدعى ذلك بعشاء القبر .

أتمنى أن تعوض غرابة هذه التقاليد ودهشتها ، التي شهدتها أنا بنفسي ، عن رسالتي الطويلة .

٢٠ يوليو ١٧٨٥

تعيين الكولوغلين · دفن الموتى في مقبرة اليهود · انتشار الجنون ·

حدث في بداية هذا الشهر ، نتيجة لآثار وباء الطاعون وما سببه من تدمير وتخريب وقائع اتسمت بأكثر هولاً وبشاعة ، فبدل من النعوش البراقة الألوان ، وموكب تشييع مؤلف من الأئمة والأصدقاء ، تخيم عليه الكآبة والحزن ، تربط أجسام الموتى ، كل خمسة أو ستة منها ، ببعض ، وتحمل على حيوان ، يركض بهم مسرعاً إلى المقبرة !

تمّ تعيين عدد من الجنود (الكولوغلية) (١) يجوبون شوارع المدينة ، يزيلون منها أجسام الموتى ، وينظفونها من الجثث الملقاة حولها وبينما هم سائرون سمعوا امرأة تعاني حشرجة الموت ، فأمسك بها (الكولوغلية) ولا يزال بريق الحياة يتلألأ في عينيها ، فمدت تلك المرأة البائسة يدها المرتجفة الخائفة بعد عناء كبير ، وقاومت أولئك القساة المزعجين الذين أقلقوا عليها اللحظات الأخيرة من حياتها ، ملتمسة ومتضرعة أن يصبروا عليها ويمهلوها حتى يعودوا ثانية .

---

(١) الكول أو غلية : طبقة اجتماعية جديدة ظهرت في عهد (درغوت باشا) ١٥٥٦ م عندما حضر الى طرابلس جلب معه عدة الاف من جند الانكشارية (أو العساكر النيجيرية) وباقامة هؤلاء انجند بين الاهالي ومصاهرتهم لهم تكونت الطبقة التي اطلق عليها اسم الكول أوغلية ، ولقد كان لهذه الطبقة أثر واضح في تاريخ البلاد من حيث التكوين الاجتماعي ومن حيث التنظيم الاداري · (عن كتاب رود لفوميكاكي ـ طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي ـ القاهرة ـ معهد الدراسات العربية العالية ـ ١٩٦١ ، ترجمة طه فوزي ص ٧) ـ المترجم · ـ راجع ـ عمر بن اسماعيل ـ الاسرة القرمانلية (ص ٢٤) ·

لقد أميط اللثام الآن ، من حسن الحظ ، عن حالة ، تزيد وباء الطاعون شراسة وتضيف إلى فساد الهواء خبثاً ؛ فعندما ألغى قائد اليهود أو حاكمهم الضريبة الإضافية على دفن الموتى في المقابر وقدرها عشرون باتاك (أو خمسة باونات) ليخفف ذلك العبء الثقيل عن عاتق فقراء الناس لدفن موتاهم ، أقدم عدد كبير منهم على دفن الموتى في مقبرة اليهود تخلصاً من تلك الضريبة . اضطر هؤلاء الناس إلى حفر قبور في وسط منازلهم لدفن الموتى ليلاً فقط ، خشية أن يكشف أمرهم ، فأصبحت روائح الموتى الكريهة لا تطاق من شدة نتانتها كما لو كانت تفشي سر ما قاموا به ، وتسهم في موت عدد من الناس بعد ذلك التدبير المرعب .

تجمع عدد كبير من الفقراء الذين استحوذ عليهم الفقر الأسود ، وليس لديهم أقرباء أو أصدقاء يندبونهم ويرثون لحالهم ؛ ويدفنونهم ، حول منازل القناصل ، وماتوا تحت جدرانها وطرحت جثث أموات كثيرة من قبل الباقين من أصدقائهم ، ولم ترفع تلك الجثث إلا بشق الأنفس وبذل التكاليف الباهظة .

استمر الجنون ، وانتشر فقدان الرشد ، حتّى اللحظة الأخيرة ، بين أولئك الذين أصابهم وباء الطاعون . فحدث أن هرب أحد العبيد البؤساء الفقراء وهو في حالة هذيان وجنون ، راكضاً من القلعة إلى المدينة وقبل أن يستطيع الناس منعه القى بنفسه من على الشرفة ، فتحطم وتمزق إرباً إرباً : عدد كبير من هؤلاء البؤساء ، أصيبوا بنفس الحالة المزعجة وشوهدوا في أجزاء مختلفة من المدينة ، خيم على القلعة منظر يكشف عن الدمار والخراب ويعبر أكثر من أي جزء آخر من المدينة عن الكآبة والحزن ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى العدد الهائل الذي تضمهم اسوار القلعة . مات كل كبار موظفي الدولة تقريباً . فقد (البك) ولدين لطيفين . أعلنت كافة القنصليات الحداد على الإبن الأكبر فنكست الأعلام إلى نصف صواريها ، واستمرت السفن في الميناء باطلاق المدافع الصغيرة حتّى صلاة العصر بعد دفن الجثمان ، فرفعت الأعلام ، وأطلقت كل سفينة إحدى وعشرين طلقة .

قضى هذا الوباء المرعب في الأسابيع الستة الأخيرة على خمسي البربر ونصف اليهود وتسعة أعشار النصارى ، الذين لم يستطيعوا أن يوفروا الأسباب الضرورية لاحكام الحجر الصحي ولكن عنف العدوى قد تضاءل كثيراً ، حيث لم يمت خلال الأيام القليلة الماضية غير سبعة أو ثمانية أشخاص في اليوم ، ونحن ، إذن ، نخدع أنفسنا بأن وباء الطاعون سينتهي تقريباً .

بالرغم من هذا التغيير السعيد ، فان القنصليات ليست مفتوحة بعد ، أما أولئك الذين تراخوا وأهملوا في اتخاذ تدابير الحجر الصحي المحكم قد دفعوا الثمن غالياً نتيجة لذلك الاهمال . بالرعب الذي استحوذ على الأسرة من جراء إصابة الخدم بوباء الطاعون وموت البعض منهم (١)

١٠ أغسطس ١٧٨٥

وصول اسطول القبطان باشا الى طرابلس .

لم يكد هياجنا يبدأ بالهدوء النسبي القليل نتيجة لانخفاض شدة وطأة وباء الطاعون حتى عاد ثانية بظهور قسم من أسطول (قبطان باشا) في الميناء الذي أحدث موجة من الذعر والخوف الشامل . فكانت سفنه الحربية وطراداته مجهزة بأكثر الجنود والملاحين تهوراً وقساوة ، فلا يختلف ضباطهم عن رؤساء العصابات وقطاع الطرق إلا قليلا . و (قبطان باشا) (١) معروف بعدائه الصريح لباشا طرابلس . لقد أصبحت المدينة وهي في حالتها الرهيبة ، في الوقت الحاضر ، كلياً تحت راحته ، متخذاً أي ذريعة أو ادعاء كاذب ، لازعاج الباشا واتلاف المدينة وارهابها . فأرسل قارب ومعه مراسل من القلعة إلى القائد

---

(١) يذكر Féreaud بانه في ثلاثة أيام متعاقبة في شهر يونيو ١٧٨٥ توفيت الارسالية الكاثوليكية كلها من وباء الطاعون ، يقدر حوالي ٢٧٫٠٠٠ شخصا ماتوا من وباء الطاعون في المنطقة كلها .

(٢) قبطان باشا هو قائد الاسطول العثماني .

التركي ، إلا أنه لم ينطق بشيء آخر غير قوله إنه ينتظر بعض السفن الحربية التركية في كل ساعة لتلتحق به ورفعت الأعلام النصرانية وكذلك البربرية تحية للسلطان التركي ، ولكن الباشا أعطى أوامره بعدم اطلاق نيران المدافع تحية له ، وفي اليوم الثاني من إرساء السفن أوفد الأتراك مراسلاً إلى الساحل ومعه رسالة إلى الباشا ، تعلمه بأنهم جاءوا بحثاً عن قرصان لجأ إلى الميناء . ونتيجة لهذه الرسالة أصدر الباشا أمره باطلاق نيران المدفعية تحية لهم ، ورجا القنصليات أن تحيي السفن التركية بنفس التحية .

لم يرد الأتراك بعد هذه التحية العامة ، بغير أربع طلقات . يطلق الأتراك دائماً عدداً مساوياً من الطلقات ، أما الطراد الذي دخل الميناء قبلهم دل على أن ربانه أكثر القراصنة فظاعة وشناعة ، كان مصدراً لاقلاق هذه البحار وازعاجها هو ومائتان من اللصوص الأرناؤوط . فمن الأعمال الفظيعة التي ارتكبوها أنهم قتلوا القسم الأعظم من الملاحين والمسافرين على سفينة للبنادقة ، ولا زالوا يحتفظون بالقسم الباقي من أولئك الناس البؤساء السيئي الطالع على ظهر السفينة .

لم يبق أحياء غير أربعة اشخاص من البنادقة : الذين أعيدوا إلى قنصل البندقية وقال إن ربان السفينة توفي مثقلاً بجراحه من مقاومة البنادقة ، ولكن هذا التقرير قد كشف عنه لغرض اسدال الستار عليه وحجبه عن الأنظار ، فاستطاع الهروب والإفلات من الأتراك ورجال الباشا الذين يبحثون عنه ، فوصل إلى المسجد القائم على الرمال والذي يبعد بمسافة ميلين عن هذه المدينة ، حيث يوجد الآن .

ينوي (قبطان باشا) أن يشكو باشا طرابلس لدى السلطان التركي ، لأنه آوى وألجأ ذلك القرصان الوغد(١). إلا أن كافة القناصل بعثوا بشهادات تؤيد الباشا عند السلطان التركي بكل ما يتعلق بتلك الحادثة .

وبالرغم من وباء الطاعون ، فقد استقبل شيخ البلد في منازل النصارى لغرض الحصول على تلك الشهادات .

---

(١) الملجأ هو مقام السيد المدعو (الصيد) احد الاولياء الذي سبقت الاشارة اليه .

عندما أبحر الأتراك أطلقت المدفعية نيرانها تحية لهم بثلاث وثلاثين طلقة من المدينة ، وأجابوا بست طلقات فقط ، ولم تكن سفينة انجليزية راسية في الميناء في هذا الوقت .

لا يزال البنادقة في حرب مع تونس ، التي قدمت لهم أربعين ألف (باتاك) (حوالي عشرة آلاف باوند) لعقد صلح ، ولكنهم سوف لا يقبلون ذلك العرض .

٣٠ أغسطس ١٧٨٥

بدوية تجري عملية جراحية لازالة الورم الخبيث .

حدث أخيراً بعض الحالات المدهشة التي تثير العجب والاستغراب ؛ فقد أصيب عدد من الناس بوباء الطاعون ، فأبلوا منه وشفوا ، فأصيبوا به ثانية وثالثة حتى سبعاً أو ثماني مرات بالتعاقب ؛ ولكنهم ماتوا منه في الأخير ، أنقذ عدد من هؤلاء الناس الذين أصيبوا بوباء الطاعون بمساعدة امرأة بربرية ، استمرت منذ زمن طويل بفتح أورام الوباء ، فتعافى مرضاها بعدئذ ؛ ولم يظن أحد بأن هذه الوسيلة ؛ ولو أنها أثبتت نجاحاً مؤخراً ، يمكن أن يكون لها أي أثر في قمع استشراء ذلك الوباء . فقدت تلك المرأة أولاً كل أفراد أسرتها وأقربائها ، في الخراب والدمار الذي أحدثه وباء الطاعون .

تسلمنا رسائل من حاج عبد الرحمن ، السفير البربري ، وهو في طريقه إلى إنجلترا. لقد أمضى ، كما كان من المتوقع ، حجراً صحياً طويل الأمد ، في مالطة ، لمدة مائة وأربعة أيام ، وقد أصيب أحد سكرتيريه بالطاعون . أما عن ذلك الطبيب الذي هرب آنذاك ، خوفاً من الإصابة بوباء الطاعون ، والذي سبق وأن أخبرتك عن سفره في رسالتي المؤرخة ٢٨ يونيو ؛ فإنه شرع في العمل بمستشفى الأوبئة في مالطة ؛ يقوم باسعاف المرضى ونجدتهم الأمر الذي يزيد في شهرته ، ويسهم في مستقبله وحظه . لقد اتبع طريقة الطبيبة البدوية

إلى جانب العمليات الأخرى الفريدة ، بفتح الأورام وخراجات الطاعون على بعد ثمانية أو عشرة أقدام من المصاب ، وذلك بربط مبضع في نهاية عصا مستعملاً ناظوراً مكبراً . لقد أكسبته هذه العملية شهرة واسعة في مالطة .

٢٨ أكتوبر ١٧٨٥

قصة مريومة .

حددت بعض الأوقات لفتح القنصليات . وهو أمر مرغوب فيه جداً ، ولكنه قد يكون أكثرها سوءاً في اللحظة الحاضرة ، لأن وباء الطاعون لا يزال متفشياً في داخل المدينة وخارجها ، ولايزال السبب مجهولاً . خرج قبل بضعة أيام نصراني فارساً إلى سوق الجمعة الذي يقع على بعد ميلين من المدينة (١) ومنذ ذلك الحين أصيب جواده بثلاثة أورام تشبه أورام الطاعون ، ومن المتوقع أن يموت .

يبدو بأن قطعان المواشي من الأبقار والأغنام والماعز قد أصيبت في بداية هذا الوباء المرعب قبل الكائنات البشرية .

وقعت أمس حادثة مرعبة تثير المشاعر ، تتعلق بجارية سوداء بائسة ، اشتراها يهودي وبعد الإنتهاء من عقد الصفقة ، جيء بالبائسة الفقيرة إلى منزل الرجل الذي اشتراها مساء ، ولكنه ظن بأنها مصابة بوباء الطاعون ، فسرعان ما أرجعت وأعيدت إلى سيدها الأول ، الذي أغلق بدوره باب منزله بسرعة خشية من السبب نفسه . رفض التاجران قبولها خوفاً من أن يفقدا ما دفعاه من مال بموتها . ظلت البائسة الحزينة حائرة تركض في الشوارع مذهولة ، يدفعها كل واحد يعرف بأنها مصابة ، تطرق الأبواب ولا من مجيب ، حتى وضعت العناية الإلهية نهاية لشقائها وبؤسها ، عندما سقطت بالقرب من منزل بربري ، لم يشأ أن يزعج لحظاتها الأخيرة ، بالرغم من أنه كان خائفاً وجلاً

(١) اصبح سوق الجمعة الان ضاحية من ضواحي مدينة طرابلس .

جداً ، فقد تفقدها عدة مرات عندما كان يمر في الشوارع بسرعة إلى منزله ، ليخفف من مصابها ، بينما فشلت الشقية الفقيرة السيئة الحظ أن تدخل في أي مكان آخر .

إن وقوع بعض الأحداث الغريبة جداً التي أصابت ذلك البربري المشار إليه أعلاه ، وهو في الساعات الأخيرة من حياته ، أمام عيني ، ستفيدك أكثر في تصوير وتحديد آداب وسلوك هذا الجزء من العالم . إني متأسفة لاظهار إسم البرابرة مطبقاً بعض الأحيان لوصف الأعمال التي يقوم بها الوطنيون .

كان هذا الرجل حاجاً يدعى أحمد ، وكان ترجماناً (ضابط في الحرس التابع للقنصل الإنجليزي) الذي رفض أن يدخل الحجر الصحي في القنصلية خلال انتشار وباء الطاعون معتذراً بوجود أسرته ، كان متزوجاً لسيدة جميلة اسمها (مريومة) ولم يحضر منزله منذ أيام عديدة قبل أن يصاب بوباء الطاعون القاتل . وخلال المرحلة الأخيرة منه كانت زوجته الحزينة ، تجلس بجوار سريره وكانت تعلل نفسها بأمل ضعيف من شفائه وتلاحظه وترقبه وهو يغط في نوم ناعم هادىء لقد أضناها التعب ، وسلب لبها الأمل الموهوم الكاذب الذي تعلقت به ، وتخيلت حاج أحمد معافى . فاستسلمت (مريومة) لنوم عميق عندما أقلقتها يد رجل يفتح جردها ، ويسدد إلى قلبها خنجراً ، بينما يحاول في اليد الأخرى أن ينتزع بعض المفاتيح والأوراق التي تخص زوجها ، التي تحتفظ بها في صدرها .

زاغت وابتعدت فأفلتت من قبضة يده ، فشاهدت المجرم هو سلفها الذي أخبره المراسلون بأن حاج أحمد قد قضى نحبه الآن ، فتصور أن الفرصة سانحة للقيام بمؤامرته للقضاء على الأسرة كلها ، في الوقت الذي تبعد مخاوف وباء الطاعون وأهواله الأقرباء والأصدقاء من منزل المريض ، فقد توفيت الطفلة الوحيدة لحاج أحمد ، وابنة جميلة يبلغ عمرها سبع سنوات ، صباح ذلك اليوم ، ولا تزال بعد غير مدفونة .

فعندما دخل حجرة أخيه ، ظنه متوفى : ورأى (مريومة) غاطة في السرير ،

فافترض بأنها مغمي عليها بالقرب من جثة زوجها . أيقظت (مريومة) عندما شعرت باقترابه البشع الفظ ، بصراخها الشديد حـــاج احمد ، عندما شهدهـــا مذعورة حزينة قفز فوراً من السرير فوجد البائس الذي خاب أمله ، أن أخاه لم يمت بعد ، ولكنه نهض من فراشه أقوى عشرة أضعاف مما كان عليه، فانسحب خائفاً إلى السقيفة ، حيث كانت أمه واخته تنتظران ومن كرم الأخلاق ، كما يؤمل منه ، بأنه لا يضمر سوءاً لأخيه . اصطحبوا القاتل من المنزل الريفي الذي يقيمون به إلى المدينة ، والذي ترجع ملكيته إلى حاج أحمد .

كان لهذا الحادث المرعب أثر سيء ، بالإضافة إلى شدة وطأة وباء الطاعون الذي أفقد في الحال حاج أحمد شعوره ، فهرب منهم جميعاً ، وانطلق من حجرته هائماً على وجهه في الشارع . كان منظره في تلك اللحظة ، بشعاً ورهيباً حقاً ، وقف حاج أحمد بملابس النوم بين أولئك الناس الذين أحاطوا به ، كأنه وحش مجنون ، وبربري هائج ، بيده خنجر ، يطرد كل من يحاول الاقتراب منه .

ركعت زوجته على قدميه ، وجردها مزاخ ، ممزق ، وأنتزعت الزخرفة والحلى القليلة التي كانت على جسمها ، تجفف دموعها بشعرها ، تتوسل إلى زوجها بكل لطف ومودة أن يعود إلى فراشه ، ويستأنف حياته ليحميها من أخيه الشقي . إلا أنه كان فاقد الشعور ، لم يسمع ولم ينصت لتوسلاتها وتضرعاتها فانطلق إلى منزله الواقع خارج المدينة ، حتى التحقت به أمه وأخته وأخوه .

حذرت زوجته كل واحد يحاول أن يضع يديه عليه خوفاً من أن يزيد من آلامه وأوجاعه وأصرت على عدم وجوب لمسه ، وسارت خلفه بقلق صامت مع أولئك الذين رغبوا في مرافقتها بعد أن ساروا مسافة عاد حاج أحمد هاديء الطبع مع (مريومة) إلى منزله ، حيث وافته منيته بعد قليل ، تاركاً أمتعته وممتلكاته في يدي القنصل الإنجليزي ، وبذلك أنقذت أرملته السيئة الطالع من جشع أسرة سلفها القاسية .

٣١ أكتوبر ١٧٨٥

الصلح الاسباني مع دويلات بلاد البيرو · النصارى يتجولون محاطين بالحراس خوفا من التلوث بوبـاء الطاعون ·

غادر أسطول اسباني هذا المكان منذ برهة من الزمن ، جاءوا إلى هذه المدينة بهدايا احتفالاً بالصلح الذي تم عقده قريباً مع دول بلاد البربر ، طرابلس وتونس والجزائر ، وهو أول صلح عقدوه مع هذا الجزء من العالم . رأيت من بين المجوهرات والحلى ، التي أرسلت معهم ، اليوم طوقين : أحدهما أزرق اللون مرصع بالبرلانتي ، هدية للأميرة الصغيرة ، تعادل قيمته مائتين من الجنيهات ، والحلقة الثانية الماسة واحدة للباشا ، تساوي قيمتها خمسمائة جنيه ، يقول الإسبان بأنهم دفعوا ثمناً غالياً لعقد الصلح بلغ ثلاثة ملايين من الدولارات الفضة أو حوالي ٦٠,٠٠٠ جنيه .

لا يزال البنادقة مستمرين في الحرب مع تونس ، لأنهم لا يقدمون ما تطلب تلك الدولة لإيقاف الاعتداءات .

ستبدو لك هذه الجملة مثاراً للاستغراب والدهشة ، بعد أن أعلنت بأننا أقرب إلى المساجين المنعزلين عن بقية العالم . حيث يخرج القنصل البندقي في كثير من الأحيان وبذلك يقدم على مخاطرة كبيرة ، ولو أنه يأخذ كل حيطة ممكنة ،فيصحبه دائماً حارس ينحي الناس عن الطريق ويحول دون كل شخص. يريد الإقتراب منه . وهو ولا شك برهان على الإهتمام برعاية النصارى هنا ، إلا أنه من بين الدول البربرية الثلاث : طرابلس وتونس والجزائر ، تعتبر طرابلس أكثر تمدناً . أما في الدولتين الباقيتين ، وخاصة في الجزائر فليسوا مرتبطين ارتباطاً كافياً بالنصارى حتى يمنحوا تسامحاً كما هو موجود في طرابلس

أنا سعيدة حقاً فإنك لست غريباً مثلنا ، بحيث أن منظر صديق يقدم لنا يدخل إلى قلوبنا الطمأنينة لأنك لست مسجوناً ، موصدة الأبواب عليك ، كما نحن عليه الآن ، في وسط الوباء ، وفي محل كانت الحكومة والبلاد في حالة من

الذعر والرعب ، وتجعل كل واحد مشغول البال قلقاً متألماً ، لمثل تلك القصص التي يمكن الإعتماد عليها ، بينما القصص الكاذبة تنسجها باستمرار ، العقول ذات الخيال الخصيب .

من المريع حقاً كما يبدو . أن توجد بنفس الحجرة مع شخص شهد عدداً من ضحايا وباء الطاعون ، قضى عدد كبير منهم نحبه أمام سمعه وبصره . ومع ذلك فقد كان من الممكن أن يتجنب الخطر مع شيء من العناية الصحية . حين يقوم بزيارتنا إي شخص كان ، تتخذ عادة أعظم تدابير الوقاية والحذر ، فليس في غرفة الإستقبال من الكتان والحرير والسجاد وليس فيها من الأثاث غير الطاولات والكراسي المصنوعة من القش ، والأرض مفروشة بالحصران كذلك .

يقوم كل زائر بخدمة نفسه ، ولا يسمح بالدخول إلا بحضور سيد المنزل ، ولا يوجد خادم يقوم بخدمته أو يناوله كرسياً . ويخدم نفسه باعداد المرطبات ، التي جيء بها إلى المدخل أو مقابل الحجرة . أُتخذت كل هذه التدابير لتمنع أي خادم من الإقتراب سهواً من الشخص ، ويترك كل شيء لمسه الزائر سواء كان كرسياً جلس عليه ، أو أي شيء آخر بعد مغادرته عدة ساعات . إن مثل هذه الطهارة والنظافة في المحاجر الصحية تُعلم ويمكن وجودها كاملة فقط في المحاجر الصحية وحدها في (ليغورن) التي بناها الدوق العظيم ليوبولد الحاضر ، الذي تعتبر حمايته للتجارة وراحة سكان توسكانيا لا مثيل لها . كانت الإصلاحات والإضافات والتغييرات التي قام بها في مستشفيات الأوبئة إنقاذاً لأوروبا .

لنعد إلى أخطار الطاعون نجد أن ضمان السلامة في وسط هذه العدوى المروعة يتطلب معرفة دقيقة بنتائجها . شهد الكثيرون ما أحدث الوباء من تدمير وتحطيم ومع ذلك أخلدوا انفسهم في سياج من الأمن الكاذب ، بينما هناك عدد كبير ممن لم يشهد شيئاً من ذلك لم يصدق بوجود أية سلامة في البلاد . فمن الضروري حقاً أن تصبح ذا علم تام بالمواد المختلفة التي تمتص جزئيات ذلك الوباء القاتل لأجل أن تضمن السلامة من آثاره الوبيلة .

إن معظم تلك المواد معروف مثل القطن والصوف والكتان ، والتي تخفى بالشعر الذي عليها مثل القنب وحشيشة الدينار ، بينما تعتبر الذرة والشعير والفاكهة والخضروات واللحم من المواد غير القادرة على أخذ العدوى أو نقلها . توجد إلى جانب هذه المواد بعض الإضافات والإستثناءات : الخبز مثلاً ولو أنه سالم تماماً بعد خبزه قبل ساعات قليلة فهو خطر ، اذا أعطي حاراً أو دافئاً . أما الفاكهة مثل الخوخ أو أي نوع من الفاكهة الناعمة الملمس أو الخضراوات مثل اللوز المقشور معروفة بنقل وباء الطاعون .

تمّ نقل الوباء هذا من صديق إلى صديق آخر بشدة ورد يفوح منها العطر الكريم وتعتبر كل الروائح العطرية ناقلة لعدوى هذا الوباء المروع . وحيثما تطلب الأمر البدء بالحجر الصحي ، فلا يمكن التثبت منه وضبطه وتأمينه ، مهما تكن التدابير الوقائية والمحاذير ، إذا لم تقتل كل الحيوانات التي من الممكن أن تتحول سهواً وبدون أن تلاحظ من منزل إلى آخر ، وتعود ثانية مثل الحمام والقطط والطيور وما شابه ذلك .

٨ ديسمبر ١٧٨٥

فرار الناس من طرابلس · الصحارى تطهر القوافل من وباء الطاعون · سلوك احد الاولياء المرابطين ·

من العبث أن يرغب النصارى في إنهاء حجرهم الصحي الطويل ، فبالرغم من غلق منازلهم ستة أشهر ، فمن الأرجح أن يستمروا مدة أطول . منذ فترة قصيرة أشيع خبر وقوع بعض الوفيات ، ولكن في الأيام الخمسة الأخيرة ، ازداد عدد الوفيات من أربعة أشخاص إلى خمسة عشر شخصاً يومياً . ولو أن الطاعون ملازم باستمرار مدينة القسطنطينية ، وتنقل عدواه عادة من هناك إلى الشرق الأدنى إلا أن هذه المنطقة قد أفلتت منه في السبعين سنة الأخيرة حتّى الآن.

انتقل وباء الطاعون هذا في سنة ١٧٨٣ من القسطنطينية إلى القاهرة ، فكان كل يوم يخرج من أبواب المدينة ألف وخمسمائة جثة ، فكانت قساوة الوباء

شديدة وكثيراً ما كانت تؤدي إلى سقوط الناس صرعى بينما هم يمشون في الطرقات والشوارع ، حتى صدر أمر يمنع الرجل والمرأة أو الطفل من محاولة الخروج من منازلهم بدون أن تكون أسماؤهم وعناوين منازلهم مسجلة على ورقة تخاط بطرابيشهم .

لقد هرب عدد كبير من السكان ، السيئ الطالع ، فراراً من الموت إلى القرى المجاورة بالرغم من أن الوبـــاء ، يزحف بنفس العنف والشدة إلى الإسكندرية ، وبين الإسكندرية وهذه المنطقة نقل مستمر ، وظلت مدينة طرابلس في منجى من هجوم ذلك الوباء . فيجب أن نعتبر إذن أنفسنا تعساء لنشهد أهواله وشناعته في وقت قصير (لم يتجاوز العامين) كنا نعيش خلالها في هذه المدينة .

كانت الصحارى المحرقة التي تحيط بهذه البلاد قد دافعت عنها وحمتها بصورة عامة من اجتياح وباء الطاعون . بحيث أن القوافل التي تنطلق قاصدة هذه المدينة تطهر تماماً بفعل الحرارة الجافة اللافحة التي تحملها الرياح السوافي الهابة من الصحراء ، والتي تحدث عادة على طول الرمال التي تجتازها قبل أن تصل إلى مدينة طرابلس .

إن الشتاء هنا معتدل جداً ، وهذا ما يساعد على الاحتفاظ بوباء الطاعون ، الذي يختفي بالبرودة المتطرفة ، وبتأثير الجو الحار المحرق ، وعلى العكس من ذلك ففي القسطنطينية شتاء بارد قارص كاف لكسر شوكة الوباء إلى حد ما ، ولو أن الحرارة الرطبة التي تهب من الغابات والجبال المجاورة خلال فصل الصيف تساعد على انتشاره .

١٠ ديسمبر ١٧٨٥

طرق المرابطين · اهانة احد المرابطين لضابط من ضباط الباشا ·

لقد شاهدنا اليوم (١) منظراً مدهشاً وغريباً جداً في منزل بربري يتعلق برجل صالح من أوليائهم ، فللمسلمين عدد من الطرائق الدينية المتميزة من الأولياء الأتقياء. نتيجة للكارثة التي حلت بالبربر من الهجوم الثاني لوباء الطاعون فإن هؤلاء المرابطين يقدمون النصح والمشورة عادة ، ويقابلون النار هنا خلال هذه الفترة أكثر من الأيام السابقة . كان أحد المرابطين مدعواً من قبل أسرة بربرية منذ بضعة أيام ، قدم من مسافة أميال عديدة على ظهر جواده ، بواحد من أتباعه . كان رداء هذا المرابط يتألف من قميص أزرق اللون وبنطلون دون عمامة ، حافي القدمين ، طلب عند وصوله قليلاً من الماء ، ثم كسر مباشرة القدح الذي شرب منه . وقد فسروا هذا السلوك الغريب بقولهم إن القدح أصبح مطهراً ومقدساً بلمسه فلا يجوز للآخرين الذين هم أقل فضلاً أن يشربوا منه . عرضوا له ملابس سيد المنزل واحدة فواحدة . الذي كان غائباً ، وتوسلوا إلى المرابط أن يتحدث عنه ، فانسحب المرابط إلى حجرة ، سبق وأن دفن فيها أحد الأولياء الصالحين ، وعاد بكل قطعة على حدة يتحدث عنها . كان لمدة طويلة منهمكاً في العبادة والتنسك ، رجع بعدئذ بسرعة بحيث لم يكن من السهولة تمييز ملامح وجهه بسهولة ، واستمر في القيام بذلك حتى وقع على الأرض مغشياً عليه من شدة التعب والأعياء ، وفي مرات أخرى كان يغني ويضرب على الطبلة ضرباً جيداً ، وفي النهاية ، وبناء على ما تلزمه الطريقة الدينية من واجبات غسل أقدام أولئك الذين استضافوه قبل أن ينصرف (٢) .

---

(١) من المحتمل ان تكون قد شاهدت المرابط من سطح منزل القنصلية ·

(٢) من المألوف ان يقدم الناس له ملابسهم ، وبعد ان يتعبد طويلا يخبر اصحابها بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم - (المترجم) ·

تتألف عبادة طريقة أخرى من المرابطين الموجودة هنا من جرح أنفسهم ؛ والقيام بأعمال جنونية ، والمشي في الشوارع عراة الأجسام تقريباً ؛ أو الرقص رقصات دينية لساعات عديدة في غضونها يصرخون ويصيحون بدون انقطاع بأحد أسماء الله . أخيراً يرمون أنفسهم على الأرض يرغون ويزبدون من الفم ، يظهرون بحالة جنون ؛ وفي سكرات الموت . تسمى هذه الطريقة القادرية (١) ولهم زاوية بالقرب من بيرا .

توجد طريقة ثالثة من طرائق المرابطين ، وفي الغالب ما تشاهد هنا ؛ تسمى «الصياح» (٢) ذهب أحد أتباع هذه الطريقة إلى آخر سوق الجمعة الموجود خارج المدينة ، فكان مقلقاً ومزعجاً ، يدعو باشا طرابلس ورعيته لتقديم المؤن والأطعمة ، التي سرعان ما جمعت له في الحال بقدر ما يستطيع الناس . يتعهد جماعات هذه الطريقة لرؤسائهم بارسال تلك المؤن والأطعمة إلى زواياهم عندما يستأذنون بالخروج منها ، يتبنون تقاليد أبناء السبيل العتاة متخذين من عقيدتهم درعاً يقيهم . عندما تطأ أقدامهم أية مدينة أو سوق ، يتقدمون مباشرة إلى وسط المدينة ، فيحتلون مكاناً بارزاً ، ينادون بعنف وقوة طالبين المال والذرة والشعير واللحم ، أو الفاكهة ، بدون انقطاع ، حتى يجلب الناس ما يستطيعون جمعه .

أرسل أحد هؤلاء المرابطين رسالة عنيفة إلى القلعة ؛ ومن أجلها كان قد طلب إليه مغادرة المدينة ، عقوبة لإهانة ، تكلف إنساناً آخر ؛ لو تجرأ القيام بها ، حياته . وعندما غادر المدينة ؛ تنبأ المرابط ، بأن الباشا سيطعن بسكين في المجلس (أو الديوان) في حضوره الثاني لذلك المجلس. وبناء على هذه النبوءة لم يحضر الباشا المجلس ثانية ، إلا أنه يدعو المجلس في حجرة في القلعة تلائم وتصلح لغرض الإجتماع .

منذ مدة قصيرة ارتكب أحد هؤلاء الأولياء حماقة بحضور الباشا ، فقد

---

(١) القادرية طريقة سنية اوجدها عبد القادر الجيلاني ، الذي قبره في بغداد .

(٢) لا استطيع ان اتتبع جذور هذه الطريقة التي لا وجود لها بين ٣٢ طريقة معترفا بها

صفع أحد رؤساء الضباط صفعة عنيفة على وجهه لأنه تجاسر في الجهر باستنكار بعض ما قال وعدم قبوله ، وكان التوبيخ الوحيد الذي وجه لهذا المرابط ، إنذاره : لو كرر مثل هذه الإهانة فإنه سيمنع من دخول القصر .

١٨ ديسمبر ١٧٨٥

البارون هسلين يصل الى طرابلس للقيام باستكشافات .

وصل إلى طرابلس أمس البارون هسلين ، وهو نبيل الماني ، ليرى إذا كان ممكناً وعمليا الذهاب من هنا إلى فزان . ترك أخويه في تونس ، ونيتهم ، إذا كان بالإمكان ، الاستمرار بالسفر في هذا الدرب إلى ساحل غينيا . فإن نجحوا في ذلك فإنهم يستحقون بكل جدارة أن يكونوا أوائل الأوروبيين الذين على ما نتذكر يقطعون أفريقيا في هذا الإتجاه . الآن إن الحالة الراهنة لوباء الطاعون ، والمصاعب الأخرى تجعل مخطط البارون غير عملي في الوقت الحاضر ويبدو بأن كل شخص قد خاب أمله بالرأي القائل بعدم قدرته على القيام بهذه الرحلة المليئة بالأخطار .

يقال لو كان – فولني – قد تغلغل في مجاهل افريقيا كما سبق له أن تغلغل في آسيا لكان قد أمدنا ببيان كافٍ عن داخل القارة الأفريقية . يقول أولئك الذين يعرفون البلدان التي مربها – المسيو فولني – بأنه الكاتب الوحيد الذي قدم لنا وصفاً صحيحاً ودقيقاً عن ذلك الجزء من العالم .

٣١ ديسمبر ١٧٨٥

لم ينته وباء الطاعون بانتهاء السنة ، فقد كان شديد الوطأة ، قاسياً خلال هذا الشهر ، بل أن كل شدائد الوباء وأهواله الأخيرة تقريباً ظهرت إلى الوجود

في الوقت الحاضر . فأدى الوهم بزوال الوباء ، لسؤ الحظ ، إلى إهمال رؤساء البربر تدابير الوقاية البسيطة التي سبق وأن أخذوها في بداية المرض ، فكان سبباً في سقوط عدد عظيم من الطبقة العليا ضحايا للوباء السابق .

أصيب أمس اثنان من أبناء البك بوباء الطاعون ، وهما الآن على حافة الموت فقد أخذاً عدوى وباء الطاعون من طفلة سوداء صغيرة ، سمح لها باللعب معهما ، وكانت القلعة قد تم تنظيفها لعدة أسابيع ، ومن المنتظر ، أن تسقط في حالة مرعبة مخيفة بسبب كثرة عدد سكانها .

١٢ يناير ١٧٨٦

اليهود يرسلون الملابس الملوثة الى اوربا · المولد · تعصب يهودية · المماليك

أنا سجينة في وسط وباء متفاقم ، لذا فإن تمنياتك لنا بسنة جديدة سعيدة تترك في قلوبنا أثراً طيباً ولكن بالطبع إلى درجة محدودة . يبدو من الأرجح أن يعيد وباء الطاعون كل أهوال وشدائد السنة الماضية ولا أظن شخصاً واحداً مستعداً لمجابهة الهجوم الثاني الذي قد يشنه ذلك الوباء ، ولو أنهم أخبروا جميعاً بموعد انتهاء الوباء هنا ؛ إلا أن وباء جديداً أكثر ضراوة وشراسة يتكاثر ويتجمع في جبال غريان (١) الذي يمكن رؤيته بناظورنا ومنه الآن وصلتنا العدوى . لقد سبق وأن ذكرت بأن العرب يحفرون منازلهم في هذه الجبال حيث يخفون أنفسهم في جوف الأرض ، هربوا منذ مدة طويلة فراراً من وباء الطاعون ولكن عدواه قد وصلت إليهم ، وفي تلك القبور الخالية من الهواء التي يعيش فيها الناس فان وباء الطاعون يجد كل شيء يزيده ضراوة وفتكاً . فاضطر العرب على هجر تلك الأخبية خائفين وجلين ، محتشدين في المحلات المجاورة ، يحملون الفناء الجديد معهم . ونتيجة لهجرتهم المستمرة ساعة فساعة ، يزداد الوباء شدة

(١) غريان في جبل نفوسة .

وتفاقماً يوماً بعد يوم ، بل أن فتك الوباء وتدميره يتعاظمان لأن الناس يظنون بأن وباء الطاعون قد انتهى .

كنس وباء الطاعون موظفي دولة الباشا وكل قواده الممتازين مرتين ولم يترك منهم أحداً .

إن عودة ظهور هذا الوباء الخبيث جعلت البارون دي هسلين الذي كان هنا لبعض الوقت أن يقرر الكف عن عزمه للمضي في رحلته إلى أواسط البلاد . وفي غضون أيام قلائل سيغادرنا إلى أوروبا ، لأن حالة هذه المنطقة كلها تمنعه من القيام أبداً بالبحوث التي سبق وأن خططها .

وبقطع النظر عن الطاعون فإن القبائل العربية تجعل كل المنطقة المحيطةوعرةً لا يمكن اختراقها والمرور بها بالنسبة للأجانب الغرباء في الوقت الحاضر ، بسبب الأزمات المستحوذة على البلاد ، والحاجة القصوى لوحدة الأسرة الحاكمة.

وقعت مناوشات عديدة بين البربر والعرب بالقرب منا جداً ؛ بسبب (البك) الإبن الأكبر للباشا ، الذي أرسل في الإسبوع الأخير الفاً ومائتي رجل لجمع الأتاوات منهم ، ففقد الجيش الذي أرسله (البك) قائده ، الذي قطعه العرب إرباً إرباً ، ومع ذلك ، رجع الجيش منتصراً .

أما اليهود في الوقت الحاضر فإنهم منهمكون بشحن السفن بأسلاب وملابس أولئك الذين قضى عليهم وباء الطاعون، لغرض تصديرها إلى أوروبا ومصر ، لهذا من الضروري اتخاذ كافة تدابير الحيطة والوقاية في أوروبا ، لمنع وصول مثل تلك البضائع المهلكة .

غداً يصادف يوم عيد ميلاد النبي ، ويسمي البربر الليلة عيد المولد (١) ، فيولمون الولائم بهذه المناسبة ويقدمون (البازين) ، وهي عجينة يابسة مصنوعة من أحسن أنواع الدقيق على بخار اللحم ، مزخرفة بلحم الضأن المملح ، والمجففة في قطع صغيرة وزن الواحدة أونس (٢) أو أونسين والذي يعرف في

---

(١) المولود أو مولد النبي ، يقع في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الاول ، الشهر الثالث من السنة الهجرية .

(٢) الاونس يساوي (٢٨،٣٥) غراما (المترجم) .

أفريقيا باسم القديد .

يحتفل البربر الليلة بإقامة حفل ابتهاج كبير ؛ وإيقاد النيران والمصابيح للزينة ، في موكب يخترق شوارع المدينة ؛ يجمعون كل أطفال المنطقة للسير أمام المواكب يحملون الشموع المضيئة في أيديهم يغنون المدائح النبوية .

منائر المساجد تعلوها كلها الأنوار والأضواء بكثرة لتعوض عن الإهمال الذي شمل العيدين الأخيرين ، أي عاشوراء (١) أو أول يوم السنة الهجرية الجديدة وعيد الأضحى (٢) وقد مر العيدان دون أن يلفتا النظر بسبب ما أحدثه وباء الطاعون من أحزان وأهوال ، ومن المتوقع ، أن يزيد هذا الإجتماع ؛ بصورة مدهشة ، وبكل تأكيد ، حالة الخراب والدمار .

تظهر لك القصة التالية قوة العقيدة الدينية في يهودي ، فقد ذهب القائد أو حاكم اليهود إلى بقعة نائية تقع في الساحل ، وظل فترة من الزمن ؛ متمنياً أن يجد هذا المكان نظيفاً من وباء الطاعون عند عودته . قفل راجعاً أمس في حالة هو أقرب إلى الموت منها إلى الحياة ، يتضور جوعاً ، لأنه لم يذق طعم اللحم منذ أن غادر هذه المنطقة قبل بضعة أشهر ، للحاجة الماسة إلى وجود كاهن يهودي يذبح الحيوانات التي كان هذا القائد مجهزاً بها تجهيزاً وفيراً ، لأن الكاهن الذي اصطحبه معه توفي في الطريق .

اليوم حصل (البلك) على ألف (محبوب) (أكثر من ثلاثمائة جنيه) على حساب أخوين عربيين ، غادرا منذ أيام مضت بحراً أو الجهة البحرية ، توجه الأول إلى الإسكندرية وعاد الثاني إلى الجبال . فأصيب الأول بعدوى وباء الطاعون إصابة قاتلة فتوفي في ظرف ساعات قلائل بعد أن ودعه أخوه . وحيث أنه توفي غريباً ولا صلة قرابة له بأحد ؛ فان كل ما يملك ؛ وألف محبوب نقداً وعداً ، سلمت للبلك ، ودفن على حسابه الخاص . وفي مثل هذه الحالات تنتقل ملكيته إلى البلك ولا يمكن استردادها والإدعاء بها .

---

(١) يوم عاشوراء هو اليوم العاشر من الشهر الاول (محرم) للسنة الهجرية .

(٢) عيد الاضحى ـ اليوم العاشر من شهر ذي الحجة ـ الشهر الثاني عشر من السنة الهجريـــة .

يشعر البك بحزن عميق لفقدان أحد أعز وأحب المماليك لديه ؛ فقد وافاه الأجل المحتوم بعد وباء الطاعون ببضعة أيام. كان ذلك المملوك شديد الإتصال به ، وثيق الصلة ، وكان موضع ثقته وتقديره ، وكان محارباً شجاعاً يقف بجانبه في ساعات المحن . فلم يكن (البك) يشعر بمثل هذا الضياع لولا أنه ينتظر وقوع لحظات حرجة جداً . فمن المنتظر أن يخلو العرش في كل يوم بسبب موت الباشا ؛ وتآمر أخويه ، فالصغير يحرض الكبير على الشر تدفعه النيات السيئة الخائنة الغادرة ؛ يتحين فرصة موته ساعة فساعة خاصةً وأن الاعراب ؛ نتيجة لكل هذه الظروف ، في ثورة مستمرة .

أنفق (البك) على هذا المملوك أكثر من أي واحد آخر ، لأن بقية المماليك تكلف أسيادها الشيء القليل : ومع ذلك فإن القليل من يملك المماليك ما عدا الأمراء . يجهز المماليك بانتظام بالبدلات الجديدة والغدارات المرصعة بأغلى المجوهرات والسيوف الحدباء الدمشقية ؛ المشهورة بخفتها وصناعتها الجميلة ، وأنصالها الملطفة المهذبة والمسقاة بالعطور الكريمة ؛ إذ تتراوح قيمة كل سيف منها بين مائة وستين إلى مائتي محبوب (أكثر من ستين جنيهاً) .

تغطى ملابس المماليك بالذهب والفضة تقريباً ؛ وتكون جاهزة للفرسان ؛ الذين يركبون الخيل باستمرار فهي بدلات عسكرية لطيفة ورشيقة ، وهي مجهزة على الزي البربري ؛ ولكنها ليست مصحوبة بأردية وأغطية فضفاضة وطويلة ، ورؤوسهم مغطاة بشكل مطرز تطريزاً جميلا وغالياً ، مربوطاً ربطاً محكماً حول طرابيشهم ؛ تاركين نهاية طويلة تعلق على الجهة اليسرى من الرأس ، والتي تبدو ذهباً صلباً من فخامة التطريز ؛ كما تبدو صدور بدلاتهم . يلبسون السراويل الطويلة الواسعة الفضفاضة جداً ، مصنوعة من الحرير الناعم التي تنزل حتى رسغ القدمين ، مع جزمات طويلة صفراء براقة و(شباشب) وهم معجبون بأنفسهم متعجرفون وحين يشعرون أنهم ذوو أهمية لأسيادهم يصبحون أحياناً عتاة قساة متغطرسين تضيق بهم الأسرة ذرعاً ، فتضطر لتأنيبهم ولومهم .

لا تعرف بالضبط دائماً أصولهم ، ولكنهم بصورة عامة ، هم أبناء الرعاة ابتيعوا من الجزيرة العربية ، وجورجيا ، والمناطق المجاورة ، الذين يحتاج تكيفهم الى مدة أطول ليعتادوا على لبس البدلات وحمل الأسلحة، وحتى أن يتخلصوا من الميل الراسخ في أذهانهم وحبهم للثورة ، والبحث عن أية فرصة تسنح لنيل المكاسب لأنفسهم . ويدفع أسيادهم بسخاء كبير لتلك الصلة الظاهرية التي يخدعهم المماليك بها في الغالب .

يتميز المماليك جميعاً بحسن الخلقة ، عيونهم خفيفة الزرقة ، تعلوها حواجب خفيفة وذقونهم قليلة الشعر أو لا ينبت عليها الشعر فهم مرد، وجلودهم ناصعة البياض وبشرتهم نضرة يانعة .

حين يتحدث عنهم (فوليني) يقول : عنصر رابع من سكان مصر وهم أولئك الذين ولدوا في سفوح القفقاس ؛ شعورهم بيضاء ، وجدوا من قبل محاربينا الصليبيين في القرن الثالث عشر ، يدعون المماليك ، والتي تعني العبد العسكري.يوجد قليل من هؤلاء الناس في طرابلس في الوقت الحاضر ، معظمهم من مماليك الباشا والفروع المختلفة من أسرته .

١٨ يناير ١٧٨٦

الجراد .

لانملك في الوقت الراهن الا النزر القليل من القمح لندرة وجوده : فالنصارى فرحون مبتهجون بشراء كل الكعك من السفن الراسية في الميناء ، فإذا لم يقض وباء الطاعون على القسم الأكبر من السكان فلا بد من أن المجاعة تقضي عليهم. إن كمية القمح المزروع قليلة عندنا ، ويبدو بأنها لسؤ حظنا مهددة بالجراد القادم الينا من صحارى مصر . فلم تكن هذه الحشرات المخربة المدمرة معروفة إلا قليلا بمضايقاتها وإتلافها ؛ مع أن الجراد يعتبر الكارثة السنوية التي تصيب مصر وقسماً من آسيا . يطير الجراد في مجاميع كبيرة هائلة متماسكة في الهواء ،

يشبه الغمامة المظلمة السوداء في كبد السماء، فتغطي حين طيرانها مساحة أميال عديدة . وعندما يزحف الجراد على الذرة والشعير يثير ضجة وصخباً حيث لا يبقي ولايذر شيئاً ، فتسمع ضجته ، بكل وضوح ، من مسافة بعيدة وما أن ينهي الجراد الزاحف هجومه على المنطقة تختفي الخضرة فيها ، وتتحول إلى أرض يباب جرداء عارية كما لو أنها كنست ومسحت بسحر ساحر .يملح الجراد بكميات كبيرة في القاهرة والأسكندرية ويحمل الى أجزاء مختلفة من أفريقيا ، ويجلب الكثير منه إلى هذه البلاد ويؤكل من قبل السكان .

٢٠ يناير ١٧٨٦

قصة تاجر بربري ·

تكشف الوقائع التي حدثت لبربري ظن بأنه مصاب بوباء الطاعون عن مدى قوة أثر العقيدة الإسلامية التي تقول: لا نهرب من قدر الله ولا تفر من الموت(١). فقد كان هذا الرجل منذ بضعة أشهر واحداً من أغنى التجار هنا ، حاول أن يفلت من وباء الطاعون فهرب الى مسافة بعيدة على الساحل حاملا معه كل ما يملك ، ومن أجل أن يضمن أمنه وسلامته اتخذ تدبيراً آخر ، قصد صخرة ناتئة بعيدة في عرض البحر ، ظن الرجل البائس بأنه على سطح تلك الصخرة الناتئة

---

(١) روي عن عمر بن الخطاب وعن الصحابة في قصة الطاعون فانهم لما قصدوا الشام وانتهوا الى الجابية بلغهم الخبر ان به موتا عظيما ووباء ذريعـــا فافترق الناس فرقتين فقال بعضهم لا ندخل على الوباء ، فنلقى بايدينا الى التهلكة وقالت طائفة اخرى بل ندخل ونتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى و نفر من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم « الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت» سورة البقرة ·

قال عبدالرحمن بن عوف : سمعت رسول الله (ص) يقول:اذا سمعتم بالوباءفي ارض فلا تقدموا عليه واذا وقع في ارض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه (راجع كتاب احياء العلوم للغزالي ج ٤ ص ٢٥٠) ــ المترجم ·

وسط المياه بعيداً عن أي خطر ، ولم يدر بخلده أبداً أن يتوقع ما حدث له .

أصبح أولا ، مجرماً بنظر كل مواطنيه ، لأنه كما يقولون ، فر من وجه نبيه بمحاولة الهروب من الطاعون ، وبتجنب المصير المحتوم الذي ينتظره ، الذي يدعوه البربر (مكتوب) (١) .

فقد تبعه وتعقب أثره بعض الأعراب ، دون أن يخشوا من أية عقوبة لسرقته ، بعدما استقر التاجر على الصخرة بليال قلائل . فبينما كان التاجر مختبئاً في خيمته ، سمع أصوات تجذيف قوارب قادمة نحو جزيرته العزلاء ، واستطاع أن يتبين على ضوء القمر أعراباً مسلحين قادمين في القوارب ، فعرف في الحال وضعه الخطر . وضع كل شيء تحت رحمتهم فاستولوا على كل ما كان لديه من ثروة ، وأبقوا على حياته . بعيد رحيلهم قفل عائداً الى طرابلس ، ليواجه الآن كل أخطار وباء الطاعون ، دون أن يتخذ أبسط تدابير الحيطة والوقاية ليكفر عن الذنب الذي جناه في الفرار من مصيره (المكتوب) . صعق البربر فزعاً من رؤيته فهو يبدو وبكل تأكيد مصاباً لا يرجى شفاؤه .

إن العزاء وراحة البال التي يحصل عليها البربري لنفسه بوضع كل عقيدته في (المكتوب) سلفاً أمر يفوق التصور حقاً ولا يدركه العقل . ففي أحرج ساعات المحنة ، يهدئ البربر روعهم بفكرة المكتوب سلفاً ، وبسحر هذه الكلمات الوحيدة ، ينتقلون من الرخاء الى الشقاء بدون سخط أو تذمّر .

---

(١) الكلمة العربية : « بخت » (القضاء والقدر – المترجم)

يعلل المسلمون كراهية الهروب بقولهم لو رخص للناس في الخروج لما بقي في البلد الا المرضى الذين اقعدهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعهدين ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يعجزون عن مباشرتهما بانفسهم فيكون ذلك سعيا في اهلاكهم تحقيقا ، وخلاصهم منتظر كما ان خلاص الاصحاء منتظر فلو اقاموا لم تكن الاقامة قاطعة بالموت ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعا بالخلاص وهو قاطع في اهلاك الباقين والمسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضا ولهذا شبه الفرار من الطاعون بالفرار من الزحف – (المترجم)

وعندما يكون البربري مسجى على فراش الموت ، فإن لاشيء يغير طمأنينته وهو يصارع سكرات الموت غير أن يدعو من حوله أن يديروا رأسه نحو القبلة (مكة) ، وبهذه التعزية يسلم روحه بكل راحة وسلام .

ولعل القصة التالية تعطينا مثالا حياً لتمسكهم بهذه التقاليد، فقد توفي منذ أيام قليلة مضت صبي عمره تسع سنوات ، صاح وهو في سكرة الموت على أمه الحزينة البائسة وعنفها ، لأنها نسيت أن تدير رأسه نحو مكة ، وعندما قامت بذلك ، عاد الهدؤ اليه وانقطعت انفاسه بسكون واطمئنان .

۳۰ يناير ۱۷۸٦

وفاة ابنة عبدالله بك . عادة نزع ثياب الحزن .

لقد خاب رجاء كل شخص خيبة عظيمة بوصول سفينة في تلك الأونة المحزونة ، دون أن تجلب على ظهرها المؤن التي كان ينتظرها الناس بفارغ الصبر. لم تجلب على ظهرها كثيراً من المواد التي طلب استيرادها ، إذ إن بعض المواد التي استوردت بحالة رديئة جداً ، وغالية جداً ، وتبلغ أسعارها أربعة أضعاف سعرها الأصلي ، إلا أن السفينة كانت محملة ، من قبل تاجر بربري ، بأعداد هائلة من ألواح الخشب البندقي ، التي تستخدم في صنع التوابيت وتغطية القبور كان الجمهور غضوباً هائجاً مستعداً كل الأستعداد لقتل ذلك البربري وتقطيعه إرباً إرباً ، لأنه لم يجلب شيئاً من المؤن والمواد الغذائية مع شحنة الألواح الخشبية على الأقل. يتهمون هذا الوحش الشقي بسوء النية والرغبة الحقيقية لأن يعم التدمير والخراب في السنة القادمة كما كان الأمر في السنة الماضية ،حيث دفع بعض الناس ثمنا لألواح الخشب بقدر وزنها من الذهب تقريباً . جعل حدس هذا البربري الذي توقع أن يحدث طلب شديد على الألواح الخشبية ، من نفسه هدفاً لفزع معظم الناس وهلعهم ، فلو قدر له وعاش وبقي حياً ليبيع تلك الألواح الخشبية بالسعر الذي بيعت به من قبل ، فإنه ولا شك سيحصل على ثروة كبيرة .

نتمنى على كل حال ، أن يكون وباء الطاعون قد قارب النهاية ، ولو أنه ليس من المستحسن بعد أن نحدد بالضبط الوقت الذي يفتح به النصارى أبواب منازلهم .

مات أمس ثلاثة أشخاص في المدينة ، وثلاثة عشر شخصاً في المنشية ، ومن بين الذين ماتوا الأبنة الوحيدة لعبد الله بك ، الذي سبق وأن ذكرت لك بأنه ابن آخر باشا تركي ، كان المقرر أن تتزوج ابنته الكبرى البك الحاضر لمدينة طرابلس ، وقد أعد كل شيء من قبل أسرة عبد الله بك لأقامة أعظم ابتهاج فخامة وأكبر فرح زواج ، الا أن تدبيراً سيء الحظ قامت به بعض النسوة — المراسلات في القلعة ، فلجأ (البك) إلى التنكر والتخفي ليراها قبل البدء باحتفالات الأعراس ، فأعلن كراهيته لها واشمئزازه منها ، فأثار دهشة واستغراب كل شخص ، وأكد بأنه لا يود أن يسمع أية كلمة أخرى عن الزواج بها .

أضف الى خيبة رجاء هذه السيدة الشابة السيئة الطالع بفقدان الوريث الثاني للعرش ، كان يظن بأنها رأت الأمير الشاب ورضيت بالزواج منه ، فوقعت في الحال في حزن عميق كان سبباً في موتها. لا تزال زوجة عبدالله بك حزينة تندب حظها وتبكي بنفس الأسلوب والأهتمام الذي ندبت به ابنتها المتوفاة ، منذ أكثر من ثلاث سنوات لا تزال ملازمة للصوم الذي فرضته على نفسها.فقد شوهت كل ما لديها من ملابس جديدة وطمست معالمها قبل أن تلبسها . تزور بانتظام قبر طفلتها ، الذي شيدته وجعلته من أعظم القبور في طرابلس، باستثناء القبور التي في مقبرة المسجد الكبير . يقع هذا القبر في جبانة لا تبعد كثيراً عن المدينة ، تمتاز بمسجد صغير ، مزود بأغلى أنواع الزهور الموضوعة في مزهريات جميلة منذ وفاتها ، وبالاضافة الى الزهور ، توجد كميات عظيمة من الياسمين العربي اليانع المشدود بخيط ضعيف مصنوع من ورق شجرة البلح المزخرف بالزينة المدلاة حول القبر المبجل . أما المسجد الصغير فإنه مفتوح من جهاته الأربع المبنية على أربعة أقواس نظيفة ، المحاطة بقضبان من الحديد المزخرفة والمصنوعة صنعاً جميلا . ومن الداخل مزين بالقرميد الصيني والمرمر

وفيه تتلألأ المصابيح المضاءة باستمرار .

الا أن خيبة الرجاء المريرة هذه ، التي خيمت على أسرة عبد الله بك ، وصلت الى نقطة ، تكاد فيها تنقشع تلك الغمامة المظلمة الحالكة السواد ؛ بقرار سيدي أحمد ، الأبن الثاني للباشا ، للزواج من الأبنة الصغرى. ولهذا فإن كل شيء قد أعد ثانية للفرح والإبتهاج وإقامة الأعراس والإحتفالات أكثر من الأول بهذه المناسبة .

ولأجل أن تبدد تلك الغمامة التي خيمت عليها ، وتضع للحزن نهاية ، منذ وفاة ابنتها الكبرى ، طلبت السيدة قليلاً من العطور أن تجلب لها ، مزيجاً من المسك والعنبر والصبر وغيرها من الروائح الذكية ، كسرت ذلك بحضور شهود وفركت يديها به ؛ وأعلنت نهاية الحزن ، وأكدت بداية عهد جديد ، وأعطت للأسرة كامل الحرية للاحتفال بأعراس زواج سيدي أحمد بابنتها ، قبل إصابة هذه السيدة الشابة ببضعة أيام ، ذلك الزواج الذي لم يتم .

كان المنتظر أن يتم الزواج مباشرة بعد أن هبطت الوفيات من وباء الطاعون هبوطاً عظيماً ، ولم ينتبه البربر الا قليلاً الى تدابير الحجر الصحي ، الا أن سؤ الطالع نقل عدوى وباء الطاعون الى تلك السيدة الشابة ، نتيجة للاستعدادات الكبيرة التي تطلبت الاتصال بعدد كبير من الناس ، فخاب رجاؤها وانقطع حبل أمل أصدقائها .

حضر الأمراء الثلاثة تشييع جثمانها : البك ، وسيدي أحمد وسيدي يوسف . وكان النعش يبدو وكأنه سبيكة من الذهب بسبب ملابسها التي تغطيه . وكان رأس النعش مزيناً بسخاء كبير من الزهور الطبيعية والاصطناعية وطبقاً لتقاليد البلاد المرعية ، بوصفها فتاة عذراء لم تتزوج بعد ، فقد دفنت عروساً عليها أجمل ما لديها من ثياب ومجوهرات .

وبهذه المناسبة المحزنة ، اعتق ثمانية عبيد ، اثنان من البك ، تحية لأخيه واثنان من زوج الفتاة المنكودة الحظ ، سيدي أحمد وأربعة من منزل عبدالله بك . صحب هؤلاء العبيدَ الجثمان يلبسون طرابيشهم مقلوبة ؛ يحمل

كل واحد منهم في يده عصاً طويلة وعلى رأسها لافتة عليها أسماؤهم ، والمناسبة التي نالوا فيها حريتهم .

أما زوجة عبدالله بك فقد أعدت للنساء اللواتي اجتمعن في منزلها لتشييع جثمان كريمتها خيمة نصبت في وسط الحوش ، مصنوعة من الحرير القرمزي ومطرزة بالذهب والفضة ، كبيرة جداً ، يمكن أن تضم مائتي امرأة . صنعت هذه الخيمة لأستعمالها الخاص ، عندما قصدت في المرة الأخيرة زيارة الديار المقدسة ، فقطعت الصحارى في موكب عظيم . يقال إنها قررت أداء فريضة الحج للمرة الثالثة ، بسبب الحادث المحزن ، الذي افقدها ابنتها الثانية ، ولم يبق لها الآن أحد ، ومن المفروض أن تهدي الى الديار المقدسة مكة والمدينة جزءاً من ثرواتها وممتلكاتها .

وزعت الليلة كميات كبيرة من الرز واللحم والخبز في حديقة عبدالله بك بصورة منفصلة الى الفقراء ، وهو ما يعرف بعشاء القبر .

لم تبق فتاة من الأسر الكريمة ذات الوجاهة واليسار في هذه المدينة ليتزوج بها سيدي أحمد ، لذا فإنه سيضطر ، إذن للبحث عن احدى الفتيات الجميلات في جورجيا أو قفقاسيا . فالعروس التي فقدها كانت تنحدر من سلالة آخر باشا تركي ، الذي يسميه البربر « كولوغلي » (كلمة تركية) أما الأمراء البربر الذين لا يجدون سيدات تركيات للزواج بهن ، يشترون جاريات قفقاسيات ، ويعقدون الزواج بالسيدة الأولى التي تنجب طفلا ذكراً .

إن معظم السيدات البارعات الجمال اللواتي كن ضحية ، جيء بهن الى هنا ، فأمضين حياة لم يتذوقن خلالها رحيق السعادة الا لماماً ، مزيجاً بالمآسي والآلام العظيمة ، كما تدل على ذلك قصة إحداهن ، التي توفيت أخيراً ، كما تبين لك ، والتي ستكون موضوع رسالتي القادمة .

١٠ فبراير ١٧٨٦

قصة امرأة قفقاسية · زوجة محمد خوجه ·

اسم القفقاسية التي وعدتك بتدوين تاريخ حياتها هو (مريومة) ، إحدى جواري محمود خوجة : أخ أحمد خوجة ، الذي يعمل الآن سفيراً في اسبانيا . اشترى محمد خوجة عند عودته من مصر إلى طرابلس فتاة اغريقية ، كان ينوي تقديمها هدية للباشا ، ولكنه أحبها ، ووقع في غرامها ووله بها فقرر أن يشتري جارية قفقاسية أخرى إلى سيده ، الذي لم ير الإثنين منهما ، فظن بأنها ربما تضاهي في فتنتها وجمالها ، أو ربما تكون أكثر قبولا عنده : ظل في مصر لبضعة أشهر وسافر بعدئذ مع السيدتين إلى طرابلس .

وكانت الجارية التي تصحب (مريومة) فتاة بارعة الجمال مثلها ، وكانت قد أبتيعت لوالي البلاد ، وهما ذاهبتان له ، ولم تثر غيرتها ما كانت تتمتع به صديقتها من سعادة وهناء متزايد كل يوم ، تصورت حظها أقل بكثير من تلك الفخامة والعظمة التي تنتظرها بوصفها المحظوظة المفضلة لدى الأسرة الحاكمة ، بينما أصبحت رفيقتها حظية لاحد الرعايا إلا أنها لا زالت ترتجف هلعاً وخوفاً من خلق ذلك الرجل الذي وقع حظها المحتوم عليه . كان من الصعب أن تأملا بأن يكون مصيرهما المحتوم أن تلقيا رجلين محبوبين يبدوان مثل محمود خوجة . ومن على ظهر السفينة ؛ بعد أن أطلت على الساحل البعيد لمدينة طرابلس خانتها شجاعتها ، فذرفت عيناها الدموع ، وغبطت (مريومة) على الثقة التي لديها ، وأدركت من النظر إلى ملامح وجه محمود خوجة ؛ الذي أقنعها بالنزول إلى الساحل ليس بهدوء وسكينة فحسب ؛ وإنما بقلب ملؤه الغبطة والسرور . إلا أن الأيام القادمة لحياة هاتين الفتاتين البارعتي الجمال برهنت على أنهما لم تنجوا إلا من الآلام المبرحة .

لقد ذعرت زوجة محمود خوجة الأولى عندما أعلن وصول زوجها إلى طرابلس يصحب معه امرأتين ؛ فكانت في يأس وقنوط خاصة عندما علمت

بأن احداهما قد وضعت مولوداً ذكراً على ظهر السفينة الراسية في الميناء ، فكانت موضع اهتمام ورعاية الوصيفات اللواتي يغدقن عليها كل أنواع اللطف والمجاملة ، مع المزيد من الإهتمام والإحترام اللذين يحيطها بهما محمود خوجة . ولم تستطع أن تفقد الأمل في تقسيم محبته وعواطفه بين امرأتين ، وعند وصولهما رافق السيدة الأخرى مباشرة عدد من الحرس في طريقها إلى القلعة .

كانت زوجة محمود خوجة الأولى تدعى اللالة عواشة ، تكن بالطبع للإغريقية التي وقع عليها اختيار زوجها، كراهية راسخة ، بالرغم من كل التماساته وتوسلاته . فهي لا تطيق النظر إليها . ومع أن اللالة عواشة لم ترحب بالإغريقية بعد وصولها ، فإن محمود خوجة ، سرعان ما أعلن زواجه بها . رزقت منه بعدد من الأطفال وعاشت سنوات عديدة سعيدة جداً . واستطاعت أن تتكيف بصبر وأناة ، وتوفق سلوكها مع أحاسيس وعواطف اللالة عواشة، التي تلطفت بتبني ابنها الأكبر . أمضت الاغريقية مدة طويلة من حياتها بكل هناء وراحة بال ، متمتعة بكل شيء يوليها زوجها بنفس الإهتمام والألطاف التي يولي بها الزوجة الأولى ، بالاضافة إلى أنها حبيبة زوجها وعشيقته ، تلك المكانة التي لم تحظ بها الزوجة الأولى . إلا أن آثار وباء الطاعون المدمر قد شملتها ففقدت كل سعادتها وهناءها ومن يحميها بوفاة محمود خوجة الذي مات بهذا الوباء الخبيث منذ أشهر قليلة .

غير موت زوج (مريومة) وواليها الوجه الكلي لحياتها تغييرا تاماً . لقد أماطت اللالة عواشة اللثام عن كرهها وحقدها اللذين لا حد لهما ، بعد ان كان محياها تعلوه ابتسامة ، خوفاً ورهبة ، خلال حياة زوجها . كانت الإغريقية زوجة محمود خوجة حاملاً بطفله الأخير الذي لم تره عيناه ، حين كان في النزع الأخير من حياته .

لقد أغاظ هذا العمل كثيراً زوجته الأولى فاتخذت منه حجة لاصدار أمر يقضي بمنع الإغريقية البائسة من رؤية زوجها في اللحظات الأخيرة من حياته ، مسممة بذلك تلك اللحظات ، لتنتقم لنفسها من (مريومة) السيئة الطالع ، التي

سقط ابنها الأكبر ضحية لوباء الطاعون مباشرة بعد موت أبيه .

استنكر هذا الحدث سلوك ومعاملة اللالة عواشة لأمه ، ولو أنه ابنها المتبنى ، فانه لم يسمح لها بالدخول عليه بالرغم من أنها قد التمست ذلك بكل حماس وشوق . ظلت (مريومة) التعيسة البائسة وحيدة بدون صديق ، معزولة مع طفليها ، أكبرهما لم يبلغ بعد الخامسة من عمره ، محرومة من كل خدمة ، وبدون وسيلة للحصول على الحاجات الضرورية لها ولطفلها طردتها عواشة من المنزل ، ولا بد وأنها تتضور جوعاً ، ولكنها وجدت في زوجة الباشا راعياً تلوذ في حماه ، فأخذت بلطفها وكرمها تهديء روعها ، وتدخلها تحت جناحي حمايتها إلا أن (مريوما) لم تعمر طويلا بعد ندبها سيدها ؛ فسرعان ما اختلطت بالمجاميع المرعبة المخيفة التي كان يجرفها الطاعون يومياً ، ويعتبر منزل محمود خوجة بؤرة من البؤر العديدة لهذا الوباء الفتاك .

كانت أسرة محمود خوجة تتألف منذ أشهر قليلة من خمسة وأربعين شخصاً ، بالإضافة إلى خمسة وثلاثين عبداً أسود ، لم يبق منهم الآن غير شخصين هما : الزوجة الأولى لمحمود خوجة واحد الروس الذي اعتنق الإسلام.

كانت (مريومة) سيدة جميلة جداً ، لها عينان سوداوان وشعر اسمر داكن ، وكان عمرها أربع عشرة سنة حين اشتراها محمود خوجة . وكان عمرها لا يزيد على تسع وعشرين سنة عندما وافتها المنية .

أما رفيقتها في الأسر فقد عاشت لفترة قصيرة ، بعد وصولها إلى طرابلس ؛ لها عينان زرقاوان وشعر كستنائي ، وكانت بارعة الجمال جداً . وشكلها عظيم ومهيب . وعلى كل حال فإنها لم تثر عواطف الباشا ، وبالرغم من أنه أكرمها وعاملها بلطف ، إلا أنها ظلت بائسة شقية ومهملة في القلعة لبعض الوقت ، فقرر الباشا تزويجها لأحد الذين اعتنقوا الإسلام ، ولكنها توفيت مكسورة الخاطر ، حزينة ، قبل أن يتم الزواج .

لقد سنحت الفرصة للسيدة (توللي) أن تراها في أحد الأيام ، عند ما كانت تزور اللالة حلومة في القلعة ، والتي كانت تعلم بالرغبة الشديدة لدى كل

النصارى لمشاهدة تلك القفقاسية ، فأمرت وصيفاتها أن يصحبن السيدة (توللي) إلى حجرة الجارية البارعة الجمال كما تدعوها ، قائلة بأنها علمت برغبتها في التعرف عليها . ذهبت السيدة (توللي) فوجدت الجارية القفقاسية ترتدي أجمل الثياب وأغلاها ، ولكنها جالسة وحيدة في نافذة تطل على البحر الذي شدت عينيها الجميلتين المغرورقتين بالدموع شداً وثيقاً إلى زرقته وإلى أمواجه . كانت مشغولة البال ، شاردة الذهن ، حتى كان من الصعب عليها أن تميل رأسها أو تتحدث ، لقد بدت مبهوتة مغمورة في رغبة باطلة عابثة تعود بها ثانية إلى موطنها الأصلي وتوفيت بعد ذلك بوقت قصير ، ولم يمض عليها في القلعة عامان كاملان .

١٠ أبريل ١٧٨٦

اللالة أماني تغير منزلها لتفلت من وباء الطاعون .
موت ابن البك . الثياب التي تلبسها اللالة أماني .

لا أزال حبيسة المنزل بسبب وباء الطاعون ، إن كل ما استطيع أن أقدمه لك ، في الوقت الحاضر ، عدداً قليلا من المشاهد المحلية البربرية ؛ ولكنك سترى المزيد عن أخلاق الافريقي والأسيوي في القصص العائلية هذه ، أكثر مما يمكن أن يتعلمه انسان مما يكتبه قلم رحالة مستطرق . وبفضل المعرفة الصحيحة القائمة على التجاذب والتعاطف فقط ، اذ يمكن تحديد آراء الناس الأصلية ومشاعرهم تحديداً حقيقياً ، والتي تختلف اختلافاً كلياً عن آراء ومشاعر الأوروبيين في أدق أعمالها .

دمر الطاعون منزل حاج عبد الرحمن السفير تدميراً كاملا ؛ منذ أن غادر هذه المدينة إلى انكلترا ، ولم يبق من أسرته الكثيرة العدد إلا القليل منهم . فلم تستطع بعد جميلته الإغريقية ، التي قدمت لك تاريخ حياتها في رسائلي السابقة أن تحتمل وضعيتها دون تغيير لمحل إقامتها ، حيث يثير كل شيء حولها فيها

الأسى والألم ويذكرها في كل ساعة بنعيمها الماضي وشقائها الحاضر ، أضف إلى ذلك أنها فكرت بحق أن هواء منزلها ملوث ، ولا ينقذ الأشخاص الباقين فيه ، ولا يخلص الأقلية غير الفرار منه ، على الأقل لفترة من الزمن ، لأنه كان ملوثاً بوباء الطاعون لعدة أشهر .

قدمت لها السيدة (تولِّلي) منزلا مجاوراً للمنزل الذي نعيش فيه ، فوافقت بكل شكر وامتنان ، وانتقلت إليه في الحال ، مصحوبة بابنة زوجها الكبرى ، واثنين من أبناء اخيه ومعها ابنتها فتاة صغيرة لطيفة ، تسميها فاطمة .

أمضينا بعد وصولها بعدة أيام بعض الوقت في التحدث إليها من شرفة منزلنا ، من مسافة حتى لا يتعرض أحد الطرفين لخطر نقل العدوى ، كان الوقت بعد الظهر ، فوجدنا السيدات ، باستثناء الإغريقية، حاضرات في الشرفة التي أمام حجراتهن ، يتهيأن لاستقبالنا ، إلا أن حجرة الإغريقية كانت لا تزال مغلوقة الباب . جاءت بعد وصولنا بقليل ونزلت إلى الساحة المربعة الشكل للمنزل . ولا يصل الرجال أو الغرباء الأجانب إلى هذا الجزء من المنزل . كان يتبع اللالة (أماني) ثلاث من جواريها السوداوات وامرأتان بربريتان ربطت هؤلاء النسوة جردها المصنوع من الحرير الأبيض الشفاف الرقيق حولها ، وساعدنها في غسل قدميها ويديها ، وبعدها حملت إحدى الجواري السوداوات ابريقاً من الفضة مملوءاً بماء الورد تصبه ببطء حين غسلت الإغريقية نفسها ثانية .

بعدها عادت إلى حجرتها ، فتحدثت الينا ، بينما كانت النسوة منشغلات بتمشيط شعرها وتصفيفه والإنتهاء من لبسها . ومع أنها تلبس الثياب البربرية (ليس باختيارها ولكن بالإكراه) فإنها تضفي على نفسها الشيء الكثير من البساطة واللطافة والرشاقة ، وتبدي في أدبها وخلقها الرقة والنعومة ، بحيث لا تشبه السيدات البربريات . ومع أنها كانت حزينة مكتئبة تماماً ، بسبب فقدانها العدد الكبير من أفراد أسرتها ، والقسم الأعظم من خدمها ، فلا زال جمال وجهها الرائع ، ورشاقة ملابسها البسيطة ولطف أدبها ، تجعلها أكثر نضارة وبهجة وقبولا .

كانت جميع سيدات الأسرة يحطن بها ، وهن في أجمل ثيابهن وأفخمها ، وكما سبق وأن وصفت لك الملابس البربرية ، فسأكتفي بوصف الثياب التي ترتديها الاغريقية فقط ، والتي كانت أقل مما يجب ، فيما لو كان السفير حاضراً في منزله ، فبسبب غيابه ، والوفيات التي حدثت في الوقت الحاضر في أسرته ، فانها طرحت جانباً القسم الاعظم من مجوهراتها وثيابها المزخرفة وحليها ؛ ومع ذلك فانها لا تقدر أن تلبس ما يعتبر هنا حزناً كاملاً ، خلال مدة غياب حاج عبد الرحمن ، لانه يعتبر نذير شؤم له بالذات .

كان يتلألأ من ملابسها بريق وحيوية وبهجة ، تميز ملابسها التي تلبسها عادة السيدات البربريات . كان قميصها أزرق فاتح اللون ، وورديا ، وأبيض على النقيض من الالوان الثقيلة الاخضر الداكن والاحمر والازرق والبرتقالي التي يرتدينها بدون تمييز ، أما الصدر والياقة بدلا من أن تكون حاشيتهما من خيط الذهب فانهما صنعا من شريط ذهبي لماع واسع جيء به من البندقية . ارتدت صدرتين الأولى لونها أصفر فاتح من الحرير الاطلسي المزركش بشريط فضي من الأمام ، وفوقه قرمزية ذات أزرار ذهبية و مرجانية ؛ وكانت تلبس أيضاً سروالاً من الحرير الاصفر مع أربطة ذهبية واسعة في رسغ القدمين ، وجرداً مخططاً من الحرير الابيض أو الحجاب ، يؤلف غطاء شفافاً رشيقاً حولها . وكانت تلبس في كل ذراع سواراً واحداً كبيراً من الذهب فقط ، عرضه بوصتان وسمكه بوصة واحدة ، وأما في حالة وجود السفير في منزله لوضعت سوارين . وكان السواران مفتوحين بدون غلق أو ربط ، إلا أنهما مرنان بسبب نقاوة الذهب وصفائه ، ومن السهولة تمديده وغلقه باليد عند لبسه أو نزعه . كان غطاء رأسها من الذهب المطرز ، ولها عصابة سوداء تغطي الجبهة المزينة بالمجوهرات المدلاة على الوجه . وكانت تلبس عدة أقراط ، أربعة أو خمسة في كل أذن ، من الالماس واللؤلؤ وغيرها من المجوهرات : ولم تكن خشنة غليظة كما تبدو على البربر ، ولكنها نظيفة براقة على الطراز الاوربي . كان جردها مربوطاً تحت الثدي الأيسر بدبوس

ذهبي كبير مرصع بالماسات وبعض العقود من اللألئ المعلقة منه ، وحول صدرها معلق خيط من قطع الزينة الذهبية وعدد من الطلاسم والرقى المجلوبة من مكة ؛ لتحفظها من الاصابة بوباء الطاعون ، ومن الآثار السيئة للعين الشريرة الحسود ، فلا شيء يدعو إلى الرعب والفزع أكثر من عيني شخص غريب محدقتين ، ومع ذلك فمن النادر أن لا يثقوا بتلك الرقى السماوية . تطرد آثار العيون المحدقة الشريرة ، في الغالب بتبليل الإصبع بالماء وإمراره على الموضوع الذي أثار اعجابهم .

وكانت اللالة (أماني) تلبس في رسغ قدميها خلخالين فضيين يزن كل واحد منهما من اثنين إلى ثلاثة أرطال .

أعربت عن شكرها وامتنانها الكبير لزيارتنا لها . وضع خدمها سجادة تركية ووسائد ذهبية وقرمزية على الارض لتجلس عليها ، وجلست وصيفتاها السوداوان على الارض حولها ووقفت امرأتان أخريان بالقرب منها ، اتخذت كل واحدة منهما جهة معينة ، وبيديها منديل من الحرير ومروحة ، وقد تأسفت كثيراً لانها لا تملك قيثاراً معها لتعزف لنا بعض المعزوفات ، وروت لنا العناية والتكاليف الباهظة التي بذلت على تربيتها بكل سخاء . كانت تتحدث أمام السيدات الأخريات بفخر وإعجاب ، عن أنها تعلمت القراءة والكتابة منذ الصغر وأشارت (بحق) إلى السعادة التي تتمتع بها الآن بقراءة رسائل السفير الواردة من انجلترا التي ، كما قالت ، لم تمنع ولم تبرّ بنكاية وسوء قصد ، ولم تتغير بخدعة بعد الحديث عن حاج عبد الرحمن أمرت نساءها بالغناء ، وسرعان ما أنشدن الاشعار عن غياب السفير وما تعانيه وتكابده اللالة (أماني) من آلام مبرحة . وقد روين في تلك الاشعار الغنائية كل قصة لعبد الرحمن تجلب له شرفاً ومجداً ، وصوّرن بكل شوق وحماس براعة جمال (أماني) ولطافتها ورشاقتها وملاحتها وأفضالها . ومع أن عبد الرحمن كان أكبر منها سناً ، وكانت له أسرة حين جاء بها إلى طرابلس ، إلا أنها بدت وكأنها عاشت مغمورة بالسعادة والهناء تفرض سيطرتها على منزلها . وهي

حالة ليست مألوفة جداً عند السيدات الاغريقيات هنا فحيث توجد السيدات البربريات في الاسرة ، فهن اللواتي في مقدورهن أن يؤثرن في أسيادهن أو ازواجهن .

٢ مايو ١٧٨٦

استعمال الاحجبة والرقى . قضاء وقت الفراغ عند السيدات البربريات .

كانت جميع الرايات والاعلام منكسة إلى نصف صواريها بمناسبة وفاة آخر أولاد البك في اليوم العشرين من الشهر الماضي : وأطلقت البواخر التركية الراسية في المرفأ نيرانها وأمر (البك) بفتح أبواب السجون وإطلاق سراح كل شخص في سجون مملكة أبيه .

تأسفنا جداً لوقوع هذا الحادث ، وعلمنا أنه من المستحيل على زوجة السفير أن تتلافى الذهاب إلى القلعة لتقديم التعازي مجاملة للاسرة المالكة ، ولكن بمجرد إعلان مرتبتها جاءتها كلمة من اللالة الكبيرة (زوجة الباشا) ، تطلب اليها العودة إلى منزلها ، مؤكدة لها بأنها تتقبل تعازيها كاملة ، بدون أن تجازف (أماني) بالدخول إلى الحجرات . بعد وصول اللالة (أماني) إلى منزلها أرسلت اليها السيدة (توللي) في الحال عطوراً قوية كانت لديها لغرض التبخير ، وخلاً مصنوعاً بالكافور مثل المواد الترياقية ضد الوباء المرعب الفظيع حيث كان يظن بأنها ، من المحتمل ، أن تكون قد أصيبت به ، حيث القي القبض على شخصين من أسرة الباشا مصابين بوباء الطاعون عندما كانت اللالة أماني في القلعة .

عندئذ قررت أن تهجر منزلها وترجع ثانية إلى منزل الأسرة . لا أستطيع أن أقدم لك وصفاً كاملاً للوضعية الكئيبة المحزنة ، التي استأذنوا بها للرحيل عنا ، وقد وجدوا أنفسهم ثانية محاطين بأهوال وباء الطاعون وكوارثه .

في مساء اليوم الذي سبق رحيلهم ، أقاموا احتفالاً طقوسياً نادراً وغريباً لابنة حاج عبد الرحمن الكبرى ، لطرد العيون الشريرة الحاسدة ، وحمايتها منها ، بعد انتقالها إلى منزل والدها ، والتي يقولون عنها إنها تأثرت (بعينين شريرتين) اللتين قد تسببان ضربة قاتلة (١) كتب لها أحد الأئمة رقية ، فأحرقت ومزج رمادها بالنبيذ وشربته (خدوجة) ثم عطروها بالمسك وبخرتها صديقاتها ، اللواتي كن يمشين ويدرن حولها ، يرددن الابتهالات والصلوات من أجلها بينما كانت هي تشرب ذلك النبيذ . وفي الوقت الذي سمعنا بمرضها كانت مضطرة للقيام بذلك الاحتفال الطقوسي ، ولم نستطع الا أن نعتبر ما بذلته من جهود وبلعها الرماد الاسود ، في تلك الحالة ، مناسبة خطيرة .

أتاحت السيدات اللواتي كن أقرب جيراننا فرصة مشاهدة جزء مما يتحدث به الكتاب عن السيدات في العائلات المسلمة . فمن الطبيعي ، أن تتخيل الأيام الطويلة جداً ، وأوقات الفراغ الحائرة التي لا يمكن أن تطاق ، والحاجة الشديدة لملء تلك الاوقات ، كما يصورها الكتاب الاوربيون ، الا أن الواقع على العكس من ذلك ، فهن لسن عاطلات ، فالسيدات البربريات مشغولات طول النهار في رقابة وملاحظة عدد كبير من الجواري اللواتي يصنعن الحلوى والكعك وينظفن القمح ويطحنه ، ويغزلن ، وبكلمة مختصرة ، يقمن بكل عمل يبدو ضرورياً . ويشرفن على تنظيم المؤن وتهيئتها ، وخلال مدة قيامهن بهذا الاشراف على أعمال الجواري والوصيفات تقف مجموعتان من الوصيفات في الخدمة ، تقوم المجموعة الاولى بعمليات الطبخ ، وتقف المجموعة الثانية في خدمة سيدتهن ، يرفعن من أمام عينيها كل شيء قد يزعجها ويحركن المراوح باستمرار لطرد الذباب والحشرات ، بينما تتكىء على واحدة أو اخرى من الوصيفات لتوجه وتراقب ما يجري من عمل .

---

(١) ان الخوف من العيون الشريرة لا يزال موجودا في افريقيا وآسيا منذ زمن قديم . (يقال ان العيون الشريرة تفرغ المنازل وتملأ القبور . وان نصف الناس يموتون من العيون الشريرة) المترجم .

كان من الأسباب التي دعت إلى وجوب قيام سيدات الأسرة الحاكمة بهذه الاعمال بكل دقة وحذر هو الحيلولة دون إمكان تدبير أية خديعة أو خيانة قد ترتكب في إعداد طعام أزواجهن . أما السيدات التركيات والبربريات فيقضين ساعات الفراغ في الغناء والرقص . فقد أقامت ابنة عبد الرحمن الكبرى وزوجته الاغريقية الحسناء أرجوحة ، في صباح اليوم الثاني من مجيئهم للسكن بالقرب منا ، والتي تؤلف القسم الاعظم من التسلية خلال ساعات النهـــار وتقوم الوصيفات والجواري بدفع الأرجوحة وهزها ومشاركتها في اللعب . ولم تبد أية واحدة منهن رغبة في المشروبات الكحولية ، ما عدا الاغريقية ، التي كان يبدو على محياها في أكثر لحظاتها إشراقاً وبهجة وسروراً ، غـــم وكآبة ، وحسرة على كل ما فقدته ؛ واحساس عميق بوحدتها القلقة المضطربة حتى تلبي جميع رغبات حاج عبد الرحمن السفير وهو في غيابه . ان هـــذه الخشية المؤلمة ، والخطيرة ، من أزواجهن ، تكون في بعض الاحيان ، رفيقاً ثابتاً لأفضل الاخلاق النسوية وأحسنها في هذا الجزء من العالم ، حيث تحـــاك الشراك ، وتدبر المكائد والمؤامرات باستمرار ، وتتضارب المصالح ، وتنهش الغيرة القلوب ضدهن من قبل كل واحد يحيط بهن .

١ يونيو ١٧٨٦

اغارة الاعراب على الزاوية · قبيلة النوائل ·

لقد ذعرنا ذعراً شديداً من قبل الاعراب ، الذين زحفوا على الزاوية ، قرية تبعد مسيرة يوم واحد عن طرابلس بمجموعة مؤلفة من خمسة الاف محارب . ولكن من حسن الحظ أن كانت خصوماتهم إغارة من أجل السلب والنهب . شجعتهم لشن تلك الغارة حالة الباشا المحزنة البائسة ؛ وفقدان وسائل الدفاع للهجوم مراراً متعددة أكثر من المألوف . كان البربر شديدي اليقظة والحذر من نوايا هؤلاء الأعراب ؛ فسدوا منافذ الطرق المؤدية إلى الزاويـــة

بالحجارة ليحولوا دون تقدمهم ، واستدعى الباشا ما لديه من قوات احتياطية (قبائل من الاعراب التي تتقاضى منه الرواتب) . قيل في الاول انهم جاؤا بتحريض من بلك تونس ، ومعهم جيش تونسي ، لأن بربرياً كان قد ذهب إلى تونس ويسمى (مصطفى المدعي) كان (بلك) تونس يحمي هذا الرجل ، ويدعي بأنه عم باشا طرابلس ، هرب من البلاد بعد ان قتل سبعة من اعمامه عند اعتلاء العرش . وبناء على الظرف هذا فان الباشا في خوف دائم من بلاط تونس .

في غضون انتشار هذا النبأ ، لم نسمع بشيء يستحق الذكر غير اسمين هما (ولد ماريا) و (محمد خوجة) اللذان توفيا على أثر إصابتهما بوباء الطاعون ، وكلاهما من القواد المشهورين التابعين للباشا ، وقد أسهما إسهاماً فعالاً بدفع مصطفى إلى الوراء في آخر مرة عندما اقترب من طرابلس يساعده جيش تونسي .

ليس من السهولة أن تدرك رعب الظروف وهولها ، تلك الظروف التي أشرت اليها أعلاه فاستحوذت على المملكة . استدعى الباشا عدداً من قبائل الأعراب ، فجاءوا إلى المدينة وأقام القسم الاكبر منهم، الآن ، حول الأسوار ولا يسمح الا لرؤسائهم بالدخول إلى المدينة . انتظر الاعراب للحصول على المؤن والأموال والملابس أولا ، قبل البدء بتعقب العدو . كانوا يلبسون الطرابيش ، والقمصان ، والسراويل ، وأعطيت لهم كميات كبيرة من المال قبل مغادرتهم .

تعتبر قبيلة النوأيل (١) أعلى مكانة ، واسمى مرتبة من القبائل الاخرى ، ويسمون أسياد الصحارى ، حين وصل رئيسهم إلى المدينة حيّاه مدفع باطلاقة واحدة . ومن حسن الحظ أيضاً . أن تمت التسوية بدون إراقة دماء أو ضرر . فاضطر الاعراب إلى الانسحاب خارج المدينة ، و الحالة الثانية المرغوب فيها

---

(١) استطيع القول بان المؤلفة تعني القبيلة البربرية الاورفلة من بني وليد والتي يطلق عليها بعض الاحيان بنولي .

أن نرى القوة الاحتياطية من الأعراب تغادر بسلام فهم شديدو الطمع ، ولا نهاية لمطالبهم ، وفي الغالب ما يكلف الباشا صرف هؤلاء الأعراب وجمعهم كثيراً من القلق والإزعاج .

يتميز شرف الخلق العربي بنمط يجعل العرب أمناء مخلصين بكل التزاماتهم أوفياء بتعهداتهم ، ولا يقف الامر عند ذلك فقط ، وانما هم أقوياء وكثيرو العدد ، ومعروفون بمهارتهم في الفنون الحربية ، كل تلك الخصائص التي تجعلهم أعداء الداء للبربر . كنا سعداء عندما شاهدنا أعداداً كبيرة منهم تغادر أمس – ومن المتوقع أن تغادرنا البقية غداً .

١٨ يونيو ١٧٨٦

السلطان التركي يبعث بتسكرة لخلع باشا طرابلس .
الآثار التي خلفتها التسكرة .

كان منزلنا آخر المساكن الذي بقي في حجر صحي ، إذ فتح أبوابه في اليوم السادس عشر ، الا ان هذه الحادثة السعيدة قد وسمت بسلسلة متتابعة من المخاوف المرعبة . ان هذا الرعب الذي ازداد هياجاً واثارة باقتراب الاعراب ، كان طفيفاً لم يشعر به في المدينة في الوقت الحاضر ، وصل مراسل من تونس يؤكد الأنباء المزعجة التي نقلتها المصادر البربرية منذ وقت قصير ، والتي تقول ، بأن القبطان باشا قد أبحر من القسطنطنية مزوداً بأوامر من الباب العالي لخلع باشا طرابلس . وكان من المفروض أن تؤدي الانقسامات والخصومات بين أفراد أسرة الباشا ، والاهمال الكلي لشئون المملكة (الناتج من الظروف القائمة) إلى أن يخشى السلطان التركي سقوط طرابلس في أيدي النصارى ، وما عدا ذلك فانه حسن التصرف مع هذه الحكومة ، ولو أنه لم ترسل الا الإتاوات القليلة له خلال حكم الباشوات الثلاثة الاخيرين ، فانه لم يصدر أوامره بوجوب جمع تلك الإتاوات .

ومن سوء الحظ أن السلطان التركي قد أصدر أمراً بترقية تركي اسمه حسين لرتبة (قبطان باشا) كان عدواً صريحاً لباشا طرابلس منذ سنين عديدة . ينتظر وصول هذا الرجل مع أسطول عظيم بين ساعة وأخرى . قد أعلن الباشا في الديوان بعد ظهر هذا اليوم عن عزمه على مغادرة المدينة غداً ، إلى جهة غير معروفة . واذا اقتضت الضرورة فانه سيحاول الهروب عبر الصحاري إلى تونس ، بعد أن يؤمن وضع سيدات أسرته خارج المدينة ، في الوقت الحاضر ، ووفقاً لقوانين الحرب التركية ، فان العدو لا يمسهن بضرر عليه أن يحترم السيدات التابعات لأسرة الباشا ويعتبرهن مبجلات لا يجوز الحاق السوء بهن ، أو انتزاع أي شيء عليهن من حلي ومجوهرات ذهبية أو فضية .

رجع الباشا بعد الانتهاء من شئون الدولة بعد غروب الشمس إلى الحرم ، الذي كان في هرج ومرج شامل . وكان كل شخص واقفاً على قدميه يستمع ويلاحظ مظهر الباشا وكان الذعر قد بلغ درجة في الحرم لا يمكن وصفها ، عندما أسر مؤكداً لسيدات أسرته صحة الأنباء ، وأنه ينتظر ساعة بعد أخرى ازاحته عن العرش ، من المحتمل أن تكون قد وضعت جائزة لقطع رأسه ، بينما أحسن مصير يمكن أن تتوقعه زوجته أن تبقى بعد بناتها لتشهد هروبه ، بعد أن حكم قرابة ثلاثين عاماً بسلام وطمأنينة في القلعة .

تشمل المدينة كلها هذا المساء البلبلة العامة ويسودها القلق بالاعداد إلى نفي الاسرة الحاكمة . اذا اقتضت الضرورة ، والنصارى والبربر ، على السواء في ذعر كبير ، من هذه الوضعية ، وأتمنى أن لا تحدث وقائع مزعجة وخطيرة تتعلق بنا لأقصها عليك .

٢٤ يونيو ١٧٨٦

انقطعت مخاوفنا لبرهة من الزمن . فقد مر القبطان باشا بمرفأ طرابلس منذ أيام قليلة ، وقصد مدينة الاسكندرية في الوقت الحاضر ، مزوداً بأوامر

السلطان التركي تفرض العقوبات على السكان الذين هدموا كنائس النصارى ، واغتالوا عدداً منهم ، نتيجة خصومات نشبت حول بربري وجد ملجأ في احدى كنائس النصارى ، ذهب القبطان باشا ليرد اليهم حقوقهم ، بفرض غرامات باهظة على كل طرف منهم ، جزاءً وفاقاً على كل ما قام به الواحد ضد الآخر .

لا يزال من المؤكد انه يحمل (تسكرة) أو (فرماناً) معه تتعلق بالباشا السيء الطالع وتعني التسكرة أمراً مكتوباً صادراً من السلطان التركي ، ويحمل بصورة سرية ، بحيث يوجب على كل مسلم يتسلمه تنفيذ كل ما جاء به بكل طاعة ولو اقتضى ان يضحي الشخص بحياته .

٣٠ يونيو ١٧٨٦

موت السلطان التركي يلغي التسكرة . موكب رهيب في القسطنطينية .

منذ تحرير رسالتي السابقة ، فقد مات السلطان التركي وبذلك أُلغيت التسكرة التي يحملها القبطان باشا ضد الوالي ، وأن القسطنطينية في الوقت الحاضر في حالة من الثورة والتمرد والعصيان حول اعتلاء ابن أخ السلطان التركي العرش بدلاً من ابنه .

يبدو الامر غريباً جداً ، حيث فقد ابن السلطان التركي حقه بعرش أبيه ، بسبب أن ابن عمه أكبر منه سناً ببضعة أشهر . ولو أن عرش القسطنطينية يبقى في نفس الخط من السلالة ، ولكن ليجلس عليه أكبر الذكور عمراً ، وفقاً للتقاليد العثمانية. تسبب هذه الوضعية كثيراً من اراقة الدماء، فليس بإمكان ابن السلطان التركي دائماً، ولو بموافقة وإرادة الشعب، أن يتولى العرش، وانما الفرق القائم في عدة سنين أو عدة أشهر بين الأعمار يسبب انتزاع العرش من الأسرة

الحاكمة واعطائه إلى فرع بعيد ، إلى شخص ، ربما يجد في الوريث الشرعي عقبة في الطريق إلى السلطة ، فيخلعه بدون حق ، عالماً بأنه سيتولى العرش ولو بعد حين .

يقول القنصل البندقي ، الذي أقام بضع سنوات مع السفير البندقي في القسطنطينية بصدد بعض الحوادث المهمة التي وقعت خلال إقامته هناك، إنه شهد فيها موكب الوزير الأعظم ومعه ضباطه ، ذلك الموكب الذي يفوق في فظاعته وبشاعته كل وصف ، من إهاجة مشاعر الناس وتأجيج عواطفهم . عندما انطلق الموكب تولت الجمهور كله حمى عالية ، فاصفرت الوجوه ، وارتعشت الأبدان ، وخارت القوى ، وانهدت العزائم ، ولم يعد الناس قادرين على الوقوف . وانحبست السنتهم ، واعتبر كل فرد نفسه بين يدي الموت ، بينما صمّت أذنيه الجملة الرهيبة بأن يعدم في الحال على باب منزله بدون سبب معلوم أو توجيه أي سؤال فقد حدث كل ذلك بدون سابق إنذار ، لعدد من الناس خلال مسيرة هذا الموكب ، أما بسبب الموازين الباطلة ، أو التأخير في دفع الجزية ، أو لأي شيء آخر يراه الوزير ذنباً يتهم به أحد الأفراد التعساء الأشقياء الذين من النادر أن يتسع له المجال لسماع طبيعة الدين الذي عليهم قبل تنفيذ العقوبة . تجري هذه المواكب الفظيعة المرعبة ، دائماً ، ولكن في لحظة من النادر أن يتوقعها الناس .

أما اولئك الذين شملتهم بلوى هذا الموكب ، والمجرمون الذين صدرت عليهم الاحكام بموجب القوانين ، فهم على السواء ، يعلقون في أي جزء من المدينة ، وتبقى جثثهم معلقة مدة كافية لان تنبعث منها روائح نتنة جداً ، حتى بالنسبة لمنازل السفراء (١) ومن الصعب أن ترفع الجثث مهما يكن الرجاء والالتماس ، اذا كان الاتراك لا يعتقدون من المناسب لهم أن يرفعوها .

---

(١) كان من المالوف حتى أواخر القرن ١٦ ان يتم تنفيذ حكم الاعدام علنا في القسطنطينية باقامة عرض للمجرمين من باب الى باب في البازار جامعين (البراطيل) (الرشاوى) لشراء استعفاء من شنق المجرم امام الدكاكين .

٣٠ يوليو ١٧٨٦

اللالة خدوجة تغادر القصر بسبب سوء سلوك ابنها · المرأة التونسية حظية سيدي محمود ·

كان سيدي محمود ، حفيد الباشا موضوع خصومة كبرى في القلعة ، بحيث أن أمه ، وابنة الباشا الكبرى قررت مغادرة القصر هذا الصباح ، والانسحاب إلى بستانها في الريف وقد أرسلت مقدماً كل ما تملك من مجوهرات وحلي وذهب وأثاث إلى هناك . ينكر ابنها الاتهامات التي وجهت ضده ، حول طلبه سراً والتماسه مقابلة زوجة عمه . سيدة حسناء بارعة الجمال من أصل تركي ، متزوجة من سيدي أحمد الابن الثاني للباشا .

قامت احدى المراسلات من النساء بنقل تلك الرسالة غير اللائقة ، وهن الواسطة المألوفة لنقل السوء والشر في القلعة . خشيت العروس أن تشكو سيدي محمود إلى سيدات الاسرة الحاكمة اللواتي كن صديقات جديدات لها . ولما كانت متزوجة منذ ثلاثة أشهر بسيدي أحمد ، فانها خافت من الأثر العظيم والمكانة العالية التي تتمتع بها والدة سيدي محمود اللالة خدوجة في قلب الباشا ، فلم تجرؤ أن تتهم صراحة ابن تلك الاميرة . ولكنها واعية بالعناية والاهتمام العظيم الذي يوليه سيدي أحمد لها قد أثار العيون المنغصة بالغيرة والحسد منها ، وبالرغم من براءتها كانت شديدة الهلع من أن يتهمها البعض لدى سيدها ، وكانت مدفوعة بمخاوفها ، عندما دخل الحرم عند غروب الشمس لتخبره بما حل فيها من حزن وكآبة . انفجر سيدي أحمد بأعنف الآلام العاطفية ، ولم تستطع كل توسلاتها والتماساتها التي عبرت عنها وهي راكعة على قدميه تذرف الدموع أن تهدىء روع سيدها . فقرر الثأر والانتقام بالموت من ابن اخته سيدي محمود ، فسلح خدمه ، وخرج في الحال يبحث عنه . ومن حسن الحظ ان أعلم أحد الناس ذلك الشاب في الوقت المناسب من وصول عمه ، فهرب إلى حجرات زوجة البلك ، فخاب أمله في الحصول على اذن بالدخول

إذ لا يسمح لأي شخص بالمرور من الباب ما عدا البك ، لقد حالفه الحظ في إيجاد مأوى يلجأ اليه ، فاختفى بضع ساعات في صندوق كبير في حجرة زوجة البك نفسها ، بينما انهمك عمه ، الذي يبحث عنه يفتش كل شارع سري في القلعة . ولولا التنكر والتخفي عبر أسوار القلعة في ظلام الليل الدامس لما استطاع أن يهرب إلى منزل والدته الريفي .

أحاطت الاميرة علماً بسوء نيّة أخيها المفاجيء ضد ابنها ، وبدون أن تكلف نفسها عناء المزيد من البحث في الموضوع ، فانها أعلنت عن عزمها بعدم الرجوع إلى القلعة ثانية ، عندما غادرتها هذا الصباح .

هذه أول مرة تعيش فيها ابنة الباشا خارج أسوار القلعة كما يذكر كل واحد . الا أن انشغال سيدي احمد ، الذي لم يكن في علاقة ود مع أخيه الكبير البك ، وهو منهمك جداً بالنشاط هذا ، الأمر الذي دعاه إلى إسدال الستار للانتقام من سيدي محمود .

٨ أغسطس ١٧٨٦

صولة التونسية توقع بين سيدي محمود وخطيبته .

زاد الألم الذي أحدثه سيدي محمود ، أخيراً ، في القلعة سوءاً بالحادثة التالية التي لم تخفف شيئاً من انفعاله وهياجه . فتاة تونسية تافهة السلوك اسمها (صولة) كانت ذائعة الصيت سنوات عديدة في حبك المؤامرات ، وتدبير الدسائس ، والاسهام بكل المكائد والأسرار التي تدور داخل أسوار القلعة . فأصبحت محظية عند سيدي محمود ، ولها الكلمة المسيطرة عليه ، حتى أنه غض النظر عن سلوكها المشين ، المقلق لأسرة الباشا ، وتغافل عن كل الاتهامات التي وجهت لها .

وجدت (صولة) بالرغم من مكايدها السرية للحيلولة دون تنفيذ نوايا الباشا لتزويج اللالة فاطمة من سيدي محمود ، بأن حفلات العرس على وشك

أن تبدأ ، فتحدثت ، منذ فترة وجيزة ، بسوء عن الاميرة وحاولت علناً أن تلحق الضرر بسمعتها لدى سيدي محمود حتى أن وقاحتها وقلة حيائها ، كانت موضع حديث القلعة كلها . اعتمدت على ما لها من تأثير في سيدي محمود ، ولم تفكر لحظة في المأزق الحرج الخطير الذي عرفت بأنها أوقعت نفسها فيه . وبوصفها من تلك الطبقة من النساء فان نسمة واحدة تهب من القلعة تحطمها إلى الابد . وبالرغم من كل ما حدث ، فان اللالة فاطمة أعدت أمس بيديها صحناً مفضلاً من اللحم وأرسلته مع تحياتها التقليدية إلى عريسها المنتظر ، إلا أن (صولة) بما عرفت به من وقاحة حملت سيدي محمود على إعادة الصحن من منزله برسالة قليلة الحياء إلى ابنة الباشا . فوصل في الحال أمر إلى سيــدي محمود يأمره بطردها ، فكان مضطراً لتنفيذه .

استطاعت اللالة فاطمة بالتماساتها وتوسلاتها أن تغير مصير هذه المرأة من الموت حالا إلى ابعادها إلى تونس من حيث جاءت ، ووفقاً لهذا القرار وضعت على ظهر سفينة ذاهبة إلى تلك البلاد ، بعد ان انتزعت منها ملابسها وثيابها ، وأعطيت ثياباً عادية وأخذت منها كل ما عليها من حلى وذهــب ومجوهرات .

إلا أنه بعد أن صعدت على ظهر السفينة ، أعادوا النظر في أمرها ، بعد أن فكروا ملياً بها ، فعلموا بأنها ذات معرفة جيدة بكل أسرار القلعة السياسية والخاصة ، وبإمكانها أن تلحق الضرر في سمعتهم عند حكومة تونس . فأرسل في الحال ثلاثة من الحرس الخاص للباشا على ظهر سفينة مع رسالة ترحيبيــة بالعفو عنها واعادتها ثانية إلى الساحل فنقلوها إلى الغرفة التي يجلس فيها رئيس الميناء — ضابط الميناء — كل النهار ويغادرها ليلا .

وهنا عرض الحبل المخيف نفسه لعيني (صولة) البائستين ومعه رئيس الحرس الاسود الذي وضع على الفور نهاية لحياتها : وهكذا في أقل من ربع ساعة أعفي عنها ، وغرر بها ، ونفذ حكم الاعدام فيها ، وهو المصير المألوف لكل السيدات الشقيات هنا .

لم يترك سيدي محمود حجرته منذ وفاة تلك المرأة ، ويهدد بالانتقام من المجرمين الذين قاموا بما دعاه (المؤامرة الشنيعة) .

٢٩ أغسطس ١٧٨٦

محاولة اللالة الكبيرة لاحلال السلام بين ابنائها ·
نبؤة مرابط واثرها في الباشا ·

هل الهلال الجديد : قبل ثلاث ليال مضت ، وانتهى صوم شهر رمضان العظيم عند البربر ، والذي بدأ بظهور هلال شوال الجديد . وفي غضون الثلاثين يوماً من شهر رمضان وقعت بعض الاحداث التي أدت إلى خلق انقسامات وخصومات مخيفة ومذهلة بين أبناء الباشا الثلاثة . وقد تمنت اللالة حلومة أن تبذل قصارى جهودها خلال أيام العيد ، التي تبدأ بعد الانتهاء من الصوم لإنهاء تلك الخصومات وعقد صلح بين أبنائها الثلاثة ، ففي أيام ذلك العيد يحاول كل مسلم طيب أن يحسم كل الخصومات التي قد أقلقت أمن الاسرة وسلامتها في السنة الماضية .

يعقد الباشا عادة جلسات عديدة في أول أيام العيد الكبير ، الذي يستمر ثلاثة أيام في المدينة يستقبل خلالها في الحجرة التي بناها لهذا الغرض ، ما يدعى بالمجلس ، ولكن ما تنبأ به أحد المرابطين ، الذي سبق وان رويت لك قصته ، الذائع الصيت ، الواسع الشهرة بأن الباشا سيطعن وهو جالس على العرش بيد مجهولة فينتهي حكمه في هذا المجلس ، ولهذا فانه سوف لا يستأنف التقاليد بالذهاب هناك حيث تقع الخصومات في القلعة ، مع العلم أن منازعات خطيرة نشبت بين أولاده خلال شهر رمضان، أدت الى أن يستمر في استقبال مجلسه في محل آخر من القصر .

يسمح لكافة الرعايا الاقتراب من العرش لتقديم الولاء للباشا في اليوم الأول من العيد.يقف على جانبي الباشا شخصان يوليهما أعظم الثقة، ومهمتهما

أن ينزعا سلاح القادم الاجنبي الذي يقدّم نفسه لتقبيل يد الباشا ، وخوفاً من أية خيانة خفية ، فان الوجهاء والاشراف ومن نالوا ثقة الباشا يسمح لهم وحدهم بالدخول مسلحين — أما الآخرون فمضطرون لنزع أسلحتهم في السقيفة عند دخولهم القصر .

كانت غرفة الاستقبال مكتظة بالناس اكتظاظاً غير مألوف ، احتفالا بهذا اليوم ، وكان أصدقاء الوالي ، في لحظة واحدة ، قد صعقوا بمنظر بدا وكأنه قد جمد دماءهم في عروق أجسامهم . بدا وكأنهم لا ينتظرون شيئاً أقل من ذبح واليهم على قدم عرشه ، وانهم يصبحون ضحايا لانتقام أعدائه .

دخل الامراء الثلاثة ، ومعهم كبار ضباطهم ، وحرسهم وعبيدهم مسلحين في أسلوب غريب يلفت النظر ، وسيوفهم مسلتة . وكان كل ابن محاطاً بضباطه وحرسه ، يصعد لوحده يقبل يد الباشا ، استقبلهم وهو يرتعد ويرتجف من شدة الخوف حتى بدا انفعاله واستغرابه واضحاً لكل عين ، وبرزت الساعة المحاطة بالشك مفزعة ورهيبة لكل شخص حاضر .

ألف الامراء ثلاث فرق ، منفصلة الواحدة عن الاخرى فصلاً تاماً ، وتحدث كل واحد مع القناصل ومع مختلف أفراد البلاد بحرية كما هو المعتاد ، ولكن لم يخطىء كل منهم النظر إلى الآخر لحظة واحدة ، مكثوا فترة وجيزة في غرفة الاستقبال ، فانسحب كل واحد منهم بنفس الاسلوب الذي دخل فيه ، فاصبح واضحاً بأن غضبهم وهياجهم كان موجهاً ضد أحدهم الآخر ، وليس ضد أبيهم ، ولم يستطع الباشا أن يتنفس الصعداء الا بعد مغادرتهم .

قصد البك في صباح اليوم الثاني من العيد حجرات أمه ليقدم لها تهانيه بمناسبة العيد. كانت قلقة جداً ، تتمنى أن تراه يصافح أخاه سيدي أحمد ، الابن الثاني لتصلح على الأقل آخر فجوة بينهما . بدأت بالتأكيد ، إذن ، على أن لا يمس البك يدها حتى يوافق على البقاء معها بينما طلبت حضور زوجة سيدي أحمد لتقبل يده ، وهي إشارة للاحترام التي لا يمكن لأية سيدة في

الأسرة ان تتغافلها ، تقدم إلى البك في هذه المناسبة ، الا اذا كان زوجها على خلاف معه .

تمنت اللالة حلومة بعلامة الاحترام هذه من زوجة سيدي أحمد ، أن تبدأ في عقد صلح بين البك وأخيه ؛ وهو تدبير لازالة الجفوة ، ونزع الغضب من قلب سيدي يوسف ، أصغر الابناء ، وافق البك أخيرا على التماسات امه ، وسرعان ما نقلت الرسالة إلى زوجة سيدي أحمد ، التي كانت لسوء الحظ في تلك الآونة تقف في خدمة زوجها على العشاء (١) ابلغت الرسالة على مرأى ومسمع منه ؛ وكان يظن أنها مدبرة ومخططة ، بوجود عدد من الطفيلية في القلعة . أمر سيدي أحمد زوجته مباشرة بأن تبعث بجواب قاسٍ إلى البك . أفزعت زوجته جدا ؛ وتألمت لسوء الطالع الجديد هذا ؛ الذي لا بد وان يحدث ثغرة جديدة حتى أن وصيفاتها اضطررن لمساعدتها . عندما استعادت نشاطها أبدت رغبتها بتلطيف الامر ، وتهدئة الخواطر ، بكل ما لديها من امكانات ، فأرسلت كلمة لزوجة الباشا فقط تعلمها فيها بعدم قدرتها على الحضور بسبب تناول زوجها طعام العشاء ؛ ورجتها أن تلطف الأمر بقدر الامكان للبك . إلا أن الجواب وصل بأسوأ الكلمات التي تفوه بها سيدي أحمد وترك البك مجلس أمه هائجاً غاضباً ولم تفلح أمه في تهدئة البك ؛ بينما ظلت اللالة حلومة بالآمها المبرحة ، تتأمل مشاهد إراقة الدماء التي من المحتمل جداً ، أن ترتكب في القلعة .

وجد البك عند عودته إلى حجرته بأن أحد خدمه قد طرح أرضاً تحت قدمي أخيه الاصغر يوسف وجلد جلداً شديداً حتى كاد أن يموت ؛ بسبب شجار نشب بينه وبين أحد خدم سيدي يوسف ، فلو التقى الاخوان في تلك

---

(١) من التقاليد العربية بالنسبة للاميرات والسيدات من الطبقة الراقية ان يقمن بخدمة أزواجهن ، تقف بالقرب من كرسيه عندما يتناول وجبات الطعام ، مع انهن لا ياكلن معهم . ولكن بين سيدات الطبقات الدنيا لا وجود لمثل هذه التقاليد ، ولكنهن لا يتناولن الطعام مع أزواجهن .

اللحظة فلا بدّ وان تكون ضربة قاضية لاحدهما أو لكليهما .

في اليوم الثالث من العيد قصد البك القصر ثانية وبحضور أبيه وسيدي أحمد وسيدي يوسف وحشد غفير من البطانة ، حذر أخويه من التمادي في إحراج فطنته وحذره بالمزيد من التجربة والاختبار : قال انه يزدري بأخذ أي تدبير طائش جائر ، ولو انه بقدرته أن يخمد انفاس كليهما ، فاذا رغب أحدهما بالمبارزة فانه يتلطف (لأنه لا يحق لهما أن يطلبوا ذلك منه) بمقابلتهما في السهل حيث لا يخشى من حماس جماعته وعددها واذا ما أغضباه ، فانه سرعان ما يلقنهم درساً قاسياً لا ينسيانه .

بدت حاشية البك وكأنها لا تقدر السيطرة على عواطفها الا بصعوبة جداً والامتناع عن القيام بكل عمل لا يتفقّ مع ما قاله سيدهم ، الذي بعد أن تقدم بالتحية على والده انسحب من المجلس .

هكذا انتهى عيد رمضان ، ودفنت معه كل آمال زوجة الباشا ، التي علقت آمالاً كثيرة على ازالة كافة الخلافات ، وحسم جميع الخصومات في القلعة ، فهي تستحق كل الشفقة والرحمة وبصدق واخلاص . حين يتحدث عنها الناس يصفونها أغلى جوهرة في العرش ، أم حنون ، وصديق مخلص لكل الناس ، وأعمالها الخاصة والعامة موجهة باستمرار بروح البر والاحسان والانسانية .

١٠ ديسمبر ١٧٨٦

المسلكن المنحوتة في الجبال · مدينة طرابلس بعد وباء الطاعون ·

منذ حجرنا الصحي الطويل (كنا سجناء محتجزين مدة ثلاثة عشر شهراً من بداية يونيو ١٧٨٥ إلى نهاية يوليو ١٧٨٦) فاغتنمنا الفرصة للتمتع بحريتنا ، ولو أنها كانت في البدء محاطة بحذر شديد ، لأننا كنا نخاطر بالخروج مشياً على

الاقدام إلى أحد البساتين البربرية أو ندخل منزلاً بربرياً ، خاصة خارج المدينة .

أما في الريف فكانت القرى خالية ، والمنازل مغلقة ، لم تفتح أبوابها منذ أن اجتاح وباء الطاعون البلاد ، الذي هال التراب على أسرٍ كاملة . وحمل البربر عدداً كبيراً من موتاهم إلى ساحل البحر فألقوا الجثث في كومة واحدة . فكان لها أثر خطير في صحة سكان المدينة ، حتى اقترح النصارى فكـــرة تغطيتهم بالكلس . ومن حسن الحظ أن يتبنى البربر الفكرة لأنهم لمسوا بأنفسهم القلق والاضطراب الشديدين ، مع أنهم اعتبروا البدعة نوعاً من العقوق وقلة الورع ، ومن أجل ذلك عبروا عن أسفهم وحزنهم العميق .

ظلت المساكن المنحوتة في جبال غريان والتي لا يمكن اختراق مسالكها الا من قبل سكانها ، مهجورة كلياً . فكانت مداخل المنازل مغطاة بالرمل ، بحيث لا يمكن ان تكتشف من قبل أجنبي غريب ، ولكنها الآن تستقبـــل السكان من جديد ، والباقين من اولئك الذين هربوا يسرعون في العودة من تونس ، والصحارى المحيطة ، تستعيد أولئك اللاجئين الغرباء .

أظهرت مدينة طرابلس ، بعد وباء الطاعون ، مشاهد فظيعة ومؤثـــرة جداً ، فقد عثر في بعض المنازل على آخر الضحايا الذين لفظوا أنفاسهـــم الاخيرة بها ، ماتوا وحدهم ، دون عونٍ ، ودون رحمة وحنان ، تركـــوا بوضعية سيئة جداً ، بحيث لا يتسنى رفع الجثث من الاماكن ، فاضطروا إلى دفنهم حيث وجدوا ، وفي منازل أخرى أطفال يتجولون حول تلك الجثث المهجورة بدون صديق أو قريب . كانت المدينة خالية من السكان تقريبـــاً ، ومن النادر أن يمشي شخصان سوية .

فلو مشى انسان لوحده في الأزقة والشوارع ، بتؤدة ، خالي الذهن ، فاقد الرشد وسط تأملات مؤلمة ، فاذا ما رفع عينيه فحدق بغرابة كئيبة بالمساكن الخالية التي حوله ، وفي كل الازقة والشوارع التي مر بها لم ير فيها مخلوقاً حياً واحداً ، فبالاضافة إلى الكآبة والحزن ، الناتجين من وباء الطاعون الذي قبل أن يجتاح المدينة ، قد هجر عدد كبير من السكان المدينة وهربوا إلى تونس

(حيث جرفت موجة وباء الطاعون المدينة) ليتلافوا الموت جوعاً في القحط الرهيب الذي سبق الطاعون هناك .

بقي عدد من بين أولئك الذين تركوا في المدينة ليروي اعترافه بالامتنان والشكر لما لقي من اهتمام ورعاية من قبل القنصلية البريطانية ، لقد سجل عدد من الناس أسماءهم في هذه القنصلية ، ليتلقوا العون والمساعدة وسط فظاعات القحط ، وأهوال الطاعون ، من أولئك الذين كابدوا آلام البؤس وقاسوا عذاب الفاقة ، تخلص بعض الاشخاص من الموت في المجاعة (فظلوا على قيد الحياة المالكين الوحيدين قبل ان تتوزع ملكياتهم على اصدقائهم،ماتوا جميعا الان بالطاعون) جاؤا إلى القنصل الانجليزي ليعبروا عن شكرهم وامتنانهم بتعابير بسيطة ، يدعون القنصل (بوي) (أبي) ويصلون على النبي محمد ليباركه . يقولون بأنه بالاضافة إلى أنه قدم لهم الحياة فإنه حافظ عليهم ليصبحوا ملوكاً صغاراً ، وأقسموا اليمين بالحفاظ على صلات وثيقة مخلصة وفية معه التي لا شك بانهم سيلتزمون بها ، ما دام هو موجوداً في بلادهم (١) .

١٢ أكتوبر ١٧٨٦

عودة البك من معسكره في مصراتة . استقبال البك في طرابلس .

عاد البك أمس مع أربعمائة حصان بعد أن أمضى شهراً مع معسكره في مصراتة ، ميناء بحري من المدن التابعة للباشا . جاء عن طريق الصحارى صباحاً فخرج عدد من القناصل للترحيب به . لقد أعلن نبأ وصوله إلى طرابلس بعد

(١) عندما احتل (علي بنزول) في سنة ١٧٩٣ طرابلس ، قدم مائتان من سكان الجبال ، الذين كانوا يعيشون في المدينة وضواحي طرابلس بكل حرية وطواعية ليدافعوا عن منزل القنصل الانجليزي من هجمات الاعراب والاتراك ، في ليلة كانت المدينة مهددة اما بالتخريب من قبل الاتراك أو بالنهب والسلب من قبل الاعراب .

أذان الصبح مباشرة ، من قبل المنادي الخاص بالباشا المعروف بصوته الجهوري الذي يسمع من مسافة ، والفرقة الموسيقية التي تتقدمه ومن أصوات الأهازيج والتهاليل التي يطلقها سكان القرى يعبرون عن فرحهم .

قبيل أن تقترب فرقة الفرسان من المدينة كانت تسرع في العدو لتتقدم الموكب ، يتسابق الفرسان فيها جيئة وذهاباً على الرمال أمام البك . كان موكب البك وكبار ضباطه فخماً عظيماً في مظهره . كان البك يتلألأ بالذهب والجواهر . كان يلبس هلالاً من الألماس الغالي الثمن في عمامته الكبيرة جداً المصنوعة من الحرير الرقيق الشفاف وعليها شال لونه أرجواني داكن وذهبي ، وطرفاه موشيان بالذهب إلى عمق نصف باردة تقريباً ، ومعلق على الكتف الايسر : وكان يرتدي قفطاناً فضفاضاً من الحرير الاطلسي لونه أصفر فاتح ، والمخطط بفراء ثمين ، والمطرز بالفضة ، وقميصه تحت القفطان من القماش الذهبي والأخضر . أما رشمة حصانه الذهبي ، فكانت بشكل قلائد مدلاة ، تغطي صدر حصانه تقريباً ؛ وسرج حصانه الذي أهداه اليه امبراطور مراكش منذ مدة قصيرة ، كان مطلياً بالذهب ، مزيناً ومرصعاً بالياقوت والزمرد وغيرها من الاحجار الكريمة . وحصانان عليهما كسوة من القطيفة القرمزية اللون ، المغطاة بالذهب ، وأغلى الحلى والمجوهرات ، يقودهما عبدان أسودان.

وصل (البك) في الليلة الماضية متعباً ألمت به وعكة ، فاضطر إلى المبيت في قرية تبعد بضعة أميال إلى الشرق من طرابلس ، وقيل إن تلك الوعكة كانت على أثر مضايقة وإزعاج ، حتى ظن بأنه سوف لا يصحب الجيوش إلى المدينة ولكنه حين وصل إلى طرابلس استرجع قواه ، وبدا بكل خلقه اللطيف المألوف بأحسن صحة .

خرج أخواه سيدي أحمد وسيدي يوسف للترحيب به ، فعانقاه عناقاً ينم عن الفرح والسرور ، في الوقت الذي كانت بطانتاهما تردان أغاني الفرح والزغاريد بأصوات تشق عنان السماء. كان أصدقاء البك يلاحظون مناورات حاشيتي أخويه بكل دقة بعين ملؤها الغيرة . بينما يعلن البك عدم شعوره

بالخطر المحدق به ؛ فان ضباطه يرتجفون عندما يجدونه في كل دقيقة محاطاً بحاشية أحد أخويه .

يشكو البعض من البربر ويتذّمر من شدة القساوة التي استعملها البك في جمع الإتاوات كما يقول ، وتنفيذ حكم الاعدام بعدد كثير من الناس ، ولما كان قد مضى على تلك الاتاوات عدد من السنين ، فقد اضطر الاعراب البك للخروج اليهم وجمع الاتاوات منهم ، فليس بوسع الاعراب أن يفترضوا بأن البك سيرجع خالي اليدين غير راضٍ ؛ أو ان يكون زائراً ليناً متساهلاً . عندما اقترب البك من أبواب المدينة وصل مراسل من مصر : فأمره البك بالمرور إلى القلعة ولم يؤخره . كان المراسل مربوطاً على جمل معروف بسرعة الجري ؛ كما هي العادة هنا ، بحبال كثيرة لمنع وقوعه . أمضى خمسة وعشرين يوماً من رحلته على نفس الحيوان من القاهرة الكبرى ، فقطع مسافة تسعمائة ميل من هناك . إن المدة التي استغرقتها هذه الرحلة ، تبدو لاولئك الذين لا يعرفون هذه الاجزاء لا تصدق بالسرعة التي يتميز بها الجمل ولكن الحاجة إلى الماء ؛ واقتراب الحيوانات الوحشية ، وهبوب العواصف الترابية في الصحراء وغيرها من العوامل التي تعرقل الرحلة وتعيقها ، والتي تزعج الرحالة الافريقي ، تستهلك في الغالب معظم الوقت الذي يمضيه من محل إلى آخر .

جاء هذا المراسل بالنبأ القائل بأن القبطان باشا وأسطوله قد فرض مبالغ كبيرة من المال على أهالي الاسكندرية ووعدهم بأنه سيعيد بناء الكنائس الاغريقية والرومانية الكاثوليكية التي دمروها مؤخراً ؛ ثم سمع القبطان باشا بموت السلطان التركي ، فأبحر إلى القسطنطينية لهذا فانه قد صرف النظر عن زيارة مدينة طرابلس في الوقت الحاضر .

١٥ نوفمبر ١٧٨٦

مرض اللالــة أماني · مجيء احد اخوة اللالــة أماني · تجهيز ابنتها وهي في السادسة من عمرهــا بجهـاز العرس ·

عدنا منذ برهة من الزمن من زيارة اللالة أماني ، اغريقية حاج عبــد الرحمن . كانت متوعكة المزاج تلتزم الفراش . سمحت لنا بالدخول إلى حجرتها التي كانت مكتظة بالزوار فكان من الصعب علينا أن نقترب مــن سريرها الذي تضطجع عليه . كانت اللالة خدوجة ، ابنة عبد الرحمن من زوجته الاولى جالسة بالقرب من مخدة اللالة أماني ، ويبدو بأنها تكرس اهتماماً عظيماً لها . وكانت بعض وصيفات أماني السوداوات يجلسن على الارض حول السرير بينما وقف البعض الاخر ينتظر بالقرب منها .

كانت قد رضت ردفها وتشكو من ألم شديد . ولكنها تحمل حجاباً كتبه لها أحد الائمة ، الذي تمنى لها الشفاء العاجل بذلك الحجاب . كان من السهل اقناعها لتناول دواء بسيط يسمى (تبسوت) مزيج من الخل والماء بالاضافة إلى الحجاب أكثر من اقناع العديد من السيدات البربريات اللواتي يتعرضن لمثل هذه الحالة . كان منظر اللالة أماني ، مع أنها متوعكة المزاج ، جميــلا ورائعاً للغاية . كانت ملتفة في جرد من الحرير القرمزي اللون وعليها لحاف خفيف مصنوع من الكتان الخفيف والشرائط الملونة المخيطة معاً في خطوط ضيقة كثيرة ، ومخادها من الحرير القرمزي المطرزة بالذهب .

نهضت لتشرب القهوة التي كانت تقدم في فناجين صغيرة جداً ، موضوعة في صينية فضية وصينية من الذهب لتقديم القهوة إلى السيدات المتزوجات . أضافوا إلى القهوة القرنفل والزعفران والقرفة ، وكانت القهوة مليئة بالسكر ، ولكن هذا المزيج سرعان ما تغير ووضع محله القهوة اللذيذة الطعم وحدهــا للسيدات الاوربيات .

كانت من بين الحاضرات سيدات بربريات من الطبقة العليا جئن لزيارة الاغريقية ، وكانت من بينهن سيدة تدعى زنوبيا زوجة أحد كبار موظفي الدولة . تتمتع هذه السيدة بنفوذ كبير على البك ، حتى أنها استرعت معظم اهتمامه ، تستنزف خزائن زوجها ببذخها وإسرافها الذي لا مثيل له على ثيابها وملابسها . فعندما تعلم من أرصادها وعيونها بنبأ وصول زي جديد إلى القصر ، تحصل على زي مثله في الحال . وإذا لم يوجد في طرابلس فانها تستورده مهما بلغت تكاليفه ، وتنجح ، بصورة عامة ، في الظهور بذلك الزي أول سيدة في القصر ، فيعتبر عملها إهانة كبيرة للاميرة التي أرسلت لشراء نفس الزي ، وظنت بعدم استطاعة أية سيدة لتسلم ذلك الزي قبلها . سبب قلقها هذا الكثير من المتاعب لها ، فأوجد لها أعداء عديدين في القلعة حتى تعرضت حياتها للخطر . زنوبيا سيدة بربرية ، ولدت في طرابلس ، كانت تطلي وجهها بالكثير من المساحيق ، ولكن بذوق ، وكانت ترتدي الثياب الجميلة الفاخرة ، وتضع عدداً هائلا من الحلي والمجوهرات .

بعد أن غادرت كل السيدات البربريات ، أخبرتنا أماني بالاضافة إلى تاريخ حياتها الذي روته لنا عن نفسها ، والذي سبق وأن قصصته عليك ، نبأ مجيء أحد إخوتها إلى طرابلس بعد مدة وجيزة من زواجها : وحاول أخوها أن يتقدم باقتراح لعبد الرحمن يطلب اليه عتقها ، ظاناً بأنها لا زالت جارية وليست زوجته ، فأخبرت أخاها أن اقتراحه متأخر جداً . أعلمته بأن حفلات الزواج قد مضت ، وأنها غيرت دينها ، فارتعد أخوها واقشعر بدنه ، فانتحب وبكى في سورة من الغضب على حظ أخته العزيزة ، ولم يعد بامكانه النظر اليها ثانية ، ولم يطل مقامه في طرابلس فغادرها بعد أيام قلائل .

تركت زيارة أخيها المفاجئة أثراً عميقاً في نفسها ، وجعلتها شقية بائسة لفترة من الزمن ولكنها تأملت بما هي مدينة لعبد الرحمن ، وكيف يفكر بها ، وكيف يلبي بكل كرم وسخاء كل رغباتها ، وكيف يعاملها بلطف وأدب ولياقة غير مألوفة بين البربر أو الاتراك ، ولا زال مستمراً على نفس

السلوك ، يمنحها سلطة غير محدودة ، سواء كان حاضراً أو بعيداً عن المنزل وبرهاناً على ما قالت أطلعتنا قائلة ، ولو أن السفير غائب في الوقت الحاضر ، إلا أنها صرفت المبالغ الكبيرة إلى ابنتها اللالة فاطمة ، التي لم تبلغ بعد السادسة من عمرها ، في شراء مواد وبضائع تتعلق بزواجها ، وهي عادة بربرية تبدأ بالجمع واللم للبنت منذ الدقيقة الاولى لميلادها .

لقد أرتنا بعض الستائر الغالية جداً ، المطرزة تطريزاً مدهشاً في خطوط ضيقة معاً ، في ستارة دانتيلله في الاسفل من الذهب والفضة ، ممتدة إلى مسافة نصف ياردة ، وحاشية واسعة من الذهب والفضة ممتزجة مع نفس الألوان الموجودة في الستائر تحيط بحواشيها . يعرضون هذه الستائر على الصورة التالية : أمام المخدع حيث يقف السرير . تسدل الستائر الثلاث الواحدة فوق الاخرى من أجل إبراز الحواشي المطرزة والتي من وضع إحداها فوق الأخرى أصبح امتدادها ياردة ونصف من أغنى أنواع التطريز الذهبي ، ستارة من قطيفة قرمزية تنتهي بحاشية عميقة من الذهب وهي مطروحة على الستارة الاخيرة ، ومدلاة في انحناءات لجهة واحدة ، تكشف عن الحواشي الذهبية فقط للستائر الثلاث التي تحتها . أرتنا بعد ذلك الأثاث المذهب لحجرتها الخاصة بها والتي لا يمكن استعمالها في الوقت الحاضر ، لأن المنزل كان في حالة حزن لغياب السفير .

أما التحفيات المعلقة في الحجرة فكانت من القماش المزركش المصنوع من القطيفة المختلفة الالوان ، المرصع بورود مصنوعة من الحرائر الدمشقية : حاشية صفراء اللون يبلغ عرضها قدماً واحداً وتحيط بالستارة من أسفل وأعلى ، والحاشية العليا موشاة ومطرزة بآيات من القرآن في أحرف بنفسجية اللون .

كانت السجادة مصنوعة من الحرير الاطلسي القرمزي لها حاشية عريضة زرقاء فاتحة اللون موضوعة مع حصر هندية وغيرها من السجاد . وقد وضعت الأرائك في أحسن جزء من الحجرة تشغل ثلاث جهات من المضجع ، وأرض الحجرة مرتفعة . كانت الأرائك والوسائد التي تحيط بها من القطيفة

القرمزية اللون : أما الوسائد الوسطى فمطرزة بشمس من الذهب المصنوع صنعاً متقناً جداً ؛ والنسيج الباقي من الذهب والفضة . صنعت ستائر المضجع لتناسب الستائر المسدلة أمام السرير . يضاف إلى ذلك عدد من المرايا وعدد وافر من الصيني الجميل والكريستال الذي يكمل زينة الحجرة وأثاثها والتي لم تضم شيئاً من المناضد والكراسي .

وضعت طاولة منخفضة يبلغ ارتفاعها ، حوالي ستة إنشات ، عندما قدموا المرطبات ، مصنوعة من خشب الابنوس المرصع بالاصداف ؛ وعظم السلاحف ، والعاج ، والذهب ، والفضة وأجود أنواع الخشب أو من المهاجوني يتناسب مع الحالة الاجتماعية الاقتصادية لصاحبها .

كانت اللالة خدوجة تلبس اليوم حزاماً من القرنفل المنظوم في عقود ، سمكها كرسغ اليد ومحدودة بين محل وآخر بمسبحة كبيرة ، منقوشة من الذهب . ولا يمكن أن تخرج السيدات البربريات بدون هذا الحزام : فالبعض منهن يظهرن الحزام وأخريات يخفينه . لبسته خدوجة فوق ثيابها عبر كتفها الأيسر .

أصعدتنا بعد ذلك إلى ما يسمونه الحجرات السوداء أو حجرات الموتى . فمن التقاليد المحزنة المشؤومة أن تغلق الحجرات عن كل صديق عزيز وعن أقارب الموتى . شاهدنا خمس حجرات مغلقة في قصر عبد الرحمن ، كانت آخر الحجرات قد أغلقت بسبب وفاة ابن اخته بوباء الطاعون . وأغلقت الحجرة الثانية خمس سنوات حزناً على أخت الاغريقية التي ابتيعت معها من قبل عبد الرحمن . والجدران مصبوغة بدهان أسود ، والناس الذين يعتقدون بالخرافات من بين الخدم والحاشية يرتجفون عندما يمرون مضطرين أمام أبواب تلك الحجرات الكئيبة .

كانت اللالة خدوجة تمتلك ثماني وصيفات سوداوات عندما سافر أبوها إلى انجلترا ، ولم تظل غير وصيفة واحدة أفلتت من مخالب الطاعون . انتابتها حمى خلال فترة وباء الطاعون وتخشى من كل شيء يحيط بها خوفاً من الاصابة

فهي لا تخاطر بالاقتراب من أي سرير وتضطجع على الأرض في وسط الحجرة ولا تلبس غير ملابس زواجها ، التي لم تمس منذ أن احتفظت بها في الصندوق قبل عدد من السنين : وتظن بأنها ليست ملوثة .

تؤثر هذه الحالة تأثيراً بليغاً في نصيبها من الزواج ، عندما فتح الصندوق ، في ذروة وباء الطاعون ، وتعرضت المحتويات إلى التعطير والتبخير فان رونق وبهاء تلك الملابس ونضارتها قد ذهبا لأنها مصنوعة من الذهب والفضة .

تبدي السيدات البربريات وعياً بعزلتهن ، واحساساً بابتعادهن عندما يلتقين بالسيدات النصرانيات ، ويعبرن عن اسفهن لحاجتهن إلى الحرية . حتى أنهن لا يشعرن بثقل وطأة أوقات الفراغ فالنهار لا يبدو طويلا بالنسبة لهن ؛ فالسيدات الانيسات المحبوبات اللواتي يواظبن على رعاية أفراد أسرهن وينهمكن في تدبير الأمور المنزلية لا يجدن متسعاً من الوقت لقضاء الواجبات التي يرغبن القيام بها . أما أولئك النسوة اللواتي لسن مثقلات بأعباء الاسرة ، فان مكايدهن ودسائسهن وحسدهن وغيرتهن ومخاوفهن تشغل ساعاتهن شغلاً تاماً ، فمن السهل أن ندرك بأن فشل مكايدهن ومؤامراتهن تكلفهن حياتهن الغالية .

١٠ فبراير ١٧٨٧

زواج اللالة خدوجة بحاج مراد . تعيين ابنها سفيرا الى نابلي . ولادة اللالة خدوجة . الاحجبة لطراد العيون الشريرة . الوليمة والهدايا .

قبل ثلاثة أيام مضت قمنا بزيارة اللالة خدوجة ، الابنة الكبرى للباشا ، لأول مرة منذ غادرت قصر والدها ، بعد الخصومة الكبرى التي نشبت في القلعة بسبب ابنها سيدي محمود . استقبلتنا استقبالاً رائعاً ؛ فأحاطتنا بكل رعايتها واهتمامها ، الصفات الطيبة التي تتميز بها أخلاق أمها ، إلا أن اللالة خدوجة في أسرتها متعالية ومتشامخة ؛ تبدو متألمة جداً من مغادرتها القلعة ،

فقدت الشيء الكثير من الاحتفالات والمواكب التي تأنس بها ، وتمتع نفسها بالنظر اليها ، وبوصفها أكبر الاميرات كان البلاط العظيم بكل ما فيه من حرس وخدم وجوار يسهر على خدمتها .

كانت مقطبة الجبين ، مكفهرة الوجه ، بحيث لا يجرؤ خدمها أن يتحدثوا اليها . كان خدمها في كل لحظة تحت خطر القصاص والعقاب لعدم تنفيذ أوامرها ، التي تصدرها وتناقضها بنفس اللحظة . كان أطفالها الصغار (ولدان جميلان وبنت صغيرة لطيفة) في الحجرة . وبالرغم من أن أكبرهم كان عمره خمس سنوات ، وعمر البنت الصغرى لا تقل عن ثلاث سنوات ، فان كل واحد ترعاه حاضنة سوداء ترتدي الملابس الفخمة الغالية ، محملة بالحلى من الفضة والخرز .

تزوجت اللالة خدوجة أحد كبار موظفي الباشا ، المسمى حاج مراد ، الذي دخل في الاسلام ، لان قوانين البلاد تحرم زواجها بأحد الرعية . كان زوجها أحد رقيق والدها النابلطانيين ، وأصله لسوء الحظ غامض جداً ، ولا تعتبر الاميرات اللواتي يتزوجن رجلاً دخلوا في الاسلام مذعنات خاضعات لازواجهن ، فهن لا ينظرن اليهم أعلى من أحط عبيدهن وغالباً ما يبدين أسفهن لأنهن متعاهدات ومتضاجعات مع أمثال هؤلاء الرجال ، الذين لا تصلح اخلاقهن كلياً للظهور أمامهن وبحضورهن . لا يؤثر أصل الأب في مثل هذه الاحوال في الأطفال . فهم أولاد اللالة خدوجة ، وحفداء الباشا لا يفقدون شيئاً من اعتبارهم ومكانتهم .

تقرر إرسال ابن اللالة خدوجة الأكبر سفيراً من قبل الباشا إلى نابلي قريباً جداً . لقد جمع الحاج مراد ثروة هائلة من خدمة الباشا . ولا تحتاج اللالة خدوجة في الامور المالية أن تستشير زوجها . فكلمة واحدة من الباشا كافية دائماً لتحقيق رغباتها . كانت حجراتها مؤثثة تأثيثاً فاخراً ، وعدد ما لديها من حرس وخدم كبيراً . كانت ترتدي هي وابنتها الكبرى (من زوج سابق) سيدة شابة عمرها حوالي خمس عشرة سنة ، ثياباً فخمة زاهية

يغطيها الذهب والمجوهرات .

كانت تفكر كثيراً بسوء طالعها بسبب مغادرتها القصر ، وكانت تعزو ذلك إلى تدبير المكايد وحبك الدسائس ونصب الاشراك في القصر ، الـذي يعيش كما تقول اللالة خلوجة ، على بيع أسرار الاسرة من جزء منها إلى جزء آخر فقط . وذكرت العدد الهائل من المؤامرات القاضية التي دبرت ضـد سلام وطمأنينة الاسرة الحاكمة أكثر من أية أسرة في طرابلس ، بسبب العزلة الضاربة أطنابها حول السيدات ، والاشاعات والاقاويل التي تنقل اليهن على ألسنة خدم متملقين منافقين ذوي مصالح .

تتوقع اللالة خدوجة أن تضع مولوداً في كل يوم وبسبب اعتلال صحتها ، لم نستطع البقاء إلاّ وقتاً قصيراً معها . استلمنا اليوم دعوة أخرى منها لزيارتها ثانية بعد الظهر ، بسبب مجيء زوجة الباشا والاميرات هناك لتقديم التهـاني بمناسبة وضعها مولوداً ذكراً بعد زيارتنا الاولى . ذهبنا فاستغربنا جداً مـن اكتظاظ المنزل بعدة مئات من الزائرات اللواتي احتشدن بعد الولادة بقليل ، فاعدت لهن وليمة كبرى جداً تتألف من اللحوم الحارة من كل صنف ، للسيدات من علية القوم ووجهائه .

كانت زوجة الباشا والاميرات في حجرة اللالة خدوجة ، وجميـع السيدات في مهرجان فرح وسرور . غيرت الاميرات ثيابهن مرات عديدة ليبدون في أجمل الثياب واغلاها وحملت السيدات البربريات ثياباً اضافيـة معهن ليغيرن بدلاتهن خلال مدة الزيارة .

كانت الاميرة اللالة عواشة ، عروساً تزوجت مؤخراً رئيس البحرية ، قد صبغت ذراعيها بطريقة عجيبة مدهشة تشبه ربطتين من الشريط الاسود حول العضد ، وأصابعها مصبوغة حتى المفصل الاول بأحسن انواع الكهرمان الاسود من أجل أن يتلألأ الالماس والمجوهرات التي تغطيها . وكانت الاميرات كلهن يلبسن أسورة حول رسغ القدمين من حجم هائل من الذهب الصلب ، يزن كل واحد من ثلاثة إلى أربعة أرطال .

أحضر الطفل المولود جديداً وفوقه غطاء جديد من الذهب المخطط بالحرير الاطلسي وكان موضوعاً في كمية من القطن الابيض الناعم جداً في سلة نظيفة .

بدا الاستنكار وعدم القبول والرضا بقوة على ملامح الحاضنة التي اضطرت بأمر صادر لها أن تعرض الطفل إلى النصرانيات ، فألقت عليه المزيد من الأغطية مع الطلاسم والاحجبة التي عليه ، وفي كل نظرة تتطلع اليه النصرانية تبلل أصبعها وتمرره على جبهة الطفل تردد بنفس اللحظة الكلمات : (الله يبارك) — تتوسل وتتضرع إلى النبي محمد أن يحفظه من حسد العيون الشريرة — فرشت الارض التي أمام الحجرة والرواق الذي يحيط بأرض مربعة الشكل في وسط الحوش بالحصر الهندية والسجاد التركي ، ووسائد الحرير ، وموائد طويلة لا ترتفع من الارض بأكثر من بضع بوصات . وقد وضعت على تلك الموائد أنواع المرطبات وثلاثون أو أربعون صحناً من اللحم والطيور المطبوخة في طرق وأصناف مختلفة : لم توضع سكاكين ولا شوكات ، وانما عدد قليل جداً من الملاعق من الذهب والفضة والعاج أو المرجان .

حين تمّ جلوس السيدات كانت اللالة حلومة والاميرات مع خدمها تتجول حول الموائد أثناء الوليمة لخدمة ضيوفها ، ووفقاً للتقاليد العربية . كانت الموائد مملؤة بما لذ وطاب من الأطعمة ، حتى لم يكن هناك مجال للصحون ولم تطلبها سيدة واحدة ، وعندما تأكل سيدة ما اختارته من طعام في صحن واحد ، فسرعان ما يبدل ذلك الصحن بآخر . وكانت تقدم الاصناف المختلفة من الأشربة : البعض منها مركب من عصير الزبيب المغلي ، حلو جداً ، — وعصير الرمان المعصور في القشر ، وعصير البرتقال الصرف . وكانت تجهز كل تلك الانواع المختلفة من الاشربة في أباريق زجاجية عالية موضوعة على الارض بأعداد كبيرة تذكر الانسان كثيراً بالصور الدينية القديمة .

بعد رفع صحون اللحم ، احضرت الحلويات من الفواكه العربية ، الحلوى والفواكه المسكرة ، وكان من بينها خبز البلح . تصنع هذه الفاكهة

المسكرة صنعا متقنا من قبل العبيد السمر في فزان من البلح الناضج في تلك البلاد ، الذي يتفوق على كل الأنواع الأخرى يصنعونه على شكل أرغفة يزن الرغيف من عشرين إلى ثلاثين رطلاً . حتى يرمى النوى ، ويضغط الثمر ضغطاً شديداً بأثقال كبيرة : ويحفظ هكذا بحالة جيدة جداً لمدة سنة .

بعد الانتهاء من الحلويات أحضرت الوصيفات السوداوات المناديل المطرزة حواشيها بالذهب ، والصابون والماء ، الذي كان أمراً مقبولاً جداً لعدد كبير من السيدات اللواتي لم يستعملن السكين ولا الشوكة ولا الملعقة أثناء الوليمة كلها .

وفقا للتقاليد النادرة جداً ، عندما تزار سيدة من قبل صديقاتها بمناسبة ولادة طفل تقضي آداب الزيارة والمجاملة أن يضعن في يديها قطعة أو كمية من النقود الذهبية هدية وقدمت اللالة حلومة والاميرات أعظم الهدايا ، وأعطت كل سيدة ما يناسب حالتها المالية . جمعت فضلات هذا العيد بكل دقة وأعطيت إلى الفقراء .

حين غادرت الاميرات الثلاث مساء ، أحضر عدد كبير من الحراس والمصابيح لمرافقة موكبهن . جاء أميران شابان هما سيدي أحمد وسيدي يوسف لمرافقة أخواتهما إلى القصر . كانت السيدات جميعاً ملتفات بجرود من الحرير الابيض ، التي تخفي أجسامهن تماماً .

لا استطيع أبداً أن أغمض عيني من أن الأحظ وأنقل لك التناقض الذي أثار دهشتنا بين ملابس طفل اللالة خدوجة وثياب طفلة سيدة من البندقية التي حضرت تعميدها أمس . فبينما كان الطفل الاول نائماً في سلة مصنوعة من سعف النخيل ومغطى بمنديل من الحرير المطرز ، كما وصفته لك ، نجد الطفلة الثانية مشدودة الاطراف مثل الموميا المصرية . كانت مشدودة بقماط شداً وثيقاً من الرأس حتى القدم بشريط من الحرير الاطلسي الوردي الذي يبلغ طوله عدة ياردات ، وفي نهاية منه ، جمعت جمعاً كاملاً ألطف انواع الشرائط

وأجملها من بروكسل ، تحيط بالطفل مرات متعددة ، بمقدار ما كان الشريط مربوطاً به .

وبناء على القوانين التركية لا يمكن أن يرى حاج مراد ابن اللالة خدوجة الا بعد مرور ثمانية أيام من ولادته .

٣ مارس ١٧٨٧

قيام مرابط باعمال غريبة تثير الدهشة · دور انشاء المراسلات ·

على أثر زيارتنا للالة حلومة والاميرات في منزل اللالة خدوجة ، كما أخبرتك في رسالتي الماضية ، ذهبنا في اليوم الثاني إلى القلعة . يتطلب الذهاب إلى القلعة شيئاً من المهارة والحذق والتصميم ، بسبب عدم وجود عربات أو أية واسطة للنقل ، لنمشي حوالي ثلاثة أرباع الميل ، بالملابس الكاملة ، نخترق الشوارع والازقة حتى نصل إلى القلعة . تحاول سيدات أسرة القنصل الانجليزي وحدهن فقط السير في الشوارع على هذا الأسلوب ، بصحبة بعض السادة والحراس دائماً ، ولكن هذه التحفظات ، ولو أنها تبدو كافية لضمان السلامة والأمن فانها لا تجعل السير في الشوارع ممكناً بسبب ميل بعض البربر لان يكونوا سفهاء : بل على العكس من ذلك ، فان البربر لا يحدثون أية مضايقة ، وانما من زيادة لطفهم ، وكثرة أدبهم الجم ، وحسن مجاملاتهم .

ولما كنا نجتاز قسماً من القلعة ، يصحبنا كالمعتاد الحرس الخاص ، صادفنا أحد الرجال الصالحين من البربر ، أو الولي المرابط . سبق لي وان وصفت لك هؤلاء الناس ، ولكن هذا الرجل يختلف في قيافته العامة على باقي المرابطين . كان يرتدي قميصاً أزرق اللون واسعاً وطويلاً ، يخط في الارض ، وتحته سروال أبيض . ولم يضع على رأسه شيئاً ، فقد حلق شعر رأسه حلاقة ناعمة ، ولم يترك غير خصلة من الشعر المنحدر من الجزء الخلفي من الرأس ، يتألف لباس الرأس للعديد من المرابطين من قطعة من القماش القرمزي ، حوالي أربع

بوصات مربعة موضوعة برشاقة تاجاً على رؤوسهم . كان المرابط الذي التقينا به عائداً من عند الباشا ، بعد أن قام بزيارة خاصة له ومكث وقتاً طويلاً .

كان مظهره مخيفاً ومرعباً ، ترتسم على وجهه ملامح غريبة تدعو إلى الدهشة ، لف حول أكتافه أفعى نابضة بالحياة ، كان حقاً رهيباً ، ومع أننا كنا حذرين من الأفعى السيئة الحظ التي خلع المرابط نابها وأفرغ منها سمها فلم تعد تؤذي ، قبل محاولته لخدع الناس البسطاء السذج ، بأنه الوحيد الذي لا تلدغه الافعى ، فيعتقد البربر بذلك فينظرون اليه بكل تجلة واحترام .

لقد عزينا أنفسنا بحسن حظنا لأننا اجتزنا هذا الشخص دون أن نسترعي اهتمامه عندما اقترب أحد السادة الذين يرافقوننا ومعه نمر كبير وصل منذ برهة من الساحل هدية للبك : ولم يكن مشدوداً شداً محكماً بحيث أنهم كانوا يخشون أن يفك رباطه في أية لحظة ولكنهم ما زالوا يحتفظون به على هـــذه الوضعية الخطيرة ، لعرضه على البك عندما يعود من جولته في الصحـــراء الرملية .

وانتهت تلك المخاطرة ، فدخلنا ممرات مظلمة موحشة ، تبدو دائماً كما لو أنها تؤدي إلى منزل مخيف مرعب معد لدفن الناس وهم أحياء . كانـــت بانتظارنا على المدخل وصيفات اللالة حلومة والمخاصي ، الذين قادونا إلى حجراتها . كانت تمشي في الرواق مع ثلاث من الاميرات : زوجة رئيس البحرية ، وأرملة بك درنة ، والاميرة غير المتزوجة . كن يعزينها كما لـــو كانت تتفجر بالبكاء وذرف الدموع . وبعد ان التحقنا بهن ، دخلت اللالة حلومة الصالة ، فجلست تحت المظلة ، أو موقع الشرف ، وجلست الاميرات والنصرانيات بالقرب منها على جهتيها .

كانت دماثة أخلاقهن ولطف أدبهن واضحين كل الوضوح . دعي عدد من النبيلات البربريات ، إلا أن حفل السمر كان مغموراً بغمامة من الكآبة والحزن ، غير المألوفة ، التي خيمت على محيا اللالة حلومة ، وزوجة سيدي

أحمد وزوجة سيدي البك . دخلت هاتان السيدتان مؤخرا وقد بدا عليهما التأثر والحزن العميق .

حدثت مناقشة حادة وخطيرة كانت سبباً في توتر العلاقات بين البك وسيدي يوسف أخيه الاصغر ، الذي يعتبره شاباً مغروراً وشجاعاً متغطرساً ، وبكل ما يمتاز به من براعة واقحام يبشران بخير فانه يصبح خطراً وذا خلق قاس . تغاضى البك بثاقب فكره ، وحصافة عقله ، ونبل سريرته عن سلوك هذا الشاب الطائش المتعجرف ، ولو أن ذلك السلوك غير خاف لشعبه : ويبدو بأنه شديد الصلة به ، وحتى الان ، كان معجباً باقدامه وبسالته وقد اعتذر لناقديه مدافعاً عمن يدعوه (الشاب الجميل الطائش النزق) .

كان كل الخدم والحراس في القلعة متلهفين ليقصوا أحداث اليوم ووقائعه ولكل واحد منهم رواية مختلفة عن هذين الاميرين . وصلت أنباء وقائع تلك الخصومة إلى آذان السيدات نقلتها المراسلات اللواتي يكدن ويتآمرن في القلعة . وبالرغم من أنهن لا يعشن داخل أسوار القلعة فانهن يكسبن عيشهن مما تتكرم به عليهن بسخاء الفروع المختلفة للاسرة الحاكمة ، ولهن كل الحرية ، في كل الاوقات ، أن يتجولن ويطفن من حجرة أميرة إلى حجرة أميرة أخرى ، يختلطن مع الحرس والجواري والعبيد والوصيفات ، ويسمعن من هؤلاء كل ما وقع من أحداث خلال فترة غيابهن عن القلعة .

يسرفن بعدئذ في تسلية سيداتهن بالثرثرة عما شاهدن وسمعن ، ويقلبن الاحداث والوقائع في مصلحتهن ، لالحاق الضرر والسوء بالسيدات اللواتي يخشين دسهن وكيدهن. يمكن القول بأن السيدات السجينات داخل اسوار القلعة ، يتسلين بكل الأنباء التي تستطيع المراسلات جمعها سواء من داخل القلعة أو خارجها ، وسواء كانت صحيحة أم خطأ .

وحيث يندر الذكاء وتقل الفطنة ، فانهن يواظبن باستمرار في تسلية الاميرات والترفيه عنهن برواية القصص . أو غناء الشعر المرتجل عن أي موضوع يقترح عليهن ، ويقدمن في الغالب المعلومات والآراء عن أمر لا

يجرؤن مطلقاً التطرق اليه أوالتدخل فيه الا تحت ستار التسلية والترفيه .

إن العديد من النساء المراسلات بارعات وحاذقات ، مدربات تدريباً جيدا على المراسلة والجاسوسية وفي الغالب مـــا يعملن في خدمة الطرفين والبعض منهن ، كما هو المنتظر يفقدن حياتهن ، أحياناً : لخديعة أو خيانـــة السيدات البائسات الشقيات ثمناً لما اقترفته أيديهن .

بعد دخولنا حجرة اللالة حلومة مباشرة وجدنا ان رسالة قد بعثـــت إلى سيدي أحمد وسيدي يوسف تعلمهما بوصول النصرانيات إلى حجرتهـــا وترجوهما القدوم اليها ورؤيتها قبل ذهابهما لزيارة الاحتفال الرسمي للباشا ، ولكن على أثر عودة المراسل تولى الحزن العميق اللالة حلومة وارتسمـــت الكآبة على محيا زوجة البك ، فكان من الواضح أن الاميرين منفعلان ومتذمران فلم يلبيا دعوة أمهما .

جاء البك بعد الانتهاء من الاحتفال الرسمي للباشا إلى اللالة حلومة قبل مغادرتنا الحجرة بقليل . فبدا في خلقه المعتاد ، مهيباً وقوراً ، هادئاً ولطيفاً فرحاً ، غير واع بما حدث . عنف زوجته وأمه وأخواته لما يبدينه من مخاوف ، وأخبرهن بأن لا يفزعن أنفسهن ويخشين عليه ، حتى يرين رجاله مدججين بالسلاح في ساعة غير مناسبة « حتى ذلك الوقت » قال البك : « وحيثما أنا على قيد الحياة ، فليس حياتي وحدها فقط وانما حياتكن ، وحياة رعايا والدي بسلام وأمان » .

مكث مدة طويلة في الحجرة ، فشعرت اللالة حلومة بعزاء عظيم قبـــل رحيله .

أعلنت اللالة حلومة في الحرم وضع جائزة كبيرة لكل شخص يجلب لها النبأ الاول من الباشا بعد ارفضاض الاحتفال الرسمي ، وهي من التقاليـــد المرعية في هذه البلاد عند نقل الانباء المهمة . تمنح اللالة حلومة الجوائز بسخاء كبير ، بحيث أنها ليست بحاجة إلى المنادين جاءت معنا مصحوبة بالاميرات إلى حجرة زوجة البك ، لكنها عادت على الفور ، قلقة وكئيبة .

حين غادرنا القصر صادفنا حاشيتي سيدي يوسف وسيدي أحمد مدججين بالسلاح حتى أقل حرس في حاشيتيهما . كان السبب الذي قدم لأصدقاء البك لتعليل هذا المظهر العدائي أن الاميرين يخشيان من مخططات البك ونواياه ، ويتوقعان ثورة حاشيته ضدهما مع أن حراس البك ، بالرغم من هذا التأكيد ، ظهروا في كل مكان ، بدون اضافات غريبة من السلاح ، وقابلنا عدداً من كبار ضباطه ، قبل مغادرتنا القلعة ، الذين القوا اللوم على الامير لأنه لم يتخذ موقفاً حاسماً ازاء حاشيتي أخويه . ولم يوافق ضباط الباشا الذين التقينا بهم ايضا برأيهم على هذه الخصومة : والبعض الآخر لم يكترث إلا قليلا بذلك ، وتحدث آخرون عن الخصومة كما لو أنهم لا يرون بأن الباشا مطمئن على عرشه ساعة واحدة ؛ ولكنهم أبدوا خشيتهم من انجراف البلاد في حالة رعب وفزع مخيف للاجانب والرعايا على السواء ، وكانوا واثقين بأن أي قلق واضطراب يحدث فان الأعراب يغتنمون الفرصة لنهب المدينة وسلبها .

٣٠ يونيو ١٧٨٧

وصول الربان سميث . وصف حدائق الباشا . نصراني يبحث عن كنز . دعوة عشاء . برتقالة تصيب عمامة البك .

وصل الربان (سميث) الذي قاد السفينة العربية من انجلترا وعلى ظهرها عبد الرحمن الطرابلسي في اليوم الثلاثين من الشهر الماضي . سمح الربان بصعود عدد من السادة من موانىء البحر المتوسط أن ينضموا إلى ركاب السفينة ويقدموا معه إلى ولايات بلاد البربر : كان من بينهم السير جون داير ، والسير ليونيل كوبلي ، واللورد جارليز ، وابن السير جون كوليت رومس ، وابن السير شارلز هاردنج . لم ينزل الربان سميث إلى البر بسبب توعك مزاجه ، فتولى القيادة أحد المحاربين ، الذي كان بصحبته ، فحل

محله في قيادة السفينة إلى الساحل .

حدد يوم واحد لقيام الضباط بزيارة الباشا ، وتم الحصول على اجازة لزيارة المسجد الكبير ، وهو فضل من النادر أن يمنح للنصارى ، ولكن لسؤ الحظ ؛ بسبب نشوب خلاف بين البربر حول تحية السفينة الحربية فقد حال الخلاف دون تحقيق ذلك ، لان الربان سميث لم يستطع النزول إلى البر ، وأقنع الضباط الباشا بعدم تحية السفينة . وهذا ما دعا إلى تأخير زيارة ضباط السفينة للقلعة .

بعد بذل جهود كثيرة جداً لإقناع الباشا ، بأن بقاء الربان على ظهر السفينة لا أهمية له ، وافق على تحية البارجة التي كانت تنتظرها ، فأعادت التحية ، قبل أن يستطيع القنصل الحصول على السماح للضباط بزيارة الباشا . لم ينته الاحتفال ، اذن ، الا عند غروب الشمس ، اذ كان الوقت متأخراً لزيارة المسجد .

ان وقوع مثل سؤ التفاهم هذا مألوف هنا ، نتيجة للسلوك الخاص الذي يتميّز به البربر .

وجد القنصل الانجليزي في الفترة التي عاد بها إلى ولايات بلاد البربر بعد غياب قصير الامد ، بأن الباشا يتوقع من السفن الانجليزية أن تجيب باطلاق ثلاثين مدفعاً تحية وقد أثار الفرنسيون مثل هذه السخافة ، اذ أقنعوا الباشا بأن يطلق دائماً طلقة أو طلقتين أكثر من آخر سفينة للدول الاخرى التي تقدم إلى مرفأ طرابلس . كان من الضروري أن يحسم هذا الامر الشاذ الغريب على أساس آخر قبل أن تصل سفينة حربية انجليزية لانها لم ترد مثل تلك التحية الطويلة ، ولا يمكن ، وفقا للاتفاقيات والمعاهدات أن يحيوا بعدد من اطلاقات المدافع أقل من تحية السفن الاخرى .

لهذا اقترح القنصل على الباشا ، بهذه المناسبة أن يحيي الراية القادمة إلى الميناء باحدى وعشرين طلقة مدفع بغض النظر عن البلاد التي تعود اليها الراية ، ولكن اذا قوبلت أية سفينة أخرى بطلقة واحدة أكثر من آخر

سفينة انجليزية وصلت الميناء ، فان السفينة الاخرى التالية يجب أن تحيا بعشرة طلقات مقابل تلك الطلقة الواحدة ولا تجيب عنها الا بتحية احدى وعشرين طلقة . هذا ما وافق عليه الباشا ورضي به ، ولم يستطيعوا أن يحملوه على تغيير هذا المرسوم الذي أصدره .

الباشا وثيق الصلة بالانجليز ، وهم يتمتعون بامتيازات استثنائية ، يتاجرون طبقاً للاتفاقيات والمعاهدات بكل حرية في طرابلس ، في كل شيء تنتجه البلاد . أما البنادقة من الجهة الأخرى ، فقد عقدوا اتفاقية مع الباشا يدفعون بموجبها له مبلغاً سنوياً مقداره خمسة الاف سكوينز (ما يعادل تقريباً الفي جنيه انجليزي) للسماح لهم بشحن الفين وخمسمائة مكيال من الملح سنوياً .

بعد ان تم استقبال ضباط البارجة في القلعة أقيمت وليمة في البلاد في اليوم الثاني حيث وافق الباشا أن يستخدم القنصل احدى حدائقه . كانت الحديقة في أبهى حللها السندسية وأروع جمالها . ولكن مما يؤسف له أنها كانت بأمس الحاجة إلى التنظيم والمسالك اللطيفة ، والممرات النظيفة ، وفي وسط بساتين البرتقال العطرة الروائح من البلاد العربية تضوع من كل الاشجار المحيطة ، الدهشة التي تثيرها نفاستها فتستحوذ على كل المشاعر ولا تدع مجالا للتفكير في أمور أخرى .

تنمو في حديقة الباشا أشجار القهوة والشاي والتين الهندي ، ولكنها ليست اشجاراً محلية وإنما أجنبية ولا تزرع بكميات كبيرة . يبدو القصر في هذه الحديقة واسعاً كبيراً . ولا يختلف القصر عن مساكن البربر الاخرى الا في حجمه ، والمواد التي بني منها ، لأن للبربر طرازاً واحداً للبناء ابتداء من القصر حتى الكوخ . بني القصر من المرمر القرميد الصيني الجميل ، ولكنه يشبه المباني البربرية خال من الزخرفة المعمارية ، أروقة عالية ، تدعم الشرفات الاربع الواسعة حول الساحة المربعة الشكل في وسط القصر . تفتح باب واسعة من كل الشرفات تطل على جناح من الحجرات غير المرتبطة بالبقية . يحتوي كل جناح من الحجرات على قاعة كبيرة أو صالة ، على جهة منها مظلة

الباب ، حيث يكون استقبال الشخصيات البارزة والصالة محاطة بثماني حجرات لا يتصل بعضها ببعض الا من الصالة هذه . تسمى أربع من هذه الحجرات (سدّات) وتستخدم غرفاً للنوم ، وتدعى الأربع الأخرى خزانة ، وتستخدم مخازن فيها التوابل والحلويات وغيرها من الحاجيات الفاخرة . اثنتان من حجرات الخزانة تفتح ببابين واطئين يؤديان إلى الصالة ، ليس فيهما نور يبلغ ارتفاعهما ستة أقدام ، ومساحة كل منهما أربعة عشر قدماً مربعاً ، تؤلفان محلين مربعين للسيدات البربريات والجواري السوداوات ، اللواتي يروين القصص عن الاشخاص الذين اغتيلوا ودفنوا سراً فيها ، وعن أشباح الموتى التي تقيم سهراتها الليلية هناك .

تقفل أبواب تلك المخازن قبيل الغروب ، والبربر يتطيرون كثيراً ولا يرغبون في فتح الابواب ليلاً . وتبقى موصدة حتى الصباح ومن النادر جداً أن تفتح قبل ذلك .

لعل القصة التالية تعطيك دليلا يبرهن على أن جزءاً من مخاوف البربر ليست بدون مبرر . فقد كان نصراني يسكن منذ مدة قصيرة في منزل مبني على الطراز البربري ، اقتنع بالفكرة القائلة بوجود كنز مخفي ومدفون في حجرة الخزانة تحت (السدة) التي يوجد فيها سرير نومه . أمر خدمه بأن يحفروا أرضية الحجرة ، نتيجة لبعض المزاعم القائلة بوجود كنز وبعد أن كسروا بلاط الحجرة ، وقاموا بعمل شاق طيلة ليلتين أو ثلاث ليال ، عثروا على كمية من الشعر البشري والعظام التي أفزعتهم كثيراً ، فأهالوا التراب وأغلقوا الحفرة فوراً ولم يجرؤوا أن يتحدثوا عنه خوفاً من البربر ، الذين لو سمعوا بفضولهم الشديد هذا لانتقموا منهم بقساوة .

يمتد طريق مسقف يمر بالحديقة من القصر إلى الحرم ، وهو بناء صغير ، له محاسنه مربعة الشكل في الوسط ، ومشبك من الاعلى بقضبان ثقيلة من الحديد كما لو كانت كلها نوافذ . ولا عجب إن بدا لأولئك الذين ينظرون اليه لأول مرة ، سجناً محكماً أو محجراً قوياً للعزل .

لا يدخل إلى الحرم أحد غير النساء . كان الحرم خالياً لأن القليل من السيدات المفضلات عند الباشا خرجن إلى المدينة آنذاك . ومن بين الحجرات التي يضعها الحرم حجرة تعد من الطفها وأبدعها ، مزينة جدرانها بالصيني الجميل ، والرخام المعرق ، والمرمر الجميل ، كانت هذه الحجرة مزدانة ، أعدت منذ سنوات قليلة لامرأة سوداء عزيزة عند الباشا والتي تزوجت أخيراً من قائد المنشية الذي تعيش معه ، ويحترمها احتراماً كبيراً . يقال عنها بأنها تحفة نادرة وممتازة لجارية سوداء .

حضر حاج عبد الرحمن السفير ، وثلاثة آخرون من البربر حفل عشاء أقيم في شرفات القصر . لسوء الحظ شق أحد المرابطين طريقه إلى وليمة العشاء هذه . وبناء على ما يتمتع به حاج عبد الرحمن من مكانة اجتماعية ودينية فإن الإلحاح على خروجه يعتبر اساءة كبرى بالنسبة للبربر ، في مثل هذه المناسبة ؛ كان متألماً من البقاء ، وكان وجهه ممتقع اللون مشمئزاً ؛ كانت ملابسه عبارة عن جرد من الصوف قذر ، أو بطانية ، ملفوفة حوله اتخذ مكاناً بالقرب من البربر وبجوار حاج عبد الرحمن . لم يتحدث مع النصارى . ولكنه كان يشير في حديثه باستمرار اليهم ، ويظهر أنهم نالوا حظوة عنده كما يبدو من المجاملات والأدب الجم الذي كان قائماً بين السفير وبينهم . أكل المرابط بكل شهية ولم يفسح عبد الرحمن له الفرصة بأسلوب لطيف ومؤدب لأن يقترب إلى المائدة علماً بأن اسلوبه في الأكل سيكون مسيئاً ومضايقاً للحاضرين .

قبل أن ينتهي المدعوون من المائدة ، وصلت الأنباء بأن الأمراء الثلاثة خرجوا إلى الصحارى للتسلية في مباريات على الرمال . وقد ظن بأن إعلان هذا النبأ أشبه شيء بتحية إلى الضباط الإنجليز ، فأسرع كل واحد ليشاهد العرض المدهش الذي لم يألفه الأوروبيون .

ظهر البك وأخواه في أبهى حللهم وأجمل ملابسهم ، وكان يصحب كل واحد منهم ضباطه وعدد من الفرسان والخيول . وكانت الفرقة الموسيقية الملكية تعزف للبك . عندما وصل النصارى إلى الرمال كان سيدي أحمد وسيدي

يوسف يقومان بعدد من المناورات وحركات الفروسية مرات عديدة ، التي تتألف من معارك وهمية الخ ... ولأني سبق وأن قدمت لك وصفاً لمثل هذه التسلية فإني لا أكرر ذلك .

إنضم إلينا الأمراء الثلاثة بعد أن رجعوا من رمال الصحراء ، فوقفوا برهة من الزمن يتحدثون ، ويشرحون بعض الأعياد الخاصة التي يحتفلون بها ، وأخبرونا بأنه لا زالت تقاليد القتال من أجل استرداد قوادهم ورؤسائهم حين يقتلون في حرب ، حتى لا يلحق العدو العار والشنار ، وعندها تتنافس أعداد كثيرة للتضحية من أجل الحصول على جثة القائد المقطع الأوصال ، فإذا ما انتصروا في ذلك ، فإن أغانيهم وابتهاجاتهم بالنصر تسمع من عدة أميال .

بينما كانوا يتحدثون تقدم البك لدعوة النصارى إلى حديقته في طريق عودتهم إلى المدينة . أما الأميران فكانا يكران ويفران إلى الأمام والخلف بسرعة هائلة ، يطلقان النار على أقدام الفرسان الذين امتطوا ظهور جيادهم .

كان البك وسيدي يوسف يرتديان بدلتين باهظتي الثمن ، كما كان جميع ضباطهما ومماليكهما وعبيدهما السود ، فكان مظهرهما يتركان انطباعاً عظيماً . حين وصلنا إلى الحديقة وجدنا البك قد ترجل سلفاً ومعه ضباطه يحيطون به على أتم الإستعداد لاستقبالنا .

كان اهتمام البك الخاص بالنصارى واضحاً وجلياً قد أثار انتباه أمير بربري ، لم تتح له الفرصة لمغادرة البلاد ليزور القصور اللطيفة في أوروبا . حدث عن طريق المصادفة عندما كان البك يرحب بضيوفه النصارى ويكرم وفادتهم أن انطلقت برتقالة من يد ضابط صف بحري شاب سيء الحظ فأصابت عمامة البك . أحدث هذا العمل غير اللائق اندفاعاً مفاجئاً من قبل الحرس الأسود الذي يحيط بالبك ، والذي بدا عليه الغضب والتهديد بتوبيخ المعتدي وتأنيبه في الحال ، ولكن ملامح وجه البك التي لم تتغير لم تخولهم القيام بمثل هذا العمل ، بينما ظل متحفزاً ينتظر أوامره فقط ليستنكر الإساءة غير اللائقة .

ولكن الحادثة انتهت بسلام ، بمعذرة تقدم بها القنصل والضباط الإنجليز في الحال إلى البك .

توضح لك هذه الحادثة مزاج البك وطبعه ، ففي اليوم الثاني ، عندما قدم له اعتذار آخر عن هذه الحادثة غير المقبولة فأجاب بأنه يخشى من غضب حاشيته في تلك اللحظة فقط ، لأنهم لم يألفوا أبداً حالة تدعو إلى وجوب احترام شخصه بحضورهم ، أبدى البك رغبته بتقديم واحد من أحسن ما لديه من خيول عربية هدية للربان وإرساله في قارب البارجة . قال البك بأن لا شك ابداً بأن هذا الشاب المسيء سيتعلم آداب زيارة الأمراء في المرة الثانية .

إن وقوع مثل هذه الحادث في الجزائر ، من المؤكد أن يؤدي إلى ما لا يحمد عقباه ، فقد يكون الضابط ضحية لغضب البربر ، وقد يؤخذ القنصل في الحال إلى القلعة ، فإذا نجا بحياته فانه يظل أسيراً حتى تدفع الحكومة الإنجليزية مبلغاً كبيراً من المال فدية له الأمر الذي يحدث مراراً وتكراراً في الجزائر لأقل انفعال وهياج .

كان لهذه الحادثة أثر عميق في البربر : لأن الإساءة كانت موجهة ضد آداب المجاملة مباشرة ، التي يتحلى بها بقية الضباط الإنجليز ، الذين كما لاحظ البك بعدئذ ، وكما كانوا دائماً ، مؤدبين ومجاملين .

كان السير جون داير متلهفاً لحمل سيف دمشقي هدية إلى أمير ويلز ، فقد عاد الحجاج من مكة ، ومن المحتمل أن ينجح في الحصول على سيف واحد.

تتميز تلك السيوف العربية الحدباء ، المشهورة في جمالها وخفتها ، فانها أيضاً مصنوعة من الفولاذ الملقح بالعطر ، بحيث أن الشذى العطر الذي يفوح منها لا ينتهي حتى ولو بقيت قطعة من تلك السيوف الممتازة . يتراوح سعر السيف الواحد من خمسين إلى مائة جنيه إلا أن السيوف المقلدة ، لها رائحة اصطناعية ، وتباع بسعر بخس أقل من ذلك بكثير .

أبحر الربان سميث في اليوم الخامس من وصوله إلى طرابلس ، وقد دعتنا اليوم أسرة عبد الرحمن لحضور حفل ابتهاج عام احتفالا بعودة السفير ، ذلك

الإحتفال الذي سأصفه لك في رسالتي القادمة .

إن المشي الهادىء والجاذبية لحرباء تتسلق الآن غصن شجرة برتقال في النافذة يدعوني لأن أصف لك هذا الحيوان الغريب . جلبناه معنا هذا المساء الى المنزل من أحد البربر فإذا ما عاش حتى الغد فإنه سيتمتع بحريته . فعندما كان على الأرض بين الأعشاب الخضراء كان لونه جميلا أخضر ، لا يمكن التمييز بينه وبين الأعشاب ، إلا من قبل أولئك الذين تعودوا البحث عن هذا الحيوان ، ولكن منذ اللحظة التي جيء به ، ونتيجة للخوف والغضب ، فقد تغير كثيراً فأصبح أسود اللون تماماً . أما الآن فهو أقل وضوحاً وتمييزاً وبدون خضاب أخضر تبدو عيناه غريبتين ومدهشتين ولماعتين كحجر الألماس ، ومتحركتين كأنهما يدوران على محور يدق احداهما في موضوع يواجهه ، بينما يستخدم الأخرى في ملاحظة ما يقف وراءه تماماً .

حاولنا مرات عديدة أن نحتفظ بواحد من هذه المخلوقات ، ولكن بدون نجاح . يشاع بأن هذا الحيوان يعيش على الأكل من الهواء ؛ فهو حيوان نهم جشع في تناول الطعام ، من الحشرات التي يلتقطها بخفة نادرة يطلق لسانه عليها ، تتغير ألوان الحرباء ، كما شاهدناها وتتلون بلون البيئة التي يوجد فيها . ولعل أكثر الألوان تغيراً هو التحول من اللون الأخضر إلى اللون الأسود . ولو وضع هذا المخلوق في أكثر أنواع الحرائر لمعاناً ، فإنه لا يمكن تمييز ظل لون الحرير إلا قليلاً في البقع الصغيرة التي يترقط بها جسمه .

٢ يوليو ١٧٨٧

حفلة رقص في منزل اللالة اماني · سيدي يوسف يتخفى في جرد · قتل فتاة غسلا للعار ·

يتجلى احترام ومحبة شعب هذه البلاد للسفير وأسرته بكل وضوح بالعدد الكبير من السيدات البربريات ، وكلهن من الطبقة الأولى الممتازة ، اللواتي

حضرن حفل الإبتهاج الذي أقامته اللالة أماني بمناسبة عودة السفير .

كانت الساحة المربعة في وسط الحوش قد أعدت اعداداً كاملاً ، كما هي العادة المتبعة هنا ، على هيئة صالة لاستقبال الضيوف . وقد أقيمت مظلة تغطي سماء الساحة تقريباً ، وتحول دون اختراق أشعة الشمس القوية التي تبهر العيون . كانت الأرض مفروشة بالحصر والسجاد التركي ، وعليها نثرت الأرائك والوسائد في الجهات الأربع من الحجرة للجلوس . أما بقية المدعوات ، بعد أن تشغل كافة المحلات ، فإنهن يجلسن بدون أي تمييز على الأرض ، أمام السيدات اللواتي سبق وأن جلسن متكئات على الأرائك .

كان في الوسط عدد من النساء الراقصات ، وأخريات يعزفن الآلات الموسيقية البربرية يغنين وينشدن الشعر ارتجالا يحيين به عودة السفير . وكان من المتوقع أن تهدي كل واحدة من السيدات الحاضرات قليلاً من المال إلى أفراد الجوقة الموسيقية ، وقد قامت المدعوات جميعهن بذلك .

كانت أغاني الفرح ابتهاجاً بهذه المناسبة تسمع من مسافة طويلة قبل وصولنا المنزل فلم يكن من الصعب أبداً أن نكتشف دربنا مخترقين الحشود المتجمهرة في منزل زوجة السفير وأسرته ، اللواتي كن جالسات مع سيدات الطبقة الممتازة من بين المدعوات .

بعد ساعة من وصولنا ، وعند غروب الشمس ، نهضت اللالة أماني فقادت المدعواة إلى أروقة المنزل ، التي أعدت أعداداً مشابهاً لوسط الحوش ، المغطاة بالمظلات ، والمفروشة بعدد كاف من الحصر والسجاد والوسائد . في هذه الأروقة وضعت موائد بربرية واطئة الإرتفاع عليها أنواع اللحوم من كل شهي ولذيذ تنتجه البلاد . كانت المرطبات الرئيسية هي الشربات التي سبق وأن وصفتها لك ، المصنوعة من الزبيب المغلي الممزوج بالسكر وعصير الليمون . تلزم لإقامة مثل هذه الأفراح من مائتين إلى ثلاثمئة وزنة من هذه الفاكهة . كانت اللالة أماني وابنة السفير الكبرى ، يتجولان حول الموائد ، بينما جلست المدعوات ، تتحدثان معهن ، وتراقبان سير الخدمة على ما يرام .

في أثناء عزف الموسيقى دخلت اللالة زنوبيا ، زوجة سيدي البوني والسيدة التي يعزها البك كثيراً ، مع إحدى السيدات القريبة لأسرة أحمد خوجه ، وعدد آخر من السيدات البارعات الجمال المستبشرات الضاحكات ؛ دخلن اضطراراً لفترة قصيرة ؛ بعد دخولهن ببرهة من الزمن انتشرت إشاعة في الحجرات أحدثت فزعاً خطيراً : ان سيدي يوسف حاضر بين المدعوات جاء متنكراً بزي امرأة واندس بين صفوف الخدم .

إن كشف هويته قد يكون ضربة قاضية له ؛ بل إن مجرد التفكير بوجوده في منزل السفير يفزع اللالة أماني ويرعبها . منذ اللحظة التي نشرت فيها الإشاعة ، وكل واحدة من السيدات في هياج واضطراب ، أما السيدات اللواتي احتشدن في الشوارع والطرقات المؤدية إلى المنزل فقد ركضن إلى الأزقة والطرقات يخفين أنفسهن ، وتأكدت إشاعة وجود سيدي يوسف بينهن ؛ فغادرت اللالة زنوبيا وصديقتها في اللحظة نفسها .

روى أحد أقرباء أحمد خوجة القصة التالية عند غيابة ، لقد كتبت لك عن سفير هذا النبيل ؛ الذي ذهب سفيراً إلى إسبانيا قبل سنتين . وصلت الأنباء على ما يبدو عن اعتناقه العقيدة الكاثوليكية الرومانية منذ ستة أشهر . وقد تم ذلك بحفل فخم مهيب في إسبانيا ونال في الحال لقباً إسبانياً وأصبح من الطبقة النبيلة .

ليس من المألوف أن تصادف رجلاً أكثر ثقافة وتنويراً ؛ وأرق إحساساً ، وألطف مشاعراً بل في الحقيقة أكثر سوء طالع . أهملته زوجته وتنكرت له ، وكان ضحية الخيانة والخديعة ليحطم حبيبته ؛ ويتلطخ شرفه بسلوك ابنته ؛ فغادر البلاد محملا بالهموم قلقاً متبرماً .

بعد سفره بأقل من ستة أشهر في سفارته إلى مراكش وإسبانيا ، فقد قتلت ابنته (بأمر من عمها) من قبل ابن عمها ، غسلاً للعار ، بسبب سوء سلوكها الذي كان يستوجب التعنيف والزجر الشديدين باختلاطها مع النصارى والبربر على السواء . تنكر هذا الشاب وأخفى نفسه في جرد ، ودبر خديعة

للدخول إلى حجرتها ، منتحلا شخصية واحدة من وصيفاتها ، وبينما كانت تغط في نومها شهر عليها مسدسه وأطلق عليها رصاصة اخترقت جسمها دون أن تقتلها . فأسرع إلى نجدتها طبيب يعود النصارى ، فتماثل جرحها إلى الشفاء ، ولكنها كانت طائشة ، عديمة الإكتراث بتحذيره الخطر ؛ مع أن أخـاها الشاب في الثامنة عشر من عمره ، الذي كان يحبها حباً عظيماً ، يخبرها باستمرار بوجود المزيد من المحاولات الجدية التي تبذل كل يوم للقضاء على حياتها ، وتوسل إليها أن تكون أكثر حذراً وأشد يقظة . بعد بضعة أشهر من شفائها ، عندما كانت تتنزه في الحديقة ، استفقدها الخدم فلم يجدوها ، فهرعوا للبحث عنها فوجدوها مشنوقة جثة هامدة ملقاة على الأرض في إحدى زوايا الحديقة ، فقد كان مصيرها الحتمي قد تقرر بصورة نهائية .

أجري التحقيق عن تلك الجريمة الشنعاء المرعبة مع الحاضرين ، فأنكر كل واحد صلته بها . بعدئذ أعلن نبأ الحادث ، وسرعان ما اعترف به عمها ، الذي كان حاضراً أثناء التحقيق ؛ قائلا بأن الأرواح الشريرة وحدها هي التي اغتالت هذه الشابة البارعة الجمال .

شاهدنا أخاها مراراً عديدة في ساعة موتها ، فبدا متألماً جداً ، لا يقبل التعزية ولكن وفقاً لأسلوب التفكير البربري ، وبسبب ما نال شرف أسرته من العار فلا بد من غسل ذلك العار بالتضحية الرهيبة هذه ، فلا يجرؤ أن ينبس ببنت شفة ، ولا أن يبدي تذمره وحنقه ولا أن يتحدث بصراحة .

انفرط عقد المدعوات من منزل اللالة حلومة عند غروب الشمس ، واستمرت هذه الإحتفالات والإبتهاجات ثلاثة أيام . كان المنزل يعج بالمدعوات في اليوم الأخير مثل اليوم الأول .

٢٠ أغسطس ١٧٨٧

وصول مولاي يزيد بن امبراطور مراكش •

وصل إلى هنا ابن إمبراطور مراكش منذ عدة أسابيع ، وسيبقى بضعة أيام أخرى قبل أن يشد الرحال إلى مكة . كان من المتوقع مروره في السنة الماضية والتي قبلها ، إلا أن رحلته إلى الديار الحجازية قد تأجلت بسبب انتشار وباء الطاعون . يبدو قيام مثل هذا الشقي بالحج انتهاكاً لحرمة الديار المقدسة وتدنيساً للمعابد ، بسبب ما يرتكب من جرائم مدمرة ومحطمة ، وما تقترف يداه من قتل وخنق للأنفاس السيئة الحظ التي تحت إمرته ، بحيث أن كل خطوة من تلك المسيرة الدموية إلى الديار المقدسة يخطوها هذا الشقي تلطخ الدرب إلى الأرض المقدسة . كان يصطحب معه سبع زوجات ، خمساً منهن إغريقيات جميلات ، واثنتين سوداوين ، وعدداً من أطفاله . وضعت إحدى نسائه ولداً قبل بضعة أيام ، فأقام مولاي يزيد لمناسبة ولادته ابتهاجاً عظيماً ، لأنه ابن شريف ولد في طريق الحج إلى مكة (١) .

كان لذلك الإبتهاج أعظم النتائج غماً وحزناً : فقد كلف إمبراطور

(١) مولاي يزيد ابن السلطان مولاي محمد أمه انجليزية دخلت في الاسلام • معروف بقسارته وشراسته • ولم يدم حكمه اكثر من سنتين • ان خلق هذا الطاغية الفظيع حقيقة يتفق عليها معظم المؤرخين فقد شهد أحد الكتاب بنفسه الحقائق التي يرويها • بعد ان أطلع الامبراطور العجوز على ما كان يرتكبه ابنه من جرائم منكرة وآثام صمم أن لا يرى ابنه الا أن يؤدي فريضة الحج الى الديار المقدسة ثلاث مرات • على أمل ن يطلب المغفرة من الله ، وان يدرك ما جنت يداه فيصفح الله عنــه ويعود انسانا جديدا ، الا أن يزيد لم يكف عن القيام بالاعمال المشينة ، وظــل يعيش حياة رداءة كلها فسق وفجور • توفي هذا الطاغية مثقلا بجراحه في حرب خاضها ضد أبيه في فبراير ١٧٦٢ •

Abrégé de la vie de Mulay Yiezit, PP: 7 — 132
Imprimé à Rome, 1794.

(المترجم)

مراكش أحد أمناء خزانته أن يمون مولاي يزيد بمائتين (كوبس) أو (خمسين جنيهاً) كل يوم . إلا أن الطاغية زاد في البذل والعطاء في الأيام الأخيرة أكثر من المقرر ؛ فاحتاج إلى بذل المزيد إبتهاجاً بهذه المناسبة . إلا أن المسؤول عن الصرف ذكره بأوامر الإمبراطور ، فأمر بجلده أربعة آلاف جلدة ، ووضع في فمه كمية من الرمل . إن هذا البربري التعيس أقرب إلى الموت منه إلى الحياة . حتّى أن الذين يتحدثون عنه يتمنون له الموت . ظن مولاي يزيد بأن أحد الخدم قد تأخر عن الإبتهاج فأنزل فيه عقوبة صارمة وهو الآن يعالج سكرات الموت.

هرب رقيق إسباني ، ضمه الأمير المراكشي إلى خدمته ، منذ بضعة أيام . يهدد مولاي يزيد من أجل العثور عليه وإرسال خمسين رجلا إلى السفن الفرنسية الراسية في الميناء ، ظناً بأنه قد اختبأ فيها ، يعارض الباشا هذا التدبير ، ويعتبره إهانة للراية الفرنسية . ولكن حيثما وجد هذا الكائن التعيس ، واكتشفه مولاي يزيد فسيكون له الحق في استرداده وطلبه من الباشا . إلا أن سفر الأمير قد تقرر غداً مع قافلته ؛ فمن المأمول أن يهرب هذا الفقير البائس .

٢٦ أغسطس ١٧٨٧

غادر مولاي يزيد أمس مع حاشيته إلى الإسكندرية فقوبل نبأ سفره بشيء كثير من الطمأنينة من قبل الكثيرين . أعد كل شيء إعداداً فخماً ومريحاً لضمان راحة السيدة السوداء (أم ابنه الأخير) على حساب راحة وتسلية السيدات الأخريات اللواتي يصحبنه بسبب ما بذل من مصروفات باهظة على السيدة التي يعزها ويفضلها ؛ فكانت راحتهن أقل من المعتاد . توفي الشخصان اللذان عوقبا من قبل مولاي يزيد عقاباً شديداً ؛ وظل الرقيق الإسباني مختفياً في أحد المنازل في طرابلس . وينتظر رجوع هذه الطاغية إلى هنا من مكـــة السنة القادمة .

٢٠ سبتمبر ١٧٨٧

دعوة أسرة حاج عبد الرحمن القنصلية الانجليزية ·

كنا في الليلة الماضية سعداء ومحظوظين جداً بدعوة سيدات أُسرة حاج عبد الرحمن لتناول طعام العشاء ؛ وهي الحالة الوحيدة التي أكرموا فيها دار أسرة نصرانية إكراماً عظيماً . جاء السفير نفسه أولا في الساعة التاسعة مساء : بعد حوالي عشر دقائق ، سيدته وابنته الكبرى من زوجته الأولى ، وسيدتان بربريتان ، قريبتان من الأسرة مع الخادمات البيضاوات والسوداوات.

انسحب السادة ، ولم يجرؤ أي واحد من الخدم الذكور على الظهور . غادرنا السفير بأدب وبصورة لائقة جداً ، بناء على تقاليد البلاد ؛ لأنه لا يستطيع الظهور إلى وليمة العشاء مع أسرته .

عندما دخلت السيدات البربريات إلى المنزل ، كن محجبات تماماً . فكان من المستحيل الكشف عن وجوههن والتعرف عليهن إلا من قبل حشد الخادمات اللواتي يحيطن بهن وبياض ورقة قماش جرودهن . عندما رفعت خادماتهن الحجاب الفوقاني ، فقد كشفت الجرود الشفافة الثانية عن الثياب الباهظة التكاليف . وكميات عظيمة من الحلي والمجوهرات . لم تضع إغريقية عبد الرحمن المساحيق ، أما بقية السيدات كن متطريات متزينات . أخبرتنا اللالة أماني عن سبب عدم إضافتها هذه الزينة إلى بقية ملابسها وثيابها ، لأنها أم الأسرة ، ولأن عمرها لا يسمح بذلك خاصة للمصليات البربريات ، حيث

---

(١) وفقا للتقاليد الشرقية لا تحضر النساء مجالس الرجال ولكن تقوم الزوجة عادة باعداد مائدة الطعام وتقف في خدمة سيدها وحضورها يضفي السرور ويجعل الطعام اكثرشهية ·وتهيء الزوجة حجرة الطعام وتعطرها بالروائح الذكية،وتعد احسن أنواع النبيذ مذاقا وتستقبل سيدها بكل احترام وترحاب · اما بين الناس البسطاء فتقف المرأة أو تجلس في زاوية الحجرة بينما يتناول الرجل الطعام وتحمل على الغالب اناء لغسل يديه · ان هذه التقاليد التي يدعوها الاوربيون بربرية تبدو طبيعية جدا ·

يحرم عليهن التطرية والزينة عند أداء فريضة الصلاة : فيجب عليهن ، مضطرات أن يغسلن زينتهن كل مرة يؤدين فريضة الصلاة .

كان الإحتفال مسلياً لنا جداً رأينا فيه المفاجآت والطرف التي أثارت الفضول والدهشة في ضيوفنا : كن ينظرن إلى كل مادة شيئاً جديداً ، أعجبن جداً بالكتب الموضوعة ، ربما أنهن اعتدن رؤية الكتب فقط ، أو أنهن سمعن بالمخطوطات . فمن الصعب جداً أن يعرفن بأن السيدات يجلسن ليقرأن في الكتب التي شاهدنها . زارت المدعوات الحجرات التي كانت مخصصة لنوم الضباط والسادة بصورة مؤقتة ، فلم يخف البعض منهن دهشتهن من قبول الضيوف الذكور للنوم بنفس القسم من المنزل حيث تعيش سيدات الأسرة ، وعندما شاهدن أسرة النوم ، اعتبرن النبأ (كما قلن) عن تلك الأسرة ، المغلوقة في الستائر ، حجرات منفصلة بينما أسرة نومهن موضوعة على أرض سدانها أو حجرة النوم ، تملأ مظلة محاطة بستائر غالية كما سبق وأن وصفتها لك من قبل .

لم تستعمل أية سيدة منهن أثناء العشاء السكينة والشوكة : ما عدا زوجة عبد الرحمن وابنته ، اللتان بدتا وهما يستعملانها بكل أدب ورشاقة . ولم تشرب إحداهن النبيذ وإنما اكتفين بشرب الشربات وعصير الليمون ، وكن في غمرة من الفرح والإنشراح كما كنا نحن.لم ينته العشاء عندما عاد السفير ، رحب به عدد قليل من المدعوات في غرفة الإستقبال ومخالف تماماً للتقاليد البربرية أن تقدمه إلى الحجرة التي فيها زوجته وأسرته . أخبرنا خلال حديثه ، عندما كان ينتظر مغادرة السيدات البربريات ، بأنه ، أمر عندما كان في إنجلترا بصنع فستان باهظ التكاليف جداً ، كان قد قام بصنعه خدمه ، لغرض إهدائه إلى إحدى سيدات القصر (اللادي أيوليزبوري) مع حزام غال جداً ، وأنه أرسل فستاناً آخراً إلى بلاط السويد بعد سفارته إلى تلك البلاد .

قضى عبد الرحمن معظم أيام حياته في السفارات ، وبسبب حياته الطويلة في القصور الملكية الأوروبية ، فإن أفكاره وأعماله أكثر تهذيباً ولطفاً من أي

بربري مثقف ، ومع أنه من أكثر المسلمين حرصاً وتحفظاً فإنه يسمح لابنته ، عندما تتجمل بثيابها ، أن تلبس العديد من الهدايا التي تسلمها من الملوك والحكام النصارى التي ليست إضافة قليلة إلى حليها وزينتها ، وهي فخورة كثيرة الإعتزاز بها ، تخلصها من أتعاب السؤال والإستفسار عن مدى محبة وتقدير كل ملك في أوروبا لعبد الرحمن . من بين تلك الحلى وسام ذهبي ، هدية من ملك السويد قطره أربع إنشات ، ولكن صناعته دقيقة وفنية ، تتصل بتاريخ السويد ، منقوشة نقشاً جميلا عليها ، فهي موضع تقدير وإعجاب شديدين .

وفي منتصف الليل تقريباً ، تقدم عبد الرحمن ، يحيط به حرسه الأسود وسيدان بربريان السيدات إلى المنزل ، وقد أسدلن جرودهن على أجسامهن فحجبنها ، ولبسن جزمهن الجلدية الصفراء وأحذيتهن فوقها وخرجن من المنزل تحيط بهن خادماتهن السوداوات والحراس والخدم يحملون المصابيح .

٢٦ أكتوبر ١٧٨٧

اشاعة نبأ وفاة الباشا . قصة ايستر . محاولة سيدي يوسف لطعن نفسه عندما شعر بخيبة الامل في شفاء ابيه .

لم تسنح الفرصة للإتصال بالعالم النصراني فحالت دون إمكانية إبراد رسالتي الأخيرة ولهذا فإن هذه الرسالة سترفق بها لتروي لك قصة الباشا الذي كان مريضاً جداً ، في حالة تدعو إلى الشيء الكثير من الرثاء والأسف ، كان يظن منذ مدة طويلة بأن سيف الخصومات المحلية مسلت فوق رأس هذه البلاد المخلصة يهدد بوقوع كارثة تجتاحها وتستولي عليها في اللحظة التي يتوفى بها الوالي الحاضر .

كان توقع الشر المتأصل في الأميرين الشابين ضد أخيهما الأكبر — البك — واضحاً وجلياً خلال الأيام الثلاثة الماضية . وقع الباشا فجأة مريضاً وهو الآن

طريح الفراش ، وسرعان ما أشيع نبأ موته . فأغلق البربر حوانيتهم ودكاكينهم وغرقت البلاد في موجة من القلق والإرتباك ولكن حقيقة الأمر كما يلي : ينسحب الباشا دائماً بعد العشاء إلى حجرة نومه أو السدة ، حيث تسهر على رعايته وخدمته البعض من السيدات اللواتي يوليهن ثقته التي لا تتزعزع . كانت من إحدى السيدات اللواتي يعزهن ويفضلهن امرأة سوداء اللون ، وأخرى يهودية ، تجلس بجواره ، وتقص له القصص حتى يتولاه النعاس فينام . وتعرف اليهودية هنا باسم ملكة (إيستر) التي كانت تعتبر زعيمة الأمة اليهودية، لأن كل الإلتماسات والنعم التي تمنح لليهود من قبل الباشا يتم الحصول عليها من الوالي بفضل ما تتمتع به من تأثير ونفوذ على الباشا .

تذهب هذه المرأة كل يوم تقريباً من محلة اليهود (دكة اليهود) — وهي حارة من حارات المدينة التي يعيش فيها اليهود — إلى القلعة ، قبل قيلولة الباشا ، أو ساعة النوم بعد الظهر . وهي ليست شابة في مقتبل العمر ، بدينة ممتلئة الجسم ، حتى يظن من الضروري أن يمشي خمسة أو ستة رجال بجوار الحيوان الذي تركبه ، ليتسنى لهم ، في حالة سقوطها أن يعيدوها ثانية إلى ظهر ذلك الحيوان. كانت هذا اليوم في القلعة، وبعد أن روت القصص إلى الباشا فأغمض جفنيه مستسلماً للنوم ، فأنسلت (إيستر) من حجرته . فاستيقظ الباشا ولم يجد نفسه في حالة جيدة ، حاول أن ينهض فسقط من سريره على أرض الصالة (من ارتفاع أكثر من ثمانية أقدام) ، فوقعت عينا وصيفته السوداء على وضع الباشا فركضت مسرعة إلى اللالة حلومة تنقل إليها نبأ ما شهدت . ظل الباشا فاقد الوعي بضع ساعات ، فأسرع سيدي يوسف عندما سمع بما حل بأبيه ، إلى حجرته ، حيث كانت اللالة حلومة وجميع الخدم محتشدين حول الباشا .

حاول سيدي يوسف أن يطعن نفسه بسكين عندما شعر باليأس وخيبة الأمل بشفاء والده إلا أن سيدي أحمد منعه من ذلك : أعلن هذان الأميران على أثر خصومة نشبت بينهما من جهة وبين (البك) من جهة ثانية ، منذ

بضعة أسابيع مضت ، بأنه في اللحظة التي يموت بها والدهما فإنهما يقتلان نفسيهما ، فلا يرغبان البقاء على قيد الحياة لينفذ فيهما (البك) حكم الإعدام . فاتفق الأخوان سيدي أحمد وسيدي يوسف على أن يعملا معاً يساعد أحدهما الآخر ، على ضوء مصلحتيهما ، ضد (البك) : ولم يجرؤ أبداً في المخاطرة بالجهر في مثل هذا القول أمام الناس من قبل . عندما سمعت بما دار بين الأميرين اللالة حلومة احتجت متذمرة أمام كل الحاضرين . فاتخذت قراراً حاسماً بشرب قدح من السم القاتل في اللحظة التي يتوفى سيدها ، حتى لا تنظر بعينيها ما يجري في القلعة من المشاهد التي تعرف حقاً بأنها ستعقب وفاة الباشا .

حين استمر الباشا في مرضه الخطير في اليوم الثاني ، سلح سيدي أحمد وسيدي يوسف رجالهما . عقد في الصباح مجلس كامل ، حضره كل شخص بسبب مرض الباشا .

بدا البك هادئاً رابط الجأش ، مهتماً جداً بوالده ، ولكنه كان منزوع السلاح مثل رجاله وحاشيته . عندما استفسر البك عن السبب الداعي للتدجج بالسلاح ، بالظهور بمظهر العداء والخصومة بدون أوامر صادرة منه ، فأجيب بأن أخويه قد سلحا رجالهما في الساعتين الأخيرتين . سأل البك عن السبب الذي علل به أخواه التسليح المفاجىء فأخبر لعدم الثقة بالأوامر الصادرة منه والمتعلقة بهما شخصياً . أبدى رغبته مباشرة بأن ينزع رجالهما السلاح وأن يقنع أخويه بسلامتهما وأمنهما .

قال البك إن حقه في العرش أمر مقرر برغبة أبيه وشعبه ، ولا حاجة تدعو للقيام بخطوات استثنائية ، ورجاهما أن لا يتسلحا ثانية بدون أوامر صادرة منه . كانت النتيجة المنتظرة من السلوك هذا الذي أبداه البك أن ينزع أخواه السلاح مباشرة ، ولكنهما لم يفعلا ذلك ، وصحة الباشا في تردُّ مستمر ، وكانت حاشية البك وكل من يتعلق به في قلق شديد . وخوفاً على البك أن يقع فريسة لأخويه ، فإنهم لا يبقون مكتوفي الأيدي حتى يسمح لهم البك في التسلح ، فأصدر أمره بمنع أخويه من الظهور مدججين بالسلاح في حضوره .

كان الدخول إلى القلعة صباحاً مسموحاً به ، ولكن بعد الظهر أُغلقت كافة الطرقات والشوارع المؤدية لها . وكان كل شخص فيها بدون تمييز في حالة دفاع . ولم يستطع الدخول والخروج إلا بعدد قليل جداً ، وظلت القلعة والمدينة في حالة من القلق والإضطراب والغموض حتى اليوم الثاني . كـــان الهياج والغضب والإنفعال الشديد الذي أرتسم على وجه اللالة حلومة أوقعها في حمى لا زالت تكابد من آلامها .

تماثل ، الآن ، الباشا إلى الشفاء، فهدأت القلعة، ولكن منذ لحظات شفائه أبدى عدم ثقته بالبك ، بدون سبب يذكر .

٢٢ نوفمبر ١٧٨٧

انفجار جبل مونت آتنا .

وصلتنا أنباء من أوربا منذ أمد قريب جداً ، توضح لنا ظاهرة ما فوق الطبيعة حدثت منذ مدة قصيرة تدفعني لأن أقص عليك عن الأسلوب الإستثنائي الذي أثر به انفجار مونت أتنا في هذه البلاد(١) التي بدت أرضاً يباباً وقفراً مهجوراً. كانت السماء ملبدة بالغيوم الداكنة السميكة ، تنهال منها الأمطار الغزيرة التي أحالت الجدران البيضاء للمنازل وصبغتها باللون الأسود كما لو كانت قـــد خضت بماء قاتم أسخم ملون باللون الأحمر . تبدو هذه الظاهرة بدون شك ، نتيجة لانفجار (مونت أتنا) في يوليو الأخير .

ومن الحمم البركانية العظيمة التي قذف بها الجبل ، وأمطار الرمال

(١) جبل اتنا ، يسمى الان مون جيبللوا وهي أعلى جبال صقلية ، وهو معـــروف بانفجاراته المتكررة المخيفة ، التي طالما دمرت البلاد الى مسافة طويلة . يقال ان ارتفاعه ثمانية اميال ومحيطه سبعة عشر ميلا ، الاجزاء السفلى كثيرة الزراعة . ووسطه مظلل بالغابات والاحراج، وتغطي الثلوج قمته معظم أيام السنة ، بالرغم من الحمم البركانية التي يقذفها مرات عديدة .

الحارة التي حملتها الرياح إلى مالطة ؛ وعمود النار المدهش الذي اتجه في الأخير عبر البحر إلى دويلات المغرب ؛ حيث أصبح الطقس على هذا الساحل ساخناً إلى درجة مخيفة ، فسبب ذعراً عظيماً ، ولم يستطع أحد في تلك الحالة أن يفسر ويعلل تلك الظاهرة .

٢ ديسمبر ١٧٨٧

أسلوب التجميل عند سيدة بربرية · ذهابها الى الحمام ·

قمنا أمس بزيارة خاصة إلى أسرة السفير . ولما لم يكن يتوقع أحد زيارتنا فقد كانت السيدات يغتسلن في الحمام . خرجت اللالة خدوجة إبنة عبد الرحمن الكبرى ملتفة بعد حمام دافىء ، وكانت الزيانات في انتظارها ليجملنها ويزينها ، ويلبسنها ثيابها تحية للحاج محمود زوجها ، الذي يغادر طرابلس لبضعة أسابيع .

أستطيع أن أصف لك وصفاً دقيقاً ومضبوطاً عن زينة (تواليت) سيدة بربرية من الوضعية التي شهدتها . لا توضع مواد الزينة ، كما هي العادة عندنا ، على خوان خاص بالزينة . تجري عملية التجميل والزينة إلى اللالة خدوجة كما تقضي به تقاليد هذه البلاد عامة ، وفق أقدم الأساليب . فقد قيل عن السيدات الإغريقيات في (أثينا) إنهن يمضين ساعات الصباح كلها في تجميل أنفسهن . أما السيدة البربرية فإنها لا تنتهي من تجميل نفسها في مهرجان يستغرق بضع ساعات . توصف السيدات الرومانيات بأنهن مسرفات جداً في تجميل أنفسهن وزينتهن : إذ تحمل كل وصيفة الجزء الخاص بها من الزينة : إحداهن مسؤولة عن تصفيف الشعر وتجميله ، والثانية تهتم بالعطور والروائح ، والثالثة بوضع الحلى والمجوهرات والرابعة تضع الدهان والأصباغ .

كانت الوصيفات ، واقفات حول اللالة خدوجة ، بنفس ذلك الأسلوب ، وبأيديهن المواد الضرورية لتجميل سيدتهن وزينتها ؛ بينما كانت المزينات

على أتم الإستعداد للقيام بالواجب الخاص بضفر الجدائل ، وتعطير الشعر ، ولقط الحاجبين وتنظيمهما ، ، ووضع المساحيق ، وتكحيل أهداب العينين ، ولبس الحلى والمجوهرات ، وغطاء الرأس ، وأخيراً تكييف القيافة كلها .

كانت تستعمل كميات كبيرة من أحسن العطور العربية وأذكاها رائحة والمياه المعطرة والقرنفل المصنوع مسحوقاً ناعماً جداً : أعددنه بكميات كبيرة تفوق الإستعمال(١) : ولكنهن أكدن لنا بأنها لا تكاد تكفي لهذه المرة فقط .

وضع كل هذا المسحوق ، الذي يبلغ وزنه حوالي ربع رطل ، في جديلتين كبيرتين من شعرها ، تتدلى كل واحدة منهما من جهتي رأسها إلى الخلف ، اللتين ضفرتا بحجم يفوق أعظم كمية من الشعر تنمو على الرأس ، وذلك بمزج كمية من الحرير الأسود فيها ، المعدة بعطور قوية من قبل الوصيفات .

لا يعرف أحد هنا شيئاً عن الشعر المستعار . تصبغ الأهداب بالكحل(٢) الأسود الموضوع في مكحلة من الذهب ، أنيقة جداً ، أما أسلوب لقط الحاجبين وقلع كل شعرة زائدة ، فإنه مؤلم حقاً .

إن ما أبدته اللالة خدوجة من صبر في معاناة الألم الذي كابدته من تزيين الحاجبين وتجميل العينين ، برهن على أن السيدة الافريقية لا تقل لهفة في محاولاتها وجهودها لتكون مطمح أنظار الرجال عن السيدة التي نشأت وترعرعت في أعظم القصور الملكية فخامة وبهاء .

ليست اللالة خدوجة بملامح وجهها اللطيفة ، وآداب سلوكها ، وشخصيتها الجذابة بارعة الجمال ، ولكن بعد التجميل والزينة والتطرية ، تغير وجهها

---

(١) يصف (ديون كاسيوس) لوبيا حظية نيرون انه كان يأمر بان يتبعها في رحلاتها قطعان من الاتان تستعمل حليبها في الاستحمام لتحافظ على بياض بشرتها ونعومة جلدها . وكانت السيدات الرومانيات يغطين وجوههن بعجينة للمحافظة على طراوتها ويستعملن المرايا لتصفيف شعورهن .
Dion Cass. 1.60, Dryden's Journal Sat. VI.

(٢) الكحل : لا يزال مستعملا في الشرق لغرضين : التجميل والمحافظة على النظر .

كلياً، فأضفت عليه التطرية مسحة من جمال. هذه السيدة لطيفة وممتعة ،ولا تتبع تقاليد البلاد . أما السيدات القفقاسيات والبربريات فإنهن يجملن أنفسهن ويزينها بظلال مختلفة . يركزن اهتمامهن على مواطن الجمال ويخفين مواطن القبح في التكوين الطبيعي للجسم ، بالإضافة إلى أهمية المظاهر والإحترام اللذين ترغب في التعبير عنهما لأولئك الذين تتجمل وتتزين وتلبس من أجلهم غير مكترثة بما وهبتها الطبيعة . وبهذه الأساليب تتغير القيافات تغييراً كاملا لبعض السيدات البربريات ، عندما يتهيأن لحضور حفلة ابتهاج بحيث يتعذّر حتّى على أقرب الصديقات أن يتعرفن عليهن إذا التقين بهن من قريب .

عندما كانت اللالة خدوجة قد تزينت ولبست أجمل ما لديها من ثياب ، كانت إحدى وصيفاتها تلبس أصابعها خواتم غالية الثمن ، التي لها مظهر الكهرمان الأسود اللماع البراق الممزوج بلون الحناء وهي من الأعشاب التي تنبت هنا ، كما وضعت وصيفة أُخرى خيطاً من الطلاسم الذهبية والفضية ، وجلبت لها وصيفة ثالثة منديلاً من الحرير المطرز .

تتبارى الوصيفات في تسلم الخيط الذي يربط الطلاسم ، فكل واحدة تنافس الأخرى بلهفة وحماس ، وغالباً ما تنشأ الغيرة بينهن لتقدمه إلى يدي سيدتهن أو لتضعه عليها .

وحالما هممنا بالخروج من حجرة اللالة خدوجة أعلن أحد الخصي قرب وصول زوجها فأسدلت الحجاب على نفسها في الحال ، كما فعل جميع وصيفاتها عندما دخل الصالة بعد أن بقي برهة من الزمن يتحدث مع السيدات النصرانيات ومع اللالة خدوجة قليلا . غادر الحجرة وانسحبنا بعد فترة بدون أن نرى إغريقية عبد الرحمن التي لم تنته بعد من الزينة والتجميل .

٣٠ يناير ١٧٨٨

سوق بيع الرقيق في طرابلس · قصة حب ووفـــاء فتاة زنجية

لا أعرف أيها الصديق العزيز ، كيف توافق على ما أُقدمه لك من هذا القصر على الصور المستعجلة غير المترابطة ، ولكني أُدونها كما تحدث بالضبط وهل كنت موفقة في إملاء الفجوات من أجل أن أربط بعضها ببعض، الأمر الذي أوجب أن أُخبرك عن وقائع وأحداث لم تقع في الحقيقة والواقع ، وهو أمر يمكن الكشف عنه بسهولة ، حيث أن خلق الناس خاص بهم وببلادهم . لقد أصبح العديد من تلك الأحداث والوقائع ذا أهمية ، وتعرض لنا صورة حقيقية للشخص الذي يدور الحديث عنه ، لأنها رويت في لحظة مشاهدتها . وبناء على هذه الخطة ، إذن ، فإن ما يتبع القصة التالية من المحتمل أن لا يصل إليك أبداً .

كثيراً ما تصل مدينة طرابلس سفن مشحونة بالرقيق الأسود، فيقادون إلى البازار أو (السوق) حيث يجلبهم الأغنياء في هذه المدينة ، الذين يقومون ببيعهم حالا إلى التجار الذين ينتظرون إعادة شحنهم إلى بقاع أخرى من العالم (١) رأينا صباح هذا اليوم عدداً منهم، عندما كنا نجتاز وسط الحوش الداخلي إلى حرم منزل بربري من الطبقة الممتازة .

استرعى أنظارنا من بين الرقيق الأسود شخصان جميلا الصورة ، ابتيعا أخيراً : امرأة رائعة الجمال ، ورجل ذو مظهر جذاب حسن القيافة . وعندما تطلعنا إلى الملامح التي ترتسم على محياهما ، كان من اليسير حقاً أن نعرف السر الدفين الذي يكمن وراء ذلك الحزن العميق المخيم عليهما . بعد أن انتهت تحياتنا الأولى في لقاء الأسرة مباشرة ، دفعنا الفضول إلى الإستفسار عن تاريخ حياة هذين المخلوقين الشقيين ، وعن أسباب القنوط والوجوم الباديين على وجهيهمـــا .

---

(١) يقاسي الرقيق الابيض شدائد اخرى ـ انظر المقدمة ·

علمنا بأنهما كانا السبب في خلق مشاكل ومتاعب كثيرة لأسرة التاجر ، التي اضطرت مكرهة لتشديد الرقابة عليهما ليل نهار ، ومصادرة كل ما لديهما من آلات وأدوات ، لأنهما حاولا باستمرار أن يقضيا على حياتهما ، أو على حياة أحدهما الآخر بعض الأحيان . تصور قصتهما مدى الحب والوفاء والإخلاص حتى بين المتوحشين . لم يكن عمر الفتاة التي تفوق في جمالها الرائع حبيبها يتجاوز ستة عشر عاماً . كان شعرها أسود وطويلاً ، لماعاً كالكهرمان الأسود ، وأسنانها مرصوفة بجمال بديع كاللؤلؤ الصغير ، بيضاء اللون يثير الدهشة والعجب بسبب تناقضه مع لون وجهها ، وبشرتها الداكنة السواد ، طويلة القامة ممتلئة الجسم ، أكثر من السيدات السوداوات عامة . تعتبر أجمل من أية امرأة سوداء جلبت إلى هذه المدينة منذ سنين عديدة .

إن هذا الجمال (الذي من المحتمل أن يكون موضع إعجاب وطنها) قد منحت يدها وقلبها للفتى الذي يرافقها الآن .

كان الإستعداد لإقامة حفلات الزفاف جارية على قدم وساق ؛ عندما فقدها أصدقاؤها في صباح أحد الأيام ، فتعقبوا أثرها ، حتى وصلوا إلى زاوية إحدى الأحراج المجاورة ، وعلموا حالا بأن أشخاصاً كانوا يتبعونها ، فهربت إلى الأدغال المكتظة علها تجد ملجأ (المخبأ المألوف الأخير للهروب من أولئك الذين يبحثون في البلاد من أجل اصطياد العبيد) فذهبوا تواً إلى حبيبها ينقلون النبأ الأليم ، المحزن ، أسرع حبيبها إلى ساحل البحر دون أن يضيع وقته سدى في البحث عنها في الأحراج المكتظة ، إذ أعلمه قلبه بأنباء الشؤم وبوجوب التفتيش عنها في إحدى السفن الراسية ، التي تنقل الرقيق من هناك . لم يكن يخشى شيئاً ولم يرهب الصيادين الذين يتحينون الفرصة ، كما هي العادة ، لاصطياد الأشخاص الذين بدون حماية ، كانت تأملاته صحيحة ، شاهد بعينيه حبيبته وخطيبته في أيدي اللصوص الذين اصطادوها مذهولة حائرة . فركع أمام اللصوص متوسلا متضرعاً ؛ أن يفكوا أسر حبيبته بعد أن يدفع لهم الثمن الذي يطلبونه . إلا أن كل ما كان يملك وما كان في حوزته ، غير كاف لدفع

فدية حبيبته التي طلبوا مقابل حريتها مائتي محبوب (قرابة مائة جنيه) . عندئذ لم يتردد لحظة واحدة في بيع قطيع الغنم وقطعة الأرض التي كان يملكها . ومن ثم عرض نفسه لأولئك الذين انتزعوا منه رفيقة حياته ، وألقى بنفسه في إسار الرق طواعية واختياراً من أجلها ، ليكون إلى جانبها ، ويقضيا أياماً سوية بكل هناء وسعادة . لقد بيع هذان الزوجان المخلصان مع عدد آخر من العبيد للتاجر الافريقي ، الذي كنا في منزله .

كان من المقرر إرسال هذه الفتاة مع باقي العبيد الذين يملكهم هذا التاجر لإعادة بيعهم في سوق آخر للنخاسة . لا بد وأن تكون هذه الفتـــاة الجميلة السوداء قد كلفت مبلغاً كبيراً من المال فلا يستطيع التاجر الاحتفاظ بها جارية. وقد عنى التاجر بقوله هذا الإحتفاظ بالرجل، الذي كان سعره أقل بكثير من الفتاة ، خادماً خاصاً في أسرته .

عندما طرق هذا النبأ سمع هذين الحبيبين البائسين ، وأنهما يجب أن يفترقا فقدا رشدهما ، وأصبحا مجنونين . ألقيا بنفسيهما على الأرض في طريق بعض السيدات القادمات اللواتي كانت كريمة التاجر من بينهن ، فتعلقا بها ، وتضرعا إليها ؛ ولم يكن بالإمكان منعهما فتوسلا اليها أن تبدي كل ما في وسعها مـــن عون للحيلولة دون فراقهما ، فهدأت روعهما وأكدت لهما بروح إنسانية ؛ ووعدتهما أن ترجو والدها أن لا يفرق أحدهما عن الآخر .

كان التاجر رحيماً جداً ، في مثل هذه الحالة المؤسفة ؛ فلم يلجأ إلى استعمال حقه بالقوة للإحتفاظ بهذين الرقيقين . وحاول أن يهدىء روع الرجل بأن يمنحه المزيد من اللطف وحسن المعاملة فيما إذا عاش مع عبيده السود ، ورضي بالبقاء . ولكن العبد الأسود ركع على قدمي التاجر ، وتضرع له متوسلاً أن لا يحتفظ به إذا رغب في إخراج رفيقة حياته قائلا : إذا قام بذلك ، فإنه سيضيع كل ما صرفه من مال عليهما ، فبالرغم من مصادرة السكاكين والسموم منهما ، فلا يستطيع أي شخص أن يضطرهما على تناول الطعام ، ولا توجد قوة بشرية تضطرهما على الحنث بقسمهما الذي حلفا به أمام آلهتهما بأن لا يعيشا مفترقين .

عبثاً حاول التاجر أن يقنع هذا الرقيق بأن ما تتمتع به حبيبته من جمال رائع قد رفع ثمنها كثيراً فوق الجواري السوداوات اللواتي يقمن بالخدمات التافهة ، أما هي فتصبح في الحال جارية لأحد الأتراك الأغنياء . وبالنتيجة تفارقه فراقاً أبدياً . أجاب العبد الأسود أنه كان ينتظر مثل هذه القساوة ويتوقع مثل هذه الهمجية ، ولكن لا شيء يضطره على تركها طوعاً واختياراً ، بالإضافة الى أنهما لو قدر لهما أن يفترقا بالقوة، فهناك متسع من الوقت لأن يموت ويعود ، وفقاً لعقيدته الراسخة ، إلى وطنه ؛ ليتقابل معها ، وبالرغم من أولئك الذين هي في حوزتهم ، فإنه يعرف بأنها لا بد وأن تذهب قبله إلى وطنه ، تنتظر قدومه لتلتقي به .

وجد التاجر من المستحيل عليه تماماً أن يقنعه بالكلام للبقاء ، ولا يضطره للتأخر بالقوة ، ولكن تركه بحرية لأن يتبع أحداث شريكة حياته ويلتحق بها .

كانت الفتاة السوداء الجميلة من بين عدد من الجواري والعبيد الذين ابتيعوا مجدداً قد أنيطت بها خدمة الحجرة التي كنا فيها . وكانت ، لفترة من الزمن ، تركز اهتمامها على خدمتنا ، ولكن طرافة الحياة الجديدة لم تمنعها من التفكير بوضعيتها والإنفجار إلى حالة من الخزن العميق والألم الشديد . هربت راكضة ، فأخفت وجهها بيديها . وانتحت زاوية في أحد الأروقة ، بينما وقفت بقية رفيقاتها حولها ، يسحبنها بقسوة لتسهم معهن بمشاهدة النصرانيات اللواتي يحدقن بهن بذهول وخوف وإعجاب ، بينما كانت رفيقاتها اللواتي قدمن من بلادها نفسها ، وأمضين مدة أطول في الحياة مع الأسرة ، كن مؤدبات يضحكن ويسخرن من دهشتهن وفضولهن . ولكن منظر السيدات البيضاوات ، في عيون الجواري السوداوات اللواتي طردن من تراب وطنهن ؛ واصطدن كما تصطاد الحيوانات من الأحراج التي لجأن إليها ليجدن ملاذاً ، وانتزعن من أعز الناس عليهن ، يجب أن يكون من الطبيعي ، أن يوحي بكل مشاعر الفزع وأحاسيس الاحتقار والاشمئزاز .

وفي اللحظة ، التي تم بها إحراز شيء من النجاح في تبدد مخاوفهن من

النصرانيات الحاضرات فهدأ روع البعض منهن، فأُمرن بالتجمع والرقص. وقفت عشرون منهن، وتولت أقدرهن وأبرعهن القيادة، ولمسن الباقيات بأطراف أصابعهن وأقدامهن، وفقاً لأسلوب الرقص عندهن، فألفن خطاً طويلا؛ فبدأت كل واحدة منهن برشاقة ودقة، تكرر حركات وخطوات الجارية التي تقود في الوقت المناسب.

أما تلك الفتاة السوداء الجميلة فلم تفد معها الإلتماسات ولا التهديدات في حملها على الإنضمام إلى الراقصات. جلست بائسة حزينة، واستمرت أياماً طويلة وهي على هذا الحال الكئيب، وكل ما استطعنا معرفته عند مغادرتنا المنزل فيما يتعلق بتلك الفتاة السيئة الطالع التي كانت سعيدة في وطنها، أنها الآن في طريقها مع زوجها، أو بالأحرى حبيبها لترحل في مدة أيام قلائل على ظهر سفينة تجارية، فقد اشتراها صاحب السفينة مع عدد من العبيد الآخرين لبيعهم في القسطنطينية.

٢٧ فبراير ١٧٨٨

اغتيال بن شعبان • مقتل ابنه

إن الشعور بالخوف من نشوب ثورة شعور عام وشامل. كان حاج عبد الرحمن معنا بعد قدومه من عند الباشا بلحظات قصيرة، يستوضح فيما إذا كانت لدينا أية مصابيح في شرفتنا في الليلة الماضية، إذ شوهد في تلك المحلة من المدينة مصباح سبب رعباً وهلعاً كبيراً في القلعة لهذا بعث الباشا سفيراً إلى النصارى ليطلعهم على رغبته في أن يزيدوا من اليقظة والحذر، فلا ينيروا أي مصباح في شرفاتهم بعد غروب الشمس.

يعبر هذا الحذر عن الشعور بالخوف الشامل العام في الوقت الحاضر بسبب إندلاع نار الإنقسامات والخصومات في القلعة؛ التي تجعلهم يشكون من قيام ثورة في كل جزء من أجزاء المدينة.

ونتيجة لكثرة الدسائس والمؤامرات التي يدبرها كل فريق من الفرقاء المتخاصمين فلا يأمن أي ضابط كبير على حياته ، ولا يطمئن على نفسه بأن لا يكون هو الشخص الآخر الذي يلفه دولاب التدمير. فإذا أرسل الباشا، بدون سابق إنذار أي شخص منهم إلى القلعة ، فإن موجة من الذعر والفزع لا يمكن وصفها تغمر أسرته . تودعه أسرته كما لو كان وداعاً أخيراً ، ترتعد وترتجف من الهلع والقنوط حتى يعود إليها . أصبحت هذه المخاوف طبيعية ولا مناص منها بسبب الأسلوب المفاجىء الذي تسقط الضحايا بموجبه في القلعة التي لاقت حتفها دون أي احتمال لتحاشي ذلك المصير .

لا تزال أسرة أحمد خوجة تذكر إحدى تلك الوقائع المرعبة المخيفة التي حدثت لوالد زوجة أحمد خوجة الذي كان يسمى ابن شعبان أحد أقرباء أسرة الباشا الحاضر . بعد اعتلاء الباشا العرش ببضع سنين كان المفروض أن يحظى هذا البربري باهتمامه . إلا أنه في يوم من الأيام تسلم ابن شعبان رسالة تطلب إليه الحضور إلى القلعة حالا . وصل هذا الأمر بعد الظهر بقليل ، في ساعة القيلولة (ساعة النوم بعد الغداء) حيث يأوي كل فرد إلى حجرة نومه في هذه البقعة من العالم . وعندما تهيأ للخروج من منزله صحبه ابنه كما لو أنه يعرف ، بالصدفة ، بأنه لو أبدى أي خوف على سلامة أبيه فإنه يمنعه من مصاحبته.حين دخلا إلى القلعة وجدا كل شيء هادئاً تماماً كما توقعا ، فدهشا لعدم رؤية الكخيا الكبير في مجلسه في السقيفة يحيط به ضباطه . فإن هذا الوزير لا يغادر دائرته حتى في هذه الساعة من قيلولة بعد الظهر ، إلا في حالة مرضه ، سيما وأن الكخيا الكبير الحاضر صديق حميم لابن شعبان . لهذا فقد أثار غياب الكخيا الكبير ، وقدومهما للقلعة بطلب عاجل وفي وقت غير مألوف، قلقهما، فعبر ابن شعبان لابنه عن كراهيته لما كان يجري ، وبدا كما قال ، كما لو أن حدثاً استثنائياً سيقع .

قرر ، على كل حال ، أن يدخل ، واستعد ابنه ليتبع خطى أبيه ، قائلا ، إذا كان يخشى من وجود ما لا تحمد عقباه ، فإن ذلك حقاً ما يستوجب أن

يكون معه ، إلا أن أباه حاول منعه من الإستمرار في التقدم معه ، فلو أنهما تقدما معاً فإن مظهرهما يوحي بالخوف ويؤكد للباشا إثمهما ، مهما يكن ذلك الإثم الذي من أجله تحوم حولهما الشكوك ، عندئذ اضطر ابنه على ترك والده ، قائلا له ، بأنه سيدخل القلعة وحيداً بنفسه ، وابتهل إلى الله أن تكون العاقبة على خير ، وبينما كان ابن شعبان وابنه واقفين يتجادلان ، وجدا نفسيهما أنهما في السقيفة ، في النهاية القصوى منها ، وحارسين يتطلعان إليهما وأيديهما وراء ظهريهما . لم يشاهدا غير هذين الحارسين .

كان ابن شعبان رجلاً محترماً جداً من كل أبناء البلاد ، فلم تساور قلبه الشكوك أبداً في أية مؤامرة تحاك ضده ، ولا في أية دسيسة تدبر للإيقاع به . فارق ابنه فدخل القلعة وسمح له الحراس أن يمر بسلام ، وبعد لحظة واحدة سحبوا الحبل القاتل حول رقبته فشنقوه حالا . وبنفس الوقت ذهب باقي الجنود للقيام بنفس هذه المهمة السرية إلى ابنه فألقوا القبض على ذلك الشاب في اللحظة التي كان قد غادر منزل صديق له كان قد باح له بأسراره وعبر عن مخاوفه وهواجسه .

أخبر الحراس الشاب بأن والده مجتمع بالباشا ، فطلبوا إليه المجيء معهم إلى القلعة في الحال . كان الشاب مذهولا بدهشة عجيبة : طلب إلى والده الحضور أمام الباشا في مثل هذه الساعة غير المألوفة من النهار ، ثم يحضر هو شخصياً بعده تواً، فبدا الأمر شاذاً وغريباً جداً لم يستطع أن يجد له تفسيراً وتعليلا . لقد تمهل كثيراً في قصة أبيه بعد فراقهما ، إلا أنه ، بعدئذ وجد نفسه وراء أبواب القلعة في خطوات قليلة.عاد مع الحراس الذين بدوا شاحبي اللون كالأموات ، فقد شهدوا بأعينهم في تلك اللحظة أباه يصارع سكرات الموت .

حين وصل إلى القلعة وجد كل شيء لا يزال هادئاً كالسابق ، ما عدا أنه لاحظ المزيد من الحراس . فمشى الشاب إلى الأمام ، يلتفت مرتاباً حوله ، فاكتشف على الفور عمامة أبيه ، التي كانت قد انتزعت من على رأسه عندما

كان في صراع مع ذينك الحارسين ورميت في إحدى زوايا السقيفة ، وفي تلك اللحظة تولاه الهلع والفزع وعرف أنه ملاق الموت وأن ساعته قد دنت .

حاول الحراس أن يضعوا الحبل في عنقه ، ولكنه ، كان قوياً ، ويقظاً كل اليقظة بالمصير المرعب ، أكثر من أبيه، فدافع عن نفسه، ولكن الحراس أحاطوا به بعشرة أو بأثني عشر سكيناً ومدية وانهالوا عليه بالضرب فقطعوه إرباً إرباً.

وعلى العكس مما كان يظن أولئك الذين في القلعة ، فقد سالت الدماء من ذلك الشاب القتيل وانتشر النبأ في المدينة بأسرع مما كان يتوقع ، وعرف الناس المصير المحزن المؤلم للشاب وأبيه السيئ الطالع . وعلى ما يبدو لم يشترك ضابط كبير واحد في هذه الجريمة النكراء ، وأُشيع بأن الجريمة ارتكبت بدون أوامر صادرة من الباشا .

مما تجدر الإشارة إليه حقاً أن الغيرة التي يتميز بها البربر تدفعهم في العادة على أن يحدسوا ويتنبأوا عن الرغبات التي تجول في خاطر الباشا ، وكثيراً ما تجعل عدم رضائه من بعض الأشخاص سبباً كافياً للقتل والإعدام ، بدون حاجة لإصدار أوامر خاصة للقيام بمثل تلك الأعمال ، كما حدث فعلا في مثل هذه الحالة إذ لم يصدر الباشا مطلقاً التسكرة أو الفرمان .

ومما يستحق الذكر من القصص السياسية لهذه البلاد القصة التالية : عند وصولنا إلى مدينة طرابلس كان يوجد شابان لطيفان اسمهما سليمان وعثمان ، أحدهما يبلغ من العمر ستة عشر عاماً والثاني أربعة عشر عاماً ، اللذان كانا سجينين ، أو محجوزين على الأقل ، في أحد القصور الفخمة في هذه المدينة ، وقد احتجزا منذ طفولتهما ، يحرسهما الخصيان الموثوق بهم وحراس آخرون من قبل الباشا، ولم يكن يعرف أحد صورتيهما غير الخصي الموكل بهما،ولا يسمح لبقية الناس رؤيتهما .

كان هذان الأميران الشابان يجهزان بكل ما يحتاجان إليه على حساب الباشا، وكان ذلك كل ما يقدم لهما من تسلية وعزاء يتناسب مع وحدتهما وعزلتهما وحزنهما .

كثيراً ما كنا نمر من هذا المنزل ، حيث يعيش الشابان ، ولكن نوافذ الغرفة (وهي الحجرة الوحيدة في منزل بربري ، التي سبق وأن وصفتها لها نوافذ تطل على الطريق) كانت موصدة أيضاً ؛ وللحيلولة دون إمكان التفكير في تدبير هروب هذين الشابين البائسين عن طريق الإتصال بأشخاص يمرون من هناك ، فإنهما لم يجروءا أن يقتربا من الغرفة أو حتى القسم المنخفض من المنزل .

كان وسط الحوش الداخلي للمسكن الذي يعيشان فيه مشبك من الأعلى بقضبان ثقيلة من الحديد يشبه حرم الباشا . لا يعرف إلا الشيء القليل عن هذين السجينين السياسيين ما عدا الفكرة الشائعة التي تقول بأنهما ولدا الأخ الأكبر للباشا الحاضر ، وبالنتيجة ، فهما أحق في ولاية العرش منه ، ذلك العرش الذي كلف الكثير من إراقة الدماء بين أسرة الباشا ، الذي أعاد سيفه إلى غمده ، فكف عن القتل والإغتيال حتى لا يلحق الأذى بهذين الشابين ، حيث كان بالإمكان أن يتحاشى ذلك .

لم نجد أحداً من يندب الحظ البائس لهذين الأسيرين الشابين ، ما عدا شخص واحد كان يبدي أعظم الأحزان وأشد الآلام ، التقينا به بطريق الصدفة في حفل تشييع جنازة أم اللالة حلومة .

حين غادرنا حجرة اللالة حلومة ، دخلنا غرفة تقابل نوافذها المنزل الذي يحتجز فيه سليمان وأخوه أسيرين . كان من بين الضيوف الذين التقينا به الأخ الأصغر للباشا والوحيد الذي على قيد الحياة اسمه (شلبي) (١) الذي كان آنذاك (بك على مدينة درنة) (٢). كان ينتظر أن يمشي في تشييع جثمان أم اللالة حلومة حتى المقبرة . وجدنا (شلبي) عند دخولنا الغرفة ودون أن يشعر بقدومنا غارقاً في تأملاته ؛ يحدق بالمسكن الذي يعيش فيه ابنا أخيه . وبينما كانت الدموع تنهال من عينيه على خده بدا في حزن عميق صامت يندب حظهما .

رجع (شلبي) بعد حين إلى حاكميته في درنه ، حيث وافاه أجله المحتوم

---

(١) الشلبي ـ نقب تركي .

(٢) درنة احدى المحافظات الشرقية من ليبيا ـ من أعمال برقة سابقا .

مصاباً بالطاعون في الوقت الذي بدأ هذا الوباء ينتشر في تلك المدينة المخلصة .

أُصيب سليمان وعثمان بوباء الطاعون القاتل بعدوى من المخصي الذي كان يعنى بهما ،وبموته تخلص الباشا من كثير من القلق الذي يتصل بهما . توفيا في بداية الطاعون فأسرع الناس ؛ في اضطراب ووجل إلى المقبرة قبل أن يطلب إليهم أحد حضور مراسم دفنهما .

كان موكب تشييع جثماني هذين الأميرين من أطول المواكب وأكثرها روعة وفخامة ونظاماً سار بهيبة ووقار حتّى المقبرة أدّى الناس عليهما صلاة الظهر .

٢٨ مارس ١٧٨٨

وصول سفينة ملوثة بالطاعون • طرابلس في هرج ومرج بسبب ضياع ختم سيدي احمد • زواج حاج مراد • وصف بعض انطيور •

تسود حالة غريبة في مدينة بنغازي ، الّتي لا تبعد عن طرابلس إلا بمسافة بضعة أيام وتقع على الساحل ؛ تهدد بإخضاعنا ثانية إلى أهوال الطاعون وكوارثه ولا تظهر إلاّ الشيء القليل من الضبط والنظام والطاعة . وصلت سفينة وعلى ظهرها الطاعون من القسطنطينية إلى بنغازي . فأمرها بك بنغازي أن تغادر الميناء ولم يسمح لها بإلقاء مراسيها . إلا أن أهالي مدينة بنغازي كانوا في هياج عنيف ، أصروا على تفريغ شحنة السفينة مـــن البضائع ، ولم يخضعوا للأوامر الصادرة إليهم . فانسحب بك بنغازي إلى قلعته وأغلق أبوابها ليفر من عدوى الإصابة بوباء الطاعون ، وترك أهالي بنغازي وشأنهم إذ لم تكن لديه قوات عسكرية كافية تدعم سلطته .

وصلت السفينة إلى ميناء طرابلس تحمل الراية الفرنسية ، ولكن الباشا أصر على وجوب مغادرتها المدينة حالا . عندئذ ، تنفسنا الصعداء آملين أن لا تصل إلى المدينة عدوى وباء الطاعون .

كانت المدينة اليوم في هرج وهياج وذعر ، بسبب ما يقوم به الحرس من بحث شامل عن الخاتم العظيم لسيدي أحمد ، الذي سرق منه في الليلة الماضية. كان الخاتم مصنوعاً من الذهب ، ومنقوشاً بالطغراء التركية . تقضي التقاليد المرعية في هذه البلاد أن يحمل كل أمير من الأمراء ختمه الخاص باسمه ، أو المهر الملكي : عندما يبلغ من العمر سناً معيناً يلبس الختم عادة بالقرب من الصدر ، على الجهة اليسرى من الصدرة ، تليه الساعة : بسلسلة فاخرة معلقة فيه . وعندما يتم صنع الختم يكسر القالب الذي صنع بموجبه ، وبما أنهم لا يفكرون بسرقته منه شخصياً في الليل أو في النهار ، فهم لا يخشون أن يزيف الختم . أمر سيدي أحمد بقطع يد اللص الذي سرق الختم ، فكانت العقوبة قاسية بسبب النتائج الخطيرة جداً التي تترتب على السرقة ، خاصة في هذه الأيام المفعمة بالقلق والإضطراب ، في غضونها يمكن القضاء على أي ضابط من ضباطه الذين يثق بهم بأمر مزيف يوقع بذلك الختم .

أما ختم الباشا فيتميز بأنه أكبر بكثير من أختام الأمراء : مصنوع من الذهب ، يبلغ قطره حوالي ثلاث بوصات ، ولا يمكن بأي حال أن يسمح لأي شخص بإبعاده عن عينيه ولو لبرهة من الزمن . يوقع أحد الضباط الأوراق أمام عيني الباشا ويرجعه إليه حالا .

ذهبنا اليوم لزيارة اللالة خدوجة (ابنة عبد الرحمن) وتقديم التهاني لها بمناسبة عودة زوجها حاج محمود سالماً وحاشيته من مسلاته ، حيث شهد وتفقد بساتين الزيتون العائدة له .

توجد في مسلاته أوسع بساتين الزيتون وأكبرها ، فعندما يحل موسم نضجها يخرج الملاكون أنفسهم (وهذا من أعظم التقاليد أهمية في البلاد) مع عدد من حاشيتهم لحمايتها من غارات الأعراب أثناء عصر الزيت وجمعه وصناعته . تجلب منه كميات كبيرة جداً إلى طرابلس أو تشحن من ساحل مسلاته إلى أوربا .

تزوج أحد البربر التابعين إلى حاج محمود ، الذي رافق تلك الحملة امرأة

غنية من مدينة مسلاته . إلتقينا بتلك السيدة في حجرة اللالة خدوجة ، كانت سمراء داكنة اللون ، وشكلها جميل ، طويلة القامة ، ضاحكة الوجه ، بدا عليها السرور والحبور في وجودها مع النصرانيات ، ولكن حين وصفت اللالة خدوجة لها الدانتيلله الحريرية اللطيفة التي كانت تلبسها النصرانيات ، وأخبرتها عن ثمنها الغالي قهقهت بصوت عال تسخر من اهتمامهن الكثير المقلق ، وتبذيرهن الأموال الباهظة لتجميل أنفسهن بما دعته قطعاً من الخرق البالية القديمة . كانت ترتدي فستاناً أرجواني اللون براقاً . وقماشاً من القطن الأحمر ، وجرداً فضي اللون ، مصنوعاً من القماش السميك ، مع حاشية عريضة مصنوعة بصورة مدهشة في مصر كان ذلك الجرد يلتف حولها بصورة رشيقة جداً ، ولم تلبس قميصاً ولا سروالا ولا حذاء ، وعلى رسغ قدميها خلخال كبير مصنوع من الذهب والفضة ، وعلى معصم يديها أسورة ، وقدماها مصبوغان ، أما ذراعاها فمن رسغ اليد حتى الكتف إلى رقبتها ووجهها كانت قد نقشت عليه وشماً بالبارود أنواع الزهور والورود . وكان طربوشها مزخرفاً بعملة صغيرة من الذهب والفضة ، وعدد من الحلى الفضية والصدف المعلق منه على جبهتها . وكانت أقراط أذنيها من الفضة الخالصة ، وفي كل أذن سبعة منها ، وقلادتها مؤلفة من المرجان والصدف والفضة وخرز زجاجية مخلوطة بعضها ببعض ، ومنظومة في عدة خطوط ، تغطي مقدمة جسمها تقريباً ، وتمتد تقريباً من رقبتها إلى خصرها ، وشعرها مضفور إلى أربعين أو خمسين جديلة صغيرة على كل جانب من جبهتها ، المربوطة بالمرجان وخرز الزجاج . وكانت تلبس حزاماً عريضاً من الروائع والعطور على كتفها الأيسر ، بنفس الطراز الذي تلبس به السيدات هنا بفارق واحد هو أن العطر كان أشد خشونة وغلظة ، لأنه يتألف من التوابل الإعتيادية . وبدلا من أن تصنع أجزاء الحزام من خرز ذهبية ، كانت مصنوعة من الأصداف البحرية العربية . وكانت تلبس أيضاً وشاحاً يتدلى على الكتف الأيسر ، ومعلقة عليه أعداد كبيرة من الطلاسم الفضية وبها أتمت بدلتها العربية الغريبة العجيبة .

تسلمنا اليوم من البطريرك الإغريقي في الإسكندرية هدية مؤلفة من طيور تعيش على أكل التين مخللة كلها في جرار تؤكل بدون إضافة توابل أو صلصة عليها، لا يزيد حجم الواحد منها على نصف قبرة ، ومشهورة بلذة طعمها في الأكل عندما تطبخ وتحضر بهذه الطريقة : تذوب العظام وتتفسخ نهائياً . تصطاد هذه الطيور في مصر بكميات كبيرة جداً ، ولكنها في فصل معين من السنة تتبع مياه نهر النيل في موسم الفيضان فتغمر المياه ضفتيه بدون أن تخطىء هذه المسيرة .

يوجد في طرابلس أعظم الطيور جمالا يدعوه البربر (غوغلاس) يعلو صدره ريش ذهبي اللون وبراق جداً ، أما جناحاه وظهره فلونهما أزرق داكن ، وشكله جميل وحجمه بقدر طائر السمنة المغرد ، وتعرف هذه الطيور بلذة طعمها الفاخر عند أكلها .

١٢ أبريل ١٧٨٨

وصول مولاي يزيد · حلق لحية شيخ بربري · معاملة مولاي يزيد للنصارى · كيف يتربى الامراء المراكشيون ·

وصل ابن إمبراطور مراكش ، مولاي يزيد ، إلى طرابلس منذ أربعة أيام في طريقه من مكة إلى مراكش ، المدافع تطلق الآن النار للزيارة التي يقوم بها للقلعة ، وقد شرف القنصل البندقي بصعوده على ظهر سفينة تابعة لبلاده أمس ، فارتكب خلال الوليمة التي أقيمت على شرفه قساوة مستهجنة ، لمجرد الهزء والسخرية ، اضطر فيها شيخاً – بربرياً – عجوزاً طاعناً في السن من أفراد حاشيته على حلق لحيته ، يعتبر القيام بهذا العمل إهانة كبرى توجه إلى بربري ولا يستطيع أن يتحملها ، فتولى ذلك الشيخ العجوز حزن عميق ، أضف إلى ذلك شيخوخته جعلت من الإهانة التي وجهت إليه أكثر هماً وغماً . قيل إنه يبلغ من العمر مائة وعشرين عاماً ، ولكن البربر والأتراك لا يحتفظون بشهادة الميلاد متأثرين بالفكرة القائلة بأنها تجلب الشؤم والنحس . لهذا فإنهم

يحددون أعمارهم بالتخمين ، أو بمناسبة بعض الأحداث والوقائع ، فلا عجب إذن ، أن تكون هذه الطرق غير الدقيقة في تحديد الأعمار سبباً في حدوث الأخطاء الغريبة التي سمعنا بها في كتاباتهم .

كان مولاي يزيد في الجزائر عندما كان أخيراً في طريقه إلى مكة ، يتمتع بعدد من الحريات هناك ، يسمح له بإطلاق النار على كرة توضع على حافة قبعة نصراني عندما يصادف أحداً منهم راكباً حصاناً ، ولا تقل الحريات الأخرى مقتاً وكراهية ، الأمر الذي جعله مقلقاً ومزعجاً بالنسبة للنصارى في طرابلس . عندما يلتقي به النصارى فإن تسليته في إرهاب خيولهم وإخافتها بالجري المفاجىء السريع نحوها وإطلاق النار على أرجلها ، ويرغب دائماً في أن يجعل النصارى يدخلون في مباراة معه ، تمتاز خيوله بأنها من خيرة الخيول الأصيلة التي يمكن أن يتصورها الإنسان ، لا ترهب من إطلاق النار ، وسريعة الجري بصورة مذهلة حينما يمتطي ظهر جواده يتبعه مباشرة عدد عظيم من عبيده السود وجنوده : فلم تعتد خيول النصارى مثل ذلك التدريب العنيف ، فمن غير اللائق أبداً ومن الخطر حقاً أن ينضموا إلى المباريات معه ، زد على ذلك أنه مخمور ثمل باستمرار ، وليس مزحه مهذباً أو متمدناً أبداً ، مصحوباً عادة بكلمات بذيئة سيئة جداً ، فكل نصراني ، إذن ، يتجنب الإلتقاء به بقدر الإمكان .

نصب معسكره في الوقت الحاضر على أرض السهل ، وقدم له الباشا إحدى حدائقه لإقامته مع زوجاته الثماني ، بالإضافة إلى الحظايا والجواري .

إن مولاي يزيد هو الإبن الأكبر ، ومن سوء حظ أهالي مراكش أن يصبح في يوم من الأيام إمبراطوراً عليهم. وله ما لا يقل عن أربعين أخاً. ولم يبلغ مولاي يزيد بعد من العمر ثلاثين عاماً ، وعنده ستة عشر ولداً فالزواج مبكر جداً .

يتربى أولاد إمبراطور مراكش الحاضر وفق الأسلوب التالي :

يرسل الإمبراطور على أحد الموسرين البربر (ليس من الطبقة الممتازة) بعد ولادة مولود له مباشرة ، ويسلمه ابنه ليربيه كما لو كان واحداً من أبنائه .

ولا يرى الطفل أباه ثانية حتى يبلغ الثانية عشرة من العمر يجلب البربري الذي يرعى الولد ويتعهد تربيته إلى البلاط حيث يجتاز امتحاناً من قبل مجلس يأخذ بعين الإعتبار القرآن وقوانين البلاد الخ ...

ويتوقف مصير ذلك البربري على هذا الإمتحان . فإن نجح الولد ونال رضى الإمبراطور على تربية ابنه ، يوهب البربري الذي احتضن الولد مبلغاً من المال ، وإذا فشل الولد وأخفق البربري في تربيته فإنه يقطع في الحال إرباً إربـــاً .

يسافر مولاي يزيد في موكب فخم جداً ، يتبعه عدد من الجنود الذين يصطفون بانتظام أمام معسكره على السهل كل يوم . يبدو وكأنه لن يمكث طويلا هذه السنة هنا ، لقد أمضى ردحاً طويلا من الزمن كاف ليظهر فساد خلقــه .

١٢ يونيو ١٧٨٨

كسوف الشمس وعادات وتقاليد البربر .

لك أيها الصديق العزيز ، الذي تعيش دائماً من أجل بدائع وروائع الطبيعة ، لا أستطيع أن أغفل وصف ذلك الإنطباع النادر المدهش الذي يخلفه كسوف الشمس في عقول القسم غير المتعلم من سكان بلاد البربر . لدينا برهان عياني عن ظاهرة كسوف الشمس في اليوم الرابع من هذا الشهر ، حيث كان كسوفاً كلياً تقريباً ، فقد سادت حلكة كئيبة ومحزنة تشبه ظلام منتصف الليل لبضعة دقائق . شوهدت بداية الكسوف في طرابلس الساعة السابعة والنصف صباحاً : وفي الثامنة والنصف كان الكسوف كلياً ، فقد تغير وجه الطبيعة من النهار إلى الليل. فالطائر البوم التي لم يمض طويل وقت على إيوائها إلى عشها عادت للظهور والطيران ، فأزعجت الصباح بزعيقها . شوهدت العظايا والأفاعي تفح حول الشرفات ، وطيران طيور المساء التي تسمى المرابطات ، وينظر إليها البربر باعتبارها

طيوراً مقدسة تطير بأعداد كبيرة فتزيد من الظلمة الموحشة . إن ضوضاء رفيف أجنحتها أهاج البربر ، فأفقدهم رشدهم من شدة الخوف . وعندما يحدث أن يهبط أحد هذه الطيور الثقيلة إلى الأرض نتيجة لاصطدام بعضها مع بعض بطريق الصدفة فيسقط على أقدام البربر ، فإن الدهشة تأخذ بتلابيبهم فينظرون إليها بكل هلع ، يزعقون بفظاعة . وحوالي الساعة الثامنة عندما تضاءل نور الصباح تماماً ، كان البربر يحتشدون في الشوارع ويجتمعون في الطريق ، يحدقون بحدة في الشمس ليخيفوا الحوت التي ابتلعها كما يعتقدون .

في تلك اللحظة بالذات يبدأ النحيب والبكاء وزعيق الموتى ، الذي لا يسمع من الجبال والوديان القريبة من طرابلس (١) فقط بل تردد اصداؤه في القارة الافريقية كلها . جلبت النسوة كل ما لديهن من قدور نحاسية وصحون إلى الشوارع وكل ما أستطعن أن يجمعن من أدوات حديدية يضربنها بكل قوة ، ويصرخن في نفس الوقت ، فيتسبب من ذلك ضوضاء مخيفة كانت تسمع من عدة أميال . لقد أغمي على عدد من هؤلاء النسوة نتيجة لمخاوفهن .

ولم تتبدد مخاوف البربر ؛ ولم تنته أحزانهم الا في حوالي الساعة التاسعة عندما أكدت لهم الشمس بأشعتها البراقة المتلألئة بأن كل ما كان يحيق بها من أخطار قد مضى وانقضى .

كان الطقس خلال صباح ذلك اليوم ؛ بصورة استثنائية ، صحواً وواضحاً كل الوضوح حتى بالنسبة لسماء بلاد البربر ،تلك السماء التي جعلت تأثيرات هذا الكسوف الكلي أكثر وضوحاً وجلاء.علمنا من حاج عبد الرحمن الذي زارنا بعد انتهاء الكسوف بأن سيدات الباشا والاميرات قد تولاهن الخوف ، فارتعدت فرائصهن من هول الحادث ؛ فوقع عدد منهن مريضات أما سيدات أسرته ، قال ، بأنهن لم يتعرضن للكثير من المتاعب بسبب وجوده في المنزل معهن ، ولو أنه يعتبر من العبث الدخول في نقاش فلسفي معهن ، واكتفى بالقول لهن بأن القمر ذهب لملاقاة الشمس ، وعندما يلتقيان ، ويقترب أحدهما

---

(١) مبالغة ادبية اذ لا توجد جبال أو وديان تقرب من طرابلس الا على بعد ٣٠ ميلا.

من الآخر جداً ، يمنع القمر دائماً نورها . إن هذا الشرح الذي تقدم به حاج عبد الرحمن حقيقة ، فأقتنعن به بسبب ما يتمتع به من جدية عظيمة فعمل على تخفيف مخاوفهن . كان ذلك الشرح أمراً جدياً بالنسبة للسفير ، لان حالة اللالة أماني الصحية دقيقة جداً ، فاستطاع بذلك الشرح عن ظاهرة الكسوف أن يهدىء من روعها ويزيل الخوف منها كلياً .

٢٨ أغسطس ١٧٨٨

نائب القنصل الفرنسي ومولاي يزيد · سياسة الباشا الخارجية · مقتل قرصان جزائري يؤدي الى اعتقال القنصل الفرنسي ·

لا يزال مولاي يزيد مقيماً في طرابلس . وبعد أن وصفت لك مزاجه وطبعه والأعمال التي يقوم بها ، فسوف لا تعجب من القصة التي حدثت قبل بضعة أيام . ظن نائب القنصل الفرنسي الذي يقوم بأعمال القنصل حتى عودة رئيسه ، بأن كل التحفظات والاحتياطات التي اتخذها القناصل الاخرون للابتعاد وعدم التورط في لقاء مولاي يزيد لا ضرورة لها ، لذا فقد استمر كالعادة بالنزهة التي يقوم بها على ظهر جواده ؛ ولم يتجنب المسالك والدروب التي يطرقها عادة مولاي يزيد . ونتيجة لهذا التدبير صادف قبل أمسيات مضت ابن الامبراطور ، على السهل الذي كان يجري بحصانه جرياً فظاً نحوه ، وبخشونته المعهودة أطلق النار على حصانه . وكان لا يزال نائب القنصل ، بالرغم من ازعاجه ، يظن بأن الوحش المراكشي وحاشيته ، سوف لا يرتكبون المزيد من الحماقات ، ولكن مولاي يزيد كان مخموراً ثملاً ، فاقد الوعي ، فاقترب منه بضع خطوات ، وجعل نفسه في وضع يميل نحو عنق حصانه . وحين شعر نائب القنصل بخطورة الأمر ، انسحب فجأة إلى الوراء فأقترب ابن الامبراطور من الترجمان الفرنسي الذي كان يتبعه ، فأثار ذلك غضب مولاي يزيد ، فاستل سيفه ، وهدد بتقطيع القنصل الفرنسي إرباً إرباً . فتدخل

الطرابلسيون الذين حضروا الحادثة ، إلا أنهم كانوا يحاولون عبثاً إقناعه بعدم إهانة راية مسيحية في ممتلكات الباشا . كان مولاي يزيد هائجاً غضباً من أثر النبيذ فلا يفهم المنطق والعقل، وحين أدرك القنصل الفرنسي بأن الخطر يتفاقم، رفس حصانه بالمهماز وفر مسرعاً ليدرك أبواب المدينة ، في الوقت الذي كان مولاي يزيد والطرابلسيون يتجادلون في الامر . نجح نائب القنصل الفرنسي بالافلات مسروراً وسعيداً ولم يلحق به أي ضرر آخر .

في اليوم الثاني وجد مولاي يزيد أن الباشا مستاء جداً من سلوكه ؛ فاعلمه ضباطه باختلاف معاملة النصارى في طرابلس والجزائر عنها في مراكش ، وبوجوب عدم التجاسر عليهم ومنذ ذلك الحين غير سلوكه ، فأخذ يتصرف تصرفاً آخر ، حتى أنه دعا النصارى من منازلهم رجالاً ونساء ليحضروا في حديقته ، ولكن قوبلت دعوته بالرفض العام .

يجب أن تدرك من هذا الوصف ، اختلاف معاملة النصارى في طرابلس فهي هنا أحسن بكثير مما هي عليه في الجزائر . ولو أنك تعرف من الاوصاف التي وصفت بها طرابلس ، بأنها دولة قراصنة ، وأن السكان يعيشون على النهب والسلب في البحار ، وعلى اتخاذ أعداد كبيرة من الرقيق ؛ إلا أني سعيدة باطلاعك وإخبارك بأنه لا يوجد في الوقت الحاضر إلا عدد قليل من الرقيق النصارى الذين كانوا هنا منذ سنين عديدة كما ان عددهم لم يتزايد (١) .

تقوم سياسة الباشا الحاضر على الحفاظ على السلم مع الدول المختلفة في اوربا ؛ كما أن الرقيق القلائل الذين كانوا موجودين قبل التوقيع على اتفاقية السلم الاخيرة بين اسبانيا وطرابلس ، لا تتفق أبدا مع الاعداد التي تذكر في اوربا . ان لقب الوالي هنا الباشا ولا يدفع أية اتاوة للباب العالي ، وعلى العكس من ذلك ، فمن النادر جداً أن يستدعي السلطان التركي والي طرابلس . ولا تبحر سفن القراصنة في الوقت الحاضر إلى البحار ضد النصارى ، ويرتدي

---

(١) ازداد عدد الرقيق الابيض عندما اعتلى العرش يوسف بعد ابيه علي القرمانلي ، فبعث القرصنة من جديد .

الرقيق القلائل الذين هم من رعايا دول ليست داخلة في اتفاقية السلام مع الباشا الملابس اللائقة ، ويتجولون في شوارع المدينة لقضاء مصالح أسيادهم أو مصالحهم الخاصة مع شرط واحد فقط أن يعودوا إلى داخل أسوار القلعة إلى السجن عند غروب الشمس حيث يطعمون إطعاماً جيداً ، وهم موضع ثقة مالكيهم أكثر من الخدم الاخرين التابعين لهم .

ليس بوسعي أن أصف لك الآداب الجزائرية أحسن من حالة وقعت منذ مدة ليست طويلة التي تكشف معاملتهم للنصارى . تم الاتفاق في المعاهـــدة الاخيرة التي عقدت بين فرنسا والجزائر على عدم القاء القبض على أي قرصان جزائري على الساحل الفرنسي . وقبل عقد اتفاقية الصلح والسلام مع اسبانيا سنة ١٧٨٥ أغرق النبالطة قرصاناً جزائرياً على الساحل الفرنسي .

وفي لحظة وصول النبأ إلى الجزائر ، أرسل الداي جنوده إلى دار القنصلية وبدون سابق انذار ، وبدون إتاحة الفرصة لجلاء الموقف أو للدفاع ، تم القاء القبض على القنصل واحتجز في السجن الخاص بالرقيق . أرسل الفرنسيون أحدى وعشرين سفينة إلى الجزائر بهذه المناسبة ؛ وطلب الفرنسيون مبلـــغ أربعين الف (سيكوني) للأضرار التي ألحقت بهم من جراء السماح للنبالطة بالقاء القبض على القرصان على ساحلهم . أرسل الفرنسيون سفينتين مـــن الجزائر إلى فرنسا لايضاح الموقف والحصول على المزيد من المعلومات لحسم القضية . وأخيراً أبحرت بقية السفن إلى مالطة ، بناء على رغبة الداي بعد أن تم اطلاق سراح القنصل وأعلنت حرية تجارتهم من القراصنة الجزائريـــين .

٢ سبتمبر ١٧٨٨

استقبال الناس بالفرح سفر مولاي يزيد · سياسة امبراطور مراكش ·

غمرتنا موجة من الفرح عندما شاهدنا أمس رحيل ابن امبراطور مراكش وبينما كانت حاشيته على وشك الرحيل ساد هـــرج ومرج عظيم بين أفراد

الحاشية ، إذ حاول عدد الفرار من القافلة ، بسبب سوء معاملة مولاي يزيد لهم . كان مكفهر الوجه ، مقطب الجبين ، غضوباً يعامل زوجاته بمنتهى القسوة والشدة وسوء الادب قبل أن يودعنه للركوب في السفينة التي كانت مغطاة بمظلات محكمة ، كن في حجاب تام عن أعين الجمهور ، عند نقلهن إلى السفينة التي أعدت إعداداً لطيفاً وحسناً لاستقبالهن .

لم يكن خلق مولاي يزيد ، خلال زيارته إلى طرابلس ، بصورة عامة ، مهوشاً صاخباً وعدائياً جداً بالنسبة إلى الاجانب كما كان في هذه المرة ، واذا استثنينا هذه الحالة فانه لم يسمح لنا بمقابلة زوجاته ، نتيجة لرسالة وصلت طرابلس فور وصوله تعلن البرودة في العلاقات القائمة الآن بين انجلترا ومراكش بناء على رفض امبراطور مراكش تموين حامية جبل طارق بالمؤن .

لا بد لي أن أذكر بهذه المناسبة خصلة شاذة ومستهجنة في سلوك الامبراطور فلأجل أن يعطي دليلاً على عدم رغبته في الخصام مع الانجليز ، أمر قراصنته أن يراقبوا السفن التي تحمل راية انجليزية ، فان شاهدوا سفينتين تسيران معاً ، وبقدرتهم أسرهما سوية ، فعليهم أن يحضروا واحدة والا عرضوا انفسهم لطائل العقاب . واذا حاول أي فرد من رعايا امبراطوريته أن يزعج سفينة انكليزية بدون أوامر صادرة مجدداً منه فعقوبته الإعدام ولكن لا يرجعون بدون أن يستعملوا كل جهد ليأسروا وليجلبوا معهم سفينة انجليزية .

٣٠ أكتوبر ١٧٨٨

ارسال جيش لمعاقبة المتمردين · مجيء الشيخ خليفة لنجدة الباشا ·

أصبح الريف المحيط بنا ، منذ رسالتي الأخيرة ، قلقاً ومضطرباً جداً ، فقد شن شيوخ الصحارى ، الذين لم يسددوا الإتاوات للباشا ، عدداً من الغارات ضد عدد من القبائل العربية والمدن البربرية التابعة للباشا الذي أرسل البك

والأميرين الشابين على رأس جيش إلى مختلف انحاء المملكة لإنزال أشد العقاب بالمتمردين (١) .

جاء الشيخ (خليفة) (٢) رئيس عربي مع جيشه قبل بضعة أيام لنصرة الباشا ضد أعدائه كانت مطالبه واسعة وعريضة ، وكان رجاله مصدر قلق واضطراب ، حتى بدا وكأنه عدو أكثر منه عوناً ونصيراً . أضاع الباشا في معارضة مطالبه ، بينما كان العدو يتقدم في كل ساعة نحو طرابلس . كما ان غياب الامراء الثلاثة مع أكثر آغوات الباشا شجاعة وبسالة ، أو القواد أسهم في نشر الخوف والذعر بين السكان فكانت المدينة قد تركت غصباً وإضطراراً في حالة لا يمكن الدفاع عنها،خاصة وأن الاعراب أتباع الشيخ(الليف)قد دخلوا المدينة متحدين ومتجاوزين القواعد التي رسمها الباشا بأن لا يدخلوا المدينة ويتجولوا بصورة مخيفة . ونتيجة للتضحيات التي تقدم بها الباشا لإرضائهم سوف لا أثقل عليكم بالمزيد من وصف المناوشات العديدة التي تجري الآن بالقرب منا والتي تعبر عن الحاجة الماسة لاستقرار السلطة في أيدي الباشا ، وإلى اتفاق الرأي في أسرته ، تهدد أيضاً بهياج واضطراب عام في البلاد . أصبحت هذه المخاوف الجزئية شيئاً مألوفاً ، أذكرها فقط عندما تصف العرب والبربر ، والتي أظن ربما تكون جديدة بالنسبة لك ، لأنك تعيش في بلاد وفي زمان لا لاتوجه فيه بقايا التقاليد والعادات القديمة بينما لا تزال آداب وأنماط الحياة البدائية التي وصفت في سلوك وعادات كل بربري وعربي موجودة مع شيء من الإنحرافات .

قبل أن يغادر الرئيس الأفريقي الشيخ خليفة المدينة قام بزيارتنا . إن هذا

---

(١) كان البك في مصراته حين صادفه في ذلك الوقت الرحالة (لوكاس) في محاولته الخائبة للسفر الى فزان .

(٢) أظن أن اسمه الحقيقي (اللافى) وهو اسم شعبي منتشر بين القبائل العربية في طرابلس ولكن المؤلفة تدعوه « الليف » . (المترجم) .

الجيتولياني(١) الافريقي ، أو النوميدياني ، يشبه تماماً في عاداته وآدابه وسلوكه الوصف الذي ينطبق بالضبط على السكان الأوائل الذين كانوا يسكنون في هذه الأقطار . كانت ملابسه تشبه ملابس العربي الجبلي ، وتشبه أيضاً ما كان يرتديه الناس في زمن السيد المسيح . تتناسب رقةورشاقة ملابس العربي مع ثروته ، فإن عباءة الشيخ خليفة أو الجرد مصنوعة من الصوف البربري الذائع الصيت بجماله ونصاعة بياضه ، بدا لأول مرة من أجود أنواع الحرير الرقيق ، طوله بضع ياردات ، الذي يطوى مرات عديدة حول رأسه وجسمه . يشدعلى ظهره حزاماً غريباً ومدهشاً مصنوعاً خصيصاً لهذه البلاد وإلى يد عربية، منسوجة نسجاً رائعاً وماهراً بأشكال متنوعة تمثل الخصائص العربية ، وملفوفاً مرات عديدة لفاً متماسكاً حول جسمه ، تلتف إحدى النهايات مرتين حول الظهر ومربوطة لتقوم مقام محفظة النقود . يلبس في هذا الحزام أسلحته ، التي يعتز بها ويفتخر ، ليس بغلاء ثمنها وبفخامتها ، ولكن بالبراهين العملية وبالإنجازات التي حققها بها . يلبس نعالا وفقاً لتقاليد العرب وعاداتهم ، الذي ينزع عند الدخول إلى الحجرة ، وهي جزء من آداب التحية لأولئك الذين يستقبلونه . فالعربي لا يقترب ممن هم أعلى منه مكانة دون أن يخلع نعليه . كانت قيافته نبيلة ومشيته فيها شيء من الخيلاء والكبرياء . وهو متوسط القامة . العرب بصورة عامة طوال القامة . كانت سمات الشيخ خليفة وملامح وجهه منتظمة وواضحة كل الوضوح ، أحمر اللون ، ضاحك الوجه ، ومع أنه لم يكن شاباً فإن خفة الروح تبدو عليه بكل جلاء ووضوح ولو أنه يحتفظ بكل غلظة العرب القدماء وخشونة طباعهم ؛ ويعتبر نفسه واحداً من سادة الصحراء في طرابلس ، لأن الوريجمة والنوائل هما أعظم القبائل قسوة وأكثرها منعة ومعروفتان في هذه البقاع ، تمسكان بأيديهما السيادة على الصحارى ، وكلاهما لا تزالان تعتبران من القوات التي تناصر الباشا وتعاضده . كانت قبيلة خليفة إحدى القبائل المبعثرة في مقاطعات بلاد البربر والتي تعتبر نفسها منحدرة من سلالة العرب

(١) الجيتوليان هم البربر سكان افريقيا القدماء .

المسلمين ، والتي كان الأتراك يتعقبونها فهربت إلى المعاقل الجبلية لينقذ أفرادها أنفسهم ، وقطعان مواشيهم ، وممتلكاتهم ، حيث لا يزالون يتمتعون بحريتهم . وهم موزعون إلى عدد من الحكومات الصغرى التي يرئس كل واحدة منها شيخها ، ويقدرون أنفسهم تقديراً عالياً لأنهم احتفظوا بدمائهم نقية لم تتلوث بدماء الأقوام الأخرى ، يتباهون ويتفاخرون بأنهم ينتسبون إلى قبيلة سبأ ، التي هاجرت من الجزيرة العربية إلى افريقيا ، برئاسة ملكهم(ملك افريقش) الذي من اسمه اشتق اسم قارة افريقيا .

عندما يتحدث شيخ خليفة وفقاً لآداب الكلام عند العرب ، يؤشر بأصابع يده اليمنى على راحة يده اليسرى ؛ وفي كل الوقفات المختلفة الضرورية التي يقف عندها خلال حديثه ، وفي التعبير عن المطامح والآمال يرفع رأسه إلى الأعلى ، بينما يتوقع من سامعيه أن يصغوا وينصتوا بكل اهتمام ويلتفتوا إلى حركة يديه من النظر إلى محياه . وكان حديثه شيقاً ولذيذاً ، ومتعصباً ، ومليئاً بالحيوية ، ما عدا حديثه عن الحرب ، عندها يتسم حديثه بدرجة عظيمة من الوحشية والهمجية ، بالصرامة والقسوة في عينيه ، والغلظة في آداب سلوكه ؛ فقد استمر بكل سرور وفرح يتحدث عن التدمير والقتل الذي قام به شخصياً ، وأحصى بشيء عظيم من الإعتزاز والمفاخر عدد رؤوس الشيوخ التي أرسلها إلى الباشا .

يبدو لنا من وصفه المشاق والأهوال التي تكبدها هو وجيوشه، في الحرب والترحال،ان كل ما قاله لا يمكن تصديقه ، فقد عبروا الفيافي ، وقطعو الصحارى الرملية، أياماً عديدة لا يحمل الواحد شيئاً غير كيس صغير فيه شيء من الطعام وقليل من الماء ؛ بينما تهطل عليهم ليلاً أمطار غزيرة . تنزع منهم أغطيتهم التي يغطون بها خيولهم حسب التقاليد المرعية في البلاد ، التي تتوقف حياتهم في المحافظة عليها ، وكثيراً ما ينامون تحت خيولهم لوقاية أنفسهم من البلل . وإذا ما فاجأتهم الرياح الساخنة المرعبة ، وإذا ما كانوا يشكون من قلة الماء كما هي حالهم دائماً ، فإنهم يجدون أنفسهم في مأزق حرج يفقدهم

الأمل بالحياة وينهكهم التعب ؛ فيلجأون إلى آخر ذريعة في أيديهم ، حيث يتمددون على الرمال ؛ ويدفنون أنفسهم بها تقريباً ، وأفواههم ملتصقة بالأرض يحاولون لبضع ساعات أن يستنشقوا بخاراً من الأرض أبرد من الرياح المحرقة الساخنة التي تهب عليهم ، بعدها ينهضون بعد أن تكون الشمس قد انحدرت من ذروة الظهر ، يحاولون أن يتابعوا سيرهم في رحلتهم ، حيث كثيراً ما يضلون الدرب ثانية . فالرمال تشبه البحار الهائجة ؛ تحركها الرياح ، وتتبعها فجأة بأمواج هائلة تحدق بهم . وقد صرح الشيخ بأنه فقد بهذه الطريقة أعداداً هائلة من قبيلته . ينطبق على حرس الشيخ خليفه الذي أعطي لهم من قبل البربر : « الأعراب المتوحشون» تماماً ولا يتطلب الأمر أقل مشقة من الخدم البربر والنصارى لملاحظة ما يقومون به من أعمال ، ولمحافظتهم على النظام في الوقت الذي ينتظرون به شيخهم . كانت ملابسهم موحدة وهي عبارة عن جرد أسمر اللون مصنوع من شعر الماعز ، نسجته نساؤهم بدون مكوك ، سميك جداً ، صنعته النساء البدويات وحدهن . يبلغ طول تلك الجرود ست ياردات وعرضها خمس أوست ياردات تقوم مقام الثياب كلها أثناء النهار والفراش والغطاء أثناء الليل ، ما عدا أنهم ، كما قلت ، يحرمون أنفسهم حتى من هذه الجرود ، ليغطوا بها حصاناً عزيزاً أو غالي الثمن .

أكسبهم الطول الهائل لبنادقهم وغيرها من الأسلحة ؛ وقساوة وشدة ملامح وجوههم أعظم المظاهر رهبة وخوفاً . وقبل أن يغادر الشيخ خليفة منزلنا تقبل منا مقصاً ومبراة ، فعبر عن شكره وامتنانه ؛ لأن العرب معجبون كثيراً بصناعة الفولاذ الإنجليزي . جاء ممتطياً ظهر حصان جميل أبيض اللون ، وكانت حاشيته كلها تمشي خلفه على أقدامها .

٢٠ ديسمبر ١٧٨٨

زفاف سيدي احمد · وزفاف ابنة الباشا · جهـاز العروس · موكب الزفاف العظيم · وصف ثيابوزينة العروس · السيدات البربريات يغيرن ثيابهن ·

أقيمت في هذا الإسبوع الأفراح والإبتهاجات بمناسبة زفافين في القلعة . فقد تزوج سيدي أحمد ، الإبن الثاني للباشا ، الذي ظل لفترة من الزمن أرملا ، من سيدة تركية النسب ، تزوجت ابنة الباشا إلى ابن اخ رئيس الجمارك . أن رئيس الجمارك الحاضر نابلطاني دخل في الإسلام ، ولكن كما أخبرتك من قبل ، عندما يدخل رقيق نصراني في الإسلام ، يترقى في أغلب الأحيان ، ليتولى أعلى المناصب في تركيا وبلاد البربر .

وبناء على ما تقتضيه التقاليد في هذه البلاد فإن جهاز العروس البربرية من فساتين وثياب تجمع طوال حياتهـا كلهـا ، وبالنتيجة ، فإن الهدايا التي أرسلها والدها إلى العريس بمناسبة الزواج كانت أكثر عددا وأعظم كمية . وكانت من بين المواد التي تضمها خزانة ثياب الأميرة مائتا زوج من الأحذية ، مائة زوج من الحزم المصنوعة من القطيفة المطرزة مع جرود وسراويل وقمصان ، وصدرات ، وقبعات ، وستائر للحجرات ، وعدد آخر من مختلف المواد والحاجيات بنفس الكمية . كانت كل مجموعة مرزومة بصورة منفصلة وموضوعة في صناديق مربعة ذات أبعاد متساوية ؛ وكثيرة العدد جداً . كان من الواجب نقلها إلى منزل رئيس الجمارك ، ولكن اللالة عواشة (بوصفها كريمة الباشا) لم تغادر القلعة فإنها نقلت في موكب عظيم وباحتفال فخم في مسيرة طويلة من باب إلى باب آخر في القلعة ، يحرسه الحراس والجنود والخدم : ومعه عدد من المغنيات اللواتي يؤجرن للغناء والزغردة . يبدأ

الموكب بالمسيرة عادة عندما يغادر منزل والد العروس وينتهي حين تدخل منزل العريس (١)

فرحان منفصلان بهذين الزوجين احتفل بهما في القلعة بنفس اليوم : لأن اللالة عواشة ابنة الباشا في حجراتها ، وزواج سيدي أحمد في ذلك الجزء من القلعة الذي يقيم فيه .

لم يكن بالإمكان تقديم التهاني والتبريكات لسيدي أحمد في غمرة أفراح عروسه ؛ لهذا فإنه تقبلها من رعيته والأجانب من ذوي الرتب في البلاد ، وكان مرتدياً بهذه المناسبة بدلة فخمة . كان احتشاد الناس عظيماً في القلعة حتى جعل من المستحيل السير خطوة في طريقنا إلى حجرات اللالة حلومة دون أن نحاط بالخدم لإخلاء الطريق من المارة .

كانت حجرات العروسين مغطاة كلها بأفخر أنواع الحرائر ، وضعت للعروس أريكة مرتفعة بحوالي ستة أقدام عن الأرض في المخدع ، وهو أكثر جزء في الغرفة سمواً وبروزاً ، حيث جلست متحجبة من الحاضرات بحجاب من الحرير المطرز المدلى عليها . ولا يدنو منها أو يتحدث معها غير صديقاتها المخلصات اللواتي يتمتعن بأعظم ثقة ؛ يصعدن سبع أو ثماني درجات في سلم موضوع على الجهة اليمنى من طريقهن ؛ ثم يقدمن أنفسهن لحضورها وذلك برفع حجابها الذي يغطي وجهها بكل حذر ويقظة ، حتى لا يكشفن أي جزء من شخصها إلى المشاهدات الجالسات في الأسفل ، كانت آداب المجاملة تقتضي أن تتحدث ولكن بكلمات قليلة، من أجل أن توفر الوقت للسيدات

(١) تقام حفلات الاعراس عادة ليلا وتجري الافراح والابتهالات وتنقل العروسة الى محل اقامة العريس من قبل أبويها وأصدقائها ، يتقدمهم فريق من الناس يحملون الفوانيس ويضربون على الدفوف يتبعهم العبيد والجواري يحملون سلال الحناء والروائح والعطور والحلي والمجوهرات وقمصان النوم والمرايا ويرافق الموكب عدد من النساء يزغردن ويغنين حتى يصل الموكب الى الجهة التي يقصدها حيث تبدأ الموسيقى بالعزف والرقص والغناء ويستمر حتى منتصف الليل حين ينسحب كل شخص (المترجم) .

الأخريات ، ليقدمن تهانيهن ومحبتهن لها .

كانت أهداب عينيها مكحولة بالكحل الأسود ووجهها مدهوناً بصبغة حمراء وبيضاء ولكنه لم يكن مزخرفاً بالحلي الذهبية ، اللالة عواشة من أجمل النساء في طرابلس . كانت الثياب والملابس التي عليها تشبه ما سبق وان وصفته لك ، إلا أن المجوهرات والحلى من الذهب والفضة التي تغطي ثيابها كلها تقريباً ، لم تترك إلا جزءاً صغيراً منه يمكن مشاهدته وكان نعلاها لماعين يكشفان عن قدميها ورسغيها اللذين كانا مصبوغين بالحناء بلون خشب الإبنوس تقريباً ، وفي يديها ومعصميها عدد مضاعف من الأساور الذهبية . وبدت المجوهرات والحلى على أصابعها المصبوغة بلون داكن لماعة براقة ، التي أضافت الشيء الكثير إلى نصاعة بياض يديها وساعديها .

حضرت وصيفتان لحمل جديلتين من شعرها إلى الوراء ، اللتين كانتا مزخرفتين جداً بالحلي من الذهب والفضة ، فإذا أرادت أن تنهض من مقعدها فلا يمكن أن تتحمل الثقل الهائل لكل تلك الحلي والمجوهرات . أقيمت موائد فخمة جداً في منزل كل عروس ، ووضع عليها كل ما لذ وطاب من الأطعمة الفاخرة : اللحوم الساخنة ، وكل شيء طازج طري أو مخلل والفواكه التي تنتج في البلاد . وكانت تلك الموائد محاطة بالوسائد المطرزة بالذهب والفضة المنثورة على الأرض لتكون مقاعد للمدعوات اللواتي قدمت لهن المرطبات اللالة حلومة وكريمتها اللواتي كن يتنقلن باستمرار حول الموائد التي ترعى خدمتها وصيفاتهن ونساؤهن المقربات . كانت الوصيفات السوداوات مغطاة تقريباً بالفضة ، وعليهن كمية كبيرة من الحلي والمجوهرات ثلاثة أضعاف ما كن يلبسن على رؤوسهن ورقابهن وأذرعهن في الأوقات الإعتيادية .

إن وصف الإحتفالات والإبتهاجات في هذا العيد ، التي نظمتها وسهرت عليها سيدات أسرة حاج عبد الرحمن يقدم لك صورة عن تلك الإحتفالات التي تحييها السيدات الأخريات من الطبقة الممتازة في هذا البلد ، لأن تلك

الإحتفالات تقام وفقاً لما تسمح به تروة الأسرة . (١)

مع أن اللالة أماني واللالة خدوجة تعرفان بأن زيارتهما للقلعة لا تستغرق غير ساعات قلائل ، فإنهما أخذتا معهما كمية كبيرة من الملابس لتغيرا ثيابهما ، واحتفظتا بأفخم ما لديهما وأكثره زهواً وخيلاء لتلبساه في آخر الاحتفال. كان الفستان الأول الذي لبسته اللالة خدوجة يتألف من قميص مصنوع ، وفقاً لموضة البلاد ، من الحرير والذهب واخرير الشفاف اللماع . كانت ترتدي صدرتين : الصدرة التحتانية من القطيفة القرمزية والشرائط الذهبية والصدرة الفوقانية من الحرير الموشى بالأخضر ، والمطرزة بالفضة . وكان طول وعرض جردها بضع ياردات ، مصنوع كله من الشرائط البنفسجية اللون المطرزة ، عرض كل شريط منها حوالي ثماني بوصات ، وبين كل شريط وآخر تطريز ذهبي ، وشريط ذهبي لماع يصل حتى وسط الجرد من نهاية واحدة إلى نهاية أخرى ، فيترك أثراً مدهشاً وغريباً عندما يتثنى حول جسمها: أما نهايتا الجرد فمطرزتان بالذهب والفضة ، بعرض نصف ياردة تقريباً . كانت ترتدي سروالا من الحرير الأصفر الفاتح له شريط ذهبي عريض أيضاً حول الجانب من الرسغ حتى الخصر ، مع حاشية فخمة من الذهب حول القسم الأسفل . ولبست كل الحلى والمجوهرات التي استطاعت أن تجمعها ، بإضافة بعض الحلى الذهبية القيمة المهداة من أبيها .

بعد وصول اللالة أماني واللالة خدوجة إلى القلعة غيرتا بدلتيهما . قبل أن (ترميا أول إكرامية) كما يقولون أي مبلغ عشرة محبوبات إلى الخادمة المفضلة

---

(١) يوجد في منازل طرابلس تقليد فريد في بابه ، ففي كل الحجرات تقريبا على نهايتها تقوم سدة على ارتفاع اربعة اقدام يصعدون اليها بسلالم ضيقة ، وينقش فوق السدة بعض الزخارف وتفتح بباب صغيرة وتضم كل الحاجيات التابعة للمراة ، ويوضع على احدها السرير وعلى الثانية ينام الاطفال وفي داخلها توضع الصحون والاواني ويترك وسط الحجرة محلا لاستقبال الضيوف ·ولكل رجل ثلاث او اربع حجرات لكل زوجة من زوجاته حجرة ، وكل حجرة مستقلة عن الاخرى (المترجم) ·

التي ترجع إلى سيدات القصر ، والتي لبست واستعدت بهذه المناسبة ، أما السيدات الأخريات فبعد أن غيرن بدلاتهن للمرة الثانية ، وقدمن من ثلاثين إلى أربعين محبوباً إلى كل من العروسين ثم غيرن ملابسهن للمرة الثالثة قبل أن يجلسن على مائدة العشاء .

تم الإحتفال بزواج سيدي أحمد بنفس الإسلوب الذي أجري لشقيقته : انسحبت المدعوات كلهن من القلعة قبل غروب الشمس .

تجد المراسلات المدبرات للدسائس والمكايد في تلك الدعوات المختلطة فرصة سانحة لعرض خدماتهن ، بنقل رسائل الشهامة والبسالة أو إدخال الأمراء المتنكرين الذين يلتفون بالجرود وسط حشود الزائرين ليتعرفوا بسهولة أكثر على أبرع السيدات جمالا في البلاد .

ولأجل أن أجعل هذا الوصف أكثر متعة لك ، أستطيع أن أؤكد لك بحق ، بأنه يمكن جمع كل هذه الحقائق ضمن دائرة ضيقة من أفراد قلائل ، نالوا ثقة أسرة الباشا ، بفضل الصلات الصميمة الودية والمعرفة الحقيقية القائمة بينهم (١) .

١٨ يناير ١٧٨٩

اميران من فزان ــ وصف ملابسهما · وصف فزان · اكل لحوم البشر ·

غادر أميران ملكيان فزانيان هذه المدينة قبل بضعة أيام ، كان الأول أميراً فزانياً ، والثاني قريباً متزوجاً ابنة ملك فزان ، وقد قاما بزيارتنا عدة مرات ، وكانا مدعوين ثلاث مرات في دعواتنا المسائية . كان لون بشرتهما أسود تقريباً ، وقيافتاهما حسنتين وممتعتين . أما جسماهما فمشوقان وملابسهما تشبه ما يرتديه الطرابلسيون ما عدا العمائم . كانت عمامة الأمير الفزاني تتألف

---

(١) اسرة القنصل الانجليزي (تولني)·

من الشال الأسود الملتف حول رأسه مرات عديدة والذي يتميز بطوله مدلى على الكتف الأيسر ، بدلاً من العمامة المصنوعة من الحرير الرقيق الشفاف التي يلبسها الطرابلسيون .

كان الجرد الذي يلبسه أبيض اللون شفافاً جداً . وكان السلاح الذي يحمله فخماً ورشيقاً ومعه سلاسل من الذهب والفضة معلقة فيها . وكان حديثه وأدبه لا يقلان متعة عن غرابته . كانت آراء الأمير الفزاني وأفكاره تشبه آراء الأحباش وأفكارهم الذين يعتقدون بالأرواح الشريرة التي تجول في الأرض ليلاً وتنجح في أعمالها ضد أمن الناس وسلامتهم ، وتترصد خطواتهم لإلحاق الضرر بهم والقضاء عليهم ، وإن تلك الأرواح تزحف على العالم ببطء بعد غروب الشمس ، ولكن بعد أن يخيم الظلام تسرع الخطى لتحتل كل جزء من أجزاء العالم حتى انبثاق الفجر . يقول الأمير الفزاني ، ذلك ، ان شرور الليل وأضراره سريعة بعد أن يجن الليل ويخيم الظلام ، فمن المستحيل أن يفلت منها أي مسافر ، لذا فالأصلح أن يستريح ويضطجع ليلاً ويستأنف سفره صباحاً . أخبرنا بأن وطنه أعظم البلدان جمالا وخصوبة في العالم الذي شاهده واطلع عليه ، فلا توجد في العالم قارة تشبه افريقية وفزان تعتبر أغنى الممالك فيها .

لا تزال توجد في فزان أنقاض وبقايا آثار أبنية فخمة ، وعدد كبير من الكهوف المعقودة المدهشة الهائلة الحجم ، والتي يقال بأنها كانت مخازن للغلال الرومانية . إلا أن الكشف عن الأصول التاريخية لتلك الآثار يتطلب اخصائيين بالآثار من غير البربر والعرب أكثر ثقافة وأوسع اطلاعاً ، وقد ظلت تلك الآثار التي تتمتع بها افريقيا لم ينقب عنها أحد تنتظر الرحالة لتكافيء الجهود التي يبذلها في المستقبل .

شهدت الآنسة (توللي) والدكتور (روثمان) المشهور بقايا آثار قديمة حول طرابلس بالقرب من سوق الجمعة ، خارج المدينة ، حجراً مستوياً وعليه نقوش وكتابات تظهر بأنها كانت موضوعة هناك من قبل (كاسيا) سيدة

رومانية على شرف أبيها ، ولكن التاريخ لم يكن جلياً وواضحاً فقد تم مسحه كلياً .

يقول الأمير الفزاني أن الأمطار لا تسقط في بلاده مطلقاً ، ولكن فصول الربيع الناعمة التي لا حصر لها تندي التربة برطوبتها ، فتجعل البلاد كلها وكأنها جنينة جميلة تروى بالماء إرواء جيداً . أما الفواكه التي تنتج هناك فلذيذة جداً ، يتفوق البلح الفزاني بوفرته ولذة طعمه على كل الأنواع الأخرى في افريقيا ، ومن هذا البلح يصنع الفزانيون الكعك التمري المشهور ، كما سبق وأن ذكرته لك .

يقترح الأمير الفزاني ، مقابل الهدايا التي قدمت له من المقاصيص الحديدة وأمواس الحلاقة ، ومرايا صغيرة ، التي سر بها سروراً عظيماً أن يرسل إلينا أحسن أصناف الكعك من البلح الذي يستطيع أن يصنعه رعاياه . يتميز هذا الأمير بوجهه الضاحك ، وبحلاوة حديثه ، وأفكاره السريعة بكل دهشة وبراعة وبخلق كريم من بين جميع أفراد حاشيته .

كان جالساً في احدى الأمسيات على أريكة ، يسلي نفسه في طرافة ما يشاهد في دعوة أحد النصارى التي دعي إليها ، فعبر عن عظيم سروره وفرحه في سماعه الجوقة الموسيقية المختارة ، التي تتألف من السيدات والسادة . ولكن عندما شاهد بعدئذ رقص المدعوين نظر إلى ذلك بدرجة عظيمة من الغيرة للحرية ، كما رغب أن يدعوها ، التي يتمتع بها الرجال في الرقص مع السيدات ، حيث يسمح لهم في الغالب أن يمسوا أيديهن . كان مذهولاً من هذه الصدفة ، بحيث لم يكن من السهل إقناعه بأن كل المواقف الرشيقة التي شاهدها مجيدة وموضع فخر واعتزاز .

أكد هذا الأمير ما كنا قد سمعنا به قبلا عن الضحايا البشرية التي لا تزال تمارس في بعض أنحاء افريقيا . ففي جنوب الحبشة يضحي الناس إلى الأرواح الشريرة الرقيق الذين لا يستطيعون بيعهم ، وقال إنه لا يخلو جزء من تلك البقاع من أكلة لحوم البشر .

وبرهاناً على صحة هذا الوصف المخيف جداً ، فإن أحد المخاصي الذي نراه غالباً والذي يعيش الآن في منزل السفير عبد الرحمن معروف بادمانه على هذا الإستعداد الوحشي ولم يمنع إلا بصعوبة ولكن منذ وقت قصير كان قد برهن على استعداده لأكل لحوم البشر .

أظهر الباشا لهذا الأمير الشي الكثير من المجاملات واللطف بالرغم من أن جد أمير فزان الذي جيء به مقيداً بالسلاسل إلى طرابلس من قبل جد الباشا الحاضر أحمد الكبير ومنذ ذلك الحين ظل ملك فزان تابعاً إلى الباشا الحاضر ، وأصبح البلاطان شديدي الإرتباط والإتصال أحدهما بالآخر .

١٨ مارس ١٧٨٩

وصف موكب خروج البك في حملة تاديبية ضد الاعراب ·

خرج البك مؤخراً مع قوة عظيمة في حملة تأديبية ضد الإعراب ، ولم تصل أنباء منه لحد الآن . دعينا إلى القلعة لتوديعه ومشاهدة موكب سفره ، وقد استقبلنا الكخيا فور وصولنا وأرسل بعض عبيده ليخلوا المكان الذي أعد لنا . كان في أحد الأبراج المدورة في القلعة ، احتشد فيه جمهور غفير من المشاهدين . وكان عدد كبير من حراس الباشا بانتظار قدومه . قد اصطفوا في وسط القلعة بنظام تهيأوا فيه للمسيرة .

كان يتقدم هذا القسم من المسيرة ضباط فرسان من الخيالة على ظهور جيادهم يحملون رايات مكة الحريرية الخضراء اللون ، يصحبهم شاويش يمتطي جواده بكل بهاء وفخامة ، حاملاً ذيلاً واحداً ، رمزاً يحمل أمام البك دائماً : ويخرج والده بثلاثة ذيول لأنه ذو لقب باشا بثلاثة ذيول ، وهو الوالي الوحيد في بلاد البربر الذي يتمتع بهذا الشرف الرفيع . وكان ضباط البك يرتدون البدلات الفخمة ويركبون الجياد المطهمة الأصيلة ، مع جماعات مختلفة من

المراسلين ، والمماليك والشواويش والعبيد السود والحرس الملكي الخاص ، ألفوا مسيرة جميلة هادئة أضافت الحلى والزينة الباهظة التكاليف التي تزين الخيول إلى جمالها روعة وفتنة .

وخلال فترة انتظار قدوم البك ، تمتعنا برؤية سيدي يوسف وسيدي أحمد مع حاشيتيهما يتباريان على السهل ويقومان بكل المناورات التي يستعملها البربر في الحرب . وكانت أغانيهم ، أو صيحات الحرب تسمع بالقرب منا ؛ وتبدو أصواتها مرعبة ومخيفة تشبه وصف صيحات الحرب التي يرددها الهنود .

بعد انتظار دام ساعتين خرج البك من القلعة ، مرتدياً نسيجاً فضفاضاً ذا لونين الأزرق والذهبي على قفطان لونه اصفر فاتح ، مطرز بالذهب والفضة. وكان حزامه مرصعاً بالجواهر ؛ وعمامته مغطاة برداء ذهبي تاركاً نهايات طويلة تتدلى منه ، وفيها نوع من الحلى على شكل مخلاب كبير جداً من الذهب ، صنع مؤخراً ؛ فبدا جميلاً جداً ، وعليها هلال ذهبي جديد أكبر بكثير مما يلبس عادة .

لم نر البك من قبل قد استقبل استقبالاً فخماً منقطع النظير من البربر كما في هذه المرة. كانوا يرددون الهتافات والترحيب باستمرار ولبعض الوقت ، وبدا البك بشكله المهيب المعهود جميل المنظر متسامياً وفخماً . امتطى ظهر جواد نشط رشيق اسود اللون . كان الحصان يبدو متنافساً مع سيده بفخامة مظهره ، وعليه مالا يقل عن أربعة أغطية من القطيفة البديعة . كان صدر الحصان الأسود الواسع يتلألأ بعقود ثمانية من الذهب الخالص المدلاة والتي امتدت حتى سيقانه ، وكان السرج مرصعاً بالذهب ، وجبهته مزخرفة بالجواهر والركاب كبيرة جداً بدت وكأنها من الذهب المصقول . كان منظره العام فخماً ورائعاً وزاهياً بصورة مدهشة .

حالما امتطى البك ظهر جواده. تحركت فرقة الفرسان بخيولها عليها ترفرف رايات مكة ؛ والذيل الذي يحمله ضابط فارس ؛ يتبعهم رئيس الشواويش ، الذي كان صدر بدلته مغطى بقطعة من الدرع الفضي ، وعمامته بيضاء بمخلاب

ذهبي ، يتبعه الجنود الذين تحت أمرته يرتدون ملابس موحدة من القماش القرمزي ، وطرابيش بيضاء صلبة على شكل قرن مقلوب . كان رئيسهم على ظهر جواده والباقون يمشون على الأقدام . ويأتي بعد الشواويش الجوقة الموسيقية الملكية التي سبق وأن حدثتك عنها التي تعزف أمام الباشا والبك فقط . وكان يتبع الجوقة الموسيقية عدد كبير من رؤساء موظفي الدولة ، بعدهم كانت ثلاثة خيول مطهمة ومزخرفة بأحسن السروج يقودها عبيد سود .

كانت المرتبة الأولى من موظفي الدولة تسبق البك ، وحرسه الخاص من الجنود والمماليك يتبعونه براياتهم الطرابلسية المزخرفة . وتحمل حقائب البك مباشرة بعد الرايات ، ومنظرها مدهش . كانت صناديق مربعة مستوية مغطاة بالسجاد التركي محمولة على ظهور الخيل التي يقودها العبيد . وكانت الجيوش التي تتبع يرئسها أغواتها المختلفون .

كان العدد الأعظم من العرب والبربر الذين يصحبون البك في هذه الحملة ، ينتظرون اللحاق به حيث أقيم معسكره . في محل يبعد بمسيرة ثماني ساعات ، حيث يولم وليمة كبرى لشيوخ الأعراب ، الذين يجلسون على أريكة فخمة أقامها في خيمة لهذا الغرض . قيل إنه سيغادر ما يقرب من ألف أعرابي هذه السنة . وسيتألف معظمهم من قبيلة تدعى بنو وليد وقبيلة الشيخ خليفة (١) .

أرسل الباشا البك مع أخويه ضد سيف النصر (٢) الذي اغتنم فرصة الخصومات الحاضرة في القلعة ، ليقلق الباشا ويزعجه ، بالإحتفاظ بالإتاوات

---

(١) بنو وليد هم قبيلة الورفللة من بني وليد .

(٢) ان الضعف الذي ينحدر اليه حكم علي القرمانلي فقلل من هيبة الحكومة اكده حاكم مصراته الى لوكاس : « لقد مضى الزمن الذي كان فيه اهالي طرابلس يعرفون كيف يسيطرون ، والاعراب ترتجف من منظر المعسكر » . وكان شيخ النصر من اشهر رؤساء بوسيف ويروي (لوكاس) بأن البك خرج على رأس ١٥٠٠ فارس و٦٠٠٠ من المشاة . وكان لدى سيف النصر ٦٠٠ حصان و١٠٫٠٠٠ من المشاة . ويسكن شيخ سيف النصر في جبل غريان . يذكر أهل طرابلس اسمه بسبب معارضته للباشا مدة طويلة .

وعدم دفعها بعد أن جمعها من الأعراب التابعين له .

إن البرودة القائمة بين البك وأخويه في الوقت الحاضر هي السبب في عدم رجوع الأميرين من السهل (فقد كان من واجبهما القيام بذلك) واللحاق بالبك وقافلته قبل أن يغادر القلعة . كان عدم الإكتراث هذا مذهلاً بنظر كل واحد ، حتى أثار سخط حاشية البك وحنقها ، لما أظهره الأميران من قلة اهتمام : إلا أن البك ، بسياسته المعهودة ، بدا وكأنه لم يلاحظ شيئاً . كان الكثيرون من أصدقاء البك يرتجفون خوفاً على سلامته ، وقيل إن الباشا لم يكن واثقاً بكل أولاده .

٢٠ مارس ١٧٨٩

خيانة الشيخ خليفة · حمل الرؤوس الى القلعة · نهب القوافل · حفر قناة تصل البحر الاحمر بالبحر المتوسط ·

تناول معنا أمس حاج عبد الرحمن طعام الإفطار ، وبقي عدة ساعات . حضر طعام العشاء في منزلنا الشيخ أو حاكم المدينة وحاج يوسف ، وزرنا هذا الصباح اللالة خدوجة الإبنة الكبرى للباشا ، بمناسبة ولادة ابنها ، وأمضينا بعدئذ ساعتين أو ثلاثاً مع اللالة حلومة والأميرات في القلعة ؛ ولهذا فإن اليومين الأخيرين كانا مكرسين كلياً لقبول دعوة بربرية .

كانت أنباء حاج عبد الرحمن عن معسكر البك رديئة جداً ، اضطر البك أن يتقدم في الريف أكثر مما كان عازماً عليه ، للحاجة الشديدة إلى علف الحيوانات ، لأن الأعراب التابعين إلى سيف النصر قد أحرقوا كل شيء بالقرب من البقعة التي قد تقرر إقامة المعسكر فيها . لم يعمل الأمراء الثلاثة متكاتفين ومتعاضدين ، كان سلوك سيدي يوسف مع الأعراب عنيفاً وقاسياً ، يرتكب أبشع الأعمال من القتل والسلب والنهب ، حتى عرض حياة البك إلى الخطر

الذي يعتبره الأعراب مسؤولاً عن كل الأضرار التي اقترفها أخواه .

لا أمل في الوصول إلى عقد الصلح بين البك والإعراب في الوقت الحاضر . لقد اقترب الآن جيشا البك وسيف النصر أحدهما من الآخر ، وأصبحا على بعد مسيرة بضع ساعات أو مسيرة يوم قصير .

كان السفير يحمل رسالة من القائد أو حاكم مصراته . فيها الأنباء المفرحة التي تقول بأن البك عقد تحالفاً مع قبيلة عربية أخرى ؛ تعتبر أكثر عدداً من القبائل الأخرى في الصحارى . يؤمل أن تقلب الوضعية الجديدة للميزان في صالحه . كان من المفروض أن يكون الشيخ خليفة العربي ، الذي سبق وان وصفت لك شخصيته في رسالة ، يدافع عن مصلحة البك ويكون عضداً له ، فهو أحد الشيوخ الذين يعتبرون من سادة الصحارى . وكان كل شيء يتوقف على نصرته وعونه .

إلا أن هذا الأعرابي ، قبل أيام قليلة ، خان البك ، تقريباً ، وأراد أن يوقعه في أيدي أعدائه في تدبير المكيدة التالية : نصح البك أن يرسل القسم الأعظم من الجيوش التابعة لهما لتبحث عن العلف لحاجة مواشيهم الحية ، قبل أن يستطيع العدو أن يتقدم نحوهم . بعد سفر جيشه ببضع ساعات أخذ البك ناظوره يتطلع إلى فوق الرمال فرأى العدو يتقدم بسرعة نحوه ؛ فسأل الشيخ خليفة النصح والمشورة لتقدير الموقف في مثل هذه الوضعية أجاب الشيخ خليفة غير مكترث ؛ بوجوب البقاء في نفس المكان ، اذ لا شيء بالإمكان القيام به ، بل إنه سيزيد من الخطر اذا هو تحرك . في تلك اللحظة علم البك بأن الشيخ خليفة أرسل جاسوساً إلى معسكر سيف النصر ، يخبره بأن القسم الأعظم من جنود البك وجنوده هو شخصياً قد ذهبوا للبحث عن العلف ، وهذه هي الفرصة المؤاتية للبدء في شن هجوم عليه . أمر البك بأن تضرب الطبول لتدعو قواته للعودة فوراً حتى يتحاشى الوقوع في الأشراك والحبائل التي نصبتها خديعة الشيخ خليفة، وبدلاً من أن يأخذ بنصيحته ، هرب الشيخ خليفة الذي تقرر

أن يقطع إرباً إرباً بعد رجوع جيش البك إلى معسكر سيف النصر .

حدثت مناوشة على الفور بين قوات البك التي تتفوق عدة وعدداً وقوات سيف النصر التي استطاعت أن تقتل ثمانين رجلا من قوات سيف النصر ، وأن تحمل رؤوسهم إلى هذه البقعة . من المنتظر أن تجلب الرؤوس غداً ، وتعلق كالمعتاد على أبواب المدينة وأسوارها .

إن هذا التقليد المرعب في طرابلس ، وهو في الجزائر وتونس أكثر هولا وخوفاً ، رمي الرؤوس على الأرض . وقد يمر أحد النصارى فيشهد المنظر الكريه الذي تعافه النفس بدون أن يرفع عينيه لينظر إليها ، ولكنه لا يستطيع أن يتحاشى فزع ورعب المنظر .

بعد أن أحرز البك النصر على الأعراب ، كاد أن يعقد صلحاً مع سيف النصر ، ولكن الخلاف كان قائماً على مادة واحدة أمر البك عليها ، فاستؤنف القتال ثانية . اقترح البك على الأعراب السماح له ببناء قلعة على جزء من الرمال حيث أقيمت قلعة من ذي قبل ، بناها محمد والد الباشا الحاضر ، ولكن لم يوافق سيف النصر على هذا الإقتراح ولا بنو وليد الذين كانوا معه .

كان البك بحاجة ماسة إلى المؤن ، خاصة إلى الماء ، بحيث كان يموت يومياً عدد من جنوده ومواشيه . ففي مناخ شديد الحرارة مخيف جداً ، تهدد قلة الماء وندرته وشدة الحرارة بالفناء الشامل لقوات البك ، فأمر بأن تذبح بعض الإبل لأخذ ما تخزنه من مياه في جوفها يعادل العديد من الغالونات ، التي وفرت الشيء القليل من الماء إلى الجنود ، الذين كادوا يموتون من شدة العطش ، فأنقذ هذا التدبير عدداً من الموت .

نأمل في الأيام القليلة القادمة أن تصل أنباء سارة مفرحة من المعسكر ، نسمع في كل يوم عن الأضاحي والنذور التي تقدم إلى أضرحة المرابطين المقدسة ومزاراتهم من قبل أصدقاء البك الذين لم يبخلوا في الصلوات والهدايا والنذور من أجل أن يحقق البك النصر .

كانت أمه وزوجته تعانيان عذاب فراق البك . فقد اعتزلت اللالة حلومة

والأميرة زوجة البك من بقية أفراد الأسرة؛ ولم يسمح إلا بعدد قليل جداً من أولئك الذين كانوا في القلعة منذ سفر الباشا بمقابلتها .

بعد أن أنبأنا حاج عبد الرحمن بأخبار المعسكر أمضى بقية ساعات الصباح ليصف وصفاً شيقاً ولطيفاً القوافل ووصفاً طويلاً عن الرحلة الحجازية التي زار فيها وأسرته الديار المقدسة . كانت القافلة التي سافر فيها مؤلفة من حاشيته وعدد من الأغنياء والفقراء التابعين لقافلة مراكش التي التحقت بالسفير لتفيد من حمايته . كانت القافلة معسكرة وقتئذ في سهل طرابلس ، أسرعوا في القيام بمهامهم ليلحقوا بقافلة أسرة السفير . وبالرغم من سفرهم من طرابلس في أكثر فصول السنة ملاءمة ومناسبة ، إلا أن المصاعب التي تزخر بها الصحارى كانت كبيرة جداً ؛ حتى توقع حاج عبد الرحمن أن يهلك القسم الأكبر من أفراد أسرته .

سافرت السيدات في عربات مغطاة بمظلات موضوعة على ظهور الإبل ، وحين تتوقف القافلة ، تنقل السيدات عادة إلى الخيام ، حيث ينتظرهم السجاد وكل وسائل الراحة ، ولكن في معظم أنحاء الصحراء لم يكن بالإمكان استخدام وسائل الراحة تلك لأن إعدادها يتطلب المزيد من الوقت أكثر من الحكمة والروية بسبب وجود البدو الرحل .

حين وصلت القافلة إلى القاهرة الكبرى كان يبلغ عدد الإبل فيها الألف وعدد الناس بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف . والقاهرة سوق عظيمة ومزدحمة بحيث يصعب على المسافرين أن يمروا في الشوارع . تنقل البضائع من هـــذا السوق التجاري الكبير خلال البحر المتوسط إلى اوربا وتركيا . ويرسل انتاجها بالقوافل إلى داخل افريقيا إلى الحبشة وفزان ومراكش وغينيا ، وتنقل كثير من الثروات إلى البحر الاحمر إلى كل انحاء آسيا والبلاد العربية والصين والهند وفارس وغيرها من الاماكن .

تنقل القوافل كل سنة من الحبشة إلى القاهرة ما يقرب من ألفي زنجي . هذه المخاليق البائسة هم لسوء الحظ أسرى حرب . إن معظم الشيوخ والولاة

والرؤساء في داخل افريقيا إما أن يبيعوا الاسرى أو يقتلوهم . تحمل القوافل أيضا معها إلى القاهرة الرقيق وبقر الوحش والببغاوات والحمير ؛ وبعض الأحيان الحيوانات الوحشية الخاصة بافريقيا . ومن بين أهم المواد الثمينة هو الذهب على شكل التراب والقضبان ، وريش النعام والمرّ المكاوي وخشب الإبنوس . يحفظ الذهب من الحبشة في قطع صغيرة من القماش بقدر حجم الجوزة الكبيرة يبلغ ثمن كل كيس حوالي سيكوين بندقي أو عشرة شلنات وستة بنسات ، ومن كثرة تداولها يتمزق القماش بدوان أن يفتح الكيس مرة واحدة . أما خشب الابنوس الذي يجلب من الجبال العالية بالقرب من الحبشة ، يقال إنه أحسن ما موجود في العالم : ويعتبر أغلى من الابنوس الهولندي ، وأغلى من الابنوس الأسود والاخضر أو الاحمر المستورد من الهند .

تنطلق احدى أعظم القوافل في افريقيا من مدينة فاس وتخترق حدود المحيط الاطلسي كلها ، ولا تترك الساحل حتى تستطيع أن تعبر افريقيا ، في أضيق جزء حتى مملكة صنعاء ومنها تتقدم إلى ضفاف البحر الاحمر . وتنطلق القافلة الثانية من مراكش حيث يزيد عدد الحجاج والمسافرين عندما تسير بمحاذاة ساحل البحر المتوسط كله من مراكش إلى مصر خاصة من الجزائر وتونس وطرابلس . وتخيم هذه القافلة لعدة أسابيع تحت الأسوار المحيطة بمدينة طرابلس . ومنها تنطلق عبر الصحارى إلى الاسكندرية ؛ وينظم الحجاج التابعون لهذه القافلة أنفسهم تحت خيام من كل الحجوم والألوان في السهل الرملي المجاور للأبواب التي تبدو في مسافة قليلة كمدينة صغيرة من الألوان المختلفة . يأخذ الحجاج من سكان طرابلس ما يحتاجون اليه من مؤن وطعام ، ومن النادر جداً ، أن يدفعوا ما يقابله من مال ، ولكن يعطون ما يقابله بضائع وسلع يجلبونها معهم ، وخاصة ريش النعام والجلود المراكشية . ذهب السفير (وحاج عبد الرحمن) مع أسرته في إحدى هذه القوافل إلى مكة . قصدوا القاهرة الكبرى حيث التحقوا بقافلة مصر ؛ ولكنهم تأخروا لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع ، بالرغم من توافر أحسن الأجواء والطقها التي يتخيلها

الانسان ، بسبب نحس وشؤم بعض الأيام التي قيل إنها تحدث من وقت إلى آخر . تكون أيام التأخير هذه في بعض الأحيان خطيرة جداً لاولئك الحجاج الذين يذهبون لزيارة الأماكن المقدسة – مثل البيت الحرام في مكة – وهو الهدف الرئيسي من أداء فريضة الحج ، والذي يفتح يومين في كل ستة أسابيع ، أحدهما للنساء والثاني للرجال ، وبالنتيجة فان مثل هذا التأخير قد يعطل المسلمين ثلاثة أشهر أخرى في حجهم .

يعتبر الطريق من القاهرة إلى السويس ، الذي لا يزيد طوله على ستين ميلاً من بين أسوأ الأجزاء في الرحلة من طرابلس إلى مكة حتى ولا باستثناء الصحارى إلى الاسكندرية يضطر الكثيرون من الحجاج إلى السير في طريقهم المحاذي للبحر الاحمر ، غير قادرين لأن يحملوا معهم المؤن المطلوبة لبقية حجهم إلى مكة ، لان السويس محاط بالرمال وتندر فيه قطرة ماء للشرب ولا يمكن أن يجهز للمسافرين بشيء منه . ويضطر أهالي السويس أن يسافروا مسافة ست أو سبع ساعات لكل قطرة ماء يستعملونها : يذهبون من أجل الحصول عليها إلى السواحل العربية فيجدونها في النوبة على حدود البحر الاحمر ، وهذا أقرب ماء يمكن أن يحصلوا عليه ، وهو ماء مر ، بحيث لا يقدر أي أوربي على أن يتذوق منه قطرة اذا لم يخلطه مع الكحول ، فكان لا بد لحاج عبد الرحمن اذن أن يجهز نفسه بالحمص والفول واللحم والخشب والماء ، لأن بقية رحلته الطويلة تبلغ حوالي سبعمائة ميل ، القسم الاعظم منها في صحارى البلاد العربية ، تؤدي هذه الحالة إلى زيادة الحيوانات لنقل الاحمال والأثقال في القافلة ، بحيث يضطر الحجاج الفقراء الذين لا يملكون حيوانات لحمل اثقالهم ، أن يسيروا بمحاذاة الساحل .

يكلف حج رجل وجيه موسر للديار المقدسة مبالغ طائلة ، لأن الاشخاص الذين يسمح لهم باللحاق في ركبه يعتمدون كلياً على ما لديه من مؤن .

لا يمكن أن يضاهي شيء في الدهشة والعجب مظهر القوافل التي تنطلق من القاهرة الكبرى ، اذ يتألف الحجاج من كل الأقوام ، يختلفون في ملابسهم

وألوان بشرتهم : يحملون معهم بالاضافة إلى التراب الذهبي والسكوين البندقي والبياستر الفضية والذرة والقمح والفول والحديد والرصاص والقرمز إلى مكة ومخا وغيرهما من المدن والاماكن ويرجعون بواسطة طريق طرابلس ومعهم الحرير وريش النعام والشال والقهوة العربية واللؤلؤ والألماس من جولكندا (١) والموسلين والقطن والاصماغ والمعجنات المصنوعة من الزهر والمشمش والخوخ الممتاز جداً ولكنه غالٍ . فلم نذق حلوى في القلعة بدون تلك المعجنات وبسبب غلائه فان عدداً قليلا يستطيع الحصول عليه .

ومن بين البضائع التي تجلب من قبل هذه القوافل إلى مصر من شبه الجزيرة العربية الرقيق من النساء الجميلات اللواتي يعرضن للبيع في القاهرة . تجلب هذه النسوة من البلدان النصرانية مثل جورجيا والجركس وأرمينيا وغيرها ، إذ لا يمكن ان يكون المسلم أو المسلمة رقيقاً .

يلاحظ الرحالة (فولني) بأن الحالة تدعو للدهشة والغرابة ، فقد كانت جورجيا ، التي تجلب منها أجمل السيدات الآن مأهولة في السابق بالسكان السمر من مصر ، أما الآن فإن هذه البلاد مشهورة ببياض بشرة سكانها .

بعد أن انطلقت القافلة من القاهرة فذهب الحجاج إلى الديار المقدسة وأدوا فريضة الحج إلى مكة وعادوا في غضون مائة يوم . يمكن في بعض الاحيان شراء البضائع التي جلبها الحجاج في القوافل معهم إلى طرابلس ، وخاصة الألماس واللؤلؤ ، يجلب الحجاج معهم كميات كبيرة من اللؤلؤ ويسمحون للناس أن يختاروا العقود التي فيها أكبر اللآلئ وأكثرها كمالا ، بسعر أقل بكثير من السعر الذي تباع في اوربا .

أما التجار الاوربيون الوحيدون في السويس الان فهم البنادقة : الذين توطنوا واشتغلوا بالتجارة منذ مدة طويلة ، يصدرون إلى البندقية الملح والحرائر والاقمشة الخ .. كان يوجد في السابق تجار انجليز وفرنسيون فيها ، ولكن

(١) احدى مقاطعات الهند – وتدعى الان حيدر اباد – التي جمع حكامها كميات كبيرة من الاحجار الكريمة (المترجم) .

القافلة القادمة من السويس إلى القاهرة في سنة ١٧٧٩ قد هلك جميع أفرادها ، فوضعت بذلك نهاية لتجارة التجار الانجليز ، ولم يشاهد منهم أحد بعدئذ في أي من هذه المحلات .

تحدث عن نهب وسلب هذه القافلة بالتفصيل (سنت جيرمان) (١) من جزيرة بوربون . كانت القافلة مؤلفة بصورة رئيسية من الضباط الانجليز المرسلين مع بعض الاسرى الفرنسيين الذين نزلوا من على ظهر سفينتين في السويس قاصدين اوربا عن طريق القاهرة . لقد أخبر البدو الاعراب في طور بأن هؤلاء الناس يمتلكون كنوزاً عظيمة ، فعقدوا العزم على نهبهم وسلبهم وهم على مسافة خمسة فراسخ من السويس . ظل الاوربيون التعساء الاشقياء عراة مشردين ، منقسمين إلى جماعتين . وصلت الجماعة الاولى إلى السويس أما الجماعة الثانية التي بلغ عددها سبعة عشر شخصاً فقد ضلت الطريق إلى القاهرة وتاهت في الصحراء ومات أفرادها من الإجهاد والتعب وشدة العطش والجوع والسير تحت أشعة الشمس المحرقة واحداً بعد واحد ، ما عدا شخص واحد هو المسيو سنت جيرمان .

ظل هذا الرجل البائس يومين وثلاث ليال ، عاري البدن ، يرتجف من قسوة برد ريح الشمال الذي يهب ليلاً (في شهر يناير) وحرارة الشمس المحرقة خلال النهار . حين تولاه اليأس وانقطع حبل الرجاء رمى بنفسه على الرمال ، في اللحظة التي أبصره بربري من بعيد فتقدم اليه ومد اليه يد العون ، وأشفق

---

(١) انقض عليهم البدو فجأة فلم يكن لديهم وقت كاف لتنظيم دفاعهم ، فنهبوا كل ما يملكون ، وقتلوا العديد منهم . وكان من سوء حظ المسيو سنت جيرمان ان يفقد اخاه وثروته في هذا اللقاء القاتل . وبعد أن هام على وجهه ثلاثة أيام وثلاث ليال في الصحراء الجرداء ، عاري الجسم بدون طعام وماء ، وبدون أمل ، وصل وهو بين الحياة والموت الى كوخ أعرابي ، الذي غسل جسمه بماء عذب واطعمه حليبا، والبسه رداء ، وأرشده الى القاهرة الكبرى . سمعت هذه القصة من فمه مباشرة، وهو الان في طريقه الى فرنسا ، وقد يثير سوء طالعه اهتمام الحكومة ـ
Savary's Letters from Egypt, Vol. 11, P. 36

عليه ولولاه لكان في عداد الموتى . لقد شاهده من مسافة يقع مغشيا عليه ؛ فأسرع اليه ، وبعد ان أدرك ما عليه من وضع مؤلم محزن أخذه معه إلى كوخه . استرد المسيو سنت جيرمان صحته في كوخ ذلك البدوي ، الذي أضافه مدة من الزمن حتى أستطاع ان يحصل على دليل ينقله إلى القاهرة .

كانت تدور في القديم فكرة مشروع حفر قناة في السويس لتوصيل مياه البحر الاحمر بمياه البحر المتوسط حاول أن يقوم بها (سيزو ستريس) (١)ملك مصر ؛ وبذلك يعني انقاذ السفن من المرور حول رأس الرجاء الصالح إلى الهند يبلغ طول خليج السويس حوالي مائة ميل ، ولا بد أن يكون مثل هذا المشروع صعباً جداً ، ويجب أن تحفر القناة بصورة دائمة وتصان صيانة جيدة ، ولا شك بأنها ستغير وجه بلاد البربر تغييراً كلياً ، وتربط بصورة دائمة تلك الاجزاء من العالم بأوربا ، التي ستجني بكل فرح وسرور مما تفيده من هذا الطريق القصير نحو ثروات الشرق وخيراته . ونعني بذلك سهولة الكشف عن الكنوز الخفية المدفونة في افريقيا كما تتاح فرصة التمدن لأمم وأقوام لا زالت مجهولة ، ويتوقف الحبشي الاسمر والاوربي من التحديق أحدهما في وجه الآخر من الدهشة والاستغراب .

وكما ان الفرصة الآن تسنح لإبراد هذه الرسالة لك، فاني ساحتفظ ببقية القصص التي رواها حاج عبد الرحمن عن حجه إلى رسالتي القادمة .

---

(١) يقول (فولني) في كتابه « رحلات في مصر » ج ١ ص ١٤٦ : كان يعتقد القدماء بأن ماء البحر الاحمر أعلى من البحر المتوسط والحقيقة أننا لو نظرنا من قنال Kolsoum الى البحر نجد أن لنهر النيل انحدارا لمسافة لا تقل عن ثلاثين فرسخا لا تبدو هذه الفكرة مدعاة للسخرية بالاضافة الى ذلك يمكن ان يوجد المستوى في راس الرجاء الصالح . يقال ان المحاولة الثانية كانت في عهد الملك نخاو الثاني في نهاية القرن السابع ق.م. وقد أعاد دارا الكبير (٥٢١ ـ ٤٨٥ ق.م) حفر القناة المذكورة التي ملأتها الرمال التي تصل بين النيل والبحر الاحمر ، وقد عثر على حجر كتب عليه : لقد أمرت بحفر هذه القناة من النهر الذي يجري في مصر ويسمى النيل الى البحر الاحمر وقد تم حفر هذه القناة حسب رغبتي .

٣٠ مارس ١٧٨٩

قوافل الحجاج الى بيت المقدس · الادمرة في الارض المقدسة · الدير في طورسينا · معيشة الرهبان ·

لما لم تكن لدي أنباء جديدة أرويها لك في الوقت الحاضر عن هذه المدينة ، فسأستأنف الحديث عن القوافل . كان من المألوف أن يقود باشا طرابلس في سوريا القافلة المقدمة بنفسه من هناك عابراً الصحارى حتى مكة ؛ لانه مكلف من الباب العالي بقيادة القافلة وتموينها بالذرة والرز وغيرها من المؤن . إلا أنه لم يقم بالقيادة و كان تموينه رديئاً جداً .

توجد على بعد أربعة أيام إلى الشمال من السويس ، في بعض أنحاء الصحارى في شبه الجزيرة العربية مجار للمياه ، وقنوات المياه الجوفية لضمان تموين الحاجة المرعبة المخيفة للماء وإنقاذ المسافر من الموت عطشاً ، تلك المجاري والقنوات التي بناها الاشوريون والبارثيون والميديون بتكاليف باهظة جداً ؛ الذين جعلوا جزءاً من ديانتهم نقل الماء إلى الصحارى . ولكن الإهمال أحال تلك القنوات والمجاري عديمة الجدوى .

يجمع والي القدس مبالغ كبيرة من سخافات المسيحيين ، مقابل حجهم الديار المقدسة وان مختلف الطوائف المسيحية من الاغريق ، والكاثوليك ، والأرمن ، والأقباط ، والأحباش ، والفرنج تتنافس بغيرة وتتنازع من أجل إمتلاك الاماكن المقدسة والسيطرة عليها ، فالخلاف مستمر بين الاديرة وأتباع كل طائفة . ولما يحاول الاتراك مطلقاً ، الذين من مصلحتهم استمرار تلك الخصومات أن يخففوا من مصدر تلك المنازعات ، وانما على العكس من ذلك يسعون إلى ايقاد جذوتها وتعميق أثرها بقدر ما يستطيعون .

يدفع كل حج يؤدي فريضة الحج ويدخل مدينة القدس عشرة بياستر ، حوالي أربعين شلنج ، ثم يدفع للدليل الذي يتعهد بارشاده في رحلته إلى الاردن كما يدفع كل دير إلى والي القدس مقابل قيام رهبانه بإرشاد قوافل الحجاج .

يرسل الكاثوليك حوالي ثلاثمائة صندوق من مسبحات الصلاة ، والتحف

الفنية ، والصلبان التي تحمل صورة السيد المسيح والالواح الخ ... من القدس كل سنة والتي يفرض عليها الوالي جمارك ومكوسا كبيرة جدا . تعيش معظم الأسر المسيحية والاسلامية في القدس على المواد المذكو ة اعلاه : رجالا ونساء وأطفالا يجلسون في حلقات ويحتشدون على أبواب منازلهم ، يشتغلون جميعاً في النحت ، أو في صناعة الخشب ، والعاج والمرجان وفي تطريز الاقمشة الفاخرة في الحرير واللؤلؤ بخيط من الذهب والفضة .

يبعث دير الارض المقدسة كل سنة الذخائر والتحف الفنية وغيرها من المواد خارج البلاد فتبلغ قيمتها حوالي مائة الف بياستر (حوالي مائة الف جنيه استرليني) والذخائر والآثار الفنية من الأديرة الاغريقية والأرمنية والقبطية بكميات أعظم من ذلك . تصدر تلك البضائع إلى تركيا وايطاليا والبرتغال وفرنسا واسبانيا وبذلك تكثر العائدات التي تصل مبالغ كبيرة إلى الطوائف الدينية في القدس .

ولا تقل أهمية زيارات الحجاج بالنسبة لموارد تلك الاديرة. فمن المعلوم منذ الازمنة القديمة بأن محبة الناس للاطلاع على الأماكن المقدسة جلبت النصارى من كل أنحاء العالم إلى بيت المقدس . بل ان البابوات اشترطوا لمدة طويلة زيارة بيت المقدس عملاً ضرورياً للخلاص ، وإبداء أنبل المشاعر ، التي بها أثيرت أوروبا كلها إبان الحروب الصليبية . منذ تلك الفترة التاريخية التي أريقت فيها دماء كثيرة جداً ، فقد انخفض عدد الحجاج انخفاضاً كبيراً . إقتصر عددهم الآن إلى قليل من الرهبان القادمين من ايطاليا واسبانيا والمانيا إلا أن الأمر يختلف بالنسبة للشرقيين الذين يعتبرون الرحلة إلى بيت المقدس من أعظم الأعمال الدينية التي تستحق التقدير . بل حتى أنهم يطعنون بالنصارى أو الفرنج الذين قدموا إلى الشرق ، ولا يقتفون أثرهم ، ويوصمونهم بالهرطقة والكفر ؛ لانهم لا يقومون بهذا الجزء من دينهم .

وسوف لا ينعت الاتراك الحجاج الذين يقدمون إلى زيارة الاماكن المقدسة

بالكنية المشينة (كلب) ، التي يكنى بها الأتراك النصارى بصورة عامة .

يعتقد الاغريق أكثر من غيرهم بأن هذا الحج مصدر لطلب اعظم الغفران ويفترضون بأنه لا يغفر الله لهم ما تقدم من ذنوبهم وانما عما سيتأخر منها في المستقبل ، وعن كل ما تقترفه أيديهم من جرائم وعن عدم قيامهم بالصيام أو الأعياد .

ونتيجة لهذا الاعتقاد يقدم كل سنة عدد عظيم من الحجاج من الجنسين ومن كل الاعمار من موريا والارخبيل والقسطنطينية وأناضوليا وأرمينيا ومصر وسوريا . بلغ عدد الحجاج سنة ١٧٨٤ خمسة آلاف .

يكلف أبسط أنواع الحج أربعة الاف ليفره أو مائتين من الجنيهات ، وغالبا ما تصل التكاليف إلى خمسين أو ستين الف ليفره أو من ثلاثة إلى أربعة آلاف جنيه استرليني ينزل الحجاج في (يافا) التي تبعد حوالي ستة وأربعين ميلاً من القدس ويصلون هناك في شهر نوفمبر ، ويذهبون مباشرة إلى القدس ، ويظلون هناك حتى بعد عيد الفصح . يسكن الحجاج معاً في الحجرات المخصصة لطوائفهم المختلفة . يعلمون بان مبيتهم مجاناً إلا أنه لا يمكن أن يغادروا بسلام بدون أن يهدوا كمية من المال تفوق كثيرا كلفة مبيتهم في فندق ، بالاضافة إلى ذلك يجب أن يدفعوا للصلوات والخدمات والنصائح الخ ... ويشترون الصلبان المرسوم عليها المسيح والمسبحات والتحف الدينية.وفي يوم الشعانين يقصدون نهر الاردن ليطهروا أنفسهم ويدفعون مقابل ذلك مبالغ طائلة .

يوجد وصف في تاريخ الحج عن المسيرة المضطربة المشوشة لهذا الحشد الورع والقانت في سهول أريحا يذهلهم النظر إلى صخور تلك البلاد ويخلب ألبابهم . وبعد أن ينتهي الحجاج من هذا التطهير يعودون إلى الارض المقدسة . يرجع الجميع إلى بلادهم بعد الانتهاء من عيد الفصح ، فخورين بتنافسهم مع المسلمين بحمل لقب حاج .

لأجل أن يظهر الكثيرون منهم بأنهم قد أدوا فريضة الحج ، فانهم ينقشون على أذرعهم أو رقابهم أو معاصم أيديهم الصلبان أو الصلبان التي عليها صورة المسيح ، أو مريم العذراء الخ ... ان هذا النقش عملية مؤلمة وخطيرة وفي بعض الاحيان يكون النقش بالبارود وبإبرة من حديد ساخنة مصنوعة لهذا الغرض .

يدعى دير الفرنج سنت سافوير ، وهو المحل الرئيسي لكل الإرساليات إلى الارض المقدسة في تركيا التي يوجد منها سبع عشرة ارسالية في الوقت الحاضر أهمها الايطالية والفرنسية والاسبانية . يتولى ادارة هذا الدير ثلاثة أفراد من تلك الامم ، ويجب أن يكون الرئيس من رعايا البابا ، والقائم على الخدمة من رعايا ملك اسبانيا والكاهن من رعايا ملك فرنسا . ولكل شخص من هؤلاء معاون يساعده ، ويشرف على إدارة الدير هؤلاء الرجال الستة ويعاونهم أحد رعايا البرتغال .

يتألف الدخل الرئيسي للبدو الذين يسكنون في طور من الحجاج الاغريق إلى الدير على جبل سيناء . يولي الحجاج الاحترام والتقديس للآثار والتحف الفنية الموجودة في دير القديسة كاترينه ، كما انهم يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأن خلاصهم غير مؤكد إذا هم أهملوا زيارة ذلك الدير ، على الاقل ، مرة في حياتهم ، ويقومون حتى من موريا القسطنطينية لهذا الغرض . يلتقي الزوار بالرهبان في القاهرة حيث يتم تأجير بعض الادلة العرب الذين يرافقون الزوار إلى الدير . وعندما يصلون إلى الدير ، يقوم الاغريق بعباداتهم ونسكهم يزورون الكنيسة ، يقبلون الآثار والتحف الفنية والصور ، ويصعدون إلى اكثر من مائة خطوة على ركابهم من الجبل ، وينتهون بتقديم النذور إلى الدير التي ليس لها قيمة محدودة ولكن من النادر أن تقل عن خمسين باتاك (أو حوالي اثني عشر جنيهاً استرلينياً) . ان موقع الدير وبناءه يثيران الدهشة والغرابة : فهو مبني على سفح جبل سيناء ويبدو كأنه سجن مربع . أسواره عالية جداً . وليس في البناء كله غير نافذة صغيرة واحدة بالقرب من القمة والتي تقوم مقام الباب في الدير ، وتستخدم بالاسلوب المدهش التالي :

يجلس الشخص الذي سمح له بالدخول في سلة ، ينزلها مسبقاً الرهبان من هذه النافذة ، ومنها يسحب إلى الأعلى بحبل . وقد اتخذ المزيد من الحيطة والحذر بسبب البدو الذين يخشى أن يقتحموا طريقهم إلى الدير ، ولهذا فهم لا يفتحون باب الدير إلا عندما يقدم المطران للزيارة ، وما عدا ذلك فالباب موصد بالمسامير ومربوط ربطاً محكماً بقضبان من حديد . ولا يزور المطران هذا الدير الا كل سنتين أو ثلاث سنوات مرة . تقدم إلى العرب بمناسبة تلك الزيارات المنح والهبات ، لأن الرهبان يحاولون أن يتحاشوهم بقدر الإمكان . تنشأ من وراء ذلك متاعب عظيمة للرهبان الذين يضطرون إلى توزيع الاعطيات اليومية على العرب ، ذلك التقليد الذي يسبب خصومات مستمرة وفي كثير من الاحيان ما يرمي العرب الحجارة أو يطلقون النار عليهم .

لا يخرج الرهبان من الدير ، ولا يذهبون إلى المدينة ، فهم في عمل مضن مستمر استطاعوا أن يقيموا بستاناً جمعوا له التراب ووضعوه فوق الصخور ، وأن يزرعوا أشجار الفاكهة الممتازة ، مثل التين والكروم والكمثرى التي يقدرها الناس في القاهرة كثيراً .

يعيش الرهبان حياة منزلية تشبه أسلوب حياة الاغريق وموارنة لبنان ، وهم منهمكون دائماً في أعمال نافعة ويمارسون فروض عباداتهم .

ولو أن البربر لا يتحدثون أبداً عن طقوس الحج التي يؤدون فرائضها في مكة ، إلا أنهم عندما يتطرقون اليها مع بعض الناس يشيرون إلى أعلى مراتب التقديس والاحترام . ومن النادر أن يتحدثوا عن هذه الموضوعات للنصارى ، ما عدا أولئك الذين يثقون بهم ثقة كبرى ، ومع ذلك بحذر شديد . يثقون ثقة كاملة تامة بكل ما جاء في القرآن ويتحمسون له دينياً ويعتقدون أنه أنزل على النبي بواسطة جبرائيل آية فآية . يقصون معجزة قبر محمد في المدينة بأنه معلق عن الأرض بقوة خفية ، ويقنعون أنفسهم بأنهم شاهدوه بهذه الوضعية المدهشة الاستثنائية . يقولون بأن المصابيح مضاءة باستمرار حوله منذ وفاته ، بدون أن تملأ تلك المصابيح زيتاً مرة ثانية ، وأن الارواح السماوية يراها المسلمون الأتقياء

القانتون الذين يزورون قبر النبي بقدسية وخشوع حقيقي ، بحيث أن اشراقه بدون صنعة من الفن البشري سوف يبقى منيراً لا يمكن أن يكون قاتماً حالكاً في مظهره . ويعترفون بأنه يسمو ويتفوق على كل ما يمكن أن يتخيله الانسان . الحجر الاسود في الكعبة بمكة ، وضعه النبي ابراهيم الذي سماه النبي (ياقوت الجنة) ذلك الاسم الذي تسمعه على أفواه المسلمين في كل الأوصاف .

يجتمع المسلمون على جبل لا يبعد كثيراً عن مكة . فيضطر النصارى واليهود وعبدة الاوثان في ذلك الموقع أن يغادروا ، حتى لا يلوثوا مكة المدينة المقدسة ، التي ينطلق اليها المسلمون سوية في موكب ديني من سفح ذلك الجبل .

لا يكلف حج المسلمين كثيراً مثل حج الفرنج والنصارى . ظن حاج عبد الرحمن برجوعه مع أسرته من مكة ، عبر الصحارى في شبه الجزيرة العربية ، بأن أفراد أسرته سيسقطون ضحايا لمخاطر وأهوال الرحلة . تتعرض تلك الصحارى إلى غارات وأهوال قبائل عربية مسيحية ، وهم أقوام يدعونهم البربر كفاراً ، ويسمونهم أعداء النبي . ولا تجرؤ المرور بتلك المسالك غير القافلة الكبيرة العدد بسبب الإغارات التي تشنها تلك القبائل . في غضون ذلك الجزء من الرحلة كانت أسرة حاج عبد الرحمن قد أضناها التعب وأجهدتها مشاق السفر . لم تستطع القافلة الاستمرار بالسير بدون استراحة ، فتوقفت لفترة من الزمن على مرأى ومسمع من أولئك اللصوص المتوحشين : ولم يجرؤوا أن ينصبوا خيامهم فمكثوا بضع ساعات فقط . تعتبر تلك القبائل قوية جداً وخطيرة تهدد طرق القبائل ، لأنها تنتقل وتتحرك في الفيافي والصحارى في كل الاتجاهات والمسالك ، تشن هجماتها وغاراتها على القوافل الكبرى ، فتحقق النصر عليها في الغالب .

بعدها تقطع القافلة مسافة تقدر بثلاثين ميلاً لا ترى فيها العين كوخاً واحداً ولا ورقة خضراء . يهلك عدد كبير بين سنة وأخرى في هذه المسالك الصحراوية الوعرة التي لا يوجد فيها ملاذ أو ملجأ يأوي اليه المسافرون ، ولا قطرة ماء في أشهر الصيف كلها ترطب أفواهم .

في طريق عودتهم إلى طرابلس فاجأت الرياح الجنوبية في صحـــارى برقة حاج عبد الرحمن وأسرته ، تلك الرياح العاتية التي ظنوا بأنها ستواري برمالها القافلة كلها . بدأت تلك الرياح الخطيرة بالهبوب العنيف القاسي ، وبعد أن انقطعت يوماً واحداً ، هبت رياح محرقة طوال ثلاثة أيام ، كانت سبباً في هلاك كل الذين تعرضوا لها . توفي عدد من القافلة قبل أن يصل إلى طرابلس . وكان من المحتمل أن تبلغ الوفيات إلى أعظم من ذلك بكثير لولا انهم لحسن الحظ حصلوا على كمية كافية من الماء .

ولا يزال العرب يسمون تلك الرياح المخيفة المرعبة (الرياح الخمسينية) وهو اسم مستعار من هلاك جيوش قمبيز (١) بفعل تلك الرياح التي حملته الى الحبشة .

وبالرغم من كل هذه الاخطار والأهوال والشدائد في الرحلة الحجازية ، فقد حج السفير إلى الديـــار المقدسة مرتين ولكن دون أن يصحب إحدى زوجاته معه .

لم تصلنا أية أنباء من معسكر البك منذ رسالتي الاخيرة ، وبالرغم من أن التقارير الواردة عن الأمراء الثلاثة تقول بفصل أحدهم عن الآخر فصلا تاماً ، فمن المنتظر قدوم البك مع أخويه إلى طرابلس في كل يوم .

٣ أبريل ١٧٨٩

عودة مولاي يزيد . اعدام اسباني واحدى زوجاته .
اخلاق مولاي يزيد . ثورة مولاي يزيد ضد ابيه .

من سوء حظنا أننا تشرفنا ثانية بحضور مولاي يزيد ابن امبراطور مراكش فلم يمض على سفره من طرابلس أكثر من سبعة اشهر . يبدو في زيارته الحاضرة إلى هذه البلاد بأن أعمال العنف والقسوة التي يرتكبهـــا تتفوق وتتجاوز

---

(١) اشتقاق لطيف ولكنه غير صحيح ، فقد سميت الخمسينية لانها تهب مدة خمسين يوما من مارس الى ابريل .

حدود أعماله الماضية . قام باحدى مآسيه المألوفة ، قبل وصوله إلى طرابلس بيومين على ساحل زواره ، ولكن كان لهذه المأساة سبب ، وهو أمر نـــادر جداً .

عندما كان في طرابلس في السنة الماضية ، كان عنده اسباني دخـــل في الاسلام ، وكان موضع ثقته الكبرى ، ومن خدمه المقربين اليه ، حتّى رفعه إلى مرتبة أمين الخزانة (الخازندار) ومنحه صلاحية القيام باعماله مملوكـــاً ، وكل اليه الإشراف على رقابة نسائه ، وبذلك نال ثقته الكبرى . وفي الوقت الذي كان مولاي يزيد لبعض الوقت في تونس ، طرق سمعه أنه في غضون تلك الإقامة ، كان خادمه الذي دخل في الأسلام قد استمال عواطف احدى سيداته العزيزات . فلم يبد وهو في تونس أية ملاحظة عما كشفه من خيانـــة الجارية البيضاء أو خيانة ذلك الرقيق الذي دخل في الاسلام ، ولكنه جلب معه المجرمين الخائنين ، فلم يغير من سلوكه نحوهما شيئاً ، بينما كان في قلبه يتأمل بكل ضبط أعصاب وبرودة في أسلوب تضحيتهما والقضاء عليهما ، وكيف يشبع انتقامه بعقابهما . وحين وصل إلى زواره قرر أن ينفذ ما صمم من مصير هذين البائسين الشقيين السيئي الحظ . إن هذا الوحش لا يأكل لحوم البشر ، ولكنه يفرح ويسر ويتلذذ بالاسهام في مآسيهم ويبتهج في أحزانهم وآلامهم ، فنفذ حكم الاعدام بهما : المرأة أولا والرجل بعدها ، بيديه ، بأسلوب يفوق أعظم الاوصاف دقة في القساوة والفظاعة الخالي من الغلو والمبالغة .

ولكن الوصف بأسلوب مفـّصل لمثل هذه الجرائم، يكون كما لو كان الواصف مجرماً نفسه ، يروي قصص القساوة والفظاعة ، الّتي تلطخ عادة الصفحات الّتي تحررها أقلام المؤلفين والكتاب الطيبين ، يبدو بأنه لا يخدم غرضاً آخر غير إثارة حب الاطلاع والفضول : فتضيف إلى المهارة والحذق ، وتزيد من وحشية البائس قسوة وفظاعة ، لدى القارىء الذي ربما يصدف أن يقرأ أو يسمع عنهم . فالكشف عن الاساليب والكيفيات الّتي يتم بواسطتها اصطياد وذبح كائن شقي تعس قد يبرهن على استعمال رفيع الشأن ، لتحذير المتهور من الوقوع فريسة بـــاردة

لاولئك الذين من هذه الطينة ، والذين يشبهون الشياطين الأشرار الأعـــداء الألداء ، ولكن أن تروي آلام وعذاب ضحية شقية بالثواني وتفصل بإسهاب وحرارة كل حشرجة وتحصي كل وجع وأنين يئن ويتأوه منه ، يبدو مجرد شرح وبيان وتفسير ، كما قلت ، لما ابتدعه الانسان من أساليب القسوة والفظاعة ، ويقال إن احتفالات طقوسية تجري وأعياداً تقام في أواسط افريقيا ، يرتعد الافريقي المتوحش ويرتجف من مجرد ذكرها والاشارة اليها ، بينما اضطرته سرعة خاطره لأن يبتسم من الاسلوب المبدع الذي استخدمه الكاتب في رواية تلك الوقائع ولا شيء أكثر من الحقيقة التي تقول بأن خلق مولاي يزيـــد ، يعبر في الوقت الحاضر عن ارتداد الطبيعة البشرية وعودتها إلى المستوى الحيواني (حتى ولو عن طريق المصادفة) واقتفاء أثر ذلك الوحش البربري .

اغتصب مولاي يزيد قبل سنتين بالقوة والعنف ابنة شيخ عربي رئيس أعظم القبائل شأناً وأعلاها اعتباراً في صحارى برقة ، ولكنه أعادها في السنة الثانية في موكب فخم وعظيم زوجة له ؛ ولأجل أن يهدىء روع أبيها شيخ النصر (١) أقسم له أغلظ الايمان بأنها ستصبح الامبراطورة حين اعتلائه العرش.

إن هذا الأمير رجل شاذ الطباع جداً ، وغريب الاطوار في سلوكـــه ، ومن الصعب جداً أن تميز فيما إذا كان صاحياً أو ثملا مخموراً . تجول صباح هذا اليوم حول مرفأ طرابلس في أبهة عظيمة ، وصعد على ظهر عدد من السفن الراسية هناك ولما لم يستطع أن يرتكب أية جرائم منكرة ، وحماقات فظيعة ، لأن كل سفينة تحميها الراية الوطنية التي ترفرف على صاريتها ومع ذلك فقد قام بأكثر الزيارات قلقاً وازعاجاً . فقد أطلق النار على سفينة فور وصولها إلى الميناء ، وعندما علم ربان السفينة بأن النار أطلقت من ابن امبراطور مراكش ، حياه بطلقة من مدفع .

---

(١) الشيخ سيف النصر ، رئيس قبيلة عربية في جبال غريان ، يذكر أهـــل طرابلس اسمه بسبب معارضته الناجحة ضد الباشا لعدد من السنوات المتواصلة .
Blaquere's Letters, Vol. 11., P. 85

أقام مولاي يزيد خيامه في حاجز الميناء على العكس من التقليد الذي اعتاد عليه في تشييد مخيمه على أرض السهل ، وامتطى ظهر جواده وتجول فارساً في المدينة . كان من المتوقع أن يبدي رغبة بزيارة القنصليات ، ولكن بسبب عدم الترحيب به شخصياً والسماح له بالدخول من جهة ، واعتقاده بأن النصارى ينظرون اليه شزراً وبكل برودة ، اكتفى بالوقوف والتحدث لبرهة من الزمن دون أن يترجل عن ظهر حصانه . تناول بعض المرطبات من القهوة والشربات التي قدمت له رمزاً وتعبيراً عن الاحترام الذي يكنه القناصل لأبيه الامبراطور الذين هم على صلة وفاق وسلام معه .

حمل اليوم عبد سيء الحظ الامير من الساحل إلى القارب ، ولكن خانته ساقاه فتدحرج رامياً الامير في البحر ، وسرعان ما انتشل الامير من ماء البحر وجيء به إلى الساحل الا أن العبد البائس الشقي الذي لم يقو على حمله حاول أن يلقي بنفسه في عباب اليم إلا أن حرس الامير امسكوا به وانتشلوه قبل أن تبتلعه أمواج البحر . فأصدر الأمير حالا امره بجلده بكل قسوة ، حتى أن الرجل الآن يصارع سكرات الموت .

أقيمت خيمة لمولاي يزيد في السهل ، ومعه خمسمائة جندي بالاضافة إلى عدد الضباط أوجب الباشا أن يعامل هذا الامير بكل رعاية واهتمام خارج مدينة طرابلس ولكنه لم يقدم له الدعوة للدخول إلى المدينة . ليست قيافة الامير وهيئته قبيحة وسيئة ، إلا أنه يمشي على الارض مرحاً، مختالاً ، متعجرفاً، قاسياً ومتغطرساً ، عيناه سوداوان ، وأسنانه بيضاء ناصعة ، وبشرته بلون النحاس تقريباً ، وملامح وجهه متجهمة وحشية تطابق ما يقوم به من أعمال منكرة .

بلغ الثلاثين من عمره ، وستظهر لك القصص التالية في رسائلي المتعلقة به التقدم الذي أحرزه في الإحدى عشرة سنة الأخيرة .

كان مولاي يزيد في سنة ١٧٧٨ قد دخل في ثورة مكشوفة ضد أبيه ، وبناء على التدابير والأساليب التي اتبعها أعلن نفسه ملكاً يؤيده في ذلك الجيش

الاسود في مكناس ، وأمه جارية من جواري الامبراطور من ولاية هيس (١) والتي أصبحت احدى زوجات الامبر اطور المحبوبة المفضلة ، التي تتشفع لابنها وتخلصه من غضب أبيه . فأمر الامبراطور مولاي يزيد أن يكفر عما ارتكب من جرائم بأداء فريضة الحج إلى الديار المقدسة ، وأعلمه بأمره بتسفير حاشية خاصة تسهر على خدمته وتوفر له الراحة ؛ وبتعيين عدد من الضباط في صحبته الذين يودعهم مبالغ كبيرة من المال ، ويزودهم بالأوامر الخاصة في كيفية توزيعها إلى أشراف مكة والمدينة طلباً للمغفرة عن سلوكه الاجرامي غير الطبيعي . بعد بضعة أيام من صدور أمر الامبراطور بالبدء بالرحلة الحجازية قرر الحاق بعض أفراد الاسرة بالقافلة مع مولاي يزيد حتى مكة ، فانطلق في سنة ١٧٧٩ مع أخيه مولاي سليمان وأمه اللالة (الارقيطة) وأخته الاميرة زبيبة والاميرة لبابة . ولما كانت الاميرة لبابة خطيبة شريف مكة منذ مدة ، فان القسم الاعظم من الفخامة والابهة في هذا الموكب على شرف الاميرة المذكورة . بعد وصول مولاي يزيد إلى مكة تزوجت الاميرة لبابة من الشريف. كانت تصحب الامراء والاميرات قافلة كبيرة مؤلفة من خمسمائة وخمسين فارساً يسهرون على رعايتهم وحمايتهم .

أعطى الامبراطور الضباط الذين صحبوا مولاي يزيد مائتي الف بياستر شرقي أو خمسين الف جنيه استرليني ، وقبل أن ينهوا نصف رحلتهم صرف مولاي يزيد بالوعد والتهديد ستين الف بياستر ، ولم يستطع أحد من الضباط أن يقف في وجهه ؛ أما اولئك الضباط الذين عارضوا عدم الوفاء بالعهد والحنث باليمين الذي أقسموه للامبراطور ، فقد عاملهم مولاي يزيد بقساوة ووحشية . حاولت أمه الأرقيطة عبثاً بدموعها وتوسلاتها أن يرجع المال عنوة معيدة إلى ذاكرته بأن تلك الأموال مخصصة للأغراض الدينية المقدسة . إلا أنه لم يعبأ بعتابها ومعارضتها ، وبغضب أبيه ، وبانتقام نبيه .

---

(١) هيس مقاطعة في المانيا ولكن يقال انها امرأة انجليزية .

أعلم الامبراطور ، قبل عودته من مكة ، بما قام به من أعمال مدنسة شريرة ، فأرسل بعض المراسلين لمنع الامير من الرجوع إلى المملكة ، وإخباره بغضب أبيه مما ارتكب من جرائم وشرور وما اتسم به من خلق سيء ، فأقسم الايمان المغلظة ، بالنبي ، بأن لا يراه مطلقاً مرة ثانية إلا إذا قام بحج الديار المقدسة ثلاث مرات متتاليات .

بناء على ذلك ظل مولاي يزيد يقضي أوقاته في صحبة القافلة ، حيناً في طرابلس ، وحيناً في تونس لمدة ثلاث سنوات تقريباً : مرتكباً كل أنواع النهب والسلب حيث حل وأنى ارتحل. قرر أخيراً العودة إلى مكناس فشد الرحال ووصل اليها في سبتمبر ١٧٨١ . وعبثاً حاولت أمه أن تستغل نفوذها وتشفع له عند الامبراطور أن يراه . فقد منعه في ساعة غضب شديد من الحضور ، إلا إذا أنهى أداء فريضة الحج ، كما أمره ، ثلاث مرات متتاليات .

بعد أن وجد مولاي يزيد أن كل محاولاته باءت بالفشل ، وانقطع حبل رجائه ، للوصول إلى بلاط أبيه ، قرر أخيراً أن يلحق بالقافلة التي انطلقت قاصدة الديار المقدسة . أرسل الامبراطور ثانية ، كما فعل في المرة السابقة ، مائتي الف بياستر شرقي ليكفر عن الذنوب والخطايا التي ارتكبها ابنه والتي لا ترضي الله ولا النبي ، وأمر أولئك الذين وثق بهم ووكل اليهم الاموال أن لا يصحبوا مولاي يزيد ، ولا أن يتصلوا به حتى يحطوا ركابهم على أرض الديار المقدسة .

لكن مولاي يزيد كمن لهم ، فقطع الطريق عليهم في الصحارى الواقعة بين الاسكندرية والقاهرة ، فذبح العديد منهم ، وسرق منهم سبعين الف بياستر ، وعندما قفل راجعاً من مكة توقف في طرابلس في صيف تلك السنة عدة أشهر .

لما كان يعلم علم اليقين بأنه قد ارتكب أعمالاً فظيعة تغضب الامبراطور وتؤلمه ويخشى كراهيته ، لذا حمل معه رسائل من باشا طرابلس وباي تونس ليشفعا له . وبالرغم من كل تلك الرسائل وأنواع الخديعة والمكيدة التي من

الممكن أن يستعملها ، لم يستطع أن ينجح في إقناع الامبراطور لاستقبالـــه . فأمره أبوه أن يغادر المملكة ويقوم بأداء فريضة الحج الثالثة التي أمره بهـــا ، فلم يتم غير مرتين .

ذهب في هذه المرة مع سبع (١) من زوجاته ، بالاضافة إلى حظاياه وجواريه السوداوات في قافلة كبيرة جداً ، في أبهة وفخامة ليقوم بأداء فريضة الحج للمرة الثالثة . أرسل الامبراطور أيضاً كمية من المال إلى الديار المقدسة ليكفر عن خطايا ابنه ، ولينال هذا الشرير الفظ استقبالا مناسباً في مكة . ولكـــن الامبراطور في هذه المرة احتاط للأمر بأن أرسل المبالغ مع من يعتمد عليهم ويثق بهم عن الطريق البحري ، حتى يتجنب أي أعتداء قد يقوم به مولاي يزيد الذي ذهب براً . وبعد أن نفد صبره ، وازداد غضبه ، وخاب رجاؤه ، لعدم قدرته على الافادة من الاموال المرسلة إلى مكة ، فقرر أن ينهب القافلة التي تحت حمايته فاغتصب كرهاً وقسراً من وجهاء الناس الذين معه أربعين الف بياستر أو عشرة آلاف جنيه ، وظل في مكة وفي مصر ما يقرب من ثلاث سنوات . وفي سنة ١٧٨٧ عندما عاد عن طريق طرابلس ارتكب كل عمـــل شرير سبق وأن وصفت لك ، مثل اغتصابه بالقوة ابنة سيف النصر الشيـــخ العربي ، التي لا يزال يكرهها ويضطرها على البقاء معه . كانت تعتمد على ما يتمتع به والدها من مكانة ، فهي أقل خوفاً وخشية من مولاي يزيد من أيـــة امرأة شقية أخرى معه . فهي تكره خلقه وتشمئز من سلوكه ، ولكنها لا تجرؤ على الهروب إلى أبيها لأنها تعرض حياة والدها للخطر ، فيقع ضحية بسبـــب خيانة وانتقام مولاي يزيد .

صدر أمر من امبراطور مراكش إلى بلاط تونس يطلب فيه الامبراطور أن يكره مولاي يزيد على مغادرة تراب تلك المملكة . ولهذا فمن المتوقع ان يكون قد سافر إلى مملكة والده التي لم ترها عيناه ما يقرب من أربع سنوات .

كان يجب أن لا أكتب اليك كثيراً ومفصلا عن هذا الامير السيء الخلق ، الكريه الطباع لو لم أكن متأثرة به بسبب شذوذ وغرابة خلقه .

---

(١) لا يجوز شرعا أن يبقي في عصمته اكثر من أربع زوجات فلا بد وان تكون المؤلفة قد وقعت في خطأ (المترجم) .

٢٠ يونيو ١٧٨٩

حزن اللالة حلومة على الخصومات بين ابنائها ·
وصول الانباء عن انتصارات البك ·

ذهبنا أمس إلى القلعة . كانت اللالة حلومة كئيبة ، مكفهرة الوجه ، حزينة ، منقبضة النفس جداً ، كانت جالسة على أريكتها محاطة بوصيفاتها ، ولكن لا تجرؤ سيدات الاسرة الاقتراب منها ما عدا اللالة عواشة ، زوجة البك ، وقالت اللالة حلومة بأنها سمحت لهذه الاميرة فقط أن تبقى معها ، لأنها بائسة وشقية مثلها . كان السبب في كآبتها وحزنها الأنباء التي وصلت من المعسكر في صباح هذا اليوم ، فبالرغم من عودة البك منتصراً ، إلا أن الاميرين الشابين كانا غير مكترثين به ، وقيل بأن حياة البك قد تعرضت مرتين للخطر نتيجة لخيانة أخويه . كانت ابنة البك اللالة زنوبيا مع خدمها في الشرفة أمام حجرة حلومة تنتظر أمها . يبلغ عمر هذه الاميرة ثلاث عشرة سنة ، وهي أكثر روعة وجمالاً من أن توصف فهي فخورة كثيراً بأبيها البك ، ومع أنها شابة لا تزال في مقتبل العمر ، فانها تشعر شعوراً قوياً باحزان والدها وهمومه ، بحيث يخشى أبوها أن تتعرض صحتها للخطر . كثيراً ما عبر الامير بمزيد من الحزن والاسى عن خشيته على رقة جسمها وضعف بنيتها التي لا تقوى على تحمل الأزمة الحاضرة المليئة بالقلاقل والفتن .

بعد أن مكثنا مدة من الزمن عند زوجة الباشا جاءت احدى بناتها ، اللالة فاطمة أرملة بك درنة ، إلى حجرتها وسمحت اللالة حلومة لها بالذهاب والاشراف على العشاء الذي يعد للباشا . دعتنا اللالة فاطمة لاصطحابها بهذه المناسبة ، فقبلنا الدعوة ، متوقعين أن نجد الشيء الكثير من التسلية والترفيه ، ولحقت بأبنة البك اميرتان .

مررنا بعدد من الحجرات والممرات ، وصادفنا بين وقت وآخر مخصياً تجلجل الاسلحة التي عليه بدوي نسمعه قبل أن نتبينه ، بسبب العتمة الحالكة المخيفة على الاماكن التي سرنا خلالها حتى وصلنا بناية حجرية كبيرة مغطاة

بالقباب تسندها الاعمدة . يقيم هنا عدد من العبيد الذين يجهزون الأطبـــاق المختلفة من اللحوم ، يطحنون الذرة ، ويعجنون الخبز ، ويعملون الـــــذ المعجنات وأشهاها ، ويهيئون الفواكه .

كانت تتبع كل أميرة خادمات ، ولكن لا تتدخل اية واحدة منهن بما كان يجري ، ما عدا اللالة فاطمة التي كانت تهتم اهتماماً خاصاً بملاحظة كل شيء . حضر عدد من الزنجيات ومعهن مراوح يطردن الحشرات والذبـــاب حتى لا تضايق اللالة فاطمة . ذكرنا هذا المشهد الملكي الموجود بهذا الشكل لنؤكد ما كان يقال عن القدماء .

ان المزيد من الاهتمام والعناية اللذين يبذلان هنا من قبل الاميرات على الطعام الذي يعد للباشا ولو أنه واجب لا يمكن الاستغناء عنه ولكنه في الوقت الحاضر محفوف بدرجة عظيمة بالخوف والشكوك ، حيث ينتظر موت الوالي في أية لحظة بكل قلق واهتمام ، كل من رعيته وخلفائه ، وهي الحالة السائدة في دويلات البربر .

يعيش الولاة في الجزائر والقسطنطينية في دوامة من الخوف والهلع مـــن المكائد التي تدس السموم في الاطعمة .

يقال ان السلطان التركي ، لا يأكل في اوقات الازمات والفتن الا الأطباق التي تجلب لمائدته موضوعة في مناديل حريرية مختوم عليها بختم رئيس الطهاة فقط .

حين عدنا مع الاميرات للاستئذان بالخروج من زوجة الباشا ، أخبرتنا بوصول الأنباء عن المزيد من الانتصارات التي حققها البك على العرب ، وانه من المتوقع أن يصل إلى المدينة في غضون يوم أو يومين ، وقد انفصل عنـــه أخواه . وبسماعنا هذه الأنباء الاخيرة ودعنا اللالة حلومة بحالة أكثر قلقاً من ذي قبل ، لخوفها من ظروف عودة البك وحيداً بدون أخويه وبذلك سيستقبله الباشا استقبالاً سيئاً .

٢٨ يوليو ١٧٨٩

وصول أمير بورنو · القصص الخرافية عن بورنو ·

قدم أمير بورنو الاسود من تونس إلى طرابلس في الوقت الحاضر ، ليعود إلى بورنو. كانت تصحبه ثلاث من زوجاته : تعلمت احداهن بسبب رحلاتها مع الامير ، بما فيه الكفاية من اللغة الايطالية لتعبر عن نفسها بلغة فرنجية ، ولكن الأمير غيور جداً على زوجاته ، بحيث أن السيدات النصرانيات حاولن عبثاً رؤيتهن . دعينا إلى هناك في أحد الايام ، بصورة مفاجئة ، على أمل أن نوفق للدخول إلى الأميرات ، ولكن أسرعت الخادمات لتقديم المعذرة المعهودة ، بأن الامير لا يزال نائماً ، وبالنتيجة لم تستطع واحدة منا الدخول . كان الامير مدعواً في الولائم النصرانية مساء ، ومع ذلك فان جميع المحاولات التي بذلت ذهبت سدى لرؤية زوجاته . غداً صباحاً يغادر هذا المكان إلى بورنـــو . ومن التقارير التي قدمت لنا من قبل السيدات البربريات اللواتي رأين زوجات الامير بأنهن جميلات جداً وإذا ما نظرنا اليهن بعيار الجمال الزنجي فهن ضاحكات مبتسمات في آدابهن ولطيفات مع خدمهن. أما ملابسهن فهي على الزي التونسي ، يرتدين قبعات وصدريات وجرود . حصلن عليها في زيارتهن الاخيرة لتلك البلاد . يلبسن القبعات الذهبية الملتفة بمنديل تونسي من الحرير الملون ، في شكل عمامة ، من ابداعهن ، وليس تقليداً للزي التونسي أو الطرابلسي .

وبالرغم من أن أمير بورنو قد قدم من أواسط افريقيا ، فهو واســع الاطلاع ، كثير المعرفة بالحالة في اوربا . وكان القسم المدهش من بدلتـــه هو اللآلئ التي كان يلبسها ، من حجوم غير مألوفة . وكانت في اذنيه اقراط ذهبية كبيرة مزخرفة بأثمن الجواهر ، ولكنه لم يضع حلقة في أنفه ، مثــل معظم الناس في بورنو الذين يلبسون الحلقات في الانوف . يتألف حرسه وخدمه من اتراك يرتدون أجمل الملابس وأفخمها .

اعتاد البربر أن يرووا القصص الخرافية عن بورنو وملكها ، ومن المستحيل

الاعتماد على ما يروونه . يصف الامير ، الذي لا غبار على ذكائه ، مملكة بورنو بأنها أعظم الاقطار خصباً فيها الفواكه الطيبة وخاصة الكروم والمشمش والرمان . ويقول ، ولو أنه توجد بعض الحيوانات الوحشية فيها ، فانها ليست كثيرة كما هي في الصحارى بين تونس وطرابلس ، هذا مع العلم أن عبور هذه الصحارى محفوف بالمخاطر أكثر من المسالك والدروب في افريقيا ، بسبب كثرة الاسود والنمور التي تخرج من الادغال والاحراج والجبال القريبة من تونس . ويقول الامير ان رعاياه أحرار من التقاليد المرعية التي توجد لدى الاقوام المحيطة بها ، التي تأكل وتبيع وتضحي بالرقيق الاسود ، أن اؤلئك الذين يدعون أنفسهم النصارى والكفار هم الذين يرتكبون وحدهم مثل تلك الفظاعات .

يجهز امبراطور مراكش جيشه بجنود من الزنوج يبيعهم التجار من النصارى واليهود على الساحل الجنوبي الغربي من افريقيا ، بصورة رئيسية . ترسل الوكالات التجارية هناك عملاءها لشراء وخطف تلك المخلوقات البائسة من افريقيا السوداء وغيرها من الاقطار .

يمثل الأمير الأسود حكومة بورنو ، وهو معتدل الطبع جداً ، ورعاياه مسالمون ، لا يسمحون لقواتهم أن تخرج إلى ما وراء حدود بلادها جنوداً مرتزقة ، ومن النادر أن يجتازوا الحدود ، واذا قاموا بذلك فلنصرة المسلمين وحدهم. لا يبحثون عن انتصارات ، وهم سعداء بوضعهم هذا وليسوا بحاجة إلى عدد اضافي من الجنود . باستطاعتهم أن يجندوا ، عند الحاجة ، جيوشاً كبرى من رعاياهم . إن الشهرة التي يتمتع بها أبطالهم تفوق بطولات البلاد العربية أو بلاد البربر ، لأنهم يمتلكون أحسن أنواع الحيوانات كالتي تستخدم في البلاد العربية وتقوم بأفضل الخدمات ، وهي جميلة مثل تلك التي في بلاد البربر .

يؤمن البربر ببعض الاعتقادات عن القوى الخارقة الموجودة في بورنو التي تقرب من القصص الاسطورية يروونها عن تلك المملكة ويقولون عندما يبعث ملك بورنو بجيوشه إلى الخارج يوضع جذع شجرة البلح على الارض أمام باب المدينة ،

لتصعد عليه الجيوش عند خروجها من المدينة ويتأكل ويتلاشى ذلك الجذع من شدة وطء أقدام الجنود الذين يمشون عليه .

ان السبب في استمرار مثل هذه القصص التي تكشف عن الجهل السائد بين الناس في طرابلس يرجع إلى صعوبة كونها متناقضة ، مثل مملكة بورنو المنفصلة عن طرابلس بصحاري لا يمكن اختراقها في الغالب تبعد بما يقرب من الف ميل ، ولا تسير القوافل في المسالك الصحراوية الواقعة فيما بين فزان وطرابلس . لهذا فان قلة الاتصال ، إذن ، بين بورنو وطرابلس ، يجعل كل قصة يرويها الطرابلسيون عرضة للخطأ ، وحتى أن مجيء أمير أو شيخ أو رئيس من هناك إلى طرابلس أمر نادر جداً .

٢٩ يوليو ١٧٨٩

حملة لنقل احـــد المطالبين بولاية طرابلس ·
قصة مقتله والقاء جثته في بئر ·

يقال عن طريق الرسائل الخاصة الواردة من تونس بأن حملة تعد وتنظم بموافقة السلطان التركي لتنقل أحد المدعين بعرش طرابلس . وهو طرابلسي الاصل عاش في بلاط تونس سنوات عديدة ، ويقول عن نفسه انه عم الباشا الحاضر ، وكان واحداً من سبعة سقط ستة منهم صرعى بعد اعتلاء الـــوالي للعرش فهرب هو إلى خارج البلاد .

إن هذا الامير ، إذا كان قد بقي على قيد الحياة ، فانه قد هرب مـــن طرابلس وهو لا يزال شاباً يافعاً ، بحيث يصعب على أي واحد أن يجزم بصحة ادعاء هذا الشخص . لقد ذهب الكثيرون مـــن طرابلس إلى تونس لغرض التعرف عليه والتأكد من هويته فقالوا بأنه مدع محتال .

بعد وصول تلك الأنباء ببضعة أيام كان هـــذا المدعي بعرش طرابلس مستعداً في نقطة الانطلاق إلى مدينة طرابلس . جاء بربري إلى المدينة من قرية

مجاورة تدعى سوكارا يقول بأنه أبن أحد الجبليين ، الذي يأوى في كوخه عم الباشا بعد أن تعقبه العرب ؛ وان الحرس الاسود للباشا قد شق طريقه اليه ؛ وعاد على الفور يقول بأنه دفع عم الباشا إلى بئر في الحديقة فغرق فيها أخمد أنفاسه إلى الابد . وبسبب القلق العظيم الذي استحوذ على مدينة طرابلس في تلك الفترة لم يفكر أحد في البحث عن جثة ذلك الامير حتى بعد أيام عديدة من الحادثة ، وعندما أخرجوا كمية من القاذورات الملقاة في البئر التي تشبه الملابس الخلقة الممزقة . ولكنهم لم يعثروا على شيء يشبه بقايا جسم بشري . يؤكد نصف الناس بأن عم الباشا قد أخمدت أنفاسه فهلك في تلك البئر ، ويقول النصف الاخر بأنه قد هرب وولى . ويضيف البربر ، قبل هذه الحادثة المذكورة أعلاه ، قصة أخرى تقول بأن هذا الامير كان مختفياً في المنشية (القرية المجاورة لمدينة طرابلس) عندما كان ينتظر بفارغ الصبر القافلة ليهرب منها إلى تونس . فكان في يوم من الأيام يعد أمتعته فسقطت فانتزعت المفصل الاول من أحد أصابعه ، وهي علامة مميزة له لا يمكن أن تخطأ ؛ ويستطيع بها والده ، الشيخ العجوز ، الذي لا يزال حيا أن يؤكدها .

تركت هذه القصة انطباعاً قويا في أذهان الناس . ولكن يجب أن يقدّم المدعي بعرش طرابلس دليلا على وجود خلل في مشط أصابع يده فإن لم يستطع القيام بذلك ولو أنه يحمل فرماناً من السلطان التركي فانه سيطرد بدلا من فرضه على عرش طرابلس بالقوة حتى ولو كان مؤيداً من الباب العالي وبلاط تونس .

١٢ أغسطس ١٧٨٩

رسو السفن في طرابلس . القوس التاريخي .

كانت طرابلس زاهية ؛ كما هي بصورة عامة ، تلبس حلة قشبية ، وعندما ترسو في مينائها السفن ، تكون أكثر رونقاً وبهاء لما كانت عليه في الأسبوع الماضي ، لقد رست البارجة اللؤلؤة التي يقودها القبطان (فنس)

منذ بضعة ايام ، ومكثت اسبوعاً . وكان على ظهرها ابن الايرل (باجيث) وابن اللورد (باجوت) وكلاهما يعملان برتبة ضابط صف بحري . أمّا الثاني فموهوب في فن التصوير والرسم ، انتهز الفرصة لرسم كل شيء يؤثر فيه ويستحق الملاحظة والتسجيل ، من بينها ، لطمأنينتك ، القوس التاريخي القديم المدهش (١) الذي سبق ان وصفته لك ، لم يفلت من ريشته ، لقد رسمه بكل دقة ولونه تلويناً رائعاً ، ويدعي بأنه موهوب ، استطاع أن يؤثر في ذوق القنصل الانجليزي ويقوده إلى اقناع الباشا ، بعد حين ، لرفع كافة الحوانيت والدكاكين خارج القوس التي كانت تسد في الغالب القسم الداخلي منه وتخفي السقوف الجميلة .

يقول كل فرد بأن تلك اللوحة الفنية للقوس هي الوحيدة التي رسمتها ريشة فنان نصراني ، كما يتذكرون هنا في مدينة طرابلس ، ومن المحتمل أن يكون الامر كذلك ، إلا أن الغيرة التي تحز في نفوس البرابرة تتطلب اتخاذ كل تدابير الحيطة والحذر قبل أن يستطيع النصارى الوقوف والتطلع إلى تلك التحف الاثارية ، زيادة في أمنهم وسلامتهم .

أما في الوقت الحاضر فيكتفي عند القيام بزيارة تلك الآثار بالحصول على إذن من الباشا نفسه ، وهكذا كان البربر الذين يهتمون بالآثار التاريخية يبدون قبولهم وموافقتهم عن طريق الاقناع ، ويجدون من الطبيعي أن يلاحظ الادباء ورجال الفكر تقاليد البلاد القديمة دون أن تشوب ملاحظتهم أية نظرة عدائية ضد البلاد أو ضد شعائر الناس الدينية .

---

(١) رسم الرحالة ليون القوس سنة ١٨١٨ وظهرت صورته في كتابه: رحلات في افريقيا.

١٨ سبتمبر ١٧٨٩

استقبال البك · أمر الجنود الجبناء بلبس جرود النساء وصبغ أيديهم وأرجلهم بالحناء ·

عاد البك من حملته التأديبية فأستقبله والده أحسن استقبال تعبيراً لما يكنه شعب طرابلس من تقدير عظيم له ، فقد طاف الناس بشوارع المدينة وطرقاتها ودخلوا إلى المساجد المختلفة ليقدموا الشكر والثناء للنبي على عودته سالماً والابتهال إلى الله أن يمنحه المزيد من النعم والبركات ، وأن يكون أثره قوياً وعميقاً في عقول الناس .

كانت أزياء الضباط وقيافة أولئك الذين يقومون بخدمة الباشا والبك بمظهر فخم لائق أكثر من المألوف ، إلا أني سبق وأن وصفت لك موكب الباشا إلى المرابطين ، وسوف لا أكتفي بالقول في هذه المرة أنه كان أكثر تأنقاً .

في مثل هذه الأيام يشرف الباشا نبلاءه ورؤساء دوائر الدولة بزيارة منازلهم بالتعاقب ، فقد توقف أمس في منزل حاج عبد الرحمن ، وكلفته الزيارة تقديم عبد زنجي هدية للباشا تعبيراً عن الشرف الذي ناله بتلك الزيارة . عندما يقف الباشا عند احدى القنصليات تقدم له المرطبات كالشربات والقهوة كما يقدّم الكعك إلى حاشيته ، التي تتألف عادة من مائتي شخص .

كانت في هذا الموكب تحمل راية محمد المؤلفة من حرير أخضر اللون مطرز بالذهب وراية مكة من الحرير الاخضر اللون مع بعض الآيات القرآنية المطرزة على حواشيها . حضر الامام أو المفتي بملابسه (١) تتبع ذلك الجوقة الموسيقية الملكية ، ولم يمتط أحد من الموكب ظهر جواده ما عدا الباشا والبك .

---

(١) تعني المؤلفة بالمفتي والامام الذي يؤم المسلمين عند اداء فريضة الصلاة في المسجد ·

كان جميع أفراد الحاشية والحرس والعبيد يمشون على أقدامهم احتراماً وتقديراً للوالي الباشا والبك ، عندما مروا في أبهة وفخامة يطوفون في المدينة .

حين عاد البك من حملته التأديبية جلب معه رؤوس بعض الرؤساء والشيوخ من المتمردين الذين شقوا عصا الطاعة فقتلوا خلال المعارك ، ولأجل الحفاظ بها وضعت عليها كمية من الملح ، وهو تقليد شائع ومألوف لدى البربر والاتراك. بينما كان مولاي يزيد في احدى رحلاته ، أرسل صندوقين ، كان منظرهما يثير العجب والدهشة ، لفّا لفاً محكماً ، موجهين إلى القنصل الانجليزي ، مع رسائل ترجوه أن يقوم بنقلهما في الحال إلى امبراطور مراكش وتعهد بنقلهما الربان الذي كان قد ارسى سفينته في مرفأ طرابلس . في الأيام القليلة الـتي بقي الصندوقان خلالهما بمنزل القنصل ابتثعت الروائح النتنة الكريهة منهمـا فأثارت دهشة كل شخص ، ومع انهما وضعا على ظهر السفينة الا أنه تبين وجوب التخلص منهما بعد أن خشي الربان من أن يلحقا الضرر بالسفينة . ولم يكن باستطاعة أي واحد أن يعرف ما كان يحتوي عليهما هذان الصندوقان ، حتى ساعة تسليمهما في مراكش إلى الامبراطور ، فظهر بانهما يحويان رؤوساً بشرية .

أخبرنا حاج عبد الرحمن من الرسائل التي تسلمها ، قبل أن يغادر البك المعسكر كيف أنزل العقوبة بستة من رجاله الذين أظهروا الجبن والخوف ، بالاسلوب الغريب التالي : أمرهم بلبس جرودهم مثلما تلبسها النساء بعد أن صبغت أيديهم وأرجلهم بالحناء ، واقتيدوا ووجوههم مغطاة بمناديل حريرية ، كما تصنع العرائس ، حول المعسكر كله ، وأصر على وجوب بقائهم بتلك الملابس حتى يسترجعوا رجولتهم بأن يبلوا بلاء حسناً في القتال . كان أثر هذا الاسلوب عقاباً صارماً وشديداً في وجدان واحد منهم ، لم يبد الشجاعة الكافية لمقابلة العدو في الميدان ، ولكنه أبداها كذباً وزيغاً فأطلق النار على نفسه بعد أن ضاق بسخرية وهزء رفاقه .

يتوقع الناس وصول الاميرين الشابين إلى المدينة في كل يوم ، ولكـــن

يخشى أن يكون قدومهما مصحوبا بالنيات الشريرة لبذر بذور الفتنة والشقاق بين الباشا والبك .

١١ نوفمبر ١٧٨٩

وصف مسجد في قرية · مسجد مدينة فاس · بحيرة تاجوراء · اخلاق البربر والاتراك والعرب · قصة نابلطاني دخل في الاسلام ·

أصبح الريف المحيط بمدينة طرابلس أكثر هدوءاً واستقراراً مما كان عليه في غضون غارات البدو بعد أن عاد البك من حملته التأديبية ، فقرر النصارى أن يخرجوا للنزهة على ظهور الخيل إلى الشرق من مدينة طرابلس ويتوغلوا إلى مسافة أبعد مما قامت به السيدات منذ وقت طويل . كان فريقنا يتألف في هذه النزهة من عشرين شخصاً ، وبالرغم من خروج حراسنا والمترجمين والخدم وأولئك التابعين للقناصل الآخرين معنا ايضاً ، فازداد عددنا إلا أنه كان من الضروري أن يصحبنا بعض الحرس الخاص بالباشا من القلعة ، لتكون النزهة أكثر أمناً وطمأنينة .

كان المكان الذي تناولنا فيه طعام الغداء بستاناً مليئاً باشجار الزيتون الذي ترجع ملكية أرضه إلى الوزير الاول مصطفى شريفي ، حيث يقيم فيه بعض البربر لرعاية البستان والاهتمام به . لقد تقبل الدعوة منا كل من ابن الوزير الاول الاكبر وشريف مكة فتناولا طعام الغداء ، واشتركا في الالعاب المسلية لذلك اليوم ، فأصبحت نزهتنا أكثر لذة ومتعة بفضل حضورهما الذي أضفى الشيء الكثير إلى سلامة النزهة وأمنها ، وجعل البربر والعرب يحافظون على الامن .

كانت تربة القسم الاعظم من الطريق ، بعد أن غادرنا مدينة طرابلس بعدة أميال ، رملاً أبيض فضي اللون ؛ يبدو وكأنه بلورات حتى أن القها

وتلألؤها ، يعتبر في الغالب ، في رحلة طويلة ضربة قاضية لأعين المسافرين تتميز بهذا المنظر الرمال والصحارى القريبة من طرابلس ، بحيث أن بياضها الناصع يجعل التناقض بينها وبين الرمال الحمراء الداكنة التي تسفيها الرياح الخمسينية أو الرياح الساخنة الهابة من الداخل ، شيئاً يلفت النظر لا يمكن أن تخطئه العين (١) .

شاهدنا في نزهتنا الورق المتدلي من شجرة التين الهندي بكميات كبيرة جداً ، يغطي الممرات والحقول والبساتين المسورة ، التي كانت تؤلف سياجاً أضفى عليها مظهراً مدهشاً وفريداً جداً ، تنمو هذه الورقة الهائلة حتى يبلغ طولها ست عشرة بوصة إلى سبع عشرة بوصة ، وعرضها من ثمان إلى تسع بوصات ، وتجعل منها استقامتها شبهاً بجذع الشجرة . فعندما تكون نضرة لا تزال صغيرة ، خضرتها جميلة ، تنمو بدون ساق ، وتظهر ورقة من ورقة أخرى . تؤلف هذه الشجيرات المدهشة سياجاً نباتياً أخضر يبلغ ارتفاعه من أربعة عشر إلى خمسة عشر قدماً ، وسمكه من ثمانية إلى تسعة أقدام ، سياجاً أقوى وأمنع من السور المبني من الآجر . كان الموسم الذي تتفتح فيه أزهاره ، فكان منظرها عجيباً ، في نهاية كل ورقة تتدلى زهرات متفتحات من الفاكهة ، حالية اللون مكسوة بلون قرمزي ، وتؤلف الأوراق مراوح كبيرة حيث ان ألق الشمس المشرقة أسبغت على السياج النباتي الاخضر وعلى البساتين مظهراً مزخرفاً ومطرزاً في كل مكان تطريزاً فخماً بمنحنيات من الزهور والاغصان الملونة باللونين الذهبي والاحمر .

إن الأراضي الزراعية التي مررنا بها لم تمسها يد العناية أو التخطيط ، إنما كانت أراضي مسيجة عامرة بالاشجار في كل الحجوم والأنواع ، ومزروعة في كل الاتجاهات ، من بينها اشجار البلح العالية التي كانت بادية للعيان في محل بارز ، تبدو في أعلى رأسها الاغصان المثقلة بالبلح الناضج .

---

(١) تعرف الريح الصحراوية باسم القبلي .

الذي يشبه الكهرمان ، والملفوف واللفت والقمح والشعير كلها تنمو في أخاديد غير منتظمة حفرت تحتها .

أما بساتين الأغنياء والطبقة الممتازة فتقتصر بصورة أساسية على البرتقال والليمون والفواكه الحمضية ، التي جعلت منظرها جميلاً جداً ، زاده روعة وبهاء شعاع الشمس عليها .

كان القسم الاكبر من البربر الذين صادفناهم ، على بعد أميال قليلة من طرابلس يرتدون كساء آخر غير القبعة الحمراء ؛ والجرد الاسود الداكن من نسيج الصوف ، الذي يغطي أجسامهم من الاكتاف إلى منتصف الساق ، الذي يلف مرات عديدة وفق أدراقهم ، وحول أجسامهم ، ولكنهم يتركون الذراع الايمن والكتف عاريين ، وبين رؤوس النساء الحلى من المرجان وقطع القصدير والخرز ، ويلبسن جروداً أزرق ، سوداء اللون عامة ، تلتف حولهن لفاً قوياً ، فتؤلف كل ما لديهن من ملابس . كن يحدقن بنا كما كنا نحدق بهن من الدهشة والاستغراب ، ولم يكترثن كثيراً كما يبدو في اخفاء أشكالهن من جماعتنا ، ولكنهن كن حذرات مستعجلات في تغطية أنفسهن عندما حاول شريف مكة أو ابن الوزير الاول مصافح شريفي أو أي واحد من الحرس المرافقين لنا أن يقترب منهن .

وقفنا برهة من الزمن ، قبيل وصولنا إلى السهل ، نتطلع إلى مسجد في قرية ، كان مفتوحاً في الوقت الذي مررنا به . كان المسجد موضع اعجابنا ودهشتنا في نظافته الممتازة وفي بنائه من القرميد الصيني البهيج المغطى بـه .

كانت الأرض مفروشة بالسجاد التونسي البراق وكان المنبر والسلالم المؤدية اليه مبنية بأحسن أنواع الرخام اشراقاً وبهاء ، مع أن المصلين الذين قدموا لأداء فريضة الصلاة في هذا المسجد النظيف الصغير جميعهم من الفلاحين الذين لا تبدو عليهم النظافة كثيراً يسكنون قرية مبنية منازلها من الطوب ، وعلى كل حال فان المسلمين لا يعيرون اهتماماً لشيء أكثر من جمال ونظافة مساجدهم ومقابرهم .

إن أجمل مساجد افريقيا قاطبة هو مسجد مدينة فاس ، الذي وصف روائعه لنا وجيه بربري جاء مؤخراً من تلك المدينة . ان هذا البناء الفخم الفريد من نوعه مغطى بسبعة عشر عقداً رئيسياً ، أو سقفاً ، بالاضافة إلى عقود أخرى صغيرة . تدعم كل تلك العقود ما لا يقل عن الف وخمسمائة عمود كبير من الرخام الابيض ، فيه الف من المصابيح ، المختلفة الحجوم ، فالبعض منها كبير الحجم ، تبقى باستمرار مضاءة ، وفيه الاحواض المعدة للوضوء والغسل قبل أداء فريضة الصلاة ، تكفي لوضوء خمسمائة من المصلين .

عندما وصلنا أول مرة إلى السهل ، توقفنا قليلا لنشاهد مزارع الزيتون ، التي تناولنا فيها الطعام ، فوجدنا ، كما وصف لنا ، بأن أشجار الزيتون تؤلف ظلالاً سميكة لا تستطيع أشعة الشمس أن تخترقها ، رأينا فيه ملجأ بهيجاً مريحاً أنقذنا من حرارة الطقس التي ازدادت شدة ولهيباً ، ولكن لا زلنا مستمرين في نزهتنا على ظهور الخيل لنرى بحيرة ملحية موجودة في وسط الرمال التي تسمى بحيرة تاجوراء التي تبعد عن قرية تدعى بذلك الاسم .

كانت البحيرة في هذا الفصل جافة تقريباً ، وعندما تمتلئ بالماء ، تغطي مساحة يبلغ طولها ميلاً ونصف وعرضها في معظم الاماكن نصف ميل . حين تجف مياه هذه البحيرة تترسب طبقة من الملح حول الحواشي صلبة كالحجر ، يصعب كسرها ، يجلب الملح في سلال مصنوعة من خوص شجرة البلح إلى طرابلس . تنتج هذه البحيرة كميات كبيرة من الملح ، بل هي المصدر الاساسي لهذه المادة التي منها تستخرج وتصدر إلى خارج المملكة . ويتميز ملحها بأنه أكثر نعومة وأشهى مذاقاً وأصفى لوناً من الملح المستخرج من البحيرتين المشهورتين في الدلتا على مقربة من الاسكندرية . إن الطبقات الملحية لهاتين البحيرتين الكبيرتين عبارة عن خندق يتراوح طوله من عشرة إلى اثني عشرة ميلا ، وعرضه حوالي ميل واحد ، وتجف البحيرتان مدة تسعة أشهر ، وفي فصل الشتاء تظهر من الارض مياه بنفسجية اللون داكنة ، تملأ البحيرتين بارتفاع خمسة إلى ستة أقدام . وعندما تشتد الحرارة تجف هذه المياه ،

وتبقى طبقة من الأملاح إلى الأعلى يبلغ سمكها قدمين ، ويصعب كسرها بقضبان من حديد . يستخرجون من هاتين البحيرتين حوالي ستة وثلاثين قنطاراً ، ويعادل وزن القنطار مائة وعشرين رطلا .

أما بحيرة تاجوراء فمحاطة بالرمال تقريباً ، وعلى مقربة من قرية تاجوراء، تظهر مجاميع صغيرة من الاشجار التي تبعد الواحدة عن الاخرى بمسافة كبيرة . لقد تجمعت في وسط كل حرج الرمال التي حملتها الرياح والقتها بشكل مخروطي يبلغ ارتفاعه إلى قمم الاشجار تقريباً ، فيعرض مشهداً كما لو كانت تلك الرمال قد ألقيت بجهد بشري لتحقيق غرض معين .

ولو أن الفلاحين المسلمين أرقاء لأسيادهم في كل شيء ولكن اسمياً ، هم بدو سعداء . كانت النساء جالسات حول أبواب أكواخهن ، يضحكن ويدخن ويغنين ، ويروين القصص الغرامية ، جلبن لنا البلح الطازج وطاسات من الحليب وأباريق من اللاقبي الحلو .

كان مما يسترعي انتباه الناس المهذبين أكثر من البربر أن يلاحظوا في تلك الحلقات المختلطة للفلاحين خلال خشونة آدابهم ، الاهتمام والتقدير والاحترام الخاص الذي يتقدم به الشباب نحو الشيوخ والكهول ، والابناء نحو آبائهم . ان البربر والاتراك والعرب رحماء شفوقون على أطفالهم ، وبالمثل ، فان الاطفال مطيعون ومحبون لوالديهم ، ومحترمون خاضعون لمن هم أعلى منزلة وأسمى مقاماً . من السهل حقاً أن يدرك بلحظة واحدة ، من آداب واخلاق وسلوك شاب يتحدث الى أبيه أو رئيسه أو إلى شخص يكبره سناً ، فانه يستخدم لكل واحد منهم عبارات الاحترام والتقدير التي تبدو في ملامح وجهه ولغته .

يتصف البربر بصلابة العود والغيرة من رؤسائهم ولكنهم ، عامة ، ليسوا مصابين بالمفاخرة والمباهاة . ولا يمكن أن يطيقوا أو يتحملوا من يتباهى ويتفاخر على الآخرين . إلا أن المترجمين الذين كانوا بصحبتنا استثنوا احد أتباعهم الذي دى عن نفسه القصة التالية :

لم يبلغ هذا الرجل الثلاثين من عمره ، دخل في الإسلام وسمى نفسه أحمد ، وبعد إسلامه أعلن عن نفسه أنه الماركيز سنت جوليان الذي سبق وأن احتفل بزواجه من ابنة الوزير الأول لدولة نابلي قبل بضع سنوات ، إحتفالا عظيماً ، وكان يتمتع الماركيز بمرتبة عالية في الحرس النابلطاني الذي يتألف من جنود كلهم من أفراد الطبقة الممتازة . يصف أحمد بكل حماس ولهفة الجمال الرائع والمزايا العقلية للسيدة التي تزوجها ، ولكنه يقول بأن العواطفً التي يكنها لها قد أعمت بصره ولم يستمع إلى التقارير الكثيرة التي تنتشر في نابلي لرسائل غير مشروعة بين زوجته وأمير كالبريا ، أثناء فترة غيابه عن المملكة . ويقول إنه لم يكترث ولم يعبأ بكل تلك التقارير ، حتى لاحظ بكل دقة في أحد الأيام الماركيزة في البلاط ، فتأكد موقناً بأنها مذنبة . ولما كان مضطراً للبقاء في واجبه قريباً من الملك ، وضع عيوناً وأرصاداً لمراقبة سلوك زوجته ، إذْ طرق سمعه بأن الأمير يتردد على الماركيزة في منزلها .

ذهب إلى منزله فوراً ، حين صادف أول شخص في الممر المؤدي إلى حجرة زوجته فكانت إحدى وصيفاتها تحمل بذراعيها طفلا لسيدتها ، الذي يعتبر ميلاده ووجوده بالنسبة للماركيز شيئاً غريباً كلياً . فتولته سورة غضب شديد ، وفقد رشده ، طعن على أثرها الخادمة وسقط الطفل على الأرض الرخامية ، فتوفي فوراً على قدميه . وتقدم في الحال إلى حجرة زوجته فوجد أمير كالبريا يحاول مساعدة الماركيزة ، التي سقطت مغمياً عليها ، حين طرق سمعها صوت الماركيز ، على الأريكة . عندما رأى الأمير الماركيز قريباً منه مسلحاً بخنجره ملطخاً بدم الضحية التي ذبحها منذ برهة . قفز من النافذة ، وخلص نفسه بقفزة من الشرفة . عاد الماركيز إلى الأريكة فأغرز خنجره في جسد زوجته ، وفر من المنزل هارباً .

أبحر من نابلي ، فأسره قرصان تركي وجيء به عبداً رقيقاً إلى بلاد البربر ، فاعتنق في الحال الدين الإسلامي . أحمد شاب وسيم الطلعة ، ولكنه متكبر ومتعجرف ، ويتحدث باعتزاز وبشاعة ، وبمفاخرة دموية لانتقام الرهيب

الذي قام به بنفسه .

كان إعجابنا بمقام المرابط في القرية ، جوار السهل ، جرحاً لشعور البربر ، بل دل على أنه أكثر خطورة مما كنا نتصور في ذلك الوقت. جاء إلينا عدد من البربر بعد مغادرتنا المرابط فتحدثوا مع الحرس ، فشهدوا شخصين لهما مقامهما الرفيع معنا ، شريف مكة وابن الوزير الأول ، فانسحبوا ، ولو أنهم متذمرون وحانقون . وتقدمت نحونا جماعات عديدة ، الواحدة تلو الأخرى ، ولكنها انسحبت بنفس الأسلوب . تأملنا ملياً بهذه الحالة وواصلنا ركوبنا . بعد بضع ساعات ، بينما كنا نتناول الطعام تحت أشجار الزيتون في السهل ، ظهر بعض البربر ، على بعد ، يبدو بأنهم جاءوا لمجرد الفضول والتطلع إلى النصارى . بدأوا بالسلام علينا بتحية : ليحل السلام فيما بيننا (فرد عليهم فريقنا بالتحية المناسبة : عليكم السلام (يوجد السلام بيننا) .

حمل خدمنا إليهم ، كالمعتاد ، صحوناً من اللحم ، فحيانا البربر بعبارة ، الله يبارك ، (لينعم عليكم الله بالبركة). ظهر هذا الوفاء مقبولاً جداً . وكلما ازداد عدد البربر ، لحظنا أن الإرادة الطيبة نحونا أخذت تقل وتهبط ، وحين أنهينا طعامنا ، استعد كل فرد لامتطاء ظهر جواده ، وسرنا حتى اقتربنا من المدينة ، وكان البربر يتعقبون آثارنا وهم يدمدمون ويتذمرون ويعاتبون المترجمين ، وكان الفضل ، في الحقيقة ، يرجع إلى ما يتمتع به صديقانا البربريان من منزلة ، فلم يجرؤوا على إزعاجنا ومضايقتنا . قدم حاكم السهل تقريراً عن هذه الحادثة إلى الباشا أمس قائلا بأن البربر كان في نيتهم الهجوم على النصارى لو لم نمنعهم في الوقت المناسب .

ولما كنا لا نعرف بالضبط مدى الخطر المحدق بنا ، وصلنا إلى المدينة هانئين سعداء بقضاء نهار سعيد جداً .

٢٤ فبراير ١٧٩٠

القلعة مسرح للفتن والفوضى ·

يبدو كل شيء هادئاً في طرابلس . إلا أن الأمل ضعيف جداً ببقاء المدينة فترة طويلة بدون قلاقل واضطرابات . الباشا مريض جداً ، والبك كتوم ومتحفظ جداً ، والأميران الأخران ، اللذان كانا متحدين في أقوى روابط الصداقة معاً ضد البك هما الآن في خلاف أحدهما مع الآخر . زرنا القلعة هذا الصباح ، وأنا متأسفة أن أقول بأن فرح اللالة حلومة وسرور الأميرة مصطنع فهما لا تقويان على بذل المزيد من الجهود لضبط الأفكار السوداوية المحزنة لكونها نتيجة طبيعية تنفجر من القلب .

وصفت هاتان الأميرتان لنا القلعة مسرحاً للفوضى والإضطرابات . تقول اللالة حلومة لا يسمح لها الوقت لتصحو من تعاقب الرؤى المخيفة المرعبة التي تظهرها الخصومات والإنقسامات الحاضرة ، التي تتعلق بالمصير المقبل لأبنائها الثلاثـــة .

بينما كانت تتحدث معنا ، وصلت رسالة تقول بأن البك قادم لحجرة أمه ، فانسحبت زوجة أخيه (سيدي أحمد) وغيرها من السيدات ، وبقيت اللالة حلومة وحدها ، واثنتان من بناتها ، وزوجة البك ، بالإضافة إلى جماعتنا ظلت اللالة حلومة بدون حجاب تقريباً حين دخل البك إلى الحجرة : ولم تعبأ الأميرات حقاً ، نتيجة للأحزان المسيطرة عليهن ، كما هو المألوف ، في آداب الحجاب من أخوتهن .

إن النظرة الفاحصة القلقة التي ألقتها اللالة حلومة على البك ، والأسلوب العاطفي الذي حياهن به جميعاً لا يمكن أن يخطىء في استرعاء اهتمامنا بألم وحسرة نتيجة للأنباء التي سمعناها منذ برهة .

حاول البك أن يكون فرحاً مبتسماً ، أشار إلى التقارير الواردة من أوربا ، وتحدث عن مواضيع شتى . ولكنه كان قاسياً وصارماً مع خدمه ، يدل الحزن

العميق المطبوع على ملامح وجهه على قلقه وعدم ارتياحه . بدأ الخصيّ التابعون له ، الذين كانوا ينتظرونه في الأروقة بملاحظة حركاته بغيرة وحماس ، ويتطلعون إلى حركات شفتيه بفزع وهلع .

أخفت اللالة حلومة رأسها في جردها لبعض الوقت بعد مغادرة البك ، ثم استعادت قواها ، ورجتنا أن نأتي مراراً لرؤيتها ؛ ولا ننقطع عن زيارتها بسبب القلاقل والفتن في القلعة ، قائلة ، بأنها سترسل أكثر نسائها ثقة وسرية لتعلمنا فيما إذا كان يوجد مانع يحول دون قيامنا بالزيارة .

لا نتمالك أنفسنا من التأثر جداً من ملامح الوجوه المريبة الخائفة التي نصادفها عند خروجنا من القصر ، والتي تنبأت بعدم وجود أي تغيير مقبول لتهدئة المخاوف التي عبرت عنها اللالة حلومة .

١٠ مارس ١٧٩٠

داي الجزائر يرسل أحد رجاله لطلب أحد المخاصي .

وصل منذ بضعة أيام إلى طرابلس شاويش جزائري ، أرسله الداي إلى الباشا . كان يشبه معظم الأتراك والجزائريين ؛ عات قاس ومقلق جداً . تجرأ بتقديم طلب من سيده إلى الباشا بأخذ مخصي أسود لطيف جداً كان قد أهدي إليه مؤخراً ، وبسبب كونه وسيم الطلعة جداً ، تقرر تقديمه هدية من هذا البلاط إلى السلطان التركي . وعندما رفض الباشا الطلب ، فإن الشاويش يعلن حسب الأصول على الحاضرين عدم موافقة الباشا بطلب إعادة المخصي إلى الداي ، وأنه سيأخذه على كل حال ، وبناء على ذلك أغرى المخصي الأسود واستماله ، فدبر هروبه من القلعة ، واضطره بالإكراه للصعود على ظهر السفينة التي كانت تنتظر للإقلاع وإعادته للجزائر . أرسل الباشا على الفور رسالة إلى القنصل الذي تمتلك بلاده السفينة ، يرجوه أن يبذل جهده لتأخير

السفينة حتى يتم استرداد المخصي ، فبعث القنصل ، بالطبع ، بكلمة للقلعة بأن السفينة سوف لا تبحر حتى يتم قبول الباشا . وجد الشاويش أن السفينة منعت من الإبحار ، أرسل الباشا حاشيته إلى القوة البحرية ، وأنزل المخصي الأسود إلى الساحل ثانية .

٢٠ مارس ١٧٩٠

سيدي يوسف يصدر امره بقتل أحد خدم أخيه سيدي أحمد · سيدي احمد يتحدى سيدي يوسف بالخروج الى المبارزة · الباشا يتدخل لحسم الخلاف·

أنا متأسفة للقول بأنه لا تمر بضعة أيام دون أن تصلنا أنباء مقلقة ومحزنة من القلعة . إن قصة ما جرى أمس بعد الظهر تعطيك فكرة أكثر وضوحاً وجلاء مما أستطيع أن أقدم لك: صورة حقيقية للمشاعر والآداب البربرية والإتجاهات الموجودة لدى أفراد الأسرة المالكة وميولهم بعضهم مع بعض ، التي جمعت معاً بسرعة فائقة في هذه المناسبة لإخفاء مشاعرهم الحقيقية .

لم يمض وقت طويل على مغادرة سيدي أحمد مع الباشا فانسحب إلى حجراته في ساعة القيلولة بعد الظهر ، حين جاء إليه أحد ضباطه مسرعاً يقول : « يا سيدي ورأس الباشا (أي يقسم برأس الباشا) لقد أمر سيدي يوسف بأن يضرب أحد خدمك ويجلد ، بسبب شجار وقع له مع أحد خدمه ». لم يرغب سيدي أحمد أن يشير إلى أو يستنكر الحرية التي تمتع بها أخوه في جلد خادمه معلناً موافقته على ما قام به قائلا : « لقد قام بأمر حسن ، وأراحني من مشقة عمل كنت سأقوم به شخصياً» ، بعد دقائق معدودات وصلت رسالة أخرى تقول بأن سيدي يوسف أمر حرسه الأسود أن يقتلوا الخادم المذكور حيثما وجدوه ، وهم يبحثون عنه في القلعة للعثور عليه . كان لسيدي أحمد بربري شديد الصلة به ، اسمه حاج أحمد . هذا البربري جبلي ، مشهور جداً بشجاعته وبصلته الوثيقة بأسرة الباشا . نهض سيدي أحمد عن أريكته ، طالباً سلاحه ،

والتفت إلى حاج أحمد قائلا : « ماذا يمكن أن يعني هذا العمل ؟ يأمر أخي خدمه بقتل خادمي ولا يثق بكلمتي . ألا ترى بأني أمرت بجلد أحد خدمي لأنه أساء إلى أحد الحرس الأسود التابع لأخي قبـل يومين ، ألم تأخذه بنفسك لتطلب من أخي العفو عنه ؟ » أجاب حاج أحمد بأن كل شيء تم القيام به وفق الأوامر الصادرة منه . فأمر سيدي أحمد الحاج أحمد بأن يذهب إلى سيدي يوسف ويعلمه بأنه ينتظر منه حالا أن يسحب الأمر الذي أصدره بقتل أحد خدمي . قال بأن الباشا لا يتمتع بمثل هذه السلطة مع أي من الأمراء ، ولكنه ترك لهم الحرية بتأديب خدمهم فإذا كانت حياة خادمه تستحق العقاب ، فيجب أن لا يحول شيء دون ذلك .

ذهب حاج أحمد ؛ ولكنه عاد فوراً لأن سيدي يوسف رفض دخوله . فأمر سيدي أحمد الحاج أحمد أن يسلح نفسه تماماً وينتظر أوامره . ولما لم يكن يسمح لأي شخص أن يتسلح باستثناء حاشية الباشا ، بل حتى أن المترجمين الذين يذهبون مع النصارى إلى القلعة ينزعون أسلحتهم عند دخولهم ، عندئذ أخفى حاج أحمد سلاحه تحت قفطانه . عاد سيدي أحمد في دقائق قليلة مدججاً بالسلاح من سكاكين ومسدسات وأمر حاج أحمد أن يتبعه. قصد كل من سيدي أحمد وحاج أحمد سيدي يوسف ، فوجداه واقفاً على باب حجرته مسلحاً . فاستفسر سيدي أحمد منه : لماذا أعطى أوامره بقتل خادمه ، وإلى أي مدى يذهب بهذا القول ؟ قال سيدي أحمد : هل تبدأ بقطع خادمي إرباً إرباً وبعدئذ تعني أن تنتهي بي ؟ أجاب سيدي يوسف جواباً مختصراً قائلا : سيدي (الباشا) حي ، وهو الذي سيحميني وفي الحال التفت إلى الوراء فاستدعى حاشيته ورجاله الذين سلحوا أنفسهم وانتظروا فقط إصدار أمره ليبدأوا بالتنفيذ ، وعلى الفور خرج خمسون رجلا من حجرات سيدي يوسف ، يزعقون بصيحات الحرب ، تلك الصيحات التي بموجب التقاليد التركية تسبق معاركهم دائماً . أما حاشية سيدي أحمد ، من حسن حظه كانت على يقظة الخطر المحدق به فقد تسلحوا بدون أمر صادر منه ؛ وفي بضع لحظات تجمعوا حوله ،

فأمرهم بالهدوء والسكينة وأن لا يرددوا زعيق الحرب وصياحه ، إلا أنه أبدى ملاحظة لأخيه عن المهمة غير اللائقة التي اضطلع بها لجمع رجاله وإمدادهم بالسلاح وتكديسهم في حجراته الخاصة ، وأنه سعيد بالقول ، بأنه لم يكن القيام بذلك تدبيراً ضرورياً ولازماً ، وسواء كان يقظاً أو نائماً ، يجب أن لا يتوقع سيدي يوسف أن يجده غير مستعد مثل أي رجل آخر يكون معه في ساعة الخطر وقال : « ماذا عسانا حاصلين ، يا سيدي يوسف ، بتقطيع خدمنا إرباً إرباً هنا ، الذين هم كلهم أصدقاء ، ولد البلد (أبناء المدينة) ؟ فمن الممكن أن نملأ القلعة بالدم ، فنرعب النساء ونفزعهن ، ولكن ، هنا ، سوف يفلت أحدنا من سلاح الآخر ، فإذا ما سقطنا صرعى ، فلربما تكون تلك الطعنة النجلاء القاتلة على أيدي أفراد حاشيتينا وتبقى الخصومة الخاصة القائمة بيننا بدون أخذ ثأر . أطلب ليعدوا حصانك ، وحصاني جاهز ومستعد ، ودعنا نخرج حالا إلى السهل ، وهناك نحسم تلك الخصومة القائمة فيما بيننا ». بدا سيدي يوسف موافقاً لهذا الإقتراح ، ولكن ظهر الباشا بينهما في اللحظة التي كانا مستعدين لمغادرة القلعة . استدعى الباشا لهذا المشهد بصراخ اللالة خدوجة ، زوجة سيدي أحمد ، التي تبعت الأمير بعد أن غادر حجرته ، تمزق شعرها ، وترمي حليها ومجوهراتها ، عندما كانت تتعقّبه إلى نهاية الحرم ، وعندما رأت زوجهـــا سيدي أحمد يغادر الحرم ، ركضت مسرعة إلى حجرات اللالة حلومة تصرخ في يأس وخيبة رجاء ، تعلن خروج سيدي أحمد مسلحاً لمقابلة أخيه ، فانطلقت الخادمات والجواري جميعهن بالصراخ والعويل حتى استيقظ الباشا من نومه فهبَّ من حجرة النوم فزعاً ومرتعباً على صياح الموت المدوي تردد أصداءه القلعة. نهض الباشا معلقاً إحدى سكاكينه الطويلة ، وماسكاً مسدساً في كل يد ، تسنده من جهة إحدى نسائه السوداوات ومن الجهة الأخرى عبد أسود ، ترك أريكته ودخل وسط الحوش في القلعة في بدلة النوم بدون قفطان حاسر الرأس بلا عمامة . الباشا شيخ عجوز ، واهن القوى ، ضعيف الجسم يفكر (كما يجب أن يفكر به كل واحد في الوقت الحاضر في أي إنذار ينطلق في القلعة) بأن أولاده يحطم أحدهم الآخر .

أمر سيدي أحمد ، إحتراماً وتقديراً لوالده . عندما أبصرته عيناه قادماً ، بصرف أفراد حاشيته ، وعدم الظهور ثانية حتّى يستدعيهم ، بينما ظل سيدي يوسف أمام والده مع خدمه الذين كانوا يزدادون عدداً . ولم يبق مع سيدي أحمد غير ضابط واحد . لم يستطع الباشا وهو في سورة غضبه أن يدرك المظهر العدائي يبدو على سيدي يوسف ، وعندما استجمع قواه واسترد قدرته على الحديث ، توجه بكلامه مخاطباً سيدي أحمد . طالباً إليه أن ينزع سلاحه ، قائلا له بأن إحدى رجليه في القبر والأخرى خارجه ، وشعر لحيته يتساقط الواحدة تلو الأخرى ، ومع ذلك ، لا تدعني يا سيدي أحمد أتمتع بالسلام والطمأنينة في هذه الأيام القليلة الأخيرة من حياتي ! .

كان من العبث أن يجلب سيدي أحمد انتباه الباشا ، قائلا له : «إحتراماً وتقديراً لك صرفت أفراد حاشيتي ولم يبق غير ضابط واحد فقط ، بينما يحيط بأخي جميع أفراد حاشيته بكامل أسلحتهم ، حتّى في حضور والده ، ضد ما تقتضي به القواعد المرعية في القلعة». قال سيدي أحمد : «إنه جاء هنا ليحمي حياة أفراد حاشيته ضد الأوامر الصادرة من أخيه سيدي يوسف» ، فالتمس الباشا ورجاه أن يأمر أخاه بصرف حاشيته وبنزع أسلحة أفرادها ، بوصفه المعتدي والأخ الأصغر ، ولكن الباشا طلب ثانية من سيدي أحمد أن ينزع الضابط الذي كان معه ، قائلا له بأنه الأكبر ويجب أن يكون مثالا يحتذى به. قال الباشا : « أخبرتك مرتين سيدي أحمد أن تنزع السلاح ، هذه آخر مرة ، تجعل من هذا اليوم يوماً يسفك فيه دمك ودمي. فأنا مسلح وأنت مسلح كذلك ، وأنا لا أزال باشا في هذه القلعة. إن شهر السكاكين هذا وأنا لا أزال على قيد الحياة ، واستدعائي من سدتي (أو حجرة نومي) والمسدسات في يديك مصوبة إلى حياتي ، وضد كل قوانين نبينا » . أجاب سيدي أحمد أباه قائلا : « يا سيدي ألم تشهد عيناك ، أو لا تريد أن تشهد أخي مدججاً بالسلاح ، بينما تأمرني بنزع سلاحي ، لكنك يا أبي وهبتني حياتي ، فإذا كانت رغبتك أن ينتزعها أخي مني ويقضي عليّ أمام سمعك وبصرك ،

هذه أسلحتي وهذه أسلحة خدمي ، فهل هذا يرضيك ؟ » .

أمر الباشا بعدئذ سيدي يوسف أن يلقي بسلاحه، ويأمر بنزع سلاح أفراد حاشيته وطلب إليهما أن يعانق أحدهما الآخر . اقترب كل من سيدي أحمد وسيدي يوسف من الباشا وقبل كل منهما يده ووضعاها على رأسيهما ، ومن ثم قبلا رأسه وهدب ردائه وتمنيا له بأسلوب بربري مؤدب عمراً مديداً . كان الأخوان تعبين فانسحبا دون أن يسلم أحدهما على الآخر . أمسك الباشا بيديهما وقال : « قسماً بالنبي وبرأسي ، وبأيديكم وبهذه اليد التي تمسك بهما ، ليسد السلام بيننا » .

رغب الباشا بعدئذ من سيدي يوسف أن يذهب إلى حجرته ، وأخذ سيدي أحمد من يده يقوده إلى حجرته ، حيث كانت اللالة عواشة ، أخت سيدي أحمد ، وزوجة رئيس الأسطول ، تنتظر على أحر من الجمر ، والتي من بين كل شقيقاته تحب سيدي أحمد حباً جماً أكثر منهن . فأمرها الباشا أن تذهب وتجلس بالقرب من أخيها ، ولا تتركه حتى يهدأ ورعه ويسكن غضبه .

يقول الناس في القلعة بأن سيدي يوسف هو أعز الأبناء عند الباشا لهذا فهو يستغلُّ تلك العاطفة ليسلب المزيد من السلطة ويوسّع من الصلاحيات الممنوحة له . لقد أبلغ الباشا بذلك من قبل الأسرة خلال هذه القلاقل ، فعبر الباشا عن نفسه بغضب شديد قائلا : « كم زوجة قد تزوجت بها ؟ (١) أين الجارية الإغريقية التي جعلت منها ملكة؟ هل أعطيت لواحدة الجواهر والحلى، ومنحت ابنها الكسوة والأعطيات ونسيت الباقين . ألم يكونوا كلهم أولاد

---

(١) ليس للباشا غير زوجة واحدة ، ولو انه يملك عددا من الجواري السوداوات وبعض الجواري القفقاسيات .

اللالة حلومة ؟ هل توجد لالة كبيرة أخرى أو زوجة الباشا في القلعة أم هي وحدهـا ؟ » .

كانت تلك الفتنة خطيرة جد ، بحيث لم يبق أحد من سكان القلعة لم يشهد تلك الفتنة ما عدا البك ، لأنه متأثر جداً من السلطة التي يمنحها الباشا إلى سيدي يوسف ، وكثير الشك بنوايا أخيه نحوه شخصياً وانسحب الباشا إلى حجرة اللالة حلومة تصحبه هي واثنتان من بناتها ، وساعات القيلولة لم تنته بعد ، واستردت القلعة هدوءها ، وظهر كل شيء هادىء في غضون ما تبقى من ساعات بعد الظهر .

٢٦ أبريل ١٧٩٠

وصف مقصورة الباشا في البرج الاعلى · زواج سيدي يوسف ·

كنا نعيش في العشرة أو الإثني عشر يوماً الأخيرة في أحد قصور الباشا التي في الريف الذي لا حاجة لوصفه ، لأنه نفس القصر الذي أقام به القنصل وليمة للضباط الذين جاء معهم السفير حاج عبد الرحمن من إنجلترا ، ولا يزال بعض البربر من الطبقة الدنيا يذكرون الحادث . أخبرتك في تلك الرسالة عن ضابط صف بحري لم يظهر الإحترام الكافي للبك ومنذ ذلك الحادث يمر بنـا بربري بين حين وآخر يحدق بنا بنظرة شزرة قاسية ، ويشاع بأن البربرمندهشون من لطف الباشا نحو النصارى ، الذي لا شك بأنه أمر غير مألوف ، يجعل الحياة في هذه البلاد أمراً مريحاً ومسراً جداً . من النادر حقاً أن نصادف بربرياً من الطبقة العليا حتى الطبقة الدنيا لم يكن متلهفاً ومشتاقاً يرغب بإسداء الجميل لنا ويقوم بخدمتنا .

وفور سماع الباشا بعدم ميلنا للذهاب إلى القصور الريفية التابعة للسفير البربري بسبب انشغالها والسكنى فيها من قبل عائلاتهم خلال فترة الطاعون ،

فإنه قدم لنا بكل فضل وكرم واحداً من قصوره ، الذي بقي مغلقاً طول مدة الوباء ، ولم يغادر أحد من الأسرة المالكة القلعة حين كان الطاعون منتشراً ومخيفاً .

نظمنا رحلة مع عائلات ثلاثة قناصل في الأيام الشديدة الحرارة ، وقبل هبوب الرياح الساخنة في هذا الفصل . كان ، عندئذ ، عددنا مع الحرس والخدم في كل أسرة ، كبيراً وكافياً لأن نشعر بأنفسنا آمنين مطمئنين من المتاعب المألوفة .

ظل الأمراء ، من حيث المظهر الخارجي ، على وئام ووفاق محتمل منذ آخر فتنة في القلعة . ولسنا خائفين ولا وجلين من مضايقات مولاي يزيد ، الذي هو الآن في مدينة فاس يقود ثورة مفتوحة ضد إمبراطور مراكش .

وصلت رسائل من الإمبراطور منذ أسابيع قليلة إلى كافة القناصل في بلاد البربر ، يعلن فيها رغبته بعدم تسفير أحد من رعاياه إلى أي مكان آخر غير ممتلكاته ، وإلا عرض نفسه لعقوبة خرق إتفاقية السلم معه .

القصر الذي نحن فيه واسع جداً ، فقد وجدت كل أسرة ما يلائمها ويريحها تماماً من الحجرات المنعزلة ، الواسعة المريحة العالية . تناولنا طعام الإفطار على انفراد ، ولكن عند ركوب الخيل ، وإبان النزهة في الصباح ، وحين تناول الغداء ، كنا مجتمعين ولم يفترق أحدنا عن الآخر حتى المساء .

أما مقصورة الباشا أو البرج الأعلى ، الذي لم أصفه لك من قبل ، فإنه على ارتفاع شاهق فوق قمة القصر ، مبني على شكل مربع تحيط به النوافذ ، والجدران وكل قسم به مرصوف بأكثر أنواع القرميد جمالاوروعة على الطراز الفارسي ، الذي لا ترى فيه الفواصل والندوب ، يمثل منظراً ريفياً جميلا بهيجاً . لا يمكن وصف الراحة والتسلية التي يوفرها هذا البرج في طقس محرق شديد الحرارة ، فهو مصيف بارد وبهيج ، وملجأ مفرح يهرب الإنسان فيه من الحرارة والحشرات والرمال . يطل بفضل ارتفاعه ويشرف على منظر الريف المحيط به . تشاهد من جهة بكل وضوح جبال غريان الزرقاء الداكنة ،

ومن الجهة الأخرى الصحارى القفراء التي تمتد ابتداء من أسوار حديقة الباشا وتحدُّ الأفق الواسع الرحيب.

لا تقع العين في هذه المسافات الواسعة الشاسعة إلاّ على مسجدين أو مرابطين عظيمين ، حيث يجد معظم مجرمي طرابلس فيهماملاذاً يلجأون إليه هرباً من غائلة الإنتقام ، وبعض الأدغال القليلة على مسافات عظيمة تبدو مثل بقع سوداء في الرمال . رأينا هناك بواسطة الناظور قافلة على مسافة بعيدة ، بدت لأول وهلة ، في تلك الصحارى التي زادت أشعة الشمس من بياضها ، مثل خط معوج رسمه قلم رصاص على تلك الرمال .

١٢ مايو ١٧٩٠

راي الباشا بسيدي يوسف . راي البك في الخلاف بينه وبين اخيه يوسف .

لا نزال في قصر الباشا في الريف ولا يزال الأمراء الثلاثة يخرجون غالباً للنزهة على ظهور الخيل في الرمال ، ولكن البك يزورنا أكثر من أخويه ، جاء لزيارتنا اليوم ، وكان في حاشيته ما يقرب من مائتي فارسٍ. وكانت معظم خيول الرؤساء مطهمة بسروج مطرزة بالذهب والفضة ، ومغطاة بكسوات من الأقمشة المطرزة والغالية الثمن ، وكذلك الخيول التقليدية الإحتياطية الخاصة بالبك ، المطهمة والمزينة بالحلى ، التي يقودها الحرس الأسود .

خرج القنصل لأستقبال البك حال نزوله عن ظهر جواده . بعد دخوله الحجرة جلس على إحدى الأرائك ، وجلس النصارى على كراسٍ تحيط به : وقف حامل سيفه ، وأمين خزانته ، وغيرهما من موظفي الدولة ، واثنان مفضلان من مماليكه . تناول البك المرطبات التي قدمت له ، وبدا بمعنوية أعلى بكثير مما كان مألوفاً .

أوضح في سياق الحديث رغبته بأن يكون أخوه الأصغر سيدي يوسف

أكبر سناً ، لأنه لم يشك بأن سنوات قليلة ستقوِّم خلقه الخشن الفظ (عمره الآن سبعة عشر عاماً) . قال : « ولو أن أخي متهور الآن جداً فإنه سيصبح إذا عاش بضع سنوات أُخرى رجلا عظيماً ».عبرت النظرات على عيون بعض ضباطه عن أسفهم الشديد على تفكير البك المعتدل جداً عن سيدي يوسف الذي يرتابون منه ويشكون في إخفائه أسوأ النوايا نحو أخيه .

إن آداب السلوك والمجاملة التي يعامل بها سيدي يوسف أخويه ، والحظوة الممتازة التي يتمتع بها في الوقت الحاضر مع الباشا ، هي مدار حديث كل فرد . بينما لا يثق أي فرد بأقوال سيدي يوسف ، يضع الباشا ثقته فيه ويصدق كل ما يقول .

أبدى الباشا قبل بضعة أيام مضت ملاحظة إلى مراسليه بأن سيدي يوسف لم يتحدث مطلقاً له بشيء ضد أخويه بينما يسمع باستمرار عن اعتداءات سيدي يوسف من البك وسيدي أحمد . ولكن من خلق سيدي يوسف يظن الكثيرون من الناس بأنه يبذل جهده لنيل المزيد من الحظوة عند الباشا، ويعني بذلك زيادة سلطته .

كانت البدلة التي يرتديها البك اليوم أخف وأرق من المعتاد بسبب الحرارة الشديدة وكان مظهر مماليك الباشا أكثر روعة من أي إشخاص آخرين في حاشيته ، بالإضافة إلى تألق وبريق أسلحتهم ، وكانت بدلاتهم مغطاة بالذهب والفضة ، تناسب أجسامهم تماماً . ولم يضعوا عمائم على رؤوسهم ، بل شالات سوداء وذهبية ، مشدودة شداً محكماً حول قبعات قرمزية اللون ، تتدلى إحدى نهايات الشال ، وكلها من الذهب الخالص ، على الكتف الأيسر .

عندما غادروا القصر ، تقدم البك وحاشيته بسرعة ليكرم النصارى ويودعهم قبل انصرافهم. خرج سيدي أحمد إلى الرمال أمس مع حاشيته لوحده وبدون أن يصحبه واحد من أخويه (الوقت الآن صوم شهر رمضان حيث يخرج الأمراء للنزهة على الخيل كل يوم) فعرج علينا عند عودته من الرمال ، وتوقف فترة من الزمن للراحة والإستجمام . ولم يصحبه غير ضابط واحد

إلى الحجرة ، وظل الباقون في الحديقة . يعترف سيدي أحمد بأن قوة سيدي يوسف تتعاظم وتزداد سلطته كل يوم . وكذلك كل شخص تحت إمرته ، ولكنه قال : « ما دام الباشا حي يرزق على قيد الحياة فلا خوف علينا وإننا نعيش بسلام وأمن »، وأردف قائلا : « لا يستطيع البك أن يحاول زيادة قواته وسلطته الخاصة به دون القيام بثورة . وقد تغيرت أخلاق سيدي يوسف تغيراً كبيراً ، ليس نحو البك فقط ، ولكن لم يدع سبيلا للتذمر والشكوى لم يطرقه في القلعة » . واختتم حديثه بقوله : « قسماً بالنبي كل شيء ممكن ومحتمل فقد يغير الله قلب سيدي يوسف » .

تجمع آراء كبار الضباط على أن كل فرد في الأسرة يخاف من الفرد الآخر ، ويعبر هؤلاء عن أكثر التنبؤات شؤماً ونحساً في هذه المناسبة . يقول بأن الفترة الطويلة التي امتد فيها حكم الباشا أكثر من ثلاثين عاماً جعلت الناس يعشقون السلام ويحبون الأمن والطمأنينة ويتعلقون بكل الأسرة المالكة ، بحيث لا يمكن ابداً أن يتوقع من أي فرد منهم مكيدة أو دسيسة خيانية ضد أي جزء منها ، فاذا كان الامراء قد عقدوا العزم على العمل ظلماً وعدواناً ، أحدهم ضد الاخر ،أو ضد أبيهم، فيجب عليهم أن يطلبوا النجدة والعون من الأعراب لانهم يقولون بأن « ولد البلد » (أبناء المدينة) سوف لا يقحمون انفسهم ولا يقدمون العون .

تزوج سيدي يوسف مؤخراً من سيدة من أصل تركي . كانت أمها مشهورة جداً برجاحة العقل والتزامها لمبادئها الشريفة في كل البلاد ؛ ولكنها مغرمة وطموحة بالتدخل في الشؤون السياسية عندئذ يخشى من نفوذها العظيم الذي تمارسه على سيدي يوسف ، وبذلك ربما تزيده عنفاً وقسوة في كل ما يقوم به من تدابير .

لم تكن زوجة سيدي يوسف ولا أمها موضع ثقة اللالة حلومة أو الاميرات اللواتي كن يخشين من كليهما . ويتحدثن اليهما بشيء كثير من الحيطة والحذر والتحفظ .

يتحدث سيدي أحمد في أسمى عبارات الولاء والاخلاص والوفاء عن حاشيته . ويقول ولو أنهم قليلو العدد ، فانهم مرتبطون به كل الارتباط ، ولما كان لم يتقدم اليهم بطلب يخالف تعاليم القرآن فله الحق بأن يتوقع منهم النجدة والعون . ومن الجهة الاخرى فليس أمراً غير مألوف ، ما أن يتحدث البربر عن سيدي احمد،وأن يعلنوا عن مخاوفهم من الخطر المحدق به. ترك الدموع تتساقط من عيونهم تصحب اعترافاتهم بالولاء والاخلاص .

١ يونيو ١٧٩٠

محاولة قرصان بربري لتخليص ابناء وطنه من حكم رودس . ترحيب ابناء طرابلس به .

كان الطقس عندنا طوال عدة أيام حاراً شديداً ، مرعباً ومخيفاً ؛ بحيث لا يوجد وصف يمكن أن يعطي فكرة لاولئك الذين لم يشهدوا مثله . كنا نشاهد في ذلك الطقس الشديد الحرارة لبضع ساعات السير البطيء لقافلة تشق طريقها في الرمال ، فهالنا وضعها المخيف المرعب الذي وصلت اليه . لقد مات الكثيرون عطشاً ، وكان آخرون في حالة يرثى لها من الاعياء والتعب ، بحيث سيقضي الجميع نحبهم قبل أن يستطيع أي مخلوق إنقاذهم من العطش الشديد الذي سببته الحرارة الملتهبة . كانت حالة الحيوانات مفزعة جداً تلهث من ضعفها وخورها ، ولم تقو حتى على الزحف فمات الكثير منها في طريقه . استمر هذا الطقس الحار القاتل سبعة أيام ، بعدئذ أصبح الطقس رائقاً ورطباً .

رجعنا منذ لحظات من نزهة طويلة على ظهور الخيل ، مررنا خلالها على محل يدعى عكاز على اسم قبيلة عربية تعرف بهذا الاسم تقطن فيها ، والتي ترعى أغنام الباشا وأبقاره وتحافظ عليها . في هذا المحل بالذات يقابل أحد الشواويش البك دائماً عندما يرجع من المعسكر ، ويقدم له قفطاناً جديداً

مع تحية من الباشا ، في قلعة قديمة ، حيث يسهم البك في احتفال لاستلام القفطان ولبسه ، وعندئذ يقوم من جانبه بتقديم هدية كبرى إلى الشاويش .

لا تزال القلعة قوية جداً ، وكانت في فترة تاريخية مرهبة للبربر أنفسهم ، عندما أصبحت في أيدي أعدائهم ، في زمن الامبراطور شارلس الخامس الذي أعطى طرابلس إلى فرسان رودس بعد طردهم من جزيرة رودس من قبل الاتراك في سنة ١٥٢٢ (١) .

من سنة ١٣١١ عندما أصبحت الفرقة المعروفة باسم فرسان القديس جون في القدس طائفة عسكرية ، بعد مضي إحدى وخمسين سنة على افتتاحهم منزلا في القدس لاستقبال الحجاج ، فان اسمهم لم يفقد رعبه وفزعه في هذا الجزء من العالم . لقد مضت أكثر من أربعمائة سنة ولم تزل من الذاكرة آثار الرعب والخوف الذي أحدثته الحروب الصليبية ، وشهد البربر برهبة وفظاعة السفن المالطية يقودها أتباع فرسان بيت المقدس يعبثون وينهبون ويسلبون باستمرار حول سواحلهم .

وفي غضون تلك الغارات ، عندما استقر فرسان رودس في مدينة طرابلس عقد العزم قرصان بربري مشهور أن يخلص أبناء وطنه من حكم الفرسان ولكنه لم يستطع النزول إلى الساحل بسبب استيلاء المالطيين على القلعة المذكورة أعلاه وأن يأخذها عنوةً أو يهدمها ويحطمها .

لهذا السبب جلب سفنه إلى ذلك الجزء من الساحل المقابل للقلعة ، الـذي يمتد مسافة طويلة نحو البر ، وفي ظلام الليل الدامس أمر بجر السفن إلى الساحل إلى مكان قريب جداً ، فاتخذ من السفن حصناً يطلق منه النار على المالطيين ، ومن ثم حطم الصخرة المؤدية إلى القلعة . وبهذه الطريقة أزاح المالطيين مـن القلعة دون أن يهدمها ، فدخل القلعة منتصراً واستولى عليها وهي بحالة جيدة .

لقد نالت التدابير المدهشة العجيبة لهذا الرجل استحسان الجميع في تلك الايام بجره سفنه إلى الارض ، وانتصاره العظيم ، حتى سماه المالطيون Chasse Diable

(١) يحدد المؤرخ Feraud سنة ١٥٣٠ بدلا من ١٥٢٢

شيطان المطاردة والصيد — ودعوه البربر — الرئيس التنين Rais Draieco .

كانت الارض إلى مسافة كبيرة من هذه القلعة تبدو غائرة بصورة مخيفة ، تحت اقدام الخيل يقول البربر انها في بعض أجزائها ملغومة حتى السطح . صدر في ذلك الوقت أمر بتعيين الرئيس التنين قائداً لتاجوراء .

٢ يونيو ١٧٩٠

صحة الباشا تتدهور · نصيحة أحد المرابطين · اطلاق رصاصة ضد البك · اتفاق الاميرين لحلف اليمين ·

أثار خروج البك وسيدي أحمد وسيدي يوسف إلى الرمال اليوم استغرابنا ودهشتنا جداً . كان عدد أفراد حاشية البك تقريباً ضعف العدد الذي يكون معه في العادة ، بينما لم يكن حرس سيدي أحمد وسيدي يوسف أكثر من العدد المألوف . كان أصدقاء البك شديدي الخوف على سلامته ، وكثيري الاسف لكونه في وفاق مع سيدي يوسف . وحين يرغبون بإلفات نظره وتحذيره ، يكون رد البك : ليس لسيدي يوسف القوة لالحاق الأذى به لانه لا يستطيع أن يستدعي الاعراب دون إذن من والده ، ولما كانت حياة الباشا تتدهور يوماً بعد يوم ؛ فليس في نيته أن ينغص أيامه الاخيرة ويقصّر أجله . ويقول بأن الناس يعرفون ويعترفون بأنه هو الوارث للعرش وحده ، وبما ان اخويه لا يقلقانه ولا يزعجانه صراحة يوجد متسع من الوقت عندما تطوى حياة الباشا فلا بد وأنه يضع حداً لقوتيهما وممتلكاتهما ، « وعندئذ »، واستمر قائلا : « اذا لم يهدفوا إلى العرش فمن حقهما أن يطمئنا ويكتفيا بما سأقوم به نحوهما » .

يعتمد البك على حذر ويقظة رجال حاشيته للمحافظة على سلامة شخصه من الغدر والخيانة ، ومن المستحيل أن يقدموا برهاناً أعظم على مدى حبهم

وعمق مشاعرهم نحوه ، من أن يكونوا على حذر ويقظة أكثر مما هم عليه . فالحرس الذين لا يسكنون في القلعة مع البك يرقبون بعين ساهرة ليلا من منازلهم، ففي حالة أقل انذار من القلعة ، يهبّون دفعةً واحدةً دون أي أمر صادر من أميرهم .

سيرسل الباشا قوات تأديبية لحسم بعض الحسابات مع الاعراب . وذهب أمس أحد المرابطين المشهورين إلى القلعة ليصلي من أجل الباشا ، كما يصلي بعض الاحيان الناس في المناسبات العامة ، حيث يحضر كل شخص الصلاة معه . وقد نقل هذا الرجل في صلواته نصيحة سياسية للباشا(وهو امتياز يتمتع به هؤلاء الأولياء بعض الاحيان) تقول اذا أرسلت قوة إلى الاعراب في الوقت الحاضر ، فانها ستعرض البلاد للدمار وتقضي عليها لأن البلاد بأشد الحاجة إلى كل جندي في جيش الباشا ، ويجب أن لا يفكر الباشا مطلقاً بارسال سيـــدي يوسف على أي حال ، فسيندم حيث لا ينفع الندم . أشار الباشا إلى المرابط أن لا يفتح فاه مرة ثانية حول ذلك الموضوع فزجر المرابط الولي كثيراً .

همس الوزير الأول مصطفى شريفي في أذن الوالي محاولا أن يهدىء الموضوع ، بقوله إنه من غير اللائق أن يتحدث إلى هذا المرابط بقساوة وعنف أمام الجمهور ، لأنه واحد من أعظم الأولياء المرابطين ، ولكن الباشا أخبر شريفي ، متوعداً وقائلا إذا سمع المرابط يقول كلمة أخرى فإنهما معاً المرابط وهو سيندمان عليها . فأسكتتهما هذه العبارة ، وأنهى المرابط أداء فريضة الصلاة بمهابة وخضوع دون أن يمسّ الشؤون السياسية .

نحن مستعدون للعودة إلى المدينة . لسبب مخيف ومؤلم ومحزن . كان الأمراء يخرجون مع حاشيتهم إلى الرمال كل يوم تقريباً منذ وصولنا هنا ، يخرج الأخوة الثلاثة سوية بعض الأحيان ، وأحياناً اثنان منهما ، وفي الغالب واحد منهم فقط . قبل بضعة أيام خرج البك وسيدي يوسف سوية راكبين . كان مع البك كل حاشيته من رجال ، أما سيدي يوسف فمعه أفراد قلائل . توقف سيدي يوسف ، عند عودتهما ، في حديقته المجاورة للمنزل الذي نقيم فيه . في حين كان البك يغادر الرمال سمعنا صوت إطلاقة مسدس من حديقة سيدي

يوسف ، وبنفس اللحظة سمعنا نداء يقول البك قد أُصيب . كان اوجودنا في قصر الباشا أثر في زيادة مخاوفنا ، بسبب عدم استطاعتنا لغلق أبواب الحديقة لتحول دون دخول سيدي يوسف والبربر والأعراب ، الذين قد يلحقون به ويدخلون معه . لم يعثر على الشخص الذي أطلق النار على البك من حديقة سيدي يوسف من بين الحشد . أثار ذلك الحادث سخط رجال حاشية البك سخطاً كبيراً على سيدي يوسف : قالوا لما كان يوجد فريقان فقط ، فإن الشقي الذي توخى الإعتداء على حياة البك لا يمكن أن يكون إلا مخلوقاً من فريق سيدي يوسف . أقنع البك من قبل حاشيته بالذهاب إلى حديقة أخيه ، فوجد سيدي يوسف واقفاً ينتظر استقباله بأعظم مظاهر الإخلاص والوفاء ، فالتفت إلى ضباطه فقال لأحدهم الذي كان بالقرب منه : « دمه سوف لا يكون في عنقي قد تكون هذه الرصاصة أُطلقت من شخص مجهول بلا علم منه نتيجة لغيرة عمياء . فإذا رفض الذهاب إلى بيت الله لحلف اليمين من أجل حمايتنا المتبادلة فإن عداوته تكون ثابتةً وحقيقيةً ولي كل الحق في هدر دمه جزاءً وفاقاً وحكماً عادلاً لا غدراً ولا خيانةً » .

عندما رأى سيدي يوسف البك يدخل حديقته ، تقدم لاستقباله وأمر خدمه للبحث عن المعتدي سواء كان من حاشيته أو حاشية البك . وافق بسرعة للذهاب إلى المرابط لأداء القسم في المحراب ، ولم يعط سبباً للشك بأنه كان عالماً بسر هذا العمل الشرير الشيطاني .

لقد مرت أيام عديدة على تلك الحادثة ، ولم يذهب البك وسيدي يوسف إلى المرابط ليؤكد ما اتفقا عليه من قسم .

١٢ يوليو ١٧٩٠

ذهب سيدي يوسف إلى مركزه الحكومي ، ومن المنتظر أن يعود في بحر بضعة أسابيع كان كل شيء هادئاً تماماً منذ رحيله ، ولكننا سنسافر إلى المدينة

في خلال أيام قليلة ، لأنه كما نظن أن من الخطر البقاء في طرابلس عند عودة سيدي يوسف .

٢ أغسطس ١٧٩٠

قلق الناس من أعمال سيدي يوسف · مؤامرة سيدي يوسف لاغتيال أخيه البك· قتل الكخيا· سيدي يوسف يقيم حفلة ساهرة · أهالي طرابلس يستنكرون الجريمة ·

لم يمض على عودتنا إلى المدينة من قصر الباشا في الريف إلا وقت قليل ؛ منذ تاريخ رسالتي الأخيرة لك . كان كل شيء عند عودتنا هادئاً وساكناً . ذهب الباشا والبك وسيدي أحمد سوية إلى المرابط ، وخلال زياراتنا الأخيرة إلى القلعة ؛ وجدنا اللالة حلومة والأميرات سعيدات ؛ بالنسبة لما كن عليه عندما غادرنا المدينة . كان يوجد قلق قليل واضح للعيان عما يقوم به سيدي يوسف خارج طرابلس ، ولا يستطيع أي شخص داخل طرابلس أو خارجها أن يتنبأ به ، كان يشاع من قبل أفراد الأسرة بأن سيدي يوسف ذهب ليجمع الأتاوات فقط من المراكز الإدارية التابعة له ، ولكنه كان موضع الشك والريبة من قبل الكثيرين من الناس فيقال بأنه ذهب إلى رؤساء وشيوخ الأعراب يستحثهم ويستنهضهم للإسهام في نزاعه ضد أبيه والبك . ظل بعد عودته في حديقة الباشا في المنشية وفي القصر الذي كنا فيه ، وكان يتردد في أوقات مختلفة متظاهراً بأكثر الأساليب وداً ورقة ولطفاً ، في زيارته لبقية أفراد الأسرة الحاكمة في القلعة ، حتى يزيل كل شك، ويقشع كل ريبة مما ينوي القيام به.

إن النظر الذي حققه سيدي يوسف بمؤامرة شيطانية شريرة دبرت للقضاء على البك من بين أكثر القصص دهشة وغرابة التي ليس بقدرتنا أن نجد لهـــا شرحاً وتفسيراً وتعليلا فقد مل الإنتظار الطويل لتنفيذ مؤامرة اغتيال البك . جاء إلى المدينة ، وهو أكثر عزماً وأشد تصميماً ، وأحسن استعداداً ، وأوثق تدبيراً لتنفيذ المؤامرة الرهيبة المفزعة ؛ مما كان عليه في السابق . جلب معه

حرسه الأسود الذي يتألف من خيرة الجنود ، الذين أطلعهم إطلاعاً جيداً على خيوط المؤامرة . ففي اللحظة التي دخل القلعة قصد حجرة أمه اللالة حلومة التي أعلمها بنيته الصادقة وحسن طويته لعقد الصلح ، وإنهاء الخصومة مع أخيه الأكبر ، والتمس منها بأن تسعى بكل ما لديها من تأثير بدعوة البك ، والوصول إلى تسوية بحضورها . فتحمست اللالة حلومة وداعبت خيالها فكرة مشاهدة أبنائها متحدين متآخين ثانية ، كما كانت تمني نفسها وتطري عليها ، لتكون الواسطة في توثيق الأخوة فيما بينهما ، فأرسلت فوراً تدعو البك، الذي كان في حجرة اللالة عائشة (زوجته) فوصلت رسالة سرية تعلمه بأن أخاه سيدي يوسف مجرد من السلاح ينتظر في حجرة أمه لإنهاء الخصومة وعقد الصلح معه ، وأن أمه تمني نفسها بتلك الأمنية لوضع يديها بأيديهما معاً وأنه ، قسماً برأس الباشا ، إذا كان البك يحبها ، فإنه يجب أن يأتي إلى حجرتها مجرداً من السلاح . تحمس البك للفكرة فاستجاب من أول وهلة بصورة تلقائية مسلّحاً نفسه بالمسدسات والسيف ، ليلبي مطيعاً الدعوة للحضور .

تثق اللالة عائشة بحنان اللالة حلومة وتعرف شعورها الأكيد غير المتحيز وغير المتغرض لكافة أولادها ، فكانت واثقة كل الثقة بعدم وجود خطر واضح ومكشوف يمكن أن يهدد حياة زوجها : كانت تخشى فقط من المكائد والمؤامرات السرية التي يحبك خيوطها الأشرار للإيقاع بالبك ، ولكن البك لا يكترث بذلك ولا يقيم له وزناً مطلقاً ، وارتجفت اللالة عائشة وارتعبت ، في اللحظة الحاضرة ، من نبأ يقول بأن البك مر من الحرم قاصداً اللالة حلومة مدججاً بالسلاح ، يبدو وكأن منظره عدائي ، على العكس تماماً مما عرف عنه وعن القواعد المرعية في داخل أسوار القلعة عن منع حمل السلاح ، ربما يعطي الحجة بأن البك موضع هجوم غادر مدبر من قبل أفراد حاشية سيدي يوسف ، عندئذ أبدت ملاحظة له ، وذكرته بأنه ذاهب إلى حجرات أمه ، التي كانت في كل وقت منطقة محرمة (وفقاً لقوانين محمد) لا يجوز حمل الأسلحة فيها ، وأن ذهابه مسلحاً ، بعد ورود الرسالة السرية من اللالة حلومة ، يعني كما لو

أنه كان مصمماً على اغتيال أخيه ، وبذلك ينصب انتقام القلعة عليه . بعد برهة من التردد ، نزع البك سلاحه ، وعانق اللالة عائشة ، وغادر الحجرة ، فرمت بنفسها على قدميه ، وقدمت له سيفه ، ورجته ، على كل حال ، أن لا يغادرها مجرداً أعزل من السلاح كلياً، وأنها لا تدعه يخرج إذا لم يستجب لتضرعاتها . حين دخل البك إلى حجرة أمه شهدت سيفه ، فرجته ملتمسة (مؤكدة بأن أخاه مجرد عن السلاح) أن يضع سيفه جانباً قبل أن يدخلا في الحديث . سلم البك سيفه طواعية وبكل رغبة إلى أمه ، التي لا يمكن أن يرقى إليها الشك ، فأخذته منه أمه ، ووضعته في نافذة ، كانا يقفان بالقرب منها ، وبعد أن شعرت بثقتها التامة بحسن نوايا البك وطهارة سريرته واستقامة خلقه ، وأنها اطمانت تماماً بنوايا سيدي يوسف ، فأخذت بيدي الأميرين وأجلستهما على الأريكة ، وجلست هي بينهما ، وأمسكت بيد كل منهما في يدها ، ومن ثم خاطبتهما معلنة وهي تنظر إليهما بالتعاقب ، فامتدحت نفسها وأطرت قدرتها أخيراً على الجمع بينهما والتوفيق وتسوية الخصومة وعقد الصلح بحضورهـــا .

وبعد أن استقر بهم المقام حاول البك أن يقنع أخاه بأنه مع أنه جاء ليسهم في احتفال عقد الصلح ، فإنه لا يوجد أقل سبب يدعوه من جانبه للقيام بالتسوية هذه ، خاصة وأنه ما دام ليس له أبناء فإنه يعتبر سيدي يوسف أخاه وابنه معاً ، وأنه سيكون موضع رعايته واهتمامه يحنو عليه ويشفق مثل أبيه في الوقت الذي يعتلي به العرش . أعلن سيدي يوسف عن اطمئنانه ، ولكنه أبدى ملاحظة عن جعل اللالة حلومة سعيدة تماماً . بحيث لا يمكن أن يبدو اعتراض بعد أن عبر البك تعبيراً كافياً عن الصداقة ، فيتوج الصلح بينهما بأداء القسم المقدس على القرآن . أجاب البك « بكل جوارحه وقلبه » بأنه « على أتم الإستعداد » عندئذ نهض سيدي يوسف بسرعة من مقعده ، ونادى بصوت مرتفع لجلب القرآن – فكانت كلمة السر التي أعطيت لمخاصيه لجلب المسدسات ، فجلب اثنان منهما ووضعا في يديه ، حيث أفرغ ما في أحدهما من طلقات نارية في

أخيه الجالس بجانب والدته . انفجر المسدس فمدت اللالة حلومة يدها لتنقذ البك فتمزقت أصابعها بشظايا منه . أصابت الطلقات النارية البك في جانبه ، فنهض ، على كل حال ، فقبض على سيفه من النافذة فسدد ضربة إلى أخيه ولكن جرحه جرحاً طفيفاً في وجهه ، فأفرغ سيدي يوسف المسدس الثاني فأصاب البك في جسمه (١) .

ازدادت اللالة حلومة غماً وهماً ، فتكاثرت عليها الأحزان والآلام ؛ من نتيجة هذه الكارثة : خاصة وأن البك افترض خطأ بأنها سلمته لقمة سائغة بخدعتها وخيانتها . خاطبها البك بعد ما جرح مذهولا ومستغرباً : « آه ، يـــا سيدتي ، هل هذه هي آخر هدية قد احتفظت بها لابنك الأكبر ؟ » ماذا يجب أن يكون أثر هذه الكلمات من ابن عزيز في صدر أمه ؟ هذا هو البك مطروحاً على الأرض – أقضوا عليه وأخمدوا أنفاسه الأخيرة ، وأفرغوا في جسمه مسدساتهم (٢) .

سمعت اللالة عائشة الصوت المفزع الرهيب المفاجىء ، فشقت طريقها بين النساء اللواتي حاولن منعها من مشاهدة المنظر ، فقفزت إلى الحجرة ، وعانقت الزوج المضرج بالدماء واحتضنته بذراعيها ، بينما أغمي على اللالة حلومة في محاولتها لمنع سيدي يوسف من تشويه الجسم ، فسقطت عليه من أثر الآلام النفسية التي قطعت نياط قلبها . في الوقت نفسه كان خمسة من الحرس الأسود التابع لسيدي يوسف يطعنون بخناجرهم البك وهو ملقى على الأرض مضرجاً بدمائه ، وبعد أن تحقق النصر البائس لسيدهم هربوا معه .

كانت تلك الروح الهمجية الوحشية المتعطشة لشرب الدماء ، وتشويه وتقطيع جثة البك ، أعظم المشاهد حزناً ومأساة وكآبة . نزعت اللالة عواشة ، بعد أن رأت ذلك المشهد المريع المفزع ، كل ما عليها من حلي ومجوهرات غالية ، ورمتها في الدماء التي تسيل من جثة البك ، وأخذت من الجواري

---

(١) اقتبست كل المصادر اللاحقة لهذه الفترة رواية الانسة توللي هذه .

(٢) عندما لفظ البك أنفاسه الاخيرة .

السوداوات أسوأ ما على إحداهن من جرد ، وجعلته رداء لها . صارت وكأنها جارية عادية ، وأمرت من كن حولها أن يغطينها بالرماد فذهبت وهي على هذه الحال فوراً إلى الباشا وقالت له :

« إذا لم يرغب أن يراها تسمم نفسها وأطفالها فعليه أن يصدر أوامر فوراً ، تخولها مغادرة القلعة ، لأنها لا ترغب الإستمرار بالعيش لتنظر إلى أسوارها ، ولا أن تمشي على أحجارها ، فإنها لا تقوى على رؤيتها ملطخة بدماء البك » .

حين غادر سيدي يوسف القلعة صادف عبد الله بك ، الكخيا الكبير (١) ، موظف محترم ووقور ، وهو الاول في السلطة ، ويحبه الناس . عندما رأى هذا الموظف الحالة الرهيبة التي أحاطت بسيدي يوسف ، فعبر عن خوفه بأن كارثة مشؤومة قاتلة قد حدثت . كان عبد الله بك معروفاً بصلته الوثيقة بأسرة الباشا ، وبوصفه متديناً ومتمسكاً بالمبادىء الاسلامية فلا يمكن أن يدور في خلده الجريمة النكراء التي ارتكبت في هذا اليوم . في تلك اللاحظة بالذات التي شهده سيدي يوسف طعنه بخنجر في قلبه فأراده قتيلا في الحال . فرمى الحرس الاسود الذي يتبع سيدي يوسف جثة الكخيا إلى الشارع ، أمام باب القلعة ، فنقله الحرس الخاص بالباشا الواقف عند الباب إلى أسرته البائسة . أجريت مراسيم الدفن له وللبك بنفس الوقت .

كان سيدي يوسف قد تردد ثلاث مرات إلى المدينة ليرتكب تلك الجريمة الشنعاء . جاء في المرة الاخيرة في ساعة توقع أن يجد البك وحده مجرداً أعزل من السلاح ، ولكن وجده على العكس من ذلك ، مسلحاً ومحاطاً بحاشيته ، فقبل يده ، وبعد أن حياه بالتحيات المألوفة ، عاد خائباً إلى منزله في حديقة الباشا .

وفي اليوم العشرين من الشهر الماضي ، على كل حال ، نفذ جريمته ، ولا شيء يمكن أن يعادل الفوضى والارتباك والقلق المستحوذ على هذه المدينة .

---

(١) كان جالسا بدون شك في مكانه بالسقيفة في مدخل القلعة .

فقد أسرع الناس للخروج إلى الشوارع زرافات زرافات،خيم عليهم الاسى وأفزعتهم الفجيعة، مع أسرهم وقطعان مواشيهم يحاولون الوصول إلى أبواب المدينة والنزوح منها ، لا يعرفون أين ينتهي مشهد الخراب والدمار في القلعة ، واحتشدت أعداد غفيرة في منزلنا بجانب اولئك الذين كان لهم حق اللجوء لأنهم تحت حماية الراية الإنجليزية .

صادف أحد مترجمينا سيدي يوسف فرأى سراويله وبرنصه ملطخة بالدماء. كان يتبعه حرسه الاسود ، ويغير بحصانه بسرعة عظيمة من القلعة ماراً بباب المدينة ، يخشى في تلك اللحظة من انتقام الناس .

كانت الانباء الواردة عن بقاء البك على قيد الحياة مختلفة لعدة ساعات . ولكن عندما تأكد الناس من موته ، بدأوا يتسلحون ، ومروا خلال الشوارع بأعداد كبيرة ، الأعراب والجبليون ببنادقهم الطويلة وخناجرهم ، والبربر بمسدساتهم وسيوفهم ، يقدمون للسكان أهول المناظر وأكثرها رهبة ، كل واحد يخاف أن يلتقي بعدو في محلته ، ولا يدري إلى أي فريق ينتمي .

اضطر الفزع الذي خيم على المدينة أن يغلق بالضرورة أبواب القنصليات . الا أن قنصليتنا تأخرت في غلق أبوابها لدقائق قليلة ، عندما أسرع أثنان من ضباط البك يائسين ليدركا الباب وتوسلا بنا أن نسمح لهما بالدخول ، لأنهما يخشيان ، كما قالا ، أن يقضى على حياتهما ويذبحا في أية لحظة من قبل أولئك الذين يرتبطون بسيدي يوسف لأنهما محظوظان عند سيدهما المتوفى . كان أحدهما سيدي حسن ابن أخ السفير حاج عبد الرحمن ، الذي رأيته في إنجلترا . كانت مشاعره نحو المصير الذي لقيه البك عميقة وشديدة ، وتمنى لو ابتلعته الارض ، لان جماعته لم تقدم له العون . بعد لحظة من دخوله منزلنا ، مر موكب تشييع جنازة البك ، فنهض حسن على الفور ليلحق بالموكب ، ليلقي آخر نظرة على جثمان البك ويشترك في حمل نعشه ، ولو أنه ظن بقيامه بذلك العمل يعرض نفسه لأعظم الاخطار ، وأن أمله ضعيف جداً بالوصول إلى المقبرة حياً ، فدعا الضابط الثاني أن يصحبه، إلا أنه رفض قائلاً بأنهما يعرضان

نفسيهما للخطر لهدف لا يستحق التضحية ، فذهب حسن وحده .

تم دفن البك في الساعة الثالثة بعد الظهر – وفي مدة قصيرة لا تتجاوز أربع ساعات شهدت البك في عنفوان صحته ، في وسط أسرته : أغتيل ودفن ! !

نكست الاعلام في القنصليات ، في اللحظة التي أعلن بها وفاة البك ، وأطلقت كل البواخر الراسية في المرفأ نيران مدافعها دقيقة واحدة حتى واراه التراب ، أطلقت السفن إحدى وعشرين اطلاقة تحية للراحل .

أعتقت ارملة البك كل عبد مشى في تشييع جنازته ، ولكن الناس قد تولاهم الذعر وصعقوا من هول الحادثة ، وكان البربر من الطبقة العليا وجلين وخائفين من السير في موكب الجنازة ولم يمش في الموكب غير عدد قليل بالاضافة إلى اولئك الذين أمرهم الباشا .

لا يمكن التهكم على حالة الباشا العقلية والنفسية في هذه اللحظة الحرجة وإعطاء حكم عنها إلا قليلاً ، ولم يستطع شيخ البلد أن يقوم بأداء عمله دون أن يستطلع جلية الامر أولا من القلعة ، وينتظر كلمة من الباشا ، حتى ظن بأن المدينة باتت غير آمنة وغير مطمئنة هكذا كانت حالة الهياج والرعب التي شملت جمهور الناس كله .

وفور ما ووري جثمان البك التراب ، انطلق الشواويش في شوارع المدينة يعلنون أمراً صادراً من الباشا يطلب إلى كل فرد أن يحافظ على الهدوء والسكينة ، وأن يتفرق الناس ويمنعهم من التجمع ، والا عرضوا انفسهم لطائلة العقاب ، فلا خوف عليهم من أي شيء . وكانت كلمات الشواويش : « ان الله يشمله برحمته الواسعة ويدخل البك الراحل فسيح جناته » و « سوف لا ينال الاذى ولا يلحق الضرر أي واحد من خدمه ورجاله » . ولكن مما أثار دهشة كل فرد واستغرابه عدم صدور أمر يعلن تعيين البك الجديد ، وهي بادرة لم يسبق لها مثيل ، فالعادة جرت عندما يتوفى الباشا أو البك فان الخلف يعلن اسمه في مثل تلك اللحظة .

كان سيدي أحمد بعيداً عن طرابلس عندما حدثت الكارثة المروعة ، ولكنه كان في المدينة الليلة الماضية ، وجاء معه من مصراته (١) رئيس من الأعراب (شيخ خليفة) وبضع مئات من جماعته فنصبوا خيامهم حول المدينة في أثناء الليل . قبل أن يصل سيدي احمد إلى المدينة ، على كل حال ، أرسل الباشا أحد ضباطه السريين إلى سيدي يوسف ، يطلب اليه المجيء . فرد سيدي يوسف معبراً عن خشيته وخوفه ، فأرسل الباشا اليه مسبحته (٢) لتكون ضماناً أكيداً لأمنه وسلامته . ولكن حتى في هذا الضمان الذي يصون حياته فان سيدي يوسف لا يطمئن ولا يأمن على نفسه داخل اسوار المدينة .

عندما وصل سيدي أحمد مع الاعراب الذين جاء بهم ذهب توا إلى الباشا ، الذي كان وجلا وخائفاً جداً في النظر اليه قادماً مسلحاً ، الأمر الذي دعاه إلى أن يعبر عن عدم موافقته على ذلك ، ولكن سيدي أحمد قال بأنه شهد في تلك اللحظة الضابط الذي أرسله الباشا مع مسبحته ليعطي الامن والطمأنينة لشخص سيدي يوسف ، وتجعل من حياته أمراً محترماً ومقدساً ، بعد ان قطع البك إرباً إرباً ! ! قال : « اذن هذه لحظة لا يمكن التعرف على وجهة نظر أي شخص ولا أدرك كنه أي عمل ، فكل درب تغطيه ظلمة حالكة ومحفوف بالغموض وعدم اليقين ، واذن فان السير فيه يتطلب حراسة قوية خوفاً من الزلل والوقوع » .

انسحب سيدي أحمد إلى حجراته ، فقد أضناه التعب من كثرة الأسفار ، وتغلب عليه الهياج ، وهاله الخطب الفادح ، فألقى بنفسه على الأريكة من شدة الاعياء . حدثت هذه الواقعة فور وصوله إلى القلعة ، حتى أشيع بأنه مسموم ، وانتشر الخبر في المدينة فألقاها ثانية في موجة من الذعر والقلق والاضطراب

---

(١) كان رفض تعيين سيدي يوسف قائدا في مصراته مؤخرا جدا بسبب ما ارتكبه من سلب ونهب وقتل في المرة الاخيرة التي ارسل اليها من قبل الباشا .

(٢) المسبحة التي يستعملها الباشا عند الصلاة التي تعتبر طلسما قويا في ايدي اعظم المجرمين ، تجعل حياته مصانة ومحرمة ومقدسة ما دامت هي في يديه .

عدة ساعات خلال المساء .

إن لم أكن أكتب إليك من بلاد تختلف فيها الآراء والأفكار وآداب السلوك كل الإختلاف عما هي حيثما أنت معتاد ، فإني أخشى تقريباً من أنك لا تصدق الرواية التالية عن خلق سيدي يوسف . لم يتم بعد بناء القبر ولم يوار التراب جثمان أخيه المشوه إلا منذ دقائق قليلة حتى أرسل إلى المدينة يطلب حضور جوقة موسيقية يهودية مع الطبلة (الدربكة) ليقيم احتفالا في حديقة الباشا التي يسكن فيها . كانت أصوات الموسيقى وإطلاق العيارات النارية وغناء النساء المؤجرات للرقص والغناء تدوي في الفضاء دوياً يفوق احتفالات العرس . سرعان ما علمت القلعة بذلك ، انسحب الباشا في حالة ضيق وهم وكدر : مصدراً أوامره بابتعاد كل إنسان عنه حتى يستدعيه ثانية . رأينا الباشا من إحدى حجراتنا التي تطل على منظر رواق مسقوف يؤدي إلى حجرات الباشا : مستغرقاً في التفكير لوحده .

أرسل سيدي يوسف ، في غضون الإحتفال المشاراليه أعلاه كلمة إلى اللالة حوية أرملة الكخيا الذي اغتاله بيديه (والذي لا تبعد حديقته عن حديقة الباشا كثيراً) قائلا لها إذا سمع عويل النساء وصراخهن يندبن عبد الله بك المتوفى فإنه سيعدمها في الحال فاضطرت على مغادرة الحديقة والمجيء إلى المدينة ، فأقامت مأتماً لزوجها الراحل بالإشتراك مع أرملة البك في القلعة .

في الوقت الذي أرسل الباشا مسبحته لسيدي يوسف ، أمر بأن تحرس حديقته من قبل الرؤساء الأربعة في المنشية لحماية سيدي يوسف من غضب الناس : الذين ظن بأنهم يستنكرون اغتيال البك .

احتفظ القناصل بحرس إضافي لحماية منازلهم ومراقبة كافة الطرقات مراقبة شديدة أثناء الليل . في اليوم الثاني لاغتيال البك ذهب سيدي أحمد (الآن البك) مع مائتين من فرسانه إلى حديقة الباشا ليقابل سيدي يوسف ، ويتحدث معه : الذي بثّ العيون والأرصاد وشدد حراسة كل طريق يؤدي إلى قصر الباشا الذي جلس على أبوابه . وقف رجال حاشيته في خطين يحيطان

به ، مدججين بالسلاح ، ووقف الحرس الأسود الذي يضم الأشقياء الذين اشتركوا معه في اغتيال البك بالقرب منه ، موجهين فوهات بنادقهم .

مضى وقت طويل في تبادل الرسائل من وإلى ، قبل أن يجتمع الأخوان ، وتم الإتفاق مؤخراً على أن يصرف سيدي يوسف كل أفراد حاشيته خارج المدينة ، وأن يدخل سيدي أحمد بدون فرسانه . تحدث الأميران حديثاً طويلا ، كانا واقفين خلاله وسط عدد من ضباطهما الكبار الذين ألفوا حلقة حولهما طول الوقت الذي كانا فيه سوية .

توقع سيدي أحمد والناس في القصر عبثاً ، بعد موت البك ؛ من ساعة إلى أخرى ، أن يسمعوا إعلان اسم البك الجديد . بدا سيدي أحمد هادئاً ساكناً : لم تستطع أذناه أن تتحمل سماع أغاني الفرح والموسيقى ؛ بينما كانت أرملة البك ، وكان كل فرد في القلعة في مأتم يردد المراثي المحزنة لفقدان البك ، ولكن بعد أن مضى الزمن المخصص لإعلان اسم البك الذي لا يمكن الإستغناء عنه ، تقدم سيدي أحمد إلى الباشا يطلب إليه أن يصدر أمره بإقامة إحتفال لإعلان اسم البك رسمياً . فوافق الباشا على ذلك ، ولكن بشرط أن يعطي سيدي يوسف موافقته ! انسحب سيدي أحمد إلى غرفته بعد أن سمع هذا الجواب غير المتوقع من الباشا وبقي بضع ساعات . ولم يستطع أفراد حاشيته أن يقنعوه للتخلي عن ذلك القرار الغريب الذي اتخذه ، بالذهاب إلى المحل الذي يقيم به سيدي يوسف مصحوباً بعدد قليل من الحراس ليتعرف على مشاعر سيدي يوسف .

دخل حديقة الباشا ، حيث كان سيدي يوسف (مع ثلاثمائة من الرجال المسلحين) وأربعة من ضباطه فقط ؛ فأخبر أخاه بأن الباشا وافق على إعلان اسمه (البك) على شرط أن تتم موافقة سيدي يوسف ، ولو أنه الأصغر ولا حل له في ذلك ، دون المزيد من إراقة الدماء ، وأنه مستعد لأداء اليمين والقسم بالنبي لا يمسه بضرر . احتج سيدي يوسف مقسماً برأس الباشا ، بأنه أقدم على قتل البك لأن شجاراً نشب معه ؛ وليس رغبة في نفسه ليعقبه في

منصبه ، وأنه مستعد للإعتراف بسيدي أحمد (البك) وأنه يتنصل من جانبه من كل ادعاء بالعرش .

عاد سيدي أحمد إلى المدينة ، بعد هذه المقابلة الغريبة الإستثنائية ، فتسلم من الباشا قفطاناً (١) جديداً ، وخيول وعبيد وأسلحة البك المتوفى ... وغيرها ، وأعلن بصورة رسمية أنه البك في اليوم التاسع والعشرين من يوليو . فأطلقت مدافع القلعة نيرانها ، وصدحت الفرقة الموسيقية ؛ ورفعت الأعلام البربرية وكل الدول الأخرى ، وذهب القناصل إلى القلعة ليقدموا تهانيهم بهذه المناسبة .

قبل أن ينتهي اسبوع على اغتيال البك ؛ وضعت أرملته الحزينة طفلاً ، ولكونه ولداً ذكراً كان ميلاده تجديداً لحزن وآلام أمه ، لأنه لم يكن لديها ولد في وقت وفاة البك فلم تستطع أن تتحاشى التفكير في فرح البك الذي يعبر عنه لو كان حياً عندما تقدم له وريثاً يخلفه ، والخبر الذي انتشر في المملكة كلها عن ولادة طفلها ؛ أوجد في عقلها الحزين تناقضاً قاسياً للسكينة الرهيبة المفجعة في اللحظة الحاضرة .

لقد تألمنا حقاً ألماً شديداً حين حمل إلينا المراسلون من القلعة الأنباء ،واضافوا بأنهم لا يريدون البشارة (٢)، وصلت الأنباء من اللالة ، لأنها ظنت بقلقنا على راحتها وسلامتها .

تنذر حالة المدينة القلقة في الوقت الحاضر؛ بالخطر،فحالت دون قيامنا بزيارة الأسرة منذ وفاة البك . لقد كانت الأحداث المؤلمة والإستثنائية المدهشة التي وقعت خلال الأيام الثمانية الأخيرة سبباً في أن تكون رسالتي أطول مما كنت

---

(١) القفطان بالنسبة للاتراك والبربر يرمز لحظوة ملكية ، يمنح عادة من قبل الوالي في مناسبات مختلفة ، يرسل السلطان التركي قفطانا واحدا لبلاط كل من طرابلس وتونس والجزائر بمناسبة ميلاد ابن له ، وعند قبوله تقدم الهدايا العظيمة .

(٢) من التقاليد المرعية في حالة ولادة أبناء البك ، وخاصة (الوريث للعرش كما هو الامر في الحالة أعلاه) ، ان تقدم هدايا مالية لاولئك الذين يجلبون الانباء التي تدعى البشارة (البشرى) واحيانا تقدم بعض الملابس الجميلة الى أم الامير من كل القناصل .

أتوقع ، ولما لم يكن لدينا أمل في مغادرة هذه المدينة في الوقت الحاضر ، ولما كانت هذه الأحداث أكثر صلة بما سأكتب لك عنه بعدئذ ، فقد قررت أن أبعث لك بوصف كامل عنها كما وقعت .

٣٠ أغسطس ١٧٩٠

سيدي احمد يـــزور سيدي يوسف في حديقتـــه · المرابط قطيس

خرج سيدي أحمد ثانية لزيارة سيدي يوسف في حديقة الباشا ولا يزال يحتفظ بعدد كبير من الرجال تحت السلاح . ذهب سيدي أحمد لينصحه بإرسال أفراد الحرس الأسود الذين اشتركوا في اغتيال اخيه إلى المرابط العظيم ليهدىء من روع الناس ، الذين لم يثر غضبهم بسبب البك السيء الطالع فقط ولكنهم شقوا طريقهم بالقوة والعنف إلى الحرم ، فيعتبر عملهم مخالفاً ، يجب أن يشمئز منه كل بربري ، لأنهم لا يستطيعون أن يأمنوا على أعراضهم من مثل هذا الإنتهاك للحرمات فيمرّ دون أية ملاحظة .

يبدو أن سيدي يوسف ، على أي حال ، يعمل مستقلاً تماماً عن الباشا والبك : أمر رجال حاشيته أن يذبحوا خدم البك المتوفى حيثما عثروا على واحد منهم ، وأرسل إلى الباشا يرجوه أن يصدر أمره إلى أحد الضباط يسمى «بورجا» أن يسلم بعض أسلحته الجميلة التي سلمها له البك المتوفى . ذهب سيدي يوسف إلى حديقة سيدي بورجا الوكيل ، وأخذ بعض الخيول الجميلة التي أعطيت هدية للبك .

أمر الباشا ، نتيجة لكل هذه الحماقات التي يرتكبها سيدي يوسف أن لا يقدم إلى القلعة مسلحاً . ولكن بالرغم من هذا الأمر لا يزال يحتفظ بمائتين من الرجال تحت السلاح ظلوا على أي حال ، خارج القلعة ، حاولوا أن يقتلوا مملوكاً من مماليك الباشا الذي أطلق عياراً نارياً من مسدسه دون قصد ، ولم

يستطع الهروب إلا أن يد صديق بربري كان مرافقاً بجانبه القت عليه جرده ، فأنقذت حياته .

تولى حاج مراد زوج الأميرة الكبرى الآن المنصب الذي كان يشغله عبد الله بك السيء الحظ ، الكخيا الكبير ، الذي رفض قبوله ، إذا لم تمنح قائمقامية السهل التي كان يشغلها من قبل إبنه : فتم له ذلك ، ولكن بعدها عزفت الفرقة الموسيقية (١) وأطلقت المدافع لمناسبة ترفيعه بدقائق حتى أخذت قائمقامية السهل من ابنه وعين محله علي النابلطاني الذي دخل في الإسلام قائداً للسهل ، وهو من ذوي الحظوة عند سيدي يوسف .

لما كان منصب الكخيا لمدينة طرابلس منصباً شرفياً لا ينتج دخلاً أو إيراداً ، فإن حاج مراد اعتمد على دعم شرف أسرته بمنصب قائمقامية السهل . حاول بالنتيجة أن يطلق الرصاص على نفسه بحضور الباشا الذي كان خائفاً ووجلاً ومتأثراً من خطر الزمن وخديعته ومن الحزن والألم الذي أحاط بأسرة ابنه . كان الباشا يعتبر حاج مراد الشخص الأمين الوحيد الذي يثق به لإشغال منصب مهم مثل الكخيا الكبير ، ولكن لا يستطيع أن يرفض طلب سيدي يوسف بتوليه قائمقامية السهل للنابلطاني ذي الحظوة عنده .

لا يزال سيدي يوسف تحت الإنذار يحيط به حرسه ، بالإضافة إلى حاشيته التي يرقبها بدقة فإنه مدجج بالسلاح حتى في أوقات نومه في أي جزء من النهار ، وأن حديقة القصر مقفلة الأبواب ولا يستطيع أي فرد الدخول فيها أو الخروج منها بدون إذن منه .

عندما جاء سيدي يوسف آخر مرة إلى القلعة طلب الباشا من سيدي أحمد ، ولو أنه البك ، أن يذهب إلى السقيفة لمقابلته : لم تقدم تضحية من البك مثل هذه حتى إلى أمراء مراكش عندما يقدمون إلى القلعة . أرسلت رسالة أخرى

---

(١) تعزف الموسيقى في مناسبات عديدة منها تنصيب البك والكخيا ورئيس البحرية وحاكم الميناء وما عدا ذلك فانها تعزف للباشا فقط . ولا تعزف الفرقة الا للبك عندما يذهب مع جنوده الى حملة تأديبية ويخرج الى معسكر .

إلى اللالة حلومة لتقابل سيدي يوسف في حجرتها وتقابله دون أية إشارة إلى الحزن والألم . وأرسلت أوامر مماثلة إلى كل الأميرات وأطفالهن ، ما عدا أرملة البك التي استثنيت من هذا الأمر .

كان مع بطانة سيدي يوسف شخص سيء الخلق جداً : مرابط مشهور أو بالأحرى غير مشهور اسمه (فطيس) الذي يدعي بأنه فاطمي (١) النسب لينال مزيداً من التقدير والإحترام يقال الآن إن هذا الشقي هو الذي حرض سيدي يوسف على اغتيال البك (٢) .

٢ سبتمبر ١٧٩٠

سيدي يوسف يزداد طيشا وتهورا .

لا يزال سيدي يوسف يبتعد عن المدينة بالرغم من أن الباشا يرسل إليه الرسائل المتكررة للمجيء والإقامة في القلعة فلا يشعر الباشا مطلقاً بالراحة ببقائه خارجها وبما يقوم به من نشاط ورحلات عديدة إلى الإعراب . يقوم سيدي يوسف في الوقت الحاضر بزيارات متكررة إلى القلعة ، ولكنه يترك دائماً جنوده خارج أبواب المدينة .

منذ مقتل البك يسيء طبعه أكثر فأكثر ، فهو متهور وطائش وعنيف . ودليلاً على ذلك قدم برهاناً في المثال التالي قبل أيام قلائل : كان عند الباشا أسد كبير ونمران كبيران جداً جيء بهما من الجزائر هدايا للسلطان التركي ، وقد وضعت الحيوانات كلها في أقفاص عظيمة ومنفصلة : مصنوعة صناعة قوية من الحديد والخشب . طلب سيدي يوسف من الرقيق المالطيين (معظمهم من

---

(١) حكم الفاطميون مصر وشمال أفريقيا من ٩٠٨ ـ ١٧١ يرجع نسبهم الى ابي محمد عبد الله الذي ينتسب الى فاطمة ابنة الرسول عليه السلام .

(٢) يعتقد (فيرود) بان الباشا نفسه مشترك في اغتيال ابنه الاكبر (الحوليات الطرابلسية) .

الشيوخ العاجزين المقعدين) أن يحملوا كل قفص في حديقة الباشا على أكتافهم وقد تم له ما أراد بتعريض حياة أولئك الذين حملوا الحيوانات إلى خطر حقيقي ، من أجل أن لا يتجشم سيدي يوسف عناء مسيرة قصيرة إلى المدينة .

١٨ أكتوبر ١٧٩٠

اختلاف الاخوين • التقاليد البربرية في حلف اليمين• محاولة سيدي يوسف تدبير حملة ضد المصراتيين • الباشا يصدر أمره بالبدء بالحملة

منذ رسالتي الأخيرة استمر سيدي يوسف بزيارة القلعة مرات عديدة . كان البك الحالي على خلاف مع سيدي يوسف فقد اقسم الإثنان قبيل اغتيال البك الراحل الإيمان المغلظة في مراقد الأولياء وذهبا سوية قبل فترة قصيرة لتجديد إيمانهما وتأكيده بكل قوة والقيام بآخر الطقوس التي يلجأ إليها الناس في هذه البلاد وذلك بخلط الدماء ومزجها . إن تنفيذ هذه العادة البربرية يوجب أن يذهب الإثنان إلى محراب النبي محمد ثم يقسمان اليمين بالقرآن بأن يحفظ أحدهما حياة الآخر محرمة ومقدسة ، بعدها يجرح كل واحد يده بسكين ويخلط دمه بدم الآخر في صحن ثم يلعقانه سوية . تقليد يدعو إلى الهلع والفزع .

كان الموكب الذي شهد هذا القسم الطقوسي عظيماً وفخماً جداً ، فقد حضر كل ضابط كبير ، وكل شخصية مرموقة ومهمة في طرابلس ، ليشهدوا الأميرين .

تقدمت فرقة الشواويش بكامل أفرادها البك ، وكان يعلن المنادي مسيرة البك كلما توغل في المدينة ، كما هي العادة المألوفة في المواكب الخاصة بالباشا والبك .

استمر الأميران ، بعد ذهابهما إلى الأولياء المرابطين ، بالظهور أمام الناس سوية ، فقصدا المدينة ليمضيا يوماً معاً في حديقة سيدي يوسف . كان يقوم على

حراسة سيدي يوسف أربعمائة من الفرسان ، بالإضافة إلى ضباطه الخاصين ، فإن القسم الأعظم من ضباط الباشا كانوا يمشون وراءه . وعندما وصل الأمير ان إلى الحديقة جلب سيدي يوسف ابنه وهو طفل صغير إلى سيدي أحمد قائلاً : « أريد أن أعبر لك عن عظيم ثقتي بك فأعهد اليك بابني ، خذه رهينة ، فإن طفولته البريئة تجعل من المستحيل عليه أن يستنكر أو يشمئز من أي عمل ، وأسألك بالمقابل أن تثق بي فتعهد لي بابنتك وليس بابنك ، لتكون مسرةً تؤنس زوجتي في وحدتها » .

كانت ابنة سيدي أحمد طفلة صغيرة حلوة جميلة تبلغ من العمر حوالي خمس سنوات ولا يوافق على بقائها أياماً عديدة في حديقة سيدي يوسف ، وأكتفى بمبيتها ليلة واحدة بعد أن عين لها بعض الضباط لحراستها ،وخاصة اثنين من الذين يوليهم سيدي أحمد أعظم ثقته هما : أخ حامل السيف وبربري آخر ، اللذين ظلا في حراستها الخاصة حتى جيء بها إلى القلعة في اليوم الثاني .

استمرت أسرة الباشا على روابط الوئام والصداقة مع سيدي يوسف لعدة أسابيع ، حتى أعلن عن نيته بالذهاب إلى قائمقامية مصراته ، بعد أن أرسل ألمصراتيون رسائل عديدة إلى سيدي أحمد (البك) تعلمه بعدم رغبتهم لاستقبال أخيه مهما تكن الظروف ، بسبب الإهانات والإعتداءات التي ارتكبها أفراد حاشيته ضد المحرمات والمقدسات ، في آخر مرة جاء إلى مصراته ، ولكنهم يرحبون بكل سرور بأي قائد آخر يمكن أن يعين لهم .

بعد مناقشات ومجادلات دامت عدة أسابيع في القلعة ، رفض البك الموافقة على سفر أخيه إلى مصراته . عندئذ قرر سيدي يوسف على أن يرسل حاشيته للتفاوض معهم . إلا أن البك كان يعرف الأخطار التي تحيط بهذه الخطوة ، يقنع المصراتيون الأعراب المجاورين ليثأروا من مثل هذا التدبير الجائر من جانب الباشا ، فتدخل ثانية ، ومنع قاتل المصراتيين وسافك دمائهم ، وربما قام بذلك التدبير ليحول دون فقدان عرشه .

لم يمض وقت طويل على ذلك حتى حصل سيدي يوسف على موافقة الباشا

بإرسال جيش قوي بقيادة البك وبذهابه معهم يساندهم الأعراب المرتزقة الذين يدفع لها الباشا الأموال وخروجهم بحملة تأديبية ضد المصراتيين. رفض سيدي أحمد الأمر، وبعث شيخ سيف النصر رئيس إحدى القبائل العربية العظيمة، المنيعة الجانب، القوية الشكيمة، برسالة إلى الباشا يعلمه فيها بعدم رغبته لرؤية المصراتيين يعاملون معاملة قاسية، وأنذره فيما إذا أقدم على إرسال قوات ضدهم فإنه سيضطر لشن هجوم ضد الأميرين؛ وأنه سيدعم دعوة المدعي بعرش طرابلس مصطفى ويستدعيه من تونس (الذي ذكرت لك تاريخه في رسالة سابقة) أو يستدعي أحد البيكات من مصر ليوليه العرش.

لا يزال يؤكد سيدي يوسف عزمه على الذهاب إلى قائمقاميته، وقد أبدى الباشا نفس الرغبة أيضاً بضرورة ذهابه؛ إلا أن المصراتيين أرسلوا أحد رؤسائهم إلى البك ليعلمه بعدم موافقتهم على تعيين ذلك الرجل الذي سلب منهم ثرواتهم، وأباح لحاشيته أن تتجاسر على حرمات نسائهم وأخواتهم وبناتهم، ذلك الشخص الذي اغتال أخاه، ولكنهم يرحبون كل الترحيب بمقدمه شخصياً وإنهم يفتحون أبواب منازلهم ليلاً ونهاراً لاستقباله أما إذا اختار لهم سيدي يوسف أن يوليه قائداً عليهم، فهم أدرى بما عساهم يصنعون معه. واختتم المصراتيون رسالتهم بالقول، فإذا وافق البك على مقترحاتهم؛ فإنهم سيعدون عدداً كافياً من الإعراب؛ ليضعونه سالماً وآمناً على عرش طرابلس.

لم تكن الخيانة حقاً من شيمة وخلق سيدي أحمد؛ ولم يبد منه موقفاً خيانياً واحداً ولهذا فإنه لم يوافق على الطريقة السهلة التي تقدم بها المصراتيون لاعتلاء العرش بإراقة دماء أقربائه.

أعلن الباشا غضبه من عدم ذهاب الأمير وطاعته لأمره؛ ونتيجة لتأكيد الباشا واصراره بعدد من الرسائل التي بعث بها إلى البك، فأرسل البك أخيراً يطلب الوزير الأول، فرجاه بالذهاب إلى الباشا وإعلامه بقراره بعدم صحبة أخيه في الحملة ضد المصراتيين، وأن حاشيته تسنده في ذلك، وأنه لا يود أن يقودهم ويضحي بهم في مهمة غير عادلة. قال إذا كانت حياته لا بد وأن

تهدر في الأحداث الأخيرة ، فإنه يفضل أن يقع صريعاً وحده دون أن تكون حياة شعبه مسؤولة عنها .

كان الوزير الأول خائفاً من حمل تلك الرسالة إلى الباشا . وذكر سيدي أحمد بأن أخاه المرحوم فقد حياته نتيجة لكلام أقل من هذا بكثير .

تألم سيدي أحمد من رفض الوزير الأول (الكاتب) حمل الرسالة وأخبره ، بأنه إذا كان يهدف من الإشارة إلى اغتيال البك وتذكيره بذلك الحادث المؤلم تهديده وتخويفه وحصول الموافقة على تلك التدابير رهبة فإنه مخطيء في التقدير . قال : « كان أخي بعيداً عن حرسه . أما أنا فلست كذلك – اسمع مني أيها الكاتب ، إذا كنت تعرف أية يد سرية مصوبة ضد حياتي ، فأنصحه أن يكون حذراً ومتيقظاً فإن حاشيتي ، كما أخبرتك ، كلها موالية لي ، فلا يوجد واحد منهم من يبخل بقطرة من دمه يمكن أن تؤدي خدمة لي . قسماً « برأس أبوي » (يقسم برأس أبيه) آمرك أن تذهب وتسلم رسالتي فوراً له وتجلب الجواب منه » .

حمل الكاتب ، ضد رغبته ، رسالة سيدي أحمد إلى الباشا ، وعاد بعد زمن قصير بالجواب : « ان الباشا يفكر ملياً في الأمر ، ولكن يجب أن يرى البك وسيدي يوسف في استقباله الرسمي بعد الظهر » .

كان حاج أحمد ، حارس البك السري مع سيده ، خلال هذه المقابلة مع الكاتب . وبعد أن انتهت المقابلة ترك حاج أحمد الأمير لتنفيذ بعض الأوامر التي تسلمها ، وعاد إلى القلعة بقلق عظيم على حالة سيدي أحمد ، التي قد يتوقف عليها مصيره الخاص ، ومصير أسرته وأطفاله كما هي التقاليد المألوفة بمصير أولئك الذين هم حظوة لدى الأمراء البربر .

وبدلاً من أن يشهد حاج أحمد البك عائداً من الأستقبال الرسمي وحده كما كان يتوقع وجده مع الباشا وسيدي يوسف وقد بدا عليهما الإنفعال والهياج والغضب . كان أفراد حاشية الباشا وكذلك أفراد حاشيتي الأميرين مسلحين في القلعة وبدون أوامر صادرة اليهم ولم يلاحظ أحد تلك الحادثة (ولو أنها ضد

قواعد القلعة) سواء كان من قبل الباشا أو أحد الأميرين . بدا وكأن كل واحد منهم موافق على أن يكون أفراد حاشيته على أهبة الإستعداد وضع حاج أحمد نفسه مقابل البك ، بعد أن كان مضطراً لأن يغادر حالا ، متمنياً أن يحصل على نظرة أو إشارة منه للقيام بالمزيد من التوجيهات في حالة خروجه مع القوات : ولكن خاب رجاؤه في ذلك ، حتى طلب سيدي أحمد أن يشد حزامه ، وبينما كان حاج أحمد يقوم بذلك ، أخبره البك بأنه لم تتم تسوية أي خلاف ، ما عدا قراره وعزمه على عدم قيادة الجيوش إلى مصراته ، ولكن حياته في الوقت الحاضر في كف القدر وعلى ميزان يزن حبة شعير أو ذرة (١) .

رغب حاج أحمد في البقاء بالقلعة ومراقبة الأحداث حتى الصباح ، معلناً بأنه يجب عدم التوقف في الحرم والعودة إلى الغرفة والبقاء هناك طوال الليل .

نتيجة لهذه الأحداث كانت المدينة تغرق ثانية في حالة من الذعر والقلق الليل كله وكان مصطفى شريفي (الكاتب) وشيخ البلد الكخيا مضطربين قلقين : وكنا متأسفين جداً من أجل اللالة عواشة ، الإبنة الثانية للباشا ، أعظم الأميرات ظرفاً وودا ، فقد ظهر بكل وضوح من حديث الكاتب بأن حياة زوجها ، رئيس الميناء ، في مأمن من الخطر في داخل أسوار القلعة فقط ، إلا أن حياته كانت هدفاً للكاتب أو الباشا .

وفي صباح اليوم الثاني أمر الباشا بتأجيل إرسال القوات . قبل بضعة أيام من هذه الحادثة ، وقبل أربعة أيام من عيد رمضان ، تنبأ المرابط العظيم الذي يخدم سيدي يوسف في القلعة ، بحضور موظفي البلاط ، بأن أحد أصدقاء البك المتوفى سيجعل اليوم الأول من رمضان يوم ثأر لموته . إن هذه النبوءة أحدثت شيئاً من الرعب غير قليل حتى انتهى اليوم الأول من العيد .

سأحاول القيام بزيارة اللالة حلومة ، إذا بقي الأميران هادئين ، فلم يكن بالإمكان من الوجهة العملية للنصارى القيام بزيارتها منذ اغتيال البك .

---

(١) يستعمل ميزان شعير ـ ذرة ـ من قبل البربر لوزن الالماس والمقصود هنا دقة الموقف وحراجته .

٢٥ أكتوبر ١٧٩٠

زيارة سيدة بربرية الى قبر زوجها • الحالة النفسية المسيطرة على اللالة حلومة • اللالة عائشة زوجة البك الراحل •

تجد في الرواية التالية وصفاً لزيارة أميرة بربرية واسرتها إلى قبر زوجها . لقد تم دفن جثمان البك في المقبرة الملكية في المسجد الكبير ، الذي وصفته لك في رسائلي السابقة. خرجت أرملة البك من القلعة أمس ، بناء على التقاليد السائدة هنا للزيارة الدورية لقبور الموتى في مواعيد معينة ، قبيل غروب الشمس . كان الحرس الخاص بالباشا مصطفاً على طول الطريق من القلعة إلى المسجد وعدد من ضباط سيدي أحمد . وكان عدد كبير من ضباط البك على مرأى منهم ، ولكن لم يجرؤوا على الإقتراب خوفاً من أن تقع عيون أفراد حاشية سيدي يوسف عليهم ، وبذلك يثيرون غضبه بالتظاهر علناً بعطفهم على أرملة البك .

كان قبر البك مفروشاً سلفاً بالزهور اليانعة النضرة للمرة الثانية في ذلك اليوم . باقات كبيرة من أجمل زهور الموسم مطروحة على القبر . وعلق الياسمين العربي على سعف النخيل وشد في حبال مزينة بالكراكيش حول القبر ، وأنيرت المصابيح الإضافية حوله ، وفيض من المياه العطرة مرشوشة على أرض القبر ، قبل أن تدخل اللالة عائشة إلى المسجد .

ولم تغب ابنتها الكبرى ، زنوبيا الجميلة عن هذه الطقوس المخيفة المحزنة ، فقد رافقت أمها الحزينة ، ولو أن هذه الأميرة كانت مريضة من شدة الصدمة العنيفة التي سببها اغتيال ابيها ، حتى ظن الناس أنها لا تقوى على تحمل المصيبة .

ماذا عساها تحمل في مناسبة كهذه من أفكار إلى قبر أبيها ! إلا أن تقاليد البربر دفعتهم إلى اليأس وخيبة الرجاء ، فبدلا من محاولة تخفيف وطأة الحزن والألم ، فهم أوفياء مخلصون في البحث عن أحزان وفجائع جديدة ، في كل ساعة ، ليعمقوا سوء طالعهم . كانت ابنة اللالة عائشة الصغرى ، التي لم تبلغ ست سنوات من عمرها تشهد أيضاً ذلك المنظر الأليم المحزن ، وعندما رأت

هذه الطفلة أمها تنتحب وتبكي على قبر أبيها ، أمسكت بجردها وصاحت بأعلى صوتها تطلب منها أن تدعه يخرج من رمسه ، ترفض أن تفك جرد أمها أو أن تبتعد عن القبر (كانت متعلقة بها في نفس اللحظة) حتى ترى البك ثانية !

كانت اللالة عائشة البائسة ، التي جاءت تخطر بأذيال الكآبة والحزن العميق ، قد تأثرت ، بصورة طبيعية ، بهذا المنظر من الفزع الرهيب الذي لا جدوى فيه ، زاده عمقاً وشدة الزعيق والصراخ العالي الذي أطلقته حناجر حراسها وخدمها (الذين حضروا ليقدموا لها تعازيهم شخصياً واحترامهم وتقديرهم للبك الراحل) فأغمي عليها ، وحملت فاقدة الوعي وأعيدت إلى القلعة في أيدي نسائها .

بالرغم من رفض البك قيادة القوات ضد أهالي مصراته ، ومن عدم اتخاذ تدابير مناسبة لمصالحة هؤلاء الناس . فإنه يخشى أن يكون ذهابه على رأس القوات أمراً حتمياً . كان شيخ سيف النصر أعظم رؤساء القبائل العربية قوة يقف مع المصراتيين ويعضد قضيتهم ، بينما الشيخ خليفة مأجور من قبل الباشا . وقد وعد خليفة أن يقف في صف الأميرين ولكن الحاشية تشك به وترتاب منه ، ويعتقدون بأنهم إذا ما خرجوا في حملتهم التأديبية فإنه سيغدر بهم ويلتحق بصفوف المصراتيين وسيف النصر .

تمت كافة الإستعدادات لشن حملة تأديبية عظيمة في غضون اليومين أو الثلاثة الأخيرة ، تتألف من قوات وافق البك أخيراً على تولي قيادتها عن أن يذهب سيدي يوسف معه ويكون تحت امرته قائداً ثانياً .

ذهب أمس إلى القلعة ، وغادرنا كالمعتاد ، مع بعض السادة الذين رافقونا ، حتى السجن الذي يحجز به الرقيق من النصارى .

لقد ذكرت لك في رسائلي السابقة وجود عدد قليل من الرقيق النصارى ، ومعظمهم من المالطيين ، والبعض شيوخ عاجزين ومقعدين ، ولكن ما دمنا مضطرين للمرور بالسجن الذي هم فيه دائماً ، فمن التلطيف والتهدئة لمشاعرنا التي نكنها نحوهم . أن نراهم مرتاحين حسني الهندام ، ليست أيديهم مقيدة

بالسلاسل والأغلال : كما يقيد الأسرى في معظم البلدان الأخرى فهم في هذه المدينة يتمتعون بكامل حريتهم .

وجدنا بالقرب من السجن المخاصي ينتظرون ، أولئك الذين رافقونا بالمصابيح خلال الممرات إلى الحرم . كانت اللالة حلومة واقفة على باب حجرتها وكانت تتكيء على ذراع فاطمة الأميرة الثالثة : وأرملة البك قائمقام درنة ، وقد وقفت إحدى الجواري السوداوات قريبة منها على الجانب الآخر منها ، مع منديل جديد من الحرير موضوع على كتفها : وعليه وضعت اللالة حلومة رأسها .

لا بد من أن أذكر لك بأن اللالة حلومة لم تجلس مطلقاً (ما عدا كونها مريضة) عندما أقتربنا منها أولاً : لأن وقارها وهيبتها لا تسمحان لها بالنهوض لاستقبال أولئك اللواتي يزرنها ولأن لطفها وأدبها الجم يجعلانها تتحاشى ، بقدر الإمكان ، هذا الإمتياز ، وتقبل التحية وفق الآداب المرعية في بلادها ، التي لا يمكن الإستغناء عنها ، وتترك جانباً كل الطقوس الأخرى .

بعد أن قبلت السيدات المتزوجات رأسها ؛ وقبلت السيدات الباقيات يدها ، كما هي العادة المتبعة في هذه البلاد . طلبت إلى سيداتها أن يأخذن بأيدينا إلى اللالة عائشة ، أرملة البك ، قائلة بأنها ستلحق بنا في الحال .

وجدنا اللالة عائشة كما توقعنا ، حزينة جداً ، ووفقاً لتقاليد الشرق ، فإن ما عليها من ثياب تتحدث عن حالتها النفسية والعقلية ، فقدت كل رونقها وبهائها وألقها فأزالت منها كل لمعان وبريق قبل أن تلبسها . ولم تضع الأقراط في أذنيها ، ولا أساور في معصميها ، ولا الخلخال في رسغي قدميها ولم تزين نفسها بالحلى والمجوهرات ؛ ما عدا الخيط الذي يحمل الطلاسم والأحجبة المعلقة حول رقبتها .

وفي اللحظة التي رأتنا انفجرت بالنحيب والبكاء وانهمرت الدموع من عينيها ، وحاولت إحدى الجواري السوداوات أن تصرخ بأعلى صوتها ، ولكن سرعان ما سيطرت اللالة عائشة على عاطفتها ومنعتها من العويل ، لأن عويلاً

مثل ذلك يضع الحرم كله في حالة من القلق والإضطراب ، ويخيف اللالة حلومة من تجديد آلامها وأحزانها. كانت ابنتا اللالة عائشة معها ، الكبرى اللالة زنوبيا فيها شبه كبير من البك المتوفى السيء الحظ ، بحيث يصبح من المحزن حقاً النظر إليها . لقد فقدت كل خفة روحها وحركتها ، فاستحالت إلى صورة جامدة ثابتة من الكآبة والحزن ، يزينها جمالها البارع فأصبح النظر إليها أكثر متعة ولذة .

بعد دخولنا الحجرة مباشرة جاءت الجواري السوداوات ليعلنَّ بأن اللالة حلومة في الأروقة المجاورة قدمت لزيارة اللالة عائشة . فنهضت أرملة البك وأسرعت لتستقبلها فطلبت أولا من جواريها السوداوات أن يعتمن الحجرة لأن (كما كانت تخبرنا) اللالة حلومة لا تتحمل النور منذ اغتيال البك .

ولأجل توسيع آفاق معرفتك واطلاعك على الحالة النفسية والعقلية التي فيها اللالة حلومة ، قبل أن أتحدث بالمزيد عنها وعن الآداب الغربية في هذه المدينة ، لا بد من أن أطلعك على بعض الظروف التي أخبرتنا بها اللالة عائشة منذ برهة من الزمن .

كانت اللالة عائشة خلال حياة البك (لقربها من العرش) غيورة جداً وحساسة جداً بكرامتها وعزة نفسها في القلعة وفي بعض الأحيان كانت تظن بأن الأميرات لا يظهرن لها الرعاية والإكرام اللائقين بها ، حتى خلق ذلك الشعور درجة طفيفة من العلاقات الباردة بينها وبين أفراد الأسرة ، ولكن لطف اللالة حلومة وكرم خلقها لها منذ وفاة البك وأحزانها المتبادلة ، جعلت السيدات الحزينات من الأسرة المالكة صديقات وفيات لبعضهن البعض . إلا أن أحزان اللالة حلومة وآلامها أكثر عمقاً ، وأعظم وطأة ، نتيجة للأثر العميق السيء الذي خلفته آخر الكلمات التي نطق بها البك قبل أن تغادر روحه الحياة جعلتها (تشك بأنها خائنة وغدرت به) وتركت إنطباعاً في مشاعرها، أحال حياتها إلى قنوط ويأس شديدين .

من الخرافات التي تسيطر على أذهان الناس في هذه البلاد الأحلام . فقد

فكرت اللالة عائشة بوسيلة برهنت عن معرفتها بالقلب البشري ؛ وعلى حبّها العميق للالّة حلومة وعلى مهارة إبداعها ، فاستطاعت بتفسير ذلك الحلم أن تنقذ اللالة حلومة من الآلام المبرحة والأحزان الممضة ، التي كانت تهددها بفقدان حياتها أوشعورها . بعثت اللالة عائشة برسالة في صباح يوم من الأيام لتنقذ حياتها(قبل يوم الجمعة الثانية بعد موت البك)ترجو اللالة حلومة أن تحظى بمقابلة خاصة ، تلتمسها بوجوب التحدث إليها مباشرة ولوحدها وعلى انفراد . وعندما تم لقاء الإثنين أخبرتها اللالة عائشة بوصفها أرملة البك القتيل : جاءت إليها تتضرع ، وتتوسل قائلة بأن تراكم المزيد من الأحزان عليها يؤدي حتماً إلى زيادة عذاب روح سيدها الراحل . إلا أن تلك الكلمات المؤثرة زادتها ألماً وحزناً ، وسألتها في ألم شديد جداً أن تفسر ما قالت ؛ أجابت اللالة عائشة قائلة بأنها رأت البك في الليلة الماضية ، يقول إنه لا يأمل في الصعود إلى الملك الأعلى في يوم الجمعة القادمة ، إذا لم تهدأ روحه ، ويخلد عقله إلى السكينة ، التي أصبح الوصول إليها مستحيلا إذا ظل بكاء أمه ونواحها مستمراً يلاحقه حتى وراء القبر ، وتعنفه بحق على ما تفوه به في اللحظات الأخيرة ، مثلا ، ظنه سوءاً بخيانة أمه وغدرها ؛ وبما أنه خارج عالم الدنيا فإنه قد رأى الحقيقة ، وأنه كان يتجول بين قبور أجداده ، حزيناً وكئيباً كما تتجول اللالة حلومة بين أسوار القلعة ، تجدد أحزانه بنفس الإسلوب الذي تجدد به أحزانها في كل لحظة ، وأنه قد سمح له بأن يرسل لوالديه العزيزين هذه الرسالة الوحيدة فقط من القبر ، التي جاء فيها: « يجب أن يتمتعا بكل النعم والبركات لروح سعيدة فارقت الحياة في اللحظة التي استعادت بها هدوءها وسكينتها » ويعتقد بأن حبه وعواطفه لأمه كما كانت من قبل خلال أيام حياته .

كان لهذا التدبير العاطفي الماهر الذي قامت به اللالة عائشة تأثيراً حسناً جداً . ولو أنها لم تستطع أن تخمد جميع أحزان اللالة حلومة ، لكنها أصبحت أكثر وعياً ، تأكل القليل من الطعام الذي انقطعت عنه من ذي قبل .

لنعد إلى الموضوع الذي بدأت به هذا الشطط . دخلت اللالة عائشة واللالة فاطمة إلى الغرفة مع اللالة حلومة وقادتها إلى الأريكة . وحالما استقر بها المقام ركع أطفال اللالة عائشة ليقبلوا يدها . فقدمت لهم اليد التي جرحت عندما اغتيل البك ، تلك اليد التي لا زالت مشدودة ومعلقة بحمالة لهذا الغرض . لقد تمزقت يدها شر تمزيق ، ولكن أصبعها لم ينله أذى ؛ لأن شظايا المسدس اصطدمت بخاتمها . ان التقاليد المرعية في هذه البلاد تقضي بأن يطيل الناس في بعث الذكريات المؤلمة المشؤومة ؛ مما جعل اللالة حلومة أن تذكر العديد من الحالات مع فروع الأسرة المالكة الذين أعدموا ظلماً وجوراً ، وكان من بين هؤلاء الجريمة النكراء ، أعظمها بشاعة وفظاعة ، التي ذهب ضحيتها عم الباشا محمد المتوفى ووالد الباشا الحاضر محمد باشا الذي طال انتظاره للفرصة السانحة التي يعدم بها عمه ، فأرسل طبيبه إلى الأمير ، الذي وقع جريحاً ، بلزقة مسمومة ، طلب إلى الطبيب أن يضعها على الجرح ويبقى منتظراً ساعة ونصف وفي ذلك الوقت يكون مفعول السم قد انتشر في الجسم فيتوفى الضحية البائسة في حالة يرثى لها من الألم والحزن خلال أيام قليلة .

طلبت اللالة فاطمة واللالة عواشة ، اللتان وصلتا إلى الحجرة بعد اللالة حلومة أن تقودنا إلى الحجرة التي اغتيل بها البك . بدا هذا الفضل علينا مخيفاً ومرعباً ، فلم نستطع رفض الدعوة بالذهاب ، خوفاً من الإساءة إليها . وجدنا المشهد غريباً ومفزعاً ورهيباً . فعلى الجدران من خارج الحجرة رميت جرارة من السخام والماء والرماد وأبقيت الحجرة مقفلة ، وستبقى في هذه الحالة ، ما عدا أنها تفتح لأصدقاء البك للتفرج عليها .

ظل كل شيء فيها كما كان من قبل ، عندما استقبلت اللالة حلومة البك لعقد الصلح مع أخيه ، وما كان مرعباً ومخيفاً ، فإنه يحمل كل الإشارات والأدلة على نهاية البك المحزنة البائسة . ولم يجرؤ أحد على رفع أي شيء منذ موت البك . كأن كل شيء احتوته الحجرة قد دمرته اللالة حلومة ؛ ليهلك مع البك ،

كما قالت : ويفنى مثله في الظلام .

كان للبك عدد من الخيول التي لم يركب ظهورها شخص آخر غيره ، وكان من بينها حصان رشيق وجميل جداً أبيض اللون أغر . وفي غضون مسيرة موكب تشييع جثمان البك حيث كان الحزن والأسى مخيمين على الناس ، أوجد ذلك الحصان تناقضاً مؤلماً . فكان آخر شيء ظهر وسط هذا المشهد الرهيب ، وضعت عليه كسوة فخمة ، كما لو كان معداً لركوب سيده المتوفى ؛ ولكن سرعان ما زال ألقه ، وتلاشى بريق مظهره ؛ فقد لطخ أولئك الناس الحزانى على اغتيال البك ، الحصان بدمائهم وبالرماد والسخام واقتيد مغطى بذكريات موحشة لمصير سيده : لأنه كان حصانه المفضل .

كان البك معتاداً عندما يرجع من النزهة فارساً يركب أولاده الصغار (الذين ماتوا في الطاعون) على هذا الحصان ، بينما يقوده العبيد حول وسط الحوش .

رجعنا مع الأميرات إلى حجرة اللالة عائشة . فأبدت اللالة حلومة أسفها على الحالة الحاضرة للقلعة ، فقد تغيرت كلياً عما كانت عليه منذ بضع سنوات . حين كانت المسالك والدروب اليها مفتوحة وواضحة ، وكان كل وجه لا تعلوه الشكوك والريب ، أما الآن فإن الممرات من الحرم إلى حجرات سيدي يوسف مقفلة من جانبه ، وقد أسر سيدي أحمد ، حذراً وتيقظاً من أخيه على اللالة حلومة أن تأمرهم بربط الأبواب ربطاً محكماً من جهته : ونقول ، ان كل مكان مراقب ومحروس حراسة دقيقة في القلعة ؛ حيث تسيطر عليها حالة سجن رهيب لا غير .

لم نقابل واحداً من الأمراء في هذه الزيارة . قدمت لنا المرطبات بوفرة وبفخامة ، ولكن لم نمس منها شيئاً . وغادرنا القلعة في وقت متأخر بقدر ما استطعنا حتى قبيل غروب الشمس .

٣٠ أكتوبر ١٧٩٠

مخيم البك • الشيخ خليفة يساوم • المرابي يشق طريقه الى الامير •

خرجنا للنزهة على ظهور الخيل أمس لنرى المعسكر ، الذي أقيم أخيراً للبك وسيدي يوسف ؛ أقيمت الخيام على شكل زاوية تقريباً . وكانت تقوم في وسط المعسكر خيمتان كبيرتان فخمتان بارزتان بروزاً واضحاً ، تتصل إحداهما بالأخرى ، نصبتا لاستراحة البك ؛ بعد أن نزلنا من ظهور خيولنا دخلنا فيها فاستقبلنا البك مرحباً بكل لطف ، فأخبرنا بأن جماعة الشيخ خليفة التي يصل عددها إلى أربعمائة رجل محارب ، من المنتظر أن تنضم إلى المعسكر في أية لحظة، بقيادة ابن الشيخ خليفة، وأن عدداً كبيراً من القراغلة وهي قبيلة عربية أخرى ، المفروض فيها أن تقدم من الصحارى غداً صباحاً لتلتحق بنا في هذه الحملة ... أخبرنا بأنه كان مضطراً لأن يقدم لكل منهم طربوشاً وجرداً وقميصاً، وزوجاً من الأحذية ، حالما يصلون ، وأن يجهز الرؤساء والشيوخ العرب بكمية من المال في عملات صغيرة ؛ كانت في تلك الآونة مبلغاً معيناً ومحدوداً منذ سنين مضت ، فوصلت إلى محبوب (سبعة شلنات وستة بنسات) ، وحتى هذا المبلغ لا بد وأن يدفع بالبياستر الصغيرة ؛ الذي ازداد عشر مرات بسبب الأزمة في قيمة العملة .

عبر سيدي أحمد عن استنكاره لذهاب القوات ضد المصراتيين ؛ وأبدى أسفه لعدم تسوية الخلاف قبل إن يصل مرحلته الحاضرة من السخط والتذمر ، واختتم كلامه بقوله أن عدد القوات العسكرية هائل وكبير لأن يكم أفواههم بقليل جداً من المتاعب .

كانت خيمة سيدي أحمد الأولى من الداخل مخططة بالحرير الأزرق الخفيف والقمة بالحرير الأطلس القرمزي اللون ، المطرز بأزهار من الذهب والفضة ، أما الخيمة الداخلية التي أقيمت لنومه ، فكانت أكثر بساطة من الأولى ، ويتألف

داخلها من الحرير الأبيض والأزرق ، وقد وضعت الرايات وعصا فضية تحمل ذيلاً واحداً . وعلى أمام الخيمة وضع المدفع وكانت الفرقة الموسيقية تعزف كل يوم بنفس الساعة التي تعزف في القلعة . وعندما دخلنا الخيمة غادرها ولم تتميز خيمة سيدي يوسف عن خيام الناس الآخرين ، ما عدا كونها جديدة ونصبت أمامها مظلة .

ذهبنا صباح هذا اليوم إلى القلعة لمشاهدة سفر الأميرين ، فكان موكب الضباط يشبه في كل شيء الموكب الذي سبق وأن وصفته لك . وسوف لا أزعجك ثانية ولكني سأطلعك على الظروف التي رافقته حين توغلت الجيوش إلى مسافات بعيدة ، شاهدنا سيدي يوسف يرجع بسرعة هائلة إلى الإعراب ، الذين لم يتحركوا مع شيخهم من أسوار المدينة . بدأ سيدي يوسف هائجاً وغضوباً جداً ، وبعد أن تحدث برهة من الزمن ، أرسل الشاويش أو السكرتير العسكري الخاص للبك . أصبح معلوماً في تلك الأثناء بأن أولئك الإعراب لم يتسلموا بعد كل ما سبق أن طلبوه مقدماً من الباشا ، وأن الأمر لا يثير الغضب والهياج ، فبعث سيدي يوسف إلى البك طالباً موافقته لإطلاق النار عليهم ، ولكن المراسل عاد مزوداً بأوامر مناقضة وقال البك إنه اتفق معهم بضرورة الحركة والإنضمام في المساء .

حاول الشيخ خليفة حين تحركت الجيوش كلها ، وقبل أن يضطر أفراد قبيلته للحركة أن يغتنم قبل تلك الظروف الصعبة ، ويساوم في فرض مطالبه للحصول على المال نقداً وعداً ،وهي مطالب فادحة يصعب على الباشا تحقيقها . فكان الباشا مضطراً لحمله على الإنضمام بالقوات العسكرية بأي ثمن كان ، فكان تحت تأثير ضرورة الخضوع إلى أكثر التضحيات غير المعقولة عن طيب خاطر ، مدفوعاً بالخوف من أنه إذا لم يقنع الشيخ خليفة ، فإنه سينضم إلى الشيخ سيف النصر الذي يقف محارباً في صفوف المصراتيين ، وبذلك يقلب ميزان القوى ضد طرابلس .

وبناء على انقسامهم إلى جماعات مختلفة ، بعضها مؤيدة للحكومة والأخرى

معارضة لها في الوقت الحاضر ، فإن أكثر الظروف تفاهة سببت ظهور أكثر المخاوف خطراً . بينما كان القناصل قد استأذنوا بالخروج من البك صباح هذا اليوم قبل أن يغادر القلعة ، شق أعرابي طريقه إلى الأمير ، فجثا على ركبتيه فاختطف يده كما لو كان يود تقبيلها ، إلا أن اندفاعه المفاجىء بهذا الأسلوب وإهمال حاشيته بالسماح إلى أعرابي عادي للإقتراب من الأمير من دون ملاحظة ولا رقابة ، سبب إثارة عجب وغضب سيدي أحمد ، مما دفع حامل السيف وغيره من الضباط أن يهموا بالفتك به ؛ فأمسكوا بالرجل فوراً ودفعوه بعنف كبير من واحد إلى آخر فأزاحوه من الطريق ، حتى بدا في كل لحظة بأنه سيقذف به من الأروقة ، وبذلك فإنه سيتحطم ويتهشم ، فانقطعت أنفاس الأعرابي من الخوف والرهبة والمضايقة ؛ فوقع فاقد الوعي حتى ظن بأنه لفظ أنفاسه الأخيرة .

١٠ نوفمبر ١٧٩٠

القتال بين المصراتيين وجيش البك ٠ محاولة ميزيلترب الغدر بزوجة البك ٠ صدر امر بمنعها من السفر ٠ توسط امها ٠

وصلت رسائل من الأميرين إلى الباشا ، جيء برسائل البك إلى المدينة في الصباح إلا أن رسائل سيدي يوسف لم تصل في مساء اليوم . وكان الكاتب والكخيا وشيخ البلد ينتظرون عبثاً سماع مضامين رسائل البك ، كان الباشا مذعوراً ، فقال بأنه لا يباشر عملا ولا يفض أية رسالة حتى تصل رسائل سيدي يوسف ، التي وصلت في صباح اليوم الثاني . كانت الأنباء مشجعة ولطيفة ؛ وخلصت الناس من البلبلة والإرتباك الذي طال عدة أيام .

هاجم المصراتيون الأميرين بأعداد كبيرة على هذه الجهة من مصراته . لم يتخل خليفة عن قضية الباشا كما كان من المتوقع . قاتل ضد أعراب سيف النصر وقتل ابنه ، الذي جلب رأسه إلى المدينة ليوضع على أسوار المدينة .

ألحق الأعراب والأميران بالمصراتيين خسائر فادحة واضطروهم إلى التراجع إلى الوراء حتى مدينة مصراته . أسرع الشاويش الذي جاء بأنباء الإنتصارات يسأل عن « البشارة » كما هي التقاليد المرعية (يعبر عن البشارة بإهداء كمية من المال) من الوجهاء والأشراف البربر ومن القناصل ، مكافأة لجلب مثل تلك الأنباء المفرحة . أعطى الباشا خمسين (سيكوين) (ما يعادل ثلاثين جنيهاً تقريباً) .

وصل أمر بطي رسائل البك إلى حكام الميناء يطلب إليهم إلقاء القبض على يهودية تسمى (ميزيلتوب) ، كانت مستعدة للسفر إلى مالطة ، وهي شقيقة اليهودية المشهورة التي ذكرتها لك ، المعروفة ، بلقب ملكة إيستر ، وهي ذات حظوة عظيمة لدى الباشا (١) .

حاولت (ميزيلتوب) أن تغدر باللالة حويوه زوجة البك الحالي، وتعمل لحساب سيدي حسن البك الراحل . لقد جلبت رسائل متعددة من البك إلى اللالة حويوه التي من أجلها منعتها من الحضور ، ولهذا السبب قررت اللالة حويوه أن لا تزور أحداً في القلعة لبعض الوقت ، إذا لم تصحبها إحدى بنات الباشا . راقبت (ميزيلتوب) بجهد لا يكل ولا يمل ولمدة طويلة حركات الأميرة وسكناتها ،فأخبرت سيدي حسن في إحدى الليالي بأن اللالة حويوه ستمر بعد بضع دقائق خلال ممر في القلعة يؤدي إلى حجراتها لوحدها تماماً فاغتنم البك الفرصة مستفيداً من النبأ الذي نقلته (ميزيلتوب) فأخفى نفسه في جرد وذهب فوراً ليعترض اللالة حويوه ، وهي في طريقها .

كان البك مخدوعاً بأنباء (ميزيلتوب) فكون فكرة مغلوطة عن سلوك اللالة حويوه ، ومنى نفسه بأنه سيلقى منها ترحيباً حاراً . فتبع ظل امرأة خلال الممرات والمسالك المظلمة للحرم لبعض الوقت ، لم يجرؤ أن يدنو منها خوفاً من الوقوع في الخطأ ، حتى اقتنع بنور القمر المنعكس على اللالة حويوه حين مرت من نافذة بأن الظل هو نفس اللالة ، فخاطبها وأرهبها إرهاباً عظيماً ،

(١) يزعم فيرود انها كانت محظية سيدي يوسف .

وجد نفسه خائب الرجاء يائساً من سلوكها غير المتوقع الذي افترضه مجرد كذب وخداع ؛ وزاد غضباً وحنقاً على ميزيلتوب الشريرة .

إن هذه المراسلة المرأة تشبه البقية لما يحدثنه من مزعجات في القلعة ، تصرفت من وجهات نظر مرتزقة مأجورة ؛ ومع أنها أثارت غضب اللالة حويوه إثارة خطيرة ، فإن الأمل بالحصول على مكافأة ثمينة من البك جعلها تقوم بتدبير لقاء بينهما ، لأنها تمنت أن تكون محاولات البك لإقناعها ذات جدوى مع اللالة حويوه أكثر من الرسائل التي حملتها منه .

كان من نتيجة شدة مزاج البك وعبوسه ؛ وعدم اعتقاده بمشاعرها وعواطفها الحقيقية أن اللالة حويوه الشديدة الحياء ، الخجولة ، كاد أن يغمى عليها ، وتفقد رشدها ؛ عندما أصبح الخدم على مقربة منها ، فاضطر البك على الإنسحاب خوفاً من أن يكشف الخدم أمره .

أنقذت اللالة حويوه من هذا الظرف السيء الطالع ، وعادت دون أن يشاهدها أحد إلى حجراتها ، ولكن ما كادت رجلاها تطأ أرض الحجرة حتى رمت بنفسها على إحدى الأرائك فاقدة الشعور ؛ وبعد أن استعادت قوتها ، حاولت أن تهدىء روع من تحيط بها من النساء ، اللواتي كن مذهولات من الحال الذي كانت فيه ؛ فزعات قلقات على صحتها فعزت مرضها إلى الحرارة الشديدة في ذلك المساء ، وأخفت بوعي ويقظة تلك الحادثة المزعجة حذرة متيقظة ، لأن الكشف عنها سيؤدي حتماً إلى القضاء على حياة سيدي أحمد أو حياة البك ، وربما كليهما معاً .

إن هذه السيدة ظريفة ومليحة جداً ، ولكنها ليست بارعة الجمال ؛ بشرتها لطيفة وعيناها سوداوان مليئتان بالحيوية والنشاط ؛ دون غطرسة ولا عجرفة ، وبراقة وحلوة . معتدلة القامة وليست طويلة ، سلوكها يتميز بالبراءة وطهارة الذيل ، وطبعها هادىء وخلقها النعومة نفسها .

أي شيء مروع ومخيف ، بناء على ما تقتضيه تقاليد هذه البلاد ؛ أن تتعرض سيدة مثلها لخطر تدبير مكائد ودسائس الفضائح الشنيعة . ولا شك

أبداً بأن البك كان مخدوعاً تماماً بالقصة التي رويت عن هذه السيدة ، ومع ذلك فمن المؤكد أن كان ذلك اللقاء محظوظاً لكليهما ، من أجل راحة باليهما وخاصة اللالة حويوه ، لأنه كشف عن مشاعرها الحقيقية نحو أحدهما الآخر .

وفي الحال أصدر البك أمراً يمنع فيه ميزيلتوب من دخول القلعة . ولكن سلوكها المشين السيء ظل مجهولا بالنسبة للبك الحالي منذ وقت قصير جداً .

عندما كان البك متهيئاً ومستعداً للخروج مع الجيوش إلى مصراته ، جاء شخص يكره (ميزيلتوب) ويعرف بأنها ستغادر المملكة ، تحمل معها مبلغاً من المال ، فروى القصة له ، تلك القصة التي سمعها من (ميزيلتوب) نفسها . كان البك متأثراً جداً من سلوكها نحو اللالة حويوه ، بالرغم من أنها فشلت في تحقيق المهمة التي اضطلعت بها ، فقرر القضاء عليها وإخماد أنفاسها ، ولهذا السبب أصدر أمراً إلى رئيس الميناء يمنعه من السماح لها بمغادرة المملكة ، ولكن لما لأمها (الملكة إيستر) من أثر عظيم على الباشا ، تم الحصول على أمر من القلعة يقضي بالسماح لها بالسفر والإبحار إلى مالطة .

٢٩ نوفمبر ١٧٩٠

رجوع القوات منتصرة · جلب مائة كلب تستخدم لصيد الغزلان · مقارنة بين التقاليد في قلعة طرابلس وفي القسطنطينية ·

عادت القوات منتصرة مظفرة من مصراته . وصل البك وسيدي يوسف وقد إختلفا في تدابيرهما قبل رجوعهما ببضعة أيام ، وخشي من أن سيدي يوسف قد يتخذ هذا الإدعاء حجة للإتصال بالأعراب واستمالتهم إلى جانبه ومجيئهم إلى طرابلس يستخدمهم ضد والده وأخيه ، ولكن عاد أخيراً الأميران على ودٍ ووفاق ، فأطلقت مدافع القلعة ، ورفعت أعلام القنصليات عندما دخلا المدينة . وقد جلبا معهما من بين الأسلاب والغنائم مائة كلب ، من الكلاب التي تستخدم لصيد الغزلان وبقر الوحش ، المشهورة هنا بقيمتها العظمى .

قمنا بزيارة اللالة حلومة أمس ، ولم يكن بوسعنا الإفلات من مقابلة سيدي يوسف في منزله الخاص والتحدّث إليه. إني واثقة من شعورك كل الثقة عندما أؤكد لك بأن هذا الظرف كان محرجاً لنا جداً ولا يمكن أن يتصور أحد حدوثه، خاصةً بالنسبة لأولئك الذين عرفوا البك المتوفى معرفة صميمة، كما كنا نعرفه، ولا زالت الظروف المرعبة المخيفة التي أحاطت باغتياله عالقة في الأذهان ، حيث ترتد الطبيعة وتهبط إلى مشهد يجسد جرائم سيدي يوسف .

لقد اطلعت على مثل هذه الزيارات التي تحدث وفقاً للطراز المتبع قديماً ، وإذن ، سوف لا تستغرب ولا تعجب ، أو تفزع ، عندما أُعلمك بأننا وجدنا اللالة حلومة تشرف على جواريها السوداوات ، حين كن يصنعن الخبز الرقيق . عرضت علينا اللالة حلّومة الذهاب مع بعض نسائها إلى حجراتها والإنتظار هناك حتى قدومها ، إلا أننا عارضنا هذا الرأي . بعد مدة قصيرة عندما همت بالخروج أوقفتها الجواري السوداوات معلنات بأن بعض العمال يشتغلون بترميم أحدالأبنية،وأن الطريق سيغلق بعد دقائق قليلة. كان هذا التحذير ضرورياً لأن اللالة حلومة لا يمكنها أن تخترق الحرم حين يكون العمال على مرأى منها .

وحين دخلنا إلى حجراتها وجدنا كل شيء مهيئاً ومعداً ، على مائدة تركية مصنوعة من الصدف والفضة ، من اللبن الخاثر والتمر الفزاني . كان هذا اللون من الطعام الخفيف موضوعاً في صينية مزخرفة بالذهب بحجم المائدة تقريباً قطرها حوالي ثلاثة أقدام .

أنا لا أذكر ذلك لأسترعي اهتمامك إلى عظمة القلعة وفخامتها وأُبهتها ، ولكن لأظهر لك الفرق بين التقاليد المرعية في هذه البلاد والتقاليد الموجودة في القسطنطينية حيث تكون آداب المائدة وتقديم الطعام ، كما عزاها بعض الكتاب إلى المعتقدات الإسلامية التي تقف موقفاً صريحاً ضد البذخ والإسراف والأكل في صحون من الذهب والفضة ، بينما يختلف الأمر هنا ، فمن النادر أن يقدموا حتى أتفه الأشياء وأبسطها الا في صحون من تلك المعادن الثمينة . فمثلا تقدم القهوة في أجمل أنواع الصيني ، إلا أنها توضع في فناجين مزخرفة بالذهب .

يوضع الشاي في حجرات اللالة حلومة في تلك الفناجين الموضوعة في صينيّات ذهبية كبيرة جداً . بحيث أن اثنين من الخصي يحملانها ليوزعا القهوة على المدعوين . بعد أن دخلنا إلى حجرة اللالة عائشة مباشرة قدمت اللالة عواشة أرملة البك الراحل .

كانت اللالة عائشة تغزل الصوف ، لتتجنب ، كما قالت : لحظة واحدة، الهم والغم . علمنا بأن اللالة حويوه زوجه سيدي أحمد تنتظر قدومنا ، لنقوم بزيارة منفصلة لحجرتها لأنها كانت الزيارة الأولى للمجاملة بعد أن أعلن زوجها البك . بعد أن علمت اللالة حلومة بعزمنا، رجتنا أن نقوم بزيارة إلى زوجة سيدي يوسف أولا ؛ وأعلمتنا بأن اللالة حويوه لا تغضب من القيام بتلك الزيارة أولاً . ولكن لم يكن هناك من بديل ؛ فهو تنفيذ لرغبة وعمل بأمر صادر من اللالة حلومة . أرسلت البعض من أكثر نسائها ثقة معنا لمرافقتنا في الذهاب والإياب وكان قيامها بذلك فضلا عظيماً جداً ، لأنه لم تجرؤ إحدى نسائها أبداً على الإقتراب من منزل سيدي يوسف منذ مقتل البك .

مررنا في مسالك تحت الأرض مظلمة ومعتمة ، دون أي بصيص من نور ، في طريقنا إلى منزل سيدي يوسف ؛ وكانت تستحوذ على عقول النساء البربريات اللواتي كن مرافقات لنا خرافة (كن يعتقدن بأننا سنصادف شبح البك في كل زاوية مظلمة نمر بها) لقد تولىّ الحزنُ على نفوسنا واستحوذ الخوف على قلوبنا من مقابلة كائنات بشرية أكثر من خوفنا من رؤية الأشباح والأرواح. وحين وصلنا إلى مدخل آخر تلك الممرات المظلمة المعتمة حال دون تقدمنا باب مصنوع من الحديد تقريباً ، مغلق غلقاً محكماً ، حتى تم الإعلان عن أسمائنا . بعد مضي قليل من الوقت سمعنا الخصيّ يتقدمون ، ويدفعون الأقفال الحديدية إلى الوراء ، وبصعوبة كبيرة جداً ، ويرفعون قضيبين حديديين ثقيلين جداً ، اللذين بهما تمت حراسة هذا الممر مؤخراً ، لتحجب النفس الشريرة المجرمة من انتقام جميع الناس إلا خالقها وحالما فتح هذا الباب ،

طلع علينا مصباح كان يحمله أحد الخصي ، نوره باهت جداً استطعنا ببصيصه أن نتبين جزءاً من أشكالهم المرعبة وبريق سلاحهم . وحين رفع المصباح ليتثبتوا من وجوه أولئك القادمين ، الذين سمح لهم بالدخول ، كشف النور بوضوح عن وجوههم: سوداء داكنة مثل الكهرمان الأسود،فزادهاوضوحاً وبروزاً ، بصرامة عيونهم وشراستها،وبياض أسنانهم، فراعنا المنظر وارتعدت فرائصنا من الهلع والفزع ، بينما كنا نفكر ونحن نتبع خطاهم خلال تلك الظلمة الداكنة ، كيف أن أيديهم ملطخة وملوثة بدماء البلك الراحل .

غمرتنا موجة من الفرح حقاً عندما رأينا نور الشمس ثانية ، فوجدنا أنفسنا على مسافة بعيدة من أولئك السفاكين القتلة . قادتنا الجواري السوداوات والوصيفات اللواتي أرسلن لمقابلتنا إلى حجرة ، حيث انتظرنا قدوم الأميرة ، زوجة سيدي يوسف . كانت أرض الحجرة مغطاة أولا بحصر مصرية ، وعليها السجاد التركي ، وفوقها مراتب من الحرير الأطلسي المطرز بأزهار ذهبية وضعت أمام الأريكة من القطيفة القرمزية المطرزة بالذهب والوسائد من قماش ذهبي اللون. لم يعلق في جدران هذه الحجرة السجاد على العكس من الذوق المتبع في هذه البلاد ، وإنما غطيت الجدران كلها بالمرايا تقريباً ، والأسلحة الذهبية والفضية والسكاكين والطلاسم . كان يوجد حول الحجرة عدد من الدواليب الكبيرة الباهظة الثمن المصنوعة من الصدف وعظم السلاحف والابنوس ، والبعض منها مرصع بالذهب والبعض الآخر بالفضة . وأمام السدة ، حيث يوضع سرير النوم ، وضعت أربع ستائر حريرية مطرزة ومعلقة الواحدة فوق الأخرى . كانت الحجرة أوسع من أية حجرة أخرى في القلعة ، ما عدا حجرة اللالة حلومة .

دخلت زوجة سيدي يوسف ، بعد بضع دقائق من وصولنا إلى الحجرة ، بأجمل ثيابها وأحلاها ، وقد شاهدنا ذوقاً إجتماعياً جديداً ، عند دخولها لم نره مطلقاً في هذه البلاد من قبل : فقد اصطفت حاشيتها بانتظام على كل جهة ، وصيفاتها البيضاوات بالقرب منها وبعدهن الجواري السوداوات يؤلفن صفين ،

مررنا من خلالهما لمقابلتها . وكانت هذه المرة الأولى التي نراها فيها . هي من أصل تركي ، لا تزال في ريعان شبابها لطيفة ومليحة ، ولكن لا شيء ينم عن الود والمحبة والأنس في سلوكها ، وكانت ترتسم على وجهها إمارات الصرامة والقسوة لمحيا تركي يصعب أن يكون مقبولا ومسراً . كانت في البدء حذرة ولكنها أصبحت بعدئذ أكثر ألفة ومودة ؛ وكانت بلجوجة جداً تلح علينا بالإنتظار حتى قدوم سيدي يوسف ، تنتظر قدومه في كل دقيقة . إلا أننا يئسنا تماماً ومللنا الإنتظار فغادرنا الحجرة قبل وصوله . وقبل أن نصل إلى نهاية الأروقة التي تحيط بحجراتها سمعناه قادماً مع حرسه الأسود يدخلون وسط الحوش . فطلب الخصي إلينا الذين كانوا معنا الرجوع ، إلا أننا أبدينا رغبتنا بالإستمرار في الخروج ، فوصلنا في الحال إلى خارج حرم سيدي يوسف حين أغلق الخصي بسرعة الباب الهائل وراءنا في نهاية الممرات الأرضية بكثير من الصعوبة والصرير كما سبق وأن فتحوه .

عند رجوعنا من حجرة سيدي يوسف ذهبنا مع نساء اللالة حلومة مباشرة إلى اللالة حويوه زوجة البك . كان التناقض جلياً وواضحاً بين حجرات البك وتلك الحجرات التي رأيناها منذ لحظات . وجدنا هنا كل وجه مشرقاً وواضحاً ، ولا ينم منظر الخدم عن ريبة أو شك . فرحبت بنا اللالة حويوه ترحيباً حاراً لطيفاً ومؤدباً ؛ مع أنها مجرد زيارة شكلية ، فإن شعورها بعزة نفسها ووعيها بكرامتها قد طمأنها بعدم الحاجة إلى إظهار أية إشارة مجاملة خارجية طقوسية يمكن الإستغناء عنها. كانت ترتدي بدلة أبهى وأفخم من المألوف ، وكانت تلبس بعض الحلي والمجوهرات الإضافية . كانت فاتنة أنيسة ولطيفة جداً ، ولكنها لم تكن مبتهجة مسرورة. قالت : من الذي يستطيع أن يثق بسيدي يوسف؟ ترتجف خوفاً على خوفاً على حياة زوجها وسلامته. ولم نمكث عندها مدة طويلة حتى جاء البك . رأيناه يعبر وسط الحوش لما دخلنا في الأروقة . كان عندئذ ذاهباً لحضور الإستقبال الرسمي لأبيه الباشا ، إلا أن اللالة حويوه بعثت برسالة تعلمه بوجودنا معها ، فرجع إلى شقتها . لم يخرج سيدي أحمد من مدينة طرابلس

ولم يعتد الحديث كثيراً مع النصارى ، ومع ذلك فقد كان سلوكه معتدلا ومؤدباً ولطيفاً . تدل الملابس التي يرتديها على أنه بربري . وكانت آداب معاشرته لأسرته لا تقل رقة ونعومة وتعبيراً عن آداب أوربي مهذب . جاءت اللالة عواشة ، أخته العزيزة التي يحبها حباً جماً ، زوجة رئيس البحرية إلى الحجرة ، وفور دخولها تقدمت إلى البك وقبلت قمة عمامته ، وبدلا من أن لا يظهر عطفه وتلطفه كما هي التقاليد المرعية في البلاد ، حياها مباشرة على خدها وقدم لها كرسيه ، إلا أنها لم تقبل بذلك ولكن أشارت إلى جواريها السوداوات اللواتي جلبن لها في الحال كرسياً آخراً . لا تدخل الكراسي في عداد الأثاث في المنازل البربرية ، ولكنها جلبت خصيصاً لنا سلفاً،وكانت المرة الأولى التي شهدنا في دعوة بربرية كل الضيوف يجلسون عليها . وبعد أن استقر المقـــام بسيدي أحمد جلبوا له القهوة والغليون مرصعاً بالذهب والمرجان والفضة والكهرمــــان .

من النادر جداً أن يجلس وجهاء البربر ورؤساؤهم في دعوة بدون غليون وقهوة فإذا قاموا بزيارة لك فمن الواجب تقديم الإثنين معاً لهم .

ولما كانت هذه الزيارة للمجاملة فإن كل الطقوس الخاصة بالقهوة والشربات والعطور قد أُجريت ، ولو أننا تناولنا سلفاً قسماً منها في حجرة اللالة حلومة . لم يغادر البك الحجرات إلا قبيل خروجنا ببضع دقائق ، وكان آنذاك وقت الغروب ، فلا بد وأن تأخر عن حضور الإستقبال الرسمي للباشا ، الذي كان من الواجب عليه حضوره ، لأن عدم الإكتراث بالحضور في هذا الإستقبال الطقوسي من قبل الأمراء ، وبدون أي عذر خاص ، يعتبر دليلا كبيراً على عدم الإحترام .

تحدث سيدي أحمد مع زوجته وأخته بأسلوب ينم عن ثقته بتفكيرهما ومنطقهما فروى لهما أنباء اليوم ، واستمع إلى آرائهما في مختلف الموضوعات بكل سرور ، لم يكن معهوداً بالنسبة للبربر . طلب من اللالة خدوجة أن ترسل نساءهـــا لأخذ بعض الأساور الذهبية الجديدة المصنوعــة حديثـــاً

في القلعة ، جاء بها بعض الصاغة اليهود إلى القلعة . فجلبت الخلاخيل لنا لمشاهدتها : كان الزوج منها يزن تقريباً خمسة أرطال من الذهب الصلب المصنوعة صناعة مدهشة ، حتى أن وزنها يوحي من الوجهة الأدبية بأثر السلاسل والقيود ، إلا أن السيدة البربرية لا تمشي إلا قليلا وبحذر عظيم عندما تلبسها .

حين غادرنا حجرات البك ، رافقتنا اللالة عواشة ، زوجة رئيس البحرية خلال الحرم حتى المنزل الخاص بالجواري السوداوات ؛ ولو أن هذا المنزل يقع ضمن الحرم إلا أنه أبعد من المسافة المألوفة التي تصل إليها السيدات .

وبالنتيجة ، لهذا ؛ حدثت واقعة كان من المحتمل أن تكون خطرة جداً ، قد تحدث لأي شخص آخر غير بعض الجماعات الخاصة المعينة . أمضينا وقتاً طويلا مع اللالة عواشة حتى تجاوزنا الوقت المفروض الذي نقضيه في زيارة الحرم.جاء القنصل لمقابلتنا متوغلا بعيداً حتى وصل ذلك المنزل ، وهو امتياز ؛ أعتقد وأقول بكل اطمئنان ، لا يمكن منحه إلى أي نصراني آخر غيره . ولكن البربر تطلعوا إلى وجهه فوجدوا فيه ما يطابق اللقب الذي أطلقوه عليه « بوي » (حامي) بينما يسمون بنتيه (بنت البلد) (أبناء البلاد) وكان من السهل جداً أن ندرك أكثر من الوصف فزع اللالة عواشة وهلعها واستغرابها عندما وجدت نفسها معروضة كلياً لعيني نصراني في بلد ينص القانون بتنفيذ عقوبة الإعدام. بربرية ترى من قبل رجل غريب : وفي الحال حجبت نفسها وانسحبت ، ولكنها قالت بأن الخطأ كله منها والذنب ذنبها ، فمن الطيش أن تتجول إلى هذه المسافة في الحرم ، دون أن تبعث بتحذير إلى منزل الجواري السوداوات عن قدومهـــا لإخلاء الطريق .

ولكن بالرغم من كل ما حدث توسلت بنا بالمجيء ثانية ، وقالت مبتسمة بأنها ستأخذ الحذر وتتجنب وقوع مثل هذه الحادثة في المستقبل . أتمنى أن تكون قصص هذه الزيارة خير ما يعوّض عن رسالتي الطويلة .

٢٠ كانون الاول ١٧٩٠

هروب الخادمة فاطمة الى دار القنصلية البندقية ·
التماس القنصل · عودة فاطمة الى اللالة حلومة ·

تبرهن الحادثة التالية على مدى الرعب الذي نشره سيدي يوسف في القلعة بعد رجوعه من حملته التي قادها مع البك لتأديب المصراتيين . تجري الحادثة كما يلي : فقد كانت فاطمة ، وهي الخادمة المفضّلة لدى اللالة حلومة ، قد ذهبت بعد اغتيال البك الراحل موفدةً من أرملته إلى أحمد بك — البك الحاضر — تتضرّع إليه وتتوسل أن يفعل كلّ ما في وسعه أن ينقذ أيتام أخيه من براثن الفاقة السوداء ، وأن لا يجردهم مما يملكون من حلى ومجوهرات كما أمر سيدي يوسف بذلك قائلاً : إن أطفال الشخص الذي يهدر دمه يجب أن يلبسوا أزياء أبناء الرقيق . وقد اتّهمت فاطمة بالإضافة إلى ذلك أنها تحدثت بكل حرية عن حادثة اغتيال البك الراحل بثرثرة سمعتها القلعة كلها . عند ذلك أصدر سيدي يوسف أمره إلى اثنين سيئي الخلق من حرسه الأسود أن ينفذا حكم الإعدام بها وبأطفالها . وحين طرقت هذه الأخبار المحزنة سمع اللالة حلومة الطيّبة القلب والنقية السريرة وصدور حكم الإعدام بخادمتها المخلصة وأطفالها خاطرت بإخفاء فاطمة في مقصورتها ، ولكن بعد أن أسدل الليل جناحي الظلام ، دار في خلدها أن لا تستمر أكثر في التستّر عليها ، فأمرتها وأطفالها أن تجد لها ملجأ آخر تلتجىء إليه ، أو أنها ستشهد بأم عينها مصرعها وأطفالها ، لأنه أشيعت الأخبار بأن فاطمة وأطفالها يختفون في مقصورة اللالة حلومة . اضطرت الخادمة الشقية السيئة الحظ أن تلتجىء إلى مقصورة أرملة البك الراحل ، التي بدورها خاطرت بحياتها فآوتها هي وأطفالها طول الليل ، ولكن لم تستطع أن تستمر في تقديم العون لها ، فقررت أن تطردها من مقصورتها صباحاً ، وأن تنصحها بمحاولة الذهاب سراً حول القلعة إلى اللالة عويشة ،

زوجة حاكم الميناء . ولكن علم سيدي يوسف بالخبر بأن حياة زوجها ستكون ثمناً لإخفاء فاطمة وأطفالها من انتقامه . وهكذا اضطرت الخادمة التعيسة على الهروب ثانيةً مع أطفالها ، ونُصحت الآن بضرورة مغادرة القلعة في الحال واللجوء إلى إحدى الدور القنصلية . رأت بعينيها فرصةً جميلةً لإنقاذ حياتها وحياة أطفالها ، ولكنها علمت بأن عيون سيدي يوسف تترصدها حين ركضت مسرعةً من دار اللالة خدوجة ، أكبر الأميرات (التي تركت القلعة قبل سنتين ، وتعيش الآن في المدينة كما أخبرتك) ، تركت أطفالها هناك ، فلم تستطع أن تحمل واحداً منهم ، وألقت بهم في السقيفة عسى أن يعثر عليهم أحد الناس من ذوي الشفقة فيضمهم إليه تحت جناح الرحمة ، واستطاعت أن تقترب من دار القنصلية البندقية ، وهي أقرب القنصليات إليها . لمست بإصبعها باب القنصلية (وهو كاف لتقديم الحماية لها) في اللحظة التي كان خدم سيدي يوسف على أتم الإستعداد لإلقاء القبض عليها . لقد كانت الحادثة سبباً في ألم القنصل وحزنه . فقد كان شعوره الإنساني لا يسمح أبداً بتقديم فاطمة لقمةً سائغةً لغضب سيدي يوسف وحماقته ، وإن خاطر بحمايتها فإنه يعرض علاقة بلاده إلى الخطر مع طرابلس .

أشار كل البربر من ذوي المنزلة الرفيعة على القنصل أن يذهب في الحال إلى سيدي يوسف ، لأن الباشا لا حول له ولا قوة الآن في تصريف الأمور . وقد قابل سيدي يوسف هذا الإهتمام من جانب القنصل واعترافه بأهمية سيدي يوسف وبمكانته المرموقة في الدولة بكل ارتياح . فأصدر سيدي يوسف أمره بناءً على رغبة القنصل ليس بإلغاء الأمر الصادر بإعدام فاطمة فحسب ، وإنما سيعمل بنفسه على إعادتها إلى أمه . وسرعان ما نقلت فاطمة إلى القلعة ، وخوفاً من أن يقع ما لا يحمد في حياتها فيغير مصيرها ، تعهد سيدي يوسف بنفسه أن يأخذها من يدها ويرجعها إلى اللالة حلومة. تدل كل هذه الأحداث والوقائع بكل تأكيد على أن نفوذ سيدي يوسف يزداد ، وسلطته تتسع في القلعة ، أكثر مما تمنحه التقاليد بوصفه إبن الباشا الأصغر .

١٨ يناير ١٧٩١

وصول السفير الطرابلسي في اسبانيا · سيدي يوسف يخطط نخلع ابيه واخيه ·

تناول طعام العشاء معنا اليوم سيدي عموره أكبر أبناء الوزير الأول ، وحاج يوسف أحد ضباط البلك . لقد وصل سيدي عموره من إسبانيا منذ مدة قصيرة . كان سفيراً لهذه البلاد . أبديت لك ملاحظة عن الإسبان الذين دفعوا مبالغ طائلة ثمناً للصلح الأول الذي عقدوه مع بلاد البربر . أفاد سيدي عموره كثيراً عن أخبار سفارته، فقد ترك مبالغ إحتياطية كبيرة له في بنوك إسبانيا، بالإضافة إلى ما جلب معه من ملكية عظيمة إلى طرابلس . يؤسفني أن أقول بأنه مراب عظيم ، يوظف أمواله بفائدة تصل إلى ثمانين بالمائة ، حتى تؤدي إلى إفلاس المدينين الذين استلفوا منه إفلاساً تاماً ، ولكنه لم يعد في الوقت المناسب لينقذ نفسه من بعض الخسارات العظيمة التي حدثت على أيدي العرب الدهاة الساخطين على الفوائد المشينة التي يرغب في الحصول عليها ويضطرهم على دفعها مقابل القروض التي أعطاها مقدماً .

وبالرغم من أن سيدي عموره قد وصل أخيراً من أحد القصور الأوربية اللامعة ، فإنه كان خيبة كاملة في اللياقة والمجاملة ومثلاً سيئاً إلى ابن وطنه، حاج يوسف الذي لم يخرج من طرابلس مطلقاً. تحدث الأول قليلا على مائدة العشاء، لم يعتد حتى ساعة خروجه على استعمال السكينة والشوكة ، أو لم يقم بأي تغيير لآدابه التي هي ليست آداب بربري مهذب تهذيباً جيداً. بينما تبنى الآخر الكثير من التقاليد الأوربية . فهو سهل الصداقة ، لطيف المعاشرة بعيد عن الخشونة والفظاظة ؛ مجامل بدون تكلف وإزعاج ؛ وهو ضيف يرحب به النصارى دائماً لشخصيته الجذابة المرحة ذات الفكاهة العذبة. ولنضرب مثالاً للفكاهة والمداعبة البربرية ، عندما رأى حاج يوسف واحداً من المدعوين حين كان يتناول طعام العشاء قطع دجاجة قطعاً لا تنسجم وآداب المائدة التي ألفها الأوربيون ، فلاحظ قائلا بأن الدجاجة لا زالت تشكو وتعاني من الخطايا التي ارتكبتها في هذا

العالم ، والفخذ الذي انتزع الآن بشيء كثير من الصعوبة ، كان بالتأكيد هو نفس الفخذ الذي التقط الشعير والذرة من حقل فلاح مسكين .

حدث مؤخراً سوء تفاهم بين سيدي يوسف والبك ، واقترح سيدي يوسف أن يعتلي سيدي أحمد العرش، بعد خلع الباشا، والإحتفاظ لنفسه بلقب البك ، حتى يكبر ابن سيدي أحمد (الذي لا يزال طفلا صغيراً) . إلا أن سيدي أحمد لم يوافق على هذا الإقتراح : فترك سيدي يوسف المدينة حالا ، ووضع كل أفراد أسرته في أحد قصوره الريفية في المنشية .

شوهد سيدي يوسف بعد بضعة ليال متخفياً في جرد أسود ، قاصداً مقابلة كل الشيوخ في المنشية . فأخبرهم باستعداده على دفع أموال كبيرة وضمان الحماية لأولئك الذين إذا هبوا لنجدته وأطاعوا دعوته ، وهدد أولئك الذين يرفضون الإلتحاق به ، بأنه أوكل إلى حاشيته مهمة القضاء عليهم ونهب أموالهم وسلبها . استطاع بالتهديد والوعيد بسهولة أن يحصل على موافقتهم للإنضمام إليه ، و بنفس الوقت لجأ إلى الجبال ، وظلت أسرته ، التي كانت تتوقع عودته إلى القلعة في فترة غيابه ، خارج المدينة .

سمعنا كل هذه الأخبار من ابنة الباشا الكبرى ، التي ذهبنا معها لقضاء ساعات قليلة بعد الظهر ؛ لأن الوقت كان شهر الصيام في رمضان ، كان شاقاً ومتعباً بالنسبة لها. كانت معظم جواريها وخادماتها مضطجعات على الأرض، يغط البعض منهن في نومه ، وتبدو الأخريات وكأنهن يلهثن آخر لهثة ، لأنهن غير قادرات على الإستمرار في مقاومة شدة حرارة الريح الصحراوي (بالإضافة إلى عناء الجوع وشدة العطش) ، كان لا بد لهن من أن يتصارعن معه طوال الأيام الثلاثة الأخيرة .

تشغل هذه الأميرة نفسها في توجيه نسائها ، اللواتي يجهزن المؤن الضرورية لوجبات الطعام ليلا . وهو الوقت الوحيد الذي يمكن خلاله تناول وجبات الطعام . ويوزعن خمس سلات من الخبز ، تحتوي كل واحدة منها مائة وخمسين رغيفاً صغيراً . وتحضر الوصيفات عندئذ الجرار الكبيرة من شربات

الزبيب المغلي إلى عصير قوي ، ويوضع هذا المشروب السكري في مائة من الآنية القديمة . تصنع هذا الشربات من أربعين إلى خمسين رطلا من الزبيب يستهلك كل ليلة في أسرة واحدة خلال شهر رمضان .

١٩ يناير ١٧٩١

زواج ابن أخ حاج عبد الرحمن ابنة الطرابلسي السيدة المرموقة · ابتسامة العروس تعد جريمة · موكب العروس ·

اليوم تبدأ الأفراح والإحتفالات بزواج ابن أخ حاج عبد الرحمن من سيدة تسمى « بنت الطرابلسي » كانت متزوجة من ابن السفير حين كان معه في إنجلترا . لم يبق لدي إلا الشيء القليل الذي أذكره بهذه المناسبة بعد أن وصفت لك من قبل إحتفالات الزواج وأفراحه عند أفراد الطبقة الممتازة هنا ، وجدنا جمهوراً من السيدات محتشدات في منزل السفير ، يتراوح عددهن بين ثلاثمائة إلى أربعمائة سيّدة ، وكانت اللالة زنوبيا زوجة سيدي البوني من بين الشخصيات المرموقة ، التي لم تتوان أبداً من إضفاء مظهر فخم وعظيم . هذه هي السيدة التي سبق وأن ذكرت لك بأنها كانت محبوبة ومحظوظة لدى البك الراحل . فلم تكف أبداً منذ وفاته أن تثير الغيرة والحقد في القلعة ، وبناء على ما تتمتع به من نفوذ في القصر لذا توجه لها الدعوات لحضور ولائم عائلات الطبقة الممتازة من البربر . كانت الأساور التي تلبسها اليوم لا تتناسب في حجمها مع ما تلبسه السيدات النبيلات ، فإنها جاوزت مقاييس الأساور التي تلبسها الأميرات .

أطلت زنوبيا أولا بجرد مورد بزهور ذهبية : يشبه بالضبط جرداً كانت قد أرسلته اللالة حلومة إلى العروس ، ولو أن هذه الحادثة قد لا تبدو لك بأنها ذات أهمية فإنها تعتبر هنا إهانة للالة حلومة ، وسرعان ما بدلت زنوبيا

هذا الجرد وارتدت جرداً آخراً يساويه من حيث الفخامة والرشاقة . أعطيت مبالغ كثيرة من قبل المدعوات للبنات المغنيات في ذلك الحشد ، حيث حملت إحدى النساء الخاصات باللالة أماني منديلا حريرياً ودارت على المدعوات . أما المبالغ الكبيرة التي أعطيت بعدئذٍ من قبل الضيوف وضعت في صحن فضي هديـــة للعروس .

تتناول العروس وجبات طعامها لوحدها في الأيام السبعة الأولى بعد الزواج ، ولا يسمح لها بالأكل ، خلال ذلك الوقت، مع أية سيدة من أقربائها.

وحين تعتلي العروس العرش الذي يقام لها خلال الإحتفالات الطقوسية ، تعد الإبتسامة جريمة منها ، ولكن اللالة بنت الطرابلسي كانت تميل إلى الضحك والقهقهة ، بحيث أن اللالة خدوجه ، إبنة السفير ، كانت تحجبها من الملاحظة فترمي الحجاب عليها ثانية ، فتغطي وجهها بينما تسير إلى كرسيها . وقبل أن تصعد على عرشها ، تقدمت إحدى الجواري السوداوات لتطرد بالطلاسم من تأثير كل العيون الشريرة الحاسدة التي من الممكن أن تجعل حياة العروس نحساً وشؤماً بالتحديق فيها .

كانت العروس مغطاة في الجرد الذي أرسلته اللالة حلومة ، وكان لهـــا حجاب حريري مدلى على وجهها . كانت تسندها زوجة السفير وابنتها . وكانت تحمل ست شمعات أمامها من قبل جواريها السوداوات ، وهكذا كان موكبها حتى اعتلت عرش الزواج ، في وسط حشد عظيم من السيدات اللواتي كن مجتمعات لرؤيتها . وفي تلك اللحظة بالذات ازداد صوت الموسيقى صدحاً وارتفعت أنغام الغناء طرباً ، وكانت أغنية العرس صاخبة ، استمرت أصوات جميع السيدات الحاضرات طوال تلك المدة غناءً وزغردةً .

وفي غضون أفراح العرس كان العريس ملازماً غرفته يتقبل تهاني أصدقائه وتبريكاتهم . قام القناصل بزيارته بهذه المناسبة وعاد بعدئذ عند غروب الشمس لينضمّ إلينا بعد رجوعنا من منزل السفير .

وبناء على ما تقتضيه التقاليد والعادات الإجتماعية في هذه البلاد أن تستمر أفراح العرس سبعة أيام .

٢٩ مايو ١٧٩١

تقديم أحد اليهود التوراة الى البيعة .

قدم في الليلة الماضية أحد اليهود توراة إلى البيعة ، وقد حضرنا منزله لنرى الإحتفال الديني الطقوسي بهذه المناسبة . ربما تجد في وصف ذلك الإحتفال الطقوسي شيئاً من الطرافة والمتعة أكثر من مجرد عرضه في الكتب ، كما حدث مرات عديدة ووصف وصفاً صحيحاً من قبل كتاب آخرين .

يكون مثل هذا الإهداء دائماً مصحوباً بطقوس دينية عظيمة يتطلب القيام بها صرف نفقات كثيرة . تعد ولائم عشاء كبرى لاستقبال أعداد هائلة من اليهود في منزل الرجل الذي تقدم بالإهداء لمدة سبع ليال قبل حمل التوراة إلى البيعة ، ويجهز عشاء عام وشامل لكل اليهود الذين من المنتظر حضورهم قبل نقل التوراة بليلة واحدة .

لم يكن اليهودي الذي أهدى هذه التوراة متزوجاً ، وقد تفضلت زوجة حاكم اليهود وكل بناته بالحضور إلى منزله وأشرفن على تنظيم الموائد وتهيئة اللحوم وترتيبها ، واستقبال الضيوف في تلك المناسبة .

إجتمع كل كهنة اليهود في المنزل لمشاهدة الكتاب المقدس ، وإكسائه بالزهور والورود وأوقدت السيدات اليهوديات من الطبقة العليا الحاضرات في الإحتفال عدداً من الشموع التي كانت موضوعة أمامه ، وأحرقن البخور ، ووضعن مزهريات فضية مليئة بالأزهار فوق صندوق يضم الكتاب المقدس ، وكان مغطى بغطاء باهظ الثمن .

كانت الفريضة الدينية تقضي على اليهودي الذي أهدى الكتاب المقدس أن يذهب إلى الحمام ليطهر نفسه قبل لمسه . ألبسوه بعد رجوعه عباءة أرجوانية

اللون ومخاطة بحاشية بيضاء اللون عريضة . تصنع تلك العباءات بصورة رئيسية في القاهرة . وحالما وضع العباءة على جسمه أصبحت التوراة هدية مقدمة منه، وصار مخولا بحملها إلى الناس (تقليداً للنبي موسى عندما حمل الألواح إلى الجبل) : ولا يستطيع أحد حتى الخاخامون أنفسهم أن يحرموه من هذا الشرف. أخرج التوراة من الصندوق وحملها بوقار وهيبة واحترام إلى باب الحجرة حيث وضعها هناك ، فتقدم الحاخامون لتقبيل التوراة أولا ثم تبعهم رئيس الطائفة اليهودية ثانياً . وأشار إلى أولئك الذين تساعدهم مرتبتهم الممتازة في قبائلهم المختلفة أن يتقدموا وتخولهم الدعوة إلى حفل التوراة من قبل الحاخامين في البيعة ، لينحنوا إجلالا واحتراماً للتوراة .

تسلم ثانية الكتاب المقدس على ارتفاع لا يقل عن صدره ، وحمله من باب الحجرة إلى الرواق الذي يؤدي إلى الوسط المربع في الحوش ، ليريه إلى العدد الهائل المحتشد في أرض المنزل ، فتسلم أولئك الذين لهم الحق في التحية والتبجيل التوراة من اليهودي فأخذوها بنفس الأسلوب ، كما فعل من ذي قبل ، ورفعوا الكتاب المقدس إلى باب الحجرة ومر بنفس الإحتفال الطقوسي الديني كالسابق ، وقام اليهود كلهم إحتراماً وإجلالا ، بعدئذ أعيد الكتاب المقدس إلى الصندوق .

أعدت في اليوم الثالث وليمة عشاء كبرى في منزل اليهودي ، وقام عدد من الحاخامين والرؤساء بخدمة التوراة ورعايتها ، وأخيراً حملت باحتفال طقوسي عظيم في وقت آذان الفجر إلى البيعة .

كان من المحتمل أن تظل التوراة مدة سبعة أيام في منزل اليهودي الذي وهبها ولكن في مثل هذه الحالة ، يجب أن يتنازل عن القسم الرئيسي من منزله للخدمة فقط . وفي غضون تلك الأيام يجب تقديم المرطبات للوجهاء والأشراف من اليهود ، ولا يمكن أن يتأخر أي واحد منهم عن المجيء وأداء فريضة الصلاة كل يوم ، ومما تجدر الإشارة إليه أن جلب الكتب المقدسة من البيعة يتطلب بذل مصروفات باهظة للقيام بالإحتفالات الدينية والإحتفاظ بها . دفعت كل

هذه الأسباب اليهودي الذي أهدى الكتاب المقدس إلى البيعة أن ينقلها إلى البيعة عند سنوح الفرصة الأولى بكل مهابة واحترام ، وكان في اليوم الثالث بعد ابتداء العيد .

٤ يونيو ١٧٩١

اعلان العيد . المرابط يكتب الاحجبة . مجيء سيدي يوسف متخفيا بزي امرأة .

أطلق مدفع واحد إطلاقة واحدة ليعلن نهاية الصوم ، وبداية عيد رمضان ، وحصل المترجمون على هديتين الأولى لمناسبة عيد رمضان والثانية لمناسبة عيد ميلاد الملك (١) .

ذهب القناصل إلى القلعة بعد الظهر لتقديم التهاني والتبريكات إلى البك بمناسبة ميلاد ابن له في صباح هذا اليوم ، فشاهدوا أحد المرابطين الأولياء الذي كان أفراد حاشية البك يعطرونه بالصبر . وكان البك يحمل بيده مبخرة ذهبية للقيام بهذا الإحتفال الطقوسي ؛ وكان يظهر أعظم إحترام وتقدير له ، ولم يكترث كثيراً بكل تلك الألطاف والرعاية فكان يتقبلها بشيء من العجرفة والكبرياء كما لو كانت حقاً من حقوقه .

جاء المرابط الولي إلى القلعة بمناسبة ميلاد الأمير الجديد ، ليكتب الطلاسم والتعاويذ ويقدم الإبتهالات والأضاحي للنبي ؛ ليجعله من أبناء السلامة في المستقبل ؛ فنحروا خروفاً بهذه المناسبة . ومن التقاليد المرعية في هذه البلاد أن تضحى أعداد من الأغنام في عيد رمضان ؛ في منازل الوجهاء والأشراف ، كل أسرة حسب عدد أفرادها ، ويجب أن تنحر الأغنام على عتبات المنازل ، وقد نحرت في عيد رمضان الماضي في منزل حاج عبد الرحمن ثمانية رؤوس

(١) الملك جورج الثالث .

من الأغنام وزعت لحومها على الفقراء . أما أسر الطبقة الوسطى فتكتفي كل أسرة منها بتضحية رأس واحد .

مضى على عودة سيدي يوسف من الجبال بضعة أيام ، وقام بتحصين نفسه في حديقة الباشا بنفس الأسلوب الذي قام به بعد موت البك الراحل ، فكانت أبواب الحديقة مغلقة قبل غروب الشمس ، ولا تفتح إلا في اليوم الثاني حتى يستيقظ سيدي يوسف من النوم ، ومن النادر أن ينهض من نومه قبل الظهر . وقد انضم إليه الآن ما يقرب من ثلاثمائة أعرابي محارب .

أمر البك بغلق الممرات المؤدية إلى حرمه من بين الممرات التي تحت الأرض التي مررنا بها والتي تؤدي إلى حرم الباشا وإلى حرم كل أمير ، تتصل بعضها ببعض . وقد كان سبب القيام بهذا التدبير قد نتج عن الحادثة التالية :

منذ أسبوعين تقريباً وفي غضون شهر رمضان ، قصد البك زيارة أخته اللالة فاطمة أرملة بك درنه ، التي التمسته بالحضور ، وعندما دخل الحجرة ، رأى البك إمرأة عربية جالسة في الحجرة ، ملتفة بجرد أسمر اللون ، ولكن ذلك لم يسترع اهتمامه بصورة خاصة إلا أن مخاوف اللالة حويوه زوجته وفزعها التي كانت موجودة هناك،لم تكشف المرأة الغريبة عن حجابها بقصد،أثار فيه العجب والدهشة ، وبنفس الوقت غمزت له بعينيها بمغادرة الحجرة وفعلا غادرها في الحال . وسرعان ما بعثت اللالة حويوه تخبره بأن الشخص الذي كان ملتفاً بالجرد الأسود هو سيدي يوسف متخفياً بزي امرأة عربية . وقالت بأنها المرة الثانية التي يجيء بها سيدي يوسف متخفياً إلى حجرات اللالة فاطمة ، لغرض مقابلة البك هناك ولمعرفة ما يكنّه البك له من عواطف ومشاعر.وإنها شاهدت الشخص نفسه في كل مرة ، ولكنها لم تتعرف عليه ولم تكتشفه إلا في هذه اللحظة الحاضرة فتبينت أنه سيدي يوسف لأن إحدى طيات جرده حين سقطت أظهرت قسماً من ملامح وجهه، بعد أن دخل البك إلى الحجرات. وبهذه المناسبة أمر البك بغلق كل الممرات الأرضية المؤدية إلى حرمه غلقاً محكماً لا يمكن مطلقاً أن تكون يقظة البك وحذره عظيمين ، بينما تبرهن الأحداث باستمرار

نوايا سيدي يوسف ورغبته في الإستيلاء على العرش ، بأي ثمن كان ، ولعل الوصف التالي لتلك النوايا يظهر بجلاء ما حدث في اليوم التالي :

جاء سيدي يوسف في اليوم الأول من عيد رمضان ليقدم تهانيه إلى الباشا والبك ذلك التقليد الذي لا يمكن تجاهله والإستغناء عنه ، حتى يظهر على الأقل أن سيدي يوسف يحتفظ بالولاء والإخلاص لأبيه وأخيه ، لأن أعظم العقائد الدينية رسوخاً وثباتاً هو تسوية كل الخلافات وتصفية كل الخصومات في عيد الفطر . وأن عدم الإكتراث والإهمال في تلك الفترة يعتبر إعلاناً بنشوب عداء سافر مكشوف .

عندما كان الأميران حاضرين في الإستقبال الرسمي الذي يقيمه الباشا كان يبدو على سيدي يوسف الهياج والغضب والإنفعال بصورة استثنائية ، وكان لجوجاً يحاول الإقتراب من البك ، كما لو كان يريد التحدث إليه حديثاً خاصاً وعلى انفراد ، الأمر الذي لا يمكن تحقيقه بسهوله ، بسبب اختلاف الأخوين إختلافاً كبيراً دون اتخاذ تدابير أولية طقوسية . وأخيراً جاء سيدي يوسف إلى واحد من أعظم الحراس إخلاصاً ووفاء للبك ، ينظر بعين ثاقبة ملؤها المحبة والإخلاص والقيام بالواجب نحو سلامة سيده في كل اللحظات الحرجة ، وطلب إليه أن يخبر البك بأنه بعد انتهاء الإستقبال الرسمي لأبيهما يود الذهاب إلى غرفة البك ، ويرغب كثيراً السماح له في التحدث إلى البك ببعض الكلمات . اعتذر الحارس من الذهاب في تلك اللحظة قائلا لسيدي يوسف بأن البك مشغول في مقابلة مع والده ، ولا يجرؤ على مقاطعته . عندما وجد سيدي يوسف أن هذا الرجل غير راغب في نقل الرسالة ، بعث بربرياً آخر ، بعد لحظات تقدم الأخوان إلى غرفة البك ، فتبعهما في الحال المرابط السيء الصيت (فطيسي) وبعض أفراد حاشية سيدي يوسف ، الذين شاهدهم ذلك الحارس وبدلا من أن يتبعهم ذهب إلى رئيس شواويش البك ، وطلب إليه الذهاب حالا مع حرسه الأسود ويستولي على الغرفة ليخليها من المعتدين ، لأن البك قد ذهب مع سيدي يوسف إليها . لم يضع الشاويش لحظة

من الوقت ، وعندما وصل وجد الحرس الأسود التابع لسيدي يوسف ، وبعد أن دخل الأميران إلى الغرفة تجمهروا حول باب الغرفة . ونتيجة للنبأ الذي تسلمه حالا ، أمر الشاويش التابع لسيدي يوسف بسحب حرسه الأسود وبفسح المجال له بالمرور ، إلا أنه وجد من المستحيل أن يستحوذ على الحرس الأسود التابع لسيدي يوسف وأن يسمح له بقدم واحد من الأرض دون نشوب خصومة مكشوفة ، التي في مثل تلك اللحظة قد تكون قاتلة لحياة سيده ، فلجأ إلى تدبير حيلة لتنفيذ غرضه . فتقدم إلى الشاويش التابع لسيدي يوسف وأخذ بيده بأسلوب أخوي وودي ، فعصرها عصراً قوياً ، حاول أن يخلع خنصره ، حتى أن الألم الشديد أفقد الشاويش كل قوة ، عارفاً بأنه كان يغتصب مركزاً ، فإذا ما قال كلمة واحدة عنه فإنه يقطع إرباً إرباً فأمر حرسه الأسود بالإنسحاب مباشرة وترك الباب حراً إلى شاويش البك .

بعد أن علم سيدي يوسف الذي كان في الغرفة مع البك بأن الحجرة قد أصبحت بصورة مفاجئة ، محروسة حراسة كاملة ؛ ليس من قبل شواويشه وحرسه الأسود ، كما كان ينتظر وإنما من قبل حراس البك ، نهض بسرعة من مقعده ، ومعه مرابطه (فطيسي) واستأذن من أخيه بالخروج السريع ، فنجا في الوقت الحاضر من كل ضرر وأذى مبيت له بفضل حارسه الأمين .

١٠ يونيو ١٧٩١

اللالة حلومة تصدق نبوءة أحد المرابطين ·

لا يسعني إلا أن أبدي أسفي الشديد على نشوب الفتن والقلاقل ثانية في القلعة. لقد سبب الأولياء المرابطون الشيء الكثير من الأضرار والآلام ، فالمرابط الذي ذهب إلى القلعة قبل اغتيال البك ، دخلها غفلة قبل بضعة أيام ، وركض صارخاً في حجرات اللالة حلومة ، ناشراً يديه ، مؤشراً إلى المكان الذي ستراق فيه دماء أولادها ، في خلال فترة قصيرة ، وتجري كالأنهار في الحجرات .

(هذه كانت العبارة التي أطلقها المرابط) . كانت اللالة حلومة ميالة لتصديق الخرافات والأساطير ، كما هي حالة الجميع هنا ، فأغمي عليها في أيدي بناتها ، وتولاها المرض منذ ذلك الحين .

قصد أحد القناصل ، الذي كانت له ديون كبيرة في القلعة ومن أصدقاء أسرة الباشا ، يدفعه قلقه على أفراد الأسرة المالكة ، فوجد الأسرة في حالة من القلق والإرتباك وحاول أن يحسم النزاع بين الأخوين . فقد تم لقاء سيدي يوسف بالبك ولم يتفق الإثنان على أية نقطة . حاول القنصل أن يقنع سيدي يوسف بترك ابنه وابن البك ووضعهما رهينتين ، بينما يدخل سيدي يوسف وأخيه في مؤتمر آخر لحسم الخصومات. كان سيدي يوسف موافقاً على هذا الإقتراح ، ولكن مرابطه (فطيسي) منعه من قبول ذلك الإقتراح . كان يظن بأن سيدي يوسف أمضى الليلة الماضية في القلعة ، ولكن على العكس عندما انتهى الإستقبال للباشا عاد متأخراً جداً إلى حديقته ، حيث ازداد عدد أفراد حاشيته وحرسه خلال الليل من ثلاثمائة إلى أربعمائة حارس .

تحدث البك عن غلق أبواب المدينة غداً ، وبعث بالمراسلين لينصحوا القناصل بتأمين منازلهم وغلق أبوابها فقد يهجم الأعراب عليها . من هـــذا الوصف تدرك بأن وضعنا لم يتحسن ، ولكن أتمنى في رسالتي القادمة أن أحمل لك أنباء سارة .

٢٣ يونيو ١٧٩١

الباشا يمنع دخول سيدي يوسف مسلحا · سيدي يوسف يرسل المرابط فطيس ·

كانت المدينة غارقة في هياج وذعر عظيمين . لقد تم تحديد اليوم العشرين من الشهر الحالي لمقابلة سيدي يوسف للباشا والبك في القلعة ، لعقد صلح ثانية مع البك وبحضور الباشا ، ولكن سيدي يوسف بعث برسالة لأخيه في الليلة الماضية ، يعلمه فيها بأنه غير قادم للقلعة بدون سلاحه ، ويرغب في تذكير

البك بكلمات النبي التي تقول بأن الأعمار بيد الله : « فإذا جاء أجلهم فلا يستقدمون ساعةً ولا يستأخرون» ، فإذا كان البك مؤمناً بذلك إيماناً قوياً عارفاً بأن (لكل شيء أجلاً مكتوب ومقدراً) فإنه يجب أن لا يخشى من شيء .

بعث الباشا مباشرة بجواب لرسالة سيدي يوسف يخبره بأنه لا يسمح له بالمجيء ومقابلته مسلحاً ، إلا أن سيدي يوسف بالرغم من هذا الأمر وصل المدينة في صباح اليوم الثاني ومعه ثلاثمائة رجل تحت السلاح . وكرد فعل لقدوم سيدي يوسف معززاً بمثل هذا العدد من المحاربين ، فقد صدر بيان من القلعة إلى كافة البربر في المدينة ، يأذن لكل واحد منهم ، إذا تعرض للإساءة والإهانة والمضايقة فله كل الحرية في اتخاذ التدابير اللازمة للدفاع عن نفسه ليس ضد حاشية سيدي يوسف وحدها فقط ، وإنما ضد سيدي يوسف نفسه . كان يعتبر مثل هذا الدفاع المشروع عن النفس ، بدون هذا المرسوم الملكي خيانة عظمى .

قبل أن يقترب سيدي يوسف ، ويصبح على مرأى من الناس وصل مرابطه المشهور (فطيسي) إلى المدينة مع بعض من أتباعه الأتقياء الورعين ، فسمح لهم بالحضور أمام الوالي ، فأخبر (فطيسي) الباشا بأن سيدي يوسف في طريقه إلى المدينة مع عشرين من أتباعه فقط وغير مسلحين ، وتضرع له وأقسم بالنبي أن يرسل البك إلى خارج المدينة لملاقاته ، للإتفاق على شروط الصلح بينهما حتى يستتب السلام بين أفراد أسرته وحاشيته فوافق الباشا حالا على هـــذا الإقتراح ، فلو ذهب الأمير حقاً فإنه لا محالة يعرض نفسه للإغتيال . ولكن البك تسلم بعض الأنباء التي تقول بأن سيدي يوسف كان على مقربة من المدينة مع بضع مئات من حاشيته فأمسك بتلابيب المرابط ، ولو بحضور الباشا ، واستل سيفه مسلتاً على رأسه ، فنهره قائلا ، لو لم يكن مرابطياً لكان قد قطع رأسه ورماه على قدمي الباشا جزاءً وفاقاً لخيانته ، وعندئذ أعلم الباشا بأن لدى أخيه ما يقرب من أربعمائة رجل كلهم مدججون بالسلاح .

طرد البك المرابط من حضوره وصوب الضباط فوهات بنادقهم نحو

صدره ولكن البك أمرهم بعدم إطلاق النار .

طلب إليهم أن يخرجوا المرابط من أبواب المدينة ، وأصدر أوامره بتنفيذ عقوبة الإعدام لكل من يجرؤ أن يدخله من أبواب المدينة ثانية .

كانت القلعة في المساء مزدحمة بالناس ، وكان مركز الشرطة تحت حراسة ثقيلة ، وتضاعف عدد الحراس في السوق ثلاث مرات .

رأينا الباشا من منزلنا جالساً في غرفته ، في الساعة الخامسة صباحاً ، وبقي معتكفاً بها حتى المساء . بعث الباشا بمراسلين إلى مختلف القواد في المنشية ، ليرسلوا البربر الموجودين في القرى المجاورة إلى المدينة ليلا . ولكن سيدي يوسف أسرع فأعلمهم مباشرة مهدداً بأنه إذا لم يقفوا في صفه ، أو إذا حاول واحد منهم الذهاب إلى المدينة فإنه سيقتل أفراد أسرهم ويحرق بساتينهم .

وصلت في تلك الليلة جماعة من المصراتيين والأعراب لنجدة البك ، الذي كانت حالته تدعو إلى الألم والحزن . فلم يستطع الحصول على بعض الموارد من الباشا ، وكان بأشد الحاجة إلى المال ، خاصة عندما وصل الأعراب كان مضطراً على الإستدانة ليجهز العلف لحيوانهم ، والمؤن الضرورية لأسرته .

صدرت الأوامر إلى شيوخ الشوارع والأزقة أن يسلحوا السكان في المدينة . إلتحق البربر القاطنون في المنشية بجماعة سيدي يوسف وارتكبوا مختلف جرائم السلب والنهب والتعذيب المخيفة طوال الليل . نهبوا المنازل ودمروا البساتين التابعة للباشا والعائدة لأولئك الذين لا زالوا يؤيدون الباشا .

وقبل أن تصل النجدة الكافية من الأعراب المحاربين إلى الباشا ، كان يخشى أن يكون بجانب سيدي يوسف عدداً كافياً من البربر يمكنه من اقتحام المدينة والدخول فيها ،وكان من المتوقع طوال ليلة الثاني والعشرين من الشهر،وفي كل ساعة أن يشن سيدي يوسف طريقه إلى المدينة . ليس من السهل أبداً وصف وإدراك موجة الهياج والذعر التي استولت على الطرابلسيين والأوربيين على السواء خلال تلك الليلة .

لم يكن باستطاعة سكان المدينة أن يهربوا لأنها واقعة على البحر وأن يتجنبوا

نهب وسلب اللصوص من الأعراب الذين استطاعوا أن يقتحموا المدينة عنوة .

في الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم الثاني ظهر سيدي يوسف لأول مرة في خصومات مكشوفة ضد أسرته . إن كل أعمال الشر والفظائع التي ارتكبت حتى الآن ، قد تضاعفت عشر مرات إجراماً وفظاعةً لأنها كانت تقترف تحت ستار الصداقة .

حالما ظهر سيدي يوسف في المدينة في اليوم الثاني أقفلت القنصليات أبوابها والحوانيت ، والمنازل ، وخرج السكان بأسلحتهم ينظمون أنفسهم في الشوارع دفاعاً عن مدينتهم .

أرسل الباشا قوات في الصباح الباكر للمحافظة على قرية المنشية ومنع المزيد من أعمال النهب والسلب وانتهاك الحرمات من قبل جنود سيدي يوسف. جيء بعد الظهر بقائد المنشية مقيداً بالأغلال لتنفيذ حكم الإعدام فيه ، ولكنه لا يزال على قيد الحياة . إن هذا الرجل بدلا من أن يساعد الناس ويحميهم من غارات النهب والسلب ، فإنه قدم كل عون يستطيع عليه لسيدي يوسف وقواته.

عندما وصل القائد إلى باب المدينة أمر الباشا شواويشه أن يعلنوا للملأ بأن سيدي يوسف ثائر وأنه من الواجب إلقاء القبض عليه حيثما وجد من الناحية القانونية ما عدا في مزارات المرابطين أو المساجد ، التي لا يمكن انتهاك حرمتها وقدسيتها . جاء بربري نبيل إلى المدينة مساء يوم الثاني والعشرين وتظاهر بأنه ليس من الموالين لسيدي يوسف ، وأنه لا يقر تدابيره ، ولكنه عاد إليه ثانية في الصباح الباكر ، وبعد مغادرته بزمن قصير ، أوقف الحراس كميات من المؤن والذخائر الحربية في باب المدينة ، التي حاول أن يخرجها من المدينة إليه .

هاجمت جماعة من سيدي يوسف المدينة قبل الظهر بساعة . شاهدنا سيدي يوسف لبعض الوقت جالساً كقائد للمنشية في السهل ، محل القائد الذي كان يشغله . في تلك اللحظة جيء بقائد المنشية لتنفيذ حكم الإعدام فيه في وسط القلعة ، و لكنه أعيد ثانية.هذه هي المرة الثانية في يوم واحد قاسى الأهوال والشدائد لتنفيذ حكم الإعدام فيه .

بعث الباشا ببعض المراسلين إلى الساحل لجمع الأعراب . فرأينا عدداً من الفرسان على مسافة بعيدة جداً ، قادمة من الغرب : شجعت هذه الحادثة الأهلين في المدينة ورفعت من معنوياتهم التي هبطت هبوطاً كبيراً .

أطلقت المدافع النار على جماعة سيدي يوسف طوال اليوم ؛ فأثرت تأثيراً حسناً في ردهم إلى الوراء . ولكن بالرغم من إطلاق النار المستمر ، فإنه لم تحدث إلا خسائر طفيفة من الجانبين . فقد سيدي يوسف خمسة من رجاله فقط ، وقتلت بعض الخيول التابعة للمدينة ، بالرغم من إطلاق أكثر من ثلاثة آلاف إطلاقة . ولم تحمل المدافع حتى على العربات . وكانت المدافع تطلق من قبل روسي بصورة سيئة الذي كان يهدف دائماً نحو البحر على يساره ، بدلا من أن يصوبها نحو السهل الواقع أمامه بالضبط . أؤكد لك بأن هذا الوصف كما يبدو شاذاً وغير مألوف ، لكنه حقيقي ، لأننا كنا نشهد كل إطلاقة نار .

كان موقع القنصلية الإنجليزية حصينا ومنيعاً ، لذا أصبحت في تلك اللحظة الحرجة الملجأ الأمين الوحيد من بين كافة القنصليات . فهي بناء كبير جداً مشيد أغلبه من الحجر بني منزلاً لإقامة الباشا منذ سنين مضت . استخدم أحمد الكبير الجهة التي تطل على الميناء من المنزل لتضم جزءاً من حاميته ، التي تغلق كل السبل المؤدية إلى المنزل . وكانت تقيم في هذه الجهة من المنزل اثنتان من ملكاته . أضيف هذا القسم بعد ترميمه إلى البناء . يعتبر الآن موقعاً قوياً جداً يكفي للقيام بمقاومة مقبولة ، لأنه معزول من ثلاث جهات . يتصل من الجهة الرابعة بمنازل البربر فقط التي ليست مرتفعة لتشرف عليه وتزعجه : ولهذا فإن سطوح البناء آمنة جداً ، فلا يمكن الوصول إليها من القسم الداخلي من المنزل ، لهذا نستطيع أن نمشي بكل طمأنينة وأمن في وسط القلاقل والفتن القائمة في الوقت الحاضر . شيد البناء على طراز المنازل البربرية بالضبط ، وبه ساحة مربعة الشكل في الوسط وشرفة ، تطل على رواق مفتوح تؤدي إليه الحجرات .

حالما وصل سيدي يوسف بالقرب من المدينة ، جلب الإغريق والمالطيون والبربر واليهود كل ممتلكاتهم إلى القنصلية الإنجليزية . وجلب أيضاً القنصلان

الفرنسي والبندقي أسرتيهما وكانت كل حجرة مملوءة بأسرة النوم ؛ واستخدمت الأروقة حجرات للطعام . وكان القسم المنخفض من البناء يضم السيدات اليهوديات والبربريات ومعهن كل ما يملكن من حلي ومجوهرات وكنوز . وكانت توجد إلى جانب ذلك مجموعة من الحلي والمجوهرات ترجع إلى الباشا كانت في عهدة بعض القناصل ، وكان من المفروض أن تسلم إلى الباشا في المستقبل .

جعلت كل هذه الظروف من الضروري جداً حراسة المنزل حراسة قوية بقدر الإمكان ولهذا الغرض أعد بعض السكلافنيين وغيرهم من البحارة ، مدفعاً صغيراً حصلوا عليه من إحدى سفن البنادقة ، ووضعوه على إحدى الشرفات وتهيأوا بأسلحتهم .

أوقف سيدي يوسف هجومه على المدينة حوالي الساعة السادسة مساء . وانسحب رجاله بعيداً ، وتوقف المدفع عن اطلاق النار ، ولكن كان من المنتظر أن يعود في سكون الليل . كان صياح حراس المدينة مستمراً وبدون انقطاع حتى انبلاج الفجر ،وكان القناصل في منزلنا يرقبون بالتناوب طوال الليل الأحداث والوقائع .

لما كان سيدي يوسف والاعراب التابعون له لا يزالون بعيدين عن المدينة ، فإن منزلنا قد خلا الآن من عدد كبير من ضيوفه ، ولكن ليس من السهل التنبؤ بما ستؤول اليه وضعية المدينة قبل أن أكتب لك ثانية .

١٤ يوليو ١٧٩١

الباشا يشك في سيدي احمد البك · سيدي يوسف يودع زوجته وابنه في مرقد المرابط الصيد · الباشا يحاول مفاوضة سيدي يوسف ·

منذ رسالتي الأخيرة أظهر الباشا ريبة غريبة وعدم ثقة بالبك ، وكما يبدو أنه يهدد حياة البك . فقد أصدر الباشا أوامره إلى الكخيا بالسماح إلى اثنين أو ثلاثة من حراسه لمرافقة البك عند قدومه ، وإذا كانت حاشيته الآن تضم أكثر من ثلاثة في القلعة ، فلا يجوز أن يتبعه المزيد من الحرس في الإستقبال الرسمي

للباشا ، وحين وصل البك ازداد عدد ضباط الباشا ، وأحاطوا الباشا بحلقة عند حضور البك ، وأمسك أمين المال (الخازندار) بندقية قصيرة ، وهو أمر غير مألوف . جعل عدم الثقة بالبك وضعه خطيراً جداً ؛ وأحس الطرابلسيون بالضياع ، فلا يدرون أي جانب يقفون في سلاحهم . إلا أن غيوم الشك التي نشرها الباشا أخذت تنقشع بالتدريج في غضون بضعة أيام ، فأعيد البك إلى سابق ثقته .

وصلت الأنباء القائلة بأن سيدي يوسف قد سيطر على مساحات واسعة من البلاد ، وأنه يحاول أن يجمع قوات ، ولكن باءت تلك المحاولات بالفشل حتى الآن . ولم يقابل مقابلة حسنة من قبائل بني وليد والترهونية ، واعتمد في مسلاته كثيراً على حاكم المنطقة ، وهو زوج زنوبيا الشهيرة ، محبوبة البك الراحل وعزيزته ، الذي كان لا يزال متذمراً وغاضباً لاغتيال البك ، والذي وجد من المستحيل أن يقف في وجه سيدي يوسف فقرر الهروب . دمر سيدي يوسف كل ممتلكاته ، ورجع ثانية إلى الجبال تاركاً اللالة حواء زوجته مع طفله وأمها في مزار الصيد . كان سيدي يوسف في تلك اللحظة الحرجة منفعلاً جداً ، ومتردداً في شعوره ، فقد عاد ثلاث مرات إلى المرابط قبل أن يستطيع أن يأخذ قراراً للرحيل بدون زوجته وطفله . بعد سفره كان حزنهما وبؤسهما عظيمين بسبب قلة المؤن والملابس ، حتى تأثر الباشا كثيراً عندما طرق سمعه نبأ شقائهما وما يكابدان من آلام ، فقدم للأميرة ولطفلها وأمها ملجأ في القلعة ؛ ولكنها رفضت قبول ذلك الإنقاذ من بؤسها ، لأنها تلقت أمراً من سيدي يو سف يطلب إليها البقاء في مزار المرابط حتى يعود إليها ليأخذها ، أو حتى تسمع أنه قد فارق الحياة . وإذا ما تحققت النكبة الأخيرة ، فقد أمرها سيدي يوسف بأخذ طفلها إلى الباشا والذهاب بنفسها إلى القلعة ، إذا سمح لها التمتع بمثل ذلك اللجوء. تلك هي التعليمات الأخيرة التي تلقتها من الأمير ، تأمرها بوجوب الإلتزام بها بكل دقة ولا شيء يحول دون تطبيقها غير الموت . ولايستطيع أي شخص إذن إكراهها على مغادرة مزار المرابط الصيد ، بالرغم من أنها وأطفالها قد يتعرضون

إلى خطر المجاعة ، فقد تمنع عنهم امدادات الطعام واللباس بموجب القانون ، لأنهم هربوا ولجأوا إلى تلك الملاجيء المقدسة ، والتي من التقاليد المرعية أن يمنع عن المجرمين الهاربين الطعام واللباس ، فإما أن يموتوا جوعاً أو أنهم يسلمون أنفسهم ، فلا يمكن الإستمرار في المقاومة .

لذا رفضت الأميرة أن تغادر مزار المرابط الصيد . فتأثر الباشا لما تقاسي من الآلام والمصائب هي وحفيده الصغير فسمح بنقل الملابس والمؤن إليها من القلعة .

اضطر البك في الأيام القلائل الماضية أن يبعث ببعض الفرسان إلى السوق الذي يعقد كل صباح يوم جمعة على بعد بضعة أميال من المدينة ، والذي يسمى السوق الكبير لأنه كان يخشى أن يتعرض للأذى والإساءة من قبل جماعة سيدي يوسف خلال ساعات افتتاحه .

٣ اغسطس ١٧٩١

سيدي يوسف يبعث بثلاث رسائل . الباشا يرسل وفدا .

لم نر أثراً لسيدي يوسف ولجيوشه منذ الهجوم الذي شنه على المدينة في الشهر الأخير ، ولكن منذ ذلك الوقت بعث بثلاث رسائل إلى الباشا يلتمس فيها قبول عقد الصلح على أية شروط يرتأيها . قام أحد الضباط المسمى (بوسنينه) من الموالين للباشا بنقل رسالة ، ونقل حفيد الباشا الرسالة الثانية . وكان من الموالين لسيدي يوسف ، ونقل الرسالة الثالثة ابن رئيس الجمارك الذي كان من المنتظر أن يقطع سيدي يوسف رأسه ؛ حيث توقع جميع أفراد أسرته والناس ذلك ، لأن والده كان من أنصار الباشا وأكثرهم تفانياً في خدمته وفي بذل المزيد من الجهود لطرد سيدي يوسف من أسوار المدينة . ولكن سيدي يوسف لم ينتهك التقاليد المرعية في البلاد ، ولم ينقض القوانين الخاصة بإكرام الضيف ، فبعث برسالة إلى رئيس الجمارك نقلها ابنه قائلاً له : «أخبر أباك بأني لا أجهل بأنه هو الذي صوب فوهات بنادقه نحوي بالأمس من القلعة ، وأني لا أريد الإنتقام

بالقضاء على حياتك جزاء وفاقاً لكل نواياه نحوي ، لأن القيام بذلك يعد خرقاً لقوانين الضيافة ، أخبره بأني سوف لا أدع أول فرصة تسنح دون الإنتقام منه » .

لم يمض وقت طويل منذ أكرهت سيدي يوسف حماته ، وطلبت إليه بكل شدة أن لا يخرق أبداً قوانين إكرام الضيوف المرعية في هذه البلاد .

وقبل أن يغادر سيدي يوسف حدائقه ليشن هجوماً على طرابلس ، رغب الباشا في عقد صلح معه ، فأرسل كبار ضباطه استجابة لالتماس تقدم به سيدي يوسف للشروع بالمفاوضات معه ، فكان من بينهم الكاتب والكخيا ورئيس البحرية وحامل السيف . أربعة أشخاص ، قيل عنهم من قبل ، بأن سيدي يوسف قد اتخذ قراراً يقضي بإعدامهم ، حين تسنح الفرصة .

وعندما علمت حماته بأنه ينوي وضع السم لهم في المناسبة الحاضرة ، استدعت سيدي يوسف من الرواق الذي يحيط بوسط الحوش المبلط بالرخام ، ومدت ذراعيها اللتين تحملان ابنه ، معلنة بأنها سترمي الطفل إلى وسط الحوش ، إذا لم يقسم اليمين حالاً بأنه سوف لا يقوم بعمل يخرق فيه قوانين إكرام الضيوف في منزلها آنذاك وقالت : « دع هؤلاء الموظفين يسقطون في أي اسلوب آخر ، أما الآن فدعهم وشأنهم ، فقد قدموا إلى منزلنا أصدقاء وهم تحت حمايتك الصريحة ، ليقابلوك تحت سقف منزلي». فسيطر رأيها الثابت وبذلك نجا هؤلاء الناس المخلصون بحياتهم .

١٦ أغسطس ١٧٩١

بعثت اللالة فاطمة بثلاث رسائل مع ثلاث بدلات من الملابس إلى سيدي يوسف ولكنها لم تصل اليه. فجاء مرابط آخرغير (فطيس) إلى الباشا ليخبره بأن سيدي يوسف بأشد الحاجة إلى بدلة من الملابس وإلى بعض الأغطية ، ولكن الباشا لم يستجب لكل التوسلات وأمر بحجز كافة الملابس والأغطية في حجرات سيدي يوسف في القلعة .

منذ وصول الانباء التي ذكرتها أعلاه ، انضمت قبيلة الترهونة (١) لسيدي يوسف : وهي قبيلة عربية تعد ما يقرب من ثلاثة الاف رجل محارب لكل منهم بندقية ، وتملك ما يقرب من خمسمائة حصان . بالاضافة إلى هذه القوة أعلن المصراتيون صراحة، ولو أنهم لا يقاتلون ضد الباشا، ولكن اذا ما لجأ اليهم سيدي يوسف فأنهم سيدفعون عنه اعداءه . بعد وصول هذه الانباء ، أرسل سليمان آغا أحد قواد الباشا من الأعراب ليدافع عن تاجوراء (٢) وأرسلت كمية من الذخائر إلى تلك المنطقة ؛ حيث توجد قلعة حصينة ، ولها جسر في حالة جيدة يفتح ويغلق .

لأجل أن أعطيك فكرة عن كيف تدار الأمور هنا بشيء قليل من الحكمة والروية ، أضرب لك المثال التالي : فقد نفى الباشا أمس ثلاثة من الموالين الأصدقاء لسيدي يوسف إلى تاجوراء فوضعهم في سفينة دون أغلال تقيد أيديهم ، وسمح لخدمهم الخاص بمرافقتهم ، فمن المؤكد ان يتفقوا مع خيرة ما في السفينة من ملاحين ، وينزلوا على الساحل في المكان الذي يرغبون فيه .

منعت اللالة حلومة اللالة فاطمة من الحضور ؛ لان هذه الاميرة الأخيرة تتدخل كثيراً في الانقسامات القائمة بين أخويها وتزيد نيران الحقد اشتعالاً ، وأن تحزبها الشديد لسيدي يوسف يجعلها تعمل بصورة غير عادلة ضد البك ، الأمر الذي يزيد الحالة سوءاً وألماً وحزناً بالنسبة للالة حلومة .

لا تؤثر هذه الأنباء فيك كما تؤثر فينا ، فنحن نشعر شعوراً أكيداً لكل جزء من هذه الأسرة البائسة الشقية ؛ مع أننا لا نرى إلا القليل منهم في الوقت الحاضر بسبب ضيق المجال ولو أنهم يرجوننا كثيراً ويتمنون زيارتنا لهم ، إلا أن الاتصال المستمر مع الأعراب الآن ، يجعل الدخول إلى القلعة في هذه المرحلة مؤلماً وربما طائشاً .

---

(١) عرب من ترهونة ، مدينة تبعد عن طرابلس ستين ميلا .

(٢) واحة ساحلية تقع على بعد بضعة اميال شرقي مدينة طرابلس .

٢١ سبتمبر ١٧٩١

قرار القناصل بتسفير العائلات · دخول الاعراب مدينة طرابلس · زيارة اللالة خدوجة ·

قرر القناصل بعد أن اختتمت رسالتي اليك إركاب العائلات على ظهر السفن الراسية في الميناء ، وأمرها بالابحار من الساحل عند الضرورة حين يظهر سيدي يوسف في المدينة لأنه في الوقت الذي يضم في صفوفه أعظم الأعراب جشعاً وسلباً ونهباً ، ولأنهم من المنتظر أن يشقوا طريقهم من كل مدخل يؤدي إلى المدينة .

دخل فريق من قوة النوائل التابعة للشيخ خليفة إلى المدينة في اليوم المتوقع الذي يشن سيدي يوسف هجومه على هذه المدينة ؛ ليدعم موقف الباشا . الا ان أفراد هذه القوة سرعان ما غادروا المدينة بدعوى أنهم ساخطون ومتبرمون ، فذهبوا إلى نهب وسلب البربر في المنشية . بعث الشيخ خليفة ابنه وراءهم يدعوهم للانسحاب إلا أنهم بدلاً من العودة حملوا معهم الأسلاب والغنائم .

لما كان سيدي يوسف على مسمع ومرأى من المدينة فانه يكفي لأن يجعلها في حالة من الهلع والذعر المستمر ، دون أن يهجم عليها . فاغتنمنا فرصة عدم هجومه للقيام بزيارة إبنة الباشا الكبرى اللالة خدوجة ، التي كما ذكرت سابقاً تعيش خارج المدينة ووجدنا معها أختها اللالة عواشة زوجة رئيس البحرية وعدداً آخر من السيدات من القلعة جئن لزيارة اللالة خدوجة لمناسبة ميلاد ولدين في الأسرة ، الأول ابنها والثاني ابن ابنتها ، وهو أمر مألوف كثير الوقوع هنا ، أكثر بكثير مما يحدث عندكم ، لأن السيدات في هذا الجزء من العالم يتزوجن مبكراً .

رأينا في حجرة اللالة خدوجة زوجة قائد المنشية ، احدى الشقيقات الثلاث السوداوات اللواتي كن محظوظات عند الباشا . لقد مرت هذه المرأة ، التي هي مثال فريد للحظ السعيد بتزويجها من قبل الباشا لبربري من طبقة مرموقة ؛

بتغيير محزن بسبب فضيحة زوجها قائد المنشية الذي جيء به مرات عديدة إلى القلعة ونفي في آخر الأمرمن البلاد وصودرت كافة ممتلكاته من قبل الباشا. تفضلت اللالة خدوجة كرماً منها أن تستقبلها في منزلها ، فان هذا الجمال الأسود (كما تدعوه) شخصية جذابة مريحة حتّى في الحالة المحزنة التي هي فيها .

كانت توجد في الحجرة جاريتان سوداوان لطيفتان ورشيقتان اشتّريتا حديثا من السوق (البزار) ممرضتين لطفلي اللالة خدوجة وابنتها ، وكانتا ترتديان الملابس الفخمة المعتادة ، وليستا متوحشتين مثل الجواري اللواتي يتم شراؤهن بصورة عامة .

ومما استّرعى انظارنا من بين الزخارف في الحجرات عدد من العصي ذات الرؤوس الذهبية ، معلقة بدون نظام ولا ترتيب على الجدران ؛ وقد أخبرنا بأنها أوسمة شرف ، تدل على أن أصحابها من أفراد الطبقة الممتازة الأولى في الحكومة ؛ فان الكخيا وضابط الميناء وحامل السيف ، هم الذين يستلمون تلك العصي ذات الرؤوس الذهبية من الباشا أو البك ؛ ليحملوها عندما يخرج أي واحد منهم على رأس قوة عسكرية .

كانت الأنباء التي وصلت من القلعة إلى اللالة خدوجة محزنة ومؤسفة جداً ، فقد تحدث كل واحد بفزع ورعب عن سيدي يوسف ، ويخشى كل واحد على البك الحاضر من أن يقع ضحية باردة لدسائس أخيه كما وقع البك الراحل .

كانت اللالة حلومة مريضة جداً لا تقوى على زيارة اللالة خدوجة بهذه المناسبة . وقد أبدت الاميرات أسفهن على موقف أختهن اللالة فاطمة الـتّي كانت تؤيد سيدي يوسف . ذكرن بأنها تسهم إسهاماً كبيراً في كل شيء يمت لسيدي يوسف بصلة ، الأمر الذي اضطر البك اللين الخلق والمتساهل الطبع والحذر أن يبعث لها قبل بضعة أيام برسالة عن طريق شخص موثوق به ؛ يحذرها من التمادي بالتدخل بما يتصل بأمور الحكومة أو سيدي يوسف فبالرغم من كونه أخاها فانه سيكون مضطراً لتنفيذ حكم الاعدام فيها . ومع ذلك فان

الرسائل الخاصة لا زالت تنقل من اللالة فاطمة إلى سيدي يوسف .

لم تحضر أرملة البك الراحل ولا زوجة البك الحاضر هذا الاحتفال . فلا زالت السيدة الأولى بحالة حزن عميق ، والثانية بائسة وشقية جداً ، من الوضعية الحرجة المقلقة التي تحيط بزوجها في الوقت الحاضر ، والتي تحول دون قبول مواجهة الناس .

٣ أكتوبر ١٧٩١

زيارة اللالة زلومة · مأساة حاج يوسف ·

عدنا الآن من زيارة قمنا بها لإحدى الشخصيات الوجيهة المرموقة من البربر ، التي كانت موالية وفية للبك الراحل بعد أن كانت زوجته اللالة زلومة تستقبل بترحاب عظيم في القلعة أصبحت الآن منبوذة غير مرغوب بها ، بسبب الغيرة التي تنهش قلوب السيدات اللواتي يحظن بالباشا ، الذي يمنع ، بقدر الإمكان ، كل ضباط البك الراحل من الاقتراب اليه ، لأن اقل عطف يبديه الباشا قد يؤدي إلى تفضيلهم .

عاش حاج يوسف زوج اللالة زلومة في رخاء وبحبوحة من العيش على أيام البك الراحل. كانت نساء الأسرة محملات بالحلى من الذهب ، كما تقول ، وجواريهن يتفيأن في ظل أشجار تين الجميز ولكنهن سقطن تحت أقدام الظلم والاهمال ، المصير الذي كان ينتظر كل اولئك الذين أحبوا البك الراحل وأخلصوا له . لقد أصبح حاج يوسف مثالا يضرب به لسوء الحظ وتقلب الزمن . اضطر بالإكراه أن يغادر المنزل الواسع والحدائق الغناء التي كانت تحيط به في الريف وجاء بأسرته إلى المدينة ، ليسكن في خرائب وأطلال . وظل ينتظر مدة طويلة وظيفة كان قد وعد بها من قبل كبيروزراء الباشا، إلا أن هذا الوعد لم يكن غير ستار لاضطهاد واضح وجلي ، فأضاف بذلك الآلام المبرحة لشقائه وبؤسه . دخل حاج يوسف الحجرة قبل مغادرتنا لها .

إن هذه السيدة هي زوجته الثانية ، فقد توفيت زوجته الأولى ، وكل أطفالها ، في وباء الطاعون الاخير . كان وصفه للحالة المؤسفة التي كان يعيشها جديرة بالاعتبار كما كانت مؤلمة ومؤسفة حقاً . كانت أسرته تسكن خارج المدينة . فبعد ان وقعت زوجته ضحية للمرض ؛ توفي كل ما لديه من خدم بسرعة ، حتى لم يبق أحد يعنى بالأطفال ويرعاهم. كان هو نفسه، في ذلك الوقت ؛ عرضة لاعتلال الصحة والمرض . لا يقوى على السهر ليلا والتنقل من حجرة إلى أخرى ليرعى الاطفال عند نومهم ؛ لأنه كان يعارض فكرة وضعهم جميعاً في حجرة واحدة ، آملا أن يفلت أحدهم من الوباء .

لم يستطع البقاء معهم ، فاستأذن بالانصراف منهم في المساء بعد أن وضع إبريقاً من الماء بالقرب من سرير كل واحد منهم . وفي الصباح ، لم يقو على الحركة ، فذهب قلقاً من حجرة إلى أخرى يتفقدهم فكان يجد في كل يوم واحداً منهم يلفظ أنفاسه الأخيرة ، أو أنه قد توفي حتى قضى آخرهم نحبه .

إلا أن ما يقض عليه مضجعه ويؤلم نفسه هو أمر دفنهم ، فقد تأخر طويلا بسبب مرضه وقلة الناس الذين حوله ، حتى أصبح من المستحيل دفن جثثهم . ظل ينتظر أياماً عديدة دون جدوى إذ لم ير كائناً بشرياً حياً . وظل محروماً من الطعام أياماً عديدة فانهارت قواه ، وضعفت مشاعره ، إلا أن الضرورة كانت تدفعه إلى النهوض والبحث عن غذاء في المنزل ، وبهذا الأسلوب استطاع أن يعيش حتى تعافى وأستعاد قوته ؛ ليقوم بدفن جثث الأطفال الموتى ؛ وليهجر منزله المخيف المرعب .

عندما دخل حاج يوسف شقة اللالة زلومة كان قد رجع خائب الرجاء فاقد الأمل من القلعة ، فتحدث عن أخذ أسرته إلى تونس . حين ندب البك الراحل ، أكد بكل ثقة الحكمة القرآنية بأن مصير كل شيء في الحياة بيد الله وكل شيء في لوح مكتوب ، وضرب مثالا لذلك اغتيال البك الراحل . الذي حذره جميع أصدقائه عن الدسيسة القاضية التي كانت تنتظره ، والتي كان بالإمكان بشيء من الشجاعة والموهبة والقوة أن يردها ويتفادى أثرها ولكن لم

يكن من الممكن إقناعه ولو لحظة واحدة بأنه عرضة للخطر .

لقد ذكرتنا هذه الزيارة بأمور إنسانية أكثر عمقاً وأرهف إحساساً من مجرد كونها تقاليد وعادات لأولئك الذين نعيش معهم هم من البربر. فقد اتكأت زلومة على ذراع زوجها بدون حجاب ، وتحدثت بثقة مطمئنة البال ، كان حديثهما معقولا وأفكارهما تطابق تطابقاً كلياً أفكارنا . تقدمنا بدعوة اللالة زلومة هي وابنتها لتناول العشاء في منزل القنصلية الانجليزية .

وعندما أخبرت بعدم وجود خدم رجال ، وحتى القنصل نفسه لا يحضر العشاء ، وأنه يتغيب عن المنزل طوال الوقت الذي تحضر فيه إلى المنزل ، عبرت عن عظيم شكرها وامتنانها لهذا الفضل الذي طوقت به ، لأن مثل هذا الاهتمام لا ينتظر من القنصل إلا عند زيارة الأميرات أو زوجة السفير .

أخشى أن لا نتمتع طويلاً بحرية زيارة الأصدقاء البربر ، لأنه يشاع بأن سيدي يوسف يقترب من طرابلس ثانية ، وأن جميع البرابرة الوجهاء المحترمين في المنشية يجلبون عائلاتهم إلى المدينة .

٢٠ نوفمبر ١٧٩١

سيدي يوسف يحيط بالمدينة · الباشا يطلب النجدة الاعراب يهددون المدينة ·

سيدي يوسف بالقرب من المدينة ، تضرب جيوشه ، من التلال (١) المجاورة الطبول وتهزج أهازيج الحرب في كل ليلة ، يدعون كل أولئك الذين يرغبون بالانضمام إلى صفوفهم . طلب الباشا النجدة ثانية من الجنود والبحارة في السفن الأوربية التي جيء بها إلى الساحل لينقذوا القلعة في تهديف نيران المدفعية . بالطبع لا يعطيك هذا الوصف فكرة حسنة عن الطرابلسيين كمحاربين ،

(١) من المحتمل أن تكون التلال الرملية التي تبعد حوالي خمسة أميال الى الجنوب الشرقي من المدينة ·

إلا أن مرحلة السلام الطويلة التي سبقت هذه الأوقات العصيبة جعلت أهـــالي طرابلس غير معتادين على الإستعدادات الحربية .

لم نستطع القيام بنزهة على ظهور الخيل منذ أشهر عديدة ، ما عدا المسافات القصيرة جداً عن المدينة ، أما في الوقت الحاضر فقد حرمنا حتى من أمل المرور من أبواب المدينة لأن سيدي يوسف وقواته على مرأى منا . نقل سيدي يوسف أسرته من مرابط الصيد إلى حدائقه . كثيراً ما يختلط سيدي يوسف بجنوده في جرد عادي ، يلتف فيه ، ولا يمكن تمييزه عن الاخرين ، بحيث يصعب التثبت من شخصيته لعدة ساعات ، ويتعذر العثور عليه . يقوم بذلك ليعرف بالضبط مدى تأثر الأعراب الذين يقفون إلى جانبه بقضيته .

تشكو مدينة طرابلس من قلة المواد المستوردة من الريف : فلم ينقل من الريف شيء ، ولم يستطع البربر أن يخاطروا بأنفسهم خشية السلب والنهـــب من القوات التابعة لسيدي يوسف ولا يمكن الحصول على الدجاج واللحم الطازج حتى ولو بيضة واحدة دون مواجهة صعوبات كبيرة وخطيرة وبتكاليـــف باهظة جداً . وقد تم الحصول على الخضر وغيرها من المؤن بالمخاطرة بحياة أولئك الذين أرسلوا بطلبها .

يشاع الآن أن طرابلس قد يستولي عليها الأجانب ، والأعراب الجبليون الذين لم يروا طرابلس من قبل ، الذين يدورون حولها كل يوم ولا يدعـــون الفرصة تمر دون إفزاع الناس وإرهابهم . معظم هؤلاء الناس من القبائل الشديدة المراس التي لا تقهر ، والتي تسكن في بقاع لا يمكن لأي فرد أن يلج فيهـــا ما عداهم هم أنفسهم . حاول عدد من الولاة إخضاعهم ولكنهم اضطروا على الانسحاب بعد أن تكبدوا خسائر فادحة فرجعوا فاشلين فعندما يفر الأعراب يتبعهم عدوهم ، فيهربون أمام العدو إلى منازلهم المأمونة ، في الاحراج الكثيفة التي لا يمكن اختراقها في المنخفضات المخيفة بين سلاسل الجبال العالية ؛ أو أنهم ينزلون إلى الكهوف المنحدرة التي سبق وأن وصفتها لك والتي بنوها في جوف الأرض ، حيث لا يستطيع عدوهم الاستمرار في متابعتهم ، إلا أفراداً

وفي هذه الحالة يمكن ان يذبحهم أولئك الذين ينتظرونهم في تلك الملاجىء المخيفة. يهبط الأعراب من جبالهم ليسرقوا القرى المجاورة ، ويسلبوا القوافل القادمة من تلك الأقطار التي لا تدفع مالاً مقابل ضمان أمنها وسلامتها .

يتميز هؤلاء الأعراب بشيءٍ في مظهرهم وسحنتهم خاص بهم ، ومن السهولة تمييزهم عن غيرهم من الذين يدعون هناك «الجبليين» ، فالجبليون مدججون بالسلاح أكثر ، وهم أحسن قيافة ، ولكن تلك القبيلة الشديدة المراس التي لا يقهر أفرادها ، تنفرد بمظهر عسكري عنيف ، محتال وخادع ، ليست بشرتهم سوداء ، وانما لونها نحاسي غامق ، وقاماتهم عامة طويلة ، حسنو النية وأشكالهم لطيفة ، يرتدون الجرود السوداء التي تغطي أجسامهم تماماً ، يرفعون بنادق طويلة . هذا كل ما يحملون عادة معهم . يرث الكثيرون منهم السلاح والخيل عن آبائهم ميراثاً لا ثمن له ، ويقسمون اليمين عند وفاتهم بأن يأخذوا الثأر من أعدائهم .

لا ينقض هؤلاء الأعراب على غنائمهم إلا على هيئة جماعات كبيرة . ولا يستطيع المسافرون اجتياز الطريق في مناطقهم بسلام وأمن إلا بسرعة وبمباغتة غير متوقعة ، وبجماعات كبيرة جداً لإدخال الرهبة في نفوسهم بكثرة عددهم وبقوتهم .

٨ ديسمبر ١٧٩١

رفض قائد المنشية الحضور · سيدي يوسف يستميل قبيلة عكاز · قلق السلطان التركي على حالة طربلس ·

طلب الباشا إلى قائد مسلاته الحضور ، إما لأنه يرتاب منه ويشك به ، أو لأنه يريد أن يستشيره ، إلا أن القائد رفض الحضور معتذراً بوجوب بقائه في مسلاته ليدفع عن الناس الضرر . أما عذره الحقيقي في عدم تلبية طلب الباشا للحضور ، على كل حال ، والذي ظهر وقتئذ على أفواه كل المسلاتيين فلأنه

انضم إلى صفوف سيدي يوسف . ولكن التقارير التي جيء بها اليوم كانت أكثر هماً وغماً من هذه الأنباء ، ليس للباشا وحده فقط وانما لجميع الناس هنا ، والتي تقول بأن سيدي يوسف قد استطاع أن يستميل قبيلة عكار (١) إلى جانبه . أخذ بعض الرعاة الذين يتعهدون برعاية مواشي الباشا وقطعانه كل الحيوانات من بينها بضعة آلاف من رؤوس الأغنام. فشعر الناس في طرابلس بقساوة الضياع وفقدانه ، فليس من الممكن تعويضها إلا بطلب المؤن من مالطة أو غيرها من بقاع العالم .

تم صنع ما يقرب من ألف بندقية هنا في الأيام الأربعة الأخيرة ، وهو جهد يستحق الأعجاب والثناء ، يقول الناس بأن المدينة أكثر مناعة وأحكم تحصينا مما كانت عليه منذ عدة سنين ، ومن المنتظر أن تبرهن على قدرتها في المقاومة ضد هجمات سيدي يوسف .

ومما زاد في متاعب الباشا ومآسيه ، بالاضافة إلى القلاقل والفتن في داخل البلاد ما أشيع بأن السلطان التركي قلق وغير مرتاح من الحالة الحاضرة للحكومة في طرابلس ، وأن تقارير مستمرة تتنبأ عن نواياه في إعادة الحامية التركية ، مثلما كان موجوداً في السابق تحت حكم باشا تركي ، وقيل بأنه عين وهو في طريقه إلى هذه البلاد .

لقد كان من حظنا أن نقيم في طرابلس خلال مرحلة من أعظم المراحل نفوراً وكراهيةً للنصارى في ذاكرة كل واحد هنا . زادت المجاعة سوءا بالوباء الذي أعقبها ، وتلتها حالة الحرب الداخلية ، كل هذه الأسباب قضت على تلك المملكة البائسة . منذ وطئت أقدامنا أول مرة سواحلها ، كان سكانها يتمتعون بالصحة والعافية ، وكانت التجارة مزدهرة وكان السلام والأمن والخصب قد أسبغت جميعها على البلاد حلةً من النمو والازدهار لاعظم فترة في ذلك القرن. أنا آسفة للقول بأنه لا أمل لنا بمشاهدة مثل تلك الازمنة المزدهرة

---

(١) من المحتمل ان يكون خطأ مطبعيا فالمقصود عكاز ــ قبيلة من جنوب تونس (الناشر) ولكنني اقول ان هذا التعليق خطأ والمؤلفة صادقة لان عكار قبيلة عربية ــ من بني سليم تسكن ليبيا ولكن حدث خطأ في كتابة اسم القبيلة فبدلا من عكار كتبت « عكاز » . (المترجم) .

١٨ يناير ١٧٩٢

سد كافة المنافذ والمسالك من ضواحي طرابلس .

تبدو هذه السنة مدينة طرابلس كالسنة الماضية ، غارقةً في خضم من المصاعب والكوارث فلا يمر يوم واحد دون أن نسمع عن عائلات صودرت ممتلكاتها وسلب حلالها ، فلجأت إلى المدينة ، بحالة يرثى لها من الفقر والبؤس تستعطف الناس . وفي مثل هذه الفوضى العامة الذي تجتاح المدينة من المستحيل أن يكشف الانسان اعداءه من أصدقائه ، والحرب تحيط بنا بموجة من الرعب والمخاوف ، ومما يزيد الطين بلة ويحز الألم هو أنها تنشب بين أب وأبنه .

لا يزال سيدي يوسف يستعمل أقصى ما لديه من نفوذ ليثير الأعراب ويغذي حماسهم للوقوف مسلحين إلى جانبه ، وهم ينضمون اليه بسرعة فائقة ، ويؤيدونه كل التأييد فعندما يبعث الباشا إلى واحدٍ من شيوخ الأعراب لنجدته ، فان شروطه لقبول دعوة الباشا للانضمام اليه غير معقولة جداً، بحيث يكون من المستحيل عليه استخدامه . يقيم سيدي يوسف الآن في زواره على الساحل ، التي لا تبعد كثيراً ، وتتوقع مدينة طرابلس قدومه باستمرار ، لذا فقد تم سدّ كل المنافذ والمسالك من ضواحي طرابلس إلى الرمال بالاحجار ، لتحول دون وصول قواته .

بالرغم من كل المساوىء التي تتصف بها هذه البلاد ، فلا يزال هناك سبب يدعونا إلى الاعتراف بأنها لا تسيء معاملة النصارى مثل دول بلاد البربر الاخرى . لقد طرق سمعنا بأن مولاي يزيد قد اعتلى عرش أبيه على ارهاب رعاياه واضطهادهم ، وأنه قد أصدر حكم الاعدام بالرجل الذي كان يشغل منصب الوزير الأول لأبيه ، وقد أمر بتعليق رأسه على باب في دار القنصلية الاسبانية ، ودق يديه على الباب لإزعاج الأسرة وإقلاقها ، لأنه كان يشك بأن هذا الوزير يعمل لصالح الاسبان .

ومما يرهب النصارى ويخيفهم في هذه البلاد ، أن ينفجر الأعراب فجأة

في المدينة ولا شيء يستطيع ردعهم والحيلولة دون نهبهم وسلبهم ، ولا توقفهم رايات الدول المرفوعة على دور القنصليات عند حدهم التي لا يكترثون بها اذا لم يكبح البربر جماحهم ، الذين يتفوقون عليهم حقاً قوةً وسيطرةً .

١ فبراير ١٧٩٢

محاولة اغتيال بك تونس . وفاة الامير بوتيمكين .

وصل بعض التونسيين حديثاً من الذين أرسلهم البك في تونس إلى الباشا، فجلبوا معهم النبأ المذهل العجيب النادر عما حدث لبك تونس . يقول النبأ إن البك في تونس قد عزل نفسه عن الناس لعدة أيام ، بسبب القلاقل والفتن التي انتشرت في البلاد . وفي صبيحة يوم من الأيام ، منذ بضعة أسابيع خلت ، قبيل آذان الفجر ، سمع ضباط البك صراخاً مرعباً ينبعث من الحجرة التي ينام فيها البك ، فهرع الحراس مباشرة للموقع . كانت حجرة البك مغلقة غلقاً محكماً ، فأضطروا إلى اطلاق النار على القفل ، وفتح الباب عنوة ، فوجدوا البك في الحجرة ، كان رجلاً قوي البنية ، يتصارع مع ثلاثة من مماليكه : ثلاثة من الفتيان ، لم يتجاوز عمر أكبرهم سبعة عشر عاماً . تم القاء القبض على واحد من هؤلاء القتلة السفاحين وتوفي بعد نصف ساعة من اعتقاله . أما الشابان الاخران ، اللذان فشلا في ارتكاب جريمتهما ، وسبق أن اتفقا على إشارة بينهما . فقد اختطف في الحال كل منهما مسدسه من جانبه ، فأطلق أحدهما على الاخر النار . فسقطا جثتين هامدتين على الأرض . لقد أثار هذا المشهد دهشة واستغراب الحاضرين حتى لم تكد عيونهم تصدق الوقائع التي ضمها ذلك المشهد ، وقام بها أطفال. انتهت هذه المأساة الرهيبة بأن تناول الشاب الثالث سماً خفية فأدى إلى موته فجأة .

وصلت رسائل اليوم من المبعوث البندقي في روسيا لأخيه هنا، تحمل أنباءوفاة الأمير بوتيمكين الذي من المحتمل أنك لم تسمع بتفاصيل الحادث . كان هذا

الامير من القواد الروس المظفرين الذي تحقّقت على يديه أعظم الانتصارات ضد الأتراك بالرغم من أنه أشرف على الثمانين من عمره ولكنه قضى حياته في حرب مستمرة . حين شعر بانحراف في صحته قام برحلة من شبه جزيرة القرم إلى جزء آخر من البلاد ، قبل بضعة أسابيع ، تصحبه الكونتيسه بوتيمكين ، احدى قريباته ، تغييراً للهواء والنزهة . وبعد رحلة استغرقت بضعة أيام ، ترجلا من العربة يتنزهان مشياً على الاقدام ، ولما لم يجد الأمير نفسه بصحة جيدة ، اتكأ على ذراع الكونتيسه ، واقترح أن يستريحا تحت الظلال الوارفة لبعض الأشجار ولم يستغرق به المقام بالجلوس إلى جنبها حتى قضى نحبه في دقائق معدودات .

خلف كنوزاً هائلة من الثروات إلى امبراطورة روسيا التي أبلغت بنبأ وفاته في الحال. فقدوصلها النبأ عندما كانت في استقبالها الرسمي الذي يعدّ في القصر فصرفت ضيوفها،وانسحبت إلى حجراتها وظلت تعاني آلام مرض شديد عدة أيام .

وبالرغم من أن الأمير بوتيمكين قد ترك ثروات وكنوزاً تستحق كل القبول والرضا من سيدته فانه قضى معظم أيام حياته في بذخ وإسراف . كان مشهوراً بحفلات أنسه ومجونه وليالي طربه ، التي تكلف مبالغ طائلة جداً . أقام قبيل وفاته بمدة قليلة وليمة عشاء فخمة جداً . وعند تقديم الحلوى وضع شجرة برتقال مليئة بالورود والأزهار وبالفواكه من الذ وأشهى الأنواع ، لأن مثل هذه الفاكهة يزرع في أواسط الشتاء في المنطقة المتجمدة من سيبيريا ، بحيث أن كل برتقالة تعادل في ثمنها وتكاليفها أكثر من وزنها ذهباً .

١٠ مارس ١٧٩٢

اشاعة سفر سيدي يوسف ٠ قلة الاطعمة ٠

أشيع بأن سيدي يوسف ذهب إلى تونس يلتمس العون والنجدة من البك ، أما الآن فقد أصبح واضحاً ومعلوماً بأنه مختف في المنشية، ولو أنه لم يكشف عن نفسه لأي فرد ما عدا أفراد حاشيته السرية .

من النادر أن تتواجد المؤن في طرابلس في الوقت الحاضر بأي سعر كان . واليهود حذرون جداً ، فقد أخفوا أموالهم ،أو أنهم يقرضونها بفائدة عاليةجداً، بحيث لا تكون ذات جدوى بالنسبة لأولئك الذين يضطرون على أخذ القروض .

١٨ مارس ١٧٩٢

رفض الباشا طلب النجدة .

ذهب القنصل البندقي أمس إلى القلعة نتيجة للتهديدات والانذارات الجديدة التي وجهتها قوات سيدي يوسف، التي كانت على مسمع ومرأى تتجمع بأعداد عظيمة، وقدم للباشا اقتراحاً بنجدة وعون القوات الموجودة على ظهر السفن التابعة للبندقية والتي رست في الميناء طلباً للمؤن ، والعاملة في الحرب الدائـــرة بين البندقية وتونس . وهم جنود ذوو ضبط عال ، معظمهم من السكلافونيين ، المزودين بالذخيرة الحربية ، وقد يحدث أشتراكهم في النزاع فرقاً عظيماً في ميزان القلاقل والخصومات القائمة الآن . ولكن مما أثار دهشة واستغراب كل فرد أن الباشا قد رفض ذلك العرض . والأدهش من هذا القول بأن سبب رفضه هو توفير الفرصة المؤاتية لنجاح سيدي يوسف في الاستيلاء على المدينة . لم يستطع الباشا بالطبع أن يكشف عن هذه الفكرة إذ يخشى كراهية البلك وتذمر أصدقائه .

لاتزال زوجة سيدي يوسف وأبنه في مزار المرابط الصيد ، ترتدي ملابس بدوية عربية ،فليس على جسمها غير الجرد يغطيه . يختلف وضعها الان حقا عن المرة الأخيرة التي رأيناها ، حين بدت متزينة بكمية كبيرة من الجواهر والحلى الذهبية أكثر من أية مرة ، واستقبلتنا بمزيد من العجرفة والكبرياء أكثر من الوالي نفسه .

١٦ أبريل ١٧٩٢

عودة مولاي يزيد لشن حرب ضد أبيه · وفـــاة امبراطور مراكش · وفاة مولاي يزيد والمناداة بأخيه هشام امبراطورا على مراكش ·

ذكرت في رسالتي ما قبل الأخيرة الآثام والفظائع التي ارتكبها مولاي يزيد ، امبراطور مراكش بعدئذ . ومن حسن حظ رعاياه وأمنهم وطمأنينتهم أن لم يعد لهذا المخلوق الشرير اللا انساني وجود يذكر . فقد وصلتنا الأنباء التالية ، عن طريق أصدقاء بربر قدموا حديثاً من مراكش :

حين غادر مولاي يزيد مدينة طرابلس مباشرة وجد أباه لا يزال عند رأيه في تنفيذ العقوبة التي فرضها عليه بسبب ما اقترف من أعمال شريرة سيئـــة ، فقرر عند عودته ووصوله إلى الساحل المراكشي اللجوء مع أسرته إلى أحـــد أعظم الملاجىء قدسية واحتراماً في مملكة أبيه ، ومن ذلك الملجأ ينطلق بكـــل تأكيد بأي ادعاء كان .

بعد أن لجأ إلى مرقد المرابط مولاي عبد السلام بن جنسين(١)القريب مزاره من مدينة تيطوان ،استمر في رحلته من بلاد البربر إلى ذلك الجزء من الساحل .

تحرك أبوه الامبراطور سيدي محمد قادماً إلى (سالي) ليفتش حرسه الأسود ويقودهم ضد أبنه الثائر ، الذي لم يستطع أن يقوِّم أخلاقه ويهذب طباعه ، بكل ما بذل من لطف وتسامح وثروات عظيمة. إلا أن المرض قد تغلّب على الامبراطور في الجزء الأخير من رحلته بسرعة،بحيث لم يستطع الإستمرار،كان مضطراً على أن يركب في نقالة الجرحى والمرضى . وعلى مقربة من (سالي) أضناه التعـــب وكلكلت عليه الهموم ، فوقع صريع الآلام والاحزان التي كابدها من سلوك ابنه الشاذ . فتوفي في اليوم الحادي عشر من شهر ابريل سنة ١٧٩٠ بالقرب

---

(١) لعل الاسم الحقيقـــي هو الولي الصالـــح السيد عبد السلام ـ كما جـــاء ذكره في كتاب برقة العربية ، امس واليوم ، بقلم الطيب بن احمد بن ادريس الاشهب ـ مطبعة الهواري : مصر ١٩٤٦ ص ٦٥ (المترجم) ·

من نهر (شيرقاس) في وسط حشد من ضباطه ، الذين خافوا من أن يعتـدي ابنه مولاي يزيد السيء الخلق وجنوده على جثمان الامبراطور . فابقوا خبر وفاته سراً دفيناً . فوضعوا الجثة بنفس النقالة التي اضطجع فيها الامبراطور قبل ساعات قلائل ، واستمروا في التظاهر بنفس الاهتمام والرعاية في مرافقته كما كانوا يفعلون من ذي قبل عندما كان على قيد الحياة .

وفي صباح اليوم الثاني أعلن نبأ وفاة الامبراطور في مدينة (سالي) وتم دفن الجثمان في مدينة الرباط تلبية للوصية الأخيرة التي أوصى بها ضباطه الحاضرين قبل وفاته. حين سمع أهالي مراكش «الافندي» يعلن بكل عجرفة وغطرسة مولاي يزيد إمبراطوراً تولاهم الذعر والهلع واستحوذ عليهم الحزن والألم ، وكان في ذلك اليوم الرابع عشر أي بعد ثلاثة أيام من وفاة أبيه .

فلم يطق حتى شعب البربر الخضوع إلى المظالم وقبول المآسي والفظائـع التي يرتكبها مولاي يزيد . ففي اللحظة التي اعتلى فيها العرش أقام رعاياه أخاه مولاي هشام على رأس جيش ليقف ضده ويطالب بالعرش .

قاد الامبراطور مولاي يزيد الهائج الغضب جيشاً قوامه ثلاثون الف محارب بعد أن أكره رعاياه من كل الطبقات بأكثر الأساليب وحشيةً وهمجيةً أن يدفعوا مبالغ ضخمة ، وحدد يوم الرابع عشر من فبراير ١٧٩٢ : ليقابل جيش مولاي هشام . إن الخلق المرعب لفظاعات مولاي يزيد تتجه الآن نحو النهاية . ففي نفس اليوم الذي خرج هذا الغول الوحشي مع جيوشه لمحاربة أخيه ، جرح جرحاً مميتاً بسهم مسنن أطلق من يد مجهولة . وفي اللحظة التي جرح فيها نقل إلى قصره في الدار البيضاء في مراكش حيث وصلها مساء اليوم . ظل مولاي يزيد طريح الفراش يصارع الآلام والاحزان حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ، فلم يكن بالأمكان إستلال السهم من جسمه . لقد ارتكب خلال هذه الفترة من الأيام القليلة المزيد من الجرائم والفظائع ،وسبب إزهاق أرواح العديد من الناس وتضحيتهم أكثر بكثير مما اقترفه طول حياته ، في تلك المدة القصيرة جداً لأنه لم يبق على قيد الحياة حتى مساء اليوم الثاني .

كان اليوم التالي ، السادس عشر من الشهر نفسه . عيداً شاملاً ، إذ أعلن فيه مولاي هشام امبراطوراً ، وفي نفس ذلك اليوم ، نقل جثمان مولاي يزيد الوحش المفترس إلى المنشية في مراكش ، إلى المسجد المسمى (قبة يوسف) (١) حيث تم دفن هذا الطاغية ، فتنفس الناس بعدئذ الصعداء وشعروا بفرح عظيم يقال ان عمره كان ثلاثة وأربعين عاماً ، لأن البربر كما ذكرت لا يسجلـو أعمارهم ، وفقاً لتقاليدهم المحترمة . تولى مولاي يزيد العرش مدة اثنـين وعشرين شهراً . بعد وفاته نقلت زوجاته وكل جواريه ووصيفاته إلى بلاط الامبراطور هشام. وكانت من بين السيدات الأرامل الفتاةالعربية التي اغتصبها عنوةً من منزل أبيها ، ابنة الشيخ سيف النصر ، والتي من المفروض أنها ستعود إلى أبيها ثانية .

٢٠ مايو ١٧٩٣

استيلاء سيدي يوسف على ضواحي طرابلس ·مراقبة القتال في ليلة مقمرة · الباشا يشك في البك ·

عاد سيدي يوسف إلى الأعراب ثانية . لقد استولى على الجزء الأكبر من ضواحي طرابلس ، وبسيطرته عليها أصبح سيداً على المنشية كلها ، وجعـل المنطقة هذه تعيش في مجاعة مخيفة . بعث الباشا بقوات لطرده منها ، ولم يتم ذلك إلا بعد صعوبة عظيمة .

أصبح الحصول على الشعير أمراً صعباً جداً ، فبعد يوم قاس من القتال على أرض السهل فان خيول الباشا والقسم الأعظم من خيول المدينة اضطرت إلى قضاء الليل بدون علف ، وهي ولا شك حالة صعبة حين يفكر الانسان في الجهود المضنية التي تنتظرها في اليوم الثاني . أرسل الباشا عدة مئات من المحاربين

(١) قبة شريفة وهي المقبرة التي يدفن فيها الملوك من سلالة سعدية التي حكمت قبل اسرة الشرفاء من أولاد علي وهي الاسرة الحاضرة التي تعتلي العرش وقد جاء لفظ الكلمة في الكتاب على لسان المؤلفة « يشيفو » (المترجم) ·

عند الغروب مزودين بمدفع للهجوم على جنود العدو المقيمين بين أسوار الحديقة ، والذين لم يتحقق طردهم الا في ساعة متأخرة من اليوم .

بقينا حتّى الفجر في صباح هذا اليوم على شرفة منزلنا نرقب الجهود التي يبذلها الجانبان في سبيل الحفاظ على الأرض التي إحتلّها كل فريق . خرج القنصل قاصداً سوق المقاهي ، لأن الوقت الحاضر هو شهر رمضان ، حيث تتجمع الشخصيات المهمة في كل ليلة بعد منتصف الليل لشرب القهوة . وجدير بالذكر أن تلك الساعات هي أفضل الأوقات لأن يلتقط القناصل من الضباط التقارير المضبوطة والصحيحة عن أحوال البلاد ، خاصة في مثل هذه الأوقات الحرجة فإن الأنباء تكون ذات أهمية عظمى بالنسبة للنصارى .

بينما كنا على شرفة المنزل ، أشرفنا إشرافاً تاماً على كل ما كان يدور على أرض السهل. كانت ليلة من تلك الليالي التي تكون فيها السماء صافية الأديم ، المشهورة في بلاد البحر المتوسط فقط . فقد كشفت لنا أشعة القمر البراقة اللامعة في سماء صافية ، بكل وضوح وجلاء ، القسم الأعظم من المنشية وبكل ما فيها . كان الصمت يخيم على المدينة ويسدل ستاراً من الهدوء المذهل ، فلا شيء يشير إلى ليلة من الراحة والاستجمام بعد صوم نهار طويل في رمضان ، في ذلك الوقت يشاهد البربر في أوساط أحواشهم وعلى شرفات منازلهم يتمتعون بهدوء ساعات قلائل من غروب الشمس حتّى شروقها ، ليعدوا أنفسهم لصوم يوم آخر .

كان القسم الأعظم من السكان بدون استحكامات (أسوار ، وحواجز ومتاريس) تحمي المدينة ، أما بقية البربر فبسبب ما تولاهم الخوف والذعر ، وبأمر صادر عن الباشا ، انسحبوا إلى داخل منازلهم وتركوا الشرفات .

لا ترى في الشوارع مخلوقاً غير حراس المدينة مع قطيع من الكلاب الجائعة التي تتجول عبثاً للبحث عن ضحية تطوف في المدينة مكافأةً لها على يقظتها وسهرها في حراسة المدينة . ولم نسمع بالقرب من منزلنا صوتاً طرق آذاننا غير صخب وهدير الأمواج البطيئة التي كانت ترتطم على أسوار المدينة فتغسلها ، بينما على مسافة بعيدة في بحر هادىء كانت الأشرعة البيضاء للسفن العابرة

ترى بكل جلاء بسبب صفاء أديم السماء ووضوحه .

وعلى النقيض من هذا الهدوء كان الصراخ والعويل المفزع المرعب وأصوات إطلاق النار المستمرة في السهل وفي الريف المحيط ، المصحوبة بأهازيج الحرب العالية ، والضرب المستمر على الطبول ، تدعو البربر والأعراب لحمل السلاح . كنا نرى بكل وضوح جماعات عديدة من الفرسان البربر والجنود المشاة على ضوء القمر ، يمرون بكل سرعة على الرمال لملاحقة الإعراب .

تخبرنا أهازيج الموت المنطلقة من أجزاء مختلفة من الريف في الغالب بفقدان بعض المحاربين الممتازين المشهورين من الجانبين الذين اعتبروا في تلك اللحظة في عداد المقتولين .

عثر العدو على كمية كثيرة من الذخائر الحربية والمؤن في مخلفات القصر القديم لأحمد الكبير ، حيث اتخذوا منه لأنفسهم مركزاً على أمل إخضاع الريف المحيط بمدينة طرابلس . لقد تركت الذخائر والمؤن التي عثروا عليها في هذا القصر بقصد من قبل قائد المنشية المدعو (اسكندراني) اعتزل وظيفته وهرب. أعلن أحد القواد التابعين لسيدي يوسف ويعرف باسم (بوسنينه) من أسوار القصر وخلال الليل باستمرار بأن لديهم كميات وفيرة من الذخائر والمعدات ، ومن العبث شن هجوم عليهم . حين وجد البربر أنفسهم على وشك الوقوع في مأزق حرج وخطير ، لجأوا إلى تدابير يائسة دون أمل في تحقيق النصر .

اقترح (بوسنينه) على جنوده وقت الفجر القيام بتدبير استثنائي مدهش فوافقوا عليه ، وبأقل من مائتي محارب تحدوا سبعمائة من جنود الباشا . فشقوا لهم مخرجاً من القصر وأطلقوا كل ما في حوزتهم من ذخيرة حربية ، بنفس اللحظة ، التي استطاعوا أن يدفعوا فيها أعداءهم إلى الوراء ، فهيأوا لهم الفرصة للهروب في جماعات منعزلة .

كانت حصيلة غنائم قوات الباشا من هذه العملية عبارة عن أحد ضباط سيدي يوسف وروسي اعتنق الإسلام وأربعة رؤوس مذبوحة جيء بها إلى المدينة . أنقذت هذه المناوشات جزءاً من المنشية ، وبذلك فتح المجال أمام سكان

مدينة طرابلس .

إن هروب حفنة من رجال سيدي يوسف من أربعة أضعاف عددهم تقريباً من بين الأمثلة التي تدل على الشجاعة من جهة وعدم الضبط والنظام الذي يحدث دائماً بين الجانبين .

عندما تقرر ارسال المدفعية من المدينة بهذه المناسبة لقصف مواقع العدو فإن كل مدفع منها سحبه ثلاثون عبداً من القلعة إلى خارج المدينة ، ومعظمهم من الطاعنين في السن العاجزين بدلاً من نقلها على عربات وجرها من قبل الخيل أو حتى الجمال ، وإذا ما صادفوا أية عقبة فلا بد وأن يمضي العبيد ساعتين على الأقل لوضع المدفع ثانية موضع الحركة إلى الأمام . هذا مثال على سوء الإدارة ، إلا أن الحالة الثانية تعبر عن مثال أسوأ على السياسة الحمقاء السيئة .

وصل في الساعات المتأخرة من الليلة أربعمائة أعرابي (١) من الزاوية ؛ أرسلوا نجدة لاسترداد المنشية من سيدي يوسف ، إلا أن الباشا لم يبد ارتياحه وفرحه بسبب تأخرهم وعدم القدرة على الإفادة من نجدتهم، فأمرهم بالعودة جميعاً دون تقديم مكافآت أو مرطبات . إلا أن البك أمر لهم بالعشاء ، فأبدى الأعراب تذمرهم الشديد من أسلوب الإستقبال الذي قوبلوا به ، بحيث أنهم خرجوا جميعاً ، وكما يمكن أن يتصور الإنسان، انضموا إلى صفوف سيدي يوسف ، وبذلك حصل سيدي يوسف بانضمامهم إلى صفوفه على أربعمائة محارب قدموا من الجبال ليقاتلوا ضده .

كان الباشا في اليوم الثاني مريضاً جداً ، بحيث أبدى طبيبه الخاص مخاوفه ولم يتوقع أن يبقى على قيد الحياة . أخبر الباشا القناصل بأنه مسموم وظهر بأنه يشك كثيراً في البك ، بحيث لم يستطع أي فرد أن يتحدث مع الأمير في الإستقبال الرسمي خوفاً من أن يسئ إلى أبيه .

أحاط سيدي يوسف بقواته أمس سوق الجمعة الكبير ، حيث تباع

---

(١) من النوائل .

اللحوم والزيوت والخضر وكل المؤن بالجملة . وانسحب الناس من السوق مقدماً ، وبالرغم من أنهم فقدوا ما اشتروه من مؤن إلا أنهم كانوا مسرورين لقرارهم ونجاتهم بحياتهم . تستطيع أن تدرك بنفسك خطورة الحياة وصعوبتها في الوقت الحاضر بالنسبة لجميع سكان مدينة طرابلس ، لأن المؤن هذه نادرة الوجود في المدينة ولا تباع بالفلوس ، أضف إلى ذلك أن كل شيء ينذر بالشقاء والبؤس قبل أن يسدل الستار على تلك القلاقل والفتن .

٢ يونيو ١٧٩٢

زيارة لسيدة اغريقية جارية احد التجار · قصـــة حياتهـا ·

أتاح لنا سيدي يوسف بعد المناوشات الأخيرة فرصة التمتّع بهدوء نسبي ، ولم نشاهد واحداً من أفراد جماعته منذ بضعة أسابيع. تمّ فتح أبواب المدينة مرة ثانية كل يوم ، وأعيد الإذن بالنزهة على ظهور الخيل إلى مسافة قصيرة في الريف ، ولكن لا نتوقع أن يستمر هذا اللطف مدة طويلة . اغتنمنا هذه الفرصة القصيرة من الحرية ، حين بدت المدينة أكثر هدوءاً من المعتاد ، فقمنا بزيارة سيدة إغريقية في بيت تاجر بربري ، جلبها إلى طرابلس حظية له منذ بضعة أشهر . فقد باع هذا التاجر بعض اللآلىء والألماس إلى النصرانيات ، اللواتي تقدمن بالتماس لتحقيق رغبتهن في مقابلة إغريقيته الجميلة الرشيقة ، حيث ازداد فضولهن شوقاً وحماساً بعد وصفه لمحاسنها .

استقبلتنا أُمه وعمته : وقد تأسفت الأخيرة لعدم استطاعتها على مرافقتنا إلى حجرة ابن أخيها ، لأنه كان في المنزل وبناء على التقاليد المرعية في هذه البلاد تصعب رؤيتها بصحبة أجنبيات ، ولم تقدر أُمه أيضاً على الإستمرار في المسيرة معنا ، لأن عملها ذلك يعتبر إهتماماً عظيماً جداً بجارية إغريقية ، كان إذن من الضروري أن تصحبنا إحدى الجواري إلى الحجرة .

لم يكن القسم الواطىء من المنزل لطيفاً مثله كسائر منازل البربر عامة ، ولكن وجدنا حجرات التاجر ، التي كانت تشرف عليها وتنظمها الإغريقية ، مرتبة ترتيباً نظيفاً ومؤثثة تأثيثاً فخماً . شهدنا التاجر والإغريقية في الحجرة التي دخلناها جالسين على أريكة غالية الثمن . كانت الإغريقية التي لم تتوقع قدومنا ، بكل وضوح ، تبكي وتنتحب ، وعندما وقعت عيناهما علينا نهضت بسرعة . كانت الإغريقية ترتدي ألطف الملابس وأرشقها في زي بربري ، فبدت جميلة رائعة . كانت واقفة طول الوقت الذي كنا فيه جلوساً ، لا تجرؤ بحضور الآخرين ، أن تجلس بوجود سيدها ، بينما ظل هو مستلقياً على ظهره على أريكة من الحرير الأطلسي . عندما اكتشفنا بأنها حامل وأنها تقترب من موعد ولادتها ، تأثرت السيدة تولي تأثراً عميقاً بوقوفها مدة طويلة جداً . فرجت التاجر أن يأمرها بالجلوس ، وإلا اضطررنا ، خلاف ذلك ، إلى تقصير مدة زيارتنا ، وأخيراً سمح لها بالجلوس ، ولكن بطريقة لا تنم عن رضى حقيقي فاستمرت بالوقوف حتى قدمت لنا العطور والفواكه المجففة المصنوعة بالسكر .

بعد الإنتهاء من تناول طعام بسيط انسحبت الإغريقية ، ومن المحتمل أن تكون متعبة جداً لا تحتمل الوقوف مدة أطول. بالرغم من أنموعد زيارتنا كان في شهر صوم رمضان ، حيث لا يتناول البربر أي طعام أو شراب ، فإنهم لا يستطيعون الإستغناء عن آداب المجاملة لتقديم المرطبات والعطور لنا (١)

كان هذا التاجر مولوداً في طرابلس ، ولكنه أقام الجزء الأعظم من حياته في القسطنطينية ، حيث استطاع أن يجمع ثروة عظيمة ببيع الرقيق

---

(١) لا يستطيع الناس هنا في طرابلس كما في الاقطار الشرقية الاخرى ، ان يتحاشوا تقديم المرطبات الى أولئك الناس الذين يرغبون ان يعبروا لهم عن تقديرهم حين يقومون بزيارة منازلهم ، لانها تعتبر في الواقع الوسيلة التي يشيرون بها الى درجة الشرف والتقدير الضروري الذي يعبرون به لضيوفهم ، اما المرطبات والعطور التي تقدم فانها تجهز وتعد دائما بالنسبة الى طبقة ومرتبة اولئك الذين يستضيفونهم .

الأسود والأبيض ، تعلو وجهه سيماء التجار المجردين من الروح الإنسانية ، فعندما أبديت ملاحظة له عبرت فيها عن جمال الإغريقية الرائع ، وبما أنه سعيد هانيء بها ، فمن المحتمل جداً أن لا يمر وقت طويل حتى يكون قد أعتقها ومنحها حريتها بالزواج منها . فرد قائلا :(آه: لا إلا إذا وضعت ولداً ذكراً الآن فقد يجلب لها حظاً سعيداً ، وحتى عندئذ فإني أرغب في بيعها ، ذلك لأني لا أستطيع الزواج بها). أعلمنا بأنه لا يزال عمرها بعد لم يتجاوز السادسة عشرة ، وأمها تربت في منزل عظيم وفخم في القسطنطينية ، برعاية امرأة إغريقية تكسب عيشها بتربية وتهذيب الجواري وبيعهن . لقد ابتاعت هذا الجمال الرائع من جنود أتراك حين كان عمرها ست سنوات ، فاهتمت برعايتها وتربيتها مع أخريات مثلها لتقدمهن إلى السراي السلطانية . كانت تعاملها تلك المرأة بكل لطف ، ورقة ، ورفاهية ، ورغد عيش يمكن أن يتصوّره إنسان ، وأشرفت على تهذيبها في الآداب والفنون الجميلة التي من المتوقع أن تتعلمها سيدات السلطان التركي .

قال التاجر ، إن سرعة إدراكها وتألق فطنتها وذكائها ، جعلها موضوعاً لإعجاب واستحسان أولئك اللواتي نشأت وترعرعت وتربت معهن ، إلا أن الظروف الخاصة التي أحاطت بالمرأة الإغريقية التي تمتلكها قاسية جداً فكانت بأشد الحاجة إلى المال ، دفعتها إلى بيعها على هذا التاجر بثمن بخس كان يحمله معه لا يعادل الثمن الذي قدم لها عندما سنحت الفرصة من قبل لبيعها على السراي السلطانية .

استأذنا من التاجر بالخروج بعد إنسحاب الإغريقية ، غير متوقعين أن نراها ثانية ، وحين قصدنا أمه لطلب الإذن بالخروج وجدنا الإغريقية معها ، فكان لا يزال مظهرها يوحي بالكآبة والحزن العظيمين . تحدثت سيدة من السيدات اللواتي كن برفقتنا معها باللغة الإغريقية ، وما كادت أذناها تسمع الحديث بلغتها حتى استعادت مشاعرها وتحدثت عن نفسها حديثاً سرياً وخاصاً شكت وتذمرت من خيبتها الكبيرة في بيعها لتاجر رقيق كهذا كما دعته ،

وأكدت ما أخبرنا به التاجر فيما لو كانت حالة سيدتها الإغريقية المالية أحسن حظاً لأحتفظت بها لمتقدم أفضل ، أو ربما تباع للسراي السلطانية ، أو لأحد الضباط من المراتب العليا الذي يشتغل في الباب العالي .

أشارت إلى الإلزام الذي تعهدت بموجبه سابقاً بدراسة الذوق والأناقة لملابسها والذي لم تعد له ضرورة تذكر ، كما كان مصيرها يقضي عليها أن تعيش بين أناس لا تعجبهم الفساتين الأنيقة ولا حتى النظافة الضرورية . قالت : « موسيقاي ، صوتي ، لوحاتي الفنية ، وكل الإنجازات الصغيرة التي تعلمتها قد ضاعت جميعها في منزل هذا التاجر : فهو لا يسره شيء منها ، لأنه جاهل بها لا يفقه شيئاً عنها». شكت منه لأنه لا يسمح لها بالذهاب إلى الحمامات ، بدعوى أنها تكلف مبالغ طائلة ، وليس بوسعه أن يرسلها بانتظام في الأسلوب الذي يجب أن تذهب بموجبه بوصفها حظية ، ولهذا فإنها كانت مضطرة من الصباح الباكر عند آذان الفجر على الإستحمام ، لتتخلص من عدد من السيدات اللواتي تعلو أجسامهن الوساخة المحيطات بها ، بينما في القسطنطينية ، وحتى في منزل سيدتها الإغريقية ، كانت تتوافر الحمامات اللطيفة ، حيث تذهب مع عدد من الجواري السوداوات اللواتي يقمن بخدمتها ، ويحملن معهن العطور الذكية والحرائر الناعمة لاستعمالها .

أخبرتنا بأنها كانت تلبس الزي التركي إلى أن جعل منها المصير المقدر (المكتوب) حظية مملوكة للتاجر ، عندئذ اضطرها لتغيير ملابسها لترتدي الزي البربري ، وتغير اسمها من (سيلاتيا) إلى (محبوبة) . ومحبوب عملة تركية تصنع من الذهب الخالص بدون أي خليط آخر . لهذا سماها التاجر بهذا الإسم ، ليرمز لها . جلبت لنا بعض الطرابيش التي لبستها مع فساتينها التركية ، تشبه جلد كلب البحر القرمزي اللون البراق ، المصنوعة على كتلة تشبه تماماً تلك الطرابيش التي يلبسها الرجال البربر في طرابلس ، بإضافة حزمة كبيرة في القمة من الحرائر المختلفة الألوان ، ودانتيلله من الزركشات الذهبية حول أسفل تلك الحزمة . يستعمل الأغنياء الموسرون المجوهرات

بدلا من الزركشات . تلبس حول الطرابيش عمامة كبيرة من الحرير الرقيق الذهبي أو الفضي في نهايات لها طويلة وفخمة .

لقد وصفت حالتها السابقة هي ورفيقاتها تحت رعاية السيدة الإغريقية بالسعادة والرفاهية ، حيث لم تترك منزلها فتاة واحدة إلا لتذهب إلى السراي السلطانية ، بدون حزن أو أسف . وبعد أن تحدثنا معها بعض الوقت تركناها في حالة نفسية أحسن من ذي قبل إلا أن عينيها دمعتا عندما غادرنا ؛ ورجتنا أن نأتي لزيارتها ثانية .

٢٠ يوليو ١٧٩٢

بقايا أطلال منازل قديمة · طريق القوافل من تونس الى طرابلس والحيوانات الوحشية ·

خرجنا للنزهة على ظهور الخيل أمس بعد الظهر واتجهنا نحو الغرب لأن ضواحي مدينة طرابلس لا تزال خالية من جماعة سيدي يوسف ، ومع أننا كثيراً ما قمنا بمثل هذه النزهة ، إلا أني لم أذكر لك الآثار القديمة الموجودة في هذا الجزء من البلاد . يمتد هنا أحد أشهر الطرق الرومانية العامة المنطلقة من هذا المكان والمؤدية إلى تونس : يسمونه البربر الطريق الغربي العظيم . فلم يحدث عليه أي تغيير لمسافة بضعة أميال من طرابلس لكنه ظل بنفس الحالة التي تركه عليها الرومان . فهو واسع جداً ومستو ، ولا تزال توجد بقايا وأطلال منازل يرجع تاريخها إلى العصور القديمة ، معظمها بناه الرومان من الحجر كانت هذه البلاد مأهولة في المراحل التاريخية المختلفة والمتعاقبة من قبل القرطاجيين والفينيقيين والفاندال ، وتؤلف إحدى المقاطعات من الإمبراطورية الرومانية الواسعة .

لا تزال توجد بقايا وأطلال المنازل التي شيدتها كل أمة من تلك الأمم وهي ليست بعيدة وانما تحيط كلها بطرابلس: وما كان يؤلف منطقة طرابلس في

زمن ما من السهولة أن نتعقّب آثاره . ومن المدن الثلاث الشهيرة ليبتس ماجنا وصبراته وأويا ، أطلق اسم المدن الثلاث (تريبولس Tripolis) على هذه المنطقة ، وموقع المدينة الأخيرة هو المأهول في الوقت الحاضر ، ولكن الآثار التي سبق وأن ذكرتها في ليبتس ، والمخلفات الأثرية من المدن الفاندالية والحصون والقلاع التي تشاهد هناك ، بضمنها آثار صبراته ، لا تزال قائمة ، وفي طرابلس القوس الفخم الذي سبق وأن وصفته ، وغيرها من بقايا الأزمنة القديمة تذكرنا بأصحابها القدامى (١) .

لا يمكن عبور قسم من الطريق الغربي الكبير من تونس الى طرابلس بدون التعرض الى خطر جسيم بسبب الحيوانات المفترسة التي تهاجم المسافرين غالباً ، بالرغم من الإستعدادات والمحاذير التي تتخذها القوافل للحيلولة دون اقترابها . لقد قام طبيب الباشا الصقلي بهذه الرحلة الهائلة براً مع زوجته وأطفاله منذ مدة ليست بعيدة فانضم الى قافلة كبيرة جداً ، وهي الطريقة الوحيدة التي يمكن بها عبور الصحاري وسار بسلام واطمئنان الى هذا المكان . كانت إحدى تلك القوافل تتألف من أربعمائة الى خمسمائة شخص عند انطلاقها ثم ازداد عددها لى عدة آلاف ، تنطلق كل سنة من تونس الى غينيا لشراء الرقيق . قد يحدث بعض الأحيان أن يموت جميعهم

(١) ان الارض انواقعة بين طرابلس وتونس غنية بالكنوز العظيمة المليئة بالاموال الطائلة التي دفنها تحت الارض العرب والبربر والاتراك ، ليحفظوها من عبث واغتصاب أسيادهم الطغاة ، ويحموها من جشع وسلب أعدائهم ، أو ليخفوها في ساعة وباء الطاعون ، حيث هد الوباء أجسامهم ولم يقدروا على الدفاع عن ملكيتهم ، وقد يستغل حالتهم المحزنة أعداؤهم ، ولا يعرف سر موقعها غير رئيس الاسرة أو شيخ القبيلة ، وكثيرا ما يصدف أن يموت دون أن يكشف عن ذلك السر الذي يؤدي الى الكنز المدفون . ان هذه انتقاليد الغريبة سائدة في معظم أجزاء افريقيا ، وبسبب هذه التقاليد فأن أراضيها تضم الغرائب والعجائب والتحف النادرة وكميات كبيرة من المال التي دفنت في طبقاتها منذ قرون عديدة والتي لم يعثر عليها . وحتى يومنا هذا فان عرب طرابلس يعتقدون بوجود كنز مدفون في الضواحي الغربية من المدينة ، وقد بذلت جهود مبعثرة للبحث عنه .

من كثرة الأهوال ومشاق السفر، أو أنهم يدفنون أحياء تحت جبال من الرمال الجارفة ، ولا يذكر عنهم شيء . لقد وصف لنا الصقلي الغابات المظلمة التي مروا بها ولا يمكن اختراقها ، وكانت أصوات الحيوانات الوحشية وزعيقها يزداد ؛ بسبب ما تثيره روائح قطعان الماشية التي تصحب القافلة ويتكاثر صخبها وزعيقها كلما اقتربت من جحورها المخيفة . وكانت القافلة تضطر بعض الأحيان للبقاء عدة أيام بالقرب من الغابات ، لتتحاشى التعرض للعواصف في الصحراء التي كانت تجرف الطريق برياحها العاتية . يستطيع أولئك المسافرون الذين اعتادوا عبور الصحارى، أن يتنبأوا بعد تطلعهم الى السماء ، غالباً عن تلك الرياح المخيفة قبل حلوثها بعدة ساعات .

وقبل أن يستقر بهم المقام ، وتنصب الخيام ، وتتوقف القافلة حتى يدوي ضجيج خاص في الغابة يعلن أن الوحوش الكاسرة في الغابة بدأت تقترب من الحدود تنتظر اغتنام الفرصة السانحة هناك للإنقضاض على غنيمتها .

أثناء النهار لا يسمع زئير الأسد المخيف المرعب ، ولكن بعد أن أرخى الظلام سدوله على العالم شق زئيره هدوء الظلام وزعزع دويه سكون الليل ، وازداد الزئير قوة وهياجاً كأنه قصف الرعد يمزق هدوء الليل . بدا للعيان في الصباح الباكر نمرٌ وأسدٌ يحيطان بالقافلة ويقتربان شيئاً فشيئاً . وضعت الخيام في وسط القافلة وكذلك النساء والأطفال ثم قطيع الأغنام بعدها الأبقار .

كان زئير الأسد يدوي في الفضاء في اللحظة التي تشرف بعض النيران على الخمود فيقترب شيئاً فشيئاً من القافلة . وفي غضون دوي الزئير كانت الأغنام ترتجف من الذعر وكأنها مصابة بحمى شديدة ، وكانت الخيول تتصبب عرقاً من هلعها دون أن تحاول الحركة وكان صراخ الأبقار مؤلماً وحزيناً ، وأخذت الكلاب تنبح وتجمعت من كل أطراف القافلة في بقعة واحدة ، تبدو وكأنها بنباحها الموحد تحاول أن تهزم الوحوش الكواسر التي لا شيء يستطيع أن ينقذها من ضراوتها الهائلة غير لهبان جديدة من نيران متقدة.

شوهد الأسد مرتين في هذه الرحلة يحمل فريسته ، وفي كل مرة رأساً

من الغنم وقد حاول المسافرون الخائفون الذين استحوذ عليهم الذعر الشامل عبثاً أن يمنعوه بأسلحتهم النارية . ومن حسن حظ القافلة أن يكون رأس الغنم هو الطعام المفضل عند الأسد ، ولو أنه مر بالخيول ، والجمال ، والأبقار ، وكان في وسط خيامها فإنه اكتفى باختيار ضحيته رأساً من قطيع الغنم .

لاحظ الصقلي بأن منظر النمر يرعب القافلة ويخيفها كثيراً لأن فريسته المفضلة هو الإنسان . لنعد الى نزهتنا على ظهور الخيل في ذلك القسم من المنشية حيث يبدأ الطريق الغربي ، رأينا بقعاً في الأرض تؤلف مظهراً وحيداً قائماً بذاته . فقد كانت الأرض مرصعة ترصيعاً سميكاً بألطف أنواع الكريستال الذي يعكس الألوان الجميلة والألق من الشمس ، حتى يبدو وكأنه أحجار كريمة . يسمي البربر الأعشاب والحشائش التي تسبب هذا الأثر المدهش ، كما نسميها نحن «البارلا» التي تحرق وتحول الى رماد يستعمل في صناعة الصابون ، يجمعه البربر ويحرقونه على الساحل ، ويدفع النصارى ثمناً للباشا للإستئذان بحمله ، الى خارج البلاد لأنه يؤلف تجارة عظيمة جداً تصدر من طرابلس الى أوروبا .

ومع أنه تتوافر في هذه البلاد نباتات «البارلا» إلا أنه لا يصنع منه الصابون في طرابلس وإنما يجلب في جرار من تونس ، حيث يصنع هناك ، فتسحب تونس مبالغ هائلة سنوياً من طرابلس ثمناً للصابون المستهلك هنا .

رأينا في الحقول بين نبات «البارلا» عدداً كبيراً من الجراد الذائع الصيت الذي يلتهم الأخضر واليابس ، يطير عادة على شكل غيوم داكنة تحجب أشعة الشمس في مصر. يشبه الجراد في شكله الجندب ولكنه أكبر وأكثر سمكاً ولونه أسمر فاتح . من حسن حظ هذه البلاد أنه لا يحدث الشيء الكثير من الخراب والدمار كما هو الحال في مصر ومع ذلك فإنه في بعض الأحيان يحدث مخاوف خطيرة لدى البربر الذين يخشون من تكاثر عدده ، ولان قدومه يكون ضربة قاضية للحصاد .

تمتعنا ببضعة أسابيع من الراحة والإستجمام من توقف هجمات سيدي

يوسف ، ولكننا في كل ساعة نتوقع عودته بناء على الأنباء التي ينقلها البربر القادمون من المنشية والتي تقول بأنهم شاهدوا جماعات من الفرسان التابعين له على الرمال .

١٧ أغسطس ١٧٩٢

رفض قبول المرابط (فطيس) الدخول الى المدينة ·
صيد النعام ·

وصل اليوم فطيس المرابط المشهور التابع لسيدي يوسف . مزوداً برسائل من الباشا ولكن لم يسمح له (بناء على خيانته وغدره المقصودين للإيقاع بالبك) بالدخول الى المدينة وتسليم الرسائل بنفسه ، فحملها معه قائلا بأن سيدي يوسف حين يجد أن رسائله أعيدت غير مفضوضة ، فإنه يعتبر ذلك العمل بمثابة إشارة لتجديد الخصومات ، هذا مع العلم بأنه يتوقع النجدات والإمدادات من تونس التي هي في طريقها : وقد رأينا هذا المساء جماعة من قوات سيدي يوسف في الجهة الغربية مع خيولهم بأعداد كبيرة جداً .

عرض البنادقة للمرة الثانية عونهم للباشا الذي لم يقبله أيضاً ، أبحرت سفن البنادقة منذ بضعة أسابيع . تحمل النعام والببغاوات والبقر الوحشي هدايا من القنصل الى دوق البندقية . يقال بأن النعامة تأكل الحديد . ومن المحتمل أن يكون الأمر كذلك لأن النعام لا يهضم دائماً ما يأكل ، فلدينا دليل حديث ومدهش . حين كان النعام في منزل القنصل البندقي ، قبل بضعة أيام من وضعها على ظهر السفينة ، ضاع صندوق عطوس فحدث أن ماتت إحدى النعام بعد أن صعدت على ظهر السفينة،مباشرة ، فتأسف للحادث ربان السفينة بفقدان النعامة المهداة للدوق والتي أودعت اليه ، وعندما شق بطنها على ظهر السفينة ليتأكد من سبب موتها وجد داخل معدتها بعض القطع من الفانوس المهشم والمسامير والمفاتيح وصندوق العطوس نفسه ، الذي دل من حجمه

وشكله على أنه كبير جداً لا تستطيع النعامة أن تهضمه ، وبالنتيجة كان السبب في موتها .

يذهب العرب لصيد هذه الطيور لا يحملون معهم من المؤن غير القمح المبلل بالماء ولا يأخذون طعاماً آخراً غير تلك الوجبة البائسة (١) حتى يعثروا على نعامة فيشوونها ويأكلونها بينما يمنّون أنفسهم بفكرة الكنوز التي يحصلون عليها من ريشها .

تعقّب العرب النعامة لمدة ستة أو سبعة أيام متواصلة ، بعد أن تولاها التعب أضناها الجوع وأنهكها التعقب فوقعت ضحية سهلة بأيدي صياديها . ويعتبر والريش مكافأة كاملة لتحمل كل تلك المشاق .

تصل قيمة الريش القوادم ، في الفرصة الأولى التي انتزعت من النعامة من واحد الى ثلاثة سيكوينات في طرابلس . حين تشعر النعامة بأن أعداءها يتعقبون أثرها ، تزعجهم ، وتستخدم أكثر الحيل ذكاء وبراعة ، والتي تبرهن في كثير من الأحيان على كفايتها ، وذلك برفس الأحجار الكبيرة بأرجلها ورميها بقوة عظيمة وبخفة وراءها والتي تهابها الكلاب وتخشى أن تجرح بها وعندما يتعقب العدو النعامة تسرع الخطى وتجري كالحصان ، ولكنها ثقيلة جداً لا تستطيع على الطيران ، ويقوم جناحاها بخدمتها كالأشرعة ، فتتزحلق جزئياً على الرمال محاولة الهروب من أعدائها الذين يتبعونها . عرضت إحدى هذه الطيور للاطلاع عليها ، فكانت أكثر أجزاء جسمها رقة يشبه أكثر لحوم البقر خشونة ، وبيضة واحدة منها كافية لصنع ثلاث صحون كبيرة من الاومليت ، وهي قوية جداً في طعمها ورائحتها محتملة المذاق دون اشمئزاز أو مضايقة ، وقد صنع من بيضة أخرى الكعك المقلي وبدت تشبه المعجنات المشوية . كان الطعام تعافه نفس الأوروبي وتكرهه ، ولكن بعض البربر الحاضرين أكله بلذة وشهية .

---

(١) البازيـــن .

(١) السيكوين البندقي يعادل ما قيمته حوالي ١٢ شلنا (المترجم) .

١٩ أغسطس ١٧٩٢

البك لا يحصل على عون من الباشا . لجوء النصارى الى منزل القنصلية الانجليزية .

لما كان الباشا والبك في خوف مستمر من الهجوم الذي قد يقوم به سيدي يوسف ضدهما فإنهما مضطران لأن يحتفظا دائماً بفريق من الأعراب في طرابلس للدفاع عن نفسيهما ولصدّه لأن القيام بذلك كلفهما ثمناً باهظاً جداً، وسبب إزعاج المدينة وإقلاقها قلقاً كبيراً لأن أخلاق الأعراب وطرز معائشهم تناسب أكثر القبائل قسوة التي تقطن المنطقة الجبلية وليس السكان الآمنين المتمدنين في المدينة . تخلق الأعمال السيئة التي يرتكبها الأعراب هنا في الغالب القلاقل والفتن المخيفة بينهم وبين الطرابلسيين .

بالرغم من المهمة العظمى التي يضطلع بها البك في الوقت الحاضر ، فإنه لا يحصل على أي عون من أبيه إلاّ النزر القليل الذي لا يسمن ولا يغني من جوع . ولم يكن البك فظاً قاسياً يسلب أموال رعاياه ، فيدعهم بلا طعام ولا لباس من أجل أن يشبع هو وأسرته . كان يستمد موارده من الناس باسلوب معتدل هاديء، ومن النادر أن يشبه في سلوكه تقاليد أمير بربري. يشعر في الوقت الحاضر بضيق شديد وحيرة ، وبعد أن استحوذ عليه العسر وصعبت ظروف حياته في غضون الأسابيع العديدة الماضية ، فكر اليوم بتوجيه الدعوة الى القناصل ، من أجل أن يجمع المال اللازم أو يحصل على قرض بأية شروط يراها القناصل مناسبة . أقنعه بعض المقربين من الأصدقاء بوجوب العدول عـن اتخاذ مثل هذا التدبير فنصحوه بإكراه اليهود واضطرارهم لفتح خزائنهم ، بعد أن رفضوا مد يد العون اليه وتقديم المزيد من القروض .

لم يصل بعد الى أي قرار ، يطوف جنوده في شوارع المدينة وطرقاتها، مخططين عملياً الوسائل للحصول على المواد الغذائية لأسرة البك، والشعير لخيوله، والمؤن للأعراب الذين لا يزالون وراء الأبواب المحيطة بأسوار المدينة ، ومن المتوقع

أن يشعلوا نار الفتنة في أية لحظة ، ويغادروا ، بسبب تأخر المؤن مدة طويلة . وفي غضون ساعات قلائل ستصل الأزمة الى هذه الوضعية المؤسفة المؤلمة .

من الممكن أن تطلع بنفسك على مدى الخوف والإرهاب الذي يعيش في ظلهما النصارى في طرابلس ، بما سأقص عليك عما حدث هذا المساء . أولاً يجب أن أطلعك على ما تطور من التقاليد ، في الوقت الحاضر ، وذلك بإقامة وليمة كبرى (أو كما يدعوها الإيطاليون) كونفيرساسيون ، بالتناوب في كل منازل القناصل ، حيث تلتقي جميع العائلات .ولما كانت على منازل القناصل حراسة مشددة ، وفيها عدد كبير من الخدم ، فإنها تعتبر دائماً محلات آمنة ومطمئنة تماماً . ليست الوليمة الليلة في منزلنا، لذا بقيت إحدى السيدات وأنا في المنزل. كان يقوم أحد الخدم بخدمتنا ويدير علينا الشاي فترك الحجرة فجأة ، وسمعنا على الفور ضجيجاً غير مألوف في أسفل المنزل،ولما كان صوت الخادم الإغريقي عالياً ومجلجلاً ، استنتجنا بأنها مشاجرة بينه وبين البربر ، وكنا خائفتين من وقوع عمل شرير سيء ، لأن الإغريق حقودون ومنتقمون . وحين استطلعنا عن سبب الضجة ، علمنا بأن خمسة وعشرين بربرياً قد دخلوا السقيفة وأن أكثر من ضعف ذلك العدد كانوا يحاولون أن يشقوا طريقهم بالقوة إلى المنزل . أمر الحارس الذي كان واقفاً في السقيفة أن يغلق الباب على الذين في الداخل ليمنع دخول المزيد منهم . وكان أول ما استرعى اهتمامنا منظر رجل بربري قد تولاه أعظم انفعال وهياج ، وبيده سكين مفتوحة فتحاً كاملاً على الجهتين يضغطها ويشدها على الحائط بينما كان واقفاً . كان الهياج والإنفعال على أقصاه في البدء ، بحيث لم يكن التمييز بين أولئك الناس الذين في السقيفة ، بين أعداء هذا الرجل وأصدقائه ، لذا توقعنا في كل لحظة أن يسدد السكين إلى أقدامنا . وقبل أن يهدأ روعنا ، وتتبدد مخاوفنا ، أعلن وصول القنصل ، فكان مجيئه عزاء لنا وسلوى . وسرعان ما أخلي المنزل والواجهة التي أمام الباب من البربر : وبقي البائس الشقي المخيف الذي لا يزال يشد بسكينه على الحائط لوحده ، شخصاً شاحب اللون ، أصفر الوجه كالموتى . وبينما كان يقص

قصته ويشرح أمره ، كان عنف مشاعره واضطراب عواطفه يجعل كل شرح عبثاً ، حتّى وصل سيده حفيد الباشا سيدي محمود .

سأل سيدي محمود القنصل مباشرة فيما إذا كان يستطيع أن ينقذ خادمه المفضل مشيراً إلى ذلك البربري الذي لا يزال قابضاً بيده السكين المفتوحة ، فتضرع إليه ذلك البائس وتوسل ملتمساً أن يتركه في منزل القنصل ، الملجأ الذي يأوي اليه الناس ليكونوا آمنين مطمئنين من جنود الباشا وحراسه ، حتّى يتم الوصول إلى تسوية تكون في صالحه . أكد سيدي محمود للقنصل بأن خادمه لم يكن معتدياً ، وأنه قد أعفى عنه بسبب المعركة الّتي حدثت . وفي الوقت الذي كان حفيد الباشا لا يزال يتحدث جيء بخبر سري مفاده بأن الرجل الذي طعنه خادمه يحتضر . التمس حفيد الباشا سيدي محمود القنصل بحماس لحماية خادمه . ولكن أخبر بأن خادمه يسلم في اللحظة الّتي يعلن بها نبأ موت الرجل المطعون ، ومع ذلك فباستطاعته أن يأخذ البربري معه ، إذا قام بذلك فوراً، في الوقت الذي يوجد أمل في استعادة الرجل المطعون صحته .

كان حفيد الباشا في طريقه للقيام بأخذ البربري معه ، إلا أن ابن رئيس الجمارك الذي صحبه لمنزلنا أخبره بأنه يخاطر كثيراً بشخصه ، وأن ذلك سيثير غضب الباشا وسخطه . فطلب إليه أن ينتظر بضع دقائق ليعود شخصياً بقوة كافية ليشق طريقه إلى خارج المدينة ، دون أن يكشف أمره .

رجع في الحال مع عدد من الرجال المسلحين ، وتخفى بجرد أسود ، وجلب حفيد الباشا لخادمه سكيناً أخرى ومسدسين ؛ ووضعه في وسط جماعته ، وبعد أن قدم الإعتذارات العديدة لما سببه خادمه من القلق والإضطراب أخرجه معه وعاد إلى منزله .

٢٠ أغسطس ١٧٩٢

اليهود يقدمون الاموال الى خزانة البك ٠

كانت أسوار المدينة البارحة محروسة حراسة شديدة ، بسبب سيدي يوسف ولم يستطع خادم سيدي محمود اجتياز الأبواب إلا في صباح هذا اليوم ، في آذان الفجر حيث تم نقله إلى مزار المرابط الكبير الذي على الرمان ، وسيبقى هناك حتى يشفعوا له عند الباشا ليعفوا عنه .

وختاماً للقصة التي قصصتها لك عن الألم الذي ألم بالباشا البارحة وحز في قلبه ، فإن اليهود رغبوا في تجنب الإكراه والقسر ، فقدموا بأنفسهم المزيد من المال إلى أمين خزانة البك ، لشراء طعام الأعراب ، وعلف الخيول ، والمؤن لأسرة البك والتي لا تكون جاهزة إلا بعد مضي ساعات طويلة بسبب القلق والإضطراب بين صفوف الأعراب الذين أصبح من العسير السيطرة عليهم صباح هذا اليوم .

٢٥ سبتمبر ١٧٩٢

وصول أنباء الثورة الفرنسية ٠ محاولة غرس شجرة الحرية ٠

ومع أننا نعيش في جزء ناء من العالم ، بعيد عن أوروبا ، فقد شهدنا أخيراً بعض نتائج الثورة الفرنسية . نزل إلى ساحل الميناء بحارة عدد من السفن الفرنسية في اليوم الرابع عشر من شهر يوليو الماضي ، ليحتفلوا بذكرى تحطيم سجن الباستيل ، ويمين الولاء العام الذي أقسم في (شامب دي مارس) (١) . وقد

(١) شامب دي مارس : أراضي واسعة تقع بين الواجهة الشمالية للمدرسة الحربية ونهر السين ، كانت تقام فيها المناورات والاستعراضات العسكرية ، اقيمت عليها سنة (١٨٦٧ ، ١٧٧٨ ، ١٨٨٩ ، ١٩٠٠ ، ١٩٣٧) وفيها احتفل بيوم الاتحاد ـ عيد الاتحاد ، في الرابع عشر من سنة ١٧٩٠ (المترجم) ٠

أنشدوا الأغنية المفزعة (سننتصر) ورقصوا رقصات العيد على ساحل البحر ، ولكن بعد اكتشاف نواياهم لزراعة شجرة الحرية على الساحل ، فإن القناصل التمسوا الباشا مراراً ، فأقنعوه بسهولة وسرعة لمنع قيامهم بمثل هذا العمل ، فامتلأ البحارة الفرنسيون غيضاً وغضباً عندما وجدوا أن كل جهودهم لم تثمر شيئاً لتنفيذ مخططهم ، حتى أصبحوا سفهاء معتدين يوجهون الإهانات للطرابلسين فنزلوا إلى الساحل قبل بضعة ليال بعد أن أخفوا ما لديهم من أسلحة فاعتدوا على البربر ، وتسببوا في خلق هياج وشغب في الساحة ، وكان من الصعب جداً أن نعبر الساحة عائدين إلى منزلنا .

وقد نال الأذى والضرر بعض البربر أثناء ذلك الشغب ، فأرسل الباشا إلى القنصل الفرنسي ليطلب إلى البحارة الفرنسيين عدم النزول إلى البر ، إذا لم يتعهد القنصل ويكون مسؤولا عن حملهم السلاح . كان القنصل الفرنسي موالياً للحكومة الملكية بينما كان الملاحون والضباط على السفن الفرنسية جميعاً من أولئك الذين (بلا سراويل) (١) مما جعل وضعية القنصل حرجة جداً ، ومن المحتمل أن يؤدي موقفه هذا إلى أن يبلغ القنصل في المجلس الوطني في فرنسا ، من قبل أحد الديمقراطيين من الملاحين .

قصد عدد من الملاحين الفرنسيين قبل بضعة أيام ليأخذوا بالحبل مقاييس إحدى قلاع الدفاع في طرابلس . فغضب الباشا غضباً شديداً من قيامهم بهذا العمل ، فأمرهم ثانية بوجوب البقاء على ظهر السفن وعدم مغادرتها ، إلا أن الملاحين الفرنسيين البعيدين عن روح الضبط والنظام لم يكترثوا بالأمر ولم يطيعوه ومنذ ذلك الحادث كان ابن أحد الضباط الفرنسيين يحمل بندقية معه فقصد المنشية ، وكان يطلق النار عشوائياً ، فصدف أن جرح شاباً بربرياً ، واستطاع أن يهرب ويفلت من الوقوع ضحية لانتقام البربري وثأره . رشقوه بالحجارة ، واضطروه على الإنسحاب إلى وسط القلعة ، حيث تم اعتقاله

(١) بلا سراويل : اصطلاح أطلقه الارستقراطيون على الثوريين الذين ابدلوا اللباس الصغير محل البنطلون ، وهو نقب الثوريين الفرنسيين سنة ١٧٩٣ (المترجم) .

هناك من قبل الحراس حتّى يدفع الدية المقررة في مثل هذه الحالة : تم دفع أربعة باتاك له بواسطة أصدقائه من البربر ، وأربعة لخدم الكخيا ، واثنين للحرس الخاص التابع للباشا ، وبلغ مجموع ما دفعه حوالي أربعة جنيهات استرلينية ، وأخيراً أبعد بأوامر وأعلم بصورة مؤكدة عدم عودته إلى الساحل ثانية . زادت هذه الحادثة من حذر الملاحين الفرنسيين ويقظتهم وحفزتهم على الإبحار منذ أيام قلائل .

٥ أكتوبر ١٧٩٢

انحباس المطر وأثره في طرابلس .

كانت الفصول طوال السنتين الماضيتين في طرابلس شديدة الجفاف بصورة خاصة ، ولكن النتائج القاتلة لانحباس المطر لم تؤثر فينا تأثيراً قوياً من قبل كما هي اليوم . استمرت الرياح الصحراوية خلال الأيام الخمسة الماضية ، ونتيجة لهبوبها وزيادة حرارتها فقد هلك عدد من البربر القادمين من الرمال إلى المدينة ، والذين كان من الممكن إنقاذ حياتهم لو حصلوا في الوقت المناسب على بعض قطرات من الماء . مات اليوم أربعة اشخاص من العطش كانوا يسيرون في ركاب قافلة وصلت حديثاً من الصحارى : فتوفوا قبل أن تطأ أقدامهم مدينة طرابلس ببضع دقائق .

لم تهطل قطرة مطر واحدة طوال أشهر عديدة ، وقد سبب هذا الجفاف وندرة الماء إرتفاع الحرارة وشدّة سخونة الرياح الهابة من الصحراء التي كانت في حالات عديدة قاتلة ومميتة . إن الرياح ساخنة جداً في هذه المدينة إلى درجة أن الحشرات لا تستطيع مقاومتها، حيث كانت تتساقط منها أعداد هائلة في جو محرق . ليس من المألوف أن تهب هذه الرياح الشاذة بالتعاقب لأكثر من ثلاثة إلى أربعة أيام : فإذا استمرت درجة الحرارة في الإرتفاع تكون حينئذ مخيفة ومرعبة في اليوم التاسع ، بل أحياناً ، حتّى اليوم العاشر ، فتجعل التنفس صعباً جداً فتسبب

وفاة عدد من الناس . ومنذ وجودنا هنا ، لم نشهد عنف وقساوة هذه الرياح القوية جداً كما هي في المرحلة الحاضرة . تلبس أكثرية البربر ، بسبب الأثر المخيف الذي تنتجه تلك الرياح الصحراوية ، المناديل الحريرية مربوطة على وجوههم عندما يمشون في الشوارع ؛ للحيلولة دون العمى ، نتيجة للرمال المحرقة ؛ التي ترتفع بكميات كبيرة في الجو ، فتجعل السماء مظلمة معتمة ، بحيث أن زرقتها وألق الشمس المتوهجة أحياناً ، تظهر بكل وضوح وجلاء ، أدق الرمال وأصغرها التي جلبتها الرياح من الصحارى والتي تحجب بريقها ولمعانها .

في مثل هذه المرحلة المحزنة ، وفي الوقت الحاضر ، فإن مدينة طرابلس بأمس الحاجة إلى مورد ماء يستقي منه الناس ؛ فقد وجدت بقايا قناة نظيفة قديمة كان الماء يجري فوقها بالقرب من أبواب هذه المدينة ، كانت منظمة تنظيماً حسناً على عهد أحمد الكبير ، وكانت تقوم بنقل مياه وفيرة إلى المدينة ، لا بد وأنها تعنف البربر وتلومهم لإهمالهم المخجل لها . إن هذا البناء المفيد النافع تعرض للإنهيار والتقوض قوساً بعد قوس ، منذ أن حللنا هنا (١) ، ولو أنها تبدو لأول وهلة سهلة الترميم والإصلاح ، ولكن البربر لا يفكرون في الإصلاح ؛ وكثيراً ما يشيدون الدور والمنازل على القاذورات المتجمعة المكدسة دون أن يكلفوا أنفسهم عناء إزالتها. لم تكن كراهية العمل والإستنكاف من الصناعة أمراً مقصوراً على البربر في طرابلس، فقد تقوض وضاع بعض أحسن ما في مصر من موانيء . والبعض الآخر يتقوض ويتهدم في كل يوم بسبب الحاجة القصوى لنقل القاذورات والأوساخ ؛ التي تجمعت من وقت لآخر بصورة اضطرارية . كانت طرابلس ؛ لحاجتها إلى تلك القناة ، تمون منذ سنين عديدة من ماء المطر الذي يجمع في أحواض خاصة تُسمّى (ماجنات) تقام في وسط الحوش ، حيث يكون الماء فيها من حيث المذاق والصفاء والبرودة ألذ ما يتصوره إنسان .

---

(١) لا يوجد أثر لتلك القناة الان ، ولكن توجد صورة ملونة له في الطبعة الاولى من كتاب الانسة توللي .

٢٢ نوفمبر ١٧٩٢

وفاة السفير حاج عبد الرحمن في مراكش تقاليد اقامة الفواتح ·

وصلت أنباء محزنة ، منذ بضعة أيام ، من مراكش عن موت السفير ، حاج عبد الرحمن الذي رثاه وندبه بكل إخلاص ووفاء أصدقاؤه الذين عرفوه ، سواء كانوا نصارى أم مسلمين ووفقاً للتقاليد المرعية في هذه البلاد فإن كل فرد يقوم بتقديم تعازيه لأسرته المنكوبة الحزينة .

لم أكن أقدم لك وصفاً دقيقاً عما حدث خلال الزيارة التي قمنا بها ، فإنك تستطيع أن تتخيل مشهداً مدهشاً وفريداً ومحزناً كالمشهد الذي رأيناه بهذه المناسبة أو تفترض وجود تقاليد اجتماعية بربرية لا تزال بين أقوام على درجة من المدنية . فحين دخلنا المنزل وجدناه مكتظاً بحشد هائل من الناس الذين جاءوا لتقديم التعازي . كانت شقيقات السفير وقريبات أخريات وأرملته وكريماته اللواتي فجعن بفقيدهن غارقات في خضم النكبة والحزن ، فبالإضافة إلى أحزانهن التي أقضت مضاجعهن ، فقد تغيرت أشكالهن وملامح وجوههن تغيراً كاملاً . كانت أرملة عبد الرحمن تبكي وتنتحب على النعش المرفوع في وسط الحوش الذي نصبت فيه مظلات لهذا الغرض ، وحوله الجواري السوداوات يولولن وينتحبن على فقيدها . وحالما علمت بوجودنا ، تقدمت نحونا ، ولكنها سقطت مغمياً عليها فحملت فاقدة الشعور إلى حجرتها . نثرت اللالة أماني وكريمة عبد الرحمن الكبير الرماد على رأسيهما ، إلا أن كريمته الصغرى كانت مغطاة بالرماد تقريباً . وازدادت آلام الأسرة ومآسيها بعويل صديقاتهن وصراخ السيدات الغريبات ونحيبهن المخيف المفجع .

من المحتمل أن نفترض بوجود مثل هذه المشاهد في التعازي التي نقدمها ، أن يكون العدد الأكبر هنا من الناس قد ألفوا النظر إليها ومشاهدتها ، فهم لا يكابدون في الواقع من شدة الحزن والفجيعة ، ولكن يوجد إلى جانب ذلك العديد من الناس ، الذين من عمق حبهم للمتوفى ، ورقة مشاعرهم ، لا يتحملون مثل

تلك الصدمة العاطفية القوية ، فهم اما أن يقعوا ضحية في الحال ، أو يتولاهم الهزال والضعف يقضون ما تبقى من حياتهم من أيام في نحول وانهيار .

كان نحيب الخادمات ونواح الجواري ، وبكاء النادبات المأجورات مفزعاً ومذهلاً ، فقد جرحن أوردة أصداغهن فسالت الدماء منثورة على النعش ، وبينما كن ينتدبن ويرثيل ويعددن يروين أكثر الظروف حزناً وإيلاماً التي تراكمت بموت حاج عبد الرحمن وفقده ، وكن يختتمن كل قصة محزنة بصراخ عال يرددن (ويلاه أوه) حيث انضم اليهن عدد كبير من البربريات المعزيات اللواتي جئن لتقديم التعازي.

إن الآلام والمآسي التي يكابدها أقرباء المتوفى مستمرة لم تتوقف لحظة واحدة حتى تلك السيدة التي تسمح لها طبيعتها حين يتولاها الحزن وينهكها الألم ، فإن كل معزية قدمت لتشاطرها أساها وتوقظها وتدفعها إلى المزيد من الآلام المبرحة ، فقد طوقت كثيرات منهن أرملة عبد الرحمن وابنته الكبرى بأذرعهن ، صارخات مولولات على رؤوسهن حتى يسقطن من أذرعهن على الأرض من شدة الإعياء مغمورات بتلك الفظائع المتكررة .

لم نستطع أن نتحمل هذا المشهد مدة أطول من ساعة واحدة ، فغادرناهن على أمل أن نقوم بزيارتهن في اليوم الثاني ، والتي لا مناص منها ، لأن رفضها يعتبر دليلاً على العداوة والخصومة .

في الوقت الذي غادرنا المنزل ، أوصلت الخادمات اللالة أماني إلى السقيفة لتقابل سيدي أحمد ابن عبد الرحمن الذي كان ينتظر هناك ليعانق أمه . عانقها وتعلق بها وبكى وانتحب ، وحاول أن يعزيها ويخفف من غلواء حزنها بأرق أسلوب عاطفي ، بحيث أن التعازي التي تقدم بها تختلف كل الإختلاف عن تلك التي تقبلتها من الأخريات :

كان السبب في عدم استطاعته الدخول في المنزل إلى أبعد من السقيفة ومجيء اللالة أماني لمقابلته ، بالرغم من أن نساء الطبقة الدنيا قد يحجبن أنفسهن عندما يمر بهن ، إلا أن وجود سيدات من الطبقة الممتازة اللواتي كن مجتمعات لتقديم

التعازي بمناسبة وفاة أبيه حال دون دخوله إلى المنزل .

ولكن ، على العكس من ذلك كن أكثر هياجاً وانفعالاً . كانت الحزينة الأولى الثكلى التي يرثي لحالها والتي وقعت عليها أبصارنا اللالة خدوجة ، كريمة عبد الرحمن الكبرى . تغيرت ملامح وجهها تغيراً كلياً بحيث لم يكن من السهل التعرف عليها . لم تكن صدغاها مجروحين مثل بقية النادبات المؤجرات ، إلا أن وجهها كان مشوهاً من أثر الأحزان الثقيلة التي أناخت عليها ، وكان شعرها منثوراً بدون تمشيط أو ضفر . كانت شاحبة اللون مصفرة الوجه من النحول والهزال ، ولم تكن قادرة على الحركة من شدة الإعياء . كانت تتكيء على جواريها السوداوات . صحبتنا إلى حجرة وجدنا فيها الإغريقية (اللالة أماني) وابنتها ، التي لم تغمض عينيها من شدة وطأة الأرق والقلق طوال الليل كله فكانت تبدو مريضة جداً . بقينا ولكن دقائق معدودات عند ما عادت اللالة أماني واللالة خدوجة لتنتحبا وتذرفا الدمع الهتون على النعش .

حاولنا عبثاً أن نحول دون اقترابهما من أمر تعتبرانه واجباً وسلاماً وتحية أخيرة للراحل .

لقد حاولن أنفسهن أن يمنعن الإبنة الصغرى من الدنو من النعش ، خاصة وأن هذه الآنسة الشابة لا تزال عذراء ، ومن الواجب أن تحتفظ بمنديل من الحرير مربوطاً على وجهها ربطاً محكماً ، حتى لا يراها أي غريب أجنبي ، كما ان حرارة الجو العالية تجعل الآن حالتها لا تطاق .

أصرت على وجوب توصيلها إلى النعش ، واعدة بالعودة في الحال ، ولكن عندما حاولت النسوة اعادتها رمت بنفسها على النعش . ولما كان يعتبر إجبارها على العودة بالقوة من النعش إنتهاكاً لحرمة المتوفى ؛ اضطرت النسوة اذن على بقائها حتى أغمي عليها ، عندئذ حملت إلى حجرة أمها ، فبكت اللالة أماني وانتحبت اللالة خدوجة وقتاً طويلا قبل أن تسترجع قواها .

ولم تكد تستعيد قوتها وتدب الحياة من جديد في جسمها حتى جلست بقربها صديقة من أسرة بربرية موسرة ؛ تروي لها ما لا يمكن تصديقه حين

شرحه لك : فقد بدأت تصف لها حال أبيها وهو راقد في قبره ، بلغة مجازية وتلونه بأزهى الألوان وأقواها تقول بأنه أغمض جفني عينيه إلى الأبد وسيظلان مغلقين ولا يفتحان مرة ثانية ، وأن لحيته الجميلة التي كانت تزين وجهه شعثاء مهملة وبدون تمشيط ، وان الرمال تملأ أذنيه ، وأن الديدان تحتفل الآن بأكل وردتي خديه ، وأنه توفي ودفن في مملكة بعيدة كل البعد عن أسرته ... إن مثل هذه الأفكار وغيرها كاف لأن يثير أشجان هذه الفتاة البائسة الثكلى وتدفعها إلى الجنون ، وما كادت تنتهي صديقتها من حديثها حتى أغمي عليها فاقدة الرشد وسقطت إلى جانبها .

ولإطلاعك على المزيد من الآداب الإجتماعية لهذه البلاد ، في مثل هذه المناسبات أروي لك ما وقع حين وصلت الأنباء إلى القلعة عن موت السفير ، أراد الباشا أن يعبر عما يكنه من صداقة وإخلا ص للمتوفى عبد الرحمن ، وعن احترامه وتحياته لأسرته ، فأرسل الجواري السوداوات والخادمات ، وأمرهن في اللحظة التي يصلن بها وسط حوش عبد الرحمن أن يعولن ويصرخن بصوت واحد . وهذا ما قامت به الجواري والخادمات فعلا .

سمعت اللالة خدوجة والإغريقية الضجة ، فخرجتا مذعورتين من حجراتهما لتعرفا سببها . سرعان ما أحاطت الجواري السوداوات بالإغريقية ، اللواتي سحبن الجرد الذي يغطي جسمها ، ورمينه بغضب وهياج شديدين على الأرض ، وجررن أقراطها من اذنيها وطرحنها أرضاً ، ونزعنا عنها حليها ومجوهراتها وانتهين بالكلمة التالية : « اصرخي واندبي زوجك ، واعولي وأبكي على أبيك »، قلن إلى اللالة خدوجة التي وقفت جثة هامدة بدون أية حركة : « اندبي السفير وابكي عليه إنه ميت » . عندئذ انطلقت الجواري السوداوات بالصراخ والعويل والبكاء والنحيب سوية يرددن (ويلاه أوه) .

بهذه الطريقة التي وصفت علمت اللالة أماني واللالة خدوجة بفقيدهما .

كانت الأسرة حين غادرناها اليوم حزينة تولول وتبكي على النعوش المقامة في ثلاثة مواقع مختلفة من المنزل فقد أقيم نعش في حجرة ابنته الصغرى

التي لا تقوى على وضع الحجاب على وجهها مدة طويلة ، ظلت تنتحب عليه هي وجواريها وخادماتها . وكانت اللالة أماني واللالة خدوجة ، ومعهما عدد من سيدات القلعة يبكين في حجرات اللالة أماني وكانت بقية النسوة تحيط بالنعش الذي رأيناه في وسط الحوش أولا .

كانت هذه المراثي والمآتم المخيفة المحزنة تستمر سبعة أيام ، أما الآن فقد اكتفي بثلاثة أيام فقط . أية سعادة تغمر النساء الثواكل البائسات لو أنهن تقبلن العزاء مرة واحدة . بعد أن تنتهي كافة هذه الطقوس يعد عشاء كبير لكل من جاء يقدم تعازيه . اليوم يرسلون الخبز والزيت بكميات عظيمة إلى المرابطين تقدمة من أجل شآبيب الرحمة على الراحل ، ويعد الليلة عشاء القبر ، الذي يوزع على حشود الفقراء المتجمهرين على أبواب المنزل .

٢٠ ديسمبر ١٧٩٢

زيارة القلعة • اداب المائدة • قصة سيدي محمود مع سيدة تركية • تعيين سيدي محمود سفيرا .

قمنا اليوم بزيارة الإسرة المالكة ، بعد غياب عن القلعة استمر بضعة أشهر ، نتيجة لعدم استقرار الحالة في القلعة التي جعلت من المستحيل على النصارى أن يقوموا بزيارة القلعة .

وجدنا اللالة حلومة والأميرات قد هدأ روعهن واعتدل مزاجهن ، ومع أن زيارتنا كانت قصيرة ، إلا أنهن امسكن بنا ولم نغادرهن إلا بعد غروب الشمس ، مدعيات عدم وجود شيء يخشى منه ، فلم يكن سيدي يوسف في القلعة .

كان كل من الباشا والبك على انفراد ، وظل الباشا حتى ساعة انسحابه لتناول طعام العشاء ، حيث أعفى اللالة حلومة من الوقوف إلى جانبه حين كان يتناول الطعام حسب ما تقتضي التقاليد المرعية في البلاد ، ورافقت الباشا جواريه

السوداوات فقط وحظيته اليهودية الملكة ايستر ، وحالما غادر الباشا والبك ، أعدت مائدة طعام في الرواق المسقوف أمام حجرة اللالة حلومة . وضمت المائدة كلاً من اللالة حلومة وثلاثاً من الأميرات وأسرتنا . وقد سررنا جداً بلقائهن جميعاً جالسات معنا ، بدلاً من أن تلف اللالة حلومة حول المائدة ، تخدمها الأميرات وتتحدث إلى الضيوف بالتناوب ، وهو التقليد الإجتماعي الذي تقوم به عادة عندما توجد سيدة نبيلة بربرية على مائدة العشاء ، كان لطفها عظيماً حين تجلس وتأكل مع رعاياها . كانت دماثة خلق اللالة حلومة ، وعلو شرف آدابها الإجتماعية من خصائص ومقومات شخصيتها الجذابة الساحرة . ولا تستطيع أعظم السيدات في القصور الملكية الأوروبية تهذيباً أن تكون أكثر تأثيراً منها ، وبهذه الفضيلة التي لا حدود لها ، فإن خداع وفراغ خلقية الأبلطة لا تؤلف جزءاً من أخلاقها . قد ترتسم على شفتيك الإبتسامة حين تشاهدنا جالسات على وسائد غالية الثمن مطروحة على الأرض حول مائدة مصنوعة من العاج ومطعمة بالذهب ، لا يزيد ارتفاعها على اثني عشر إنشاً ، عليها عدد كبير من الملاعق الملونة من المرجان والإبنوس والعاج والصدف وعظم السلاحف المطعمة باللؤلؤ والأحجار الكريمة ، ولكن كنا جميعاً وفق التقاليد المرعية في البلاد بدون سكاكين وشوكات وصحون .

كان عدد الخادمات يفوق عدد المدعوات ، بحيث وقفت جاريتان أو ثلاث من الجواري السوداوات للسهر على خدمة كل ضيفة ، ويقدمن بسخاء لهن مناشف الوجه المطرزة بالذهب والمرطبة بالماء العطر .

كانت المائدة مغطاة دائماً بأربعين إلى خمسين صحناً ، تحمل كل جارية سوداء منها صحناً واحداً وتقدم المدعوات ليخدمن أنفسهن . ولكن اللالة حلومة رغبت في تقديم العشاء حاراً للمدعوات ، فأمرت بتقديمه على الطريقة التركية فكان يجلب في كل مرة طبق واحد ، حتى أصبح من العسير على الفرد أن يتذكر بدقة عددها . وقد استغرق تقديم العشاء بهذه الطريقة وقتاً طويلا .

وأعدت مائدة أخرى عليها الفواكه الطرية الطازجة واليابسة ، وأنواع

مختلفة من المرطبات من الشربات (بدلا من النبيذ) وكانت بعض الأنواع الأخرى العجيبة المستوردة من القسطنطينية ومصر وطرابلس تعرض لنا طرقاً مختلفة لصنع الحلويات والمعجنات والمرطبات وكانت من بين الحلويات أزهار البرتقال والليمون وجوز الهند المعد إعداداً جيداً ، وعصير مختلف الفواكه المصنوعة كعكاً من الفواكه المجففة .

أثارت فينا هذه التقاليد من القصص العربية الاسطورية وأنعشت قلوبنابأقداح مملوءة ليس نبيذاً وإنما شربات. فمع كل قطعة من الصيني أو غيرها من زخارف الحلوى قصة لذيذة مرتبطة فيها : طلبت اللالة حلومة منا أن نلاحظ بعض المزهريات الصينية التي تحتوي على أزهار البرتقال كانت هذه المزهريات من أجمل الصيني النبلطاني هدية من حفيدها المحبوب سيدي محمود ، إلا أنها أخبرتنا بنفس الوقت ، بأنها كانت هدية النبي ليذكرها كيف أنها ستفقده قريباً ، في الوقت الذي كان يجمع تلك الهدايا من نابلي : ضاع قلبه عند اللادي هاملتون وجلب معه تمثالها مرصعاً بأحجار البرلانتي .

إرتعشت اللالة حلومة الورعة التقية جداً من التفكير بما تركته تلك السيدة الجميلة الساحرة التي سلبت لبه من أثر في عقيدته الإسلامية ، وطلبت من الأميرة التي تجلس بجوارنا أن تقص علينا ما جرى من الأحداث والوقائع التي روتها في تلك الكلمات تقريباً .

حين غادر سيدي محمود هذه البلاد سفيراً في نابلي تمت خطوبته على سيدة شابة اسمها سليمة ، من أصل تركي ، وقد كلفه ندمه من اهمالها وعدم الإكتراث بها بعد عودته إلى طرابلس حياته تقريباً ، وقد يدور في خلدك السؤال التالي : من أين جاء هذا الشعور الفياض المتدفق في سيدي محمود بعروسه الخائبة الرجاء ، والتي ، بموجب قوانين هذه البلاد لا يستطيع رؤيتها إلا بعد الإحتفال بزواجه منها .

ولكن بالرغم من القيود والسدود التي تقيمها التقاليد في هذه البلاد فتعزل حياة المرأة عزلاً تاماً ، فأنه بعون المراسلات ومساعدتهن (اللواتي يعملن في

هذه البلاد من أجل الحصول على المال في كل الحالات) يستطيع الخطيبان أن يحصلا بشيء من الصعوبة والخطر ، على نظرة بعيدة عن أحدهما الآخر ، ليعرفا شعور أحدهما نحو الآخر .

تصل بعض الأنباء بهذا الأسلوب عن طريق العيون والأرصاد ، فقد يعارض الطرفان بعد أن تتم خطوبتهما ، بشدة ، احتفالات العرس وولائمه ، لأنها تتطلب بذل المزيد من الأموال والجهود ، وتدعو إلى عزل الخطيبين أحدهما عن الاخر ، تلك الاحتفالات التي تخططها في العادة الأسرتان منذ لحظة ميلاد أطفالهما .

أما سيدي محمود الذي اعتاد الآراء المتطرفة لهذه البلاد واعتبر خطوبته لفتاة غريبة لا تربطه بها أية رابطة مسألة لا أهمية لها . فقد سمع بأن خطيبته فتاة جميلة رائعة ، ذات شباب وحيوية ، وعلم بأنها غنية ، فأحس بالطمأنينة ، ولم يكلف نفسه عناء المزيد من البحث ، ولكن الأمر يختلف مع عروسه : فقد تذرعت بكل وسيلة من أجل أن تكشف عن خلقه ، وتحصل على نظرة خاطفة عن شخصيته . سرعان ما طمأنت نفسها في هاتين الرغبتين ، إلا أن النتيجة قد سلبت لبها ، فوجدت الواقع يفوق أحب أخيلتها وأكثرها شوقاً وحنيناً . إلا أنها علمت بعد البحث الطويل بأن سيدي محمود لم يبح بأقل فضول للسؤال عنها ، فوقعت سليمة حزينة كئيبة ، متألمة من برودة خلقه ، وعدم اكتراثه بها ، الأمر الذي لا يتفق مع ما تكنه من أحاسيس ومشاعر وأفكار .

كان سيدي محمود يصحب البك عادة عندما يخرج مع حاشيته للنزهة في المباريات على الرمال . وكان الطريق الذي يسلكه البك يضطرهم دائماً للمرور على المنزل الذي تسكن فيه سليمة . ومنذ اللحظة التي عرفت بها هذه السيدة بأنها العروسة المنتظرة لسيدي محمود لم تفشل أبداً بما لديها من وسائل مختلفة لأن تحصل على نظرة خاطفة عن خطيبها تطل من نافذة في غرفة أبيها ، إذ يتطلب الأمر حذراً شديداً ، حيث لا يسمح للسيدات الدخول اليها ، ولكن كثيراً ما تكسر هذه القاعدة الاجتماعية .

أن إعتادت سليمة أن تسترق النظر من تلك النافذة فتشاهد البك وسيدي محمود يمران على مهل ، وهما يمتطيان جواديهما من تحت أسوار حديقة أبيها ، حيث كانت توجد تلك الغرفة ، ولو أن سيدي محمود قد أبدى أقل رغبة في التطلع إلى زوجته المقبلة فلربما أتيحت له الفرصة السانحة لتطمين رغبته .

توقف البك في يوم من الأيام ليتحدث مع والد سليمة لفترة طويلة ، حين كان خارجاً للنزهة معه فوقع بصر سليمة المنفعلة المهتاجة على سيدي محمود ، ولكنه لم يجل بطرفه الفاحص لما كان يدور في المنزل ، ولم يهب نظرة واحدة إلى ما كانت تزخر به الغرفة من عواطف جياشة وغيرة وشوق ؛ فكانت سليمة القلقة المشتاقة كئيبة حزينة دائماً بسبب قلة فضول سيدي محمود ، حتى دب المرض في جسمها أخيراً ، فلازمت الفراش ، ولم تعد قادرة على الاستمرار في زيارتها لتلك الغرفة .

تدهورت صحة سليمة وانحطت قواها ، ولم تستطع كل الجهود التي بذلها دراويش طرابلس ورجالها الصالحون تقديم الشفاء لها ذهبت كل المحاولات سدى مثل نحر الاضاحي من الغنم وحمل الزيت والمؤن إلى المساجد ، وكتابة آيات من القرآن بأيدي الائمة والأولياء على الورق وحرقه ، وتحويله إلى رماد ، ومزج ذلك الرماد بالنبيذ ، وشربه من قبل المريضة الحسناء ، كل ذلك لم ينفع معها شيئاً .

اختفت الحمرة الوردية التي كانت تعلو خدود سليمة ، وارتعشت صديقاتها خوفا على حياتها . استحوذ المرض عليها جداً بعدئذ لم تعد تقوى على مغادرة حجراتها ، ورؤية أحد غير قريباتها . أخيراً تم الوصول إلى وضع خطة لتبديد شكوكها ، وإزالة الهواجس من قلبها ، ومحو كل فكرة سوداء عن سيدي محمود في مخيلتها ، إلا أن الوسيلة التي استطاعت بواسطتها سليمة أن تطمئن رغبتها بالتطلع إلى سيدها المنتظر قد تم تدبيرها سواء من قبل إحدى قريباتها أو إحدى خادماتها ، الشديدة الارتباط بها ، والتي خاطرت بالقيام بتدبير دون الحصول على أمر من سيدتها يبقى سراً دفيناً .

في هذه المرة أقام شقيق سليمة الذي يحبها حباً جماً ، وهو من أقرب أصدقاء سيدي محمود صلة وأعظمهم ثقة ، وليمة في غرفة أبيه (نفس المكان الذي كانت تقف فيه عادة سليمة المشتاقة الوالهة لتتطلع اليه) تكريماً له . وفي مثل هذه المناسبات ، التي تولم بها الولائم من قبل سيد المنزل ، تؤخذ أعظم المحاذير التي تحول دون المخاطرة بسيدات الاسرة لان يعرضن أنفسهن فيسترق الرجال اليهن النظر .

اعتبرت سليمة دعوة أخيها سيدي محمود مزيداً جديداً من آلامها وأحزانها لأنها أقيمت بمناسبة زواجها المقرر فقط ، إذ ترتعد من مجرد التفكير به الان ، ولكن تم اقناعها تماماً بتقديم المبررات والأعذار لعدم اكتراث سيدي محمود وعدم مبالاته بها ، لأنه كان نتيجة لصلته بموضوع سعيد جداً . فبينما كان كل من في المنزل مشغولاً بقلق واضطراب ، للاعداد والتهيؤ لضيف أخيها ، جاءت سراً إلى سليمة أوثق خادماتها وأكثرهن وفاءً واخلاصاً وأسمها (ياسميني) وجلست بجوارها كما لو كانت مضطجعة على وسادتها لم ترغب سليمة من باب المزاح ، أن تقلق ، فأمرت خادمتها بالانصراف ، إلا أن (ياسميني) أبلغتها بأن عزيزتها المرأة الحبلية ، زوجة أحد بستاني أبيها الذي يسكن في الحديقة تحتضر وتصارع سكرات الموت ، وقد خيم عليها الحزن وكلكلت الكآبة ، لأنها تتمنى أن تشهد عيناها اللالة سليمة بمهمة خاصة جداً ، وعرفت بأنها لا تجرأ على القيام بعمل غير قابل للتطبيق . كانت سليمة كلها آذان صاغية لنداء الحزن والغم ، وعلمت بأن ذهابها سيكون آخر فضل تطلب هذه المرأة البائسة القيام به ، وقررت أن تلف نفسها بجردها بكل حذر وانطلقت مخاطرة مع (ياسميني) في الحديقة إلى كوخ صغير أهدته لاقامة تلك المرأة الحبلية .

وجدت سليمة تلك المرأة البائسة في الحالة التي كانت تتوقعها ، تبدو وكأنها مريضة جداً ، طريحة الفراش ، ولم تلحظ عيناها منظر أمرأة ريفية جالسة على جنب سريرها تسند المرأة الحبلية المريضة إلا بعد مضي زمن طويل ،

فارتابت مذعورة لذلك الشبح الذي ظل محجباً حجاباً كاملاً طوال ذلك الوقت (الذي دل سلوكه على عدم الاحترام في حضورها) وسرعان ما استفسرت عمن تكون هذه المرأة ؟ ولماذا أبقت وجهها محجباً بحضورها ، فقيل لها بأنها صديقة قدمت من الجبال تتفقد أحوال صديقتها الجبلية ، التي تخجل من الكشف عن وجهها بحضور اللالة سليمة ، فالتمست بأن تغفر لها جهلها ، وأن لا تغضب عليها . وحين جرى هذا الحديث اختفى ذلك الشبح فجأة . فشعرت سليمة بالقلق والاضطراب والذعر فغادرت الكوخ في الحال .

بعد أن غادرت الكوخ بدأت تستفسر من ياسميني عن هوية ذلك الشبح ، وهددتها بمنعها من الحضور اليها ،إذا هي لم تستطع الحصول على المزيد من المعلومات عن ذلك الشبح الغريب حتى صباح اليوم الثاني ، حين جاءت ياسميني برسالة من سيدي محمود يرجوها فيها أن تغفر للمرأة الجبلية ، التي قيل له بأنها أساءت اليها وكدرت صفو حياتها قائلا لها ، بأنه سيأخذ بعين الاعتبار بأنها ستحتضن ثانية المرأة الجبلية ووضعها تحت رعايتها ، فتقوم بجميل لا ينساه من أجله .

وسواء كانت سليمة قد تسلمت رسالة أخرى بالاضافة إلى الرسالة المذكورة أعلاه ، لتبلغها بأن سيدي محمود كان هو الشبح المحجب المختفي بجرده ، الذي ساعد المرأة الجبلية المريضة فأنه يبقى سراً ، ولم يغفر للمرأة الجبلية وحدها ، وانما أصبحت (ياسميني) أكثر معزة أعمق محبة .

بعد هذه الحادثة جعل سيدي محمود نفسه اللالة سليمة على اتصال دائم بما يقوم به من عمل ، وفي الأيام التي كان يخرج مع البك إلى النزهة على ظهور الخيل في الرمال ، كانت على أتم الاستعداد ترتدي بدلة مزخرفة ومزينة جديدة وكان هندامها أطول من المعتاد ، بينما كان سيدي محمود يركب أفخم الجياد وأجملها بكل أبهة ، ولم يعد بإمكانه الآن المرور من المنزل الذي تسكن فيه اللالة سليمة دون خلق صعوبة ، دون أن يحرن حصانه ، ويصعب لجامه ، فيضطر إلى التأخير إلى أن يتم نزوله من على ظهر جواده ويضع

السرج على الحصان وضعاً صحيحاً فيستأنف السير ثانية .

أصدر الباشا ، في ذلك الوقت ، أمراً بتعيين سيدي محمود سفيراً له في نابلي ذلك المنصب الذي حاول التملص منه ، اذ لم يرغب في مغادرة البلاد التي تضم الآن كل ما يراه يستحق الحياة من أجله ، وكان يخشى من الآثار التي يتركها سفره في نفس سليمة الحسناء ، إلا أن موعد الاحتفال بزفافهم لا يزال بعيداً ، والباشا سوف لا يقبل أي عذر من سيدي محمود بعدم قبوله ذلك المنصب ، فكان مضطراً للرحيل إلى نابلي .

وفي أثناء إقامته في نابلي عاش في حمأة الملذات والمفاتن ، وغرق في الطرز اللاخلاقية للنبلطانيين ، وبهر عينيه ألق البلد وبريقه ، واستهوته غانياته وعاهراته ، اللواتي تركن أثراً عميقاً في قلب السفير الشاب ، حتى أصبح خلال فترة من الزمن يعيش لتلك المشاهد الخادعة الباطلة التي انغمس في تيارها الجارف .

تحين الواشون والحاقدون هذه الفرصة للايقاع به والنكاية فنقلوا القصص والروايات التي فيها الشيء الكثير من المبالغة عن تصرفاته وسلوكه إلى اللالة سليمة الشابة الوفية المخلصة . ففقدت وعيها وسقطت مغمياً عليها ضحية لمشاعرها . كان سيدي محمود قلقاً ومهموماً قبل مغادرته سواحل نابلي وعودته إلى طرابلس . ولم يتذكر بعد الحورية التي تركها وراءه ، فكان يركز تفكيره على سليمته فقط ، وكان يخشى من احتمال سماعها أخبار عشيقاته .

حالما وطئت قدماه المنزل الذي تسكن فيه سليمة أعلم بأن حياتها كانت بين اليأس والرجاء ، وبدلاً من اهتمامهم بالاستعداد لحفلات زواجه ، وجدهم منهمكين في الاعداد لموتها المنتظر في كل ساعة . كانت شدات الزهور والورد الصناعية تحيط بها بكثرة . وعندما دفعه قلبه المتشائم للاستفسار عن سبب ذلك القنوط واليأس أجابوا بأنهم يزخرفون نعش سليمة . كان لهذه الأنباء المحزنة أثر عميق في قلب سيدي محمود ، بحيث ظل عدة ساعات فاقد الشعور بين

الحياة والموت . بعد أن استعاد قواه العقلية كان عليه أن يلجأ إلى التخفي ثانية .

تخفى ثانية على هيئة امرأة في جرد عادي ، وذهب إلى ياسميني المخلصة الوفية ، التي بفضل عونها ومساعدتها استطاع أن يحصل على أول نظرة تطلع بها إلى سليمة في كوخ المرأة الجبلية. أوصلته ياسميني إلى حجرات سيدتها وأعلمتها بأن هذه امرأة تونسية تحمل أنباء عن سيدي محمود ، وأنها سوف لا تسر أحداً بحديثها إلا هي بنفسها ، وأضافت قائلة بأنها ستخلي الممرات المؤدية إلى الحجرات حتى تنتهي المرأة التونسية من إبلاغ رسالتها. لم تستطع ياسميني أن تقنع سيدتها إلا بعد جهد عظيم بالسماح للغريب أن يقترب منها ، وحين وافقت على ذلك كان منظر سليمة موحشاً أنهكه الهزال والضعف ، وكان صوتها خافتاً ، فرغبت بأن لا تطيل كثيراً في إبلاغ ما تريد أن تقول ، وبما أن ياسميني لم تستطع البقاء للقيام بخدمتها ، ولا تريد أن تضيع لحظة واحدة من اللحظات القلائل التي اعتقدت بأنها يجب أن تعيش في التحدث أو التفكير ثانية بسيدي محمود ، الذي نساها منذ مدة طويلة ، وكان بعيداً جداً عنها لا يقدر على المجيء اليها ، حتى إذا كان راغباً في ذلك .

قالت هي ، أما أنا فقد تغيرت فمن كان قد شاهدني من قبل يندهش ويعجب من جمالي وحسني ، أما اليوم فقد ذهبت نضارة الحياة من وجهي . فاهت بها ، لم يستطع أن يستعيد قوة صوته الا بصعوبة ليطلعها على الأحداث التي يرغب في التحدث عنها قبل أن يكشف عن نفسه .

لقد نجح على كل حال ، وبينما كانت تبكي وتذرف الدمع على ندمه وتوبته ، وما قاسى وكابد من الآلام والمآسي ، اغتنم الفرصة المناسبة ليكشف عن نفسه لها . لم تكن هذه النتيجة متوقعة مما استدعت اللجوء إلى النجدة الفورية.

استعادت سليمة صحتها بسرعة وأخذت بالتحسن ساعة فساعة ، الأمر الذي أدهش صديقاتها وأفرحهن ، وكان فرحهن عظيماً حين شاهدن سليمة وسيدي محمود زوجين .

قالت الأميرة التي كانت تقص علينا تلك الرواية إن هذه الحادثة قد حولت تلك الأزهار الاصطناعية التي كانت حزمات لزخرفة نعش سليمة إلى زهور تزوق هذه المزهريات السلطانية ، أهديت لوالدتي مزينة ومزخرفة من سيدي محمود ، قائلاً بأنها ستظل تذكاراً ، فكان بقدرته أن يغير مصير تلك الزهور ، وتمنى أن تنال هذه المناسبة عفوه إذ كاد أن يحظى بسليمته الحسناء التي سلمها من زمن طويل صورة اللادي هاملتون .

غربت الشمس قبل أن تسمح لنا اللالة حلومة بمغادرتها . كان مزاجها رائعاً وممتازاً إلا أنه لسوء الحظ ، وصل نبأ مخيف قبيل مغادرتنا من سيدي يوسف . حين وصل ذلك النبأ نقل إلى الباشا ، على العكس من التقاليد المرعية التي توجب عدم إزعاج الباشا بعد غروب الشمس : بأن سيدي يوسف ومعه جيش قوي ينتظر على بعد بضعة أميال من المدينة . أرسل عدد من الشواويش ليستدعوا الأعراب من الغرب ، وأغلقت الممرات المؤدية إلى الحرم والتي كانت مفتوحة أكثر من المعتاد أخيراً ، وعندما استأذنا اللالة حلومة بالانصراف كان كل شيء محاطاً بالقلق والشك .

١٩ يناير ١٧٩٣

تقاليد نزع ثياب الحزن من سيدة بربرية

مع أنه قد مضى حوالي شهرين على الانتهاء من اقامة الفواتح والمآتم في منزل اللالة أماني على روح السفير المتوفى ، فانها لم تلبس الحداد حتى وصلت انباء الوفاة إلى الأسرة مباشرة وفق التقاليد المرعية في البلاد بعد أن وصلت الرسائل بدأت اللالة أماني الثكلى حزنها أمس .

أتمت سيدة بربرية المآتم والطقوس الجنائزية عندما لبست رداء الحداد ونزعته والتي تبدو لك فريدة مدهشة . ذهبت اللالة أماني مع جواريها السوداوات وخادماتها وأخفت جسمها تماماً بعدد من الأغطية التي تلبسها إلى

ساحل البحر ، حيث كان شعرها مصففاً بمشط من الذهب . وكانت ضفائرها مربوطة بحرير أبيض ، بدلا من الشريط الأسود ، فوضعت عصابة بيضاء اللون على جبينها بدلا من عصابة ذهبية مزخرفة بالجواهر كانت تلبسها في العادة .

ان الفترة المحدودة لحزن أرملة هو أربعة أشهر وعشرة أيام . بعد انتهاء تلك المدة تذهب اللالة أماني ثانية إلى ساحل البحر . تحمل معها نفس المشط الذي استعملته وأربع بيضات طرية ، تعطي البيض لأول شخص تصادفه ، ويكون مضطراً على قبولها ، حتى ولو كان الباشا نفسه ، تتصور أنها بالبيض تتخلص من كل النحس والشؤم وسوء الطالع . فاذن لا يحب شخص قبولها ، ولكن لازالت هذه العادة الاجتماعية قائمة ويتبعها الناس ، بحيث لايفكر أي شخص في رفضها . تتقدم عندئذ إلى ساحل البحر حيث يمشط شعرها للمرة الثانية ، وترمي المشط في البحر بنفسها ، وحينئذ ، وليس قبل ذلك : يصبح لها كل الحرية في الزواج ثانية .

كنا معها أمس : فشاهدنا أن كل الملابس ومواد الزينة الزائدة التي لا لزوم لها قد طرحت جانباً ، وكذلك الأثاث . ولأجل أن يعبر المنزل عن الحزن والكآبة فقد جرد من الستائر والمرايا والسجاد ، ما عدا ما كان ضرورياً لا يمكن الاستغناء عنه. ولم تكن الجواري السوداوات يحملن الفضة والمسبحات. يلبسن طرابيشهن مقلوبة . ولم تصبغ اللالة أماني يديها أو قدميها بالحناء ، ولم تلبس أساور في يديها أو قدميها ولم تضع الحلى والجواهر ولا يسمح باستعمال الروائح أو المياه المعطرة لأنها تعتبر من مواد الزينة .

يتوقع وصول حاج محمود ، زوج اللالة خدوجة ، من مراكش كل يوم ، حيث توفي السفير تشعر اللالة أماني الآن بتفوق عظيم جداً على الأرامل البربريات ، لأنها تتمتع بثقة حاج عبد الرحمن الكلية حتى ساعة وفاته . تبقى اللالة أماني نتيجة هذه الوضعية دون أن تكون عرضة لرقابة أحد أو للخضوع

إلى أحد أقربائه ، سيدة ترعى أطفالها ، وتتصرف بكل ما خلفه لها دون تدخل أي شخص .

٢٣ يناير ١٧٩٣

الخصومات الداخلية لا زالت مستمرة .

مضت بضعة أيام في مراسلات مستمرة بين سيدي يوسف في المنشية والباشا الذي كان متحمساً جداً لعقد مؤتمر آخر مع أخيه البك ، الا أن البك يعارض ذلك كلياً ، وكان خائفاً ومذعوراً لسلامته فأمر بتشديد الحراسة ليلا .

خرج الباشا اليوم يصحبه البك إلى المساجد ليصلي ويتعبد ويقدم القرابين والاضاحي إلى النبي ، بعد نصيحة أسداها درويش مشهور جاء من الجبال مؤخراً ، واختلى بالباشا أمس عدة ساعات .

توقف الباشا في طريقه في منزل شيخ البلد ، الذي أهدى له حارسين أسودين وفق ما تقتضيه الآداب المرعية في البلاد . مر الباشا والبك بعد عودتهما من المساجد بمنزلنا ليشربا فنجاناً من القهوة والشربات . جاءنا صديق في حاشيتهما وأخبرنا بأنهما قادمان ، فكان الوقت ضيقاً جداً لاعداد المرطبات لمائتي أو ثلاثمائة شخص. بدا الباشا لطيفاً رقيق الحاشية ذا معنوية طيبة ، فقال على مسمع من البك إنه لا يشك أبداً في عودة سيدي يوسف إلى مركز وظيفته ، وإنه يتمنى أن يراه بسلام في القلعة ، ويترك أخاه آمناً مطمئناً على العرش . كان هذا الرأي كما يظن على أثر الحديث الذي أجراه الباشا أمس مع الدرويش ، ذلك الرأي الذي ترك انطباعاً مؤلماً وحزيناً في البك ، وبكل تأكيد في الحاضرين جميعهم .

أكد لنا بعض موظفي الباشا بأن الدرويش لم يقدم من الجبال دون أن يكون مزودا بالارشادات من سيدي يوسف ، وعبر آخرون عن مخاوفهم الجسيمة ، بأن رأي الباشا هذا يعني التخلي عن البك ، وأنه سيواجه نفس مصير أخيه

خسش (البك المتوفي) ويخر صريعاً بأيدي القتلة السفاكين . وبالرغم من أنهما توقفا برهة من الزمن إلا أنهما لم يترجلا من على جواديهما . أنضم اليهما واهما في طريقهما من منزلنا ثلاثة أولياء من المرابطين الذين أفسح المجال لهم فأوصلوا حالا إلى جوار الباشا ، ومشوا بالقرب من حصانه فرافقوه حتى القلعة .

لا شيء أكثر حزناً وألماً من أن تشهد البلاد ممزقة الأوصال بالخصومات الداخلية التي لا بد وأن تقضي عليها .

٢٨ فبراير ١٧٩٣

الايام الاخيرة لحياة حاج عبد الرحمن : ازياء السيدات في بلاط مراكش .

ذهبنا صباح هذا اليوم لزيارة كريمة السفير حاج عبد الرحمن بعد وصول حاج محمود حاملاً بقايا الهدايا التي قدمت إلى باشا طرابلس ، والتي أرسلت من امبراطور مراكش المتوفى إلى حاج عبد الرحمن . يروي حاج محمود القصة التالية عن الأيام القليلة الأخيرة لحياة حاج عبد الرحمن والأحداث التي أدت إلى موته .

كان امبراطور مراكش المتوفى كما أخبرتك من ذي قبل ، شديد الصلة بالباشا ، ونتيجة للحالة المحزنة الحاضرة في طرابلس ، والتشابه الواضح بين الآلام المبرحة التي يشعر بها وآلام الباشا ، فكلاهما متأثران بالخلق المشين لأبنائهما ، فقد أمر الامبراطور بتقديم هدايا عظيمة إلى الباشا ، من بينها ساعة لا يقدر ثمنها مغطاة تقريباً بالجواهر ، وسبعة من أحسن الخيول وخيراتها ، وأسرجة فخمة ، وأسلحة ، وعدد من الجواري الجميلات ، وعبيد من الرجال والنساء ، وحمولات عظيمة من القمح .

طلب الامبراطور سفينة من النصارى (وهي عادة مألوفة تجري دائماً في مثل هذه المناسبات) كانت راسية في الميناء تصلح لان تنقل السفير إلى طرابلس

بكل فخامة وبهاء وتحمل معها القسم الأعظم من الهدايا . حظي حاج عبد الرحمن بالمثول بين يدي الامبراطور آخر مرة ، وأقام حفل وداع لأصدقائه في مراكش في المساء الذي سبق قراره للرحيل.خلال ذلك الحفل وصلت أنباء غير منتظرة إلى السفير من بعض أصدقائه من القصر تخبره بأن الامبراطور قرر فجأة أن يقود جيوشه في (سالي) ضد ابنه مولاي يزيد ، ومنذ سفره وصل إلى المدينة بعض كبار ضباط مولاي يزيد ؛ حاولوا بالتهديد والوعيد والإقناع السيطرة على وزراء الامبراطور بمنع السفن الراسية في الميناء وعجزها من السفر ؛ على أمل نهبها وسلبها اذا حلت بالامبراطورية الكارثة وهو في طريقه ؛ أو في اللقاء مع ابنه مولاي يزيد .

تدهورت صحة السفير بسبب المتاعب الكثيرة الناتجة من السفارات الطويلة القاسية الشاقة التي مثل خلالها بلاده . كان شيخاً عجوزاً ، ضعيف البنية ، نحيلاً لا يقوى على احتمال الصدمات التي تلقاها من الأنباء التي وصلته في اللحظة التي غمرت قلبه المخلص موجة من السرور والفرح والنجاح العظيم الذي أحرزته سفارته ، التي أعتبرها آخر سفارة يجب أن يقوم بها من أجل سيده العزيز . فوقع على ظهره في كرسيه على المائدة ، فأصيب في الحال بنزيف حمل بعده إلى سريره . وفي الصباح حيث لم يصدر أمر بمنع سفر السفن الراسية في الميناء ، لم يقو السفير على حمل نفسه ، فأمر باحضار نقالة لحمله حالاً إلى ظهر السفينة ، دون انتظار بعض الهدايا التي لم تشحن بعد .

كانت حاشيته مجتمعة ، وكل شيء معد لرحيله ، ونتيجة لوصول الانباء إلى مراكش عن وفاة الامبراطور وهو في طريقه إلى (سالي) ، أعد مرسوم ملكي مناسب من قبل أفراد الحاشية التابعين للامبراطور الجديد مولاي يزيد لمنع كل الأشخاص من مغادرة مراكش والا فانهم يعرضون أنفسهم لعقوبة الاعدام ، ومنعهم من نقل ممتلكاتهم قيد أنملة من العاصمة وحتى إشعار آخر ، وصدرت الأوامر بنفس الوقت بمنع كل شحن من الميناء .

وقع السفير مغمياً عليه مما ألحقه به سوء الطالع فأعيد محمولا ثانية إلى

مضجعه . فبعث ببعض المراسلين إلى الامبراطور الجديد ، إثنان منهم أوقفا وأرجعا مثقلين بالاصفاد والسلاسل ، على مسافة ثلاثين ميلاً من طريقهم إلى (سالي) ، وقبل بعث الرسول الثالث وقع عبد الرحمن الرجل الفاضل ، الذي بقي صامتاً أربعة أيام ، ضحية لاخلاص مشاعره ولوفائه .

بناء على القلاقل والاضطرابات التي شملت مملكة مراكش كلها ، فان سيدي محمود الصهر وحسيب ابن أخ حاج عبد الرحمن تلقيا تهديداً بتجريدهما وسلبهما من كل ممتلكاتهما إذا هما لم يغادرا مراكش حالاً دون أن يحملا هدايا .

بعث سيدي محمود بمراسل ثالث ، جازف بحياته ، سراً في منتصف الليل ، على أمل أن يلفّ ظلام الليل الحالك ويستر بدء رحلته ، فيستطيع الوصول ، من غير أن يكشف أحد أمره إلى معسكر مولاي يزيد الامبراطور ، يحمل التماسا واحتجاجاً من سيدي محمود ليستعيد الهدايا التي كان من المقرر أن يحملها والده إلى الباشا . ومع أن هذا المراسل قد نجح في أداء رسالته إلى الامبراطور ، ولكن لم يحصل الا على ساعة وحصان أبيض مطهم من كل تلك الكنوز الهائلة من الهدايا المقدمة للباشا ، ولكن بسبب إهمال رئيس الملاحين ، في إنزال الحصان إلى الساحل من السفينة ، فكان مضطراً لقتله في لحظة إنزاله إلى الساحل .

قبل أن يغادر سيدي محمود أرض مراكش ، جيء بعدد عظيم من جواري وعبيد مولاي يزيد ، وبعض ما كانت تمتلكه أخته من الجاريات والعبيد إلى السوق العامة . ولما تكنه شقيقة مولاي يزيد من الاحترام والتقدير لذكرى أبيها المتوفى منحت حرية خمس من جواريها ولكن بالرغم من ذلك القي القبض عليهن ثانية ، وانتزعت من أيديهن أوراق حريتهن ، ومن ثم جردن من ثيابهن وأرديتهن وكل ما عليهن من مجوهرات وحلى ، ولم يترك عليهن غير غطاء من الصوف الخشن ، واقتدن أخيراً إلى سوق الرقيق لبيعهن . لا شيء يمكن أن يعادل شقاء وبؤس هؤلاء الجواري اللواتي كن يتمتعن بحريتهن قبل ساعات قليلة ، فوجدن أنفسهن ضحايا للخروج على التقاليد الأسلامية المرعية

التي تضمن حياة الرقيق بعد نيل حريته إلى الأبد ، قد أعدن ثانية ومباشرة يرسفن باغلال الذل والعبودية . ومع ذلك فإنهن يعزين أنفسهن بمغادرتهن البلاد التي يحكمها مولاي يزيد ، وإنهن لسن عائدات اليها .

كن يغبطن مصير جارية شابة حسناء جداً ، نالت حريتها بوفاة الامبراطور كان لها من الاقدام الكافي لترحل فوراً من فاس إلى تونس ، وبعد أن سارت الأميال مع القوافل عبر الصحارى الافريقية ضمها سيدي محمود بدافع الشفقة والرحمة إلى جواريه السوداوات حتى طرابلس . كن يتحدثن بيأس وقنوط عن الفرق بين حالها وحالتهن . وبعد نيل حريتها انضمت في ساعات قليلة إلى القافلة من طرابلس إلى فزان ، بلادها ، في نفس اللحظة التي كانت رفيقاتها في الريف ينقلن إلى أنحاء العالم المختلفة .

كان من بين الجواري الباقيات جارية زنجية نادرة جداً ومدهشة ، ولدت في آسيا على سفوح جبال القفقاس ، بيضاء البشرة ، دمثة الأخلاق ، جمة الأدب ، غريبة الشكل ، عندما تقف تصل يداها إلى ما وراء ركبتيها ، سيقانها طويلة أيضاً ، وخصرها ضيق ، وأكتافها عريضة كأنها أكتاف شخص قوي رياضي . كانت يداها وقدماها صغيرة جداً بالنسبة لجسمها وكان رأسها مغطى بصوف أبيض بدلا من الشعر ، بشرتها بيضاء اللون ، دون خضاب أحمر على خديها ، عيناها متقدتان ، بأهداب بيضاء ، دون أي أثر للحاجب . كانت تتحدث بلهجة مزيجة من اللغتين البربرية والزنجية : وهي لهجة وطنها الأصلي ، البلد الذي تسكنه أقوام تعرف باسم (الكيستي) والتي لا يوجد لها شبه في أية لغة معلومة ، بينما أصلهم وآدابهم ليست معروفة كليا .

كانت قد اختطفت من والديها في طفولتها من قبل أقوام تسمى (اوفي) من الاقوام القفقاسية التي تعيش على خطف الأطفال ، ونقلهم بعيداً عن أوطانهم لبيعهم ، وقد روت لنا هذه المرأة وصفاً فريداً لوضعيتها في أسرة أخت مولاي يزيد .

حين يقوم مولاي يزيد بزيارة شقيقته دون سابق علم أو إنذار ، كما هو

المألوف ، تسرع كافة الجواري السوداوات في قصرها إلى إخفاء أنفسهن في الصناديق المحفوظة وراء أكياس القمح ، أو وراء الأبواب ، وفي أي محل كان ، ليفلتن من يد الطاغية الذي يضحي بهن بكل طيش وقساوة عند قدومه في مثل هذه المناسبة . إلا أن مولاي يزيد يعلم حق العلم أن الجواري يخشين منه ، ولهذا فإنه يتغلغل في كل أرجاء القصر باحثاً عنهن . وفي يوم من الأيام رأت تلك القفقاسية مولاي يزيد يقترب من المكان الذي هي فيه ، ولم تستطع الهروب من وجهه ، فأخفت نفسها وراء نار خشبية عظيمة ، كان قد علق عليها قدر كبير يغلي بقضيب من حديد ، وكان ينبعث من وراء ذلك القدر الدخان ، ومع أنها سحبت من هناك في اللحظة التي غاب بها الطاغية عن الأنظار كانت قد التهمت النيران جسمها بصورة مرعبة ، بحيث تركت في جسمها آثار الحروق ندباً عميقة ، بالرغم من مرور اثني عشر شهراً منذ وقوع تلك الحادثة المرعبة .

لم تكن هذه الجارية البائسة مذعورة في ذلك اليوم بدون سبب ، حيث كان مولاي يزيد يسلي نفسه مع الجواري السوداوات بلعبة كرة كان يطلب إليهن اللعب بها (ولم تجرؤ واحدة منهن رفض طلبه) فكن ، لسوء حظهن يرتعدن خوفاً وهلعاً ، كأنهن مصابات بحمى شديدة ، إلا أن عدم ثقة مولاي يزيد بعينيه يؤدي دائماً إلى الموت . بناء على ذلك قضى على حياة ست من الجواري السوداوات ، وعلى شاب إغريقي جميل الصورة (أحد مماليك شقيقته) الذي ارتعدت فرائصه خوفاً من آثامه الفظيعة . ولأجل أن يعوض شقيقته على الخسارة التي منيت بها أرسل لها اثنتي عشرة جارية من أجمل ما لديه في تلك الأمسية .

سميت هذه الأميرة لجمالها الرائع ، وحسنها النادر ، ولطف طباعها ، ورقة طرافتها من قبل زوجها صباح (أو نجمة الصباح) ، وكنيت أختها لنفس السبب بلقب عال يطرزه المسلمون بأحرف من ذهب (ما شاء الله) أو (هدية

الله) . هاتان الأميرتان معروفتان بطهارة روحيهما ، ونقاوة قلبيهما ، ولطف طباعهما ، وهما شقيقتا الطاغية مولاي يزيد ولدتهم أمٌ واحدة ، مشهورة في رقة لطفها ، وحسن أدبها مثل كريمتيها ، بينما قد تجعل مواهب مولاي يزيد منه رجلا ذكياً لامعاً ، ولكنه قد برهن على أنه قد يكون أي شيء إلا كونه إنساناً وكائناً بشرياً .

إن أزياء السيدات في بلاط مراكش أرق بكثير من الأزياء التي ترتديها سيدات طرابلس كان الفستان الذي تفضله اللالة صباح من الحرير الأحمر الفاتح اللون ، وعليه رداء شفاف رقيق من الحرير الموسلين ، المربوط من تحت كل ذراع بشرائط من القطيفة الزرقاء الفاتحة اللون ، تغطيها تقريباً الأحجار الكريمة الغالية الثمن ، وتطريز ذهبي بين كل خط من الجواهر وكان نعلاها مزخرفين بالأحجار الكريمة . لا تلبس طربوشاً كسائر السيدات البربريات أو أي شيء على رأسها وإنما حزمة من المجوهرات ، وشعرها مضفور الى عدد لا يحصى من الجدائل الصغيرة ، ومربوط بعقود من اللآلىء الكبيرة ، وتصبغ أصابعها كما تفعل السيدات هنا بخضاب أسود خاصة الأصابع التي توضع فيها الخواتم ، وتصبغ أيضاً قدميها لتظهر المجوهرات التي في نعليها . أصبحت الآن ، في الوقت الحاضر ، ابنة شيخ سيف النصر إمبراطورة مراكش ، التي خطفها مولاي يزيد من هذه البلاد ومنذ وفاته تقدمت برجاء الى الإمبراطور الجديد ، مولاي هشام أن يعيدها الى والدها . لا شيء يمكن أن يحول دون تحقيق رغبة هذه الأميرة العربية الشابة في أن تجد نفسها ثانية في موطنها الصحاري . فقد جزعت نفسها من الشرور والآثام العظيمة والمظالم التي رأتها بعينيها فكانت تبحث بشوق عظيم عن أبيها الشيخ الإفريقي الذي لم يدخر وسعاً في أن يوفر لها المفاتن الساحرة بين الجبال الصخرية الشديدة الإنحدار أكثر مما تستطيع أن تجد في قصور فاس أو مراكش .

لنعد الى الحديث عن أسرة حاج عبد الرحمن ، وعن الأموال الطائلة التي صرفها السفير على تلك السفارة ، فأصبحت تقاسي أشد أنواع الضيق

والعذاب . أظهر كل من الباشا واللالة حلومة كل دليل على ما يكنانه من محبة وعطف وحماية ورعاية للالة أماني وعبر الإثنان الباشا وزوجته عن عميق حزنهما بكل إخلاص ووفاء بسبب فقدان زوجها .

١٠ مارس ١٧٩٣ :

هبوب الرياح الصحراوية · نزهة في الريف · قافلة في السهل ·

لقد أزعجتنا الرياح الصحراوية بصورة مبكرة وأكثر من المعتاد . هبت عاصفة هوجاء من الصحارى خلال الأيام الأربعة الأخيرة . حتى وصلت حرارة الأرض والهواء درجة لا تطاق . فهلك منذ مدة قصيرة عدد من المسافرين مع العلم أنهم كانوا مزودين بالماء ، فقضت على حياتهم جميعاً درجات الحرارة العالية . نخشى أن تستمر هذه الرياح سبعة أيام ؛ فهي في العادة لا تتجاوز ثلاثة أيام . تكون آثارها قاتلة وخطيرة حين يستمر هبوبها سبعة أيام أو تسعة أيام ؛ وقد سبق وأن وصفت لك تلك الآثار ، ولكنها تخمد غالباً في ساعات قليلة . سكب الحرس الأسود مياه جرار عديدة على أرض حجراتنا المبلطة بالحجر ، وأبقيت كل حجرة فاضية لمدة من الوقت ؛ بإبقاء الأبواب والنوافذ مغلقة فاكتسبت الحجرات بهذه الطريقة ، وفي مدة قصيرة ؛ برودة صحية عظيمة ؛ أتاحت لنا فرصة التنفس . إلاّ أن حبة رمل واحدة ، في مثل هذا الجو ؛ لو وجدت طريقها خلال الثقوب والفجوات الصغرى التي في الحجرات ؛ فإنها تحدث حرارة في كل فتحة تدخل منها ، ومع أنها صغيرة جداً ولا أهمية لها ، فيجب أن يحتاط لها كل الحيطة ، بحيث لا يتاح لأية حبة منها أن تنفذ منها ، لأنها تقضي على كل المحاولات التي تبذل لتبريد الحجرة ، ولا تفتح أبواب الحجرات إلا مرة أو مرتين ، وإلاّ لزالت تلك الراحة المؤقتة . ومع أن الوقت الآن منتصف الليل فإن حرارة

الحجرات كما كانت من قبل ، وليس بالإمكان وصف تلك الرياح وصفاً يعبر عن فكرة حقيقية لها ، وإنما يمكن الوصول الى ذلك فقط عن طريق الشعور بقوتها وأثرها .

تشبه رمال الصحارى القريبة من طرابلس الرمال الدقيقة الناصعة البياض كأنها رمال فضية ، أما الرمال التي تسفيها الرياح الصحراوية فإنها تختلف كل الإختلاف : فهي رمال دقيقة الحجم جداً ولكنها شديدة الحمرة ، تسقط على طرابلس في مثل هذه الأوقات ، وعندما تتجمع في مثل تلك الكميات على سطح الأروقة وحافات النوافذ تكنس وترمى في سلال عدة مرات في اليوم . يحرم الإنسان من الغذاء والنوم في مثل هذا الطقس ، مروحة من خوص سعف النخيل ، وقدح من عصير الليمون هما كل ما يعيش عليه أولئك الذين اكتووا بحرارة مثل ذلك الجو . ويضيف البربر لتلك الإسعافات التي تخفف من عناء الطقس تمتعهم بالإستحمام بالماء البارد ، ولكنه يبرهن في الغالب على أنه تدبير خطير .

وفقاً لما رويت لك عن كيف أمضينا يوماً من أيام الأسبوع الماضي بنزهة في الريف فإنك تستطيع أن تكون لك رأياً عن الأيام العديدة التي قضيناها على هذا النمط من الحياة منذ أن حللنا هنا . كان من المألوف في دعوة عامة يقيمها النصارى أن يتناولوا طعام العشاء خارج المدينة ، في أنحاء مختلفة من الريف ، مرة في الأسبوع تقريباً ، خلال عدد من السنين الماضية ، حتى بعد زمن قصير من ابتداء القلاقل والفتن الحاضرة ، التي جعلت من المستحيل عليهم أن يخرجوا للنزهة دون أن يصحبهم عدد من وجهاء البربر وأشرافهم ، ويقوم على حراستهم عدد من الحراس أكثر مما كان مألوفاً في السابق . لقد تنازلنا عن هذا النوع من الترفيه ، ولم يعد ممكناً في الوقت الحاضر . ومن التقاليد المتبعة هنا حيثما ينسحب سيدي يوسف وجنده من أمام أبواب المدينة ، ولو لبضعة أيام ، تفتح الأبواب ، حتى يبدو وكأن كل توقع للشر والأذى قد زال . وبناء على هذا النوع من التفكير ، دعا الوزير الأول للباشا مصطفى

شريفي ، عدداً كبيراً من النصارى لتناول طعام العشاء في حدائقه ، التي تبعد ثلاثة أميال عن المدينة . وكان معروفاً بأنه لاقى عناء كبيراً بإعداد كل شيء بأحسن أسلوب ممكن يتناسب مع دعوتنا ؛ بحيث لا يقبل عذر من خوف أو شك بالسلامة والطمأنينة في رحاب حمايته ؛ لرفض الدعوة ؛ أضف إلى ذلك ؛ البقاء في المدينة لعدة أسابيع ؛ فإن الإغراء لم يكن من السهل مقاومته للتمتع بالروائح الذكية ، والظلال الوارفة لأشجار البرتقال في مثل أيام هذا الفصل من السنة ، حيث كانت الأنسام الهابة خالية من وهج رياح الصحراء فإنها تؤلف الهواء العليل العذب المفيد للصحة .

كان بصحبتنا عدد من الضباط الهولنديين والبنادقة الذين من الصدفة أن يحضروا هذه المدينة . وقد تلطف الباشا بإرسال الخيول من القلعة لهؤلاء السادة فعبر بذلك عن فضله على النصارى في مثل هذه المناسبات ، إلا أن البعض منهم كان يرتعد خوفاً من عدم ثقته بالألجمة الغربية ، لأن فم الحصان العربي رقيق جداً لا يتحمل اللجام الأوربي بدلا من لجامه (١) .

وعندما وصلنا حدائق مصطفى شريفي ، أرشدنا جميعاً إلى غرفته ، التي بنيت في وسط حديقة على مسافة من منزله . وكان في هذه الغرفة نور بهيجٌ ولطيف يشرق من خلال الأوراق السميكة لأشجار البرتقال ، والياسمين والورد وزهر العسل ، ويغطي تماماً النوافذ المشبكة التي تحيط بهذه الغرفة من كـــل جوانبهـــا .

أمضى السادة الساعات قبيل العشاء في لعب الشطرنج مع الوجهاء والأشراف البربر ، الوزير الأول للباشا ؛ الكاتب ؛ ورئيس الجمارك . وقامت السيدات بزيارة زوجة الوزير الشابة في منزلها: فإذا اضفناعمرها الى عمر عروسة القنصل

---

(١) لا شيء اكثر قسوة على الحصان من اللجام العربي ، اذا لم تكن تلك الخيـول ملجمة بحبال ، فلا بد وان يكون هذ االبعض من الفرسان غير الماهرين ، وليس اللجام الاوروبي الذي كان مسؤولا .

الإسباني الذي كان معنا فإن مجموعهما لا يتجاوز أربعاً وعشرين سنة — عمر الأولى إحدى عشرة سنة وعمر الثانية ثلاث عشرة سنة . كان مثاراً للدهشة والإستغراب حقاً حين تسمع هاتين الطفلتين (كما يجب أن يصفهما الإنسان) يتحدثان عن طفليهما ، وكلاهما طفلان جميلان جداً ، عمرهما حوالي ستة أشهر تقريباً.

وحالما وصلنا حجرات العروسة قدمت لنا المرطبات من كل الأنواع والنساء الراقصات. وكانت العروسة وأمها وأخواتها يرتدين أجمل الأزياء وأفخمها : مجوهراتها ، وحليها ، وكل ما عليها من ذهب وفضة ، يكشف كله عن ثراء الوزير وغنائه .

حينما كنا نسمر في حرم مصطفى شريفي ، أمر الراقصات والراقصين بالتوجه إلى الحديقة ، ليشبعوا حب الفضول والإطلاع لدى الضباط وأولئك السادة الذين لم يشهدوا بعد الأعياد والولائم الكبرى في تلك الرقصات وغيرها من الجهود العنيفة القاسية الخاصة بهذه البلاد .

بقينا مع السيدات البربريات حتى جاء أحد مماليك الوزير إلى المنزل وأخبرنا بأن السادة قد أعدوا مائدة العشاء وهم منتظرون منذ زمن . ودعناهن بأسف ، فقد كانت أم العروسة لطيفة جداً ، وكان ما شاهدناه بالنسبة لنا شيئاً جديداً .

تبادلت العروستان الهدايا : كمية من القطيفة الجنوبية ، بشرائط ذهبية وفضية وأزراراً من المرجان مقابل صدرية قدمت هدية من العروسة الإسبانية إلى عروسة الوزير وتسلمت خاتماً غالي الثمن جداً هدية من صديقة شابة بربرية وبالمقابل .

أمضينا وقتاً جميلا من الظهر إلى غروب الشمس في تناول المرطبات والقهوة والنزهة في الحدائق ، وأخيراً امتطينا ظهور خيولنا وعدنا إلى المدينة ، واضطررنا أن نمر بقافلة طويلة جداً مخيمة في السهل التي وصلت منذ الصباح . لم يعتد عدد كبير من أفراد القافلة مشاهدة النصارى ، فعبروا عن دهشتهم واستغرابهم بالنظر إلينا ، فاسترعى مظهرنا جانباً عظيماً من اهتمامهم حتى

أصبح من الصعب إخلاء الطريق من البربر لمرورنا من بينهم ومن البضائع التي يحملونها . ولم تكن دهشتنا بهم بأقل من دهشتهم بنا . كان قسم من البربـــر جالسين في بعض المحلات على الأرض يلعبون الشطرنج ، فقد خططوا (١) لوحة الشطرنج على الرمال واستعاضوا بالحصى محل قطع الشطرنج ، وجلس آخرون حول النار الموقدة بجانب الخيمة التي أقامها البربر بسرعة . وكانت حلقات النساء مشغولات في الطبخ وسرعان ما اختفت هذه الحلقات بسبب الضجة التي أحدثناها ، راميات كل شيء كان بأيديهن . البعض منهن أسرعن راكضات خوفاً ، بينما تقدمت أخريات للترحيب بنا واستقبالنا . تقدمن يدعوننا إلى خيامهن ؛ ليقدمن لنا أحسن ما لديهن ، فيما لو قبلنا الدعوة لتناول طعامهن .

ولما كانت الطبقات المنخفضة من البربر والأعراب تعيش في حالة يرثى لها من طرز الحياة التي لا ترتفع كثيراً على مستوى حياة الحيوانات ، إلا أنهم قانعون سعداء دون التمتع بأي شيء من لذات الحياة ومتارفها . كانت النساء البدويات في خيامهن وسخات قذرات ، ألم يأمرهن النبي محمد بكل حكمة أن يغتسلن ثلاث مرات على الأقل في اليوم ، وجعل ذلك واجباً دينياً ، فعليهن أن يتطهرن ويغتسلن وأن يقمن بالوضوء قبل البدء بالصلاة – وهو واجب مقدس على كل مسلم ومسلمة – وبقيامهن بذلك يتبعن بكل دقة القواعد التي وضعها القرآن للنظافة ، والتي تأمرهن بغسل الرأس والذراعين والرقبة والوجه والقدم . رأينا مئات من الأعراب ؛ الذين لم يكونوا بالقرب من ماء كاف ، ليقوموا بوضوئهم قبل غروب الشمس ، فجلسوا على الأرض وتيمموا بالرمال بنفس الحركات التي يقومون بها فيما لو توضأوا بالماء . كنا سعداء هانئين بوجودنا بالقرب من أبواب المدينة ؛ بعد أن أحاط بنا الأعراب محتشدين ؛ فتخلصنا من لجاجتهم وإلحاحهم .

---

(١) من المحتمل جدا أن تكون اللعبة البدوية القديمة (المنقول) .

مضى أكثر من عشرة أيام منذ استطاع سكان المدينة أن ينالوا حرية الإنتقال إلى المنشية حيث كان يذهب السكان يومياً للتزود بالمؤن ولكنهم لم يخزنوا على كل حال المؤن التي كانوا يتوقعون الحصول عليها خشية قطع كافة الأطعمة في مدة قصيرة ، حين يقترب جند سيدي يوسف إلى المدينة .

٢٨ أبريل ١٧٩٣

وصول قنصل فرنسي جديد . عقد محاكمة جماهيرية .

أصبحت المدينة في هرج ومرج عظيمين في غضون الأيام القليلة الماضية ، ليس بسبب وجود ظروف تتميز عن السبب المألوف الذي يدعو إلى الخوف والفزع ، وإنما بسبب قرب وقوع مشهد مأساة محزنة باريسية قام به أولئك « الذين بدون سراويل » . فمنذ بضعة أشهر وقع شغب خطير جداً بين بعض الملاحين الإسبان والفرنسيين هنا . سقط بعض القتلى من الجانبين مقطعي الأوصال ، إرباً إرباً ، وكان القسم الأعظم منهم من أولئك الفرنسيين « الذين بدون سراويل » والذين غادروا غير راضين من قنصلهم الذي كان موالياً للحكومة .

حدث خلال هذا الأسبوع ما أثار الدهشة الكبرى لدى كل واحد ولدى القنصل الفرنسي ، حيث ظهرت بارجة فرنسية في مياه طرابلس وعلى ظهرها قنصل جديد ، أرسلته الجمهورية الفرنسية . ليس من السهولة إدراك الرعب والفزع الذي حل بالأسرة الفرنسية . وكان من المتوقع أن يداهم القنصل ونائبه والمستشار خطر عظيم . لقد أسرع ضابط البارجة الفرنسية ، وربانها ، الذي كان حلاقاً قبل سنوات قليلة ، في النزول إلى الساحل ، وكان معهم القنصل الجديد . بعد أن تم استقبال القنصل في القلعة ، تجمع الفرنسيون في وسط دار القنصلية . وهنا بدأوا يحققون عن سلوك القنصل القديم . كان الملاحون متذمرين منفعلين ، زرعوا شجرة الحرية في وسط الحوش ، وعقدوا محاكمة

صورية للأسرة الفرنسية ، التي كان من المتوقع أن تلاقي حتفها من قبل أولئك الغلاظ الحمق . إلا أنه من حسن الحظ أن سلك القنصل الجمهوري الجديد سلوكاً حسناً بهذه المناسبة . ألقيت خطب طويلة من قبل القنصل الفرنسي وبقية القناصل هنا بنجاح إلى الرعاع المتجمهرين في دار القنصلية الفرنسية ، من أجل استرعاء إنتباههم وتحويل نواياهم ، وبعد مدة قصيرة نادوا بأعلى أصواتهم : « لتعش الأمة ، لتعش الجمهورية ، وليعش المواطنون » . يعني ذلك أن القنصل السابق ، ونائبه ، والمستشار جميعاً بأمن وسلام لا يمسهم ضرر . كان يخشى أن ينفجر في أية لحظة مشهد شغب وفتنة بوجودهم ، حتى غادروا الميناء فأمن كل واحد على سلامته . إلا أن الباشا أمر بحجز سفينتهم مدة أربع وعشرين ساعة حتى يبحر الطراد الإسباني ، حتى تتاح لهم الفرصة لإخلاء الساحل ، وفق ما تقتضيه المعاهدات الدولية التي تم بموجبها الصلح مع الباشا ، والتي تقضي بعدم إلحاق الضرر بسفنها من هذا الميناء خلال فترة معينة من مغادرتها الميناء .

١٠ مايو ١٧٩٣

اشاعة وصول سيدي يوسف · هروب البوني الى صفرف سيدي يوسف · القاء القبض على قائد انسهل ·

وصلت الأنباء السيئة اليوم منذ الصباح الباكر ، في الساعة الرابعة ، تقول بأن سيدي يوسف قد وصل وأصبح على بعد أربعة أميال من المدينة ، ومعه قوة هائلة ، أكبر من أي وقت مضى ، تتألف من الأعراب بصورة رئيسية ، يضاف إليهم بربر السهل والصيد وهما منطقتان تتبعان الباشا . وقد أغلق الحرس المقيم أبواب المدينة حالما جيء بتلك الأنباء . تقدم عدد كبير من سكان المدينة الذين كانوا خارجها وأغلقت في وجوههم الأبواب باحتجاجهم فأمر الباشا الحرس بفتحها حالا . وسمع أن البك قال : إذا كان أبوه يرعى مصالح

سيدي يوسف ، فمن المحتمل أن تبقى أبواب المدينة مفتوحة باستمرار وإن أخاه يستطيع أن يمشي بكل هدوء ، ودون معاناة لقطع طريق القلعة عليه بحفنة من الجند الذين يحتفظ بهم لمجرد الإحتفال بمعارضته .

صعد بربري اسمه (بوني) إلى البك ليحصل على توجيهاته ، قائلا ، بأنه تلقى أمراً من الباشا يطلب إليه الخروج مع فصيل من الجنود الفرسان ليطوفوا حول أسوار المدينة ، حتى يصل الأعراب بأعداد كافية لمقاومة سيدي يوسف ، ويضطر عندئذ للذهاب معهم . وفي اللحظة التي ترك (بوني) القلعة شك البك في نياته ، فأرسل أحد حراسه وراءه ، طالباً إليه العودة حتى يتسلم المزيد من الأوامر . وجد المراسل هذا الضابط في أبواب المدينة محاطاً بعدد قليل من حراسه ، وبينما كان لا يزال يتحدث أطلق (بوني) النار عليه فأرداه قتيلا ، وامتطى حصانه وهرب راكضاً بسرعة إلى سيدي يوسف ، مع الناس القلائل الذين كانوا معه .

خلال الساعات الأولى من هذا الفزع لم يسمح الباشا بدعوة المزيد من الحراس إلى القلعة ، ولم يصدر الكخيا الأوامر بقطع الشوارع والطرق بوضع الحواجز والمتاريس ، كما يفعل دائماً في مثل هذه المناسبات . وأخيراً يبدو بأن البك يتمتع بقيادة كاملة للمدينة منحها له أبوه .

أرسل البك قبل بزوغ فجر اليوم الثاني نسيبه ، رئيس البحرية ، إلى الساحل ، مزوداً بالسفن والأوامر بإطلاق النار على السهل . ولكن لخطأ حدث أطلقت المدافع النيران من سفن رئيس البحرية موجهة ضد جند الباشا بدلا من جند سيدي يوسف ، فاستحوذت عليهم فوضى مخيفة ، إلا أن مثل هذه الحوادث لا تثير الدهشة والعجب هنا كما تثير في أوربا لأن الجيوش العربية تتشابه في المظهر كل التشابه حتى لا يمكن التمييز بعض الأحيان العدو من الحليف إلا في رفع راية خاصة ، أو في وجود فارق بسيط في الأسلحة ، وأسلوب حملها ، ومن السهل تمييز الأعراب من البربر بفرق واضح جداً هو لون البشرة ، وكذلك في التفريق بين أفراد قبيلة عربية وقبيلة أخرى .

شاهدنا كل هذه المناوشات من شرفة منزلنا بحيث يقودنا فضولنا في كثير من الأحيان أن نمضي ساعات قلائل في كل يوم خلال تلك الأوقات المدهشة والغريبة جداً . لا يزال البربر يحتفظون في قتالهم بالشيء الكبير من أساليب القدمـــاء .

كاد أن يقع أسيراً قائد محمد ، أخو زوجة البك ، تحت أسوار المدينة ، في ظهر هذا اليوم ، عندما كانت اللالة حويوه أخته تنظر إليه من أحد أبراج القلعة ، حيث فقد جنده سبعاً من خيولهم ، وحتى الحصان الذي يمتطيه أطلقت عليه النار ومات تحته . ونتيجة لسقوطه المفاجيء ، في تلك اللحظة ، تصورت للالة حويوه بأنه قد قضى نحبه ، فركضت الخادمات لإنقاذها ونجدتها ، حينما أغمي عليها ، خشية أن تسقط من فتحات جدار القلعة إلا أن البك وبّخهن توبيخاً شديداً لأنهن صحبنها إلى بقعة مفتوحة وخطيرة .

جاء إلينا أحد حراس القائد محمد صباح هذا اليوم من سيده ، وكان حصان هذا الحارس جريحاً ، وأعلمنا بأنهم بأشد الحاجة إلى الخيل في القلعة ، بحيث أن ذلك الحارس قد أمر بالذهاب بعد الظهر على نفس ذلك الحيوان البائس .

رأى القنصل الإنجليزي ، الذي كان مع البك في الصباح ، أسيراً يرتدي زياً فخماً مسحوباً في المدينة من السهل من شعر رأسه . لقد قام البربر بهذا العمل القاسي الفظ ولهم العذر في ذلك ، لأن الرجل هرب من جنود الباشا بفصيل كبير تحت إمرته قبل أيام قليلة . فصدرت الأوامر بتنفيذ عقوبة الإعدام شنقاً لخيانته في جبهة السهل إذ ألقي عليه القبض حياً .

لم يصل الأعراب الذين قدموا لنجدة الباشا ونصرته ، بينما يتكاثر جنود سيدي يوسف كثيراً ، حتى بدا بأن كل ما لديهم من جنود يستطيعون جمعهم في المدينة غير كاف لكسب النصر وفي رد المعتدين . أمر البك بغلق أبواب المدينة غلقاً محكماً في الساعة الرابعة بعد الظهر ، وقد تم استخدام القوة التي تم جمعها للدفاع عن المدينة حتى وصل المزيد من الأعراب . ومن المتوقع أن

تصل قبائل النوائل الليلة . تقدمت هذه القبائل من الجهة الغربية الواقعة بين مدينة طرابلس وتونس .

ولما لم يجد جنود سيدي يوسف الفرصة المؤاتية للتشابك في معركة وأن البك قد فوت عليهم تلك الفرصة رجعوا إلى النهب والسلب لكل الأكواخ والحدائق الواقعة بالقرب من السهل . وبهذه المناسبة فإن الجماعات المدهشة الغريبة التي تجمعت للسير نحو المدينة كانت تهددها بالخطر والقلق . البعض منها تؤلف من عائلات كبيرة رجالاً ونساءً وأطفالاً مجردين تماماً من كل شيء يمتلكونه . قدموا يعصرون أيديهم ويمزقون شعورهم ، ولكنهم منعوا من الصراخ والعويل عندما دخلوا المدينة ، وهددوا بعقوبة الطرد من المدينة ، لأن العدو قد لا يكتفي بما حصل عليه من غنائم . وكانت تمشي وراء أسرة جبلية قدمت من الجبال أسرتان محجبتان حجاباً كاملاً في الجرود ، يحيط بهما عدد قليل من النساء . فأثارتا كثيراً من الفضول لأن حجابهن كان تاماً ، مما يشير إلى أنهن ينتمين إلى عائلات أرفع مكانة من العائلات الأخرى اللواتي يصحبانهما فهن سيدات لتاجر طرابلسي غني ، الذي لم يتوقع مجيء سيدي يوسف ، فظل في حديقته ، وهربت السيدات مخاطرات بحياتهن ليلا مع البربريات اللواتي يرافقنهن . ومن أجل أن أقدم لك صورة أخرى عن هولاء النساء البائسات ، أروي لك قصة أسرة بعد أن نهبت أموالها وسلبت ممتلكاتها هربت حفاظاً على أرواح أفرادها ، ومرت من تحت نوافذ منزلنا ، كان من بين أفرادها رجل يسوق جملين محملين بالذرة والشعير والزيت والبيض والخضروات وأنواع المؤن الأخرى وبعض الملابس والأخشاب . كانت زوجته بدوية جميلة تمشي وراءه ، تسحب ثلاث بقرات ، ويسير خلفها أربعة أطفال صغار ، أكبرهم سناً بنت صغيرة لا يتجاوز عمرها سبع سنوات تقود أربعة رؤوس من الغنم بحبل واحد ، واثنان آخران يحملان رزماً على رأسيهما ، يتناسب حجمها مع سيقانهما الصغيرة ، وثلاثة رجال من البدو مسلحون بالبنادق ومدججون بالسكاكين ، يقودون كلبين كبيرين بسلسلة

يحمون المؤخرة .

إستمرت مثل هذه الفئات ، بعضها صغيرة والبعض الآخر كبيرة ، بالمرور في المدينة طوال بعد الظهر . وكان ينظر إلى عددهم المتزايد بكآبة وحزن عظيم من قبل الناس هنا بسبب ندرة المواد الغذائية وقلتها في طرابلس ، وكان ما استطاع أن يخلصه هؤلاء الناس من نهب جنود سيدي يوسف وسلبهم لا يكفي لإعالة أعدادهم الكبيرة .

تولت الجميع موجة من الألم الممض حين علموا بخبر دخول سيدي يوسف المدينة الليلة ،حتى أن رئيس البحرية إرتعد خوفاً من أن يقع ضحية بعد أن يتحقق النصر له ،وبدأ يعد نفسه لمغادرة طرابلس في كل لحظة، فقد أعد سفينة راسية بالقرب من غرفته في الدائرة البحرية لنقله إما إلى تونس أو إلى مالطة ، محملاً بكل ما يتسع له ظهر السفينة لسفره المفاجىء .

وأشيع بأن قائمة أسماء الأشخاص الذين ينفذ بهم حكم الإعدام إذا ما حقق سيدي يوسف النصر بالدخول إلى المدينة هم : أخوه البك ، الكخيا ، زوج أخته ، حامل السيف قائد محمد (نسيب آخر) والكاتب ورئيس البحرية (نسيبه الثالث) .

إن هذه المدينة بأمس الحاجة إلى الذرة ، بحيث اتفق بعض القناصل لإرسال سفينة شحن إلى تونس لجلب كميات منها والعودة إلى طرابلس . تبحر سفينة أخرى إلى (ليغورن) اليوم ، وعليها سأبعث لك هذه الرسالة .

٣٠ يونيو ١٧٩٣

الخصومات بين الباشا وسيدي يوسف تزداد سوءا .
احداث غريبة تقع في القتال .

منذ أن أنهيت رسالتي الأخيرة ووضعتها في غلافها ، أخذت حالة هذه المدينة تسوء أكثر فأكثر . كان من المنتظر أن يشق سيدي يوسف طريقه إلى

المدينة في كل ساعة ، كان القناصل في خلال تلك المدة يعدون ويهيئون باستمرار الأسباب لتسفير عائلاتهم إلى مالطة دون أن يكونوا قادرين أنفسهم على السفر معها ، لأنهم لا يستطيعون ترك مراكز وظائفهم . بإمكانك أن تقدر الأهوال والمخاوف التي تتمخض بها هذه الوضعية ، فلا توجد سفينة في الميناء تليق بسفرنا . فبإمكاننا أن ننتظر قليلاً حتى تصل سفينة أخرى تفوق ذلك القارب المجهز تجهيزاً سيئاً وبائساً ، وليس فيه من الملاحين ما يكفي لتسفيرنا .

بالرغم من كل ما بعث الباشا من الرسائل والتساكر والفرمانات متوعداً ومتهدداً ومرغباً بالمكافآت ، لم يحضر الأعراب لنجدته طوال أيام عديـــدة . فأرسل الباشا السفن لجلب البربر من بنغازي ؛ إلا أن سيدي يوسف أمر رجاله في الوقت المناسب بالذهاب إلى تاجوراء ليشتتوا السفن بما لديهم من أسلحة .

وجد سيدي يوسف في اليوم السابع والعشرين الباشا لا يزال غير قادر على إرسال قوة من المدينة للنزال ضده . حاول سيدي يوسف أن يمرر جنوده عن طريق مقبرة اليهود (المجاورة للمدينة) إلى أضعف قسم من الأسوار ، فكلف صدهم والحيلولة دون نجاحهم في التوغل إلى المدينة كل الجهود الممكنة لأن الأسوار لم يكن عليها مدفع واحد بالإضافة إلى سوء حالتها ؛ ولكن هذا الجزء من الأسوار قد عززت حراسته وأحكم تحصينه فأصبح آمنا .

أرسلت في ذلك اليوم كل القوة التي تم جمعها للوقوف ضد يوسف . اضطرته تلك القوة في البدء على التراجع إلى الوراء ، إلا أنها في الأخير تكبدت خسائر جسيمة جداً حـــتى أنها لم تنجح في التراجع السليم إلى المدينة ، فاضطرت إلى الإنتظار بسبب غلق أبواب المدينة خطأ ضدهم في لحظة تراجعهم .

كان البك عرضة لموجة من الإلحاح الشديد من رجاله الذين ألحوا عليه بوجوب حصولهم على الأموال ، فكان مؤلماً لمشاعر القناصل ، الذين كانوا معه في القلعة يراقبون المعركة بكثير من الخيبة والألم . وحين أصر عليه البربر بضرورة طلب البارود والرصاص ، أخبرهم بغضب شديد أن يجمعوا الأحجار ويقاتلوهم إذا لم يستطيعوا أن يجدوا شيئاً آخر .

إقترب سيدي يوسف جداً من المدينة في هذه اللحظة . وغادر النصارى القلعة وانسحب البك من متاريس القلعة . فأطلق أحد رجال البك النار عليه : فألقي القبض على الرجل وجيء به إلى المدينة . قيل إنه ثمل فقد وعيه وسرعان ما أعلن الشواويش أمراً في المدينة يقضي بضرب كل يهودي يحاول بيع قطرة من البراندي وجلده خمسمائة جلدة (١) .

أمر البك نتيجة لارتفاع درجات الحرارة التي لا تطاق ، والتي سببتها الرياح السوافي اهابة من الصحراء بالكف عن القتال ، خوفاً من فقدان رجاله وخيوله خلال فترة الظهيرة . في تلك اللحظة أخذ رجال يوسف بالنعيق والصفير ، ينشدون أغنية النصر حول أسوار المدينة ، وأقاموا احتفالاتهم الساخرة التهديدية ، التي تتألف من شوي الكلاب وأكلها .

كان العدو متحمساً لسحب جثة رجل قتل بطلق ناري أطلق عليه من القلعة . أثار البك حماسهم فقرر أن يرسل قوة قوامها خمسون رجلا لاسترداد الجثة ، إذ ظنوا بأنها جثة أحد قواد سيدي يوسف ، إلا أن رجال سيدي يوسف نجحوا في حملها إلى الخارج .

وقعت خلال فترة القتال أحداث غريبة وعجيبة تعبر عن أساليب العمل والتفكير البربرية في الحرب . جاءت جماعة من الأعراب بفرس لطيفة وعليها صاحبها مقتولا إلى سيدي يوسف فسألهم: «لماذا قتلوا إنساناً لم يقاتلهم فخالفوا بذلك الأمر الذي سبق وأن أصدره لهم فقضوا على حياة شخص لم يكن مسلحاً ولم يدخل في قتال ضدهم؟» فأجابوا بأنهم قتلوه من أجل أخذ فرسه ، لأن الجند كان بأشد الحاجة إلى الخيل ، فأمر سيدي يوسف بجلب الحيوان إلى الأمام ، فأطلق عليه النار وأرداه قتيلاً ، وطلب إليهم الإلتزام بأوامره في المستقبل . حادثة أخرى مدهشة تثير العجب تتصل بطرابلسي أحد رجال

---

(١) يقتصر بيع المشروبات الكحولية على عدد محدود من اليهود والنصارى ، لانه يخالف العقيدة الاسلامية ان يبيع البربر المسلمون المشروبات الكحولية .

الباشا : التقى عند خروجه مـــن المدينة بصديق قديم كان يقاتل إلى صفوف سيدي يوسف ، فبدأ الأخير يقنعه ويرغبه بالإنضمام إلى جماعة سيدي يوسف إلا أن الطرابلسي أعلمه بوجوب انتهاز الفرصة لإنقاذ نفسه في نفس اللحظة التي كانا خلالها يتحدثان بصداقة وود ؛ لأنه يرى من واجبه الآن أن يزهق روحه ، إذا كان ذلك ممكناً ، وحيثما يلتقي به بعدئذ ، في تلك الأثناء غادر الأعراب المدينة فجأة .

والحادثة الثالثة لا تقل غرابة ودهشة من الحادثتين السابقتين تتعلق بالبك ، فبعد أن أصدر أوامره لجنوده بالخروج والقتال ضد أخيه ، ظاناً بأن رجـــال يوسف مشغولون في حمل قتلاهم ، منعهم من الخروج قائلاً بأنه لا يريد أن يقلق العدو حتّى ينتهي من عمله الخاضر .

رأينا الأعراب يغربلون الرمال في السهل بحثاً عن الرصاص لأنهم كانوا بحاجة إلى الذخيرة الحربية ، الذي سبق وأن استعمل وهم يقدمون أعظم الأسعار في الوقت الحاضر للحصول على حجر الصوان لبنادقهم .

كانت جماعات الأعراب التي قدمت لنجدة الباشا قاسية شديدة المراس ؛ فأساءت التصرف في المدينة الأمر الذي اضطر الباشا إلى إصدار أوامره بضرورة حراسة الشوارع والطرقات من قبل البربر المسلحين لحملهم على طاعـــة النظام والمحافظة عليه .

فشل الباشاوالبك في انتظار وصول الشيخ خليفة الذي وعد بتجهيز ألف من الأعراب المحاربين الذين وعد بهم ؛ وبدلا منهم قدم مائة اعرابي محارب بعد أن ضعف الباشا والبك وأصبحا غير قادرين على القيام بأية مقاومة للهجمات التي كان يشنها سيدي يوسف في اليوم الثامن والعشرين. وقد سمعناه يعلن بأنه أمر رجاله بأن لا يطلقوا النار على جنود سيدي يوسف لأنه عرف نيته بالانسحاب إلى بنغازي فقط . تلك المدينة التي يجب على الباشا أن يجعله بيكاً لها ويتركـــه بسلام واطمئنان .

بعد وصول الشيخ خليفة بقليل وصل شيخ النوائل مع كل الأعراب الذين

استطاع جمعهم ، وأخيراً تم الحصول على النجدة التي وعد بها الشيخ خليفة بالاقناع وبالوعود التي قطعها الباشا له . فبعث أخيراً رسولا إلى جماعته الذين توقفوا في مكان ليس بعيداً عن طرابلس ، ووافقوا على الانضمام إلى صف شيخ النوائل للقتال ضد سيدي يوسف . وما كاد الأمر ينتهي حتى نشبت خلافات بين رئيس قبيلة النوائل وبين أفراد قبيلة شيخ خليفة . لقد سبق لهذه القبائـــل وأقسمت اليمين على العداوة والبغضاء وأخذ الثأر والانتقام فيما بينها منذ سنوات عديدة . ولهذا أعلنوا بأنهم لا يخرجون للقتال سوية ولا يقفون في جبهة واحدة سوية ، وانما بالتناوب، القبيلة بعد الاخرى . إلا أنهم أقنعوا على الذهاب إلى المساجد،وحلف اليمين بالنبي على أنهم لا يقاتلون بعضهم بعضاً في ساحة القتال. وبعد أداء اليمـــين خرج الجميع لجبهة القتال سوية ، ولكن ضاع يوم كامل في تنقية الجو وتصفيته من الخصومات القديمة .

أعلن في تلك اللحظة تقديم جائزة بأمر من الباشا ، إلى الأعراب قبيـــل مغادرتهم المدينة ، مقدارها الفا سكوين لكل واحد منهم يستطيع أن يأتي برأس سيدي يوسف . بينما رأينا اليوم رجال سيدي يوسف يجمعون الرمـــال على السهل ويرمونه بحفنات أيديهم نحو المدينة ، إظهاراً لاستخفافهم وازدرائهم برجال البك ، وإثارة غضبهم حتى يضطروا للخروج من القلعة ومنازلتهم .

حين اطلقت المدافع نيرانها اليوم فر الأعراب هاربين ، ولكن بعد أن وقعت القنابل عاد البعض منهم وحاول اطلاق الرصاص على أجزائها المطروحة على الأرض يهللون ويصفرون هزءاً وسخرية على المدينة لأنها أخطأت الاهداف. حدث البارحة عندما أخذت خيول الباشا لورود الماء في الآبار ، إمتطى أعرابي من رجال الباشا أحسن حصان من بين كل الخيول وركض مسرعاً إلى صفوف رجال سيدي يوسف . كان البك في ذلك الاثناء مكتئباً حزيناً جداً بسبب قلة الخيول ، فأرسل إلى أحد القناصل يطلب منه حصاناً بدلا من الحصان الـــذي سلبه الاعرابي .

لم تفتح اليوم أبواب المدينة ، ولم يسترد بعد شيخ النوائل صحته من جرح

عميق أصيب به أمس ، ولا يثق الباشا أبدا بشيخ خليفة أن يرئس العرب وحده ، خوفاً من هربه معه إلى جانب سيدي يوسف ، ومن الجهة الاخرى فان جنود سيدي يوسف مشغولون بالابتهاج والطرب حول الاسوار يشجعون الناس على القتال .

يسافر أحد المراسلين إلى تونس حالاً ، مبعوثاً من قبل الباشا ، بسبب ما تشكو منه البلاد من ضائقة عظيمة في المواد الغذائية ، وسيأخذ معه عدداً من الرسائل من النصارى من بينها هذه الرسالة ، لكن أملي ضعيف جدا بأن أبعث لك أنباء مسرة في رسالتي القادمة .

١٠ يوليو ١٧٩٣

وصول سليمان آغا بن رمضان لنجدة الباشا .

كان الباشا هذا الاسبوع بانتظار سليمان آغا ، ابن رمضان آغا ، شخص معروف في طرابلس بصلاته الوثيقة المتينة بالباشا وبالخدمات التي قدمها إلى الأسرة المالكة . أظهر ولاءه ومودته الصادقة جدا لكل أمير من الامراء ، عندما يخرج مع جنوده لجمع الاقوات ، ولهذا يقولون عندما بعث الباشا إلى سليمان يطلب منه النجدة ضد سيدي يوسف بكى وانتحب . وظل أياماً عديدة صامتاً لم يجيب على رسائل الباشا المتكررة ، أخيراً كتب الباشا والبك وكبار الضباط رسالة طويلة يلتمسون منه « أن يأخذ الأمر بكل جدية ومن كل قلبه ، وأن يقدم مع كل ما يستطيع جمعه من القوات ». بعد أن أتم قراءة هذه الرسالة أمر سليمان رجاله بالتهيؤ لسفره إلى طرابلس ، وعندما جيء بحصانه المفضل لركوبه ، احتضنه من رقبته ، وبعد صمت دام بضع دقائق ، ربط نفسه تحت القلائد الذهبية المعلقة حول رقبة الحصان ، تعبيراً عن الألم والحزن ، بقماش أسود اللون مغطى برماد مبلل ، ليظهر أسفه الشديد لمشاركته في هذه الخصومة .

عقد اتفاقية مقدسة مع شيخ سيف النصر لحماية القرى الواقعة إلى الشرق

طول فترة غيابه ، ثم انطلق إلى طرابلس . كان من المنتظر قدومه أمس بين ساعة وأخرى ، ولسبب مبيته على الجهة الثانية من تاجوراء ليلة أمس ، وصل اليوم قارب من الشرق كان قد أرسل في منتصف الليل من قبل سليمان آغا من الساحل يحمل رسالة منه يقول فيها بأن القبائل الترهونية الكثيرة العدد قد اعترضته في نهر قريب من ترهونة ، ولا يستطيع الآن أن يتقدم حتى ينضم اليه سيف النصر ، ولا ينتظر قدومه الا بعد بضعة أيام .

ألقت هذه الانباء المدينة في موجة من الذعر والقلق العظيمين ، لأن وصول قوات سليمان آغا كانت آخر أمل في النجدة . في صميم هذه الحاجة القصوى إلى النجدة أرسلت قوات إضافية من العرب إلى الباشا ، وهي تتقدم بسرعة ، لتثير الرعب والخوف الشديدين ليس بين النصارى فحسب وانما بين الطرابلسيين لأن الأعراب الغربيين كلهم قطاع طرق . أما الأعراب من الجهة الشرقية فأنهم أكثر اعتدالا وهدوءاً ، ولو أنهم ليسوا جنوداً محاربين .

وقع حادث حسن الطالع البارحة بالنسبة للباشا اذ وصل صهره من بنغازي ، حاملا معه ليس كمية كبيرة من المال ، وانما جلب تموينا عظيماً من القمح والشعير ، كافية لإطعام كل الجنود المحاربين الذين تحت السلاح في الوقت الحاضر ، الموجودين في القلعة . وقد تم تخصيص مائة كيلة من الشعير للخيل . لا يزال القمح نادر الوجود في المدينة تباع الكيلة منه بألفين وأربعمائة قرش بدلا من ثمانمائة قرش سعره المعتاد. اضطررنا لأكل الخبز الأسود بعشرة أضعاف قيمته ، وشراء كل البسكوت الذي أمكن الحصول عليه بأي سعر من السفن الراسية في الميناء .

فقدنا أمس رجلا ، وجرح اليوم آخر ، خاطر بالذهاب إلى خارج المدينة ليشتري لنا الخضروات والبيض ، والدجاج ، تلك المواد الكمالية التي لم نحصل عليها لمدة من الزمن . ألقى العدو القبض اليوم على ستة رجال على أبواب المدينة : كانوا محملين بالحطب إلى المدينة ، ونحن بأشد الحاجة اليه . شد رجال سيدي يوسف وثاقهم وربطوهم ، ثم أشعلوا النار في الحطب ،

واستعدوا لحرقهم أحياء ، لولا أن أحد قواد سيدي يوسف المدعو سيدي المير جاء مسرعاً على حصانه لينقذ حياتهم ، محذراً الأعراب بأن يتذكروا ما قاله سيدي يوسف بأن حياة كل شخص مقدسة ، وأنه سيعاقب بالموت أي شخص يقتل شخصاً آخر ، الا في ساحة القتال .

التمس ستون أعرابياً جريحاً الباشا ليأذن لهم بالانضمام إلى عائلاتهم ؛ لأنهم لم يعودوا قادرين (من الحالة التي هم فيها) على احتمال الاستمرار في القتال . وضعوا اليوم في قارب مع كل ما يحتاجون اليه من مؤن وأرسلوا إلى الشرق .

وصل المدينة أمس ستة من المرابطين باحتفال طقوسي عظيم ، ليدعوا حماية الصيد ، منطقة المرابط التي أعتبرها الباشا دائماً مقدسة ومحمية ، ولكن الكخيا أخبرهم ، بأن الباشا سوف لا يحميهم بعد الان ؛ لأنهم برهنوا على أنهم خونة له ؛ وطلب اليهم الكخيا مغادرة المدينة في الحال .

١٤ يوليو ١٧٩٣

اخلاق بعض الاعراب · فقدان البك احد حراسه · سلوك الاعراب · زنوبيا الجميلة ·

اليوم الجمعة، ومع أنه يوم عطلة ؛ فإن الناس لأول مرة لم يصلوا صلاة الجمعة في المسجد بسبب انشغالهم في حراسة المدينة . وصل الأعراب من العرب وسيخرجون للقتال غداً بأمرة أحد ضباط الباشا ضد سيدي يوسف . لم يمض على مكوث هؤلاء الاعراب في المدينة غير أيام قليلة إلا أن بقاءهم أصبح لا يطاق . فهم لا يتحلون بروح الضبط والنظام إلا قليلا ومن الصعب الحيلولة دون مضايقتهم للباشا شخصياً وإزعاجه ، عندما يسمح لهم بالحضور إلى زيارته ؛ فقد ألقى أعرابي أحد حراس البك على الارض لأنه حاول منعه من الاقتراب إلى الامير . فأصدر الأمير أمره ، بالرغم من الهياج السريع الذي أبداه الاعرابي

لأن يجلب إلى الامام ، وبعد أن استمع إلى شكواه رد له ظلامته وأنصفه ، احتشد اليوم عدد منهم حول رئيس البحرية : فحاول أحدهم أن يأخذ مسدساً من حزامه ، فأسرع إلى منعه ، وسأل الاعرابي إذا كان يريد أن يسرق مسدسه فتقدم أعرابي آخر فأجاب : « كلا انه رغب في النظر اليه فقط »،ولكن لو هرب الرجل راكضاً بمسدس رئيس البحرية فيجب أن يدعه وسبيله لأن الحكومة تخشى كثيراً من هؤلاء اللصوص إلى درجة أنها لا تجرؤ أن تعاقب واحداً منهم .

لا بد وأن تقدم لك هذه الاحداث والوقائع صورة حية عن الحالة التي نحن فيها ، واذا تدفق المزيد من هؤلاء الأعراب من الغرب على المدينة فعلينا أن نتوقع شراً مستطيراً .

يشاع في طرابلس بأن سيدي يوسف بأمس الحاجة الى الذخيرة الحربية ، فقد تبين من جثث القتلى التي طرحت بالقرب من باب السور بأنهم قتلوا بقطع من الحديد وليس من الرصاص الذي يستعمل في البنادق .

قدم سيدي يوسف قائده ، سيدي المير : صباح هذا اليوم ،على سرج فخم ، كان ظهره مطرزاً ومرصعاً بالذهب ، وركاب حصانه من الذهب البراق ، وكسوة ذهبية الخ ... يحمل زوجاً من المسدسات المرصعة بالجواهر، ومقبض سيف ذهبياً مرصعاً بالالماس والزمرد .

سبق وأن كتبت لك عن زنوبيا الجميلة اللطيفة ، زوجة سيدي البوني ومحبوبة البك الراحل،وحدثتك عن خلقها المرح ، تقيم الآن في حديقة زوجها خارج المدينة . وسيدي البوني هذا هو أحد قواد سيدي يوسف ، ولهذا فانه يقاتل ضد الباشا . كانت زنوبيا تبعث باستمرار رسائل مكتوبة سرية إلى القلعة تحملها كل أنبائه ، وقد أبلغت صباح هذا اليوم القائد محمد ، ليرسل ثلاثين رجلا إلى الحديقة حيث يقيم زوجها لاغتياله . أي دور هذا تقوم به زوجة !! ولكن مثل هذه الجرائم تلائم وتطابق ما يعرضه خلقها من فساد ودعارة . وعد سيدي يوسف البوني بأنه سينصبه رئيساً للميناء إذا دخل المدينة منتصراً .

قدم اليهود إلى البربر مبلغاً كبيراً من المال منذ بضعة أيام مقابل مرافقتهم لليهود إلى المقبرة لدفن جثة أحد الموتى ، ولكن بالرغم من المبلغ الذي قدموه ، فلم يخاطر البربر بمرافقتهم . عندئذ حاول اليهود أن يحملوا الجثة بأنفسهم إلى المقبرة عن طريق ساحل البحر آملين أن يتحاشوا رجال سيدي يوسف بهذا التدبير الحذر ، الا أن اليهود البؤساء قابلوا جماعة من الأعراب فتولاهم الذعر والخوف فتركوا الجثة وهربوا مسرعين وظلت ملقاة في العراء مكشوفة بدون دفن .

فقد البك حارساً كان يعزه ويحبه كثيراً وفق الطريقة التالية : شاهدنا من شرفة منزلنا هذا الضابط يتعقب جماعة من الأعراب تتألف من أربعة عشر شخصاً ، الذين ظن بأنهم هربوا من رجال الباشا ، فذهب تحت هذا الانطباع اليهم يدعوهم ويشجعهم للعودة إلى القيام بواجبهم ؛ عندها ، رأينا فجأة ، أن الأعراب أحاطوا به وحملوه بالقوة والإكراه . بعدئذ علمنا بأنهم من أعراب سيدي يوسف .

٢٠ يوليو ١٧٩٣

محاولة العدو تلويث بئر ماء .

نادى اليوم جماعة من رجال سيدي يوسف : في ساعة متأخرة من المساء ، بصوت عال تحت الأسوار أسماء ثلاثة من شيوخ المنشية الذين هربوا مؤخراً من المنشية ، يخبرونهم برسالة شفوية من سيدي يوسف ، فان عادوا إلى حدائقهم ومعهم رجال المنشية : الذين أغروهم فتبعوهم فلا يمسهم بسوء ، وإن لم يعودوا فإن لدى سيدي يوسف جيوشاً جديدة لم تدخل المعركة بعد قادمة من ترهونة وغريان ؛ وأنه سيدخل مع الأعراب إلى المدينة حالا ، وأنه سينفذ فيهم حكم الإعدام جميعاً .

تلطف البك فأجاب عن تلك التهديدات من شرفات القلعة قائلا لهم يجب

أن يجلبوا إلى المدينة غداً ليلاقوا ما ارتكبت أيديهم من سفاهة ووقاحة .

الدخان المتصاعد من عدد من النيران الموقدة حول أسوار المدينة ، والأغاني الصاخبة المدوية ، وضربات الطبول كلها تشير إلى أن العدو يحتفل بوليمة بربرية من الكلاب المحمرة التي تعتبر بين الأعراب أحد أعظم البراهين على التهديدات الفارغة التي يستطيع أن يقوم بها العدو .

بدأ ذلك الضجيج الصاخب أعلانا عن تلك الولائم منذ عدة ساعات ولا يزال مستمراً . قاد البربر مساء هذا اليوم خيول القلعة وخيول الاعراب إلى ورود ماء بئر خارج أبواب المدينة ولم يمس حيوان واحد الماء . ففحص البربر البئر فوجدوا بأن رجال سيدي يوسف قد دبروا مكيدة برمي جثة حصان ميت لتلويث الماء . وسرعان ما القى القبض على اليهود (الذين يضطرهم البربر بالاكراه على القيام بمثل تلك الاعمال الصعبة غير اللائقة) وعهدوا اليهم مهمة رفع جثة الحيوان من البئر .

٢٤ يوليو ١٧٩٣

جماعة سيدي يوسف تاخذ احد القتلى عنوة ·محاولة القنصل الانجليزي انقاذ حياة شاب غريق ·

لا يزال سيدي يوسف مسيطراً على الموقع الذي يحتله ولم يتراجع خطوة واحدة ، تأتي باستمرار جماعات من رجاله بالقرب من آبار المدينة ، ولكن القسم الرئيسي من جيوشه يبقى على الجهة الثانية من السهل . قتل اليوم أحد رؤساء ضباط سيدي يوسف من قبل جنود الباشا ، فاستطاع الاعراب التابعون لسيدي يوسف أن يشقوا طريقهم ويأخذوا الجثة عنوة على ظهر جواد من عشرين رجلا من جيش الباشا المشاة ، فحملوها منتصرين : قائلين : يجب أن يحمل أي رأس من رجالهم إلى المدينة اليوم .

لقد جيء اليوم بواحد من أكثر الأعراب شجاعة ومن أتباع الباشا ،

يسمى (علي بنامور) – تونسي – إلى المدينة من قبل أصدقائه ملفوفاً بجرد ، مثقلاً بالجراح ، تصحبه زوجته وأسرته . كانوا يصرخون ويبكون بصوت عال ، إلا أن ضباط الباشا تقدموا إليهم وطلبوا إليهم الكف عن الصراخ والعويل ، لأن أوامر صدرت من القلعة تمنع الصراخ منعاً باتاً على أولئك الذين يلقون حتفهم في القتال ، حتى لا يزداد العدو ابتهاجاً وسروراً .

جمع البربر التابعون لسيدي يوسف الخيول المقتولة ووضعوها الواحد فوق الآخر واحتموا خلفها وبدأوا بإطلاق النيران من ورائها . وجاءوا أيضاً بكل الصناديق التي استطاعوا الحصول عليها من أكواخ البربر ، وملأوها بالرمل ، وأقاموا منها متاريس للدفاع .

أقلقنا أمس صراخ وعويل أسرة بربرية كانت تصحب جثمان شاب لطيف يبلغ من العمر حوالي ستة عشر ربيعاً ، يبدو أنه قد فارق الحياة . جيء بجثمانه من ساحل البحر منذ برهة من الزمان حيث كان يسبح ، ولم يستطع ، لسبب مفاجيء ، أن يخلص نفسه من الأمواج . اعتبره أصدقاؤه في عداد الأموات ، وكانت أمه تمشي خلفه تمزق ثيابها . عندئذ فكر القنصل الإنجليزي بتقاليد البلاد ، التي تقتضي بدفن هذا الشاب بسرعة فاصطحب معه مترجمين وقصد منزل أسرة ذلك الشاب المنكوبة البائسة ، والتي سبق وأن قامت بكل التدابير لدفنه ، وفي غضون ساعات قلائل سيوارى في التراب بالرغم من وجود كل الأسباب للإفتراض بأنه قد يسترد صحته باتباع الطرق الصحيحة لإنقاذه . ولكن الخرافات والجهل المسيطر على أذهان البربر لم تفشل في حملهم على وضع عدد من العراقيل عندما كانت تبذل الجهود لاستعادة حياة ذلك الشاب ، وأعلنوا صراحة بعدم جدوى كل تلك التدابير ، بالرغم من الهلع والدهشة اللذين يظهرانهما في علامات الحياة المؤقتة التي تبدو عليه من وقت إلى آخر ، إلا أن الأسرة لم تفقد الأمل أبداً من الجهود التي يبذلها القنصل التي تحاول إعادة الحياة إلى ولدها ، فعملت كل ما في وسعها لطرد البربر الذين احتشدوا في المنزل ، كان الكثير منهم ساخطاً ومتذمراً من التجارب التي لا

ضرورة لها (كما يصفونها) والتي يمارسها مسيحي على واحد من أبناء بلادهم .

ومع أن القنصل قد اتخذ كل حيطة ، فأمر الخدم بحمل كمية كافية من الكافور والخل لمنع التأثيرات المضرة الخطيرة لحجرة مكتظة بالناس جداً في بلد يندر أن يخلو من الطاعون ، إلا أنه كان مضطراً عدة مرات ، لأن يترك الحجرة ، معتقداً إعتقاداً جازماً بأن خوف البربر وغيرتهم ، قد يجهلان ، في غيابه ، ما قام به من عمل بلا جدوى ولا فائدة لأنهم لا ينتظرون نتيجة الإجراءات الطبية التي قام بها .

كاد القنصل أن ينفد صبره ، فغادر المنزل عائداً لفترة قصيرة من الزمن ، ليسترد صحته من تأثير الجو الخانق في المنزل (الذي أصبح خانقاً جداً بسبب إزدحام البربر المحتشدين فيه) . خشي البربر من أن يترك القنصل فكرة استرداد حياة ذلك الشاب فرجوه بكل حماس وشوق للعودة ، وأقسموا اليمين واعدين بأنهم مستعدون كل الإستعداد لتنفيذ ما يأمر به ، ولإخلاء المنزل من كل شخص ما عدا أفراد الأسرة .

في المرة الثانية ، ترك الشاب لوحده ، ووضع مساعد إنجليزي وحارسان . وقبل أن ينبلج نور الصباح استرد حياته كاملة ، فعبروا بكل صدق عن شكرهم وامتنانهم وعن الدهشة العظيمة التي استولت على البربر فما بدا لهم كان أمراً عظيماً جداً ، ولا يقل غرابة ودهشة عن سرورهم وفرحهم شاكرين للقنصل فضله ومعترفين له بالجميل . اليوم وفي الوقت الحاضر ، كان من المتوقع أن يشن سيدي يوسف هجومه على المدينة . وكنا في دهشة وعجب عند مشاهدة فرسانه بأعداد كبيرة ، يغيرون على الحدائق الغناء في المنشية ولعل السبب في هذه المناورة الإستثنائية أن يعثروا على الأرض المنبسطة ، وأن يكشفوا عن كميات الشعير المخبأة ، التي دفنها السكان قبل بضعة أيام عندما هربوا من منازلهم .

لقد اكتشف سيدي يوسف كميات هائلة من القمح بالطريقة الآنفة الذكر . والسبب في ذلك أن كميات كبيرة من الشعير قد بذرت في كل الحدائق القريبة

من المدينة نتيجة لصعوبة امتداد الأرض الجرداء إلى كل الأبعاد في العاصمة ، إذ لم يكن بالإمكان حماية الإنتاج من عبث أيدي الأعراب . ولهذا السبب بالذات لا يسمح للنصارى بالزراعة .

لقد سبق وأن ذكرت لك كيف يزرع الشعير بكل نجاح في هذه البلاد ، وأنه يغل خمسة أضعاف ما يغله في أوربا ، ولكن بسبب الغزوات التي تشنها قبائل البدو والأعراب فإن مزرعة أوربية في هذه البلاد تتطلب جيشاً قائماً ليجمع المحصول المزروع .

يشاع بأن سيدي يوسف قد تلقى مساعدات مالية من بلاط تونس . ومما لا شك فيه أنه أحسن تموينا بالموارد من الباشا والبك معاً . ولا بد من مضي وقت قصير حتى تنتهي هذه الإنقسامات والخصومات القاسية الشديدة لأن المدينة لا تطيق بعد الإستمرار في العوز والحاجة إلى المؤن .

٢٨ يوليو ١٧٩٣

اصابة القنصلية السويدية ·

نتسلم كل يوم رسائل من اللالة حلومة والأميرة. تبعثان بها مع أبنائهما وخادماتهما السريات تعبر عن إخلاصهما وشوقهما الشديد للقائنا ، إلا أن سماجة الأعراب وعتوهم يزدادان كل يوم ، والقلعة مكتظة بهم في كل الأوقات ، حتى أصبح من المستحيل على الإنسان أن يخاطر بالذهاب إلى هناك .

يدعي الأعراب الغربيون بأن الباشا كما يبدو لا يقلُ خوفاً من خروجه شخصياً وذهابه وعودته مع سيدي يوسف ، عن خوف وخشية سيدي يوسف للدخول إلى المدينة قبل أن يصل الأعراب إليها .

لقد نجح سيدي يوسف بنصب مدفعه بالقرب من قلعة الباشا والميناء ، ولو كان أحد رجاله باسلاً وذكياً مثله ، كان لا بد وأن يدخل المدينة منذ وقت طويل ، إلا أن مهندسيه لم يكونوا ماهرين لأن نيران مدافعهم تصيب

كل موضوع ما عدا الهدف الذي يصوبون النيران إليه .

أصابت إطلاقات مدفعه منزلي القنصليتين السويدية والبندقية ، ودخلت الشظايا غرفة نوم القنصل السويدي . تجعل مثل هذه الظروف وضعيتنا محرجة ومرعبة جداً ، ولو أن منزلنا ، كما سبق وأن أخبرتك بأنه في أجزاء كثيرة منه يقوى على رد القنابل .

٢٩ يوليو ، الإثنين الساعة العاشرة ليلا ، ١٧٩٣

وصول علي بن زوول واليا .

كان هذا اليوم ، أيها الصديق العزيز ، غريباً وعجيباً أثار دهشتنا ، فنحن في الوقت الحاضر في وضع خطير لا نحسد عليه . ومع أننا سنغادر هذا المكان قريباً ، فإننا من المقرر أن نرى حكومة جديدة تماماً ، قد تم طرد جميع أفراد أسرة الباشا من طرابلس قبل رحيلنا ، من قبل فاتح تركي ، بل حتى سيدي يوسف في كل جهوده المكرسة ضد أبيه يجب عليه أن يترك العرش لهـذا المغتصب ، الذي وصل إلى الميناء في الساعة الخامسة من بعد ظهر هذا اليوم . كنا في نزهتنا المعتادة بعد الظهر على شرفة منزلنا ، حين استرعى نظرنا أسطول تركي راسية سفنه في الميناء . ولما كان الأتراك لا يرحبون بالزائرين هنا ، فقد أرسل مترجم في الحال ليتحرى عن اسم القائد الباشا الذي يقود الأسطول الراسية بوارجه في الميناء . سرعان ما جاءت الأنباء بأنه تركي يدعى علي بن زوول على رأس الأسطول ومعه فرمان من السلطان التركي يقضي بخلع والينا الباشا وتنصيب نفسه والياً على عرش طرابلس .

ليس من السهل أبداً أن أصف لك الحالة القلقة المضطربة التي استحوذت على كل واحد ، أضف إلى ذلك أنها مأساة محزنة لأولئك الذين ترتبط مصالحهم بالحكومة ، لأنها تضع نهاية لكل ما كان يجري في القلعة .

اعتبرنا منذ ساعات قلائل وضعيتنا تتمخض بأخطار جمة ، أما الآن

فإنها بكل تأكيد تزداد حراجة وخطورة بين لحظة وأخرى . أرسل ربان السفينة التي بات من المقرر أن نبحر على ظهرها ونعود إلى أوربا رسائل مستعجلة جداً ، بواسطة ضباطه ، مليئة بالمشاعر الرقيقة والأحاسيس اللطيفة والرعاية التي أظهرها في اللحظة التي تعرفنا عليه تلك المشاعر التي لم يحد عنها قيد شعرة واحدة ؛ منذ أعلن وصول الأسطول التركي يدعونا فيها للمجيء والصعود على ظهر السفينة .

أخبرنا ضباطه بأن قوارب السفينة سترابط في البحرية وتبقى بانتظارنا إلى وقت متأخر بقدر ما تسمح به الظروف ، وبعدئذ ، ستظل على أتم الإستعداد طوال الليل ، وحين نتسلم أية إشارة من شرفة منزلكم فعليها أن تعود ثانية إلى رصيف الميناء ؛ قبل أن نستطيع الوصول إليكم بأنفسنا . ثم الإتفاق إذن على التلويح بضوء إلى فريق المخابرة ، إشارة لدعوة القوارب ومجيئها لنا إذا كان ذلك ضرورياً .

لم يمض الضباط الذين جاءوا لقضاء السهرة معنا غير نصف ساعة ، عندما وصل مترجمنا ليقول لنا بأن أوامر صدرت بإغلاق أبواب الميناء قبل ساعتين من الموعد المعتاد .

كان الميناء مزدحماً بالأتراك ، الذين كانوا يتجولون دون أن يلاقوا أية مقاومة من البربر.لا يزال علي بن زوول على ظهر سفينته ؛ إلا أن المراسلين كانوا على اتصال مستمر من القلعة وإليه . في الساعة السابعة مساء ، كان يعتقد من الضروري أن نغتنم الفرصة التي أتاحها لنا الربان ، وأن نسرع في الصعود على السفينة . جاءت زوجة القنصل البندقي لتنضم إلينا . ثم بعث عدد من المترجمين لاستجلاء الموقف وكشف الطريق الذي نسلكه قبل السفر . ولسوء حظنا وخيبتنا الكبرى عاد المترجمون وهم في يأس شديد . أعلن المترجمون بأن الأتراك لم يكونوا قادمين من القسطنطينية ، وإنما هم من قطاع الطرق القراصنة الذين جاءوا لنهب المدينة وسلبها فقط ، وإن أبواب الميناء محروسة حراسة شديدة من قبل الجنود الأتراك ، ولم يشهدوا بربرياً واحداً

بالقرب من تلك المنطقة . ولم يستطيعوا أنفسهم الإفلات من أيديهم بعد أن ألقوا القبض عليهم ، إلا بشق الأنفس، إذْ لم يطلق الأتراك سراحهم إلا بعد أن اقتنعوا أنهم حراس في إحدى القنصليات ، ولم يجرؤ أي شخص للخروج من الأبواب التي كان يحرسها الأتراك وسيوفهم مسلتة بأيديهم . كاد الأتراك أن يقضوا على حياة يهودي كان يتمتع بحماية فرنسية ، لمحاولته المرور من الباب في طريقه إلى الميناء فقد ألقوه أرضاً فاقد الحياة تقريباً . كانت هذه الأنباء مدعاة لذعرنا ومخاوفنا خاصة وأن أحد ضباط الباشا الموثوق بهم جاءنا من القلعة وأخبرنا بأن الباشا قد قرر فتح أبواب المدينة إلى الأعراب وسيدي يوسف ، فلربما ينضمون إلى صفوف الباشا لطرد الأتراك . ذلك التدبير الذي يراه الباشا الخطوة الأخيرة الباقية لإنقاذ نفسه ، إلا أن كل فرد كان يرى بأنه إذا أتيحت للأعراب فرصة الدخول إلى المدينة ، فإنه لا يوجد منزل واحد في المدينة بقدرته أن يزودهم بأبسط الغنائم وأقلها مقابل قيامهم بذلك العمل وأن ينجو من سلبهم ونهبهم . حقاً لقد وعدوا جميعاً ، منذ مدة طويلة ، من قبل سيدي يوسف أن يتركهم في المدينة أحراراً ينهبون ويسلبون مدة ثلاثة أيام منذ دخولهم إليها . حتى أن سيدي يوسف نفسه لا يستطيع ردهم والحيلولة دون ارتكاب المزيد من حماقات عنيفة وقاسية .

كان المترجمون يبعثون للاستطلاع استجلاء للموقف كل نصف ساعة. طوال الساعات الماضية ، إلى أبواب المدينة وأبواب الميناء ، وغرفة شيخ البلد ، والقلعة ولا شيء أكثر استحالة وصعوبة من الاحاطة بما كان يجري في المدينة . قالوا بأن الباشا والبك قد بعثا برسالة إلى سيدي يوسف ليقود قواته إلى المدينة . نستطيع القول بكل تأكيد بأن الاتراك قد دخلوا القلعة ، لأننا شاهدناهم من فتحات أسوار القلعة .

٣٠ يوليو ، صباح يوم الثلاثاء ، الساعة الثانية بعد الظهر ، ١٧٩٣

تلاوة فرمان السلطان .

إن عدداً كبيراً من السيدات اللواتي ضمهن حفلنا ، قد قررن الانسحاب طلباً للاستجمام والراحة ساعات قليلة بعد أن أنهكهن القلق وأقضَّ مضجعهن الخوف . قرر القناصل أن يقوموا بالحراسة طول الليل بأنفسهم يتناوب الواحد بعد الآخر كل ساعتين لم يبق خادم في المنزل سواء كان مسيحياً أو بربريا أو أسود إلا وهو مدجج بالسلاح من بنادق وسكاكين ومسدسات ، ولا يسمع في هذه اللحظة شيء آخر غير ضجيج السلاح وجلجلته . يثير الصمت والرهبة أثناء الليل ، في بعض الفترات ، العجب والدهشة ، بينما هناك الشيء الكثير الذي يدبر ويجري ويتقدم . ولا شيء تقع عليه العينان أو تسمعه الأذنان في المدينة غير ضجيج مفاجيء بين وقتٍ وآخر، ومن جلجلة أسلحة الفرق الكبرى من الاتراك ، الذين يستعرضون في الشوارع ويجوبون الطرقات .

قبل ثلاث ساعات تلي فرمان السلطان التركي في الميناء يعلن به وصول علي بن زوول وتنازل والينا الباشا . وكان رئيس البحرية ، وبعض كبار موظفي الباشا مضطرين في هذا الوقت من الليل، حوالي الســاعة الثانية عشرة للصعود على ظهر السفينة التي لا يزال الأتراك عليها . أطلقت النيران لمدة ساعة تقريبا من مدافع الاسطول التركي ، إعلاناً بشنق بعض موظفي الباشا . كانت تلك الانباء محزنة جداً لنا ؛ لأننا نعرفهم شخصياً ، ولنا علاقات ود وصداقة وثيقة مع عائلاتهم .

خاطرنا في عتمة الليل الحالك أن نقف على شرفات منزلنا لنستطلع الموقف . كان يظن أنه ليس من الصحيح ظهور السيدات على الشرفات قبيل الغروب ؛ خوفاً من أن تقع عليهن أبصار الأتراك . ساد على المدينة والميناء معاً جو كئيب مؤلم له طابع يختلف عما كان عليه قبل نزول الأتراك . كل شيء يجري بهدوء تماماً يشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة ، ما عدا ما كان يدور في الميناء إذ نسمع حواراً مستمراً وجدالاً عنيفاً .

إن مناعة منزلنا وحصانة موقعه يجعلانه ملاذاً أكثر أمناً واطمئناناً من أي منزل آخر في المدينة ، ليس لأولئك الذين لهم الحق في طلب حماية الراية الإنجليزية التي يسمح له برفعها ، ولكن كان رأي القنصل الإنجليزي يجد أنه من السياسة ألاّ يرفض أقرباء سكان اخبال المقيمين في المدينة الذين جاءوا يتضرعون ويتوسلون للحصول على ملجأ لنسائهم ووضع ملكياتهم . فقد أحيط منزلنا بما يقرب من مائتين منهم ، مسلحين تسليحاً جيداً ، قائلين بأنهم سيذودون عن المنزل على أتم الإستعداد لأن يتفانوا ويقطعوا إرباً إرباً قبل أن يضطروا إلى مغادرة أسوار المنزل . كل القناصل الذين معهم سيداتهم هم داخل دار القنصلية الإنجليزية .

الساعة الثانية عشرة ظهراً

أعمال علي بن زوول في طرابلس .

في موعد آذان فجر صباح هذا اليوم ، وصلت جماعة من الأتراك مبعوثة من القلعة إلى منزلنا ، ليحموا كما يقولون : الراية الإنجليزية ، التي لا تخشى أي اعتداء أو إهانة إلا منهم أنفسهم . يضطجع أولئك الرجال الآن في أرجاء مختلفة من وسط حوش القنصلية يدعون الخدم ، ليشعلوا لهم غلايينهم ، ويجلبوا لهم القهوة والشرابات ، وهم مدججون بالأسلحة الباهظة الثمن : وملابسهم فخمة ، ولكن عجرفتهم وغطرستهم لا تطاقان .

وفي منتصف الليل غادر القلعة كل من الباشا والبك وبك بنغازي (صهر الباشا) والكاتب والكخيا ، مع سيدات البك وأسرة الكخيا . بقيت اللالة حلومة في أحد المنازل في المدينة لأنها لم تستطع الإستمرار في السفر . كانت هذه السيدة السيئة الحظ مريضة جداً ، لا تقوى على الخروج من القلعة وحملها من قبل خدمها ، إلا أن ابنة البك الكبرى ، زنوبيا ، لا تزال هناك مع أميرتين هما : اللالة فاطمة ، أرملة بك درنة ، واللالة عويشة ، زوجة رئيس البحرية . ولما كانت السيدات من أسرى العائلة الحاكمة محرمات ولا يجوز أن ينالهن سؤ في

هذه البلاد ، فمن المنتظر أن يحافظ الجنود الأتراك على حياتهن وممتلكاتهن .

لا يمكن أن يقوم برهان أقوى على مدى الأهمية التي يعلقها الناس على الفرمان الصادر من السلطان التركي من الإسلوب الذي تقبل به الطرابلسيون ما جاء فيه ، الذين أحنوا رؤوسهم سمعاً وطاعة للمناسبة الحاضرة هذه ؛ فقد غادر كل من الباشا والبك أبواب المدينة دون حماية إلى سيدي يوسف ، ولربما أتاح الباشا الفرصة لسيدي يوسف لدخول المدينة، كما كان ينوي في زمن ما القيام به ، مو قواته ؛ ليطردوا الأتراك من المدينة، ولكن ضمن إطار الفكرة القائلة بأن فرمان السلطان التركي لا يمكن أن يقاوم ولا أن يرد ، وأن الجميع قد لبى طائعاً ما جاء فيه .

وفي الساعة السادسة والنصف من صباح هذا اليوم ، كان ضباط السفينة الحربية التي نريد الرحيل عليها في منزلنا ، حيث قدموا لنا التهاني على سعة الصدر التي قوبل بها الجنود الأتراك من قبل البربر لدخول المدينة ؛ دون أن يكدروا جوها بمعركة ، إلا أن كل شيء يجب أن يخشى من فظاظة وقساوة الأتراك ، المعروفين بعدائهم الشديد للنصارى بأنهم يحاولون إهانتهم والإعتداء عليهم ، إلا حين تقضي مصلحتهم خلاف ذلك .

تناولنا طعام الإفطار مع جمع يتألف من ثلاثين شخصاً ؛ معظمهم قد أمضى ليلة كان يتوقع خلالها وفي كل ساعة دخول الأعراب إلى المدينة من البر أو دخول الأتراك من البحر .

وقبل أن ننتهي من تناول طعام الإفطار ؛ دعينا إلى شرفة المنزل لنشهد التركي قادماً من الإسطول على هيئة الباشا لأن كل شخص في طرابلس وفي هذا الوقت يشك بصحة الفرمان .

بعد نزول التركي إلى الساحل تغيرت كل الأعلام والرايات البربرية إلى رايات تركية وفي كل مكان أخذت الراية القرمزية التي في وسطها الهلال الذهبي ترفرف عالياً . حين بدأ الأتراك بالتقدم ؛ رأيناهم يطردون اليهود بكل عنف وقوة ، من كل جزء من أجزاء المدينة ، فهم لا يطيقون إبقاء اليهود على مسمع

ومرأى من الباشا التركي عند مروره ، الذي يحيط به ويحرسه عدد عظيم من الأتراك . تتقدم موكبه نفس الجوقة الموسيقية التابعة للقلعة ، ونفس فرقة الشواويش الذين كانوا يعلنون طوال سنين عديدة قدوم الباشا والبك فحيته كل السفن التركية وأطلقت مدافع البحرية حتى وصل القلعة .

لقد سررنا بمشاهدة رئيس البحرية مع حاشيته ، والذي أشيع البارحة نبأ مصرعه .

لا يمكن وصف ما لاقاه اليهود من عنت وقلق ويأس . يتوقعون أن تصادر كل ممتلكاتهم ومن الخير لهم أن يبقوا لهم حياتهم بعد كشف كل ما لديهم من كنوز وخزائن .

كل شيء هادىء في المنشية ، ولا ترى العين إلا عدداً قليلاً من رجال سيدي يوسف ويظن بعض البربر بأنه قرر الذهاب إلى تونس مع الباشا والبك . ويقول آخرون بأنه يجمع المزيد من الأعراب ليشن هجوماً ضد الأتراك الذين يتحدث عنهم ولا يعتبرهم غير أوغاد قساة .

نحن الآن أقل حرية في التمتع بالهواء الطلق من أعلى شرفات منزلنا مما كنا عليه مؤخراً أثناء فترة وباء الطاعون . لا نستطيع النزهة في المنشية وفي المدينة والميناء(إذ لا يوجد وقت ملائم للنزهة) لأنها الآن تحت وطأة الإحتلال التركي ، إلا أننا سوف لا نقاسي طويلاً من هذه الحالة المؤسفة ، لأننا نتوقع أن نشد الرحال إلى أوروبا في كل يوم .

١١ أغسطس ١٧٩٣

الاتراك يهددون القنصل الانجليزي

مرت علينا أمس لحظة شعرنا بها بالرعب والألم أكثر من أي زمن مضى علينا في هذه البلاد ، من حالة هددت تهديداً خطيراً حياة القنصل . رأينا سفينة انجليزية تبحر من الميناء صباحاً بعد سفر سفينة فرنسية صغيرة ، كانت من

غريب الصدف تنقل جنوداً أتراكاً لنجدة علي بن زوول : كان الأتراك هم الذين يسيرون دفة السفينة إلى الساحل للحيلولة دون أخذها . أطلقت القلعة النيران تحذيراً ، فلم يكن من المألوف أبداً أخذ السفينة تحت وطأة نيران مدافع القلعة . وبنفس الوقت وصلت رسالة تهديد شديدة اللهجة من الأتراك إلى القنصل ليقدم حالاً إلى القلعة . فإذا أجيب طلب الأتراك فإنهم سيطلبون بعدئذ فدية كبيرة لإطلاق سراح القنصل ، ونحن نعرف أخلاق الأتراك معرفة جيدة . وما هي وسائل الراحة التي يقدمونها لنصراني غير راضين عنه ، وغني عن البيان أن حياة القنصل قد تذهب سدى ضحية باردة في مثل هذه الأحوال. أترك لك أن تصور بنفسك الوضعية التي نحن فيها والشعور الإنساني الذي يغمرنا ونحس به نحو الآخرين . كان من الضروري للقنصل أن يذهب في الحال إلى السفينة حتى ينتهي تدبير أمر أخذ السفينة ، ونتيجة لهذه الحادثة لم يظن القنصل بأن اسرته في أمن وسلام في دار القنصلية الإنكليزية ، فذهب معنا إلى دار القنصلية البندقية .

رافقنا المترجمون التابعون لنا وكان عدد من الحراس الأتراك لا يزال واعياً قادراً على الوقوف لأن معظمهم كان مضطجعاً مخموراً حول السقيفة ووسط الحوش . كان مظهر الشوارع التي مررنا بها غريباً وجديداً بالنسبة لنا ، كانت مرصوفة على الجانبين بالأتراك .

وبدلاً من الآغا القديم الذي كان يرئس الحرس في مركز بوليس المدينة ، الذي كان يقابلنا بكثير من التقدير والإحترام رأينا مجموعة من الأوغاد الغلاظ القساة التي يبدو من النادر أن تستطيع ضبط النفس والإستنكاف من إهانتنا والإساءة إلينا . إلتقينا برئيس الجمارك ذاهباً إلى القلعة ولكن لم يستطع أن يسرنا بكلمة واحدة . لأنه كان محاطاً بجنود من الأتراك المسلحين بدلاً من حرسه الخاص . وحالما افترقنا عنه التقينا بأحد قواد سيدي يوسف هو سيدي البوني ، زوج اللالة زنوبيا التي يحبها البك الراحل . فأخبرنا هذا الضابط بأنه جاء إلى المدينة في وسط اكتظاظ الناس في الصباح وازدحامهم ، ويأمل الخروج ثانية قبل أن يجن الليل ، لأن هويته مجهولة من قبل الأتراك ، ولم يجرؤ على الإستمرار في البقاء ليقول

المزيد خشية أن يكتشف أمره : فقد كان متخفياً ملتفاً بجرد أسود . تركنا القنصل في منزل القنصلية البندقية ، ولم يكن لديه غير وقت ضيق ليهرب بنفسه على ظهر إحدى السفن الإنجليزية ليعلم ربان تلك السفينة بما وقع من حوادث . تم إنجاز كل شيء ، في ساعات قلائل ، وبذلك تبددت مخاوفنا المرعبة عن سلامة القنصل ، وبعد أن مكثنا بضع ساعات في منزل القنصلية البندقية اكتفى بذلك وعدنا إلى منزلنا لتناول طعام العشاء .

لا يزال باقي الحراس الأتراك يثيرون الشغب والإضطراب في منزلنا ، فطلب القنصل اليهم باصرار وجوب مغادرة المنزل ، وأخبرهم بعدم وجود أي سبب يدعوا لبقائهم ، إلا أن رئيسهم أعلم القنصل بوجوب إعطائه (باتاك) — ما يعادل خمسة شلنات — في الساعة مقابل ما قدموه من خدمات . فأجيب هذا الطلب ، وبذلك ذقنا طعم الراحة والهناء بعد مغادرتهم .

أمسك هؤلاء الأشقياء بيهودي ، حينما ذهبنا إلى منزل القنصلية البندقية ولولا احتجاج خدمنا وتدخلهم والحيلولة دون الإعتداء عليه لقتلوه بحجة أنه رفض الإذعان لأوامرهم ، وأعلمهم الخدم بعدم السماح بالقيام بمثل ذلك العمل بالقرب من أبواب القنصلية الإنجليزية .

ويبدأ الباشا التركي بمعاملة النصارى معاملة فظة قاسية ، فقد سبق وأن أعلن بأنه لا يطيق رؤية الكفار (يعني القناصل) غداً . وعندما قدم إليه التماس اليوم لاستقبال الضباط الإنجليز ، وهي زيارة مجاملة ضرورية بسبب التغيير الذي حدث في الحكومة الحاضرة إلا أن الأتراك حاولوا أن يقتفوا أثر (داي) الجزائر وأن يتجرأوا بكل صلافة الإقتراح بنزع الضباط الإنجليز سيوفهم قبل دخولهم (١) ، وعندما أعلموا برفض القنصل وبعدم إمكان قبول مثل ذلك الإقتراح فقد أُلغيت الفكرة من أساسها .

توقفت المناوشات خلال اليومين الأخيرين في السهل والمدينة على السواء :

---

(١) طلب ايضا وفقا لتقرير القنصل الفرنسي ، ان ينزع القناصل الاوربيون احذيتهم قبل الدخول الى مجلسه .

ولكن لاتقع العين على يهودي أو امرأة في الشوارع ،وإنما على عدد قليل جداً من البربر . الحوانيت كلها مغلقة ، فقد انسحب التجار البربر ، ولا شيء يبدو فارغاً ومحزناً أكثر من المدينة منذ أن وطئت أقدام الأتراك بر طرابلس وتجولوا فيها حتى القلعة .

انسحبت جيوش سيدي يوسف تماماً من المنشية ، ولا يدري أحد في المدينة ما هي الخطوة القادمة التي يخطوها ، إلا أن الأعراب يتدفقون باستمرار أفواجاً أفواجاً من الصحاري شرقاً وغرباً .

في صباح هذا اليوم وقعت حادثة بعد عودتنا من منزل القنصلية البندقية ، تدفعني لأن أقص عليك قصة رقيق أسود كمثال لتعلقهم الشديد بأسيادهم . رقيق أسود اسمه زهر ، جاء يلتمس قبوله في خدمة القنصل ، بالرغم من أنه كان قد أخبر مراراً بأن الأسرة على وشك الرحيل من البلاد ، ولم يرد طلبه . كان حماسه وشوقه للخدمة (ولو لبضعة أيام) ولو أن ملابسه خلقه ممزقة ، تكشف عن أسمال لبدلة فخمة بالنسبة لرقيق ، مما أثار الفضول لمعرفة قصته . قال بأنه كان مملوكاً من قبل أحد الوجهاء البربر الأشراف ، اسمه سيدي حسانة أحد المراقبين عند البك الراحل ، الذي يشبه بقية المقربين له ، قد تحطم بسبب اتصاله الوثيق بسيده .

بعد وفاة سيدي حسانة ، الذي أعقب مقتل البك مباشرة ، صودرت جميع ممتلكاته ، وحتى ما تمتلكه اسرته من حلي ومجوهرات ، وكل ما يملك من عبيد . وترك أرملته ، قفقاسية جميلة ، مع أطفالها الثلاثة الصغار دون قوت ولاطعام ، كان يسميها زبيبة جلبها سيدها نفسه من آسيا ، وكان يخشى عليها من أن يرى أو يسمع الآخرون شيئاً عن جمالها ومواهبها فاضطر أن يعزلها من كل اتصال

---

(١) زبيبة يعنى حبة العنب المجفف ـ اسم بربري · يطلق البربر أسماء بربرية من ابداعهم تعبر عن المحبة والاطراء على القفقاسيات والغواني الجميلات الاسيويات عندما يتم زواجهم بهن مثل « محبوبة » عملة ذهبية خالصة و « صباح » نجمة الصباح ، وحلومة ـ الحلوة ـ وبهذه المناسبة دعا حسانة جاريته الجميلة في الوقت الذي تزوجها « زبيبة » ·

ما عداه شخصياً وخادماتها . لهذا وجدت السيئة الحظ زبيبة نفسها دون من يحميها ، دون صديق أو قريب في هذه البلاد .

كان الحراس في تلك الآونة ينهبون ويسلبون منزل سيده ، فركع العبد الأسود إلى اللالة زبيبة وتضرع لها بأن تمنحه حريته في الحال ، قبل أن يلقي الحراس القبض عليه مع بقية عبيدها . فرفضت التماساً ضد مصلحة العبد الأسود ولولا ذلك لأصبح في القلعة حالاً يأكل ويلبس ، لأنه يعتبر في خدمة الأسرة الحاكمة . أخبرته بأنها لا تملك شيئاً تمنحه إياه ، وبحاجة إلى حماية أفضل مما تستطيع أن تقدم له في الوقت الحاضر وهي بدون سيد ، فإنه لا بد وأن يموت جوعاً . إلا أن العبد المخلص أجاب أنه يتوسل إليها من أجلها شخصياً ومن أجل أطفالها أن تمنحه حريته ، قائلاً ، لو أن اللالة زبيبة منحته حريته فإنه يبقى في خدمتها ولا يجرؤ أحد على أخذه منها ، ولأمكن أن يجد عملاً أو خدمة يقدر بها أن يحصل على شيء من المؤن لأفراد أسرتها ، ويحاول بعمله أكثر من ذلك أن يحول دون فقدانها لعبيدها .

وافقت القفقاسية السيئة الطالع والتي دون صديق ولا قريب لها ، بكل سرور ، فاستجابت لاقتراحه السخي الكريم . وعندما أراد الحراس أن يأمروه بوجوب التوجه إلى القلعة أطلقت حريته ، وقدمت لهم البراهين بأنه أعتق من قبل سيدها ، بعد الزواج ، ولهذا استطاعت أن تمنحه هي حريته . اضطرت القفقاسية على مغادرة ممتلكات سيدي حسانة في المنشية فقادها العبد الأسود مع أطفالها الثلاثة إلى المدينة ، وبذل ذلك العبد كل ما في وسعه للمحافظة عليهم منذ وفاة البك دون أن ينحرف أقل انحراف عن واجب الطاعة التي كان يقوم بها نحو سيدته السيئة الطالع ، بل إنه يعتبر الإشارة إلى اسمها موضع احترام وتقدير عندما يتحدث إليها ، فإنه كان لا يشير إليها إلا بلقب (اللالة) .

لقد استجيب التماس هذا العبد الأسود وسيبقى معنا حتى سفرنا من هذه المدينة بعدئذ بأخذه القنصل الهولندي في خدمته ، ويجده صالحاً للخدمة الرابحة في شراء خيول عربية لامبراطور النمسا ، التي سيأخذها العبد إلى فينا خلال أشهر قليلة .

ولم نسمع شيئاً عن اللالة حلومة ، رلو أنه قد مضت أربعة أيام فقط على ترك ذلك الوالي الباشا المسكين قلعته ، ولم نجرؤ أن نحاول البحث عن مسكنها خوفاً من أن يكتشف أمرها من قبل الأتراك .

١٧ أغسطس ١٧٩٣

وصول أحد قواد سيدي يوسف خفية . ماذا حدث في القلعـــة .

بعد أن ختمت رسالتي الأخيرة بأيام قليلة ، وصل أهالي السهل (وهي منطقة كبيرة تبعد بضعة أميال عن المدينة) مبعوثين من قبل سيدي يوسف ، كما قالوا ليقدموا إلى الباشا الجديد تحياتهم وتمنياتهم ، كما بعث سيدي يوسف بتحياته وتمنياته ، قائلاً : بأنه كان قادماً لمقابلته في الحال . ولكن هذين الرئيسين يعرف أحدهما الآخر معرفة جيدة جداً . وبعد أن تم تسليم الرسالة من قبل قائد السهل ، طلب إليهم الباشا التركي جميعاً الإنسحاب لبضعة أيام حتى يعيد النظر في كيفية استقبالهم وسيدي يوسف .

يستعرض شوارع طرابلس ليلاً شيخ مع عدد كبير من الجنود الأتراك : إلتقينا بهم في ساعة متأخرة من مساء هذا اليوم عند رجوعنا إلى المنزل ، تحدثوا طويلاً جداً إلى المترجمين الذين معنا ، والذين لم يرغبوا في إجابتهم ، عارفين ، بأنه ليس من المألوف أن يجرؤوا على الوقوف والتحدث في الشوارع عندما يكونون في خدمة أسرة القنصل . كان الأتراك مصدر قلق وإزعاج لنـــا بإصرارهم على مرافقتنا إلى المنزل ، بالرغم من إعلامهم بأن ما لدينا مـــن حرس يكفي لحمايتنا ولا داعي لقبول خدمتهم . وفجأة استرعى انتباههم وصول شخص كنا آسفين حقاً لرؤيته مقبوضاً عليه منذ برهة من قبل الحراس الأتراك . كان ذلك الشخص أحد ضباط البك الذي خاطر بدخول المدينة بعد الظهر وكان ينوي مغادرتها ثانية عند الغروب . حمله الشيخ وأتباع الباشا في

الحال إلى القلعة ، حيث نخشى أن لا نسمع المزيد عنه .

سيدي يوسف موجود في حديقة والده مع الباشا والبك . وقد بعث إليه الوالي التركي اليوم برسالة مع قفطان فخم ، يأمره بالمجيء إلى المدينة ، قائلاً بأنه ينتظر منه أن يحضر الديوان الذي تقرر أن يجتمع هذا اليوم في القلعة ، إلا أن سيدي يوسف لا يخاطر بالمجيء ويسلم نفسه إلى الوالي التركي ، لذا فقد اعتذر عن المجيء .

وصل صباح هذا اليوم أحد قواد سيدي يوسف إلى المدينة متخفياً . ولم يخاطر في الكشف عن هويته إلا لعدد قليل من الناس ، وقد كشف لنا عنها . أخبرنا بأنه في الليلة التي رست بها سفن الأسطول التركي في ميناء طرابلس ، لم يكن لسيدي يوسف أي علم بقدوم الباشا الجديد على ظهر إحدى السفن في منتصف الليل ، عندما أصبحت المدينة تحت حراسة الأتراك ، وفي قبضة الفاتح الغاصب . حين رأى سيدي يوسف أباه وأخاه يلجآن إلى المنشية ، وعلم بسبب هروبهما من المدينة ، فتأسف متألماً لإهماله السيطرة على المدينة وتولته موجة من الغضب . فقد كان بإمكانه بكل سهولة القيام بذلك دون الإنتظار لعقد إتفاقية مع أبيه .

عبر هذا الضابط عن سروره على أمل أن يدخل البربر المدينة ويطردوا الأتراك منها.أخبرنا بأن جيوشاً قوية جداً تدعم جبهة سيدي يوسف ، وازدادت همة الإعراب عندما وجدوا الباشا وأولاده متحدين الآن على سبب واحد، وعلى بقوله هذا في الهجوم على المدينة بكل ما لديه من جهود مساء هذه الليلة ، ومن أجل ذلك تم عقد اتفاقية بين سيدي يوسف وشيخ الأعراب ، فإن نجح الأخير في الدخول إلى المدينة فلهم كل الحرية في نهب وسلب كل منزل فيها مدة ثلاثة أيام مقابل ما يؤدون من خدمة : قال المستر تولي : « هل هذه هي الصداقة التي ننتظرها منكم ؟ » ، فأجاب البربري : « أي دليل أعظم من الصداقة ، فهل أستطيع أن أقدم لك دليلا أعظم من إحاطتك سراً بالأمر ، فإن أردت أن تضع أسمي عليه ، فإن رأسي سيعلق غداً على أبواب المدينة ، إذا استطعت الخروج منها

اليوم سالماً ، ومع ذلك فإني أخبرك بذلك ، ويمكنك الإعداد والتهيؤ للخطر واتخاذ الحيطة ؛ لأن سيدي يوسف ، كما أعتقد ، يحترم منازل القنصليات ... »
وسرعان ما عبر المستر تولي عن صداقته ومودته فقدمت له كل مساعدة ورعاية لتسهيل مهمة مغادرته عن المدينة ، ولكن الأنباء التي قدمها هذا الضابط كانت مرعبة جداً ، حتى أن النصارى بدأوا للمرة الثانية بالتفكير في الإنسحاب إلى الميناء إلا أن هذا التدبير الأخير ، بعد التفكير ، أسقط من الحساب من قبل القناصل : بسبب عدم وجود سفن حربية أوروبية راسية في الميناء المزدحم الآن بالسفن الحربية التركية بما فيها من ملاحين أجلاف قساة ، حتى بدا لهم تدبيراً أكثر خطورة من طلب حماية الأعلام القنصلية، التي ظنوا بأنها أكثر أمناً وطمأنينة ، إذا دخل سيدي يوسف المدينة ؛ مما هي عليه في الوقت الحاضر ، لأن أولئك الغزاة الأتراك ما هم إلا قطاع طرق . إن الخطر الدراهم الذي يخشاه النصارى ما يمكن أن يحدث في اللحظات الأولى من الإضطراب والقلق ، بدخول الأعراب المدينة قبل أن يستطيع رؤساؤهم وشيوخهم ، السيطرة عليهم، وبناء على ذلك ، فقد أمضيت بقية النهار في الهياج والقلق والخوف .

وعند حلول المساء اقتربوا جداً من المدينة . فاضطرهم الأتراك على الإنسحاب إلى الوراء في فترات مختلفة من النهار بإطلاق القنابل ، التي سقط قسم منها وتناثرت شظاياها في المدينة فازداد السكان خوفاً وهلعاً .

تضايق البربر جداً من استعمال هذا السلاح الحربي ، فانسحبوا في تلك الليلة وفي صباح اليوم الثاني أطلقت مدافع سيدي يوسف نيرانها على المدينة فأدخل الرعب في الأتراك ، فاضطروا إلى إرسال ثلاثة قوارب مسلحة تسليحاً قوياً للنزول في أرض المنشية لمحاولة الإلتفاف والإنقضاض عليهم . وبعد صعوبات جمة تم تطبيق ذلك ، ولكن كان بسبب غياب سيدي يوسف لبعض الوقت ، إذ أوكل لأخيه تولي زمام الأمر محله . ولكن عندما طرق سمعه ما كان يجري في المنشية عاد راجعاً على الفور ليتولى زمام القيادة بنفسه . كان سلوكه طوال فترة وجود الأتراك في طرابلس يضطر كل محارب من رجاله

لأن يتصف به ، وبالرغم من أنه سيء القلب إلا أن مواهبه تفوق بقية أفراد أسرته .

وبالرغم من الهجمات التي تلقاها سيدي يوسف من الأتراك ، فانه استمر في الحفاظ على الأرض القريبة من باب المدينة خلال ذلك اليوم .

لا يملك النصارى وسيلة لحراسة منازلهم في الوقت الحاضر ، كما فعلوا في مناسبات سابقة ، عندما اقترب سيدي يوسف مع الأعراب التابعين له . لم يكن في المدينة إلا عدد قليل من البربر ، وكل هؤلاء من الرعايا الخاضعين للأتراك وليس بوسعنا إلا أن نأمل فقط من الأعراب أن يخضعوا للضبط في الوقت المناسب بفضل سيدي يوسف أو قواده ، حتى لا يغيروا على منازل القناصل .

تجمع الناس جميعاً أثناء الليل على الشرفات إبان الهياج العظيم ، ليراقبوا ما كان يجري وليشهدوا اللحظة الحاسمة التي يتحقق النصر الحاسم أما للبربر وإما للأتراك . بعد منتصف الليل نجح رجال سيدي يوسف في الإقتراب جداً من أبواب المدينة ، حتى ظن الجميع بأنهم قد اقتحموها ، فاستحوذت عليهم موجة عارمة من الذعر والخوف لأنهم كانوا يعرفون بالعهد الذي قطعه سيدي يوسف للأعراب القاضي بنهب وسلب الأموال والثروات من منازل السكان .

بعد نصف ساعة من منتصف الليل ، وتحت وابل من نيران الأتراك الشديدة ، تجمع سيدي يوسف بأعرابه قريباً جداً من أبواب المدينة . فاهتدى إلى خطة لاقتحام المدينة من بعض الحوانيت القديمة ، والتي وضع الألغام تحتها في الطريق المؤدية إلى المدينة والتي لم تجلب انتباه الأتراك ، ولكن في اللحظة التي يهيء بها رجاله للدخول من ذلك الممر الأرضي ، أشعل الأتراك بصورة غير منتظرة النار في بعض الأغصان الكبيرة وغطسوها في ماء حفرة ساخن ، بحيث أن البريق الهائل الذي حدث كشف في الحال عن كل جزء من المنشية ، وعما كان يقوم به البربر بصورة خاصة ، وبالنتيجة حال دون احرازهم النصر لقد كون إطلاق النيران من البربر خطاً مستمراً حول المدينة ، واستمر الأتراك في إطلاق النيران على المنشية . أظن أن هذا هو الفزع الأخير الذي

سنخبره من ذلك المسكن خلال بقائنا في طرابلس ، لأننا نأمل أن نغادرها في غضون أيام قلائل .

قدم لنا أحد الضباط تقريراً وافياً لكل ما حدث في القلعة من الساعة السادسة مساء حتّى لحظة مغادرة الباشا القلعة ، حيث كان من المقربين للباشا ، وظل في القلعة طوال الليلة التي كانت من المقرر أن يترك عرشه . يمكن القول بأن الباشا والبك قد وقعا ضحية للإعتقاد بالأثر الحتمي بالمصير المحتوم . فحين وصلت الأنباء غير المتوقعة إلى القلعة بوصول باشا جديد إلى الميناء ، مصحوباً باسطول تركي قوي ، فقد شلت هذين الأميرين الفكرة التي يعتبرونها مصيراً محتوماً وقضاء لا مردّ له ، وظلا ينتظران دون أن يبديا حراكاً ، ودون أن يبذلا أية محاولة للمقاومة حتّى شملتهما العاصفة بريحها العاتية . حين أصبح معروفاً بأن ذلك التركي الذي وصل هو الوالي الجديد وبيده فرمان من السلطان التركي تولى الباشا والوزراء الذهول ، فكانوا على أتم الإستعداد ليحنوا رؤوسهم إلى أمر الباب العالي الذي لا يمكن رفضه وعرقلة تنفيذه .

بعد مضي قليل من الزمن ، على كل حال ، انتشرت الشكوك بصحة ذلك الفرمان ، وفيما إذا كان قد صدر من السلطان التركي حقاً ، لهذا فقد أُصدرت الأوامر من القلعة إلى كل من شيخ البلد ورئيس البحرية لجمع كل القوة التي يستطيعان جمعها ، ليقاوما نزول الأتراك إلى البر ؛ ولكن لم يخرج الباشا ولا البك لتشجيع الناس على القتال والمقاومة والذين يخشون عواقب المقاومة دون رئيس لرجل قد يمسك حياتهم بيديه في غضون ساعات قلائل . مضى أكثر من ساعة ونصف الساعة على إصدار تلك الأوامر من القلعة ، دون أية إشارة تدل على تنفيذها والقيام بتطبيقها . بعثت رسائل أخرى إلى شيخ البلد ورئيس البحرية ليسلما ، في الوقت الذي لم يجرؤ الباشا ولا البك على الإقتراب من نافذة أو من شرفة في القلعة ليشاهدا ما كان يجري ، أو ليعرضا نفسيهما للجمهور . ضاع الوقت سدى من الساعة الثانية مساء حتّى منتصف الليل في تحرير الرسائل

من الباشا إلى وزرائه دون جدوى ، حين وصل الفرمان من التركي الذي على ظهر الأسطول إلى القلعة،يأمر الباشا بمغادرة القلعة أو ينال عقوبة الإعدام فيها.

غادر الباشا والبك وبك مدينة بنغازي القلعة ، تتبعهم قبيلة النوائل بزعامة الشيخ خليفة ، وقد أكد لنا الضابط تلك المعلومات عن الإغماء الذي أصاب الباشا ثلاث مرات وهو في طريقه إلى أبواب المدينة .

لقد أحس بالآلام الممضة المبرحة لعدم ترحيل السيدات في أسرته إلى المنشية مهما يكن الأمر خطيراً ، إلا أن الوقت الآن متأخر جداً ، ولكنهم هدأوا روع الباشا بتذكيره بأن كل الأسيرات من الأسرة المالكة لا بد وأن يكن بخير ، وفقاً لتعاليم النبي الذي حرَّم إلحاق الأذى بالنساء في حالة الحرب . إلا أن سلوك التركي ورجاله برهن على أن مخاوف الباشا كانت في محلها ، لأنهم قراصنة وقطاع طرق ، ولم يكن مخولاً من الباب العالي. وعلى النقيض من كل ما تنص عليه القوانين الإسلامية ، انتزعوا من كل سيدات القلعة ، وحتى من بنات الباشا حليهن ومجوهراتهن وكل المواد الثمينة القيمة التي عليهن ، وحتى من السيدات اللواتي لم يكن محتجزات في القلعة ولم يكن عليهم غير جرود تغطي أجسامهن.

كانت لإحدى الأميرات ، اللالة فاطمة ، الشجاعة لمقاومة أولئك الأوغاد، قائلة بأنها لما كانت ابنة الباشا ، فإنها تفضل الموت على أن تغادر القلعة في مثل تلك الحالة ، فاستجاب الأتراك لاحتجاجها وقدموا لها بعض ملابسها . كانت اللالة حلومة ، مريضة جداً ، فحملت على أذرع وصائفها السوداوات ، اللواتي قد منحتهن ، سلفاً ، حريتهن ، لأن كل الوصائف والعبيد نساء ورجالاً ، يحتجزون في القلعة لخدمة التركي ، أو أنهم يباعون . تجمعت الوصيفات السوداوات اللواتي كان البعض منهم يعيش داخل أسوار القلعة والبعض الآخر في المدينة ، بكل امتنان وحمد حول سيدتهن الشقية البائسة ليقدمن لها خدماتهن في تلك اللحظة السيئة الحظ .

حملنها من القلعة تصحبها أرملة البك الراحل الذي اغتيل ، واختفت الهاربتان الملكيتان سراً في إحدى المنازل في المدينة ولكن حتى الآن لا نعرف

بالضبط محلهما . إحتجز التركي ابنة البك الراحل الجميلة في القلعة ، معلناً عزمه على الزواج بها ، وقراره على وضعها على العرش ، ولكن عزمه هذا ، بدلاً من أن يقدم العزاء والسلوان للأسرة ، فإنه زادها حيرة وقلقاً ؛ لأن كل فرد يعتقد بأن هذا التركي هو مغتصب للسلطة ، الذي يدعو نفسه علي بن زوول ، والذي ظهر للوجود بإقرار بعض الباشوات لقيادة بعض البحرية التابعة للسلطان التركي ، معروف بقرصنته ، وكان يعتبر رئيساً لقطاع الطرق الأرناؤوط قديماً ، أناس هم نفايات المستعمرات التركية .

لقد أرسى هذا التركي سفنه مراراً في ميناء طرابلس مؤخراً ؛ في حملاته من الباب العالي إلى مصر ، التي أتاحت له الفرصة السانحة ليطلع عن كثب على الخصومات والخلافات في أسرة الباشا وعلى الفوضى التي تسود المملكة نتيجة لذلك .

بعد أن أدرك علي بن زوول القلاقل والإضطرابات العامة ، قرر أن يستغل الظرف ويفيد من حالة البلاد التي لا تقوى على الدفاع ، متمنياً أن يسكت وزراء السلطان التركي بالهدايا الثمينة التي يرسلها من هناك ، التي جمعت بطريق السلب والنهب والقتل ! أخشى أن لا أقدم لك أنباء حسنة خلال الأيام الباقية من إقامتنا هنا .

وقعت خلال الأيام الثمانية الأخيرة آثام وشرور فظيعة ، نحمد الله تعالى بأننا لا نزال غرباء في هذه البلاد التي نقيم فيها .

نحن بانتظار عودة البارجة ، التي سنبحر على ظهرها إلى أوروبا . لقد أبحرت إلى زيارة تونس . أختم رسالتي هذه وأنا عازمة على الكتابة اليك مرة أخرى قبل أن نغادر طرابلس .

١٧ أغسطس ١٧٩٣

الاتراك يلقون القبض على حفيد الباشا · القبض على ايستر ·

ولأجل أن أقص لك آخر الأنباء عن الحالة التي نترك بها طرابلس ، وعن الأيام الأخيرة التي نقضيها هنا ، أعتزم الإحتفاظ بهذه الرسالة ، لأبعثها في أول فرصة سانحة وفي طريقنا من هذه المدينة .

اكتشفنا قبل أيام قليلة المنزل الذي تقيم به اللالة حلومة المعذبة ، لم تفت من السيدة تولّي الفرصة في إرسال القهوة الطازجة ، وكمية من السكر اللطيف . وغيرها من الأمور الجزئية التي ترغب في الحصول عليها كثيراً ، أخذتها بعض السيدات المراسلات من اللواتي هن موضع ثقة ، ولكنهن وجدن الطريق لهذه السيدة البائسة مستحيلاً ، فاضطررن على الإنسحاب من منزلها بسرعة ، وهن سعيدات بالإفلات من الإهانات والإعتداءات .

لقد سمعن صراخاً مدوياً يتعالى من منزلها قبل أن يصلن الباب ، حيث شاهدن الأتراك يسحبون فتى وسيم الطلعة ، جميل الصورة ، أحد أبناء حاج محمود ، حفيد الباشا الذي تصورن بأنه ابن البك الراحل ، وكانوا يقتادونه مسرعين إلى القلعة ، معتقدين بأنه الوريث الثاني للعرش . وفي اليوم الثاني ، بعد أن انتهى صخب وضجيج هذا الأمر ، تم إرسال النساء المراسلات ثانية ، فوجدن الدخول إلى اللالة حلومة المعذبة الخائفة سهلاً ، والتي أقض عليها مضجعها ألم ذلك الهياج الأخير برؤية حفيدها يجره الأترك من قرب سريرها ، والذي أخفت صوته بجلجلة وقعقعة السيوف الهائلة التي يحملها القتلة السفاكون ، إذ ظنت اللالة حلومة من كثرة ضجيجها أنهم ذبحوا حفيدها قبل مغادرتهم المنزل ، لكنهم حملوه حياً إلى القلعة ، حيث لا يزال فيها .

لقد تقرر لنا أن نبذل المزيد من الجهد لنرى هذه الشخصية التي تستحق كل تقدير ، الباقية من الأسرة المالكة ، غير أن الإقتراب منها محفوف بالمخاطر والمصاعب لأن غيرة الأتراك ويقظتهم تجعل من الضروري أن نضع

جانباً القيام بهذه الزيارة الخطيرة ونقوم بها في يوم آخر ، وعلى كل حال ، فإننا نسمع عنها من وصيفاتها ، ونبعث لها المراسلات كل يوم تقريباً .

لا يوجد مع اللالة حلومة واحدة من بناتها ، ولكنها تتسلى وتتعزى بوجود أرملة البك الراحل التي لا تفارقها . لقد خاطرت اللالة عواشة ، ابنة الباشا الثالثة في البقاء في القلعة مع زوجها ، رئيس البحرية ، الذي بسبب ما يتمتع به من أهمية في الوظيفة التي يشغلها ، يجد التركي من السياسة الحكيمة أن يستمر في منصبه .

١٧ أغسطس ١٧٩٣

اللالة زنوبيا في قبضة علي بن زوول .

كانت المشاهد التي حدثت في الأيام الأخيرة مثيرة جداً ، بحيث بات من المفجع حقاً أن تروى ، لذا فإني أكتفي بنقلها بكل صمت وسكون . ولكنني لا أستطيع أن أذكر أخبار الحالة الخطيرة الحاضرة لشخصين نهتم بأمرهما اهتماماً كبيراً ، واللذين ننتظر على أحر من الجمر كل ساعة لنرى بعض التغيير يطرأ على حالتهما : أحدهما من ضباط البك الراحل ، والذي كان طوال سنوات عديدة يتردد على منازل النصارى ويسهم في حفلاتهم وولائمهم . ألقى أتباع التركي القبض على هذا الرجل السيء الحظ قبل الليلة الماضية فنقل إلى القلعة ، حيث يظن الأتراك بأنه لم يكشف بصراحة وإخلاص عن الكنوز والخزائن التي يملكها ، فأصدر التركي أوامره المباشرة برميه في قعر بئر جاف عميق في وسط الحوش ، حيث من المرعب المخجل أن نقص على ما يجري له ، فلم يصدر أمر بتخصيص طعام له ، ولكن ما زال الأمل قائماً ، إذا تم إقناع التركي الفظ العاتي بالخطأ الذي ارتكبه ، فإنه ، نظراً لأهمية مرتبة هذا الضابط ، يأمر بإخراج هذا الرجل من البئر ثانية ، في الوقت المناسب ، لإنقاذ حياته .

وفي غضون اليوم نفسه ، لم نكد نأخذ مقاعدنا لنتناول طعام الغداء ، ولم

نسترد قوانا من كآبة وأحزان هذه القصة التي استحوذت علينا ، قبل أن يتقدم شاب يهودي بالتماس لمقابلة القتصل مباشرة ، فأخذ إلى إحدى الغرف . كان من الصعب عليه أن يعبر عما في نفسه بسبب هياجه وانفعاله . لقد تضرع بالإلتماس له بالذهاب مع المترجمين للبحث في السجون التابعة للقنصلية الإنجليزية عن سلسلة حديد سبق وأن شاهدها تستخدم لتوثيق رباط السجناء ، وعندما سئل عن الغرض الذي يريدها من أجله ، انفجر بالبكاء تذرف عيناه الدموع وقال إن أمه (التي كانت تدعى الملكة ايستر محظية الباشا) بين الحياة والموت في القلعة مقيدة بسلسلة من الحديد تقييداً شديداً ومؤلماً ، سيقطع رسغاها وقدماها وإنها لابد وأن تموت من شدة ما تقاسي من آلام ومتاعب ، إذا لم تنقذ حياتها في الحال ، وقد وافق الأتراك اللاإنسانيون على إبدال تلك السلسلة بأخرى أسهل منها وأخف ، وإلا فإنها ستظل ترزح تحت أعباء القيود والأصفاد الثقيلة .

يبدو كأن القصة نسج من الخيال أن تسمع من ذلك الشاب البائس التماساً يطلب فيه سلسلة من حديد تربط بها (ايستر) التي كانت منذ وقت قصير تلك السيدة التي تتمتع بأعظم أنواع الراحة والهناء ، بل كانت أسعد امرأة في طرابلس . لهذا أجيب طلبه في الحال وأرسلت السلسلة مباشرة ، وبذل المزيد من الإهتمام بقضية (ايستر) بقدر ما نسمح به الظروف ، فمثل هذا الجهد الذي لا بد وأن يخدمها سيجذب انتباه أولئك الذين حول القلعة الذين كانوا قادرين على التحدث عن مصلحتها . لقد أخبر التركي (ايستر الكبرى) بوجوب تقديم مائة ألف (باتاك) (خمسة آلاف باون) حالاً ، وإلا فإنها ستربط بالأغلال من يديها ورجليها ، وعليها أن تجيب طلب الطاغية إما عيناً نقداً وعداً وإما ما يقابل ذلك المبلغ من الحلي والمجوهرات ، لأنه لا يقبل مطلقاً عملة ورقية . تقدمت أسرتها بمبلغ يعادل ضعف المطلوب تقريباً إلى التركي ، إذا أبقى على حياة (ايستر) حتى تستطيع أن توفر المال المطلوب من ليغورن لأنه ليس بوسعهم دفع المبلغ المذكور نقداً وعداً ، إلا أننا نتمنى أن يهيىء اليهود ذلك المبلغ من السكوين ، لينقذوا حياة هذه المرأة البائسة من الموت المحيق بها .

يغادر الباشا والبك وسيدي يوسف طرابلس إلى تونس عن الطريق البري ، على أمل أن يعودوا في الحال بعد أن يحصلوا على نجدة ودعم من بلاط طرابلس. وكما كان إذن ، عهد الطاغية ، ليس طويل الأمد ، فإنه لا يفوت لحظة من وقته دون أن يستغلها أحسن استغلال لسلب أموال سكان المدينة ونهبها قبل رحيله، مستخدماً كل وسيلة لحملهم على التصريح عن كل ما يملكون ، حتى يتسنى له مصادرته حالاً .

١٨ أغسطس ١٧٩٣

حجر الصوان .

لم يغادر سيدي يوسف بعد إلى تونس . شدد حصار المدينة وأحكمه إحكاماً تاماً منذ وطئت أقدام الأتراك تراب طرابلس ، على الرغم من استمرار إطلاق القنابل من المدينة وقد حافظ على حصار المدينة حصاراً مؤثراً وفعالا ، هذا ولو أن الناس يقاسون من آلام المجاعة وليس بوسعهم الحصول على الشيء اليسير من المواد الغذائية من أبواب المدينة ، فإنهم يعانون كثيراً من التطلع إلى الكروم والبلح والبرتقال يتدلى بكل سخاء ووفرة في البساتين بينما هم في قلب الحرارة اللافحة يتحسرون لوعة على قليل من تلك الأثمار المنعشة . تستحوذ عليهم في الوقت نفسه مشاعر الحزن والكآبة بمشاهدة أعداد كبيرة من قطعان المواشي وكميات هائلة من الخضر تستهلكها الأعداد الكبيرة من الناس داخل الأسوار ، بينما لا يوجد شيء في الظاهر يمكن أن يؤكل في المدينة ، وهم يخاطرون بأنفسهم ، ويدفعون خمسة أضعاف السعر المعتاد ، عندما يحاولون، بعض الأحيان، الحصول على شيء منها إلى النصارى. أترك لك الحكم على الوضعية التي نعيش فيها من تلك القصة . لقد دفع البربر في المنشية صباح هذا اليوم سعراً عالياً للحصول على حجر الصوان لبنادقهم على أبواب المدينة . ومن بين أولئك الناس بعض الذين باعوا تلك الأحجار الصوانية قد تم إلقاء القبض عليهم وأجري التحقيق معهم وسينفذ فيهم حكم الإعدام باعتبارهم خونة .

لقد شعر سيدي يوسف بالحاجة الشديدة إلى حجر الصوان ، لأنه يوجد بكميات وفيرة في معظم الأقطار الأخرى ولا يمكن العثور عليه هنا .

١٨ أغسطس ١٧٩٣

من المتوقع أن يستدعي علي بن زوول الأعراب الغربيين لنجدته ، إذا كانت لديه الكنوز الكافية لإشباع وتطمين تلك القوات الإحتياطية ، التي تتفوق في جشعها بمحبة المال والسلاح على القبائل المحيطة بطرابلس ، وأنه سينجح في ضمهم إلى صفوفه بالرغم من الولاء المدينين به إلى الباشا لأنهم رعاياه . يؤلف الأعراب الغربيون خليطاً يتميز بأسوأ الخصائص من الخلق العربي ، فلا ذمة ولا أمانة ولا كرم عندهم ، تلك الصفات التي تتوافر في العرب شرقي طرابلس بدرجة عالية ؛ بالإضافة إلى أنهم من حيث الخلقة أقل وسامة وطراقة من العرب في الشرق .

نتمنى مبتهلين ، على كل حال ، ليس من أجل الطرابلسيين وإنما من أجل النصارى أيضاً ، أن يفشل علي بن زوول في الحصول على المال الكافي لاستخدام تلك القبائل ، التي تكره إسم النصارى ، فإنهم لم ينسوا الأسباب التاريخية العالقة في أذهانهم لتلك الكراهية التي انحدرت اليهم من أسلافهم ، والذين أثارت عواطفهم وأججت مشاعرهم المظالم والفظائع التي ارتكبها الصليبيون ، عندما أريقت دماء أبناء بلادهم بوحشية، لا لذنب جنته أيديهم غير أنهم يستظلون براية الإسلام . ومنذ ذلك الحين فإن اسم أي نصراني يعيد إلى ذاكرة أولئك الناس تلك الفظائع البشعة في مختلف أقطار شرقي البحر المتوسط .

أكد القسم غير المتمدن من مجتماتهم في افريقيا وآسيا الشعور بالكراهية فنقلوا ذلك الشعور من جيل إلى جيل ولقنوه لأطفالهم. فلم تستطع سبعمائة سنة أن تمحو من أذهان العرب الأميين بأن الزراعة والتجارة والفنون الجميلة قد قضى عليها النصارى ودفنوها وأهالوا التراب عليها تحت أنقاض الإمبراطوريات العربية الإسلامية .

دخل العرب الغربيون ، الذين سبق وأن ذكرتهم لك ، المدينة ليقدموا العون إلى الباشا ، وانسحبوا معه حين غادر طرابلس ، ولم يعد الآن معروفاً فيما إذا عادوا إلى صحاريهم أو أنهم انضموا إلى صفوف سيدي يوسف ، ولكن حين شاهدنا القائد الآخر من أتباع سيدي يوسف أعلمنا بأن تحت إمرته عشرة آلاف رجل محارب مستعد لمقاومة التركي فلابد وأن تكون القبائل الغربية قد انضمت اليه وألفت جزءاً من ذلك العدد ، وبكل تأكيد فإنهم يضمنون دخوله إلى طرابلس .

ونتيجة لأنباء الفظائع التي نسمع بها ، والتي اقترفها التركي ، والمنايا المحيقة بكل من البائسين الشقيين سيدي البوني وايستر اليهودية ، فنحن حذرون جداً في طلب المزيد من البحث والتحقيق عن أسماء السجناء المحتجزين في الوقت الحاضر في القلعة ، فنتحاشى سماع أنباء المآسي والآلام لأولئك الناس الذين تربطنا بهم روابط المودة الوثيقة وتشدنا اليهم وشائج الصداقة المتينة. لا تزال اللالة فاطمة شقيقة سيدي يوسف التي يحبها حباً جماً تبعث إليه بالرسائل السرية بالرغم من قساوة التركي وانتقامه ، وبسبب ما لديه من عيون وأرصاد فإن الإسرة ترتجف خوفاً وخشية على سلامة حياتها .

ولا تزال اللالة زنوبيا ابنة البك الراحل البائسة على قيد الحياة ، محتجزة من قبل التركي في القلعة ، ومن النادر جداً أن تتناول القليل من الطعام أو أن تغمض عينيها إلا أنها تعيش في جزء من القصر الذي يطل على البحر ، لا يسمح لها بالإحتفاظ بواحدة من خادماتها إلا عندما تقتضي الحاجة ذلك. كما إن حجرتها وقسماً من فتحات شرفات القلعة التي تطل على المنشية ، حيث تمد فيها ببصرها ليلاً ونهاراً، هي حدود نزهتها، ليس بوسع أي واحد أن يقنعها بتوسيع أبعاد نزهتها ، وهي تقول بأن الدرب خال وحر أمامها للذهاب والانضمام إلى أمها الحزينة التي لا زالت مع اللالة حلومة . كما ان قبر أبيها في المقبرة الملكية القريبة جداً من القلعة ، فإنه يكون العزاء الوحيد والسلوى الكبرى ، وفقاً لأفكار البربر وتقاليدهم ، خاصة إلى زنوبيا وهي في آلامها ومآسيها الحاضرة

لو كان بقدرتها القيام بزيارته . وتقول هناك لا بد وأن تمضي القسم الأكبر من النهار في اختيار ألطف الزهور وتنظيم أجمل الباقات وأكثرها روعة لوضعها باسلوب جميل جداً على قبور أجدادها . ولكن الخروج من القلعة محرم عليها بالأوامر الصادرة من التركي ، التي لا يجرؤ أي واحد على مخالفتها .

سبق وأن أرسل التركي كل العبيد السود والبيض الذين استطاع جمعهم في القلعة كبضائع تجارية لبيعها في أسواق النخاسة في آسيا ،وسيكون بإمكانه جمع أموال طائلة من أثمان أولئك العبيد ، كما يوجد عدد من الجواري والعبيد السود لدى الأسرة المالكة من الذين لا تقدّر أثمانهم .

لم يخرج التركي في موكب عام في المدينة ، ولم يقم فريضة الصلاة في أحد قبور المرابطين أو المساجد ، عندما اعتلى العرش ، ولكننا نشاهده يتنزه في شرفات القلعة وأروقتها يومياً ، يحيط به عدد من الحراس الأتراك .

يكون اليهود ، في هذا الوقت قد أبحروا إلى أوروبا ، إلا أن التركي كان حذراً ويقظاً في منع أي واحد في الوقت المناسب من مغادرة المدينة ، على الأقل ، قبل أن يتأكد من الوضع المالي لكل واحد : فيصادر المقدار الذي يناسبه من أملاكه التي يراها حقاً من حقوقه .

لا تزال الحوانيت والدكاكين كلها مغلقة تقريباً . ولم تظهر بعد أية إشارة لاستئناف الأعمال التجارية . ومن النادر أن تشاهد رجلاً واحداً يمشي في الأزقة والشوارع والأبواب مغلقة غلقاً محكماً ومحروسة بالجنود الأتراك ، وقد تم الاستغناء عن خدمة كل الحراس البربر في الوقت الحاضر . يتألف حراس أبواب المدينة ومركز الشرطة في المدينة والحراس الليليون على الأكثر من المشاغبين المعربدين الأتراك ، فليس في قلوبهم رحمة أو شفقة على اليهود ويسيئون معاملة أي بربري يلتقون به ويتجاسرون على إقلاقهم .

إستمرت السفن التركية بالدخول والخروج إلى الميناء . من المفروض أنها أبحرت على طول الساحل لتشتري ما يبيعه البربر في مختلف الأماكن . وعلى كل حال فإن التركي لا يتوقع أن يحتفظ بقاعدته في هذه المدينة ، في ظل

الظروف المزعجة القائمة ، بسبب قلة المواد الغذائية واتحاد السكان واتفاق الرأي فيها ، وتحين السكان الفرصة المناسبة فقط للتخلص منه .

٢٢ أغسطس ١٧٩٣

تفقد احوال الاسرة الحاكمة قبل السفر ·
عهد الالة حلومة ·

نأمل غداً الصعود على ظهر السفينة ، لهذا قمنا اليوم للمرة الأخيرة بزيارة كل أفراد أسرة الباشا الذين هم الآن خارج القلعة . ذهبنا أولاً لزيارة كريماته ، اللالة عويشة واللالة فاطمة ؛ وكلتاهما قد غادرتا القلعة . يحتفظ زوج أولى هاتين الأميرتين بمنصبه السابق في ظل التركي ، ولا يزال يقوم برئاسة الميناء . وجدنا اللالة عويشة ، كما توقعنا ، ترزح تحت أعباء أعظم البلايا أو الرزايا حزناً على مصير الباشا والبك . أخبرتنا عن قصة مغادرة الباشا للقلعة في منتصف الليل ، يساعده أولئك الموظفون الذين تربطهم وشائج متينة ووثيقة ليتبعوه في آلامه ونكباته ، قد أغمي عليه ثلاث مرات وهو على ظهر حصانه قبل أن يدرك أبواب المدينة . وقد حاول البك مرتين ؛ وهو في حالته المحزنة هذه ، العودة به إلى القلعة خشية على حياته ؛ وخوفاً من أن يلفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يغادر المدينة .

لقد جمعت الأسرة صندوقاً من المال والمجوهرات قبل أن يترك الباشا القلعة ، فحمل معه ، إلا أن الأعراب الذين كانوا في صحبته كسروه ونهبوا كل ما فيه من مال ومجوهرات وهو لا يزال على الأبواب . فقد اغتنم هؤلاء الأعراب فرصة الصخب والضجيج والقلق حين مغادرتهم المدينة لفتح الصندوق وانتزاع كل ما فيه ورموا الصندوق خشباً فارغاً . كانوا من الأعراب الغربيين المشهورين بغدرهم وخيانتهم .

لم تستطع سيدة واحدة من اللواتي قمنا بزيارتهن أن تطلع على الحد الأدنى من الأنباء عما كان يجري في القلعة ، وكل ما كان يعنيهم من الأنباء ، أنه لم

تنفذ أحكام الإعدام بأي واحد من الأسرى الملكيين ، وبالنتيجة فإن كل من لا يزال على قيد الحياة من الأسرة فهو يعيش بأمن وسلام . ولكنهن يرتجفن خوفاً وألماً على مصير زنوبيا الشابة الرائعة الجمال (كريمة البك الكبرى) التي لا تزال بأيدي الطاغية. وقد تم أخذ كل العبيد والسيدات المخلصات منها ، وخصصت لها مجموعة من الخادمات بأمر التركي ، وباختياره الشخصي . ولهذا فهي ليست قادرة على أن تبعث بكلمة إلى أسرتها إلا بواسطة تلك الجاسوسات اللواتي تعتمد حياتهن على إرادة التركي . أعلمتنا السيدات الملكيات البائسات بأن هذه النكبات المتتالية قد عجلت بموت اللالة حلومة . قالت اللالة عويشة : « إنك ستجدينها مجردة من المقام ومحرومة من الصحة » .

استطاعت السيدات من أسرة الباشا أن يحتفظن بالقسم الأكبر من حليهن ومجوهراتهن من سلب الأتراك ونهبهم . فقد غادرن القلعة في اللحظات الأولى من الشغب والفوضى محملات بكل ما لديهن من مجوهرات وحلى ، معتمدات وواثقات بتقاليد الشرق وقوانين محمد ، التي تعتبر حياة كل أشخاص الأسرة المالكة مقدسة ومحرمة في حالة الحرب . وبالرغم من نجاح الأميرات في المرور من القلعة خلال فترة دخول الأتراك ، إلا أن أوامر صدرت في الحال تمنع خروج كل سيدات الأسرة المالكة باستثناء اللالة عائشة ، أرملة البك الراحل ، الكئيبة الحزينة ، التي أرغمها الأتراك على البقاء داخل القصر بينما احتفظوا بابنتها هنـــاك .

بعد أن أمضينا مع الأميرات السيئات الحظ أطول فترة ممكنة من الزمن ، تركناهن بأسف عظيم وفرحنا بزيارة اللالة حلومة زوجة البك ، وكانت معها اللالة حويوه ، وأرملة البك الراحل اللالة عائشة . وهنا من الصعب حقاً أن أصف لك المشهد الذي رأيته : كانت السيدة الأولى التي قابلناها اللالة عائشة التي كانت تمضي الوقت في حزن وقلق صامتين ، وكانت تذرع الحجرة ببطء وهدوء جيئة وذهاباً ، وهي بين حفنة قليلة من الجواري السوداوات المخلصات الوفيات اللواتي بقين معها . كن مضطجعات على الأرض يتحدثن بصوت

خافت ، ويندبن ويبكين أحزانها وآلامها . كان شعر رأس اللالة عائشة الجميل منثوراً على كتفيها بدلا من أن يزين بالذهب والمجوهرات والحلى كما اعتدنا رؤيته من قبل ، والدموع تنهمر بغزارة على خديها الشاحبين شحوب الموت . سرعان ما انتبهت لمجيئنا ، وبألم شديد انفجرت تلفظ اسم ابنتها قائلة : « اللالة زنوبيا تبقى محجوزة في القلعة في يدي الطاغية ، سيدي البك يقطع إرباً إرباً، لوكان الآن حاضراً ليحمي طفلته ! » كانت الجواري السوداوات على أتم الإستعداد للإنفجار بالعويل والصراخ بعد النظر إلى حزن سيدتهن المتزايد ، إلا أن اللالة عائشة أوقفتهن ، صارخة بصوت مرتعش قائلة : « إن أنتن صرختن وأعولتن فإنكن تخالفن أمر الطاغية وبذلك سيحنق على طفلتي فيقتلها ! » وفي تلك اللحظة خارت قواها وتغلبت عليها عواطفها فأسرعت النسوة لمد يد العون لها ووضعها على إحدى الأرائك، حيث بدت لفترة من الزمن وكأنها جثة هامدة بدون حياة . وبعد أن استفاقت واستردت قوتها ، صحبتنا إلى اللالة حلومة وقد أنبت نفسها كثيراً لأنها أخرتنا كثيراً من المجيء إليها .

قالت : « أرى جيداً بأن الرياح نفسها تتجمع الآن والتي من القضاء والقدر أن تهب لتدفعكم من سواحل طرابلس ، وهذه هي آخر مرة نراكم فيها » .

يجب علينا أن نقطع مسافة قصيرة للوصول إلى حجرة اللالة حلومة . إذ لا توجد ممرات تحت الأرض ولا أروقة كما هو الحال في القلعة ، ولا توجد هنا حشود الخدم والحرس والجواري بأعداد كبيرة ، كما كنا في الغالب مضطرين للإنتظار زمناً طويلاً قبل أن يتم إخلاء الطريق لنا لنمر به لزيـــارة سيدتهن .

استقبلتنا اللالة حلومة استقبالاً رائعاً ولطيفاً جداً . أبدت ، كما هو المعتاد ، كل رقة ووداعة ، ولكن الهزال الشديد واضح كل الوضوح على وجهها بسبب الصدمات المتوالية عليها . تحدثت بأناة وصبر شديدين ، وبكل تقشف وتواضع بعد ان درساً شديداً لأحسن نصراني ، ولو أنه درس مقدم من قبل سيدة

مسلمة . لم تتغير ملامحها الحلوة الجميلة التي كنا نراها د ائماً مرتسمة على وجهها ولكن شحوباً واضحاً على وجهها ينذر باقتراب يد الموت منها ! فليس هنالك ستائر ذهبية تحيط بسريرها ، ولا مخاصي ينتظرون على باب حجرتها . أي تغير هذا ! ومنذ أيام قليلة جداً كانت سعادة وهناء الآخرين تعتمد وتتوقف على ابتسامة منها ، أما اليوم فإن أحط فرد من أفراد الرعية في طرابلس يتمتع بهناء أكثر ، لأنهم لم يعرفوا عظمتها ومجدها . ولم تحط بها غير عشر جواري مخلصات وفيات ، بينما كانت تتكىء وهي جالسة على يدي امرأتين بيضاوين على السرير ، أو على أريكتها ، التي كانت تجلس عليها .

شكرتنا مرات عديدة ، بصوت خافت ، ورجتنا المجيء ثانية إليها قبل مغادرة البلاد. وتحدثت في أكثر الأساليب ألماً وحزناً وإثارة للأشجان ووصفت لنا رحيل الباشا من القلعة . لقد حاول أن يهدىء من روعها بالتأكيد لها بأنه سيبعث لها بحرس من تونس، ورجاها أن تتذكر بأنه، وفقاً للقوانين الإسلامية، فإن الأشخاص من مرتبتها الإجتماعية هم في أمن وسلام تامين في وسط المعارك الحربية (١) .

رأته للمرة الأخيرة من شرفات حجراتها ، يخترق وسط حوش الحرم ، عندما خانته قواه ، وشاهدته محمولاً على أيدي حرسه الأسود ، يتبعه بك بنغازي وسيدي أحمد . جعل قلق اللالة حلومة على حياة الباشا وضعيتها الآن مليئة بالآلام والمخاوف ، حتى أسرعت إليها نساؤها من فتحات شرفات القلعة (حيث كن يراقبن من هناك) ليخبرنها بأن الباشا قد تجاوز أبواب المدينة ووصل إلى السهل .

---

(١) لم تكن حماية سيدات الاسرة الحاكمة من كل اعتداء وتجاوز قد جعله النبي مبدأ يجب الالتزام به بدون سبب ، خاصة في بلاد تنعدم فيها وسائط السفر لنقلهن في الحال على الرمال المحرقة والجبال المنحدرة ، بعيدات عن قسوة وعنف وغضب العدو . ولهذا اعلن وجوب احترامهن شخصيا حتى ولو كن في معسكر العدو .

بعد مغادرة الباشا مباشرة تركت اللالة حلومة القلعة بصحبة زوجة ابنها ، اللالة عائشة ، وعدد قليل جداً من الخدم وجاءت إلى المنزل الذي تسكن فيه الآن ، ولكن صوت اللالة حلومة خانها عندما همت بالحديث عن إكراهها واضطرارها لترك اللالة زنوبيا حفيدتها البارعة الجمال ، في يدي الطاغية المغتصب في القلعة .

بعد أن انتهت هذه السيدة الكثيبة الحزينة قصتها المؤلمة عن آخر أمسية أليمة لها في القلعة ، عبرت في لغة شرقية فريدة مليئة بالأمثال والمصطلحات قائلة (مشيرة إلى مغادرة القنصل من طرابلس في نفس الفترة) : « آه لقد ربطت يد القدر شمس القنصل بشمس الباشا ربطاً وثيقاً ، يشرقان سوية في الصباح ويغربان سوية في المساء ، ولكن قد يوقظ شمسيهما النبي في فجر يوم أبلج ، ذلك الفجر الذي من الصعب حقاً أن أكحل عيني بألق شعاعه ثانية » .

لقد كان عهد اللالة حلومة فترة تزينها الرحمة والرأفة المستمرة ، وقد كان بفضل ما تتمتع به من مكانة مرموقة في قلب الباشا أن استطاعت أن تحول دون تطبيق عدد كبير من القوانين الوحشية القاسية خلال الأعوام العشرة الأخيرة ، لقد حالت دون الإستمرار بتطبيق التقليد الوحشي الذي كان قائماً ويقضي برمي سيدات بربريات في البحر مربوطات في أكياس مصنوعة من القنب وبوضع أحجار معهن حتى يغرقن بسرعة ، عقاباً لهن على ما جنت أيديهن من إثم أغراهن إليه النصارى .

كل الفنادق (التي تستقبل المسافرين) التي بنيت خلال عهد الباشا ، أقترح إنشاؤها وأقيمت على حسابها ؛ لا يزال أحد تلك الفنادق قائماً حتى وقتنا الحاضر ولم يتم بناؤه بعد .

بقينا مع اللالة حلومة السيئة الطالع أطول فترة ممكنة وعدنا بعدها بدون خطر ، حتى أنها أعادت إلى ذاكرتنا بأن حالة طرابلس قد تغيرت وأنه لا وجود بعد لسلطانها حتى تأخذ كل حيطة لضمان أمننا وسلامتنا ، كما كانت تقوم بذلك من قبل ، أو تحمينا الآن من الأوباش الأتراك . تركناها بأسف

عظيم جداً ، مقتنعين تماماً بحقيقة ما فاهت به من كلمات ، عن آلامها ومآسيها وأحزانها التي سوف لا يطون بها الزمن .

٢٣ أغسطس ١٧٩٣

حفلة وداعية .

أمضينا أمسية الوداع في منزل القنصلية البندقية البارحة ، حيث حضر الأمسية كافة أصدقائنا النصارى لتوديعنا . ولقد بقي بعض ضباط السفن التي سنبحر معهم على الساحل حتى ساعة متأخرة . وخلال تلك الأمسية كان البربر يقدمون باستمرار ليعبروا عن عظيم أسفهم في أقوى الكلمات أثراً وإحساساً على فراق القنصل الإنجليزي لبلادهم . كان عدد كبير منهم، من كل مرتبة ؛ التقوا بنا أمس في الشارع ، ومسحوا الدموع من عيونهم عندما مروا بالقنصل ، بينما كانوا يسمونه بصوت عال ، أحدهم للآخر : « بوي البلد » أي « ولد البلد » (أبو البلاد وابن البلاد) .

استمر سيدي يوسف طوال ليلة البارحة في قصف مدفعيته للمدينة ، وكل فرد يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه إذا لم يقع سيدي يوسف عن طريق الخيانة والغدر بأيدي التركي فلا بد وأن يحتل القلعة قريباً جداً . ولما كانت الفرصة سانحة لإبراد هذه الرسالة إلى ليغورن ؛ فسوف لا أحتفظ بها طويلاً كما كنت عازمة من قبل ولكنني سأكتب لك مرة ثانية وأنا في طريقي من هنا .

في البحر ، ١ سبتمبر ١٧٩٣

قصة جومارتي .

أبدأ بتحرير هذه الرسالة من على ظهر السفينة أيريس ، حيث يبدو الإهتمام والرعاية بمشاعرنا وأحاسيسنا ووسائل راحتنا فيها شيء من المبالغة لو وصفتها لك. كان حظنا موفقاً جداً لأن نجد واحداً من تلك الشخصيات المتفوقة القوية ربانا

للسفينة هو « الكابتن لو مسديل » الذي يتولى قيادتها ، وهو من الشخصيات التي يندر وجودها ، ولا يمكن إعطاء صورة حقيقية عنه .

قبل أن نغادر طرابلس ، أخبرنا شيخ البلد ، الذي خاطر بالمجيء لتوديعنا ، بأن الباشا والبك وسيدي يوسف ، جميعهم ، كانوا في حديقة الباشا ، وأن الأعراب والبربر في البلاد قد عقدوا تضامناً معه ، ليحول دون نهب التركي لخيرات البلاد ويحرمه من كل المصادر والموارد من المنشية ، من أجل أن يضطروه على مغادرة المدينة والتنازل عنها خوفاً من المجاعة . كنا سعداء جداً بالخبر الذي أنبأنا به شيخ البلد ، بأن الكخيا المتوفى ، حاج مراد ، زوج اللالة خدوجة ، إبنة الباشا الكبرى ، استطاع الهرب من الأتراك في نفس الليلة التي غادر بها الباشا القلعة ، بالرغم من تدبير التركي مؤامرة ضده لإلقاء القبض عليه ، وبسبب فشل تلك المؤامرة أودع أحد الضباط التابعين للتركي المغتصب في السجن بضعة أيام ، يلاقي أمر العذاب . أرسل هذا الضابط من على ظهر السفينة إلى الساحل برسالة إلى حاج مراد ، في المساء الأول الذي ألقى الأسطول التركي مراسيه في ميناء طرابلس . حين لم ير التركي الكخيا قادماً إلى السفينة مع موظفي الباشا الذي طلب حضورهم ، أمر ضابطه أن يذهب حالاً إلى حاج مراد ، ويعرض عليه حرية اختيار أي منصب يرغب فيه ، الذي يجب أن يعطى له في لحظة نزوله إلى الساحل ، ولكن علي بن زوول أمر الضابط بأن لا يعود إلى السفينة بدون الكخيا . إلا أن حاج مراد خشي من أن يبدي رفضه للضابط التركي فيثير حذره ويقظته ، وبذلك يضع نفسه في قبضة التركي بل إنه تظاهر في قبول واستحسان العرض الذي قدم له ، فترك الضابط بنية ظاهرة في الإنضمام إليه ثانية في الحال، ولكنه لف نفسه في جرد واستغل فرصة القلق والغموض التي سادت في ذلك المساء ، واستطاع أن يخرج مشياً على قدميه من منزله إلى المنشية . وبذلك أنقذ حياته . لقد أصر شيخ البلد ، الذي لم يكن موالياً للباشا أبداً بأن الفرمان الذي جلبه التركي صادر من السلطان التركي ، ولكنه لا يسعه إلا الإعتراف بمخاوفه من أن المدينة لا يمكنها الإستمرار

طويلاً بسبب الحاجة الماسة للمواد الغذائية إذ يصعب الحصول على أقل المواد الغذائية من المنشية دون معونة جماعة سيدي يوسف وبالسعر الذي ترتأيه .

ولما كان لدينا عدد من الأصدقاء البربر الذين في داخل وفي خارج أبواب المدينة، فإنهم يغتنمون فرصة توقف إطلاق النار ليحصلوا على كل شيء مساء من أجل رحيلنا .

صعدنا على ظهر السفينة من طرابلس في اليوم الثالث والعشرين من شهر أغسطس . وقد رافقنا جميع القناصل ما عدا القنصل الفرنسي إلى السفينة ، التي كانت راسية على بعد ميلين من رصيف الميناء، في قواربهم، حيث يستطيعون البقاء مدة قصيرة لأننا أبحرنا مباشرة (١) .

صعدنا على ظهر السفينة يوم الجمعة (عطلة البربر) . كانت أبواب الميناء مغلقة بسبب صلاة الجمعة ، فاضطررنا للنزول من السلالم الخاصة بالغرفة التي يجلس فيها رئيس الميناء وكان عملنا ذلك مخاطرة جسيمة خفنا معها أن تكسر رقابنا ، لأن السلالم كانت مظلمة متهدمة لم تمتد إليها يد الترميم . ومنذ شهر مضى ، لو كنا قد مررنا بغرفة رئيس الميناء لأصطحبنا بنفسه إلى قواربنا . ولكن الزمن الذي ينتظر فيه النصارى شيئاً من المجاملات في طرابلس قد ولى وانقضى ، ولا يمكن أن يلتمسوا فضلاً من الأتراك ، فقد يرفضون ذلك ؛ ولذا كان يظن من الأفضل لنا أن نسلك إلى القوارب هذا الدرب .

لقد غيرت أيام قليلة الميناء تغييراً كلياً : يوجد فيه جزء تقوم عليه بقايا وحطام قلعة قديمة لها ظلال سميكة باردة ومنعشة ، حين تغيب الشمس في المغرب ، ونعني بذلك أن نقدم فرصة مناسبة للتمتع بأنسام منعشة قبل غلق أبواب الميناء قبيل غروب الشمس ، فهي نعمة عظيمة في أشهر الصيف . يوفر هذا المحل منتزهاً للبربر من الطبقة الممتازة، يقضون الأماسي يتمتعون ببرودة الأنسام المنعشة الهابة من البحر ، وحيث تمضي ساعات عديدة من المتعة والراحة

---

(١) لوكاس ، الرحالة ، الذي كان صديقا لي هو الذي تولى شؤون القنصلية بعد رحيل المستر رتشارد تولي .

فإنه الآن مزدحم بالأتراك الذين يتطاير الشر من عيونهم وترتسم الشكوك على وجوههم .

وخوفاً من أن نرى المزيد من سوء المعاملة والقسوة للبربر واليهود أسرعنا الخطى إلى المكان الذي تنتظر فيه القوارب لنقلنا إلى ظهر السفينة .

وحتى يوم صعودنا على ظهر السفينة ، حدثت مشاهد مروعة في الفظاعة والقسوة لعدد من الأفراد باستمرار ، ولذا لم تتخذ حيطة عظيمة وتحفظات مستمرة من قبل القناصل، لمنع حتى أتباع علي بن زوول من أن يغتنموا أية فرصة للإيقاع بأبسط الرعايا وأدناهم مرتبة من التابعين للقنصليات، فإن هذا الطاغية غير المتمدن سرعان ما يضع يده القاضية على كل من يلجأ إلى القنصليات وعلى كل من لا يلجأ. يتطلب الأمر من النصارى أعظم مقدار من اليقظة والمراقبة والحذر والتسامح والإعتدال ، ويحرصون بأنفسهم للحصول على الإحترام والتقدير من قبل الأتراك ، ويدافعون عن الخدم النصارى كي لا يقع عليهم اعتداء ، في المسافة القصيرة التي يجب علينا أن نمر بها في المدينة . رافقنا الحرس التركي إلى ساحل البحر ، إلا أن الرعب من سكاكينهم المخيفة المشهورة ، التي يحملونها بأيديهم ، كنا نخشى أن يمر بائس من عابري السبيل الفقراء ، فيعترض طريقنا ، فإنه ولا شك سيجعل وضعيتنا مؤلمة جداً ، حتى أمروا بالإنصراف عند دخولنا إلى القوارب . وفي مساء اليوم الذي سبق رحيلنا أصدر التركي أمراً يقضي بتعيين « جومارتي » أحد الوجهاء البربر ، الذي كان خائناً للباشا ومن أشد المتحمسين لمعاونة التركي في الإستيلاء على طرابلس ، سفيراً له في القسطنطينية وقد قبل ذلك المنصب بكل شرف واعتزاز . كان « جومارتي » سعيداً بنتيجة هذه السفارة فأعد كل الترتيبات لإضفاء أعظم مراسم الفخامة والأبهة التي يمكن القيام بها ، وقد كان في كل مطالبه موضع إطراء ومديح من قبل التركي. إلا أن علي بن زوول لم يجرؤ على الثقة بهذه السفارة إلى القسطنطينية مع كل ما رأت عيناه من مشاهد في طرابلس ونقلها إلى الباب العالي ، فقرر أن يصدر أمراً بالحكم عليه بالإعدام حالما تطأ قدماه سالماً ظهر السفينة، وعندما

دخل « جومارتي » الحجرة في السفينة تقدم إليه حارسان أسودان من القلعة وقبضا عليه وشنقاه . وهكذا فقد دفع ثمن غدره وخيانته هذه البلاد .

في صباح اليوم الذي غادرنا فيه طرابلس ، كان من المتوقع أن يشن سيدي يوسف هجوماً أخيراً لمحاولة الدخول إلى المدينة . رحل الباشا مع إحدى القوافل إلى تونس ، وقد استطاع أن يمر دون أن يتعرض إلى أية مضايقة من الأعراب ، هذا برهان آخر يدل على شرف وكرم أولئك الناس . وحتى الشيوخ العرب الذين قد أسهموا في معارضته والوقوف ضده ، والذين كانوا يتذمرون من عدد المظالم التي لم ينصفهم الباشا عليها ، قد اتفقوا جميعاً على حمايته ، وفرضوا سيطرتهم على كل القبائل التي قد تتعرض له وهو في طريقه، وعللوا ذلك، بأن الباشا قد وضع نفسه وحياته بأيديهم ، وأن حالته الحاضرة مثال صارخ للظلم والإضطهاد التي سببها له ابنه ، وأنه أبعد من مملكته من قبـــل طاغية مغتصب .

إن إمارة العرب وسيادتهم من أكثر الأمور عظمة وهيبة . يمكن القول حقاً ، بأنهم لم يمدوا سلطانهم على جهة واحدة من جهات العالم الأربع ، وإنما امتدت إمبراطوريتهم بكل نصر ونجاح من افريقيا حتى أطراف آسيا ، وأقاموا سادة في كل مكان ، بقبائلهم القوية الكثيرة العدد لمنع اتصال الأمم ، دون إذن خاص منهم . قد اعتادوا شظف الحياة في الصحراء وقساوتها ، وتحملوا ظروفها الصعبة التي لا يقوى غيرهم عليها ، يعتزون ويفخرون بنقاوة دمهم غير ملوث بالإختلاط بدم أي جنس آخر ، ويتباهون بأجدادهم العرب. يحتفظ الشيوخ العرب بالتحالف بعضهم مع البعض الآخر في الحماية والدفاع والمساعدة من أقصى أنحاء افريقيا وأبعد سواحلها على المحيط الأطلسي حتى قارة آسيا .

يقيم العرب مساكنهم في كهوف الجبال ومنعطفات سلاسلها ، التي يسهل الدفاع عنها بالقلاع المبنية من الصخور الشامخة والمواقع المنحدرة المخيفة ، التي جعلت منها الطبيعة مواقع حصينة يصعب اختراقها . إن جبال الأطلس

الواسعة مأهولة من قبلهم ، وبنفس الأسلوب يقطنون السلاسل المختلفة من الجبال في كل اتجاه تقريباً في جهتين من العالم . فبينما هم مبعثرون وموزعون على هيئة تلك المجاميع القوية ، التي تتميز بالقساوة والشظف في أسلوب معيشتهم ويتمتعون بالسياسة والحنكة والحكم القوي ، فلا عجب ولا غرابة إذن أن يبقوا سادة لكل الصحارى في افريقيا وآسيا تقريباً ، حتى الوقت الحاضر . يحصل الباشوات في مصر وأولئك الذين في آسيا على السلطة التي يتمتعون بها من السلطان التركي ، من أجل أن يستميلوا القبائل العربية بدفع مبالغ طائلة نشراء حمايتهم للقوافل والركبان المختلفة التي لا يمكنها أن تمر في طريقها إلى الحج دون أن تتعرض إلى خطر النهب والسلب ، وفي غيرها من المناطق في آسيا وافريقيا .

ماهون ، ٢٠ نوفمبر ١٧٩٣

سفر الاسرة الحاكمة الى تونس • احراق وكيليـن يهوديين • عهد علي القرمانلي •

لقد أخرت هذه الرسالة مدة أطول مما كنت أنتظر ، لأننا كنا نتوقع يومياً استلام الرسائل التي وصلتنا منذ وقت قصير من أصدقائنا في طرابلس ، وكنت مهتمة جداً بأن أطلعك على آخر الأنباء التي وصلتني عن تلك المدينة السيئة الطالع ، لأن هذه الرسالة من المحتمل أن تكون آخر فرصة أحرر لك فيها عن هذا الموضوع ، آملة أن أصل وأنضم إليك في أقرب فرصة ممكنة .

لقد علمنا من أصدقائنا في اليوم الذي أبحرنا فيه أن الطاغية التركي المغتصب للسلطة ازداد في تدميره وإرهابه للناس ، وفي اضطهاده وظلمه للأسرة الحاكمة ، والتي يكن لها حقداً أسود خاصة بعد أن استطاعت زنوبيا الجميلة (بمعونة البربر) أن تهرب إلى أمها .

بعد سفرنا ببضعة أسابيع من طرابلس ، انتزع علي بن زوول من سيدات

أسرة الباشا اللواتي كن في قبضة يديه وتحت سيطرته، كل ما يملكن من حلى ومجوهرات وملابس ومن ثم وضعهن على ظهر سفينة فرنسية صغيرة عليها مائة وخمسون شخصاً آخرين واضطرهم أن يبحروا دون طعام إلى ساحل تونس ؛ ولم يوجد في تلك الأثناء ربابنة نصارى في ميناء طرابلس ، ليجهزوهم بالماء والبسكوت ؛ فلا بد وأنهم قد هلكوا وماتوا .

لقد خان شيخ طرابلس سيدي يوسف ، بسبب رشوة مالية كبيرة تسلمها الشيخ من التركي . وحسب ما يقول هذا النبأ فانه والبك قد انسحبا من أمام أبواب المدينة إلى الصحارى في تونس ، لينضما إلى أبيهما في محاولة اقناع بلاط تونس للتدخل في صالحهم .

أعلن السلطان التركي ؛ نتيجة للفظائع والفتن التي ارتكبها التركي في طرابلس، الذي قام الذي الأعمال المدمرة دون موافقة السلطان ؛ بأنه أذن لدول بلاد البربر أعلان الحرب عليه . وكان (ميشيل آغا) أخو علي بن زوول، يعمل في أسطول السلطان التركي في الجزائر ، هو الآخر قد طرد من وظيفته .

تستعد تونس لإرسال عشرة الاف رجل محارب إلى طرابلس ليشنوا هجوماً ضد التركي بقيادة الاميرين الطرابلسيين (البك وسيدي يوسف) . لقد أظهر بك تونس صداقة ومودة عظيمة للباشا والذين استطاعوا أن يهربوا من طرابلس ليجدوا ملاذاً وملجأ في ممتلكاته ،وخصص أيضاً عدداً من المباني والمنازل للباشا والبك وسيدي يوسف خلال إقامتهم في بلاطه وأذن لهم بالبقاء هناك حتى يتمكنوا من استعادة مملكتهم .

كانت التنبؤات التي جاءت على لسان اللالة حلومة الممتازة ؛ أعلمتنا حين وداعنا لها ببعض الحقائق التي أصبحت واقعاً . اختبأت في حارة من حارات المدينة حيث ظلت بعيدة عن يد التركي الوغدة السافلة ؛ فقد وقعت هذه الاميرة ضحية لآلامها وأحزانها بعد رحيلنا ببضعة أيام . فقد وافاها الاجل المحتوم تحيط بها بعض الجواري السوداوات اللواتي منحتهن الحرية واثنتان من أسرتها هما اللالة عائشة وحفيدتها الرائعة الجمال زنوبيا التي هربت منذ

وقت قريب من القلعة كما أخبرتك في رسالتي الاخيرة .

يبدو أن اللالة خدوجة ، ابنة اللالة حلومة الكبرى ، حكم عليها القضاء والقدر أن تسهم بقسط وافر من الأحزان والآلام التي تعانيها أمها بالإضافة إلى سوء طالع ، لقد بدأت في الاحساس بها وهي لا تزال في مقتبل العمر . لقد أخبرتك في رسالتي الاخيرة بأن زوجها ، حاج مراد (الكخيا المتوفى) نجح في الهرب من يدي التركي في الليلة الاولى من وصول الاخير إلى طرابلس ؛ وللالة خدوجة أسرة كبيرة من الكخيا ، ومع أنها ، بناء على التقاليد المرعية في البلاد ، كانت مضطرة للزواج من رجل داخل في الاسلام ، فانها على العكس من معظم الاميرات البربريات ، بصبرها وأناتها ، وبعقلها وتعقلها ، عاشت عدداً من السنين معه حياة كلها سعادة هناء .

لم تبق اللالة خدوجة طويلاً في المنشية مع زوجها وكل أطفالها ، بعيدة ومطمئنة من يدي التركي ، وقد استطاعت الإفلات من إرسالها مع بقية أخواتها إلى تونس في السفينة الفرنسية بدون طعام ولا ماء قبل أن يحضر للدفاع عن سيده ، والد أميرته . ولولا ذلك لكان قد هرب مع أسرته إلى تونس ؛ ولكنه لا يستطيع رفض ذلك ، وفي المعركة الاخيرة التي خاضها متفانياً في دفاعه عن قضية الباشا ضد الطاغية المغتصب ، ذهب حاج مراد ضحية للأسلحة التركية أمام أبواب طرابلس ، حيث لم يفارق مركزه في ذلك اليوم من الأذان إلى غروب الشمس (كما قال البربر) . كانت اللالة خدوجة خلال الوقت كله ، تراقب القتال بين الفريقين من غرفة حاج مراد ، حيث كانت جواريها السوداوات يخرجن ويعدن كل نصف ساعة ليجلبن لها أنباء انتصارات ذلك اليوم . وبينما كانت قلقة تنتظر على أحر من الجمر عودة الجواري السوداوات ، واذا بصراخ غير مألوف يدوي في المنشية كلها يعلن لقلب اللالة خدوجة الذي تنبأ بمصير زوجها . فقد دلت أغنية الموت (وبلاه وه) — التي لا تغنى الان الا للرؤساء — على أن المقتول كان حاج مراد . بينما كانت تتردد الأصداء في طول البلاد وعرضها ، كانت تتجمع الأصداء وتتراكم وترجع

أصداء الصراخ كلما اقتربت من منزل اللالة خدوجة التي ، بالاضافة الى أحزانها ومآسيها لفقدها حاج مراد ، كانت تنتابها آلام مبرحة من التفكير في عدم قدرتها على استرداد جثمانه . لقد قاتل البربر والأعراب سوية على أخذ الجثة زمناً طويلاً ، فحالوا دون تمزيق الجثة من قبل الأتراك، فاستطاعوا أخيراً على حمله إلى اللالة خدوجة السيئة الطالع ، التي دفنته في حديقته .

أحرق التركي الوحش ، بعد مغادرتنا طرابلس بمدة قليلة ، الوكيلين التابعين للقنصلين الانجليزي والهولندي ، اللذين كانا يهوديين ، على لهبان من النار البطيئة ، والقوا القبض على الطباخ البربري في منزل القنصلية الانجليزية الذي نفذ فيه حكم الاعدام شنقاً مع واحد وعشرين شخصاً بنفس الوقت متهمين بالتآمر ضده .

ألقي تاجر محترم اسمه (سيرووار) أحد رؤساء اليهود ، الذي عرفناه منذ عدة سنوات ، في غياهب السجن بنفس التهمة الملفقة ، ورقبته ورجلاه مقيدة بسلسلة ثقيلة جداً من الحديد ، التي كان يئن ويرزح تحت أعبائها الثقيلة ، ولم يسلم على حياته في الوقت الحاضر الا بعد دفع خمسين الف سيكوين (خمسة وعشرين الف باون استرليني) . ويهودي محترم آخر أيضاً اسمه (أبراهام) دفع أربعين الف سيكوين لينقذ حياة ولديه ولكن قبل أن يغادر هذا الرجل البائس القلعة تم تنفيذ حكم الإعدام بولديه ! !

بالاضافة إلى تلك الفظاعات التي ذكرتها لك والتي أرتكبها هذا الطاغية ، أروي لك القصة التالية : بعد حرق الوكيل التابع للقنصل الانجليزي ، أهدى التركي أرملته ، وهي عروس شابة جميلة ، والتي لم يتم زواجه بها إلاّ قبل شهر من رحيلنا عن مدينة طرابلس ، بعد أن استولى عليها الحزن ، لواحد من الأرناؤوط التابعين له ، من أولئك الذين هم أكثر وحشية وقساوة حتى من الأتراك أنفسهم ، يرجع أصل هؤلاء الغلاظ القلوب إلى البلدان الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود . ويشبهون في الخلقة والاخلاق جيرانهم الازبك ، التاتار المتوحشين ، الذين يتفوقون عليهم من الوجهة الحضارية — كالموك — تاتار ، وعلى الأرناؤوط

وهم أدنى قسم من الأتراك . يفترض الكثيرون بأن الأرناؤوط هم نفس الأقوام المعروفة باسم (ارجونوت) الذين قادهم (جاسون) إلى (كولشز مينجريلبا) من الخروف الذهبي.والارناؤوط مسلمون ، في طبـائعهم قساة ، دمويون ومتعجرفون ، ويعرفون في حياتهم لصوصاً وقطاع طرق ، يستخدمهم الأتراك في سفنهم قراصنة فيرتكبون أبشع الجرائم وأفظعها . وهم قصار القامة ، ضخام العظم ، عراض الأكتاف ، ضعاف البنية ، لهم سمات بارزة ، وعيونهـم سوداء صغيرة مدورة ، وبشرتهم شاحبة اللون . يرجع الارناؤوطي الذي تسلم من يد التركي القاسي القلب أرملة الوكيل التابع للقنصل الانجليزي إلى هذه الطائفة.جمع والدها الحائر، بعد بضعة أسابيع من هذا الحدث الفظيـع الف دولار (خمسمائة باون) ليدفع فدية ويستعيد طفلته السيئة الحظ مـن الارناؤوطي،وبالفدية يستطيع أن ينقذها من الرق ، واذا لم يدفع تلك الفدية فانها ستقضي كل أيام حياتها الباقية رقيقاً مقيداً باغلال العبودية وأصفادهـا .

لم يعود الطرابلسيون ، الذين يتوقعون كل يوم عودة الباشا والأمـراء يساعدهم التونسيون ، أنفسهم الخضوع للطغيان التركي ، بـل كانـوا يقاومونه في كل مجال عندماتسنح لهم الفرصة . تحول الجرائم البشعة الهائلة التي أرتكبها التركي من الرجوع إلى القسطنطينية ، والأمل كبير أن يتم القاء القبض عليه وحمله إلى الباب العالي ؛ قبل أن يستطيع إنقاذ رأسه في مصر : الملاذ المألوف الذي يلجأ اليه الهاربون من وجه العدالة والخارجون على القانون .

قد يؤدي طرد هذا الطاغية وعودة سلالة الباشا إلى إعادة طرابـلس إلى حالتها القديمة ومكانتها المرموقة المحترمة ، لأنها كانت تتمتع بسنوات طويلة بسمعة حسنة باعتبارها المملكة الاولى بين دول بلاد البربر ، لأن الجزائـر تستمر دولة قراصنة في الوقت الحاضر ، وحالة تونس أحسن بقليل .

ولكن هل يستمر سيدي يوسف في حرمان أخيه الثاني من حقه في الشرف الملكي ،إذ توجد أسباب وجيهة وقوية ندركها من التدابير الدموية التي تبناها حتى الآن مهما تكن حالة مدينة طرابلس من البؤس والدمار ، لأن خصائص

كثيرة من خلق سيدي يوسف تبدو وكأنها مستمدة من أخلاق الطاغية مولاي يزيد ، امبراطور مراكش الراحل ، الذي كان صديقاً حميماً له في شبابه .

تمتعت مدينة طرابلس على عهد علي باشا بحكم معتدل وهادىء مدة ثلاثين عاماً ولربما كان كثير الهدوء والوداعة من أجل صالح رعاياه . لقد أصيبت البلاد بكوارث وباء الطاعون الهائلة ، وما خلفته المجاعة والحروب الداخلية من آثار ، ومن سوء حظنا ، أن تحدث كل تلك الوقائع خلال أكبر فترة من الأعوام العشرة التي أمضيناها هناك، ولكن لم يسهم طغيان الباشا في مصائبها ونكباتها . كانت العائلات البربرية تخلد إلى مخادع نومها وهي آمنة مطمئنة في الهواء الطلق وعلى شرفات المنازل ، وتستيقظ صباحاً بكل سلام . وعاش النصارى ، الذين كان يعاملهم البربر بكل تقدير واحترام ، وفي كل المناسبات ، سعداء هانئين مع الوطنيين ، وهم أكثر أمناً وطمأنينة في هذه البلاد من أقطار بلاد البربر الأخرى ، حتى ثورة سيدي يوسف ضد أبيه وأخيه ، التي مزقت البلاد وعرضتها للمنازعات الداخلية ، وقادتها للوقوع في سلسلة من الفتن والاضطرابات ، جعلت المدينة مدة طويلة مسرحاً للاغتيال والتدمير ، وليس من السهل في الحاضر التنبؤ إلى أي متى ستنتهي .

جبل طارق ، ٣٠ أبريل ١٧٩٣

الاشتراك في عرش طرابلس · كيف استولى سيدي يوسف على الحكم ·

لا بد وأنك تسلمت رسائلي مع صحيفة طرابلس ، وبالإضافة اليها وصلتنا آخر الانباء التي تتعلق بتلك البلاد ، التي أبعثها اليك لتكون ملحقاً للبقية .

وصلتنا حزمة من الرسائل أمس من صديق حميم يسكن طرابلس ، والذي يكتب إليه علي باشا باللغة البربرية منذ حلوله في تونس .

تخبرنا تلك الرسائل بأن الأميرين ، البك وسيدي يوسف ، قد عادا إلى

طرابلس ، تساندهما قوات من تونس ، وأنهما استطاعا أن يطردا التركي من البلاد . انسحب التركي عن طريق البحر مع كل رجاله وسفنه ، ومن المعتقد بأنه أبحر إلى الإسكندرية (١) ولكن ليس قبل أن يتم له سلب ونهب ممتلكات كل سكان مدينة طرابلس تقريباً ، وأن يعدم عدداً منهم بأبشع الطرق وأكثرها عنفاً وقسوة .

ووفقاً للفرمانات الصادرة من السلطان التركي فقد اشترك في عرش طرابلس كل من بلك تونس وعلي باشا وبلك طرابلس وسيدي يوسف ، ولكن حالما أنهى الأميران تطهير طرابلس من الأتراك ، نفذ سيدي يوسف أحد مشروعاته ضد البك ، وبموجبه أغلق في وجهه كل إمكان في الوقت الحاضر ، للمطالبة بالعرش ، وقد تم تنفيذ ذلك حسب الصورة التالية :

لقد حذر البك أصدقاؤه ، أو أنه أدرك شخصياً ، منذ زمن طويل بعد رجوعه من طرابلس بأن لا يجازف بمغادرة المدينة وحده إلا بصحبة سيدي يوسف ، خوفاً من أن يدبر مكيدة ، ويقوم بعمل عدائي ضد مصلحته في غيابه ، أو يمنعه من الدخول إلى المدينة عند عودته . وفي يوم من الأيام خرج الأميران سوية إلى المنشية ، ونتيجة لسوء تفاهم نشب بين الأخوين ، فإن سيدي يوسف ترك أخاه فأدرك أبواب المدينة قبله ببضع دقائق ، وبدون إنذار سابق أغلقها في وجهه ، وبعدئذ أمره من وراء الأسوار أن ينسحب إلى مدينة (درنه) ويصبح البك عليها ، وأضاف أنه في حالة رفضه فإنه سيعدم أمام أسوار طرابلس . ولما لم يكن للبك مورد آخر ، أكره على الذهاب مع عدد قليل من الحاشية التي كانت معه إلى مدينة درنه ليتولى شؤونها بوصفه البك ، تاركاً أخاه ، سيدي يوسف ، بهدوء يعتلي العرش والياً على طرابلس(٢).

---

(١) انظر المقدمة .

(٢) اغتصب سيدي يوسف عرش طرابلس في ١١ يونيو ١٧٩٣ وحكم واليا عليها حتى سنة ١٨٣٢ ، وتوفي الباشا المخلوع في اغسطس ١٧٩٥ . انسحب احمد البك الى الاسكندرية وفي سنة ١٨٠٤ حاول الاميركيون في حربهم ضد طرابلس ان يقيموا أحمد واليا باشا على عرش طرابلس ولكن تلك المحاولة باءت بالفشل . فتوفي في المنفى . ـ يقول عمر بن اسماعيل ان يوسف تولى الولاية في سنة ١٧٩٥ (المترجم).

يبدو بأن ميل البك الحاضر للتنازل عن مملكته بكل هدوء ، يوفر له حياة أكثر سعادة وهناء في هذا الإنسحاب من الحياة التي خبرها منذ قبل : فهو ليس بحاجة ليغبط سيدي يوسف على العرش ، المحاط ، كما يجب ، بالأشباح والرؤى المخيفة المرعبة ، فإن كل ما يحيط به من أحداث يجب أن تذكره كل يوم وكل ساعة باغتيال البك الراحل الذي اغتيل بنفس الحجرة التي لا تزال مغلقة برهاناً ساطعاً على المشهد المؤلم الذي وقع فيها .

ومن حسن حظ سليمة الجميلة ، التي يمكنك الرجوع إلى قصتها (١) ، فإن زوجها سيدي محمود قد أبحر إلى السويد قبيل وصول التركي ببضعة أسابيع إلى طرابلس ، ومن هناك عاد الآن وبذلك أنقذ حياته من موت محقق على يدي الفاتح المغتصب القاسيتين اللتين اغتالتا بوحشية عدداً كبيراً . إلا أن سيدي محمود ، بعد رجوعه من السويد ، لاقى الكثير من الأحزان والآلام على حساب سليمة الجميلة ، كما كان الأمر بعد سفارته من نابلي ، عندما ظن بأنه قد فقدها نتيجة لإهماله .

في المعركة الأخيرة التي نشبت بين الأتراك والبربر ، وقبل أن يهرب الأميران إلى تونس كان النصر ، كما ينتظر أن ينتهي ، في صالح الأتراك . فقد هربت سليمة المرتعبة الخائفة مع طفليها من المنشية تبحث عن ملجأ أكثر أمناً وطمأنينة . فاقتيدت إلى الجبال من قبل شيخ عربي لقبيلة بني وليد ، الذي وعد بتوفير الحماية لها حتى يستطيع أن يرجعها بسلام إلى يدي سيدها ، الذي لم تكن تعلق على مجيئه بصيصاً من الأمل ، بل أنها فقدت كل أمل بلقائه ثانية . لم يساور قلب سليمة أدنى شك في قدرة الشيخ ، وفي قوة شكيمة الأعراب التابعين له ، الذين يؤلفون درعاً حصيناً يقيها من اعتداء العدو ، ولكن خانتها شجاعتها بالتفكير في الحالة التي تخيم على طرابلس ، حيث منع الطاغية التركي الإقتراب بأي وجيه من وجهاء البربر وأشرافهم ، إلا بتضحية حياته . أمضت سليمة البائسة بين سلاسل الجبال مع ولديها الصغيرين ، سلوتها الوحيدة ،

---

(١) انظر رسالة ٢٠ ديسمبر ١٧٩٢ .

الأيام الحرجة القاسية ، تنتظر قدوم سيدي محمود ، طوال اثني عشر شهراً . وقد حالت ظروف لجوئها إلى الجبال من لقائها بسيدي محمود بعد رجوعه مباشرة ، فأصبح من الضروري عليه أن يبحث عنها عند العرب ، الذين حافظوا عليها وعلى أولادها وممتلكاتها بكل شهامة وكرم ، خلال فترة من الزمان مليئة بالأخطار .

لا يتوقع الباشا أن تطول أيام حياته حتى يعود إلى طرابلس ، فقد انتابه مرض شديد في منزله الريفي في إحدى ضواحي تونس ، حيث فقد بوباء الطاعون الذي أصاب تلك البلاد مؤخراً ، مخصياً اسمه مرزوق ، كان في خدمته سنوات طويلة في طرابلس . يقولون بأن الباشا لم يرفع رأسه بعد أن سمع بوفاة ملكته السيئة الحظ اللالة حلومة .

أشعر بالأسف العميق لسيدي يوسف ، وبالأسى للطرابلسيين ، حيث يظل سيدي يوسف والياً على طرابلس ، وأخشى أيضاً أن يرتكب العديد من الجرائم ، فيزيد البلاد بؤساً ودماراً .

أضفت لهذه الرسالة ، لمعلوماتك ، بعض الكلمات البربرية مع معانيها ، ولكني أعتقد بأنني لم أدخل واحدة منها في رسائلي دون شرحها وتفسيرها.

الملحـــق (١)

١ – أيش حالك .
٢ – السلام عليكم .
٣ – عليكم السلام .
٤ – عروسة .
٥ – ولـــد .
٦ – بـــن .
٧ – بنّتي – تستعمل للتحبب – لطفلة أو صديقة .
٨ – رجـــل .
٩ – امرأة (زوجة) – امرأة الكخيا .
١٠– شيطان – روح شريرة .
١١– مخبول – مجنون .
١٢– الرسول – النبي .
١٣– الله – الله – الله – رسول الله ومحمد رسول الله (تلفظ هذه العبارات أمام الجنازة في طريقها إلى المقبرة) .
١٤– حلو – جميل .
١٥– جلوه – حلوى تصنع من اللوز والعسل المغلي على شكل فطائر سميكة .
١٦– قبـــة .

---

(١) الحقت الانسة (توللى) جدولا ببعض الكلمات التي تسميها (بربرية) رأينا من الافضل اثباتها كما جاءت (المترجم) ·

١٧- صباح - نجمة الصباح .
١٨- جبل (١) .
١٩- جبليون - سكان الجبال .
٢٠- ورأس الباشا - قسماً برأس الباشا .
٢١- ورأس أنت - قسماً برأسك .
٢٢- في الساعة - بسرعة في الحال .
٢٣- هولص - خبز .
٢٤- تراي - يجلب (تراي هولص في حوش أحمد)
٢٥- حوش - منزل .
٢٦- لبن - حليب .
٢٧- ملح .
٢٨- هــذا .
٢٩- مــوش - لا .
٣٠- ما تاموش - لا يوجد .
٣١- امشي - مشى (ذهب) .
٣٢- هــذه .
٣٣- توما - خذها (ليست عربية) .
٣٤- لوين - أين هي ؟ .
٣٥- أشنو هذا - ما هذا ؟ ما حل بك ؟ .
٣٦- آغــا - ضابط في الجيش .
٣٧- رئيس - ضابط في البحرية .
٣٨- سيلكتا أغا - حامل السيف .
٣٩- خازندار - صاحب الخزينة .

---

(١) جبل طارق مشتق من جبل - طور (المؤلفة) الاشتقاق خطأ لان الكلمة تكتب باللغة الانجليزية (جبرالتار) - المترجم .

٤٠– مولوي .
٤١– قادرين .
٤٢– صيـــاح .
٤٣– بكداشو . أسماء الجماعات الأربع المختلفة للشرفاء التابعين لمكة .
٤٤– شريف – لقب ديني يرجع إلى مكة .
٤٥– غزل – الحب الإلهي .
٤٦– عصمة (١) – أحد الأسماء الألف التي يطلقها الأتراك على الله .
٤٧– قطوس – قط .
٤٨– عين قطوس – عين خضراء اللون .
٤٩– تورو – ثور .
٥٠– عين ثورو – عين ثور .
٥١– غزال – الغزال الافريقي .
٥٢– زين – جميل .
٥٣– شعر (٢) – شعر الله – العدالة .
٥٤– توبة – الغفران .
٥٥– الله يبارك .
٥٦– حاج – المسلم الذي يؤدي فريضة الحج .
٥٧– كبير – عظيم .
٥٨– كبيرة – عظيمة – اللالة الكبيرة – ملكة طرابلس .
٥٩– كورالي – تركي (كولوغلي) .
٦٠– كوراليس – أتراك .

---

(١) غزل – عصمة : هي التحية التي يحيي بها اتباع الطرق الاربع عندما يلتقون بشريف او امام او مرابط ولا تستعمل لغيرهم من المسلمين .

(٢) تقصد المؤلفة (شرع وشرع الله) – المترجم – كلمات تظلم يستعملها البربر لرفع مظالمهم للباشا .

٦١– صيد – أسد .
٦٢– كيف – هكذا .
٦٣– لا – أداة للنفي .
٦٤– أي – نعم .
٦٥– فيسبي – صدقة – فيسبي يا للالة – صدقة يا سيدتي (١) .
٦٦– أراه – هذه اللحظة (هلا) .
٦٧– يسا – يكفي (بربرية) .
٦٨– هادايا – هذا يكفي .
٦٩ – صحابني – صديق عزيز (صديقي) .

---

(١) يعتقد المترجم ان المؤلفة تقصد في سبيل الله ٠

محتويات الكتاب

هذا الكتاب

صدرت الطبعة الأولى ١٨١٦ والثانية ١٨١٧ والثالثة ١٨١٩.
ترجم الى عدة لغات منها الفرنسية ١٨١٩ وطبع ثانية ١٩١٢ والهولندية. الكتاب دراسة إنتربولوجية - اجتماعية لأخلاق وتقاليد وعادات المجتمع الليبي بعربه وبربره واتراكه وبدوه وحضره بكل ما فيه من الأنماط المختلفة:

- الزواج والولادة والوفاة ودفن الموتى واقامة المآتم، والحريم، وسوق النخاسة، والمنازعات بين أفراد الأسرة الحاكمة...

الكتاب مصدر أساسي لدراسة الشمال الافريقي العربي في أواخر القرن الثامن عشر عامة وتاريخ الأسرة القرمانلية خاصة جعلت الآنسة توللي الإطار التاريخي أداة لإبراز المظاهر الأساسية للمجتمع الليبي من حيث علاقات العرب والبربر والأتراك والمسلمين والنصارى واليهود
المؤلفة كانت شاهد عيان لكل ما سجل قلمها من أحداث ووقائع.

دار ليبيا للنشر والتوزيع
بنغازي